محمد أبو زهرة

المعجزة الكبرى

القرآن

نزوله . كتابته . جمعه . إعجازه

جدله . علومه . تفسيره . حكم الغناء به

الناشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ، ماكثين فيه أبداً ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، مالهم به من علم ، ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذباً (١) » •

والصلاة والسلام على محمد الذى أرسل للعالمين بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليه الكتاب المبين حجة باقية شامخة الى يوم الدين • ورضى الله عن صحابته الأكرمين ، الذين بلغوا من بعده شريعة القرآن ، ومعه العدل والقسطاس المستقيم •

١ ــ أما بعد ، فقد اتجهت النفس متسامية الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أتعرف سيرته الطاهرة العطرة لأقتبس من نور هديه ، وأتنسم نسيم عرفه ، ولأشاهد ارهاصات النبوة ، بل الاعجاز فى حياته الأولى كما أيده الله تعالى بالمعجزات فى حياته الثانية بعد أن بعث رحمة للعالمين ، وقد تابعنا حياته عليه السلام الأولى ، ثم تسامينا الى متابعة حياته الثانية بعد أن نادى فى الجزيرة العربية بصوته القوى العميق يدعو الى التوحيد فى وسط الوثنية ، وهو يصبر ويصابر ، ويجاهد ويناضل ، ويلاقى الأذى ، والمؤمنون الصادقون الذين آمنوا معه يعذبون ، وقلوبهم مطمئنة بالايمان لا ينطقون بالكفر ، ولو مزق الأذى أجسامهم ، وطواغيت الشرك يتمنعون بالايذاء ، بينما أهل الايمان يرضون بالعذاب عن الكفران ، وقد أخذ النبى من بعد ذلك يعرض نفسه على القبائل ، تمهيدا لبناء دولة الاسلا[illegible]ـلة ، فى غير مكة ، وأخذ النور يسرى فى ظلمات الجاهلية، منبثقا من مكة ، وان لم يستضىء أهلها بنوره لعمى البصائر « وانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » •

---

(١) الكهف : ١ ــ ٥

والمعجزة الخالدة التى يتحدى بها قريشاً وسائر العرب هى « القرآن الكريم »، ورأينا من مساوقة الحوادث أن نتكلم فى هذه المعجزة الكبرى ، على أن يكون كلامنا فيها تبعياً وليس أصلياً ، وبالعرض ، لا بالذات .

٢ — ولكن ما ان قاربنا نوره ، حتى بهرنا ضياؤه ، واستغرق نفوسنا سناؤه ، وانتقلت نفوسنا الى الاتجاه اليه قاصدين ذاته أصلا ، لا تبعاً للسيرة ، ولو كانت سيرة من نزل عليه القرآن ، وخاطب فى ظله الأجيال ، سيدنا الهادى رسول الله رب العالمين .

وقد حاولنا أن نملأ نفوسنا من ينابيع الهداية فيه ، وأن نشفى أمراض قلوبنا بما فيه من دواء ، وأن نكشف الغمة بما فيه من حكم وعبر .

لذلك صار القرآن وعلم القرآن ، وكل ما يتعلق به هدفاً لنا مقصوداً ، وأملا منشوداً لا نبغى سواه ، ولا نطلب غيره .

فكان لزاماً علينا أن نخص كتاب الله ببحث ودراسة ، وأن نخرج من ذلك البحث كتاباً نرجو أن يكون قيما فى ذاته ، وان كان لا يعلو الى حيث يكون مناسباً لموضوعه ، فموضوعه أعلى من أن تتناهده همتنا ، وأن تتسامى اليه عزيمتنا ، لأنه كتاب الله تعالى ، وانى لضعيف مثلى أن يصل الى وصفه أو التعريف به ، انه فوق منال أعلى القوى ادراكا ، وأعظم النفوس اشراقاً .

(أ) وقد اتجهت ابتداء الى بيان نزول القرآن منجماً ، وحكمته مستمداً هذه الحكمة من نص القرآن ، وما أحاط بالتنزيل ووجوب حفظه فى الصدور ، ثم بينت أنه كتب فى حياة الرسول ، وأن النبى عليه السلام كان يملى الآية أو الآيات التى تنزل عليه على كتاب الوحى ، حتى اذا تم نزوله ، كانت كتابته قد تمت ، وقراءته بهذا الترتيب الذى نراه فى الآيات والسور ، قد كملت . وقد تكلمت من بعد ذلك فى جمع المكتوب فى عهد الصديقين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، ثم فى عهد ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه .

(ب) وقد اتجهت الى الحق فى وسط ما أثاره بعض العلماء من خلافات حول

أحرف القرآن الكريم ، وقراءاته ونزوله ، وقد أسرف بعض العلماء على أنفسهم وعلى الحق ، فأثاروا أقــوالا باطلة ما كان من المعقــول اثارتها ، حتى ان بعض المغرمين بالجمع ، ونقل الخلاف قالوا أموراً تخالف نص القرآن الكريم ، فيما ذكر من نزوله ، وتهافتت الأقوال ، حتى وجدنا الذين لا يرجون للاسلام وقارا ينعلقون بأقوال ذكرت لهؤلاء ، كقول بعضهم ان هناك رأياً يقول ان القرآن نزل على قلب النبى عليه الصلاة والسلام بالمعنى واللفظ للنبى ، ونسوا قوله تعالى معلماً للنبى عليه السلام القراءة والنطق بها : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه (١) » ، فان ذلك صريح فى أن القرآن نزل على النبى عليه السلام باللفظ والمعنى والقراءة ، وان ذلك عليه اجماع المسلمين ، والعلم به علم ضرورى ومن يخالفه يخرج من اطار الاســلام • وقد صرح القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذى رتل القرآن ، فقال تعالى « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة،كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا(٢)» •

(هـ) ونقد تكلمنا من بعد ذلك فى اعجاز القرآن ، وبينا وجوه الاعجاز ، ودفعنا القول بالصرفة دفعا ، ثم تكلمنا فى علم الكتاب ، وجدل القرآن ، وتفسير القرآن ، ومناهج التفسير ، وبينا التفسير بالأثر ، ومقامه من التفسير بالرأى ، وأن الرأى يجب ألا يناقض المــأثور ، وأن التفسير باللغة والأثر مفتاح التفسير بالرأى •

(د) وتكلمنا فى الغناء بالقرآن وتحريمه ، والتغنى الجائز المأثور ، وابطال ما سواه ، وسرنا فى طريق الحق الذى لاعوج فيه ، ولا أمت •

٣ ــ وانا نحمد الله تعالى على ما اختبرنا به أثناء كتابة ما كتبناه لقد اختبرنا الله تعالى فى أول كتابة ما كتبنا عن القرآن فانقطعنا عن الاتصال بالصحف السيارة• نخاطب المسلمين من فوق منبرها ، وقطعنا عن المجلات العلمية لوجه الفكر الاسلامى من طريقها ، ومن كل طرق الاعلام فلا نصل اليها ، وكان الهم الأكبر أن انقطعنا عن دروسنا ، وعن المحاضرات العامة •

---

(١) القيامة : ١٦ ــ ١٩

(١) الأنبياء : ٨٣

ولكن القرآن آنسنا فى وحدتنا ، وأزال غربتنا ، فكان العزاء النفسى والجلاء الروحى ، واختبرنا الله تعالى بالضر كما اختبر نبيه أيوب اذ قال « انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » (١) وانه وان صابه المرض فانه يختلف المقام فهذا نبى يوحى اليه ، ونحن من الأتباع ، ونرجو أن نكون من الأبرار فى اتباع النبيين ، لزمنا المرض المقعد نحو شهرين ، فكان ألم الابتعاد عن القرآن أكبر من ألم المرض الممض ، ولقد من الله تعالى بالشفاء ، فخرجنا من الداء العقام ، وما منعتنا وعثاء المرض فعدنا الى القرآن ، نقبس من نوره ، ونعبق من عرفه ، فهو أنس المستوحش ، وسمير المستغرب ، فآنسنا بعد طول الغياب . ومنحنا الله تعالى به العافية ، فوفقنا لأن نقطع كل ماأردنا عرضه فى مدة المرض ، وكأنا فى مجموع ما باينا فى طول المدة أصحاء فى أدائنا ، لأنه سلمت نفوسنا من السقام ، بفضل القرآن .

ابتلانا الله تعالى من بعد بهم واصب بأن أصاب بغتة حياتى كسر أقعدها وأقعدنى بالغم الشديد والكرب البعيد الأثر ، العميق فى النفس .

ولـكن أنس القرآن خفف همى ، وكشف غمى ، لأنه ملأها ايمانا بقضاء الله وقدره ، ووضع فى نفوسنا الصبر الجميل ، من غير أنين ولا ضجر ، ولـكن برضا لما أراد ، وهو اللطيف الخبير ، وهو الشافى فى المرض والجابر فى الكسر ، والمعين فى الشدة ، ولا رجاء فى غيره .

هذه أمور جرت لنا ، ونحن نكتب فى المعجزة الكبرى ، فما عوقت ، وما منعت ، وما أيئست .

اللهم احفظنا بالقرآن ، وآنسنا بنوره ، ووفقنا للقيام بحقه آحاداً وجماعات ، وانك وحدك القائم على كل شىء ، اللهم قنا شر نفوسنا ، واحفظ الأمة ، من فساد يعم ، وشر يطم ، اللهم انك عفو قدير فاعف عنا ، ولا تؤاخذنا بما تكسب أيدينا ، وارفع عنا المقت الذى حل بنا ، انك عوننا ، وأنت نعم المعين .

أول رمضان سنة ١٣٩٠ هـ

٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٠ م

محمد ابو زهرة

---

(١) الفرقان : ٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المعجزة الكبرى

تمهيد :

١ – يسير الكون على سنن قد سنت • ونظم قد أحكمت ، وارتباط بين الأسباب والمسببات العادية لا يتخلف ، وان تخلفت المسببات عن أسبابها وجدت الأمور منفكة عن علتها ، كالولد يولد من غير أب ، وكالحركة تجيء من جامد لا يتحرك كعصا ، ونار تنكفيء وقد أوقدت ، اذا كان ذلك الانقطاع بين الأسباب العادية وسبباتها • حكم العقل بأن الذى فعل ذلك فوق الأسباب العاديه ومسبباتها ، ولو ساير العقل منطقه الى أقصى مداه (وليس بعيدا فى حكم المنطق العقلى المستقيم الذى يصل الى المدى من أقربه) ، فانه لابد واصل الى أن الذى خرق العادات وخالف أسبابها ومسبباتها ، لابد أن يكون خالقها وموجدها • واذا كان القصور العقلى لا يصل الى هذه الغاية ، فانه لابد واصل الى أن خرق هذه العادات لابد أن يكون لغاية ، وانه اذا وجدت هذه الغاية وبينت مقاصدها ، وعلم أن ذلك الخرق لهذه الغاية تبين معه صدق ما يدعى ، وانه يعلم من وراء ذلك الخالق الحكيم ، المسيطر على كل شيء الذى يفعل ما يريد ، ولا يقيده نظام خلقه ، ولا عادات أوجدها •

لذلك كان الأمر الخارق للعادة حجة الصدق لمن يدعى أنه يتكلم عن الخالق الحكيم الفعال لما يريد ، لأنه لا يغير العادات سواه ، وان الصادق يعلن دعواه ، ويقيم ذلك برهانا عليها ، ويتحدى الناس أن يفعلوا مثلها ، ويسمى فى هذه الحال انه معجزة •

ولذلك عرفوها بأنها الأمر الخارق للعادة الذى يدعى به من جرى على يديه انه نبى من عند الله تعالى ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله ان كانوا صادقين •

وان المعجزة المادية تتحدى بنفسها مع ادعاء الرسالة ، فان النار لا تنطفيء من تلقاء نفسها، اذ يلقى فيها ابراهيم عليه السلام فتكون بردا وسلاما عليه ، فلا يحترق، وكالعصا الذى تتحرك وتتلوى كأنها ثعبان مبين وليست سحرا،

كما أدرك الساحرون ، وكانوا أول المؤمنين ، وكابراء عيسى للأكمه والأبرص باذن الله ، وكاحيائه الموتى باذن الله ، فما كان له أن يطلب منهم أن يأتوا بمثلها ، والقصور بين، والعجز واضح ، ومع ذلك فالتحدى قائم ، والعجز ثابت ، والحجة قائمة ، وكان عليهم أن يؤمنوا بالحق اذ جاءهم •

وهناك بجوار المعجزة المادية معجزة هى شىء قائم بذاته ثابت ، ولكن الاعجاز فيه أمر لا يدرك بالحس ولكن يدرك بالدراسة والفحص ، وقد يدعى بعض من لا يسبر غوره ، ويعرف أمره ، أنه يستطيع أن يأتى بمثله وما هو بمستطيع ، وأنه فى قدرته وليس بقادر ، وهو من غرور النفس أو ادعاء القدرة ، أو اللجاجة فى الأفكار ، والمباهتة المناهضة للحقائق •

وان ذلك يكون فى المعجزة التى تكون من نوع الكلام ، وهى معجزة القرآن الكريم فقد كان الغرور يوهم بعض المخاطبين به أن عندهم القدرة على الاتيان بمثله ، فكان لابد من كشف هذا الغرور، وازالة تلك الغشية الباطلة، ليتبين وضح الحق ، ولذلك طالبهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله ان كانوا صادقين فى مثل قوله تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين(١) » • وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وقرر سبحانه أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله ، فقال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٢) •

٢ — وهنا يسأل سائل : لماذا كانت معجزة ابراهيم نارا موقدة صارت بردا وسلاما، ومعجزة موسى عليه السلام كانت عصا صارت حية تسعى، وغيرها أيده الله به الى تسع أيات كلها كانت مادية حسية ، وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى باذن الله ، وانزال مائدة من السماء ، بل كانه كانت ولادته ذاتها معجزة حسية اذ ولد من غير أب ، وتكلم فى المهد صبيا ، اذ قال : « انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما

---

(١) البقرة : ٣٢ (٢) الاسراء : ٨٨

كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (١) .

لماذا كانت معجزات الأنبياء السابقة حسية على ذلك النحو ، ومعجزة محمد صلى الله عليه وسلم معنوية . فقد كانت بيانا يتلى ، وذكرا حكيما ، يحفظ فيه بيان الشرائع المحكمة الخالدة .

قبل أن نخوض فى الاجابة عن السؤال الوارد فى موضعه ، نقرر أن كون معجزة مادية حسية تبهر الأعين بادىء الرأى لا يدل على علو المنزلة ، أو عكسها ، ولكنها حكمة الله تعالى العليم بكل شىء ، القادر على كل شىء ، والله تعالى فضل بعض الرسل على بعض ، فمنهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، ولكن ليست الرفعة بكون الآيات مادية حسية ، بل بأمور قدرها الحكيم العليم الذى له وحده حق نوع التفضيل والرفعة .

ونعود بعد ذلك الى الاجابة عن السؤال الوارد ، فنقول : ان العلماء قالوا ان كل معجزة مناسبة للعصر الذى أرسل فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ تكون هادية ومرشدة ، وخرقها للعادات الجارية يكون أوضح ، ومناسبتها لرسالة النبى المبعوث يكون دليلا على كمالة الرسالة وعموم شمولها لكل الأزمنة .

وقد نخالفهم فى بعض ما ذكروا أو نوافقهم ، فنرى أن ابراهيم جاء فى قوم كانوا على مقربة من عبدة النار ، فكان فى اطفاء الله تعالى للنار من غير سبب ظاهر بيان لعجز النار التى تعبد .

ونوافقهم فى أن معجزات موسى عليه السلام كانت مناسبة لأهل مصر لأن السحر والكهانة كانا فيهم ، وقد كان للسحرة مكانة عندهم ، وبقية المعجزات كانت متعلقة بالزرع وآفاته ، وهم أهل زرع وضرع من أقدم العصور . كما قال تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك

---

(١) مريم : ٣٠ — ٣٣

بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون (١) » •
وهكذا كانت تسع آيات حسية مناسبة لأهل مصر ، وبنى اسرائيل ، فكانوا يقولون انه سحر • واقرأ قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم ، فقال فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض ، بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا » (٢) •

٣ — هذه معجزات ابراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام ، وهى مناسبة لزمنهما ، وكذلك معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت مناسبة لعصره ، لا لأن عصره شاع فيه علم الطب كما يقول بعض علماء الكلام ، لأن علم الطب لم يكن رائجا بين بنى اسرائيل ، فلم يكن بينهم علم أبقراط ، كما قرر رينان فى كتابه « حياة يسوع » بل ان معجزاته كانت من ذلك النوع لسبب آخر يجب أن نتلمسه من غضون التاريخ ، ومن حال بنى اسرائيل ، ذلك أن العصر كان عصرا ماديا يؤمن بالمادة ولا يؤمن بالغيب ، بل كان من اليهود من لا يؤمن باليوم الآخر ، وانك لترى أن التوراة التى بأيدينا ، وهى ميراثهم من التوراة التى حرفت ، تقرر أن نفس الانسان هى دمه •

وكان بجوار هذه الروح المادية التى سادت بنى اسرائيل استجابة لما هو سائد فى عصرهم الرومانى الذى كان يؤمن بالمادة ، كان بجوار هذا ايمان بالأسباب العادية والمسببات ، بحيث يعتقدون أنه لا يمكن أن ينفك السبب عن مسببه ، واللازم عن ملزومه ، فلا توجد نتائج من غير سبب عادى ، فلا واد من غير والد ، ولا حياة تكون بعد موت من يموت ، فلا يرتد حيا ، وقد عجزت الأسباب عن أن يرتد حيا من يموت ، وعجزت الأسباب عن أن يرتد بصيرا من يولد أعمى •

لقد سادت الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التى تقرر لزوم الأسباب العادية ، حتى لقد فرضوا أن الأشياء نشأت عن الخالق لها بقانون السببية ، فقالوا ان الكون نشأ عن المنشىء الأول نشوء المسبب عن سببه بلا ارادة مختارة

(١) الاعراف : ١٣٣ — ١٣٥ (٢) الاسراء : ١٠١ — ١٠٢

منشئة ، لقد قرروا أن قانون الأسباب هو الذى يحكم كل شىء •

لذلك كانت معجزات عيسى عليه السلام متضمنة الرد والتنبيه فى أمرين : أولهما بيان سلطان الروح ، فقد ظهرت الروح مسيطرة موجهة مرشدة فى أنه كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، وفى أنه عليه السلام أحيا الموتى باذن الله ، وأخرجهم من قبورهم باذن الله ، وأنزل عليهم مائدة من السماء باذن الله تعالى •

وثانيهما أنه كانت معجزاته عليه السلام هادمة لارتباط الأسباب العادية بمسبباتها ، لقد ولد من غير أب ، والأسباب العادية تقرر أنه لا مولود من غير والد ، وتكلم فى المهد صبيا ، وذلك غير المقرر فى الأسباب والمسببات ، وأخبر عن بعض المغيب عنه ، وذلك غير الأسباب العادية التى توجب المعاينة فى صدق الأخبار ، وأحيا الموتى باذن الله ، وذلك ما لا يتحقق فى الأسباب العادية •

وهكذا نجد معجزات عيسى عليه السلام ورسالته كانت ايقاظا شديدا لعصره ، وتنبيها لمكان الروح وسلطانها ، وبيانا لقدرة الله تعالى ، وأنه الفعال لما يريد ، فكانت رسالته ومعجزاته مناسبة لعصره •

معجزة القرآن وعيسى

وكل معجزات الأنبياء : ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، سواء أكانت مادية فى كونها ، أم كانت متضمنة معانى روحية ، كانت من النوع الذى يحس بالرؤية • ويكون من بعدها التأمل ، وليس من النوع الذى يكون بالتأمل ، ولا يدرك الا بالتأمل ، وان كان قائما ثابتا فى الوجود من غير ريب ، وكانت حوادث تقع ولا تبقى ، ولا يبقى منها الا الاخبار بها ، فلا يعرفها على اليقين الا من عاينها •

٤ — ولكن معجزة محمد عليه الصلاة والسلام كانت من نوع آخر لم تكن حادثة تقع وتزول من غير بقاء لها الا بالخبر ، بل كانت قائمة تخاطب الاجيال ، يراها ويقرؤها الناس فى كل عصر ، ونقول انها مناسبة لرسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، لعمومها فى الأجيال ، ولمكانته بين الرسل ، ومقامه فى هذا الوجود الانسانى الى يوم القيامة •

ان معجزات الأنبياء السابقين لا يعلم وقوعهـا على وجه اليقين الا من القرآن ، فهو الذى سجل معجزات نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ولولا أنه سجلها ما علمها الناس • واذا كانت بعض الكتب القائمة اليوم ذكرت بعضها ، فقد ذكرته مشوبا بأمور غير صادقة ، كاخبارهم بأن لوطا كان مخمورا فوقع على ابنتيه ، وما يكتب فيه مثل هذا عن بعض النبيين لا يمكن أن يكون مقبول الخبر عن سائرهم ومعجزاتهم •

ونقول : ان معجزة محمد عليه الصلاة والسلام كانت القرآن ، لقد أجرى الله تعالى على يديه خوارق عادات أخرى مثل اخبار عن بعض ما يغيب عن حسه ، ومثل حنين الجذع اليه ، ومثل بكاء الناقة عنده ، ومثل الاسراء والمعراج ، ولكن لم يتحد الا بالقرآن الكريم ، ولم ير المشركون صرحا شامخا يتحداهم به سوى القرآن الكريم •

ولماذا كانت معجزة محمد عليه الصلاة والسلام القرآن ، وما كان يرجو الاتباع الا به • ولقد روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما من نبى الا أوتى ما مثله آمن به البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحى به الى ، وانى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» •ومن هذا يتبين جواب ذلك السؤال،وهذا لأن رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خالدة ، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبيين ، ولا نبى بعده ، فيجب أن تكون معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التى لا يحدها زمان فى المستقبل ، بل تبقى الى يوم القيامة ولا تكون معجزته واقعة تنقضى ، وتنتهى بانتهاء الزمن الذى وجده فيه ، بل تبقى الحجة ما بقيت الشريعة ، وذلك محقق فى القرآن ، فهو حجة قائمة على العرب والعجم الى يوم الدين ، وهو معجزة لكم الخلائق ، وذلك ما نتصدى لبعضه ، والله هو المعين •

الباب الأول

المعجزة الخـالدة

٥ — تلك المعجزة الخالدة هي القرآن الذى يتحدى الأجيال كلهـا أن يأتوا بمثله ، ولو اجتمعت الجن والانس على ان يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى محكم التنزيل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . هو حجة الله على خلقه ، وحجة النبى فى رسالته ، وسجل الشريعة المحـكم فى بيانه ، وهو المرجع عند الاختلاف والحكم العـدل عند الافتراق ، وهو الطريق المستقيم المرشد عند الاعوجاج ، من سلـكه وصل ، ومن لجأ اليه اهتدى .

روى الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنـه وكرم وجهـه فى الجنة ، أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتـاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلـكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا : « انا سمعنا قرآنا عجبـا يهدى الى الرشد » من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم ، خذها اليك يا أعور » .

وقد رواه الحارث الهمذانى برواية الترمـذى ، وقد حسن رواية الحارث كثيرون من المحدثين ، منهم الفقيه المحدث ابن عبد البر ، وان الذين اتهموا حارثا فيهم نزعة أموية ، ومنهم الشعبى . وقد قال فيه ابن عبد البر : « أظن الشعبى عوقب لقول فى الحارث الهمذانى » « حدثنى الحارث وكان أحد الـكذابين » .

وأنه فى معنى هذا الحـديث ما روى عن عبد الله بن مسـعود رضى الله تعالى عنه ، اذ جاء أنه فيما روى عنه « ان هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا

من مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القران هو حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، فاتلوه فان الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات » .

وان هذه الأخبار ومثلها كثير تدل على منزلة القرآن فى الاسلام ، وأنه العصمة من الزيغ ، وأنه المرجع المتبع ، وأنه يشتمل على شرائع الاسلام كلها ، وأنه بذلك هو الحكم بين الناس الذى لا يضل حكمه ، وأن من تركه من جبار قصم الله تعالى ظهره ، وأنه لا تتشعب الآراء فى حقيقته اذا استقامت الأفهام ، ولم تضل المدارك .

والعلماء يجدون فيه المعين الذى لا ينضب ، والثروة الاسلامية التى لا تنفد ، فيه حكم الأمور كلها ، ما وقع وما لم يقع ، وأن كل ما فيه حق ، وأنه مصلحة الدنيا والأخرى ، ما من خبر الا له فى القرآن أصل معتمد ، ونص يمكن الحمل عليه ، فما ترك الله الانسان سدى . وقد قال تعالى وقوله الحق : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » . وفيه عبر الماضين وأخبار كل النبيين ، فهو كتاب الله الكامل ، فيه معانى كل الكتب المنزلة على الرسل ، وفيه أخبار أولئك الرسل مع أقوامهم ، وفيه المثلات المرشدة ، والعظات الموجهة ، وفيه أعلى الآداب الانسانية وأقوم السلوك الكامل للخلق أجمعين ، وفيه تعليم الانسان الاتجاه الى الكون وتعرف ما فيه ، والأخذ بالعلم من قوادمه وخوافيه ، وفيه الدعوة الى العلم بكل ضروبه : علم الانسان ، وعلم النفس ، وعلم الكون ، والى العلم بالنجوم فى مسالكها ، والسموات فى أفلاكها ، والأرض فى طبقاتها ، فيه الدعوة الى العلم بما لم يعلم ، وطلب فى كل مدارته .

خاطب الله تعالى به أولياءه فعرفوه ، وأصحاب العقول المستقيمة فأدركوه ، وكان حقا كما قال تعالى : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا » ذلك هو كتاب الله تعالى بما حمل من معان وتكليف ، وما كساه الله تعالى به من روعة وتشريف ، وهو كما وصفه الله تعالى بقوله : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » .

نزول القرآن

٦ — من وقت أن من الله تعالى على الانسانية بالبعث المحمدى ابتدأ نزول القرآن ، فأول آية نزلت كانت الخطاب من الله تعالى بالتكليف الذى كلفه تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بحمل الرسالة الى خلقه ، فقد نزلت أول آية ، وهى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم (١) » . فكان هذا ايذانا بأن دين العلم قد وجب تبليغه ، وأن كتاب العلم قد ثبت تنزيله ، وأن اعلاء شأن الفكر قد جاء به خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وفيه ايماء الى أن الاسلام والعلم يجتمعان ، ولا يتناقضان أبدا .

توالى نزول القرآن منجما فى مدة الرسالة المحمدية التى استمرت ثلاثا وعشرين سنة يدعو فيها بالحق ، والى صراط مستقيم ، ينير السبيل ، ويهدى للتى هى أقوم .

فكانت الآيات القرآنية تنزل وقتا بعد آخر ، وكان التحدى بما نزل وان لم يكن ما نزل كل القرآن ، لأن كل جزء منه ينطبق عليه اسم الكتاب ، بل القرآن ، اذ أن التحدى يقع به ، والمعجزة تتحقق فيه ، فقد تحدى أهل مكة أن يأتوا بمثله ، ولم يكن قد نزل كله ، فقد قال تعالى فى سورة يونس ، وهى مكية : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون (٢) » وجاء التحدى فى هذه السورة أيضا فقال تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا

---

(١) العلق : ١ — ٥

من استطعتم من دون الله ان كنتم صادمين (١) » • وجاء فى سورة هود ، وهى مكيه : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سورة مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (٢) •

ومن هذا كله يتبين أن بعض القرآن قرآن يتحدى فيه ، فهو الكتاب الكامل فى كله ، والكامل فى جزئه ، وهو معجز فى أجزائه ، كما هو معجز فى ذاته وان شئت فقل انه معجزات متضافرة ، واذا كان لموسى تسع آيات بينات فلمحمد مئات من المعجزات البينات •

حكمة نزوله منجما

٧ — وقد يسأل سائل لماذا نزل القرآن منجماً ، ولم ينزل دفعه واحدة ، كما نزلت الألواح العشر على موسى عليه السلام ، وكما نزل الزبور على داوود؟ وان مثل هذا السؤال جاء على ألسنة المشركين معترضين ، متخذين منه سبيلا للجاجتهم ، وقد نقل القرآن الكريم عنهم ذلك ورده ، فقد قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » (٣) •

ونرى أن النص الكريم قد نقل اعتراض المشركين ، ورده سبحانه وتعالى عليهم ، وقد تضمن الرد ثلاثة أمور تومىء الى السبب فى نزوله منجما :

أولها : تثبيت فؤاد الرسول بموالاة الوحى بالقرآن فان موالاته فيها أنس للنبى عليه الصلاة والسلام ، وتثبيت لعزيمته ، وتأييد مستمر له فيقوم بحق الدعوة بالجهاد فى سبيلها ، واذا كان المرء يستأنس بوليه اذا والى الاتصال به فكيف لا يستأنس رسول الله تعالى بلقاء الروح الأمين الذى يجيئه بكلام رب العالمين ، فى موالاة مستمرة •

---

(١) يونس : ١٦ ، ١٧

(٢) هود : ١٣

(١) يونس : ٣٧ ، ٣٨

(٣) الفرقان : ٣٢

ثانيها : أن تثبيت الفؤاد بنزول القرآن يكون بحفظ ما ينزل عليه جزءا جزءا ، ذلك أن هذا القرآن نزل ليحفظ فى الأجيال كلها جيلا بعد جيل ، وما يحفظ فى الصدور لا يعتريه التغيير ولا التبديل ، وما يكتب فى السطور قد يعتريه المحو والاثبات والتحريف والتصحيف . ولأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ ، كان يحفظ جزءا جزءا ، وكان ينزل مجزءا ليسهل ذلك الحفظ ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يحفظه عند نزوله ، فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجل حفظه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه فى ذلك : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه(١) » وترى من هذا النص حرص النبى صلى الله عليه وسلم على أن يحفظ ما يوحى اليه، فيحرك به لسانه ، مستعجلا الحفظ فينبهه الله تعالى الى أنه يتولى جمعه واقراءه له ، وأنه مبينه ، وحافظه ، كما قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٢)

الأمر الثالث : هو ترتيل القرآن ، بتعليم تلاوته وان هذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريق ترتيله هى من تعليم الله تعالى ، اذ أنه سبحانه وتعالى ينسب الترتيل اليه تعالت قدرته وكلماته ، وعظم بيانه ، فنحن بقراءتنا وترتيلنا ان أحكمناه ، انما نتبع ما علم الله تعالى نبيه من ترتيل محكم ، جاء به التنزيل ، وأمر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى : ـ « ورتل القرآن ترتيلا(٣) » وما كان تعليم هذا الترتيل المنزل من عند الله تعالى ليتوافر اذا لم ينزل القرآن منجما ، فلو نزل جملة واحدة ما تمكن النبى عليه السلام من تعلم الترتيل ، ولو علمه الله تعالى بغير تنجيمه ما كان فى الامكان أن يعلمه قومه وهم حملته الى الأجيال من بعده .

هذا ما يستفاد من النص الكريم المتلو ، وعبارته السامية فيه واضحة بينة تشرق بمعانيه العالية الهادية الموجهة المرشدة .

وهناك سبب آخر لنزول القرآن منجما نلمسه من حال العرب ، ومن

---

(١) القيامة : ١٦ ـ ١٩ (٢) الحجر : ٩ (٣) الزمل : ٤

شئونهم ، ذلك أن العرب كانوا أمة أمية ، والكتابة فيهم ليست رائجة ، بل يندر فيهم من يعرفها ، وأندر منه من يتقنها ، فمما كان فى استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله اذا نزل جملة واحدة ، اذ يكون بسوره وآياته عسيرا عليهم أن يكتبوه ، وان كتبوه لا يعدموا الخطأ والتصحيف والتحريف .

ولقد كان من فائدة انزال القرآن منجما أنه كان ينزل لمناسبات ولأحداث فيكون فى هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه والمبين الأول هو النبى صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم (١)» .

المكى والمدنى

٨ — كان نزول القرآن منجما ، سببا فى أن بعضه نزل بمكة وبعضه نزله بالمدينة ، فكان منه المكى ومنه المدنى ، فالمكى مانزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة ، فما نزل بعد الهجرة ، ولو بمكة يسمى مدنيا ، وما نزل قبل الهجرة يسمى مكيا . فالتقسيم زمانى ، وليس بمكانى ، ليست العبرة بمكان النزول ، وانما العبرة بزمانه .

والآيات المكية فيها بيان العقيدة الاسلامية ، وبطلان عبادة الأوثان ، ومجادلة المشركين والدعوة الى التوحيد ، ومخاطبة العرب ، وفيها قصص الأنبياء الذين جاءوا الى بلاد العرب ولهم آثار فى أجزائها تنادى بما صنع أقوامهم ، وما أصابهم الله تعالى بكفرهم من حاصب ، ومن خسف جعل عالى ديارهم سافلها ، ومن ريح صرصر عاتية .

ولم يكن فى الآيات المكية أحكام للمعاملات ، وان كان فيها اشارات الى المحرمات كالخمر والربا فقد قال تعالى مشيرا الى أن الخمر أمر غير حسن : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون » (٢) . فان هذا النص الكريم يشير الى أن الخمور ليست أمرا حسنا ، لأنه سبحانه وتعالى جعلها مقابلة للأمر الحسن ، ولا يقابل الحسن الا

---

(١) النحل : ٤٤ .

(١) النحل : ٦٧ .

القبيح ، أو على الأقل الأمر غير الحسن .

ولقد جاء أيضا فى سورة الروم ما يشير الى أن الربا أمر غير مستحسن فقد قال تعالى فى سورة الروم : « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون (١) » .

وان عدم وجود أحكام للمعاملات فى مكة سببه أن الدولة التى كانت قائمة كانت دولة شرك ، وان من المستحيل أن تنفذ أحكام المعاملات الاسلامية فى ظلها ، وكان الاتجاه الأول الى اخراجها من الشرك وادخالها فى التوحيد أولا ، ثم من بعد ذلك تكون الدولة الاسلامية المنفذة ، ولكن المحرمات كانت ثابتة من أول تشريع الاسلام ، وان كان مسكوتا عنها . فلم تكن موضع اباحة ، بل كانت موضع سكوت وعفو حتى ينزل التشريع بتحريمها تحريما قاطعا ، فما كانت الخمر مباحة ، ولكن كان مسكوتا عليها ، أو كانت فى مرتبة العفو كما يقول علماء الأصول ، حتى اذا كان المنع الصريح فى المدينة ، كان معه العقاب ، وهكذا كل ما كان مسكوتا عنه لم يكن موضع اباحة .

ولما انتقل النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة كان التنظيم الكامل للمعاملات لأنه وجد دولة اسلامية فاضلة ، تنظم العلاقات بين الناس ، وتقوم على تنفيذها ، والقضاء بها ، فنظم التعامل وابتدأ بأعلى أنواع التعاون بين الناس وهو الاخاء الذى آخى فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، والأنصار بعضهم مع بعض ، والمهاجرين بعضهم مع بعض ، وشرعت النظم الاجتماعية ، والمعاملات الانسانية .. من أحكام للبيوع والمزارعات ، وتحريم للربويات وغيرها ، وفرضية الصدقات وتنظيمها ، واعطاء الفقير حقه ، والتنظيم الاجتماعى الكامل ، وشرعت الزواجر الاجتماعية من حدود وقصاص . وسنت الأحكام الفاصلة بين الحقوق ، وفتح باب الجهاد ، ووضعت نظم الحرب ، وقامت العلاقات الدولية على أسس متينة محكمة ، يراعى فيها حق العدو ، كما يلاحظ حق الولى على سواء ، لأن المبادىء المدنية فى الاسلام قامت على اعطاء

---

(١) الروم : ٣٨

كل ذى حق حقه من غير بخس ولا شطط ، ولا مجاوزة للحد ولا اعتداء .

ويلاحظ أن مبادىء العدالة جاءت مع وجود الشريعة الاسلامية ، وقد دعا اليها القرآن الكريم فى مكة والمدينة ، لأن العدالة حق ابتدائى لا يختلف فى دولة عن دولة ، فهو يتعلق بالنفس الانسانية فى ذاتها .

فالأمر بالعدالة والاحسان والوفاء بالعهد جاء فى سورة النحل ، وهى مكية عند نظر الأكثرين ، لأن الله تعالى يقول فيها وهو أحكم القائلين : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ، وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة » (١) .

ولقد أحصى القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن السور المدنية ، فقال : « عن قتادة نزل بالمدينة من القرآن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد ، والمجادلة والحشر ، والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويأيها النبي لم تحرم الى رأس العشر واذا زلزلت واذا جاء نصر الله — هذه السور نزلت بالمدينة . وسائر القرآن نزل بمكة .

ويلاحظ أنه جعل سورة النحل من الصور المدنية . ولكن المذكور فى المصاحف التى بين أيدينا أنها مكية ، ولعل فيها روايتين .

كتابة القرآن وجمعه

٩ — منذ ابتدأ نزول القرآن الكريم على الرسول الأمين ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحفظه ، ويأمر من حوله ممن يحسنون الكتابة أن يكتبوه ، وقد سمى أولئك الذين كتبوا القرآن بكتاب الوحى ، ومنهم عبد الله بن مسعود ،

---

(١) النحل : ٩٠ — ٩٢

وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم كثير ممن كانوا يحضرون الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غب نزول الوحى بالقرآن عليه ، فيملى عليهم ما نزل ، ويعملن ما حفظه فيحفظه الكثيرون من الصحابة ، وخصوصا من كانوا له عليه الصلاة والسلام ملازمين ، وعلى مقربة منه صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكان نزول القرآن على غير الترتيب الذي نقرؤه الآن فى السور الكريمة، بل كان ذلك الترتيب من بعد النزول بعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوحى من الله تعالى ، فكان يقول عليه الصلاة والسلام ضعوا آية كذا فى موضع كذا من سورة كذا ، فتكون بجوارها متسقة متلاحقة المعنى مترابطة متناسقة اللفظ، تلتقى بها كأنها لقف معها ، وكأنهما كلام واحد قيل فى زمن واحد ، أحدهما لاحق، والآخر سابق ، وكأن المتكلم قالهما فى نفس واحد ، من غير زمن بينهما يتراخى، أو يتباعد ، وذلك من سر الاعجاز ، ولا غرابة فى ذلك ، لأن القائل واحد ، وهو الله سبحانه وتعالى العليم الخبير الذى لا تجرى عليه الأزمان ولا يحد قوله بالأوقات والأزمان لأنه هو خالق الأزمان والمحيط بكل شىء علما .

ولذلك كان ترتيب القرآن الكريم فى كل سورة بتنزيل من الله تعالى .

وكان من الصحابة من يحفظه كله ، فكان عبد الله بن مسعود يحفظ المكى، ويحفظ المدنى ، ولكن الرواة قالوا انه عرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المكى فقط ، وكذلك جمع أبى المدنى ، وقالوا انه عرض على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما جمعه بعد الهجرة وأكبر العرض هو عرض زيد بن ثابت رضى الله تبارك وتعالى عنه ، فقد كان سنة وفاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد كان بعد أن قرأ الرسول الأمين على روح القدس جبريل القرآن مرتبا ذلك الترتيب الموحى به الذى نقرأ به القرآن الكريم .

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل الى الرفيق الأعلى الا وقد جمع القرآن فى صدره طائفة من الصحابة ، قيل ان عددهم مائة أو يزيدون ، ونحن نرى أنهم كانوا أكثر من ذلك عددا ، فانه قتل من القراء فى احدى مواقع الردة عدد يزيد على السبعين ، وقيل على سبعمائة ، وربما كان الآخر أدق ، فاذا كان ذلك

العدد مقتولا فالباقى بحمد الله تعالى أكثر ، وان كان قتل سبعين قد هال المؤمن الثاقب النظر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وجزاه عن الاسلام خيرا .

واذا كان بعض الكاتبين ذكر أن الحفاظ للقرآن الصحابة أربعة هم : على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، فذلك ليس من قبيل الاحصاء ولا من قبيل التعيين العددى فان العدد أكبر من ذلك .

والأمر الآخر الذى يجب التنبيه اليه هو أن القرآن كله كان مكتوبا عند الصحابة ، واذا كان لم يكن كله مكتوبا عند بعضهم ، أو عند واحد منهم بعينه ، فان ذلك لم يكن منفيا عن جميعهم ، فهو مكتوب كله عند جميعهم ، وما ينقص من عند واحد يكمله ما عند الآخرين .. وهكذا تضافروا جميعا على نقله مكتوبا ، وان تقاصر بعضهم عن كتابته كمل الآخر ، وكان الكمال النقلى جماعيا وليس آحاديا .

وقد يسأل سائل : لماذا كان الجامعون له فى الصدور كثيرين ، وقد حفظوه كاملا غير منقوص ، ولم يوجد من جمعه فى السطور جمعا كاملا ؟

ونجيب عن ذلك بجوابين .. أحدهما من واقع حياة العرب ، فقد كانوا أميين ، والمجيد منهم للكتابة قليل ، وأدوات الكتابة غير موفورة ، وما يكتب عليه غير معد لها ، فكانوا يكتبون على الأديم ، وعلى لخاف الأحجار ، وعلى العسب ، وغير ذلك مما لا يعد للكتابة ، فكان الغريب أن تكون كتابة ، فضلا عن أن تكون كتابة كاملة للقرآن عند الواحد من الصحابة ، وكتابته كاملة عند الجميع كانت بتوفيق الله تعالى ومن عنايته بكتابه الكريم .

والجواب الثانى : أن ذلك من عمل الله تعالى ، لأن الله تعالى العليم الحكيم جعل حفظ القرآن الكريم فى الصدور ابتداء وانتهاء ، وفى السطور احتياطا ولتكون كتابته من بعد ذلك صحيحة من كل وجوهها ، لا يعتريها تصحيف ولا تحريف ، وان تواتر القرآن الكريم عن رسول الله يكون كما تلقاه عن ربه العليم الحكيم ، والتواتر يكون بالتلقي فى الصدور لا فى السطور ، ولا يكون تواتر

فى مكتوب الا اذا قرىء المكتوب على من أخذ عنه وأجازه . فالمكتوب يحتاج فى نقله الى الاجازة القولية ، والاجازة القولية لا تحتاج الى كتابة الا بمقدار تسجيل الاجازة .

* * *

ترك محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدنيا والأمة على بينة من أمر القرآن ، قد استحفظوه وحفظوه وكتبوه ، وحمله رسول الحقيقة أمانة الخليقة ، وهو القرآن الحكم فى هذا الوجود الانسانى ، فماذا كان من بعده ؟

جمع القرآن الكريم بعد الرسول

١٠ — انتقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وقد حفظ عدد كبير من الصحابة يبلغ حد التواتر القرآن كله كاملا غير منقوص ، لم يتركوا منه كلمة الا حفظوها ، وعلموا أين نزلت ومتى نزلت ، وعلموا معناها من صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، حتى انه ليروى عن عثمان بن عفان أنه كان يقول كما تسلموها ، فكان حرصهم عليها أشد من حرصهم على أنفسهم ، لأنهم فانون فيبينها لنا .

ترك الرسول لصحابته القرآن ، وهو أعظم ثروة انسانية مثرية فى هذا الوجود ، وقد أدركوا حق الأمانة وأنهم حاملوها الى الأخلاف من بعدهم كاملة ، كما تسلموها ، فكان حرصهم عليها أشد من حرصهم على أنفسهم ، لأنهم فانون وهى الباقية ، وهى تراث النبوة ، وسجل الرسالات الالهية .. لذلك كانوا يحافظون عليها ، وعلى الذين حملوها فى صدورهم .

ولقد هال عمر بن الخطاب أنه قد استحر القتال بين المؤمنين الأولين (وكثير منهم من حفظة القرآن الكريم) ، وبين أهل الردة فى موقعة اليمامة وقتل منهم فيما قيل سبعمائة كما جاء فى الجامع الكبير للقرطبى ، فأشار عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه على أبى بكر بجمع القرآن ، مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبى وابن مسعود وزيد ، فندبا زيد بن ثابت الى ذلك فجمعه بعد تعب شديد » .

روى البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل الى أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، وعنده عمر ، فقال أبو بكر : ان عمر أتانى فقال ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها ، فيذهب كثير من القرآن الا أن تجمعوه ، وانى لأرى أن يجمع القرآن .. قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : انك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟! فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح اه صدر أبى بكر وعمر » .

اختار أبو بكر — كما ترى فى رواية البخارى ورواية غيره من أصحاب الصحاح — زيدا ليقوم مع من يستعين به من حفظة القرآن ، وكان اختياره لزيد لأسباب جمة .. أولها : ما اشتهر به بين الصحابة من العلم والفقه ، وثانيها : لأنه من كتبة الوحى الملازمين ، لا الذين كتبوا مرة أو مرتين ، وأخذوا لقب كاتب الوحى شرفا ، وثالثها : أنه ممن حفظوا القرآن وجمعوه فى صدورهم ، فكان حقيقا أن يجمعه مسطورا بعد أن جمعه محفوظا ، ورابعها : أنه عرض القرآن على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى السنة التى انتقل فيها النبى عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى كما قدمنا .

١١ — حمل زيد ما هو أشد حملا من الجبال ، لأنه يحمل أثقل موازين الهداية فى هذا الوجود الانسانى ، وهو وديعة الله تعالى الى الوجود الانسانى الى أن تزول السموات والأرض .

وما كان لمن يحمل مثل هذا الحمل أن ينفرد بالعبء ، فقد استعان بالحفظة الكرام من صحابة النبى الأعلام ، وسلك فى سبيل الجمع الخطة المثلى ، فما كان ليعتمد على حفظه ، وأنه لحافظ ، ولا على حفظ من استعان بهم ، وأنهم لحفاظ

أمناء .. ولـكنه كان لابد أن يعتمد على أمر مادى ، يرى بالحس لا يحفظ بالقلب وحده ، فكان لابد أن يرى ما حفظه مكتوبا فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يشهد شـاهدان بأنهما هكذا رأوا ذلك المـكتوب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وباملائه عليه الصلاة والسلام،وقد تتبع القرآن بذلك آية آية ، لا يكتب الا ما رآه مكتوبا عن النبى عليه السلام فى عهده ، ويشهد شاهدان أنهما هكذا رأيا ذلك المـكتوب فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونقلاه ، أو يرى ذلك المـكتوب عند اثنين ، فهو شهادة كاملة منهما ، وقد حصـل على القرآن كله مكتوبا بنصاب الشهادة فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ، فما كان الا أن نقل المـكتوب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولـكنه وجد آيتين لم يشهد اثنان بأنهما كتبتا فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل شهد واحد فقط ، وهو خزيمة بن ثابت الأنصارى ، وهو قوله تعالى : « لقـد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليـه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .. لم يجدها الا عند خزيمة ، وقد قال له النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم تكريما له : شهادتك باثنين .

وروى أنه لم يجد آية أخرى الا عند خزيمة ، وهى قوله تعالى : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليـه ، فمنهم من قضى نحبـه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

هذا هو المسلك الذى سلكه المؤمن الحافظ الذى اختاره أبو بكر لحمل التبعة مع من اختار ، ولنترك الكلمة له ـ أى لزيد ـ فهـو يشير الى ما سـلكه ، فهو يقول فيما رواه البخارى : « قمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتـاف والعسف وصدور الرجال ، حتى وجدت آيتين من سـورة التوبة مـع خزيمـة الأنصارى ، لم أجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » والآية الأخرى التى لم يجدها الا عند خزيمة أيضـا جاء فيها عنه فى رواية البخارى أيضـا : وعن زيد بن ثابت لـمـا نسختا فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد مع خزيمـة

الأنصارى الذى جعل الله تعالى شهادته بشهادة رجلين : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (١) » ، وقد علق على ذلك القرطبى فكانت الأولى من سورة براءة فى الجمع الأول على ما قاله البخارى والترمذى ، وفى الجمع الثانى فقدت آية من سورة الأحزاب » .

وهذا يدل على أن الجمع الثانى اتبع فيه ما اتبع فى الجمع الأول بالبحث عن الآيات مكتوبة فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يشهد اثنان بكتابتها فى عصره ، أو توجد عند اثنين ، فوجودها عندهما شهادتان ، والجمع الثانى كان فى عهد عثمان .

ولكن قد يسأل سائل : لماذا كان نصاب الشهادة كاملا فى الجمع الذى حدث فى عهد أبى بكر ، ثم لم يوجد النصاب فى بعض الآى عند الجمع الثانى ؟

نقول : ان فرض ذلك يتحقق بغياب أحد ركنى النصاب عن المدينة ، أو موته ، ولكن الله تعالى حافظ كتابه فى هذا الوجود كوعده بحفظه ، وانه منجز ما وعد : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون (٢) » .. ولذلك كان الشاهد فى الثانى هو الشاهد فى الأول ، وهو خزيمة الأنصارى الذى جعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شهادته باثنين ، فالنصاب كان كاملا .

١٢ — ولا نترك الكلام فى هذا العمل الجليل الذى اشترك فيه أبو بكر وعمر ، وحمل عبئه زيد بن ثابت مع جمع من المهاجرين والأنصار .. من غير أن نقرر حقيقتين ثابتتين ، تدلان على اجماع الأمة كلها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل ، وأنه مصون بصيانة الله سبحانه وتعالى له ، ومحفوظ بحفظه ، والهام المؤمنين بالقيام عليه وحياطته .

الأولى : أن عمل زيد رضى الله عنه لم يكن كتابة مبتدأة ، ولكنه اعادة لمكتوب ، فقد كتب كله فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعمل زيد الابتدائى هو البحث عن الرقاع والعظام التى كان قد كتب عليها والتأكد من سلامتها ، بأمرين : بشهادة اثنين على الرقعة التى توجد فيها الآية أو الآيتان

---

(١) الاحزاب : ٢٣

(٢) الحجر : ٩

أو الآيات ، وبحفظ زيد نفسه ، وبالحافظين من الصحابة ، وقد كانوا الجم الغفير والعدد الكبير ، فما كان لأحد أن يقول ان زيدا كتب من غير أصل مادي قائم ، بل انه أخذ من أصل قائم ثابت مادي •

وبذلك نقرر أن ما كتبه زيد هو تماما ما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ليس كتابة زيد ، بل هو ما كتب فى عصره عليه الصلاة والسلام ، وما أملاه ، وما حفظه الروح القدس •

واذا كان ما كتبه عثمان من بعد ذلك قد قوبل بما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالمصحف العثمانى الذى بقى بخطه الى اليوم هو مطابق تمام المطابقة لما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه يجب ألا يخرج عنه قارىء فى قراءة بزيادة حرف أو نقص ، قد تكون القراءات متغيرة فى أصوات المقروء وأشكال النطق ، ولكن لا يمكن أن تكون متغيرة بزيادة أو نقص ، فذلك هو الخروج عن الرسم الذى وضع فى عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم باقراره عليه الصلاة والسلام •

الأمر الثانى : أن عمل زيد لم يكن عملا آحاديا ، بل كان عملا جماعيا من مشيخة صحابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك أن زيدا بطبيعة عمله أعلن بين الناس ما يريد ، ليأتيه كل من عنده من القرآن ما هو مكتوب بما عنده ، وقد علموا مقدار ما ينبغى لكتاب الله من عناية ، فذهبوا اليه وذهب اليهم ، وتضافر معه من كانوا يعاونونه غير مدخرين جهدا الا بذلوه فى عناية المؤمن بكتاب الله تعالى الذى يؤمن به •

ولما أتم زيد ما كتب ، تذاكره الناس ، وتعرفوه وأقروه ، فكان المكتوب متواترا بالكتابة ومتواترا بالحفظ فى الصدور ، وما تم هذا لكتاب فى الوجود غير القرآن • ولا يهمنا أن يقر ذلك المعاندون أم لا يقروه ، فذلك ايماننا ، والحجة القاطعة لا يضيرها ارتياب فى غير موضعه ، بل الحقائق ناصعة ، والبيانات قائمة ثابتة ، وهى فى حكم البدهيات القاطعة ، ومن يرتاب فى أمر عقلى لا ريب فيه ، فهو يضل نفسه ولا يضر غيره ، والحق أبلج والباطل لجلج ، اذن فلا عجب فى أمر المعاندين الضالين •

انما العجب كل العجب فى أمر الذين يضلون فى طلب الحق ، فيتيهون فى ظلمات الروايات المدسوسة المكذوبة ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

جمع القرآن فى عهد عثمان أو الأحرف السبع

١٣ — جمع القرآن كله فى عهد الشيخين أبو بكر وعمر ، وقد أودعه عمر حفصة أم المؤمنين ، ليكون مصونا يرجع اليه لا ليتلى منه ، فالتلاوة استمرت كما كانت فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تتلقى من أفواه الرجال مرتلة ، كما تلقوها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليبقى القرآن محفوظا فى صدور المؤمنين بنصه وتلاوته .

وان النص المكتوب واحد ، لا تغير فيه ، وهو يحتمل عدة قراءات ، وقد ذكروا أن القراءة المتواترة لا تكون مقبولة الا اذا كانت موافقة للنص المكتوب غير زائدة ، ولا ناقصة ، فهى شاملة للقراءات كلها .

ولقد أجيز فى أول نزول القرآن أن يقرأ على لغات سبع من لهجات العرب كلها يمنيها ونزارها، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجهل شيئا منها . ولذلك روى البخارى أن القرآن نزل على سبعة أحرف نسخت ست وبقيت واحدة ، ويروى مسلم عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان عند اضاءة بنى غفار (وهو غدير صغير عندهم) ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : ان الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل معافاته ومغفرته ، وان أمتى لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : ان الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وان أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاء الثالثة فقال : ان الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله تعالى معافاته ومغفرته ، وان أمتى لا تطيق ذلك ، ثم جاء الرابعة فقال : ان الله تعالى يأمرك أن تقرىء أمتك على سبعة أحرف فأيما حرف قد قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذى عن أبى بن كعب ، قال : لقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل فقال : « يا جبريل انى بعثت لأمة أميه منها العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ

أقنانيها قط ، فقال لى : يا محمد ان القرآن أنزل على سبعة أحرف » . اه وهذا حديث صحيح .

وقد قال القرطبى فى كتابه الجامع الكبير لأحكام القرآن : « ثبت فى الأمهات البخارى ومسلم والموطأ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنفات والمستندات قصة عمر مع هشام بن حكيم » . وهو الذى صرح فيه بأن عمر سمع هشاما يقرأ بحروف لم يسمعها ، فأخذه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأقر ما قرأ هشام ، وأقر ما قرأ عمر ثم قال : « ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

١٤ — واننا اذا تأملنا ما جاء فى هذه الأخبار الصحاح ننتهى الى أن العرب ما كانت تطاوع ألسنتهم حرف القرآن ، ففيهم الرجل الشيخ والمرأة العجوز اللذان جمد لسانهما على لهجتهما فلا يطاوعهما على النطق الصحيح بلهجة لم يعرفوها ، ولم يلوكوها من قبل ، فكان لابد أن تمرن ألسنتهم أمدا على لغة القرآن حتى تلين وتألف النطق بكلماته على اللغة التى بقيت .

وتفسير الأحرف باللهجات أو لغات العرب ما بين مضرية وربعية ونزارية وقرشية وغيرها ، هو التفسير الذى اختاره ابن جرير الطبرى ، وكثيرون من الرواة ، وهو الذى يتفق مع النسق التاريخى فى الجمع الذى اضطر ذو النورين عثمان رضى الله تعالى عنه لأن يقوم به ، وارتضاه الصحابة ، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لو كنت مكانه ما عملت الا ما عمل .

ولقد ذكر القرطبى أن هذه الأحرف باقية فى القرآن لم ينسخ منها حرف ، ولكننى أرى أن النسق التاريخى الذى أشرنا اليه من قبل يوجب أن يكون حرف واحد قد بقى ، وهو لغة قريش ، وهو الذى كتب عثمان مصحفه عليه ، وكان من قبل مكتوبا كما سنبين أنه لم يأت قط بما يخالف المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة عندما قابله به .

وقبل أن ننتقل الى ما فعل الامام عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه ، لابد أن نذكر حقيقتين دل عليهما المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والسياق التاريخى :

أولهما : أن الذى كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعتره تغيير ، ولم تجر عليه الحروف السبعه ، وان الحروف السبعة كانت فى قراءة القرآن ، لا فى كتابته ، وان استئذان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى القراءة لا فى الكتابة .

ثانيهما : أن استئذان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان ليسهل على أمته حتى تلين ألسنتهم ، وتستقيم على النطق باللغة التى اختارها الله تعالى لقرآنه المنزل من عنده وهو العليم ، وهى لغة قريش فى جل ما أنزل الله تعالت كلماته ، فكانت لغة قريش لغة الأدب فى الجاهلية والاسلام ، فكان من منطق الحوادث أن يكون أعلى الكلام ينزل فى ثوب أعلى اللغات العربية اذ كانت لغة الشعر والأدب .

١٥ ـ ولننتقل بعد ذلك الى جمع ذى النورين عثمان رضى الله عنه ، ومكانه من جمع الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، وجزاهما عن الاسلام خيرا .

تفرق الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وقد كان عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه آخذا بحجزات الصحابة ، وخصوصا كبارهم ، يمنعهم من مغادرة الحرمين . فاختلف الناس فى القراءة ، ومنهم من كان يقرأ بالقراءات أو اللغات المختلفة التى ما كانت القراءة بها الا ترخيصا مؤقتا حتى تلين الألسنة الى لغة القرآن ، وانها لواحدة ، وان اختلفت القراءات المتواترة فى ظلها ما بين حذف للهمزة فى النطق ، وان كانت باقية فى مصحف عثمان تقرأ فيه مثبتة وغير مثبتة كالأرض ، والارض ، ومن اختلاف فى الشكل يدل فى كل شكل على معنى صحيح يصلح أن يكون مقصودا فى القرآن ، ويكون الجمع صحيحا ، مثل أنفسكم « بضم الفاء » ، وأنفسكم « بفتحها » ، ومثل فتبينوا بالباء بعد التاء ، والثاء بعد التاء وبعدها باء ثم تاء .

وما كان اختلاف القراء فى الأمصار فى عهد عثمان فى هذه القراءات المشهورة بيننا الآن ، انما كان الاختلاف فى اللغات التى كان مرخصا بها ، فمنهم من لم يعلم

نسخها ، عند قراءة جبريل للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى العرضات الأخيرة •

لقد اشتد الأمر فى ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبث كل فريق بما يقرأ ، زاعما أن غيره هو الباطل الذى لا ريب فيه ، ووقع الخلاف بين أهل العراق وأهل الشام عندما اجتمعوا فى غزوة أرمينية ، فقرأت كل طائفة بما روى لها ، وتنازعوا أمرهم بينهم ، وأظهر بعضهم تكفير بعض ، وتبرأ بعضهم ، وكان معهم حذيفة بن اليمان — كما ذكر البخارى والترمذى — وقد ذكرا أن حذيفة عندما آب من هذه الغزوة دخل الى عثمان قبل أن يدخل الى أهله فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال عثمان : فيماذا ؟ قال : فى كتاب الله •• انى حضرت هذه الغزوة ، وجمعت ناسا من العراق والشام والحجاز ، ووصف له ما كان من الاختلاف والتكفير ، وقال : انى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلف اليهود •

أفزع هذا الأمر عثمان التقى ، كما أفزع المؤمنين الذين علموا ذلك النبأ الخطير ، ولكن الفزع لم يوهن العزيمة بل شحذها ، ولم يضعف الارادة بل حفزها ، وكانت عزمة ذى النورين عثمان •

لقد أحضر النسخة المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة لتكون الامام الذى يحتكم اليه فيما هو مقدم عليه ، وجمع من الصحابة الحافظين الكرام بضعة على رأسهم زيد بن ثابت الجامع الأول ، والثقة الثبت الذى كان له فضل التثبت فى كل كلمة وآية •

وقد قال له عثمان رضى الله تعالى عنه عندما ندبه لذلك العمل الجليل : انى مدخل معك رجلا فصيحا لبيبا فاكتباه ، وما اختلفتما فيه فارفعاه الى ، فجعل معه ابان وسعيد بن العاص ، فلما بلغا فى الكتابة قوله تعالى « ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم (١) » •• قال زيد فقلت التابوه ، وقال سعيد بن العاص التابوت ، فرفعنا الأمر الى عثمان ، فكتب التابوت •

وكان جملة من ضمهم الى زيد ثلاثة هم : عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص الذى ذكرناه ، وعبد الرحمن بن الحارث ، وقال لهذا الرهط من قريش : ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش ، فانه نزل بلسانهم •

---

(١) البقرة : ٢٤٨

ويظهر أن سيدنا عثمان لم يكتف بهؤلاء الأربعة ، بل كان يضم الى معاونيهم من يكون عنده علم بالقرآن يعاونهم فى كتابته . ولقد روى ابن عساكر أن عثمان دعا الى هذه المعاونة فقال : ان عثمان خطب يومئذ فى الناس، وعزم على كل رجل عنده شىء من كتاب الله لما جاء به ، ويقول بن عساكر فكان الرجل يجىء بالورقه والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دعاهم رجلا رجلا فناشدهم : أسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أملاه عليك . وهكذا كان يتثبت فى الرواية ، كما كان التثبت من زيد ومن معه ، والذى كتب المصحف الأول الذى أودع أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها وعن أبيها فاروق الاسلام .

وقد أتم زيد ومن معه جمع القرآن ، ولكن عثمان لا يكتفى ، بل انه يسير فى الاستيثاق الى أقصى مداه ، فيحضر مصحف أم المؤمنين حفصة ، ويعرض المصحف الجديد ، فيجدهما يتوافقان تمام التوافق ، لا يزيد أحدهما عن الآخر حرفا ولا ينقص عنه ، حتى لقد فهم بعض العلماء أن جمع عثمان كان نسخا لما جاء فى الصحف المحفوظة عند أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها وعن أبيها الفاروق ، وجاء ذكر ذلك فى بعض الروايات تسامحا ، ولكن الحقيقة أنه ما كان نسخا ، بل قام بالتحريات كلها حتى جمع ما جمع ، وكان التوافق الكامل الذى بذل دلالة قاطعة على صدق الجمعين ، وعلى تواتر القرآن الكريم مكتوبا ومحفوظا ، وبذلك حفظه الله تعالى وصانه .

ولقد قال الطبرى : ان الصحف التى كانت عند حفصة جعلت اماما فى هذا الجمع الأخير ، ويقول القرطبى « هذا صحيح » ومعنى صحته أنه بعد الجمع الذى قام به زيد بأمر عثمان ، وعاونه المؤمنون الحافظون ، قد روجع على مصحف حفصة رضى الله عنها ، وكانت هى المقياس لصحته ، فبالمقابلة بينهما بعد الجمع تبينت صحتهما بصفة قاطعة لا ريب فيها . فكانت هذه الامامة ، حتى ظن أنه نسخ منها .

١٦ — ويلاحظ أمران : أولهما : أن عثمان رضى الله عنه كان غرضه من اعادة جمع المصحف هو أن يكتبه على حرف واحد من الحروف السبعة ، أى اللهجات واللغات السبع ، فما كان جمعه الا لاثبات الحرف الباقى الذى روى مكتوبا عن النبى

صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليجتمع عليه المسلمون ولا يكونوا متفرقين ، وأن يكون ذلك موافقا للمكتوب فى عهد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاء فى القرطبى « قال كثير من علمائنا كالداودى ، وابن ابى صفرة هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسمت الصحابة فى القراءة بها ، وانما هى راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان ، ذكره ابن عباس وغيره »

الامر الثانى : أن عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه حسم مادة الفتنة بذلك الجمع ، وعمل ما ينبغى أن يعمل . ولذلك نسخ من هذا الذى جمعه نسخا على قدر الأقاليم العربية ، فأرسل الى كل اقليم نسخة كانت هى الاصل لهذا الاقليم ، فأرسل الى مصر ، والى الشام ، والى مكة واليمن والبحرين والبصرة ، والكوفة وحبس بالمدينة مصحفا كان هو الامام لكل هذه النسخ ، وهو المرجع الاول فى الدولة ، ترجع اليه كل المصاحف ، وهو الحاكم عليها .

واذا كان هو الاصل لكل هذه المصاحف فيجب القول بأنه لا اختلاف بينها لأنه الحكم ، وأنها صور لنسخة واحدة ، ويلاحظ أن الامام العظيم عثمان قد كتب المصحف خاليا من النقط والشكل كما كان المصحف الموجود عند حفصة خاليا من النقط والشكل ، ولم يكن نقط وشكل الا بعد ذلك .

ولكن لماذا خلا من ذلك ؟ والجواب عن ذلك أن القرآن له قراءات مختلفة هى سبع قراءات ، وليست هى الحروف كما ذكرنا من قبل ، ولكى يكون المكتوب محتملا لهذه القراءات المروية بطرق متواترة كلها كان لابد أن يكون غير منقوط ولا مشكول ، كما ذكرنا فى اختلاف القراءة فى أنفسكم ، وكما ذكرنا فى اختلاف القراءة فى فتبينوا . وما كان يمكن أن يحتمل النص القراءتين اذا كان منقوطا ومشكولا .

ومن جهة أخرى أن الاساس فى تواتر القرآن هو الحفظ فى الصدور لا فى السطور ، حتى لا يعتريه المحو والاثبات ، فلو كان القرآن منقوطا ومشكولا لاستغنى طالب القرآن عن أن يقرئه مقرىء ، فلا يكون التواتر الصحيح الذى يقتضى الاجازة ممن أقرأه ، ولقد جاء التحريف فى الكتب الأخرى لاعتمادها على المكتوب فى السطور . لا المحفوظ فى الصدور .

ومن جهة ثالثة ان ترتيل القرآن ، كما أثر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لابد منه كما قال تعالى : « ورتلناه ترتيلا » (١) وان ذلك لا يتم الا اذا كان القرآن يقرأ على مقرىء يجيزه حفظا وقراءة وترتيلا .

١٧ — وان الرواية الصحيحة بينة مستقيمة لا مجال للشك فيها ، وهى تدل على أمور ثلاثة قطعية فى ثبوتها وهى :

أولا — على أن النص الذى كان عند حفصة ، هو النص المكتوب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو ذاته النص المكتوب فى مصحف عثمان رضى الله عنه ، فلا يصح الزيادة عليه ولا يصح النقص .

ثانيا — على أن القرآن كتب بلغة قريش ، وهى الحرف الذى استقرت القراءة عليه ، وما كان الترخيص بالقراءة بالحروف الأخرى الا مؤقتا حتى تطوع الألسنة لحرف قريش ، ولقد جاء فى القرطبى : « ان القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم ، لأن غير لغة قريش موجود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزة ونحوها ، وقريش لا تهمز » .

ومؤدى هذا الكلام أن الألفاظ والأساليب والمنهج القرآنى أنزل على لغة قريش ، ولكن الحركات التى تعترى بنية الكلمة من همز أو امالة أو نحو ذلك جاء على لهجات من غير قريش ورويت كلها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ثالثها — أن مصحف عثمان رضى الله تبارك وتعالى عنه يجب أن تكون كل قراءة قرآنية متفقة مع نصه ، وأن الشك فيه كفر ، وأن الزيادة عليه لا تجوز ، وانه القرآن المتواتر الخالد الى يوم القيامة .

١٨ — اذا كانت هذه حقائق ثابتة تواترت فى الأجيال ، فلماذا كانت الروايات الغريبة البعيدة عن معنى تواتر القرآن الكريم التى احتوتها بطون بعض الكتب كالبرهان للزركشى ، والاتقان للسيوطى التى تجمع كما تجمع حاطب ليل يجمع الحطب والأفاعى مع القرآن كالبناء الشامخ الأملس الذى لا يعلق به غبار ؟

قد أجاب عن ذلك الكاتب الكبير المسلم المرحوم مصطفى صادق الرافعى (١) فقال فى كتابه اعجاز القرآن « ونحن ما رأينا الروايات تختلف فى شىء من الأشياء

---

(١) توفى سنة ١٩٣٧ م .

فضل اختلاف ، وتتنسم فى الرد والتأويل كل طريق وعر ، كما رأينا من أمرها فيما عدا نصوص ألفاظ القرآن ، فان هذه الألفاظ متواترة اجماعا ، لايتدارأ فيها الرواة من علامتهم ، ومن نزل ، وانما كان ذلك لأن القرآن أصل الدين ، وما اختلفوا فيه الا من بعد انبياع الفتن ، وحين تألب الأحداث ، وحين رجع بعض الناس من النفاق الى أشد من الأعرابية الأولى ، وزاغ أكثرهم عن موقع اليقين من نفسه فاجترءوا على حدود الله تعالى ، وضربتهم الفتن ، والشبهات ، مقبلا بمدبر ، ومدبرا بمقبل ، فصار كل من نزع الى الخلاف يريد أن يجد من القرآن ، ما يختلف معه ، أو يختلف به ، وهيهات ذلك ، الا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل ، والا أن يفتح الكلمة السيئة ، ويبالغ فى الحمل على ذمته ، والعنف بها فى أشياء لا ترد الى الله ولا الى الرسول ، ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق ، بل لا يعرفون لها فى الحق وجها .. ونحسب أن أكثر هذا مما افترته الملاحدة ، وتزيدت به الفئة الغالبة ، وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغيا بينهم ، وكلهم يرجع الى القرآن بزعمه ، ويرى فيه حجته على مذهبه ، وبينته على دعواه ، ثم أهل الزيغ والعصبية لآرائهم بالحق والباطل ، ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون ، أو ممن تعارضهم الغفلة فى التمييز .. وذلك سواد كله ظلمات بعضها فوق بعض ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له نور(١) .

وان ذلك الذى ذكره الكاتب الاسلامى الكبير حق لا ريب فيه ، فان هذه الروايات التى جمعها من لا يفرق بين الحابل والنابل ، وبين الحطب والأفعى ، أنما كانت بعد الفتن ، ولعل للاسرائيليات دورها الخفى المسموم وأن الذين تولوها غلاة الفرق ، والرواة الذين لا يميزون أو يغفلون مالا يدركون .

ألم تر الى أولئك الغلاة يطعنون فى عثمان رضى الله عنه ، ويجعلون من أسباب الطعن ، أنه جمع المصحف وجعل له اماما ، عند ما رأى الاختلاف قد تفاقم ، وأنه جمعهم على ما كتب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ورأى على رضى الله عنه مثيرى الفتنة بعد مقتل الشهيد عثمان ، فقال رضى الله عنه وكرم الله وجهه : « يا معشر الناس اتقوا الله ، واياكم والغلو فى عثمان

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٤٢ .

وقولكم حرق المصاحف ، فوالله ما حرقها الا على ملأ منا أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم — وروى عن عمر بن سعيد أنه قال : « قال على بن أبى طالب : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت مثل الذى فعل عثمان .

تحريق غير المصحف الإمام وغير ما نسخ منه

١٩ — كانت الفتنة قد بلغت ذروتها وخب فيها الذين يريدونها ، ووضعوا ، وكان قد دخل فى الاسلام الذين يريدون أن ينتقموا منه لدولهم التى غزاها نور الاسلام ، وانفتح فى قلوب الأكثرين باب الهداية ، ووجدوا فى القرآن السبيل الى ما أرادوا أن يهدموه وهو الاسلام ، ليقتلعوه من جذوره ، ويأتوه من قواعده ، فجاءوا من القرآن عماده ، ونور الله المبين ، وحبله المتين .

وكان السبيل احياء الأحرف التى نسخت ، فاندسوا بين المسلمين يحيون المقبور ، ويروجون المهجور ، ويبثون روح الشك والريب فيما هو متواتر ثابت .

وقد انبرى لهم ذو النورين ، واجتث شرهم ، فجمع المصحف الامام على الطريق المأمون الذى كان مستوثقا غير متظنين ، ومتأكدا غير متشكك فكان ما كتب فى عهده هو عين ما كتب فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر ، وما كتب فى عهد الشيخين هو عين ما أملى فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما حفظه أصحابه فى صدورهم .

حتى اذا تم له احتسبه عند الله على ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذين شاهدوا وعاينوا واتبعوا عن بينة ، وفيهم الكثيرون ممن حفظوا القرآن كله كعلى كرم الله وجهه ، ومعاذ بن جبل ، فكان التواتر الكامل والصيانة الكاملة والاستحفاظ على كتاب الله تعالى .

فلم يبق الا أن يزيلوا غيره من المصاحف ، لأنها كتبت بغير حرف قريش أو به وبحروف أخرى ، فأحرقها جميعا ، ولم يبق الا المصحف الامام وما نسخ منه ، فلا يرجع الى سواه ، ولا يعتمد على غيره ، ولو بقيت مصاحف غيره ، لكان الاحتجاج بها ، ولعادت الفتنة جذعا ، وكان التشكيك والريب ، وقد حفظ الله تعالى كتابه .

حرق عثمان المكتوب كله ، ولم يبق منه شيئا ، ورد الى السيدة أم المؤمنين

حفصة المصحف الذى كان مودعا عندها ، والذى كان اماما لمصحف عثمان ، كما قرر بحق ابن جرير الطبرى ، وقد رده اليها لموعدة وعدها اياها فوفى بوعده ، ولكنها لما توفيت أمر عبد الله بن عمر أن يحرق المصحف الذى كان عندها ، وروى أنها توفيت رضى الله عنها فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وأن الذى حرق المصحف الذى عندها والى المدينة مروان بن الحكم ، ومهما يكن اختلاف الرواية فى تاريخ وفاتها ، فان عثمان رضى الله عنه قد قرر أن يحرق بعد وفاتها .

وهنا يسأل المؤرخ اذا حرق عثمان المصاحف الأخرى لما أثارته من فتنة ، ولأنه كان فيها حروف أخرى غير حرف قريش فلماذا قرر حرق المصحف الذى عند حفصة ، وقد كان امام مصحفه ، والمرجع الذى وزن به صحة ما كتب فى عهده ، حتى انه قيل ان المصحف الذى كتب فى عهده قد نسخ منه نسخا ؟

ونقول فى الجواب عن ذلك ان المصحف أودع حفصة رضى الله عنها وعن أبيها لأنها كانت حريصة على أن يبقى عندها،وما أراد الرجل الطيب عثمان أن يحرمها مما أرادت ، فأعاده اليها ، ولكنه الحريص على القرآن خشى أن يقع فى يد أحد ، فيمحو فيه ويثبت ، ويقول قد غير ما عندكم ، وها هو ذا الأصل ، فاحتكموا اليه ، ويكون صالحاً للاحتكام ، فأمر أن يحرق بعد وفاتها ، وما أبقاه عندها فى حياتها الا مرضاة لها ، فاحتاط للقرآن ، وما أعنتها ، رضى الله تعالى عن ذى النورين بما صنع ، وأكرمه فى مثواه ، ورضى عنه وأرضاه .

ترتيب الآيات والسور

٢٠ — أجمع العلماء على أن الآيات رتبت بتنزيل من الله تعالى ، فكانت الآية اذا نزلت يقول عليه السلام لكاتبه ولصحابته ضعوها فى موضع كذا من سورة كذا ، وتكون لقفاً مع التى وضعت بجوارها ، وتكونان نسقا بيانيا ، هو الاعجاز وأنه يدل على وحدة المنزل وهو الله سبحانه وتعالى ، وأن الآيات المكية كانت توضع فى السور المكية ، والمدنية كانت كذلك توضع فى المدنية ، الا بعض آيات مدنية وضعت فى سور مكية ونبه اليها .

على ذلك انعقد الاجماع ، وكانت العرضة الأخيرة التى قرأ فيها النبى على جبريل بترتيب الآيات ذلك الترتيب ، ومن أنكر ذلك أو حاول تغييره فقد أنكر

ما عرف من الدين بالضرورة ، وخرج عن اطار الاسلام ، وحاول التغيير والتبديل ، فتلك الدعوات المنحــرفة التي تدعو الى ترتيب القرآن على حسب النزول أو على حسب الموضوعات هى خروج على الاسلام ، يبثه بعض الذين لا يرجون للاسلام وقاراً ، اذ يجعلون القرآن عضين ، ويخالفون التنزيل ، ويعارضون الوحى ، وذلك خروج عن الاسلام •

هذا ترتيب الآيات ، أما ترتيب الســور فانه من الثابت أن المصحف الامام كان على هذا الترتيب ، وقالوا انه ما ارتضاه زيد بن ثابت ، ووافقه عليه الشيخان أبو بكر وعمر وصحابة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وذو النورين عثمان وهــو المتبع ، فلا يغير ولا يبدل ، وقد قيل أن بعض الصحابة كان له مصحف بغير هذا الترتيب ، فكان لأبى بكر مصحف ، وكان لعلى كرم الله وجهه مصحف ، وقد نقل ابن النديم فى الفهرس أنه كان علىحسب ترتيب النزول ، وأنه ابتدأ بقوله تعالى «اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق » وهي أول آية نزلت •

ولكن العرضة الأخيرة من جبريل كان على هذا الترتيب ، البقرة ثم آل عمران على ما والاها •

ولقد جاء فى الجامع الــكبير للقرطبى ما نصه : « ذكر بن وهب فى جامعه : قال سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يسأل، لمقدمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة ، وانما نزلتا بالمدينة • فقال ربيعة ، قد قدمتا وألف القرآن على علم ممن ألفه ، وقد اجتمعوا على العــلم بذلك ، فهذا مما ينتهى اليــه » •

قال ابن مسعود : « من منكم كان متأسياً ، فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالا ، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، واقامة دينه ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم » •

ولقد قال الامــام مالك رضى الله تعالى عنه ، انما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذكر أبو بكر الأنبارى كما نقل عنه القرطبى : « أنزل القرآن جملة الى سماء الدنيا ، ثم فرق على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل ، والآية جوابا لمستجيب

يسأل ، ويقف جبريل رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام من رب العالمين ، فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى ، فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف والكلمات ، ولا اعتراض على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة ، لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : « ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن ، وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات » .

ومن هذه الروايات المختلفة المؤتلفة المجمعة على أن ترتيب السور بتوقيف يتبين أن المصحف الامام هو الذى يصور العرضة الأخيرة للقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولكن ماذا يقال عن الروايات التى جاءت بأنه كان لأبى بكر مصحف بغير هذا الترتيب ، ولعلى رضى الله عنه وكرم الله وجهه مصحف كان بترتيب النزول ؟ لنا فى الاجابة عن ذلك السؤال طريقان :

أولهما — أن نعتبر ما عليه الكثرة الكاثرة التى تكاد تكون اجماعا يؤخذ به ، ويكون ذلك الاجماع دليلا على ضعف ماعداه وأنه لا يؤخذ به لعدم صحة السند .

ثانيهما — أننا نقول ان ذلك كان قبل العرضة الأخيرة ، وفى العرضة الأخيرة وضعت السور فى مواضعها ، وهذا ما اختاره القرطبى وغيره ، فقد قال : « أما ماروى من اختلاف مصحف أبى بكر وعلى وعبد الله بن مسعود فانما كان قبل العرض الأخير ، وان رسول الله تعالى رتب لهم ترتيب السور بعد ، ان لم يكن فعل ذلك من قبل .

وننتهى من هذا الى أن ترتيب السور كترتيب الآيات كان بوحى من الله العلى الحكيم .

قراءات القرآن

٢١ — يقرأ القرآن الكريم بقراءات مختلفة ، مختلفة فى حركات أواخر

الكلمات أو فى بدء الكلمة ، أو فى الوقوف فى أواخر الكلمات ، أو فى الهمزات قطعا ووصلا ، كهمزة الأرض ، فهى تقرأ موصلة ومقطوعة ، وهكذا ، وانه يجب التنبيه فى هذا الى أمرين :

أولهما — أن قراءات القرآن المتواترة ليست هى الأحرف السبعة كما ذكرنا ، بل ان الرأى القويم الذى انتهى اليه الباحثون كابن جرير(١) الطبرى وغيره الى أن القراءات كلها تنتهى الى حرف واحد ، وهو الذى كتب به المصحف المحفوظ عند أم المؤمنين حفصة وهو الذى جمعه عثمان بن عفان رضى الله عنه . وألزم به الأقاليم الاسلامية ، وهو مطابق تمام المطابقة للمصحف الذى كتب فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، وهو الذى حفظ فى بيت ام المؤمنين حفصة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها الفاروق .

الأمر الثانى — أن هذه القراءات تنتهى فى نهايتها الى أنها من ترتيل القرآن الذى رتله الله سبحانه وتعالى ، وتفضل بنسبته الى ذاته الكريمة العلية فقال تبارك وتعالى ، « ورتلناه ترتيلا » (٢) ، فهى الأصوات التى أثرت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا كان فيها موسيقى ، ان صح لنا أن نقول عنها هذا التعبير ، فهى الأصوات القرآنية التى اتبعناها عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهى فى مدها وغنها ، واهمازها ، واهمال همزاتها ، وامالتها واقامتها ، أصوات القرآن المأثورة ، اذ أن القراءة سنة متبعة وان اختلاف القراءات الصحيحة وكلها متواترة عن الصحابة الذين أقرأهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعلمهم طرق الأداء التى تعلمها عن ربه ، كما يشير الى ذلك ما تلونا من قبل ، وهو قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه (٣) » .

فكانت القراءة التى وعد الله تعالى ، نبيه عليه الصلاة والسلام ، هى الترتيل ، وهى تلك القراءات المأثورة عن صحابة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذين تلقوها عن النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت أنه تلقاها عن ربه .

---

(١) توفى سنة ٣١٠ هـ .

(٢) الفرقان : ٣٢

(٣) القيامة : ١٦ — ١٩

وهذه القراءات نجد الاختلاف فيها ، مع أنها تنتهى جميعا الى المورد العذب ، والمنهل السائغ ، وهو تلاوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى تلقاها عن ربه ، ليس اختلاف تضاد فى المعانى ، أو اختلاف تباين فى الألفاظ بل يكون الاختلاف .

أولا — فى شكل آخر الكلمات أو بنيتها ، مما يجعلها جميعا فى دائرة العربية الفصحى ، بل أفصح هذه اللغة المتسقة فى ألفاظها ، وتآخى عباراتها ورنة موسيقاها والتواؤم بين ألفاظها ومعانيها .

وثانيا — فى المد فى الحروف ، من حيث الطول والقصر ، وكون المد لازما أو غير لازم ، وكل ذلك مع التآخى فى النطق فى القراءة الواحدة فكل قراءة متناسقة فى ألفاظها من حيث البنية للكلمة ، ومن حيث طول المد أو قصره .

وثالثها — من حيث الامالة ، والاقامة فى الحروف ، كالوقوف بالامالة فى التاء المربوطة وعدم الامالة فيها .

ورابعها — من حيث النقط ومن حيث شكل البنية فى مثل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (١) ، فقد وردت فيها قراءتان متواترتان : فتبينوا ، وقراءة أخرى «فتثبتوا» وهما متلاقيتان ، فالأولى طالبت بالتبين المطلق ، والأخرى بينت طريق التبين ، وهو التثبيت بتحرى الاثبات ، فان لم تكن طرق الاثبات ، ولا دليل على القول ، فانه يرد الكلام ، ولا يتمسك بما قيل متظننا فيها من غير دليل ، وكلتا القراءتين مروية بسند متواتر ، لا مجال للريب فيه ، فكانت احدى القراءتين مفسرة للأخرى .

وخامسها — زيادة بعض الحروف فى قراءة ، ونقصها فى أخرى ، مثال زيادة الواو فى قراءة ، وزيادة من فى أخرى ، وهذه نادرة لم أرها الا فى حالتين اثنتين فقط ، فقد ذكر ابن الجزرى أمام القراء المتأخرين المتوفى سنة ٨٢٣ هـ أن ابن عامر — وهو من القراء السبعة — يقرأ «قالوا اتخذ الله ولدا » (٢) ، وقرأ غيره : « وقالوا اتخذ الله ولدا » وان حذف الواو ثابت فى المصحف الشامى ، وكان ابن كثير يقرأ « تجرى من تحتها الأنهار » وقراءة غيرها تجرى تحتها الأنهار ،

---

(١) الحجرات : ٦ (٢) يونس : ٦٨

ومفهوم كلام ابن الجزرى أن القراءتين متواترتان ، وان هذا يؤدى الى أمر جوهرى ، وهو أن المصاحف فى هذا الموضوع ليست نسخا متحدة اتحادا كاملا منسوخة كلها من المصحف الامام وهو المصحف الذى احتفظ به الامام عثمان فى دار الخلافة ، وقد اتفقت الروايات على أنه لم يكن كالمصحف الشامى الذى كان على قراءة ابن عامر ، لأن مصحف الشام خالف كل المصاحف فى نقص الواو — ومنها المصحف الامام مصحف عثمان وبذلك يكون الرجوع لمصحف عثمان وما نقل عنه من المصاحف ، وهو المصحف المجموع فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر وحفظ عند حفصة ، وهو أيضا المتطابق مع المكتوب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

وكذلك الأمر فى زيادة (من) فى قراءة ابن كثير المتفق مع المصحف المكى ، وغيره من المصاحف ، ومنه المصحف الامام على عدم زيادة من فى الآية التى زيدت فيها فى المصحف المكى •

وان النتيجة لهذا أن نقول ان الأصل هو المصحف الامام مصحف المدينة يقبل ما يتفق معه ، وينعقد الاجماع عليه وما لا يتفق معه ينظر فيه ، وربما كان رده أظهر : لولا ما يقال من أن القراءة بالزيادة ليست آحادا ولا شاذة ، بل متوافرة •

ومن أجل ذلك حاول القرطبى التوفيق بين الزيادة ، وحذفها ، فقال : «وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم ، وينقصها بعضهم ، فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، اذ كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ، ولم يكتبها فى بعض أشعارا بأن كل ذلك صحيح وأن القراءة بكل منها جائزة •

رواة القراءات :

٢٢ — كانت القراءات معروفة فى عصر الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين وقد تلقوها جميعا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرنا أن مصحف الامام عثمان والامامين من قبله ، وما كتب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان غير منقوط ولا مشكول لكى يحتمل القراءات كلها ، ولكيلا يعتمد القارىء على المكتوب

بل يتلقى المقروء بالتلقى ليصل السند الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد قال بعضهم أن الخط فى عصر النبى عليه السلام كان غير منقوط ولا مشكول لأن العربيــة لغة بيان وافصاح وتعبير ، وانسجام بين ألفاظهـا ، وتــآخ بين أساليبها ، فلا تعتمد على المكتوب ، بل على المقروء ونغماته ، وتآخى عباراته من غير تجافى اللفظ عن المعنى ، ولا المعنى عن اللفظ .

ولمــا أخذت العجمة تغزو اللسان العربى ابتدءوا بنقط القرآن وشكله فى عهد عبد الملك بن مروان من غير بعد عن القراءات ، ومن غير اعتماد على المكتوب ، بل يكون مع المكتوب ضرورة الاقراء من حافظ ، وبذلك أمكن اجتماع الشكل والنقط مع الرواية وتواتر القراءة ، وتعرف أوجه القراءات المنقولة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان فى الصحابة من يقرىء الناس ويعلمهم وجوه القراءات .

وقد اشــــتهر باقراء الناس للقرآن ، وتعريفهم أوجه قراءاته طائفــة من الصحابة قد احتجزوا عن الخروج الى ميــادين الفتح ، ليعلموا الناس ويفقهوهم فى دينهم ، ويقرئوهم القرآن الـكريم .

ومن هؤلاء عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب فارس الاسلام احتجز عن الجهاد بالسيف ، ليكون له جهاد العلم والقرآن ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء .

وعن هؤلاء أخذ كثيرون من الصحابة والتابعون وأقرءوهم القــرآن بوجوه القراءات ، وكلها يتفق مع المـكتوب عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولمــا أخذ المقرئون للقرآن من الصحابة ينقرضون حمل التابعون ذلك العبء الــكريم ، فقاموا بحقه ، ويظهر أن المقرىء كان يقرىء طالب القرآن القراءات كلها ، ويختار منها ما يطوع له لسانه ، من غير اعوجاج ، فكان الصحابة وكبــار التابعين يقرئون بالأوجه كلها ، ولــكن يختار المستحفظ ما يقوى عليه لسانه .

وفى آخر عصر التابعين خاف من بعد قراء الصحابة والتابعين خلف طيب ، وجد التخصص فى قراءة من القراءات أولى من حفظ جميعها ، فانه اذا كان ذلك فى طاقة الصحابة ومن داناهم من كبار التابعين ، فمن وراءهم دون ذلك ، اذ أخذت

الطبيعة العربية تضعف عن حمل العبء كاملا ، فعنى من أفاضل القراء من صغار التابعين ، وتابعى التابعين برواية كل واحد منهم قراءة واحدة ليسهل عليه نطقها ورووها متواترة ، فكانت الرحال تشـــد اليهم يتلقون عنهم ، ويأخذون بما يقرئه كل واحد .

واشتهر من هؤلاء الذين خلفوا عهد الحفاظ من الصحابة الذين كانوا يقرئون الناس من صحابة وتابعين ، اشتهر سبعة كانوا من بعد أئمة القراء .

وهم عبدالله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ هـ ، وعبدالله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، وعاصم بن مهدله الأسدى المتوفى سنة ١٢٨ هـ ، وأبو عمرو بن العلاء شيخ الرواة المتوفى سنة ١٥٤ هـ ، وحمــزة بن حبيب الزيات العجلى المتوفى سنة ١٥٦ هـ ، ونافع بن نعيم المتوفى سنة ١٦٩ هـ ، وعلى بن حمزة الـكسائى امام الـكوفيين المتوفى سنة ١٥٩ هـ ، وقراءات هؤلاء السبعة هى المتفق عليها التى نالت الاجماع ، ولكل واحد منها سندها المتصل المتواتر ، وطريقـــه وهو محفوظ فى علم القراءات ، وأجمع المسلمون على التواتر فيها .

وقد ألحق علماء القراءات وأهل الخبرة فيها ثلاثة غيرهم صحت قراءتهم ، وثبت تواترها ، وهم : أبو جعفر يزيد بن القعاع المتوفى سنة ١٣٢ هـ ، ويعقوب بن اسحق الحضرى المتوفى سنة ١٨٥ هـ ، وخلف بن هشام .

وقراءات هؤلاء باضافتها الى القراءات السبع تكون عشرة كاملة .

اقسام القراءات :

٢٢ — لا عبرة الا بالقراءات المتواترة لأنهـــا هى التى تتناسب مع تواتر القرآن ، وحفظه فى الأجيال الى يوم القيامة ، وسد السبيل للريب ، فلا يأتيـــه فى أى ناحية من نواحيه ، لأنه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، ولأن الله تعالى قد وعد بحفظه فقال : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون (١) » والله تعالى لا يخلف الميعاد .

ولـــكن مع ذلك قرر علماء القراءات أن هناك ما روى بطريق الآحاد ، وهناك

---

(١) الحجر : ٩

النساد ، وان كان الاثنان لم يبلغا درجة أن تكون معتبرة أو لائقة بالقرآن •

ولذلك قسموا القراءات الى أقسام ثلاثة :

أولها ـ القراءات المتواترة ، وهى حجة فى التلاوة ، وليس لمؤمن بالقرآن أن ينكرها • واذا كان قد روى عن الزمخشرى (١) انكار بعض القراءات أو ردها مستنكرا لها ، فان ذلك النوع ليس من القراءات المتواترة ، وما كان لمثل الزمخشرى فى علمه ومكانته وايمانه ان ينكر متواترا ، والذين يستمسكون بمثل قوله ، لا يأخذون الا بحبل واه ، يهوى بهم الى نار جهنم ، لأنه رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ما أنكر متواترا ، ولكنهم يطيرون وراء كل ريح يحسبونها هادمة ، ولكن ما هم ببالغيه ، ودون ذلك دق أعناقهم •

وشروط القراءة المتواترة ثلاثة :

أولها ـ ان تكون موافقة للمصحف الامام ، لأنه الأصل المعتمد عليه ، وهو المرجع ، وهو صورة صادقة للمكتوب فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيكون بالتزامه القرآن متواترا قراءة وكتابة ، والله سبحانه وتعالى هو الحافظ له الى يوم الدين •

الشرط الثانى : التواتر فى السند بأن يرويه جمع عن جمع حتى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

الشرط الثالث : أن يكون موافقا للمنهاج العربى الثابت فى اللغة ، وليس معنى ذلك أن تكون أقوال النحويين حاكمة على القرآن بالصحة ، فانه هو الحاكم عليه ، وهو أقوى حجج النحويين فى اثبات ما يثبتون ، ونفى ما ينفون ، ولكن معنى ذلك ألا يكون فيه ما يخالف الأسلوب العربى فى مفرداته وفى جمله وعباراته •

القسم الثانى : القراءة غير المتواترة ، وقد رويت بطريق الآحاد ، ولم تبلغ فى روايتها حد التواتر ، وهذه يكون رواتها عدولا ، لم يثبت عليهم ريبة اتهام فى قول أو عمل ، وهذه يقرأ القرآن بها ، وخصوصا اذا وافقت المتواتر بشرط موافقتها للمصحف الامام وهو متواتر ، فتكون فى معنى المتواترة ، وموافقتها

---

(١) توفى سنة ٥٣٨ هـ

للمنهاج العربى ، فلا يكون فيها ما يخالف المنهاج العربى .

والقسم الثالث : الشاذة ، وهى المخالفة للمصحف الامام ، ولم تثبت بسند صحيح ، ولو بطريق الآحاد .

وانى أرى ألا يقبل الا المتواتر .

ويجب التنبيه الى أمر ، وهو أن القراءات السبع المنسوبة للقراء السبعة غير انها لا تخلو من شاذ مرفوض ، وان كانت فى جملتها مشهورة . جاء فى كتاب أعجاز القرآن لامرحوم الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعى رضى الله عنه نقلا ما نصه :

« لا تخلو احدى القراءات من شواذ فيها حتى السبع المشهورة ، فان فيها من ذلك أشياء » .

وازن بين هذا ، وبين القراءتين اللتين زيدت فى إحداهما واو ، وقيل انها موافقة للمصحف الشامى .

وفى الأخرى من ، وقيل انها موافقة للمصحف المكى .

فائدة وجوه القراءات

٢٣ — ان القراءات — كما ذكرنا — هى ترتيل القرآن الذى علمنا الله تعالى اياه على لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ علمه ربه ونسب الترتيل الى ذاته العلية ، فقال تعالى : « ورتلناه ترتيلا » (١) .. وأمر نبيه بهذا الترتيل هو ومن اتبعه ، فقال تعالت كلماته : « ورتل القرآن ترتيلا » (٢) .. فكانت القراءات التى نزل بها القرآن هى تصريف ذلك الترتيل وتنويعه ، وكما أن المعانى القرآنية صرفها الله تعالى من الاستفهام الى التقرير ، ومن الاستنكار والتوبيخ الى التهذيب والتأديب ، وكما صرف الله آياته كما قال تعالى : « وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون (٣) » .. فقد صرف تلاوته وترتيله ، فكان الترتيل فى التأليف الصوتى ، والتناسق فى النطق ، وتنوع ذلك التناسق من ارتفاع ومد طويل ، الى خفض ومد قصير ، مما يشبه التأليف الموسيقى ، وان كان أعلى لأنه

---

(١) الفرقان : ٣٢ (٢) المزمل : ٤ (٣) الانعام : ١٠٥

ليس من صنع البشر • ويجد القـارىء فى ذلك التنويع ما يجعله يترنم بالقرآن فى اجلاله ، وروعة بيانه ، ودقة معانيه •

وأمر ثان يبدو فى تنويع القراءات مع ثبوت تواترها وأنها عن الله العلى القدير ، نجد أن اختيار قراءة من القراءات فى المقام الذى تناسبه يكون توضيحا للمعنى ، ومناسبا للمؤدى ، فمثـلا قراءة الامالة تكون فى الموضع اللين والخطاب الرقيق ، ويتركها القارىء الفاهم فى موضع التهديد والانذار الى قراءة أخرى تناسب التهديد والانذار الشديد ، فمثلا فى سورة الحاقة لا يعمد المرتل المدرك الى اللين فى الوقوف على التاء ، لأنه لا يتناسب مع موضوع التهديد الذى اشتملت عليه السورة كلها ، وقد نبهنا بعض القراء الذى كان يختار اللين ، فتنبه ، وما عادوا أمامنا ما كان يفعل •

وأمر ثالث فى تعدد القراءات فوق ما فيها من مراعاة مقتضى المعانى • وفوق مافيها من ترتيل هو موسيقى القرآن ، ان صح لنا هذا التعبير مع أن القرآن فى مقام أعلى وأسمى ، ذلك الأمر أن تنوع القراءات فيه تسهيل على القارىء العربى ، فقد تصعب عليه قراءة ، اذ لا تطاوعها طبيعته أو سليقته اللغوية •

وهناك أمر رابع فى تنوع القراءات ، وهو أن يكون مجموع القراءتين — وكلتاهما قرآن — دالا على معنيين فى لفظ واحد متلاقيين غير متضادين ، فمثلا قراءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم(١) » بضم الفاء يدل على أنه من العـرب ، والعرب قومه ، وذوو رحمه القريبة ، أو البعيدة ، واذا اجتمعت معها القراءة بفتح الفاء كانت الآية دالة بهذه القراءة على أنه من أوسط القوم وأعلاهم ، فالقراءتان والكلمة واحدة تدلان بالنص على معنيين غير متضادين ، وكلاهما صحيح صادق ، فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان من العرب ، وكان من أنفسهم ترتبط مشاعره بمشاعرهم يحس بما يحسون ، وهو مندمج فيهم ، وقريب منهم ، ثم كان مع هذا القرب النفسى من أعلى العرب منزلة ، وأكرمهم ، وكذلك يكون الأنبياء من أوساط الأقوام الذى يتساموون عن سفساف الأمور ، ويتجهون الى معاليها •

وقد يقول قائل ان قراءة أنفسكم بفتح الفاء تدل على الأمرين ، فهى تدل على

---

(١) التـوبة : ١٢٨

أنه من أعلى قريش وسطاً ، وتدل على أنه منهم ، ونقول فى الجواب عن ذلك انها تدل بالنص على الشرف ، وأنه من أعلى القوم ، ولا يفيد بالقصد والذات أنه من نفس العرب ، ومن ذاتيتهم ، وأنه يحس باحساسهم ، لا تدل قراءة الفتح على ذلك بالنص ، وبيان امتزاج نفسه عليه السلام بأنفسهم . وان هذا لابد منه ليتسعر بشعورهم ، ويشاركهم بوجدانه واحساسه ، ويجذبهم اليه بقوة الامتزاج النفسى، كما يعنيهم بالدليل ، وبالحق فى ذاته ، وبما آتاه الله تعالى من بينات باهرات .

وقد يكون اختلاف القراءة فيه كمال التوضيح البيانى من غير قصور فى احداهما ، ولكن بالقراءتين يكون البيان كاملا ، مثل قراءة قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا[1]» فان قوله تعالى : «فتبينوا» تقرأ « فتثبتوا » ولا شك أن المعنى فى القراءتين هو ألا يؤخذ الساعى بالنميمة أو الساعى بالأذى ، أو المفسد بين الناس لايصدق قوله ابتداء وألا ينساق وراء ما يثيره القول من عاطفة جامحة أحيانا قد تدفع الى الشر عن غير بينة فالله تعالت آياته ينبه الى أنه لايجوز التصديق الا بعد التبين ، والتبين يكون بطرائق مختلفة منها ما يكون بطرق الاثبات من بينات ، ومنها ما يكون بالقرائن ، ومنها ما يكون بربط الأمور الواقعة بالأمر المخبر عنه ، وهكذا ، فالقراءتان : تبين احداهما التبين بالطرق المختلفة والثانية تبين أن أسلم الطرق هو تعرف الأمر بما يثبت من أقوال الصادقين المؤمنين .

وانه قد يكون اختلاف القراءات مؤديا الى بيان حكم بقراءة ، وحكم متمم له بقراءة أخرى ، فتستفاد الأحكام فى أوجز تعبير على ما فيه فى تغيير القراءة من اختلاف فى نغم الترتيل ، وموسيقا البيان القرآنى الذى يساميه .

وقد قال فى هذا المعنى الكاتب الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعى «وثالثة تلحق بمعانى الاعجاز ، وهى أن تكون الألفاظ فى اختلاف بعض صورها مما يتهيأ معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معانى الشريعة ، ولذا كانت القراءات من حجة الفقهاء فى الاستنباط والاجتهاد ، وهذا المعنى مما انفرد به القرآن الكريم ، ثم هو

---

(١) الحجرات : ٦

مما لا يستطيعه لغوى أو بيانى فى تصوير خيال فضلا عن تقرير شريعة » .

ولذلك تجد الفقهاء فى استدلالاتهم الفقهية يقولون الحجة فيه قراءة كذا ، وهى لاتكون مناقضة للقراءة الأخرى ، وربما تكون القراءة دالة على حكم آخر غير مناقض للحكم الذى دلت عليه القراءة المستشهد بها فتكون الآية بالقراءتين دالة على حكمين متلاقيين غير متناقضين ، وذلك من الايجاز المعجز الذى لا يوجد فى كلام الناس ، ولكنه موجود فى كلام خالق الناس .

٢٤ — هذا ونختم الكلام فى القراءات بكلمة مأثورة للصحابى الفقيه عبد الله ابن مسعود ، فهو يقول :

« لا تتنازعوا فى القرآن فانه لا يختلف ، ولا يتلاشى ، ولا ينفذ لكثرة الرد وانه شريعة الاسلام وحدوده وفرائضه ولو كان شىء من الحرفين (أى القراءتين) ينهى عن شىء يأمر به الآخر ، كان ذلك الاختلاف ، ولكنه جامع ذلك كله لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض ، ولا شىء من شرائع الاسلام ، ولقد رأيتنا نتنازع عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيأمرنا فنقرأ عليه ، فيخبرنا أن كلنا محسن ، ولو أن أحد أعلم بما أنزل الله على رسوله منى لطلبته ، حتى أزداد علما الى علمى ، ولقد قرأت من لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبعين سورة ، وقد كنت علمت أنه يعرض عليه القرآن فى رمضان ، حتى كان عام قبض فعرض عليه مرتين ، فكنت اذا فرغ أقرأ عليه ، فيخبرنى أنى محسن » .

اللهم احفظنا بالقرآن ، واجعله محفوظا بيننا كما وعدت انك لا تخلف الميعاد ، ووفقنا للعمل به .

الباب الثانى

إعجاز القرآن

٢٥ — ذكر المؤرخون ما كان عليه العرب من تلق لديانات النبيين السابقين ، حتى قال قائل المؤرخين وأهل السير : ان نوحا عليه السلام كان بعثه فيهم ، وكذلك كان ادريس ، وصالح ، وشعيب ، وهود ، وابراهيم واسماعيل ، فكانت مهداً للرسالة الالهية •

واذا كان لذلك أثر أو دلالة ، فهو أن العرب قوم فيهم ثقافة وأديان ، وقد وضحنا ذلك عند الكلام فى حكمة اختيار العرب لأن يكونوا موضع الرسالة الخالدة رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (فيما كتبنا فى سيرة الرسول عليه السلام) •

واذا كان العرب فى عصر الرسالة المحمدية كانت فيهم بداوة سائدة ، وحضارة قليلة ، فأكثر العرب ، أو الصحراء العربية ان استثنينا اليمن والحيرة ، وما يصاقب الفرس ، والشام وما يصاقب الرومان — كانت البداوة فيهم غالبة ولكنهم فى بدوهم وحضرهم ، فى مدرهم ووبرهم امتازوا من بين معاصريهم بالنزوع الى الكلام الطيب ، وكانت سيادة الأمية فيهم سبباً فى أن أرهفوا كلمات لغتهم ، وأسلوب خطابهم ، وملاحظة جرس الكلمات ، وموسيقى العبارات وانسجام الحروف ، ومؤاخاة المعانى للألفاظ ، حتى ان النطق يدل على المعنى ، وفى مترادف الكلمات ما يدل على أن المعانى كانت ملاحظة فى كل لفظ ، فالأسد يقال له أسد ، وليث وغضنفر ، وغير ذلك من المترادفات لمعنى السبع ، فكلمة غضنفر تقال له فى حال عنفه وفتكه ، وكلمة ليث تقال فى حال ثباته ورباطة جأشه ، وهكذا تجد النطق متلاقيا مع المعنى ، فهما متساوقان ، المعنى ملاحظ فى النطق ، والنطق لابس للمعنى ، وكلاهما يحيط بصاحبه ويؤاخيه ولا ينفصل عنه •

وفى الأسلوب الذى يصوره الاعراب تجد الانقطاع عن النسق الاعرابى فى القول يتغير بتغيير وجه الاعراب ، من غير خطأ ، بل يقصد معنى من معانى التخصيص يكون النطق فى الانقطاع قائماً مقام وضع خطوط تحت الكلمات ، كما يفعل الكاتبون غير الأميين ، وهكذا كان النطق قائماً مقام خطوط الكاتبين فى تنبيهها ، وشدة

الاختصاص فى دقة المعانى ، فهى بحق لغة الفصاحة ، وذلك لقوة المدارك ، وعلو الأفكار والنزوع الى السمو والمعالى مع الأمية ، وغلبة البدوية .

وقد ظهر ذلك فى امرين : احدهما ان الجزء الذى دخلته حضارة من البلاد العربية كاليمن والحيرة والبحرين لم تكن عندهم فصاحة كالذين لم تسيطر عليهم الحضارة فى قوة الافصاح والبيان وسلامة التعبير ، فلم تكن اليمنية كالعدنانية . ولا لغة اهل البادية كلغة قريش ، لان قريشاً قد قاربت ، وذاقت بعض الحضارة ، وبقيت أميتها .

الأمر الثانى — فى المسابقات البيانية التى كانت تعقد فى الأسواق فى موسم الحج فى عكاظ ، ومجنة وذى المجاز ، فقد كانت فيها تجارة المادة ، وتجارة البيان معاً ، فقد كان فى الاولى زاد الجسم ، وفى الثانية زاد النفس ، كما ظهر ذلك فى الشعر ومسابقاته ، فمن معلقات تعلق فى أستار الكعبة ، وحوليات يقطع الحول فى نسج خيالها ، وصوغ عباراتها التى تصغى اليها الأفئدة .

ولو أنك وازنت بين العرب وغيرهم ممن هم فى مثل حالهم من البداوة الغالبة ، لوجدتهم فى السماك الاعزل وغيرهم فى الحضيض الأوهد ، فلا يزال الحاضرون من غير العرب يجدون فى شعر زهير بن أبى سلمى حكمة البيان الشعرى ، وفى شعر امرىء القيس قوة الوصف وفورة الشباب ، وفى شعر عنترة قوة البأس ولطف التشبيب والغزل ، وفى شعر طرفة قوة النفس الثائرة ، وهكذا لو وازنت بين هذه الآثار ، وما بقى من شعر اليونان والرومان لوجدتها لا تقل عنها فى احكام الفكرة ، وسلامة التفكير ، ولكن تزيد عليها فى حلاوة النغم ، وتساوق الفكر ، وتآخى الألفاظ مع المعانى .

نعم ان الأدب القصصى فى اليونان كثير ، وهو خلاصة ماعندهم ولبه ، وهو عند العرب قليل أو أقل من القليل . والسبب فى ذلك هو أن هذا ثمرة الكتابة التى تتيح للكاتب فرصة التأليف وتلفيق الوقائع ، بحيث تكون كل واقعة لفق الأخرى مسلسلة معها ، فى خيال متسق ، وهكذا .

أما العرب الذين غلبت عليهم الأمية مع تذوق القول ، وتخير خيره ، واستهجان

هجينه ، فان أدبهم يكون باللمح السريع ، والنظر الخاطف أحيانا والمستبصر المتدبر فى أكثر الأحيان عند الذين أوتو ذكرا وعقلا وادراكا ، وفى الجملة لا وسط بين كلامهم وجنانهم ، ولا زمن مستغرق بين خاطرهم وقولهم ، فتكون خيالاتهم فيها جمال اللمح ، وقوة اللحظ ، وسرعة الادراك •

٢٦ ـ ولذلك أجمع المؤرخون فى القديم والحديث على أن العرب لهم مآثر فى البيان ، وذوق الكلام ، والتفريق بين كريمه وسقيمه ، وجميله وهجينه •

ولنترك الكلمة للقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ يصف بيانهم فى كتابه الشفاء ، فهو يقول : «خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت انسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ، وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به الى كل سبب ، فيخطبون بديها فى المقامات ، وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل ، فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب ، ويذهبون الاحن ، ويهيجون الدمن ، ويجرئون الجبان ••• منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل ، والكلام الفخم والطبع الجوهرى ، والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى (أى ساكن المدن) ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق الرقيق الحاشية» الى آخر ما ذكره عياض فى بيان بلاغة العرب ، ومقدار ادراكهم لجمال الكلمات فى رنينها ، كما يدرك الصيرفى رنين الحلى الكريمة غير الزائفة ، من بين ما يعرض له •

تلك كانت حال العرب فى جاهليتهم ، كانت جهلا بالدين مع بقايا ملة ابراهيم ، وليسوا جهالا فى البيان ومعرفة أسرار البلاغة يدركونه بلحظ الحال ، لا بامعان عقل وطول تفكير يدركونه بنغماته ومعانيه فى لمح الفكر ، من غير طول المكث •

لذلك كان المناسب لمثل هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخاطبهم القرآن الكريم ابتداء أن تكون المعجزة من النوع الذى

يحسنونه ، ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة ، فالمعجزة بلاشك تناسبهم فوق مناسبتها لموضوع الرسالة وعموم أزمانها وخلودها الى يوم القيامة ، وقد بينا ذلك فى أول الكلام ، فاذا كانت معجزة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من نوع الكلام السامى فوق طاقة الناس فانها تكون مناسبة لمن تلقوها فى أول أمرها ومناسبة لخلودها .

اننا لا ننفى الآن ، ولم ننف من قبل أنها مناسبة لعصر نزولها ، ولكننا نقول أيضا انها أشد مناسبة لموضوع الرسالة وخلودها ، وبقائها الى يوم القيامة .

ان القرآن فى أعلى درجات البيان من حيث لفظه ، ومن حيث نغماته ، ومن حيث مغازيه ومن حيث الصور البيانية التى تكون فى ألفاظه وعباراته ، حتى أن كل عبارة تلقى فى الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة فى روعتها ، ودقة تصويرها ، بل ان كل كلمة لها صورة بيانية تنبثق منها منفردة ، وبتآخيها مع أخواتها فى العبارة تتكون صورة بيانية أخرى ، فوق أن الرنين الموسيقى تنفعل به الأسماع الى القلوب فى معان محكمة ، وحقائق بينة ، وشرائع منظمة للعلاقات والسلوك الانسانى القويم ، الهادى الى الصراط المستقيم .

التقى فى المعجزة الكبرى للنبى صلى الله عليه وسلم وهى القـــرآن المبين — معنيان ، أصيب بهما هدفان :

أولهما — أنه المناسب الذى يعرف به العرب معنى الشىء الخارق لما عرف ، الخارج عن طاقتهم ، فانه لا يدرك أثر ذلك الا هم ، ولا يعرف مقامه الا من على شاكلتهم من معرفة مقام القول ، ومنزلة البيان .

وثانيهما — أن كونه من نوع الكلام الموحى به الباقى الخالد الذى حفظه الله تعالى ، ووعد بحفظه الى يوم القيامة كما تلونا من قبل « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون »(١) وذلك يناسب رسالته التى هى خاتم الرسائل الالهية التى جاء بها محمد رسول الله تعالى خاتم النبيين ، بصريح القرآن الــكريم ، فلا نبوة بعد النبى صلى الله عليه وسلم .

فكان المناسب أن تكون المعجزة من نوع الكلام الخالد الباقي ، كما روى أنه

---

(١) الحجر : ٩ .

صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما من نبى الا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وكان الذى أوتيته وحياً أوحى به الى ، وانى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً الى يوم القيامة » كما روينا من قبل ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وانه معجزة للخليقة كلها ، وفيه الدليل على أنه من عند الله للناس أجمعين ، فهو ان جاء بلسان العرب ، وفيه أعلى درجات البيان العربى ، يشتمل فى ثناياه على ما يعجز الناس أجمعين ، فاذا كان قد أعجز العرب ببيانه فقد أعجز الناس أجمعين بمعانيه ، وشرائعه وما اشتمل عليه من علوم ، بل بمبانيه أيضاً . قال منزله عز من قائل « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(١) تعالت كلمات الله تعالى .

تلقى العرب للقرآن

٢٧ ــ كلف محمد عليه الصلاة والسلام أن يستعد للقاء الرسالة الالهية لينشر التوحيد والخلق المستقيم والعبادة الخالصة لله تعالى بين الناس ، وكان تكليفه بالقرآن وأول نزوله ، فقال له جل جلاله : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » (٢) .

تقدم محمد للدعوة الى ربه معتمداً على أمرين بعد تأييد الله تعالى له واعزازه ، ومصابرته وأخذهم بالحسنى .

اعتمد أولا على الحق الذى يدعو اليه ، فالحق ذاته قوة لاتعدلها قوة عند النفوس التى لم تتعوج بمفاسد العصبية ، أو التقليد الصم عن الحق ، فذكر لهم التوحيد ، وقد كانوا على ادراك له فى الحملة كما بينا عند الكلام فى القسم التاريخى عن بقاء فى بعض المأثورات عن ابراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة ، وأتم التسليم .

وكان التنبيه الى أن الأوثان لا يعقل أن تعبد ، وازالة ما حولها من أوهام ، وما علق بها من خرافات ما انزل الله بها من سلطان ، وقد بين ذلك محمد عليه السلام على أكمل وجه .

---

(١) الاسراء : ٨٨ (٢) العلق : ١ ــ ٥

واعتمد مع نور الحق فى ذاته على نور القرآن المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو فى هدأة الداعى الرشيد يدعوهم الى هجر عبادة الأوثان، ويقرأ عليهم القرآن الكريم ، ففى دعوة الحق ، وفى القرآن البرهان القاطع والضوء اللامع .

كانوا ينفرون من الحق المجرد ، لأنه يخالف ما ألفوا ، وما وجدوا عليه آباءهم: « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا علينه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ، ولا يهتدون» (١) .

ولكنهم اذا استمعوا الى القرآن تحيرت الأفهام ، واضطربت أحوالهم بين قديم ألفوه ، وحق فى القرآن عرفوه ، فهم يحاورون فى الحق ، ولكن لا يدرون ماذا يدفعون به القرآن الذى يحمله ، ويدعو اليه والى ما جاء به ، وانهم بذوقهم البيانى يجدون أنه فوق كل كلام ، ولا يمكن أن يجرى به لسان من ألسنتهم وأمثالهم ، بل لايمكن أن يأتى به محمد من عنده ، لأنهم من قبل عرفوا كلامه ، وقد رأوه عالياً فى جوامع كلمه ، ولكن القرآن أعلى من طاقة الانسان ومن طاقة محمد ذاته .

ماذا يقولون فيه ؟ أيقولون انه باطل وقد كبروا ما هو دونه من قصيد ورجز ، ان فى ذلك كانت الحيرة ، وهم من الناحية البيانية لم يتهافتوا ، ولم يسفوا فى القول، واذا كان فيهم حمقى حاولوا أن يجاروه ، أو ادعوا أنهم يجارونه ، وعرضوا ما قالوا، فنال الاستضحاك والسخرية ، وزاد القرآن الكريم مكانة وتقديرا ، وما كان لأمثال أبى سفيان والوليد بن المغيرة أن يسفوا بأنفسهم ذلك الاسفاف ، بل انه لم يسف الى هذا عمرو بن هشام (أبو جهل) لأنه يعلم مقدار علوه ، فلا يتهافت الى انكار مكانته فى البيان ، فهو يستبيح أذى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأذى أصحابه ، ولا يستبيح الطعن فى مقام القرآن البيانى ؛ لأنه يلحق الطعن بالأذى والتصغير ، ولا يلحق محمدا الذى نزل القرآن عليه وخاطب به الناس أجمعين ، ولنذكر لك أخبار من سمع القرآن ، وخر بين يديه صاغراً مع شدة العداوة والملاحاة واللدد والخصومة ، والبقاء على الكفر ، والاصرار على الشرك .

---

(١) البقرة : ١٧٠

٢٨ ـ (ا) سمعه الوليد بن المغيرة فرق له رقة لم تعرف فيه نحو الاسلام فخشى أبو جهل (عمرو بن هشام) أن يسير فى الطريق القويم الى الاسلام ، فأنكر عليه أبو جهل حاله ، ولكنه لم يستطع أن يقول فى القرآن شيئاً ، فقال له الوليد :

«والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار منى ، أعرف رجزها وقصيدها ، والله مايشبه الذى يقوله شيئا من ذلك ، ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر » .

ولقد اجتمعت قريش عند الوليد يتذاكرون ماذا يقولون فى القرآن ، وقد رأوا العرب يفدون ، ويستمعون الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيبلغ القرآن منهم أعماق نفوسهم ، فكيف يصدونهم عن ذكر الله وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فأتمروا واجتمعوا حول الوليد ، ليتعلموا ماذا هم قائلون لمنع الحق ، وقد قال لهم أولا الحق على ريب فى نفسه :

قال لهم الوليد العارف الضال : ان وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضكم بعضا .

قالوا نقول « كاهن » .

قال والله ما هو بكاهن ، ما هو برمزمته ، ولا سجعه .

قالوا : « مجنون » ، قال ما هو بمجنون ، ولا بخنقه ، ولا بوسوسته .

قالوا فنقول « شاعر » :

قال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ، ومبسوطه ومقبوضه ما هو بشاعر .

قالوا فنقول « ساحر » .

قال ماهو بساحر ولا نفثه ولا عقده .

قالوا فما تقول أنت ؟

قال ما أنتم بقائلين فى هذا شيئاً ، الا وأنا أعرف أنه باطل ، وان كان أقرب القول انه ساحر ، فانه سحر يفرق بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته ، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس .

(ب) ولنذكر خبر عتبة بن أبى ربيعة ، فقد سمع القرآن وهو على الشرك ، ومن كبراء قريش ، فأدرك بذوقه البيانى مقام القرآن ، وقال مقالة الحق ، والله قد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ماهو بالشعر ولا بالكهانة » •

(حـ) وقد ورد فى حديث اسلام أبى ذر الغفارى أنه قال : « ما سمعت بأشعر من أخى أنيس ، لقد ناقض اثنى عشر شاعرا فى الجاهليــة ، أنا أحدهم ، وقـــد انطلق الى مكة ، وجاء أنيس الى أبى ذر بخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبو ذر فما يقول الناس ؟ قال يقولون شاعر كاهن ساحر ، لقد سمعت قول الـــكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أوزان الشعر ، فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد ، وانه لصادق وانهم لـــكاذبون •

(د) ان كبار المعارضين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم خافوا على أنفسهم من أن يؤثر القرآن فيهم واستحبوا الكفر على الايمان واستحبوا العمى على الهدى، ولذاك تفاهموا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن ؛ لأن الذين يسمعونه يتأثرون بما فيه من علو بيان ، وأنه فوق طاقة البشر ، ووجدوا الناس يؤمنون به فرادى ، ومنهم كبراء كانوا ذوى مقام وجبروت • فوجدوا الايمان يقوى ويكثر أهله ، والشرك يضعف وينقص عدده ، تفاهموا على ألا يسمعوا لهذا القرآن كما أشرنا ، وأن يهرجوا بالقول عند سماعه • ولقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك ، فقال تعالى : « وقال الذين كفروا لا تســمعون لهــذا القــرآن ، والغوا فيه ، لعلكم تغلبون » (١) •

(هـ) ولقد كانوا اذا تلى عليهم القرآن لا ينقده كبراؤهم ، وان كان السفهاء السفسافون منهم يتطاولون لحمقهم ، أما الذين أوتوا حظاً من الادراك ، ولو أعمتهم العصبية وأبعدتهم عن الايمـــان ، فانهم يفرون من مواجهة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقولون : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » (٢) •

(و) وان الله سبحانه وتعالى لم يتركهم فى هذا العجز الصامت الذى يفرون فيه من المواجهة ، ولا يريدون المناصبة ، بل يكتفون بالسكوت العاجز ، ويحاولون

---

(١) فصلت : ٢٦ (٢) فصلت : ٥

التمويه على غيرهم ، كما كفروا فى أنفسهم بالحق ، وقد عرفوه بل تحداهم أن يأتوا بمثله ، ليثير حميتهم أو يؤمنوا به ، وليبين ضعفهم أو يستسلموا ، فقال تعالى: « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين (١) » أى أنه اذا كان قد نسبه لله تعالى افتراء وهو منه ، فمحمد منكم ، فأتوا بمثله ان كنتم صادقين ، وادعوا شهداء ليشهدوا لكم أو عليكم .

وادعوا أن مافيه غير صادق فتحداهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بمفترى يكون فى مثل بيانه ، فقال تعالى : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين (٢) » .

٢٩ — وننتهى من ذلك الى حقيقتين ثابتتين نشير اليهما بالاجمال ، وسنتعرض ببعض التفصيل عند الكلام عن وجوه الاعجاز .

الحقيقة الأولى أن قريشاً مع شدة ملاحاتها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون ، وذكر أوثانهم بغير مايؤمنون لم يتحركوا لأن يقولوا مثله ، وأذعنوا لبلاغته وقوته ، وما أسلم عمر بن الخطاب الا بعد أن قرأ فيه ، وكذلك جبير بن مطعم ، وان القرآن تحداهم ، أن يأتوا بمثله ، فما فعلوا ، بل ماتحرك العقلاء منهم لأن يفعلوا حتى لايسفوا فى تفكيرهم وهم أمام رجل كبير فى قومه وعقله ، ومعه آيات الله تعالى البينات ، فدل هذا على عجز مطلق .

الحقيقة الثانية : أن القرآن جذب العرب الى الايمان بما فيه من روعة ، وقوة بيان ، وايجاز معجز وأقوال محكمة ، وقصص تطول وتقصر ، وهى مملوءة بالعبر فى طولها وقصرها ، واطنابها الرائع وايجازها الذى لايدع صغيرة ولا كبيرة الا أوفاها بالعبارة الناصعة ، والاشارة الواضحة فما كان الايمان نتيجة تحد للمقاويل منهم وعجز ، وان كان العجز ثابتاً ، وانما كان الايمان ثابتا بالقرآن فهو الذى جذب الى الايمان بما فيه من بيان أدركوا أنه فوق طاقة البشر ، وأنه حقائق ثابتة كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، أن الله قوى عزيز (٣) » .

---

(١) يونس : ٣٨ (٢) هود : ١٣ (٣) الحديد : ٢٥

وان الثابت مع ذلك أنه لم يحاول أحد من أهل البيان أن يأتى تمثله ، ولم يعرف ذلك ، واذا كان التاريخ قد ذكر شيئاً من هذه المحاولة ، فانه كان فى أيام الردة من مسيلمة الكذاب وأشباهه ، وان هذا الجـزء الذى رواه التاريخ الذى روى تلك الكلمات التى حاول بها مسيلمة الكذاب أن يجارى فيها القرآن ، يبين مقدار ادراك المشركين ، اذ لم يحاولوا المجاراة ، حتى لايسفوا ، ويكونوا أضحوكة بين العرب، وموضع سخرية ، يسخرون بعقولهم ، ولننقل لك مانقله الباقلانى (١) فى اعجـاز القرآن ليتعجب ، وليتبصر الناظر ، كما قال الباقلانى ، فانه على سخافته قد أضل ، وعلى ركاكته قد أزل ، لأن الزلل سابق على سماعه ، والكفر سابق على ابتداعه وميدان الجهل واسع ، والحماقة لها أهل ، وميدانها عندهم ، ونحن اذا قلنا أن المشركين ضلوا ، فهم فى عقولهم كانوا أوسع ادراكا ، وان جحدوا .

انظر ما قال الجهول يحاكى القرآن «والليل» الأطقم ، والذئب الأدلم ، والجذع الأزلم ما انتهكت أسيد من أحرم » لقد قال هذا لفض خلاف وقع فى قوم من أصحابه: انه ليس جديراً بأن يسمى كلاماً فضلا عن أن يكون له فصاحة أو بلاغة أو أى نوع من الادراك البيـانى .

وهو يقول فى الحكم فى هذا الخلاف أيضاً .

« والليل الدامس ، والذئب الهامس ماقطعت أسيد من رطب ولايابس »

وكان يقول : « ضفدع بنت ضفدعين نقى ما تنقين أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين ، لا الشـارب تمنعين ، ولا المـاء تكدرين ، لنا نصف الأرض ، ولقريش نصـفها » .

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان ، وكانت تتنبأ ، فاجتمع مسيلمة معها ، فقالت له ما أوحى اليك قال أوحى الى « ان الله خلق النساء أفواجا ، وجعل الرجال لهن أزواجا ، فنولج فيهن قعسا ايلاجا ثم نخرجها اذا شئنا اخراجاً ، فينتجن سخالا نتاجا » فقالت أشهد أنك نبى (٢) « .

٣٠ — هذه تفاهات القول التى نقلت عن الذين حاولوا معارضة القرآن ، وقد

---

(١) توفى سنة ٤٠٣ هـ

(٢) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٤٠ (طبع دار المعارف تحقيق الاستاذ أحمد صقر) .

أسفوا فى القول ، وهبطوا فى التفكير ، مما لم يرد أن ينحدر اليه أرباب البيان من قريش ، لأنهم يعرفون مقام ما يسمعون من كلام رب العالمين ، استطاعوا أن يجحدوا الحق وقد عرفوه ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا بمقامهم من الادراك البيانى فيفندوا بيانهم وذوقهم الكلامى ، وان ارتضوا أن يفسدوا عقائدهم ، ويكابروا فى دينهم ، ويكذبوا رسالة ربهم .

وقد يقول قائل : ان التاريخ الاسلامى لم يرو غير الذين صدقوا وآمنوا فحذفوا ما كانت فيه معارضة للقرآن الكريم ، ولذلك كلام قيل من الأفاكين ، ويرده أمران :

أولهما — أنه ما كان يمكن أن يعم الايمان ، وثمة معارضون للقرآن فى جد لا لهو فيه ، ولا عبث .

ثانيهما — أن أعداء الاسلام كانوا فى كل زمان منذ ظهر محمد الى أن قبضه الله تعالى ، ودخل الناس فى دين الله تعالى أفواجا أفواجا ، فالزنادقة كانوا منبثين فى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يألون المسلمين وبالا ، وكان أعداء الاسلام فى أوساط المسلمين وبين ظهرانيهم فبثوا فيهم الأفكار المنحرفة ، والأقوال الهادمة ، والمذاهب المخربة ، وأولئك ما كانوا ليستروا الكلام الذى عورض به القرآن ، اذ يرون فيه هدم الأصل ، وأقصى ما استطاع أولئك الزنادقة أن يفعلوه هو أن يراعوا أن عبد الله بن المقفع (١) اتجه الى أن يكتب كتابا يعارض به القرآن ، وهو ان صح كلامهم فيه يدل على أنه نوى ولم يفعل ، ولو فعل لنظرنا الى ما أتى به . واننا نشك فى أصل صحته ، ولكنهم يريدون أن يثيروا الغبار ، والغبار قد يغشى الأعين المريضة ، وان كان قد أراد هذا فهو دليل على حمقه ، ويثبت زندقته التى اتهم بها ، وأنه أشاع ذلك توهينا ، وأن علم أن المحاولة فوق طاقة البشر .

سر الاعجاز

٣١ — عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ثابت ثبوتا لامجال للريب فيه ، لا يرتاب فيه مؤمن ، ولا يجحده ، ولا يمارى فيه الا من يهمل عقله ، ويسقط

---

(١) توفى سنة ١٥٨ هـ

من حساب المفكرين ، فعلى ذلك تواترت الأخبار ، واتفقت الأمصار ، لا فرق بين عدو وولى •

وانه واضح من سياق الأخبار المتواترة أن عجزهم اقترن بثلاثة أمور :

أولها ــ اعجابهم بعلوه عن أن يصل اليه أحد من البشر ، ولم يحاول أحد من عقلاء المشركين أن يسف فيحاول المحاكاة الا من اتصف بالحماقة فكانت حماقته ضعفين أحدهما فى محاولته ، وثانيهما فى نتائج هذه المحاولة اذ جاء بلغو من القول لا يحتسب فى عداد الكلام ، فضلا عن أن يناهد أبلغ كلام أنزله تعالى فى البشر •

ولقد سببوا عجزهم بأنه يعلو ولا يعلى عليه ، وأن له حلاوة ، وعليه طلاوة ، وأن أعلاه مثمر وأسفله مغدق • وقد قال ذلك المغيرة فى جمعهم ، فما أنكروا عليه حكمه على القرآن الذى سمعه ، ولكن أنكروا عليه أنه تحت تأثير هذا ترك جماعتهم، وكأنهم أقروه على الوصف الذى وصف به القرآن ، ولكن أنكروا عليه الايمان ، وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم كما وصفهم القرآن الكريم •

ثانيها ــ أنهم كانوا مع شركهم ، واستكراه نفوسهم لعدم الاقرار به ينجذبون اليه ، ويريدون أن يسمعوه ، استطابة لما فيه من لفظ ذى نغم يجذب ، وعبارات مشرقة ــ ونظم منفرد أجمل من سمط اللآلىء ، ولأنهم عرفوا ميلهم الى استماعه وأثره فى نفوسهم ، تواصوا الا يسمعوه ، وأن يلغوا عند سماعه ، ولكن الذين تواصوا ذلك التواصى ذهب كل واحد منهم منفردا،ولكن الاستخفاء استعلن عندما التقوا جميعا ، ورأوا أنفسهم مجتمعين ، وليس كل منهم منفردا ، وقد علموا أن التواصى على عدم الاستماع لا جدوى فيه ، فتواصوا على الجحود والانكار ، فلم يكن تواصيهم على الحق ، ولكن كان على الباطل •

ثالثها ــ أن أشدهم عناداً كان أقربهم ايماناً اذا قرأ القرآن صغى قلبه الى الايمان ،والى الاستجابة لداعيه ،فقد سمع أبو ذر الغفارى القرآن ، فآمن ، وسمعه أخوه أنيس ، فأذعن لعلو بلاغته عن مستوى البشر ، وسمعه جبير بن مطعم فآمن، وقرأه عمر بن الخطاب ، فانخلع قلبه من الشرك وطغيانه ، الى الايمان ، وأن يكون

فاروق الاسلام الذى كان ايمانه فارقا بين الاستخفاء والاعلان ، بين ظهور الحق وخفـــوته .

ان هذه الأمور التى اقترنت بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله دلت على أمرين بدهيين :

أولهما أن الأساس فى عجزهم هو ما فيه من بلاغة ورنة قول ، ونغمة بيان أدركوها بذوقهم البيانى ، وهم الذين يذوقون باسماعهم ، كما يذوق الطعام بفمه ، وأنه لم يكن عجزهم سلبيا ، بل كان من كثيرين منهم ايجابياً يتبعه العمل ويقترن بالايمان بأنه من عند الله تعالى أى أن وجه الاعجاز فيه أمر ذاتى فيه ، وليس منعاً سلبياً .

الأمر الثانى الذى تدل عليه هذه الأمور التى اقترنت بالعجز عن محاكاته ، هو أن القرآن مع بيانه العالى الذى لا يعالى ، فيه من العلوم مالم يكونوا يعرفونه ، فيه الشرائع المحكمة التى تنظم العلاقات بين الآحاد الأقربين . وغيرهم ، فيه علم الميراث ، وفيه علم الأحكام المختصة بالأسر ، وفيه بيان خلق الانسان من سلالة من طين ، وفيه توجيه النظر الى الكون وما يشـــتمل عليه ، وفيه من حقـــائق مالا يعلمه الا اللطيف الخبير ، الذى خلق فسوى ، والذى احاط بكل شىء علماً .

وفيه القصص والعبرة ، وما كانوا يعلمون شيئاً من ذلك من قبله ، فيه قصة أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، وقصة بناء الكعبة . اذ يرفع ابراهيم القواعـــد من البيت واسماعيل ، وفيه أنبياء البلاد العربية التى تعلن آثار الأقوام وما أنزله الله تعالى بهم ، وفيه قصة موسى عليه السلام ، وفيه قصة مريم ، وتربيتها ، وكيف اختصموا فى كفالتها ، وكيف يستخدمون القرعة بالسهام لتكون كفالتها لمن تـــكون السهام له : « وما كنت لديهم ، اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون (١) » .

قرءوا ذلك وسمعوه ، فكان العجز لهذه الأمور الذاتية ، لا لأمور أخرى ليست من القـــرآن .

---

(١) آل عمران : ٤٤

الصرفــــة

٣٢ — عرف العرب أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، وعللوا عجزهم بما استرعاهم ما فيه من حلاوة اللفظ ، وطلاوة المعنى والتركيب . وعمق ما اشتمل حتى انه مغدق فى جذوره كلما تكشف القارىء عن عمقه رأى مالايصل اليه البشر ، وكلما اتجه الى أعلاه وجد ثمراً شهياً .

هذا أمر ظاهر ، ولكن الفلسفة التى تسيطر على عقول بعض الناس ، ولا تكون فيها ثمرة ناضجة قد يتجهون بها الى كل مايرونه بديئاً فى التفكير سواء أكان متصلا بالحق المجرد أم لم يكن متصلا ، وسواء أكان متفقا مع الايمان والواقع أم لم يكن ، بل ان المتفلسفين ربما اتجهوا الى الفكرة ، لا لأصالتها ، ولكن لغرابتها ، ولا لأنها لابد منها لتحقيق الحق وابطال الباطل ، ولكن للترف العقلى لا يفرقون بين أمر يتصل بالايمان ، وأمر لاصلة له بالايمان .

وان بعض المتفلسفين من علماء المســلمين اطلعوا على أقوال البراهمة فى كتابهم « الفيدا » وهو الذى يشتمل على مجموعة من الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم ، ويقول جمهور علمائهم ان البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، لأنه يراهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها .

يقول فى ذلك أبو الريحان (١) البيرونى فى كتابه «ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة مانصه :

« ان خاصتهم يقولون ان فى مقدورهم أن يأتوا بأمثالها ، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها » .

ولم يبين البيرونى وجه المنع أهو منع تكليفى يسبقه الايمان بهذه الكتب وتكون دلائل وجوب الايمان من نواح أخرى ، أم هو منع تكوينى بمعنى أن برهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها ، والأخير هو الظاهر لأنه هــو الذى يتفق مع قول جمهور علمائهم ، وما اشتهروا من أن القول بالصرفة نبع فى واديهم .

٣٣ — وعندما دخلت الأفكار الهندية فى عهد أبى جعفر (٢) المنصــور ، ومن

---

(١) توفى سنة ٤٣٠ هـ

(٢) ثانى خلفاء بنى العباسى توفى سنة ١٥٦ هـ

والاه من حكام بنى العباس ، تلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار ويركنون الى الاستغراب فى أقوالهم فدفعتهم الفلسفة الى أن يعتنقوا ذلك القول ، ويطبعوه على القرآن ، وان كان لا ينطبق ، فقال قائلهم ، ان العرب اذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، ما كان عجزهم لأمر ذاتى من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه ، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله .

وان رواج تلك الفكرة يؤدى الى أمرين : أولهما — أن القرآن الكريم ليس فى درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته ، وتعجز القدر البشرية عن أن تأتى بمثله فالعجز ليس من صفات القرآن الذاتية .

وثانيهما — الحكم بأنه ككلام الناس لايزيد عليه شىء فى بلاغته ، أو فى معانيه .

وان مذهب الصرفة قد وجد من يقوله من علماء الفلسفة الكلامية وغيرها بل وجد من يقوله من بين الذين أنكروا الرأى فى الفقه ، وهو مع جموده فى الفقه من أبلغ الكتاب والشعراء .

ولنترك الكلمة للباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ . فى كتابه اعجاز القرآن ، قال رضى الله تبارك وتعالى عنه .

« فان قيل فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم فى أجناس الفصاحات ، وهلا قلتم ان من قدر على جميع هذه الوجوه بوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وانما يصرفه الله عنه ضرب من الصرف ، أو يمنعه من الاتيان بمثله ضرب من المنع ، أو تقصر دواعيه اليه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله تعالى من الدلالة ، ويحصل ما قصده من ايجاب الحجة ، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما ، واذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية الى الأولى ، وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والصورة (١) » .

ونرى من هذا أن القائلين بهذا القول يشككون فى مرتبة القرآن وكونه من عند

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٤١ طبع دار المعارف

الله تعالى من غير أن يقدموا دليلا ، بل ان القصد الذى يبدو من لحن القول والدعوى هو التشكيك المجرد فى علو البلاغة القرآنية ، ومن وراء ذلك التشكيك مايريدون من توهين ثم دعاوى بأنه من صنع محمد عليه السلام وهكذا يسير الخط من احتمالات تنافى الواقع الى توهين لأمر القرآن ، الى ادعاء أنه ليس من عند الله •

٣٤ — وان القول بالصرفة ثبت أو نبت فى رواق الفلسفة الكلامية ، قاله شيخ من شيوخهم • وهو ابراهيم بن سيار الشهير بالنظام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، فهو أول من جاهر به ، وأعلنه ردعا اليه ، ولاحى عنه كأنه مسألة من مسائل علم الكلام ، ونقول انه أول من جهـــر به ، ولا نقول انه أول من فكر فيه ، أو أول من ابتدأ القول به ، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهى تتكون فى خلاياها ، بل لا تعرف الابعد أن تظهر ، ويجاهر بها •

جاهر بها ، وكان ذا فصح وبيان وحجة وبرهان ، وان لم يكن مستقيم الفكر بل انه يظن الظن ، فيحسبه يقينا ثم يبنى عليـــه ويقايس ، ويصحح القيـــاس والتنظير بين الأشياء ، بينما الأصل ذاته يحتاج الى قياس صحيح •

ولقد نقده تلميذه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذى كان معجباً بشـــخصه ، غير آخذ برأيه ، وقال فيه ذاكراً عيبه ، فقال :

انما عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياســه على العارض والخاطر ، والسابق الذى لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاف ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً ، فاذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت ، وكأن كلامه خرج مخرج الشهادة القاطعة فلم يشك السامع أنه انما حكاه عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته » •

لم يوافق التلميذ أستاذه ، لم يوافق الجاحظ شيخ الكتاب المسلمين ، وأكبر ناقد بين الناقدين شيخه ، واذا كان ابراهيم بن سيار قد اشتهر بالبيان ، وسرعة الجواب ، ولسن القول ، فقد اشتهر الجاحظ بأنه ذواق الكلام وصيرفى البيان ،

فان خالف من يتسرع في الخبر ، ويبنى عليه ، فهى مخالفة الخبير العارف بتصريف القول ، وأفانين التعبير والتفكير .

ولم يكن رد الجاحظ على شيخه رد المجادل المحاور ، ولكنه كان بالعمل ، فقد كان أول من كتب فى اعجاز القرآن من الناحية البيانية ، ليكون الرد على الصرفة ببيان الاعجاز الذاتى .

ولقد أشار الى رد الجاحظ الذين كتبوا فى الاعجاز ومنهم الباقلانى ، وممن نسب اليه القول بالصرفة الشريف المرتضى من الشيعة ، وفسر الصرفة بأن الله تعالى سلبهم العلوم التى يحتاج اليها فى معارضة القرآن والاتيان بمثله ، ومؤدى كلامه أنهم أوتوا المقدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة ، فهم قادرون على النظم ، والعبارات ، ولكن ليست عندهم المقدرة بسبب أنهم لم يعطوا العلم الذى يستطيعون به محاكاة القرآن فى معناه .

وان هذا القول ينافيه أن الله سبحانه وتعالى طالب بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأعفاهم من أن يكون كلامهم مشتملا على مافى القرآن من علم ، واقتصر على التحدى بالنظم والعبارة واللفظ .

فهذا القول نوع من الصرفة ، ونفى للاعجاز الذاتى ، ويختلف مع ما اشتمل عليه القرآن .

ومن قالوا بالصرفة الفقهية البليغ العنيف المتشدد ابن حزم (1) الأندلسى ، فقد قال فى كتاب الفصل فى سبب الاعجاز : « لم يقل أحد ان كلام غير الله تعالى معجز ، لكن لما قاله الله تعالى ، وجعله كلاماً له ، أصاره معجزاً ، ومنع من مماثلته » ثم قال: وهذا برهان كان لايحتاج الى غيره .

وان ذلك الكلام يبدو بادىء الرأى غريباً من ابن حزم ، ولكن المتأمل فيه يجده سائراً على مذهبه فى نفى الرأى . والحكم بظاهر القول من غير تعليل ، فالاتجاه الى تعليل الاعجاز بأن السبب فيه بلاغته التى علت عن طاقة العرب ، والتى جعلتهم يخرون صاغرين بين يديه من غير مراء ولا جدال يعد تعليلا ، وهو من باب الرأى

---

(1) توفى سنة ٤٥٦ ﻫ

الذى ينفيه، والتعليل الذى يجافيه ، فلابد أن يبحث عن سبب غير ماذكر الله تعالى •

٣٤ — واننا نرى أنه بعد كلام النظام صارت فكرة الاعجــاز بالصرفة مجال اختلاف بين العلماء ما بين مقرر لها وما بين مستنكر • وقد آن لنا أن نبين بطلان هذه الفكرة من أساسها ، وان دلائل البطــلان قائمة ثابتة مأخوذة من الوقائع التاريخية والموازنات الحقيقية الثابتة •

(أ) منها ، ماذكرنا من قبل أن العرب عنــدما تلقوا القرآن راعهم بيانه ، وأثار اعجابهم أسلوبه وعباراته ، وقالوا مارأينا مثله شعراً ولا نثراً ، فكان العجز لذاته ، لا لشىء خارج عنه ، وما لنا نفترض مالم يقولوا وما لم يفعلوا ، ومالم يقدروا ، الا أن يكون ذلك تمويهاً ، وانكاراً للواقع المستقر ، بغرض وهمى •

(ب) وأيضاً فانه لو كان العجز لأمر خارجى لا لأمر ذاتى فيه بأن تكون عندهم القدرة على أن يأتوا بمثله ولكن صرفوا ، فان ذلك يقتضى أن يثبت أولا أنهم قادرون على مثله ، وهم أولا قد نفوا ذلك عن قدرهم ، وليس لنــا أن نفرض لهم قدرة قد نفوها عن أنفسهم ، ولو كانوا قادرين لكان من كلامهم قبــل نزول القرآن عليهم مايكون متماثلا فى نسقه ونسجه ، وله مثل رنينه وصوره البيانية فى شعر أو نثر • ولكن المتتبع للمأثورات العربية ، فى الجاهلية والاسلام لا يجد فيها ما يقارب القرآن فى ألفاظه أو معانيه أو صوره البيانية •

ولذا لجأ الباقلانى(١) فى كتابه اعجاز القرآن الى الموازنة بين القرآن ، وبين المعروف من أبلغ الكلام فى الجاهلية ، ويقول فى ذلك « لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم ، وعجيب التأليف ، لأنهم لم يتحدوا به ، ولم تلزمهم حجته ، فاذا لم يوجد فى كلام قبله مثله علم أنه ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان ••• »

(ج) واننا لو قلنا ان الذى منع العرب من الاتيان بمثله هو الصرفة ماكان القرآن هو المعجز ، انما يكون العجز منهم ، ولم يكونوا عاجزين ، وانما يكونون قد أعجزهم الله ، ولم يعجزهم القرآن ذاته ، وقد كان القرآن هو معجزة النبى صلى الله

---

(١) توفى الباقلانى سنة ٤٠٣ هـ

تعالى عليه وسلم ، والقول بالصرفة ينفى عنه خواص الاعجاز •

وان معجزات النبيين السابقين ما كان فى طاقة الناس أن يأتوا بمثلها فى ذاتها، ولم يكن بصرف الناس أن يأتوا بمثلها ، فمجزة العصا ، وتسع الآيات التى لموسى عليه السلام ما كان العجز من الناس بالصرف ولكن بالعجز الحقيقى • فلماذا لا تكون معجزة النبى محمد عليه السلام كسائر المعجزات ، وهى أجل وأعظم •

(د) وان الله تعالى قد وصف القرآن بأوصاف ذاتية تجعله فى منزلة لا تصل اليها معجزات أخرى ، فكانت هذه توجب أن يكون اعجازه ذاتياً • ولقد قال تعالت كلماته : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً » (١) •

ويقول جل من قائل : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » (٢) •

واذا كان القرآن بهذه الأوصاف التى وصفه بها منزله سبحانه وتعالى،أفيقال بعد ذلك ان الناس يستطيعون أن يأتوا بمثله ؟ اللهم ان ذلك بهتان عظيم •

(هـ) وان مثل الذين يقولون ان اعجاز القرآن بالصرفة كمثل الذين قالوا ان القرآن ســـحر يؤثر •

وقد أثبت ذلك الرافعى فى كتابه اعجاز القرآن ، فقال : « وعلى الجملة فان القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب ان هذا الا سحر يؤثر ، وهذا زعم رده الله تعالى على أهله ، وأكذبهم فيه ، وجعل القول فيه ضرباً من العمى « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » (٣) •

وان التشابه بين القول بالصرفة والقول بأنه سحر أن الامتناع عن المماثلة فى كليهما من خارج الشىء لا من ذاته فالقول بالصرفة يفيد أن العرب لم يكونوا عاجزين، ولكن حيل بينهم وبين العمل على المماثلة وكذلك الأمر فى الســـحر يشدههم ، حتى يعجـــزوا •

---

(١) الرعد : ٣١ (٢) الزمر : ٢٣ (٣) الطور : ١٥

ولقد سبق أن علل المشركون عجزهم بعد التفكير والتقدير بأنه سحر يؤثر •

قال تعالت كلماته فى شأن الوليد بن المغيرة : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر (١) •

هذا ما وصل اليه الوليد بن المغيرة بعد أن قدر ودبر فى ملأ من قومه ، يجىء كاتب متفلسف فيأتى بهذا القول من غير تقدير ولا تدبير •

٣٥ — ومهما يكن من بطلان هذه الفكرة ، فقد أدت الى انشاء علوم البلاغة فى ظل القرآن ، فاتجه الكاتبون الى بيان أسرار البلاغة فى هذا الكتاب المبين ، المنزل من عند الله الحكيم ، قرآناً عربياً ، فكان هذا الباطل سببا فى خير كثير ، وكما يقول المثل السائر « رب ضارة نافعة » فقد تولد عن هذا الباطل دفاع حكيم ، ولدت منه علوم البلاغة العربية ، وكما تولد عن الخطأ فى تلاوة آيه « علم النحو » تولدت علوم البلاغة العربية • وان أكثر ما كتب الأولون فى البلاغة والفصاحة كان فى ظل القرآن ، ومحاولة لبيان اعجازه •

وان أول ما كتب فى اعجاز القرآن من ناحية البيان كان فى الوقت الذى جاء فيه القول بالصرفة ، بين نفى واثبات كما أشرنا ، وأول من عرف أنه تصدى الكلام فى الاعجاز فى نظم القرآن هو الجاحظ ، تلميذ النظام ، الذى أنكر عليه قوله ، وعابه فى منهاجه الفكرى من أنه يظن الظن ، ثم يجعله أصلا يجرى عليه القياس مصححا لقياسه بالمنطق ، والعيب فى أصل القول الذى بنى عليه ، لا فى الأقيسة التى أجرى بها مشابهاته ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل •

وقد كتب فى ذلك كتابه النظم ، وقد عابه الباقلانى ، ليدغع بذلك التسليم له بالسبق ، ولأنه معتزلى • ولكن الجاحظ فى كتابات له كثيرة غير كتابه النظم ، كان يذكر مواضع من اعجاز القرآن فى آيات يتعرض للقول فيها ، ليبين مقامها من البيان ،

(١) المدثر : ١١ — ٢٥

فهو فى كتاب الحيوان يذكر أنه جمع آيات من القرآن يعرف مقامها فى البيان ، فهو يقول : « ولى كتاب جمعت فيه آياً من القرآن ليعرف بها ما بين الايجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فاذا قرأتها رأيت فضلها فى الايجاز والجمع للمعانى الكثيرة ، والألفاظ القليلة ، فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة « لايصدعون عنها ولا ينزفون » (١) وهاتان الكلمتان جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة « لا مقطوعة ولا ممنوعة » (٢) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعانى •

وهذا الكتاب الذى أشار اليه لم يكشف فى التراث الاسلامى ، ولكنه يدل على أن الجاحظ كان يتعرض لأسرار الاعجاز ، كلما لمح بريق الاعجاز فى آياته •

ولكن التعصب المذهبى يستهين بكلام الجاحظ فى اعجاز القرآن بل انه يتحامل عليه فى كتابته كلها فيقول فى ذلك الباقلانى الأشعرى عن الجاحظ أحد شيوخ المعتزلة : « كذلك يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذى لا يؤخذ فيه ، والباب الذى لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً ، ومنهاجه معيباً ، ونطاق قوله ضيقا ، حتى يستعين بكلام غيره ، ويفزع الى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر أو مثل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه فى أثناء ذلك، فسطور قليلة وألفاظ يسيرة •• فاذا أردت أن تحقق ذلك فانظر فى كتبه فى نظم القرآن وفى الرد على النصارى وفى خبر الواحد ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى » (١) •

ولقد جاء من بعد نظم القرآن للجاحظ الذى كان رداً عملياً على كلام النظام الذى أدخله من الهند ، وهو مذهب الصرفة جاء بعده أول كلام واجه الصرفة فى اعجاز القرآن، وهو كتاب اعجاز القرآن لأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتوفى سنة ٣٠٦ هجرية أى بعد موت الجاحظ بنحو ستين سنة ، وهو صورة المجاوبة التى كانت دفعا لمذهب الصرفة الذى بلبل الأفكار ، وكان بين ممانعة من الأكثرين ، ومجاوبة من القلة ، حتى صارت نادرة ، وحتى طواه التاريخ وهو فى هذا قد طرق باب البلاغة طرقا قويا،وأصل الأصول المشتقة من كلام العرب ونظمها وطبقها على القرآن،وثبت

---

(١) الواقعة : ١٩ (٢) الواقعة : ٣٣

من التطبيق أنه أعلاها •

وهذا الكتاب يعد أصلا بنى عليه ، فقد شرحه عبـد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ﻫ فى شرحا مطولا ، وأودع ذلك الشرح كتابا سماه المعتضد ، وله شرح آخر أصـغر منـه •

وهكذا كل كاتب يقيم بناء يكمله من يجىء بعده ، فالواسطى أكمل البناء الذى وضعه الجاحظ ، أو بنى عليه ، وترك لغيره أن يكمل البناء •

وجاء عبد القاهر الجرجانى فبنى على ما وضع الواسطى ، وكان كتابه دلائل الاعجاز قد أوفى على ما وضع الجاحظ والواسطى •

وفى الزمن الذى سار فيه الجاحظ والواسطى من بعده ، والجرجانى من بعدهما ، وانتهى الى تلك الثروة المثرية فى باب الاعجاز البلاغى للقرآن ، كانت هناك محاولة أخرى ، فى طريق مواز لذلك الطريق •

فقد وضع أبو عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٢ ﻫ كتابه فى الاعجاز ، فوضع بناء ثالثاً ، غير بناء الجاحظ والواسطى ثم جاء الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ ﻫ فوضع كتابه اعجاز القرآن ، ويلاحظ أن تاريخه سابق على دلائل الاعجاز ، وأحسب أن من الحق علينا أن نقول أن دلائل الاعجاز لم يبين على الواسطى فقط ، بل انه أخذ من كل الينابيع التى سبقته وان القارىء له يجد فيه كل مزايا من سبقـه ، وفيه زيادة جديرة بالأخذ ، بل أساس لعلوم البلاغة كلها مستقاة من القرآن ، وموضحة لأوجه البلاغة فيه أولا ، وعلوه على كل كلام ثانيا ، ثم فيه وضع مقاييس ضابطة لكل كلام بليغ ثالثاً •

فكتاب الباقلانى ، قد تعرض للاعجاز بالمواجهة ابتداء ، ولم يسق علم البلاغة ابتداء ، ثم يتعرض للاعجاز انتهاء ولكنه جعل الأصل فى الكلام الاعجاز ، ثم البلاغة تابعة له تبعية الدليل للمدلول ، والبرهان الدعوى ، والمقدمة للنتيجة •

ويلاحظ على هذا الكتاب أنه لم يشر الى ماسبقه الا الجاحظ ، فقد أشار اليه اشارة لا تكريم فيها ، ولكن فيها استهجان واستصغار لما كتبه ، ولم يشر أى اشارة الى ما كتبه الواسطى ، وماكتبه الرمانى ، وقد سبقاه وكان ثانيهما على مقربة من زمانه ، مع أنه أخذ من الرمانى قطعاً ولم يذكر اسمه •

ومهما يكن الأمر بالنسبة لمن سبقوه فى القول ، واهمال ذكرهم ، فهو الكتاب الذى اختص بأن يكون فى الاعجاز ابتداء ، كما أشرنا ، وقد وفى فيه بأمهات المسائل.

ويقول فيه الرافعى المتوفى سنة ١٩٣٧ م فى كتابه اعجاز القرآن « على أن كتاب الباقلانى ، وان كان فيه الجيد الكثير وكان الرجل قد هذبه وصفاه ، وتصنع له، الا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره ، ولم يتحاش وجها من التأفف لم يرضه من سواه ، وخرج كتابه كما قال هو فى كتاب الجاحظ ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا .. وقد حشر اليه أمثلة من كل قبيـــل من النظم والنثر ، ذهبت بأكثره ، وغمرت جملته ، وعدها فى محاسنه ، وهى من عيوبه ثم يقول : « وكان الباقلانى ، رحمه الله وأثابه ، واسع الحيلة فى العبارة مبسوط اللسان الى مدى بعيد ، يذهب فى ذلك مذهب الجاحظ ، ومذهب مقلده ، على بعد وتمكن ، وحسن تصرف ، فجاء كتابه، وكأنه فى غير ما وضع له لما فيه من الاغراق فى الحشد ، والمبالغة فى الاستعانة ، والستراحة الى النقل » .

والرافعى بهذا ينقد الباقلانى ، ويصفه بمثل ما وصف هو به الجاحظ .

ومن حق العلم على العالم ألا يتنقص غيره ، وأن يعرف اللاحق ، أنه متمم لما بدأ السابق ، غير ناكر لفضل ، ولا باخس لحظ .

وهكذا فى عصر الباقلانى ومن بعده ، حتى كان آخرها تأليفاً من حيث القيمة العلمية ، والدرجة البيانية كتاب اعجاز القرآن للرافعى رحمه الله تعالى ، وأثابه ، وجزاه عن الاسلام خيراً .

وجـــوه الاعجاز

٣٧ — نقصد بوجوه الاعجاز الامور التى اشتمل عليها القرآن ، وهى تدل على أنه من عند الله ، وما كان فى استطاعة أحد أن يأتى ، بمثله ، وما كان فى استطاعة الجن والانس أن يأتوا بمثله ، ولنتجه الى أقوال العلماء فى هذه الوجوه ؛ ثم نتجه بعد ذلك الى بيان ما نقصد الى بيانه من بحثنا هذا الذى نضرع الى الله أن يمن علينا بالتوفيق فيه كما من علينا من قبل ، فنحن نعيش فيما نكتب ونبحث تحت فيض الله تعالى وتوفيقه ، ولولا توفيقه سبحانه وتعالى ما وصلنا الى شىء .

يعد صاحب الشفاء أوجه الاعجاز فى القرآن فيحصرها فى أربعة :

أولها — حسن تأليفه ، والتئام كلمه وفصاحته وبلاغته الخارقة لما عند العرب.

وثانيها — صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كــلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ، ووقفته عند مقاطع آيه ، وانتهت فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة منه .

وثالثها — ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر كقوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام ان شـــاء الله آمنين (١) ، وكقوله تعالى : « غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين (٢) . الى آخر ذلك من الأمور المغيبة التى أخبر القرآن عنها قبــل وقوعها ، فوقعت كما أخبر .

ورابعها — ما أخبر به من أخبار القرون والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة مما كان لايعلم منه القصة الواحدة الا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك فيورده النبى صلى الله عليه وسلم على وجهه ويأتى به على نصه ، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه ،وأن مثله عليه السلام لم ينله بتعليم ، وقد علموا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمى لا يقرأ ولا اشتغل بمدارسة .

هذا ما ذكره القاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ فى وجوه الاعجــاز ، ونجد الأمرين الأولين يتعلقان بالناحية البيانية فى القرآن وان كان أولهما يتعلق بتأليف كلماته وتناسقها مع فصاحتها وسلامتها وخلوها من الحوشى ، والثانى بصـــورة

---

(١) الفتح : ٢٧ (٢) الروم : ٢ — ٣

النظم ومع تخالف حقيقتهما نجد كلا منهما ينتهى الى الناحية البيانية •

أما الأمران الآخران ، فانهما يتعلقان بصدق الأخبار التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، بيد أن الأول يتعلق بالاخبار عن الغيب فى المستقبل الذى لا يعلمه الا الله تعالى ، والثانى يتعلق بالاخبار عن الماضى •

٣٨ — وذكر القرطى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ فى تفسيره أن أوجه اعجاز القرآن عشرة :

١ — منها النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وغيرهم لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء ، ولذلك قال رب العزة • « وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له » (١) •

٢ — ومنها الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب •

٣ — ومنها الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال من الأحوال ، وتأمل ذلك فى صورة « ق والقرآن المجيد » الى آخرها (٢) •

وقوله تعالى : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة (٣) الى آخر السورة وقد ضرب على ذلك الأمثلة الكثيرة •

وهذه الأمور الثلاثة كما نقل القرطبى عن ابن الحصار من النظم والجزالة لازمة فى كل سورة بعيدة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدى والتعجيز •

٤ — ومنها التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على اصابته فى وضع كل كلمة وكل حرف فى موضعه (باعتبار أن القرآن الكريم فيه الكلمات من لهجات العرب ، أو لغاتهم) •

٥ — ومنها الاخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله من أمى، ما كان يتلو من قبله من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذى القرنين

---

(١) يس : ٦٩ (٢) ق : ١ — ٤٥ (٣) الزمر : ٦٧

فجاءهم وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب وليس له بذلك علم بما عرفوا من الكتب السالفة صحته قال القاضى ابن الطيب (١) ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل اليه الا عن العلم واذا كان معروفاً أنه لم يكن ملابساً لأهل الآثار ، وحملة الأخبار ولا متردداً الى المتعلم منهم ، وما كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع اليه كتاب فيأخذ منه — علم أنه لا يصل الى علم ذلك الا بتأييد من جهة الوحى .

٦ — ومنها الوفاء بالوعد المدرك بالحس فى العيان ، فى كل ما وعد الله سبحانه، وينقسم : الى أخباره المطلقة كوعد الله بنصر رسوله عليه السلام ، واخراج الذين أخرجوه . والقسم الثانى وعد مقيد بشرط . كقوله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه (٢) » .

٧ — ومنها الاخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها الا بالوحى ، فمن ذلك ما وعد الله به نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على كل الأديان ، بقوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »(٣) ففعل ذلك .

٨ — ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام الأنام فى الحلال والحرام وسائر الأحكام .

٩ — ومنها الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى .

١٠ — ومنها التناسب فى جميع ما تضمنته ظاهراً وباطناً من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٤) . بعد أن ذكر القرطبى هذه العشرة قال :

« قلت فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله تعالى عليهم ، ووجه حادى عشر قاله النظام وبعض القدرية ان وجه الاعجاز هو المنع من معارضته والصرفة عند التحدى بمثله ، وأن المنع والصرفة هو المعجزة ، دون ذات القرآن ، ذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا

---

(١) المتوفى سنة ٤٣٥ هـ (٢) الطلاق : ٣

(٣) التوبة : ٣٣ (٤) النساء : ٨٢

فاسد ، لأن الاجماع قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ، فلو قلنا أن المنع والصرفة هو المعجز تخرج القرآن عن أن يكون معجزاً وذلك خلاف الاجماع ، واذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز ، وأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة اذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه ، فلما لم يكن كذلك مألوفاً معتاداً منهم دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزاً .

٣٨ — ومن هذا نرى أن القرطبى قد أتى بوجوه كثيرة عدها من اعجاز القرآن، وقد ذكر عشرة ، وانه لكى يكون استقراؤه كاملا لانقص فيه أتى بالصرفة ، وعدها وجها من الوجوه عند بعضهم ، وقد رددناها كما ردها هو ، وانتهى الى أن اعجاز القرآن ذاتى ، وليس من أمر خارج . وأقمنا كما أقام الدليل على ذلك ، مما لا يجعل موضعاً لهذا القول ، وبينا مصدرها الهندى ، وأنها فكرة دخيلة على المسلمين ، والحقائق تخالفها ، والوقائع تجافيها .

ولكن يجب أن يلاحظ فيما أحصاه القرطبى ، والقاضى عياض أمران :

١ — أولهما — أن الأقسام التى ذكراها يتداخل بعضها فى بعض ، أو أنهما جعلا ما يتعلق بالنظم جزءاً منه خاصا بفصاحة القول وجزءاً يتعلق بالنظم وجزءاً يتعلق بالأسلوب ، وجزءاً يتعلق بالجزالة ، وجزءاً يتعلق بالتصرف فى القول وكل ذلك يتعلق بالمنهج البيانى القرآنى ، وهذه الكلمة تجمع تلك الأقسام كلها ، فلا تخرج من عمومها خارجة .

والأمر الثانى — أن بعض هذه الوجوه تحدى بها القرآن الكريم ، فقد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله ولو عشر سور مفتريات والوجوه الأخرى لم يتحد بها القرآن الكريم ، وان كانت من عند الله تعالى العليم الحكيم ، مثل اخباره عن أمور مغيبة فى المستقبل ، ثم وقوعها ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى فى كتابه .

واخباره عن الأمم السابقة ، واخباره عن شأن عبد الله الصالح مع موسى نبى الله تعالى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ومثل قصة أهل الكهف ، وذى القرنين ، فذكر هذا القرآن الذى نزل على أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس الى معلم دليل على أنه من عند الله سبحانه وتعالى .

ومن هذه الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن ، فانها لا يمكن أن تكون من عند محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بل هي من عند الله .

وقد كتبنا فى هذه عدة بحوث فى احدى المجلات[1] الاسلامية ، بعنوان (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله) جمعتها احدى الهيئات الاسلامية فى رسالة ، ونشرتها ، وترجمتها الى الفرنسية والانجليزية ، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتى بها أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ فى بلد أمى ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة ، وهى فى أحكامها ، لا يمكن أن تكون الا من الله تعالى .

وكتبنا بحثاً وازنا فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان فى الملكية بالخلافة، وذكرنا أن قانون الرومان قد تكون فى نحو ثلاثة عشر قرناً ، ومع ذلك هو فى الملكية بالخلافة لا يوازن بشريعة القرآن الا اذا وازنا بين عصا هشة وسيف بتار ، فلا يمكن أن يأتى به محمد من عنده ، بل هو من عند الله تعالى .

والأوروبيون القانونيون يرون فى قانون الميراث فى القرآن أن العقل البشرى لم يصل الى الآن الى خير منه ، ونحن لهذا نقرر أن ماذكره القرطبى غير الصرفة يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلا هو من عند الله سبحانه وتعالى العليم الخبير .

ولكن نرى أن الله تعالى تحدى العرب أن يأتوا بمثله ولو مفترى ، فكان التحدى للعرب ابتداء بالمنهج البيانى للقرآن ، وهو الذى استرعى ألبابهم . ولعله لم تكن بلغت مداركهم العقلية والقانونية أن يعرفوا مدى مافى أحكام القرآن من تنظيم سليم للمجتمع ، فيه المصلحة الانسانية العالية التى تعلو على تفكير البشر ، وان كان فيهم ذوق بيانى يذوقون به الألفاظ الفخمة القوية فى رنينها ، المصورة للمعانى فى أحوالها الصوتية وتكوين حروفها ، ومرامى عباراتها ، ويدركون فى ذلك المعنى السليم من غير اجهاد فيدركون ماهو جيد المعنى فى ذاته من غير أن يتعرفوا فلسفة قانونية أو عقلية أو كونية ، وفى القرآن ما يرضيهم ويملأ نفوسهم ، ويعجزون عن أن يأتوا بمثله .

---

(١) مجلة « المسلمون » ومجلس الشئون الاسلامية هو الذى جمع هذه البحوث وترجمها الى الانجليزية والفرنسية .

وان القرآن فيه الشريعة الباقية الخالدة ، وهو يخاطب الأجيال كلها ، والأجناس كلها العرب والعجم ، والبيض والسود والأحمر والأصفر ، فليس مافيه من الاعجاز خاصاً بالعرب ، وانما اعجازه يعم الجنس البشرى كله لأنه يخاطب الجميع ، ويطالب الناس قاطبة بأحكامه . وفيه البينات المثبتة لكل جنس .

وعلى ذلك نقسم وجوه الاعجاز التى اشتمل عليها القرآن الى قسمين :

أولهما : ما يتعلق بالمنهاج البيانى ؛ وهذا النوع من الاعجاز أول من يخاطب به العرب ، لما ذكرنا فى صدر كلامنا من أنه جاء بلغتهم ، ولأنهم كانوا بمقتضى بداوتهم مع استقامة تفكيرهم ، ومع وجود نبوات سابقة فيهم أبقت بعض العلم ، وبمقتضى ثقافتهم اللسانية وعنايتهم بلغتهم كانوا أكثر الناس ادراكا لمعنى الاعجاز فى القرآن من ناحية بيانه ، ونغمه ، وجزالته ، وكذلك كان الأمر منهم ، وكانوا هم المخاطبين أولا به ، وبعجزهم قام البرهان الأول .

والقسم الثانى : الاعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين ، ولأخبار مستقبلة ، وقعت كما ذكر ، واشتماله على علوم كونية وحقائق لم تكن معروفة فى عصر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أتى بها القرآن ، وتقررت حقائقها من بعد ، وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الانسانى أنها أصلح من غيرها وأنها وحدها العادلة ، وان هذا النوع معجزة للأجيال كلها ، وهو يحتاج فى بيانه الى مجلدات ضخام ، ولذلك نتجه ابتداء الى القسم الخاص بالبلاغة ، وهو الأول .

الإعجاز البلاغي

٣٩ - أخذنا أولا من أسباب الاعجاز ذلك السبب ، لأنه الواضح بالنسبة للعرب ، ولأنه هو الذى شده به العرب عند أول نزوله فحيرهم ، وهم المدركون لأساليبه ، العارفون لمناهجه ، الذين يذوقون القول بأسماعهم ، ويدركونه بعقولهم ، ويعرفون مواضع الكمال ، ومواضع النقص فى كل ما يسمعون من شعر ، حتى انهم يتجهون الى مواضع الحسن ، والمآخذ التى تؤخذ بلقانة فطروا عليها ، ولباقة عرفوا بها .

ولنسق لك مثلا من نقدهم ، فلقد عرض بيتان فى سوق عكاظ على الخنساء لحسان بن ثابت رضى الله عنهما ، فمحت بقوة الملاحظة الناقدة ما فيهما من عيوب تخفى الا على من يذوق الكلام ذوقا ، ويدرك معانيه وألفاظه بأرب وفكر مستقيم .

قال حسان رضى الله عنه :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى　　وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق　　فأكرم بنا خالا ، وأكرم بنا ابنا

فقالت الخنساء ضعفت افتخارك ، وأنزرته فى ثمانية مواضع ، قالت : قلت لنا الجفنات ، والجفنات مادون العشر ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت : الغر ، والغرة البياض فى الجبهة ، ولو قلت البيض ، لكان أكثر اتساعا . وقلت يلمعن ، واللمعان شىء يأتى بعد الشىء ، ولو قلت : يشرقن لكان أكثر ، لأن الاشراق أدوم من اللمعان، وقلت بالضحى، ولو قلت بالدجى، لكان أبلغ فى المديح، لأن الضيف أكثر طروقا بالليل ، وقلت أسيافنا ، والأسياف دون العشرة ، ولو قلت سيوفنا لكان أكثر، وقلت يقطرن ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، وقلت دما ، والدماء أكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت . ولم تفتخر بمن ولدوك اه(١).

سقنا ذلك الخبر ، وهو صورة لما كان عليه الذوق البيانى ، وان كان هنالك شك فى روايته ، فانه يدل على أن روح النقد بالذوق المرهف كان مشهوراً بين العرب وكثيراً .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٥٥

وأذكر أن نقاد العرب كانوا يستنكرون بيت امرىء القيس الذى يقول فيه فى معلقته :

أغــرك منى أن حبــك قاتلى   وأنك مهمـا تأمـرى القلب يفعلى

فقد قالوا ان البيت لا يصدر من عاشق برح به الحب ، وأحس بلطف العشق ، وقالوا أن الغانية اذا لم تغتر بالحب ففيم تغتر ، كأنه يقول لها ان كنت مغرورة بحبى فانى تاركك ، وهكذا ، وما ذلك شأن المحب اللهج .

٤٠ — هؤلاء الذواقون للبيان الذين مرنت اسماعهم ، وألسـنتهم على القول البليغ وادراك مراميه يستوى فى ذلك أهل المدر ، وأهل الوبر، فأهل الوبر استفرغوا ذكاءهم فى تعرف الكلام البليغ ، والترنم بالشعر رجزه وقصـيده ولم يكن عندهم ما يزجون فيه وقتهم الا سماع الكلام الطيب ، وترديده ، وروايته ونقله ، يرطبون به ألسنتهم فى حلهم وترحالهم ، وانتجاعهم الى مواطن الكلا ، وينابيع المياه ، قد صفت نفوسهم صفاء السماء التى تظلهم مع قوة الشكيمة التى اكتسبوها من وعورة الصحراء ولأوائها ، وقسوة الحياة وغلظتها ، ومع الرضا والقناعة التى اتسمت بها النفس العربية .

وأهل المدر وهم سكان القرى كأهل مكة والطائف ويثرب ، وقد كانوا قوماً تجراً ، من غير أن يخلوا من الشكيمة العربية ، قد كانت القبائل تجىء اليهم ، أو يلتقـون بهم فى مواسم الحج وأسواقه التى كانت تعقد لتبادل السلع ، وتبادل الفكر ، والكلم المحكم ، ويكون التبارى بين الشعراء والخطباء وكانت مكة ، وما حولها تشبه بعض الحدائق العامة فى البلاد الأوربية تلقى فيها الخطب ، ويتبارى فيها المتكلمون وحسبك أن تعلم أن قس بن ساعدة الايادى ألقى خطبته التى ذكر فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى عكاظ فى موسم الحج .

هؤلاء الذين كانت الكلمة البليغة تقع من نفوسهم موقع الموسيقى فتطربهم ، والقصيدة الطويلة فتهزهم ، وكان حداؤهم لابلهم رجزا ، وتدليلهم لأبنائهم أنماطا من البيان ، هؤلاء هم الذين خاطبهم القرآن فرأوا فيه نوعاً من البيان لم يعرفوه من قبل ، فانجذبوا اليه ، وأقروا بتأثيره ، ولم يستطيعوا أن يماروا فيــه ، بل خروا

صاغرين أمام بلاغته ، معترفين بأنه يســمو على قدرهم ، ويعلو على طاقاتهم . كفروا بما يدعو اليه ، ولم ينكروا تأثيره ، لاحوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى دعوته الى التوحيد ، وتماروا فيه ، مع بداهته ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا من القرآن ، ولما دبروا وقدروا فى أمر ، قالوا انه سحر يؤثر وذلك يتضمن الاقــرار باستيلائه على نفوسهم وعلوه على كلامهم ، وان كان من نوعه ، وسمو معانيه ، وان كانت حروفه فى صياغة من حروفهم ، وكلماتهم .

وجوه الاعجــاز البلاغى

٤١ — ان كل شىء فى القرآن معجز من حيث قوة الموسيقى فى حــروفه ، وتآخيها فى كلماته ، وتلاقى الكلمات فى عباراته ونظمه المحكم فى رنينه ، وما وصل اليه من تأليف بين الكلمات ، وكون كل كلمة لفقا مع أختها ، وكأنما نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته ، وتوحد غايته ، ومعانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه ، وكأن المعانى جاءت مؤاخية للألفاظ وكأن الألفاظ قطعت لها ، وسويت على حجمها .

ثم هو الذى يدركه كل ذى قوة فكرية بمقدار ادراكه والمعنى صحيح فى كل ادراك صحيح ، وفى كل ذى طاقة سليم ، بلا تخالف يسمعه المؤمن فيقر به ، ويؤمن بما جاء فيه ، ويسمعه المخالف ، فيدرك الحق من ثنايا كلماته ومعانيه أن أخلص فى جانب الحق ، وان لم يؤمن فانه يدرك ما فى القرآن من خواص ليصل اليها كلام كائناً من كان قائله .

جاء فى كتاب الشــفاء للقاضى عياض : « حكى أن عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعالى عنه كان يوما نائماً فى المسجد فاذا هو برجل قائم على رأسه يتشــهد شهادة الحق ، فاســتخبره ، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها ، وأنه سمع رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها ، فاذا قد جمع فيهــا ما أنزل على عيسى ابن مريم أحوال الدنيــا والآخرة ، وهى : « ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه الآية » (١) وحكى الأصمعى أنه سمع كلام جارية ، فقال لها قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت أو يعد هذا فصاحة بعــد قول الله

(١) النــور : ٥٢ .

تعالى : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك ، وجاعلوه من المرسلين» (١) ، فجمع فى آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين • فهذا نوع من التجــارة منفرد بذاته غير مضاف الى غيره على التحقيق » (٢) •

وهكذا نرى كل اعجاز القرآن من نواح شتى ، ربما تعز على الاستقرار، ففى موسيقاه لا يسع سامعه الا أن يصغى بقلبه ، وقد رأيت كيف كان العرب يتفقون على ألا يسمعوا لهذا القرآن ويلغوا فيه ، ثم يذهب اليه المتفقون فرادى ، فيلتقون جمــاعة •

ولقد كان لموسيقى القرآن ونظمه روعة عند كل ســامع ، حتى من لا يفهم العربية ، فان لكلماته ونظمه ، ومده وغنه ، ونهــاية فواصله ، ووقفه — ما يسترعى من لا يفهم العربية ، واذا كان لا يفهم معنى الكلمات ، فان النغم يعطيه صــوراً رائعة •

وان كل كلمة من كلماته تعطى صورة بيانية ، وكل عبارة تجتمع من كلمات لها صورة بيانية رائعة تصور المعانى كالصورة الكاملة فى تصويرها ، التى تتكون أجزاؤها من صور ، وتتجمع من الصور صورة متناسقة •

وانه لأجل هذا يصعب على الكاتب أن يأتى بكل وجوه الاعجاز البيانى ولكنه يقارب ولا يباعد •

ولنذكر ستة وجوه نتكلم فيها عسانا نصل الى تقريب معانى الاعجاز من غير حد ولا استقراء كامل وهى :

١ — الألفاظ والحروف •

٢ — الأسلوب ، وما يكون من صور بيانية •

٣ — التصريف فى القول والمعانى •

٤ — النظم وفواصل الكلم •

٥ — الايجاز المعجز والحكم والأمثال والاخبار عن الغيب •

٦ — جــدل القرآن •

(١) القصص : ٧ •

(٢) الشفاء للقاضى عياض جـ ١ ص ١٦٩ •

١ - ألفاظ القرآن وحروفه

٤٢ — قبل أن نخوض فيما اختصت به ألفاظ القرآن من جمال ودقة واحكام ، وما اشتملت كل كلمة مع أخواتها وجاراتها من صور بيانية لكل وحادة منفردة ، ثم ما اشتملت عليه مجتمعة من معنى ذلك ، نذكر أن العلماء اختلفوا قديما وامتد خلافهم الى المتأخرين تكلموا واختلفوا فى أساس الفصاحة أو البلاغة ، وهما غير مختلفين فى الماصدق ، وان اختلفوا فى التعريف اللفظى لحقيقة الفصاحة وحقيقة البلاغة .

قال بعض علماء البيان وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ ان اللفظ والحروف ليس لهما أثر فى كون الكلام بليغاً أو غير بليغ ، انما الأثر فى مجموع ما يدل عليه النظم ، وشكل النظم ليس هو المؤثر وحده ، انما تساوق المعانى وتلاقى الألفاظ وتآخيها فى تكوين هذا المعنى المؤثر ، فيقول رضى الله عنه فى كتابه دلائل الاعجاز ما نصه :

«ينبغى أن ينظر الى الكلمة قبل دخولها فى التأليف، وقبل أن نصير الى الصورة التى بها يكون الكلم أخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا ، وتؤدى فى الجملة معنى من المعانى التى لاسبيل الى افادتها الا بضم كلمة الى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة ، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل فى الدلالة، حتى تكون هذه أدل على معناها الذى وضعت له من صاحبتها على ما هى مرسومة به ، ثم يقول رضى الله عنه :

« هل يقع فى وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر الى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ، أو أن تكون حروف هذه أخف ، وامتزاجها أحسن وهل نجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة ، الا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ، وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفى خلافها قلقة ونابية ومستكرهة الا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلتق بالثانية فى معناها . وأن الثانية لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية فى مؤداها . وهل تشك اذا فكرت فى قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى

الأمر واستوت على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين(١) » فتجلى لك منها الاعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، انك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة الا لأمر يرجع الى ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض ، وانه لم يعرض لها الشرف الا من حيث لاقت الاولى الثانية ، والثالثة الرابعة ، وهكذا الى أن تستقر بها الى آخرها ، وأن الفضل نتائج مابينها ، وحصل من مجموعها . ان شككت فتأمل : هل ترى لفظة بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت أدت من الفصاحة ما تؤديه ، وهى فى مكانها من الآية ، «ابلعى» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر الى ماقبلها ، والى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ... ومعلوم أن مبدأ العظمة فى الاية فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت . ثم كان انداء بيا دون اى .. ثم اضافة الماء الى الكاف دون أن يقال ابلعى الماء ... الى آخر ما قال :

ويستدل على أن الكلمة ليس لها فصاحة ولا بلاغة فى ذاتها أن الكلمة تروق فى موضع ولا تروق فى آخر فى كلام الناس ، فلو كانت الكلمة اذا حسنت كان حسنها من ذاتها ، لاستحسنت دائماً ، وما استهجنت أبداً .

وينتهى من هذا الى أن جمال الكلام ليس فى توالى ألفاظه فى النطق ، بل ان تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل .

ويسترسل الجرجانى فى اثبات أن الكلمات ليست لها فصاحة ذاتية ، انما بلاغتها فى اجتماعها مع غيرها فى تلاقى المعانى ، وأنه ليس للألفاظ ولا للحروف حسن ذاتى منفرد ، ولا قبح ذاتى منفرد ، انما حسنها فى تلاقيها مع أخواتها فى الدلالة وتساوق المعانى وما تنتجه من صور بيانية ، ومراتب أهل البيان فى مقدار قدرتهم على اختيار الألفاظ المتآخية فى معانيها ، ويفهم من كلامه أن النظام لا يلتفت اليه وحده انما يلتفت الى معانيه أيضا وأنه يريد من النظم الكلمات لاذات الكلام كله برناته القوية، أو الهادئة التى تنساب فى النفس ، وتتغلغل فيها حتى تصل الى أعماقها .

٤٣ — هذا رأى الجرجانى ، وله مقامه ، يقصر البلاغة والفصاحة ، على الأسلوب

---

(١) هود : ٤٤ .

ومجموع العبارات التى تتضافر فى الدلالة على معان متآخية ، وتتآخى الألفاظ فى الدلالة على هذه المعانى .

وهناك فريق آخر ، ومن هؤلاء الجاحظ يرون للحروف ، وللكلمات فصاحة ، عندما تتلاءم حروفها ولاتتجافى مخارجها ولا يكون فيها تكرار فلا فصاحة فى مثل ما رواه الجاحظ .

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

فان تكرار الحروف جعلها غير متلائمة ، وغير سهلة فى النطق .

وقد عقد ابن الأثير فى كتابه المثل السائر فصلا فيما ذكر فيه فصاحة الكلمات ، وقبحها فى رنينها وفى تآخى حروفها وقال ان من الكلمات ماله نغمة أوتار ، ومنها ماله صوت حمار ، وضرب على ذلك الأمثال ، فقال ان كلمة السيف لها مرادف ، وهو الخنشليل ، فهل هما متماثلتان فى الفصاحة والنغمة الصوتية ، ومثل كلمة غصن ، وكلمة عسلوج بمعنى الغصن ، فهل هما متماثلتان فى النغمة وسهولة النطق .

ويبدو من كتاب اعجاز القرآن للباقلانى أنه يرى أن للكلمات ذاتها فصاحة خاصة ، وأن تخيرها يدل على قدرة قائلها ، وعلو بيانه ، فاذا كانت المعانى البلاغية لجملة القول ، ففى اختيار الألفاظ المتناسبة فى موسيقاها ، وفى نغمتها وفى رنتها قوية أو هادئة على حسب المقام ، فللفظ دخل فى الاختيار ويقول فى ذلك الباقلانى :

« قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة ، فاذا برع اللفظ فى المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتدول المتكرر : والأمر المتقرر المتصور ثم انضاف الى ذلك التصرف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه بأن التفاضل فى البراعة والفصاحة ، ثم اذا وجدت الألفاظ وفق المعانى والمعانى وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر » ثم يقول :

« وأنت ترى جمال الكلمة من القرآن يتمثل فى تضاعيف كلام كثير ، وهى غرة

جبينه وواسطة عقدة ، والمنادى على نفسه بتميزه ، وتخصصه ، برونقه وجماله ، واعتراضه فى حسنه ومائه » (١) .

ومن هذا النقل يتبين أن الباقلانى يرى أن ألفاظ القرآن غرة فى كل كلام ، وأن لها رونقاً ، وأن لها دخلا فى اعجازه ، وأن صورة الكلمة ومخارج حروفها لها روعة ذاتية ، لأن ذلك من عند العزيز الحكيم .

وان المتأخرين ممن كتبوا فى اعجاز القرآن رأوا أن فى الكلمة فى القرآن بلاغة خاصة بأدائها ، بمدها وغنها ، وبأصواتها الموسيقية ، وبنغماتها الحلوة ، فلا يمكن أن يكون التآخى بينها وبين أخواتها فى المعانى فقط ، بل ان التآخى ، كما هو ثابت فى المعانى ثابت فى الموسيقى ، واذا كان الله تعالى قد اختار للقرآن ترتيلا يبدو فيه نغمه ومده ، ورنين ألفاظه ، فلابد أن تكون ألفاظه قد اختيرت لمزية فى كل كلمة لا فى مجموعها فقط ، ومن أنصار الرأى الذى نظر الى فصاحة الكلمة الرافعى رحمه الله تعالى ، ورضى عنه ، فى كتابه اعجاز القرآن ، فقد قال :

« لما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه فى كلماته ، وكلماته فى جمله ألحاناً لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لاقبل لهم به ، وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتى ان من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته الى ماحسبه نظماً موسيقياً أو بابا منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى ، كأنه فطن الى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، انما هى فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ، وليس يتفق ذلك فى شىء من كلام العـرب ، الا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع ، وهو بهذا لا يرى رأى الجرجانى فى أن الكلمات ليس لها مزايا خاصة ، والله أعلم .

٤٤ ــ هذان رأيان يبدو أنهما متعارضان فى كون فصاحة الكلمة جزءاً من البلاغة أو الفصاحة ، وان لم يكن بينهما فرق ، فالأول لا ينظر الى الجزء ، وهو الـكلمة ، بل

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٤ .

لاينظر الا الى المجموع المؤتلف ، والآخر ينظر الى الأجزاء والى المجمــوع معاً ، بل لا يرى المجموع يكون بليغاً الا اذا انتهى الى ألحان مؤتلفة ، من حروف فى كلمات، متآلفة ، وكلمات فى أسلوب مؤتلف فى نغماته وترتيله ، وتناسق بيانه .

ولا شك أن الكلمة وحــدها من غير أن تكون فى مجمــوعة ، ليس لها بــلاغة ولا مؤدى ، فكلمة شجر من غير أن تكون فى كلام ليس لها مؤدى الا أن تكون فى جملة مفيدة ، تؤدى معنى ، وتكون بحروفها وقوتها أولينها متآخية مع أخواتها من الكلام ، ولكن لابد للكلمة مع الكلمات الأخرى من أن تكون متلاقية فى لحن القول والمراد منه ، وتحقيقه ، فهى وحدها لا تؤدى منفردة ، ولكن بضمها الى أخرى يكون المعنى القوى ، ويكون النغم الجميل ويكون الترتيل الذى يملأ النفوس ، وتطمئن به ، وتقشعر منه الأبدان ان أنذر ، وتهــدأ ان بشر ، وتتفكر العقول ان دعــا الى التأمل .

ومن أنصار هذا المذهب الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، فهو يقول فى رسالته .

« واعلم أن القرآن انما صار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف ، متضمنا أصح المعانى من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء الى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر واباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وارشاد الى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعا كل شىء ، ومنها فى موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أليق منه » (١) .

وفى الحقيقة — أن الخطابى ينظر الى الأسلوب على أساس أن الألفاظ قوامه ، وهى دعامة بنيانه ، حتى ان القرآن الكريم لو حاولت أن تنزع كلمة من جملة لتضع غيرها المرادفة لها ، لاختل البناء ، واضطرب ، وهو يقول فى ذلك « اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى اذا أبدل مكانه غيره جاء منه

---

(١) رسالة الخطابى ص ٩ ضمن رسائل ثلاث فى اعجاز القرآن ، والخطابى توفى سنة ٣٨٨ هـ

اما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، واما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى • ويحسب أكثر الناس أنها متساوية فى افادة بيان مراد الخطاب » •

وبهذا انتهى الى أن الألفاظ فى الكلام البليغ لها مقصد خاص من المتكلم ، اما لنغمتها واما لمعناها أو هما معاً • ولا يكون مرادفها صالحاً • لأن يحل محلها •

٤٥ — وكون كل كلمة لها لحن قائم بذاته لا نحسب ان الجرجانى ينكره • ولكن مذهبه البلاغى باعتباره من علماء البيان يجعله يتجه الى العبارة المتآلفة • والأسلوب الذى تتلاقى معانيه • ولا يتجه ابتداء الى الألفاظ • ولعله أيضاً يقبل أن تكون الألفاظ متآخية النغم مؤتلفة الألحان متلاقية فى الترتيل • وهو يقرره على أنه فرض مقبول فيقول رضى الله عنه فى تلاؤم الحروف فى الكلمات •

« ان أخذنا بأن يكون تلاؤم الحروف فى الكلمات وجهاً من وجوه البلاغة وداخلا فى عداد ما يفاضل به بين كلام وكلام على الجملة لم يكن لهذا ضرر علينا ، لأنه ليس بأكثر من أن يعمد الى الفصاحة فيخرجها من حيز البلاغة والبيان ، وأن تكون نظيرة لها ، وفى عداد ما هو شبيههما من البراعة والجزالة ، وأشباه ذلك مما ينبىء عن شرف النظم ، وعن المزايا التى شرحت لك أمرها ، وأعلمتك جنسها ، أو بجعلها اسـما مشتركا ، يقع تارة لما تقع عليه تلك ، وأخرى لما يرجع الى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان ، وليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصدده ، وان تعسف متعسف فى تلازم الحروف ، فبلغ به أن يكون الأصل فى الاعجاز ، وأخرج سائر ما ذكروه فى أقسام البلاغة من أن يكون له مدخل أو تأثير فيما له كان القرآن معجزاً ، كان الوجه أن يقال له : انه يلزمك على قياس قولك أن تجوز أن يكون هنا نظم للألفاظ ، وترتيب لاعلى نسق المعانى ، لاعلى وجه يقصد به الفائدة ، ثم يكون مع ذلك معجزاً وكفى فسـاداً •

وينتهى القول فى هذا الى أن الخلاف بين الجرجانى والخطابى والجاحظ وغيرهما يكون فى أمرين غير جوهريين •

أولهما — أن الجرجانى لا يعتبر للألفاظ منفردة فصاحة أو بلاغة الا فى ضمن

كلام مجتمع ، وحينئذ يكون التآخى أولا وبالذات فى المعانى ، وكون الألفاظ واضحة الدلالة على هذه المعانى ، والتآخى يكون فى المعانى ابتداء .

ثانيهما — أنه لا يعتبر الفصاحة غير البلاغة ، لأن الفصاحة عند من يفرقون بين لفصاحة والبلاغة تكون فى تلاؤم الحروف وتلاؤم الكلمات ، وللألفاظ كما قال ابن الأثير جمال أوتار أحياناً ، وغير ذلك أحياناً .

وان ذلك اختلاف اصطلاح ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، انما المشاحة تكون فى المعانى الجوهرية ، لا فى الاصطلاح ولا فى الأمور الشكلية .

ويسلم الجرجانى بأن للألفاظ جمالا ، وأنها فى النظم تكون انغماتها ، وألحانها مساعدات للمعانى ، ولكنه يمنع منعا مطلقا ، ونحن معه أن تكون الألفاظ وحدها والكلمات منفردة سبباً للاعجاز ، انما الاعجاز يكون فى أمور كثيرة منها تناسق الكلمات ، وماتشعه من معان وأخيلة بيانية فى وسط أسلوب مكتمل البنان يلتقى بنغمه وفواصله ، وصوره البيانية ، مع الألفاظ المحكمة . والمعانى السليمة التى لم يكن للناس عهد بها من قبل .

نظرات فى ألفاظ القرآن

٤٦ — ان الألفاظ فى ضمن الأسلوب البيانى الرائع ، ونعتقد مؤمنين أن كل لفظ فى القرآن له معنى قائم بذاته وفيه اشعاع نوارنى يتضافر مع جملته ، ويساعد بعضه بعضا فى المعانى العامة للأسلوب والعبارات الجامعة . وان العبارات مجتمعة يساعد بعضها بعضاً .

ولسنا نستطيع احصاء تلك النواحى فى جمال ألفاظ القرآن احصاء ، ولكنا نضرب من الأمثال على مقدار طاقتنا ، ومن غير أن نصل الى أقصى الغاية وانما نسدد ونقارب ، بل المقاربة فوق طاقتنا ، وقد سبقنا الى تلك المحاولة فحول البيان .

اقرأ قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا

يصنعون (١) » •

اذا قرأنا « ورددنا البصر كرتين » وجدنا كل كلمة فى حيزها ، لا تفارقه ، ولو فارقته لوجدناه فارغا لا يملؤه غيرها • ولنبتد بالاشارة الى ما فى كل كلمة مما اختصت به •

الأولى — كلمة آمنة ، فالأمن معناه عدم الخوف من مغير يغير عليهم ، أوعدو يساورهم ، ولعل ذلك اشارة الىمكة أو أن هذه القرية هى هى ، كما قال تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (٢) » فتجد فى هذه الكلمة اشارة الى نعمة ليست لغيرهم ، واختصوا بها دون الناس أجمعين •

الثانية — كلمة مطمئنة فمعنى الاطمئنان يتصل بالنفس • فهى قد منحها الله تعالى القرار ، والسكون والدعة من غير ضعف ، ومع هذه الدعة كان هو يقويها ويثبتها ، مع ما أعطاهم الله من سلطان أدبى على العرب ، وهم ملتقى اجتماعهم ومستقر شعائرهم الدينية ، ومقامهم الكريم الطيب ، فكل هذا يشع من كلمة مطمئنة •

الثالثة — يأتيها رزقها — فان هذا يشير الى سهولة الحياة • وأنه لا يأتيهم كسائر العرب بانتجاع الكلأ • والتنقل فى الصحراء لا ينالون الحياة الا بشق الأنفس• وبذوقهم فى طلبهم الرزق حر الحياة وقرها •

الرابعة — كلمة — رغدا ، فالرغد هو الرزق الطيب المذاق المرىء • غير الوبىء وهو الواسع الكثير ، فهم فى رزق يأتيهم سهلا طيباً ، واسعاً مريئا ، لا وباء فيه •

ولكنهم كفروا بهذه الأنعم كلها فأى صوة بيانية أروع من هذه الصورة ، وتجد الكلمات الأربع متآخية فى معانيها ، متلاقية فى ألحانها منسجمة فى نغماتها ، وكل كلمة منها تعطى صورة بيانية ، فآمنة فيها صورة البلد الذى لا يساوره عدو فى وسط موطن فيه يتخطف الناس ، ومطمئنة يشير الى الاطمئنان النفسى الساكن

---

(١) النحل : ١١٢ • (٢) العنكبوت : ٦٧ •

القار كالماء الساكن الذى لا تعبث به الرياح ، ويأتيها رزقها طيباً من كل مكان تشير الى المكانة التجارية التى يأتيها الخير من كل بلد قاص ودان ، وأن لهم رحلة الشتاء •

وان مجموع الكلمات مع ما تشعه كل واحدة من معان وصور ، يصـــور حال جماعة من لناس على هذه الأمور المجتمعة غير المفترقة ، وكلها فيوض من أنعم الله تعالى ، ومع ذلك تكفر هذه النعم ، فلا تشكر ، بل تجحد الحق ولا تؤمن ، وهنا تجىء الصورة الثانية من عقاب ، ومؤاخذة على ما ارتكبوا من كفر بأنعم الله ، ونجد أن كلمة أنعم فيها فصاحة وصورة بيانية ، اذ أنهم لم يكفروا بواحدة ، بل كفروا بها كلها ، فكان الجحود أشد ، والضلال أبعد ، ولكلمة أنعم نغمة هادئة مع سعة المعنى فى الكلمة ، اذ أنها نعم متضافرة ، وفيوض خير من الله تعالى متكاثرة •

هذه حال ما أفاض الله تعالى به عليهم ، كانت فيها صور النعم واضـــحة كلا وجزاءاً فى كل كلمة سيقت لذلك •

فلننتقل من الآية الكريمة الى الصورة التى حلت محـــل الأولى ، ولننظر الى الكلمات السامية كلمة كلمة ثم ننظر الى الصورة التى تتكون من هذه الكلمات التى كانت كل منها صورة قائمة بذاتها ، وهى أيضاً جزء من الصورة الكبرى التى يكونها المثل القرآنى السامى •

الكلمة الأولى : أذاقها الله فى التعبير بأذاق اشارة الى أن الايلام مس نفوسهم، وبعد أن كانوا فى ترف صاروا يذوقون الضر •

يقول الزمخشرى (١) فى معنى الاذاقة • الاذاقة قد جرت عندهم مجـــرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد ، وما يمس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس ، والضرر ، وأذاقه العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر ، وترى من التعبير والتقابل ، أنهم بعدما سكن قلوبهم من اطمئنان ، وما كان من العيش الرغد ذاقوا الجوع ، وبما منحـــوا من أمن ، ذاقوا الخوف ، وهكذا تجد التقابل •

(١) هو محمود بن عمر الزمخشرى امام عصره فى اللغة والتفسير والحديث ، توفى سنة ٥٣٨ هـ

والكلمة الثانية : لباس الجوع والخوف ، فيها صورة بيانية رائعة ، فهى تصور الجوع والخوف كأنه لباس لبسهم وأحاط بهم احاطة الدائرة بقطرها ، لا يخرجون منه الا اليه ، ولا يدورون الا فى دائرته ، وان ذلك بلا ريب يفيد الاحاطة الشاملة الكاملة التى لا يستطيعون منها فكاكا ، وهذا يفيد استمراره وتجدده آناً بعد آن ، ولقد قال الزمخشرى « وان اللباس قد شبه به لاشتماله على اللابس ، ماغشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث ، وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، كأنه قيل ماغشيهم من الجوع والخوف » •

ومهما يكن تصوير امام البلاغة الزمخشرى من أن التعبير باللباس يفيد أنه غشيهم وأحاط بهم فان فى الكلام صورة بيانية تصور حالهم بعد الأنعم التى أنعم بها عليهم ، وكفروا بها من أنهم فى صورة من كان لابساً للجوع والخوف ، وهم يذوقونه، كمن يلبس ملبسا كله قتاد ، يجرح أجسامهم ، ويدمى جلدهم ، بيد أن هذا لا يدمى الجلد ، ولكن يمس الحشا بالجوع ، والنفس بذهاب الأمن والاستقرار ، وانا نجد أن هذه الصورة البيانية التى يصورها القرآن قد تضافرت الكلمات فى تكوينها فاشترك فيها التعبير بأذاقهم ، والتعبير باللباس ، وكون اللباس جوعا وخوفا ، ولباس الجوع والخوف أشد ايلاما من لباس الشوك ، لأن الشوك يؤذى الجلد حساً ، ولباس الجوع والخوف يؤذى الجسم ، ويؤذى النفس واذا قوبلت هذه الصورة عند الكفر بالصورة الأولى من أمن واطمئنان ، ورخاء فى العيش وطيبه واتساعه ، وجدت الفارق بين صورة النعمة التى كفروا بها والشقاء الدائم بعد الكفر •

ومن ذلك يتبين مقام كل كلمة فى تكوين الصورة العامة ، فوق النغمة الهادئة ، والتصور الحكيم •

٤٧ — ولننتقل الى مثال آخر ، لانختاره من القرآن اختياراً ، ولكن نأخذه من غير تخير ، لأن التخير يكون فيه المختار ، وغير المختار ، وكتاب الله تعالى كله خيار ، وكله فوق طاقة البشر ، ولأن الذى يختار يفرض من نفسه حكماً ، ومن يكون حاكماً على كتاب الله تعالى ؟ انما يحكم على الكتاب من أنزل الكتاب ، الذى تعهد بحفظه ،

وانما نحن نتلمسه ونطلبه من الكتاب من غير تخير ، لأنه فوق طاقتنا ، وفوق التخير .

أقرأ هذه الآية ، وقف عند كلماتها وتأمل فى تآخى نغمها ، وتآخى معانيها الشر كان يئوسا ، قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا »(١) .

اقرأ هذه الآية ، وقف عند كلماتها وتأمل فى تآخى نغمها ، وتآخى معانيها وتصويرها فى جملتها للنفس الانسانية — الكلمة الأولى — أنعمنا ، فقد أضافها الله تعالى اليه وانعام الله تعالى فيض ، واسباغ يغمر صاحبه ، والانعام من الله تعالى يقتضى الشكر كما قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابى لشديد» (٢) . وكان هذا يقتضى اقبال الانسان عليه سبحانه ، والاقبال بالطاعة ، ولكنه لم يقبل بل كفر وطغى أن رآه استغنى .

الكلمة الثانية — أعرض ، وهى كناية عن البعد عن الله تعالى وعدم الاقبال عليه تعالى الله علوا كبيرا وأصل أعرض فى المعنى الحسى أو يولى عرض وجهه بألا يقبل على الله تعالى ، ويطلب المزيد من النعم بالطاعات يقدمها ، ويحب الله تعالى ويخلص له اذ أنعم ، ولكنه يظن أنه استغنى ، وعند ظن الاستغناء يكون الطغيان ، ويكون ظلم الانسان لأخيه الانسان ، ووراء ذلك الفساد الكبير ، والشر المستطير .

الكلمة الثالثة : نأى بجانبه — النأى هو البعد وكلمة بجانبه ، مؤداها اتخاذ جانب آخر غير جانب الله تعالى فيسير فى ضلاله البعيد ، ويقول الزمخشرى : أن كلمة نأى بجانبه تأكيد لمعنى — أعرض — ونقول انها تأكيد لمعنى الاعراض من حيث أنه الخطوة التالية بعد الاعراض ، فالاعراض عن الكلام عدم الاصاخة اليه ، وعدم الالتفات الى دعوة الحق ، وان هذه خطوة يكون من بعد أن يبتعد عن الله تعالى ، ويجافيه وترى من هذا أن الكلمات من حيث السياق يأخذ بعضها بحجز بعض فى نغم مؤتلف من حيث ان كل معنى يعقبه أخ له مترتب عليه متناسق معه .

ومن مجموع هذه الكلمات يتبين كيف كان أثر النعمة كفراً بها ، وكيف يتدرج الكفر بها ، حتى يكون البعد التام عن الله ، فتكون الطاعة فى جانب ونفس

---

(١) الاسراء : ٨٣ — ٨٤ .

(٢) ابراهيم : ٧ .

المنعم عليه فى جانب آخر ، وهو جانب العصيان والضلال البعيد ، ثم الطغيان من وراء ذلك ٠

والصورة البيانية من هذا الكلام قد تضافرت فى تكوينها الألفاظ كلها مجتمعة ، وكل كلمة صورة بيانية فى ذاتها ، فانعام الله تعالى يعطى صورة بيانية للمنعم وفيض نعمه تعالى ، والاعراض بتلقيها بجانب الوجه صورة حسية ، ثم النأى من بعد ذلك ٠

هذه صورة المنعم عليه فى جحود نفسه ، وعدم التفاتها الى الاعتراف بالنعم وشكرها ، مع أن شكر المنعم واجب عقلا ، وهو منبعث الضمير الطيب الطاهر ٠

لننتقل من هذه الصورة التى تصورها الكلمات منفردة اذ كل كلمة صورة بيانية رائعة ثم هى بتضامنها وتلاؤمها تعطى صورة كاملة لنفس كفرت بأنعم الله وبطرت معيشتها واتخذتها سبيلا لظلم العباد ، والكفر برب الناس ملك الناس ٠

ثم نتجه الى صورة تلك النفس ، وقد أصابها الشر ، ولم تنل النعمة ، وهنا كلمتان كلتاهما تصور صورة من نزول الضر ، وأعقابه فى النفس الجاحدة ، الكلمتان هما مسه الشر ، وكان يئوسا ٠ ان المس وهو الاصابة بالشر ، وان التعبير بمس يفيد أن الاصابة بالشر ولو خفيفة تصيب من النفس ما تجعلها يائسة ، والشر كل مالا يرغب فيه ، ويطلق على الأمور الضارة حسياً ونفسياً ، وعلى الأمور القبيحة خلقياً والتعبير بالشر هنا يشمل الضار ، كقوله « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه(١) » ويشمل نتائج الطغيان والعصيان فيكبه الله تعالى على وجهه، ويشمل العقاب الذى ينزله جزاء لما ارتكب ، واذا كان قد جحد بنعمة الله تعالى ، اذ أنعم بها ، وأعرض ، ونأى بجانبه ، فان النفس التى تطغى بالنعمة تذل وتهون وتضعف بسلبها ويصيبها اليأس المطلق اذا نزلت بها النقمة ٠

الكلمة الثانية كان يئوسا وهنا نجد كلمة كان الدالة على اللزوم والاستمرار ككان فى قوله تعالى « وكان الله غفورا رحيما (٢) » وكلمة يئوسا بصيغة المبالغة

---

(١) يونس : ١٢ ٠ (٢) النساء : ٩٦ ٠

الدالة على لزوم اليأس وايغاله فى النفس وعدم افتراقه عنها ، فيكون فى حال بؤس مستمر ، ويأس دائم ، يكفر ـ اذا أنعم الله عليه ويصاب بالطغيان ، ويكفر اذا اختبره الله تعالى بالشر يصيبه .

ولا شك أن هذه الجمل السامية ، والكلمات تصور حال انسان غير قار ، ولا ثابت تبطره النعمة ، ويوئسه الاختبار ، وكل ذلك فى ألفاظ منسجمة فى نغماتها ، متضافرة فى معانيها ، تدل على النفس المنحرفة ، وتصورها .

ولقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته،فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا »(١)وهنا نجد النص الكريم يفيد مايدل على أن الناس جميعا ليسوا سواء فى ذلك ، فمنهم شقى على الصورة التى ذكرها سبحانه ومنهم سعيد ، وهم الصابرون الذين لا تضطرب نفوسهم بنازلة تنزل ، ولا يطغون بنعمة تسبغ وكأن هذه الجملة فى موضع التخصيص من عموم الانسان المذكورة أولا كالاستثناء فى قوله تعالى : « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه انه يئوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور ، الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير »(٢) .

والكلمة السامية «قل كل يعمل على شاكلته» ، نجد فيها ثلاث كلمات منها ينبثق نور ، فالأمر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يقول ذلك فيه ما يصور أن بعض الناس كذلك وأن فى الناس من ليسوا كذلك ، فدلت كلمة « قل » التى تتضمن الرد على هذا الاعتراض المفروض ، وانتقل الكلام من ضمير المتكلم من الذات العلية الى الخطاب الذى أمر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن الأمر تنبيه ، يتولاه صاحب الرسالة المتكلم عن الله نازلا الى مرتبة المعترضين ليواجههم بالرد ، وفى ذلك فضل تنبيه وتقريب ، وذات الانتقال من المتكلم الى المخاطب فيه تجديد بيانى ، وتصوير بلاغى ، والشاكلة ـ الهيئة والصورة والسجية ، والمنهج الذى يخطه لنفسه، ويسير عليه من الضلالة كالأولين والهدى للمهتدين ، والشاكلة تطلق على الطريقة ،

---

(١) الاسراء : ٨٤ .

(٢) هود : ٩ ـ ١١ .

ويقول الزمخشرى انها من قولهم : طريق ذو شواكل ، الطرق التى تتشعب منها •

وفى هذا الكلام معان دقيقة تنبعث من صور الكلمات ، ومرامى العبارات ، وحسن المقابلات ، ان الناس قسمان قسم شاكلته ، تلقى النعمة بالاعراض ، ووراء الاعراض الظلم والطغيان والفساد فى الأرض ، وقسم صابر ضابط لنفسه ، لا تبطره النعمة ، بل يصبر عليها فيطيع الله ، ويقوم بحق شكرها ، والأول مضطرب النفس غير منضبط القلب تطغيه النعمة فيستكبر ، وتوئسه النقمة ، فيكفر باليأس من رحمة الله •

وان لله تعالى العلم الكامل بالصنفين ، وهو مجاز للفريقين ، وقد ختم النص الكريم بقوله تعالت كلمته « فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » وهنا نجد المعانى تشع بنورها من هذه الكلمات •

فأولا ــ الفاء التى تفيد ترتب الجزاء على الأعمال ، وثانياً التعبير بربكم الذى فيه الاشارة الى أنه هو الذى خلق فسوى وهو المربى المكمل ــ الهادى كلا الى غايته ، وثالثاً ــ ترتب العلم الكامل على كونه الخالق ، ورابعاً ــ ذكر العلم الكامل بأفعل التفضيل الذى يدل على أنه لا علم فوقه ان كان ثمة تفاضل ، وخامساً ــ التعبير عن الجزاء بأنه أثر للهداية ، وأن الله تعالى أعلم بالمهتدين ، وسادساً ــ التعبير بأفعل التفضيل فى أهدى • أن أنه العالم بمن اهتدى بعد أن يغفر الله ، وسابعاً ــ فى التمييز بكلمة سبيلا ، وفيه بيان بعد نوع من الابهام ، وبذلك يكون العلم متمكنا فضل تمكين ، علم بالهداية وعلم بمنهاجها ، وهو السبيل القويم •

٤٨ ــ بعد هذا النظر السريع الى تلك الأية نتجه الى آية أخرى نجد فيها الكلمة تدل على معنى أو غيرت بغيرها مما يكون فى معناها ظاهرا ، مرادفا لها بادى الرأى ، لايمكن أن يؤدى المعنى الذى يشرق منها ، ويجتمع به فى الدلالة صورة اللفظ ، واشراق المدلول •

اقرأ قوله تعالى : « والصبح اذا تنفس [1] » فاننا لو أردنا تغيير كلمة من هاتين الكلمتين لتغيرت الصورة البيانية ، ولننظر فيهما •

---

(١) التكوير : ١٨ •

الكلمة الأولى ، وهى الصبح ، فانها تدل على النور الذى يتخلل الظلمة ، ويسرى فيها شيئاً فشيئا وينبعث فى هذا الوجود ، فيملؤه نوراً ، وتنبعث من بعده الحياة ، ويخرج الناس الى معايشهم بعد سبات الليل وسكنه ، وما يغشى به السكون من لباس الظلمة .

ولا شك أن كلمة الفجر قد تدل على بعض معانى كلمة الصبح ، والعلماء يعدونهما من المترادفين ، ولكن عند التحقيق نجد كلمة الفجر تدل على معنى شق الظلمة ، وعلى مجرد ابتداء نهاية الظلمة ، ولذلك يقترن بها ذكر الليالى ، كما قال تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر (١) » فقد كان ذكر الليالى مع الفجر متناسباً ، لأن الليل متآخ مع الفجر فى معناه ، وقصد به مجرد نهاية الليالى .

ولكن كلمة الصبح لوحظ فيها الاشارة الى ابتداء النهار ، فاذا كان وقت الفجر والصبح واحدا ، فان الفجر فيه بيان انهاء الليل ، والصبح ابتداء النهار . ولذا يستحسن الناس أن يقال طلع الفجر ، ولا يقال طلع الصبح ، بل يقال أشرق الصبح ، وهنا نجد المعنى واحداً فى الجملة ، ولكن الدلالة اللغوية الدقيقة مختلفة ، فهذا اشراق ، وذاك انهاء .

والكلمة الثانية — كلمة — تنفس — فان كلمة التنفس فى ذاتها تدل على بدء مظاهر الحياة شيئاً فشيئا ، ذلك لأن أصل التنفس من النفس ، وهى الحياة ، وهى أيضاً الريح ، وهى الحركة الدائمة المستمرة ، فى الداخل والخارج ، فهى تشمل مايدخل فى النفس من أسباب الحياة ، وما يخرج منها لتستمر الحياة ، ويقال نفس عنى أى فرج عنى ، وبذلك يكون كلمة التنفس يندرج فيها ثلاثة معان تتصل بالحياة الدائمة المستمرة أولها التنفس بمعنى الحياة ، وثانيها حركتها واستمرارها ، وثالثها تدرجها فى الظهور شيئا فشيئا ، ولو أنك وضعت كلمة أشرق بدل تنفس ، كأن يقال ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى : « والصبح اذا أشرق ، أو أصبح أو أنار أو أضاء ، فان كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام تنفس ، ولا تغنى غناءها .

---

(١) الفجر : ١ — ٣ .

ولو أننا تركنا لفظ تنفس بانفرادها ، وتابعناها مقترنة بكلمة الصبح ، وهو النور الذى يبتدىء به النهار ونظرنا ما يصوره قوله تعالى : (والصبح اذا تنفس) ورأينا كل حى فى الوجود ، يفيض عليه الاصباح بالعمل والحركه فالندى يصيب الزهور ، والضوء يضىء الحدائق الغناء ، والطيور تزقزق بموسيقاها ، وينبعث كل من فى الوجود خارجا من لباس الليل الى معاش النهار ، فالزارع يخرج الى حقله ، والماشية تنبعث من مرابضها ناعقة ، فرحة ، سائرة الى المراعى ترعاها ، والكلأ تنتجعه ، والصبيان يخرجون من أكنانهم كما تخرج الطير من أكنانها ، وكل ما فى الوجود يخرج مما يخفيه الظلام .

وهكذا نجد كل مظاهر الحياة تندرج فى الظهور ، حتى يصل الى الضحا فيكون المعترك القوى الصاخب اللاغب ، فهل ترى كلمة تدل على هذه المعانى أبلغ من كلمة : والصبح اذا تنفس ، وبهذا يتبين أن ألفاظ القرآن الكريم كلكلمة فى حيزها ، لا يملأ غيرها فى موضعها فراغها .

٤٩ ـ بعد هذا البيان الذى حاولنا فيه أن نتسامى الى أن نذكر مواضع البلاغة أو الفصاحة فى كل الكلمات التى سقناها وتلونا آياتها ، وكون كل كلمة فى موضعها ذات بلاغة خاصة تصور صورة بيانية رائعة ، وهى مع أخواتها تتلاقى فى صورة كاملة ، لها أطياف تروع القارىء ، وتستولى على لب المتفهم .

ولننتقل الآن من الألفاظ الى عبارات لها معان لا يحل محلها فى نسجها ولا فى مدلولها ما يقوم مقامها ، ولنذكر منها أربع آيات .

أولاها قوله تعالى « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الأرض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (١)

وان هاتين الآيتين الكريمتين تصوران رجلا آتاه الله تعالى العلم بالآيات

(١) الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٦ .

الموجبة التصديق بالحق ، وأن هذه الايات احاطت بقلبه ونفســه ، حتى لا مناص من انكارها كما يحيط الاهاب بالجسم ، ولــكنه ترك الاخذ بالهدى استجابة لداعي الشيطان وصار من الضالين الذى اغواهم ابليس اللعين ، فكان مثله كمثل من ينسلخ عن الاهاب الذى لبسه ولصق بجسمه ، ولو شاء الله تعالى لرفعه من كبوة الضلال بما آتاه الله تعالى من علم ، ولــكنه هو الذى انحط الى الارض ونزل اليها ، بسبب هواه فصار مثله كمثل الكلب يلهث دائما ، ان ترك يلهث ، وان حمل عليه يلهث ، ولننظر فى الكلمات التى تشتمل عليها هذه الآيات •

الكلمة الاولى ــ انسلخ ــ والسلخ نزع جلد الحيوان يقال سلخته فانسلخ ووضع هذه الــكلمة فى ذلك النص الــكريم له معنى لا يوجد فى لفظ غيره ، وهو يشير الى أن البينات والآية المعلمة للحق أحاطت به ، ولصقت بنفسه واتصلت بعقله اتصال أهاب الحيوان بلحمه ، ولكنه انسلخ من هذه البينات فكلمة انسلخ فيهــا استعارة ، فشبه الــكفر والفساد بالانسلاخ فى الاهاب لــكمال الملازمة ، ولأن الانسلاخ يكون بمعاناة وعنف ، اذ أن مادة المطاوعة لا تكون الا للأفعــال التى تحتاج الى معالجة • فلا يقال كسرت القلم فانكسر ، ولا يقال كسرت الزجاج فانكسر ، ولكن يقال كسرت الباب فانكسر، ويقال طويت الحديد فانطوى ، فكان هذا تصويرا لاثبات أن الكفر ضد الفطرة ، وأنه يحتــاج الى معانــاة للنفس ، ومقاومة لدواعى الهدى ، ولكنها لا تكون الا اتباعا لهوى الشيطان •

الكلمة الثانية ــ أتبعه الشــيطان : أى لحقه الشــيطان ، فانه يقال أتبعه اذا لحقه ، ومن ذلك قوله تعــالى « فأتبعوهم مشرقين » (١) وقوله تعــالى « فأتبع سبباً » (٢) ، وقوله تعالى : « وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » (٣) ، وان وضع هذه الــكلمة فى هذا الموضع لهو وضع بلاغى عميق ، ففيه اشارة الى أن الشيطان انمــا يلاحق الذين يتركون الآيات ، ولا يعملون على الأخذ بموجب البينات ، فأول دركات الضــلال هو ترك الدلالة المعلمة للحق مع قوة سلطانها ، واذا تركها فان الشيطان يلحقه ، ويأخذ به الى آخر غايات الضلال ، واذا

---

(١) الشعراء : ٦٠ • (الــكهف) : ٨٥ • (٣) القصص : ٤٢ •

وصل الى هذه الدرجة صار من الغاوين ، والغواية معناها الجهل المردى ، الذى يصحبه اعتقاد فاسد مردود وكأنه بهذا الانسلاخ من موجبات المعرفة ، ودواعى الحقيقة ينقلب من عالم بالبينات مدرك لها الى جاهل أرداه جهله فى الفساد .

الكلمة الثالثة — « أخلد الى الأرض » . ومعنى أخلد الى الأرض ركن اليها يحسب أن الركون اليها يجعله خالدا ، ويجعله باقيا مستمرا ، وهو يريد البقاء على أى صورة . وان مقابلة هذه الكلمة بقوله تعالى « ولو شئنا لرفعناه بها » أى بالبينات ، يفيد أنه اختار الاستفال بدل الارتفاع ، والضعة بدل الرفعة ، ويكون فى هذا اثبات أن الرفعة تكون بطلب الحق والايمان والاستجابة لبيناته ، وعدم الانخلاع من موجبها .

وكل هذه المعانى تشرق من مقابلة الارتفاع بالاخلاد الى الأرض .

وهنا نجد صورة رائعة تلتقى فيها أطياف مميزة بألفاظ مصورة ، فهى تصور شخصا أفاض الله تعالى عليه بأسباب الايمان بالحق ، والتصقت به . حتى صارت كأنها جزء من كيانه ، وقد اتصلت ببنائه ، ولكنه بسبب أنه أخلد الى الأرض وكان نزوعه متصلا بأعلاقه قد سلخ البينات الملتصقة بها بانغماس فى الضلال متكرر مستمر ، حتى انسلخ من الهداية . وفى ذلك اشارة بيانية الى أنه ترك الهداية بعد عمل مستمر قام به ، فهو قد ابتدأ فى الشر متبعا هواه ثم كرره حتى كون له خطوطا فى نفسه ، وتكرر حتى صارت الخطوط مجارى ، فكان الانسلاخ ، وبعد الانسلاخ وجد الشيطان طريقه فاتبعه بغية الضلال ، وقد مثله تعالى بمثال آخر ، وذكر له صورة أخرى .

وذكر فى الكلمة الرابعة : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث » واللهث كما يقول علماء اللغة أن يخرج الحيوان لسانه مرطبا بلعابه فى حال عطشه أو جوعه أو اعيائه ، أو اهاجته ، وذعره ، ويقولون ان أخص أحوال الكلب أن يكون منه اللهث فى كل أحواله ، فانه يكون مكروبا دائما ، وقد ذكر القرآن الكريم حال من ينسلخ من الهداية الى الغواية بأنه يكون فى حال هياج نفسى مستمر لا يستقر على قرار ، ولا يسكن على حال ، اذ أن الهداية ايمان ، والايمان

اطمئنان وقرار ، ومن يكفر بالله ، وينسلخ على هدايته اتباعا لهــواه يكون فى لهج مستمر ، فيكون كالكلب فى أخس أحواله وأذلها ، ان هيج لهث ، وبدت صــورته شوهاء ، وان سكت عنه بدا على هذه الصورة •

وان هذا تصوير واضح لمن غلب عليه هواه ، اذ تغلب عليه شقوته ، ويكون فى اضطراب ، وشعور بحرمان دائم يستقر فى نفسه ، لأن الهوى يجعل النفس طلعة تتطلع ولا تهدأ ولا تستقر ، ولا تطمئن •

ونرى من هذه الآية وما سبقتها كيف يكون كل لفظ مؤدياً معنى خاصــاً يقصد ، ويعطى صورة من البيان لها أطياف كأطياف صورة التصور الحسية التى تصورها يد صناع لمصور ماهر ، ولــكلام الله تعالى المثــل الأعلى ، ومن مجموع هذه الصور المتكونة من الــكلمات تكون صورة كليــة يتمثل فيها أعلى صور البيـــان •

٥٠ — ولننتقل من هذه الصورة الرائعة التى تتكون من مجموع صور بيانية للعبارات الى صورة بيانية لبيان حال ، ما ينزل بالــكفار يوم القيامة ، ولا يصح أن يجول بخاطر أحد أننــا نبحث فى ألفاظ القرآن الــكريم متخيرين ، بل نفتح فنجد الأمثال الواضحة من غير تحر ولا تخير •

لقد قال تعالى فى سورة الدخان فى تصــوير غذاء المشركين يوم القيــامة ، وترى كل كلمة من النص تبين صــورة مؤلمة مزعجة لمــا يتناولون ، ويشترك فى الصورة نغمة الــكلمات ونسقها ، وتآخيها •

اقرأ قوله تعالى : « ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق انك أنت العزيز الــكريم » (١) •

ولننظر اليها ، ونبين ما فيها من صورة بيانية ، تتخذ منها ومن أخواتها صور بيانية لأغلظ عيش وأقسى حياة ، وكيف يكون الغذاء كله ايلاما لا اشباع فيه ،

(١) الدخان : ٤٣ — ٤٩ •

وايذاء لا متعة معه ، ثم يختتم القول بتهكم على من كان يحسب نفسه عزيزا كريما ، والمؤمنين أراذل منبوذين •

أول هذه الكلمات : شجرة الزقوم — وهذا استعمال قرآني لم يكن كثيرا عند العرب ، وان كان أصل اشتقاقه من لغتهم ، والزقوم صيغة مبالغة من الزقم ، والزقم اعطاء الطعام الكريه أو الأمر الكريه ، ويقال تزقم اذا ابتلع شيئا كريها غير مرغوب فيه ، بل تنفر عنه الطباع وتستنكره •

فشجرة الزقوم الشجرة التي لا تثمر الا ثمرا كريها تعافه النفوس ، ولا يناله المتناول الا مكرها باكراه من ذي جبروت ، أو من جوع ، أو من يكون في حال من يريد تناول أي شيء مهما يكن ذلك الشيء ، ومهما يكن مذاقه ، ومهما تكن وباءته • والتعبير بشجرة الزقوم فيه اشارة الى أنه طعام مثمر مستمر ، لأن ثمراته الوبيئة الكريهة لا تنقطع ، فهي في شجرة دائمة الاثمار •

وفي هذه الآية يذكرها ، وفي آية أخرى يذكر سبحانه أنها تنبت في أصل الجحيم ، فهي من ثمرات شجر جهنم ، وفي ذلك تصوير لحال الطعام ، وتصوير لحال المقام ، وكيف أن المترف في الدنيا يتنقل من واد نيراني الى واد مثله وكل حياته منها ، فاقامته فيها وغذاؤه من ثمار أشجارها ، وبئس مثوى الكافرين •

الكلمة الثانية : طعام الأثيم — يقول الذين تكلموا في ألفاظ القرآن : ان الاثم الأمر المبطيء عن الخير ، المعوق عنه أو المؤخر له ، وعبر عنها بكلمة أثيم ، وهي صيغة مبالغة من اثم وصفة مشبهة تدل على حال دائمة مستمرة ، فهي تدل على أنه فعل الاثم كثيرا ، ولذلك وصف بصيغة الصفة المشبهة ، وهو حال دائمة عنده ، اذ الصفة المشبهة تقتضي أن يكون الموصوف بها في حال دائمة في صفتها لا تفارقه ولا يفارقها ، وهنا معنيان كلاهما يدل على بلاغة اللفظ ، وعظم مؤداه •

أول المعنيين : ذكر الوصف الذي يشير الى أن سبب ذلك الجزاء هو الاثم الدائم الكثير الذي كان منه في الدنيا ، فالجزاء من جنس العمل ، والعدل يقتضي ألا يتساوى المسيء بالمحسن ، فهل يستوى الأعمى والبصير ؟

ثانيهما : أن لذلك الثمر الكريه الذي تثمره شجرة من نار جهنم هو الطعام

الدائم المستمر الذى لا يقدم للطغاة الا هو ، فلا يذوقون طيبا ، لأنهم لم يذيقوا الناس فى الدنيا طيبا ، وهل يكون جزاء الخبيث الا خبثا .

الكلمة الثالثة : كالمهل يغلى فى البطون — والمهل دردى الزيت ، أى الراسب أو بقايا الزيت ، وتكون عادة سوداء معتمة ، ثم هى فى ذاتها شيء ردىء وأعطاه القرآن وصفا ، وهو أنه يغلى فى البطون ، فهو بقايا رديئة أصابها العطن ، لغليانها اما لحموضتها ، اذ تغلى كالأشياء المعطنة التى تتخمر ، وتغلى بالزبد ، واما لأنها تكون ذات حرارة شديدة تغلى من شدة هذه الحرارة ، ولعل غليانها من الأمرين ، فهى متعفنة تغلى بالزبد من الحموضة ، أو هى حارة تغلى منها البطون لشدة الحرارة وفى كلتا الصورتين تدخل على البطون غذاء وبيئا ، ان كان فيه مادة الغذاء ، وليس غذاء مريئا ، فهو ان يمنع غائلة الموت ، ويبقى فانما يبقى لتستمر الآلام ، وتكون حياته نكدا ، فطعام كريه فى مذاقه ، وبىء فى مآله ، مؤلم فى كل أحواله .

وقد يقال ان الأظهر هنا أن الغليان من العفونة التى تكون من بقايا هذا الزيت ، لأن التشبيه جاء بعد ذلك فى قوله تعالى « كغلى الحميم » ، وهو الماء الحار اذ بلغ أقصى درجة الحرارة ، فغلا واشتد غليانه ، والجواب أن الزيت يغلى من شدة الحرارة كغليان الماء ، وهو فى هذه الحال يكون أشد ، لأنه يكون فى درجة حرارة أعلى ، وكان تشبيهه بالماء التصوير والتقريب ، وكثير من تشبيهات القرآن للتقريب والتصوير ، فالغليان يكون بالعفونة ، وبالحرارة معا .

الكلمتان الثالثة والرابعة : « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم » فان كل كلمة من هذه الكلمات، تصور صورة عنيفة لهذا الذى عصى وغوى ، وضل اذ حسب أنه استغنى .

فكلمة الأخذ تنبىء عن القبض بعنف ، وقد كان فى القرآن الكريم ما يدل على العنف فيها كما قال تعالى : « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ، ان أخذه أليم شديد (١) » ، وكان الأخذ بأمر الله لملائكة غلاظ شداد ، فكان الأخذ فى ذاته شديدا ، وكان الآخذون أشداء وتجميلهم هنا مع وصفهم فى آية أخرى بأنهم

---

(١) هود : ١٠٢ .

غلاظ شداد ، فيه ارهاب وبيان لعظم الأخذ بالآخذين •

وقد فسر سبحانه فى الآية بما يدل على شدة الأخذ ، وبيان أنه نوع خاص منه ، اذ قال سبحانه « فاعتلوه » اذ العتل أو الأخذ بمجامع الشىء والاحاطة به وجره بالقهر والعنف ، فاذا كان الأخذ فى ذاته عنيفا ، فهو فى هذا النص أشد عنفا ، اذ هو جر واحاطة قوية بالمأخوذ ، وان الأخذ بهذه الصورة من جر عنيف واحاطة فيه ما يدل على الاهانة ، والتحقير ، وخصوصا اذا كانوا يحسبون أنهم وحدهم الكرام ، وغير أراذل دونهم ، فان الأخذ بطريق العتل يعطى صورة للمهانة التى يكون عليها من يستكبرون على الحق أن يتبعوه ، ويتبع الحق أهواءهم ، وفى هذا بيان أن هذا العنف جزاء وفاق ، لما كان منهم من غطرسة مقيتة ، فانهم سيعاملون بمثلها يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم •

الكلمتان الخامسة والسادسة : « الى سواء الجحيم » فكلمة سواء معناها المكان المتوسط ، والجحيم النار المتأججة التى تكون فى مهواة ، والصورة التى توضحها كل كلمة من هذه أنه يؤخذ عنوة ويوضع فى وسط النيران المتأججة التى تشتعل وتتأجج مرتفعة من وهدة جهنم الى أعلى ، ويلقى فى المكان المتوسط بحيث لا تكون قادرا على الخروج منها ، اذ لا يكون فى طرف من أطرافها ليستطيع أن يخرج منها ، بل هو فى وسطها لا ينتقل الا اليها ، وليته يستمر على حاله لم يجىء له عذاب من خارجها ، بل انه يجيئه العذاب من الخارج ، فيلتقى عذاب الداخل والخارج معا بل يجىء ما تدل عليه العبارات التالية :

الكلمات السابعة والثامنة والتاسعة : « ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » والصب هو نزول الماء من أعلى الى أسفل ، ويكون متدفقا مندفعا ، وهو مرتفع من فوق رأس الأثيم من عذاب الحميم ، فالصب فى ذاته من عل يؤلم ولو كان ماء باردا ، فكيف الحال اذا كان عذابا ، فهو صب لا لأجل التبريد ، ولكن لأجل التعذيب ، والاضافة هنا بيانية أى عذاب هو الحميم وهو السائل الحر الشديد الحرارة ، فهو عذاب ينزل فوق الرأس ، فيذيب أديمه ، ويصهره دهنا •

وباجتماع الآيات من أولها يكون العذاب المهين فى غذاء من المهل من الزيت الردىء يغلى فى البطن من شدة العفن ، ويغلى من شدة الحرارة ، ويساق فى هذه الحال مأخوذا أخذا عنيفا محيطا بمجامعه الى وسط جهنم ، ثم ينزل من فوق رأسه عذاب هو سائل شديد الحرارة ، يصب على رأسه صبا عنيفا يذيب كل ما يقع عليه •

ومع هذا العذاب المهين المؤلم الشديد يوجد عذاب معنوى بالتهكم عليه فيقول لسان الحال « ذق انك أنت العزيز الكريم » يعلم أنه كان طاغيا •

٥١ — هذه جمل من الآيات الكريمة تسامينا فحاولنا أن نسمو الى ألفاظ قرآنية مشرقة بمعان ، وكل كلمة منها لها طيف خاص بها ، وتدل على معان عميقة تصور ناحية بيانية تبدو واضحة فى انضمامها لغيرها ، وتكون من مجموع الصور البيانية للكلمات صورة بيانية رائعة ، واذا كان لكل صورة حسية أطياف تعطى الصورة حيوية ، فالصور البيانية لها أطياف عالية ، تعطى الصورة روعة عالية ، لا توجد فى أى كلام غير القرآن الكريم •

وان الصور البيانية القرآنية تبدو أوضح ما تكون فى القصص القرآنى ، وان كان كل البيان القرآنى رائعا واضحا ، فان القرآن فى وصف الحوار والأجواء الفكرية والاعتقادية يصورها تصويرا واضحا ، فاذا وصف حالا لرجل تجده يصور قلبه وخواطره •

اقرأ قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى : ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج انى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفا يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين » (١) هذه القصة بسياقها كل لفظ منها ينبىء عن معنى اللهفة والحذر فهذا الرجل الناصح الأمين تجده يسعى من أقصى المدينة ، والتعبير بأقصى يدل على المحبة الخالصة الطيبة ، ثم كلمة يسعى تدل على أنه جاء عدوا لا قرار عنده ، ولا اطمئنان ، وقوله « ان الملأ » وهم كبار القوم يدبرون الأمر ليقتلوك •

واستجاب موسى لنصيحة الرجل الأمين ، فخرج خائفا يترقب « انظر الى

---

(١) القصص : ٢٠ — ٢١ •

كلمة يترقب ، فهو ينظر يمينا وشمالا وأماما وخلفا يترقب من يأتيه من أمامه ، ومن يأتيه من ورائه ومن يأتيه من شماله ومن يمينه ، وكلمة يترقب تصور تلك الحال ، وتصور النفس المحترسة الآخذة تجدها فى اطمئنان نفسى ، واحتراس من غير اضطراب ، فالمترقب الخائف غير المضطرب الخائف . لأن الخائف المضطرب لا يحسن الترقب ولا الحذر ، فيصيبه الهلع فيخاف من غير مخوف ، ويقع بهلعه وفزعه فيما يخشاه ، وألفاظ القرآن الكريم ينبىء عن هذه المعانى السامية . وللكلمات صور لمعان حسية ومعنوية ، ظاهرة وباطنة ، والله سبحانه السميع العليم ، الذى أنزل كتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الكلمة مع أخواتها والعبارات مع رفيقاتها

٥٢ — قلنا ان للكلمة اشراقا خاصا ، فكل كلمة لها اشعاع فكرى ، ولكنها لا يبدو منها ذلك الاشعاع ، والبلاغة البيانية لا تكون الا مع أخت لها تناسبها ، وتتلاقى فكريا معها ، فمثلا كلمة تنفس التى ذكرناها فى قوله تعالى « والصبح اذا تنفس » لا ينبعث منها ذلك الاشعاع الفكرى الا اذا كانت كلمة الصبح معها ، فلابد لكى يكون ذلك الاشعاع المعنوى معنى صحيحا واضحا مؤديا الى غايته من أنه يكون مقترنا بالصبح ، ومع أن الاشعاع منها وحدها ، الا أنه لا يضىء الا مع كلمة الصبح ، وكلمة الصبح لا تفترق عن كلمة الفجر ، الا اذا كان يتبعه التنفس ، والاسفار . فالصبح والتنفس متلازمان ، وان كان كل منهما مؤديا معنى مستقلا ، والتلازم كان بألا يتبين ذلك المعنى الاستقلالى الا بضم الأخرى الى الأولى .

وذلك ما أشرنا اليه فى ابتداء الكلام فى بلاغة الكلمة القرآنية ، وما ارتضاه الجرجانى الذى حمل عبء القول عن نفى بلاغة اللفظ المنفرد ، فقيد نفيه بأن يكون مستقلا منفردا ، فاذا انضم الى غيره بدت بلاغة الكلمة فى أنه يكون لها صورة بيانية ، وبانضمامها تكون لها صورة بيانية من الهيئة المجتمعة .

وقد راجعنا من بعد ذلك القاضى عبد الجبار (١) فى كتابه اعجاز القرآن ،

---

(١) هو القاضي أبو الحسن عبد الجبار توفي سنة ٤١٥ هـ .

نوجدناه يقرر فصاحة الـكلمة منفردة ، ولـكن لا تبدو بلاغة معانيها الا اذا تضامنت مع غيرها فهو يقـول :

« اعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وانما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولابد مع الضم من أن يكون لـكل كلمة ابتداء ، وقد يجوز أن تكون هذه الصفة بالمواضعة التى تتناول الضم ، وقد تكون بالاعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام رابع ، لأنه اما أن تعتبر فيه الـكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولابد من هذا الاعتبار فى كل كلمـة ، ثم لابد من اعتبار مثله فى الكلمات اذا انضم بعضها الى بعض ، لأنه قد يكون لهـا عند الانضمام صفة ، وكذلك لكيفية اعرابها وحركاتها وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذى ذكرناه انما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ماعداها .

هذا كلام من ذلك الامام المعتزلى ، نهج فيه نهجا فلسفيا ، ولـكنه يؤدى الى ماقصدنا الى بيانه ، ولعله يريد من المواضعة الوضع اللغوى للكلمة ، ويشمل ذلك الأصل اللغوى ، والحقيقـة العرفية ، والمجـاز والاستعارة والتشبيه ، وغير ذلك ، ويريد من الموقع موقع الكلمة من أخواتها من غير تنافر بينهما ، بحيث تكون الكلمة لفق أختها ، متناسقة متناسبة ، ولعله يريد من موقع اختيار الكلمة فى وضعها بأن تكون فاعلا أو مفعولا أو حالا ، أو فيها اختصـاص ، اذ عبر بالاشارة القريبة ، وهكذا ، فهو لم ينظر الى بنية الـكلمة وحدها بل نظر الى موقعها من الاعراب .

وعلى ذلك نرى أن الكلمة البليغة تظهر بلاغتها مع أخواتها ، وأن الكلمة قد تكون بليغة فى موضع ، ولا تكون بليغة فى موضع آخر فى كلام الناس ، أما القرآن فالكلمة تكون بليغة دائمـا ، لأن منزل القرآن وهو الله تعالى يضع الكلمـات فى مواضعها ، وفى الكلام الذى ينسب الى الناس قد تكون اللفظة فى موضع بليغة ، وفى غيره غير ذلك . ولذلك يقول عبد الجبار فى تفاوت كلام الناس » لابد فى الكلامين اللذين أحدهما يكون أفصح من الآخر أن يكون انما زاد وعليه بكل ذلك أو بعضه (أى بالأمور السابقة) ولا يمنع فى اللفظة الواحدة أن تكون اذا استعملت فى معنى تكون أفصح منها اذا استعملت فى غيره » والله أعلم .

٢ - الأسلوب القرآنى

٥٣ — قد تكلمنا فى سابق قولنا فى ألفاظ القرآن المفردة ، أن اللفظ المفرد له بلاغة خاصة فى ضمن الأسلوب وأن كل كلمة فى جمله من الكلام تدل بمفردها على معان تتساوق مع المعنى الجملى للكلام ، وأن كل كلمة تكون بمفردها صورة بيانية تكون جزءا من الصورة العامة للقول وقلنا ان ذلك ليس معناه أن الكلمة لو جردت من الكلام تعطى وحدها ذلك الاشراق ، ولكن ينبثق نورها بالتضام مع غيرها من غير أن يفنى ضوؤها فى ضوئه ، ولا تنمحى صورتها البيانية التى أشرقت بهذا التضام .

وقلنا ان ذلك لم ينكره أحد حتى الجرجانى(١) الذى تشدد فى اعتبار الأسلوب وحده هو سر الاعجاز ، من غير التفات الى معانى المفردات .

واذا أردنا أن نحرر القول الذى رآه الأكثرون ، وخالف فيه الجرجانى ومن الف لفه ، فاننا نقول ان كلمات القرآن لها فى تناسق حروفها ، وتلاقى مخارجها اشراق بلاغى ، ولكن لاينكشف ذلك الاشراق الا بالتضام ، أى أن الاشراق ذاتى، وهو الأصل ، ولكن شرط ظهوره ، تضام الكلمة مع غيرها .

وفى هذا المقام نتكلم على الأسلوب والصور البيانية التى تتكون منه والتآخى بين ألفاظه فى النغم وفى تناسق القول ، بحيث تكون كل كلمة فى موضعها الذى وضعت لاتنفر من أختها ، ولا يمكن تغييرها وكأن الكلمات فى الأسلوب نجوم السماء وأبراجها ، لا تزايل أماكنها ، ولا تخرج من مواطنها ، ويقول فى ذلك القاضى عياض فى الشفاء :

« الوجه الثانى من اعجازه صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه . ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شىء منه ، بل حارت فيه عقولهم ،

---

(١) هو عبد القاهر الجرجانى توفى سنة ٤٧١ هـ .

وتدلهت دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا الى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر (١) •

وأن الاسلوب هو الصورة البيانية التى تظهر فى معنى رائع ، وكلام مشرق ، يثير فى النفس أخيلة الحقيقة يصورها ويبينها ، ويحس الانسان فيها بأطياف المعانى ، كما يحس بأطياف الصورة على حسب تثقيف المصور ، وحسن الاختيار فى ألوان الصورة ، فللأساليب ألوان تحسن ، وتتنسق وتصريف فى أوضاعها كما قال تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات لقوم يفقهون » (٢) •

ولقد قال فى هذا المعنى الخطابى (٣) فى رسالة اعجاز القرآن : « وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعانى ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعضه ، فتقوم له صورة فى النفس فيتكلم بها البيان » واذا كان الأمر فى ذلك على ماوصفناه ، فقد علم أنه ليس المفرد بذرب اللسان وطلاقته كافيا فى هذا الشأن ، ولا كل من أوتى حظا من بديهة حاضرة ، وعارضة كان ناهضا بحمله ومضطلعا بعبئه ما لم يجمع اليها سائر الشروط التى ذكرناها على الوجه الذى حددناه ، وأنى لهم ذلك ، ومن لهم به : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٤) •

وان الشروط التى ذكرها فى آنف قوله هو اختيار الألفاظ من ناحية معانيها ، وقوة تماسكها بعضها ببعض وأشار الى أن الألفاظ قد تكون مترادفة فى الظاهر ، ولكن عند التحقق فى مرماها يكون الاختلاف ، وان كان المعنى الجملى واحدا •

وان الناظر الى أسلوب القرآن الكريم فى الخطاب والبيان ، يجده مختلفا ، فمثلا أحيانا يكون بالاستفهام ، والاستفهام أحيانا للتوبيخ ، وأحيانا للتقرير وأحيانا يكون للتنبيه ، والكلام يكون باطناب لا حشو فيه قط ومعاذ الله أن يكون فى كلامه تعالى ما يشبهه ، وفى الاطناب يكون تكرار القول ، وأحيانا يكون الكلام

---

(١) الشفاء ج ١ ص ١٧٦ •
(٢) الأنعام : ٦٥ •
(٣) أديب لغوى محدث توفى سنة ٣٨٨ هـ •
(٤) رسالة الخطابى ص ٣٧ — الاسراء : ٨٨ •

ايجاز ليس فيه اخلال ، وأحيانا يكون الحزم تهديدا تضطرب له القلوب وتفزع ، واحيانا يكون توجيها يدعو الى التامل والفكر واحيانا ببيان أحكام الحلال والحرام وتوجيه أنظار المكلفين الى حكمها ، وكل ذلك فى اسلوب متناسب مؤتلفه ألفاظه ، ومؤتلفة معانيه ، بحيث يتكون من الجميع صـورة بيانية متناسقة فى معانيهـا مؤتلفة فى ألفاظها لا ينبو واحد منها فى لفظ أو معنى بل يتآخى الجميع •

التآلف فى الألفاظ والمعانى :

٥٤ — التآلف فى الألفاظ ، بألا تكون بينها نفرة فى المخارج ، ولا نفرة فى النغم ، بل يتلاقى نغمها ، وتسهل مخارجها فلا تكون واحدة نابية عن أختها ، بل تتآلف وتتآخى فى نسق واحد ، بحيث لا تبدو واحدة بنطق غير مؤتلف مع نطق تاليتها ، أو كما قال الجرجانى فى دلائل الاعجاز ، كل كلمة تقف مع أختها ، ولو حاولت أن تنزع كلمة لتضع مكانها أخرى فى معناها ، ما ائتلف السياق ولا انسجم الأسلوب ، ويقول فى هذا الباقلانى فى كتابه (اعجاز القرآن) :

« واعلم أن هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان قليل الطلاب ضـعيف الأصحاب ، ليست له عشيرة تحميه ، ولا أهل بيت ، عصمة تفطن لمـا فيه ، وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر •• وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح ، فى موضع الفجر يحسن فى كل كلام ، الا أن يـكون شعرا أو سجعا ، وليس كذلك فان احدى اللفظتين قد تنفر فى موضع ، وتنزل عن مكان تنزل فيـه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضرب بجرانها ، وتراها فى مظانها ، وتجدها فى غير منازعة فى أوطانها ، وتجد الأخرى لو وضعت فى موضعها لكانت فى محل نفار ، ومرمى شرار ، ونابية عن استقرار (١) •

هذا ما ذكره الباقلانى فى كتابه • واذا أطرحنا ما فيه من سجع لم يجىء على رسله ، واتجهنا الى ما يرمى اليه وجدناه سليما دقيقا ، وأنه لا ينطبق على كلام كما ينطبق على القرآن ، ومقام القرآن الكريم فيه مقام الذروة والسنام •

(١) اعجاز القرآن ص ٢٨٠ طبع دار المعارف •

وان التأليف ليس فقط فى نسق الألفاظ ونغمها ، بل انه يشمل التآخى فى المعانى كالتآخى فى المبانى ، فلا يكون معنى لفظ نافرا من المعنى الذى يجاوره ، ويألف من الألفاظ والمعانى وماتوعزه من أخيلة ، وما تثيره من معانى متداعية يدعو بعضها بعضا . ويألف منها علم زاخر ، كثير خصب ، وقد عبر عن هذا المعنى الوليد بن المغيرة بقوله : « ان أعلاه لمثمر ، وأن أسفله لمغدق » .

ولنذكر لك شاهدا على ما نقول . هو قصة الأعرابى الذى سمع قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (١) » فأخطأ القارىء وقال غفور رحيم ، فقال الأعرابى ، انه يقطع الأيدى نكالا ، فلا يتفق القول ، فراجع القارىء نفسه وأدرك المعنى .

٥٥ — وان التآخى فى المعانى والألفاظ ونسقها ونغمها ومعانيها ، واضح فى كل آيات القرآن ، لا فى آية دون أخرى ولا فى سورة دون سورة . فلا تجد فى لفظ معنى يوجه الخاطر الى ناحية ، ويليه آخر يوجهه الى ناحية أخرى ، بل تجد النواحى متحدة اما بالتقابل واما بالتلاصق والمجاورة وفى كلتا الحالين ، تجد معنى كل لفظ يمهد لمعنى الآخر فلا تنافر فى المعانى ، كما لا تنافر فى الألفاظ وهما فى مجموعهما ينسابان فى النفس غذاء رطيبا مريئا ، ونميرا عذبا سلسبيلا .

وقد ساق الباقلانى آيات ليست مختارة اختيارا ، لأن آيات القرآن كلها لا نظير لها ، فليس اختيار من ينتقى ، لأن كله خير وسنذكر آيات مما ذكر وأخرى لم يذكر كنا نفتح الكتاب ، فيبدو نوره فنقتبس منه قبسة .

اقرأ قوله تعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى الله تصير الأمور » (٢) .

هذه الآيات الكريمة بعباراتها واشاراتها البيانية ، وسياقها تدل على ابتداء

---

(١) المائدة : ٣٨ .
(٢) الشورى : ٥٢ — ٥٣ .

الرسالة المحمدية ، وانتهاء أمر الناس فى الاخذ بها ، وعاقبة من اهتدى ومن ضل وعصى وغوى •

واذا نظرت الآيات الكريمات مع ما سبقها ، وجدتها كلاما متآخيا ، يندمج بعضه فى بعض فى ائتلاف ، لا نفرة فيه ، فالآية قبلها تبين طرق كلام الله تعالى لخلقه ، لقد قال تعالى قبل هذه الآيات : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ، فيوحى باذنه ما يشاء ، انه على حكيم » (١) •

ولنبتدىء بالاشارات البيانية التى وعدنا أن ننبه الى بعضها ، فليست لنا الطاقة الى ادراك كلها ، ولعل غيرنا يدرك بعضا آخر ، ولا أحسب أننا جميعا نصل الى كنه اشاراتها •

فهنا نجد كلمة كذلك تربط هذه الآيات بما فيها ، فهى تدل على المؤاخاة بينهما ، وهى تشير الى علو الله فى المعنى الذى قرره « انه على حكيم » وتشير الى حكمة اختيار الطريقة فى الرسالة المحمدية •

ولننظر فى الألفاظ نجد التآلف بينها فى النطق والنغم ، أفلا نجد ائتلافا بين كلمة أوحينا ، وكلمة روحا ، وكلمة من أمرنا ، لا أنبه الى ما فيه من تآلف فى النطق، وتآخى فى المخارج والنغم فذلك بين لا يحتاج الى بيان ، وهو يتصل بالذوق والجرس فى السمع ، فهو يدرك بالحس ، ولا ينبه اليه بالمعنى •

ولكن نريد أن ننبه الى التآخى فى المعنى لكل كلمة سقيت ، وما تتسع له كل واحدة من معان تتلاقى مع أخواتها ، وتأتلف ، فتعطى صورة بيانية رائعة •

فكلمة أوحينا تدل على أن لخطاب الله تعالى لرسله لا يكون جهرا يعلمه كل واحد ، ويسمعه كل انسان ، فهو خطاب لرسول ، والرسالة بمجرى الأمور تكون بين المرسل ، وبين من يرسله ، والتعبير بأوحينا أبطال لقول من يقولون أرنا الله جهرة ، أو قول من يقولون عن جهل بالله ورسالاته الذين يقولون « لولا أنزل عليه ملك » أى نراه ونحسه ، ولذا رد الله تعالى قولهم بقوله « وقالوا لولا أنزل عليه

---

(١) الشورى : ٥١ .

مِنك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ، ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » (١) .

فكلمة أوحينا مع حلاوة لفظها فيها اشارة الى هذه المعانى وفى عمومها ، ولم يبين نوع الوحى ، اذ هو على ضروب مختلفة متعددة بالنسبة لخطاب الله تعالى لأنبيائه عامة وبالنسبة لمحمد خاتم النبيين خاصة . وذلك اما برسول يشاهد يرى ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبى (يراها النبى عليه السلام وحده) واما بالقاء فى الروع كما قال عليه السلام : « ان روح القدس نفث فى روعى » واما بمخاطبة الله تعالى وسماع كلامه سبحانه من غير حس ، كما كان فى المعراج وفرض الصلوات .

وبكل تلك الأنواع والطرق كان وحى الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم .

ونجد فى اضافة الايحاء الى الله تعالى بيان عظمة الوحى ، وكون الايحاء الى النبى مخاطبا له جل جلاله اعلاء لشأنه وبذلك تتآخى فى رفع شأن الرسالة والنبى صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى « روحا من أمرنا » والروح هنا قال أكثر المفسرين للقرآن جبريل ، ونرى أنها تشمل جبريل عليه السلام فقد سماه الله تعالى روح القدس، ويكون معنى الايحاء الارسال ، ويشمل القرآن ، ويشمل الشريعة نفسها ، وتسميتها بالروح لما فيها من معنى البقاء والحياة الى يوم القيامة واضافتها الى من أمر الله تعالى لتشريفها وتشريف من جاءت اليه وبعث باسمها وهكذا نجد مع ائتلاف الألفاظ فى النسق والنغم وجرس الكلام تآخيا فى المعانى فانها كلها تدل على شرفها بعظم مصدرها وهو الله تعالى ، وكبر المعانى فى ذاتها ، لكان لها شرف المعانى ، وكان لها شرف أنها من الله تعالى فأى كلام بليغ يصل الى كل هذا فى التآلف بين المعانى والألفاظ .

---

(١) الانعام : ٨ ، ٩ .

٥٦ – والآية السامية تحتوى فى سياقها ، دليل الرسالة ، فيقول تعالى « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » وان هذا النص الكريم مع ايجازه يرمى الى ثلاث حقائق :

الأولى : أنه ما كان يعلم علم الكتابة فلم يكن قارئا ، ولا كاتبا ، وعبر هنا عن العلم بالدراية ، لأن الدراية علم يأتى بالتعلم والممارسة ، فهو علم كسبى ، وأنه ما كان يعلم بالدراية ، ونفى الدراية فى الايمان ، لأنه لم يكن هناك من يلقنه علم الايمان الا أن يكون الهاما من الله ، تعاونه الفطرة المستقيمة ، وقد يقال أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان مؤمنا منذ بلغ التمييز وقبل ذلك ، فكيف كان لا يدرى الايمان ، والجواب عن ذلك أنه كان موحدا ، ولكن بقية ما يقتضيه الايمان من صلوات وزكوات وتنظيم للمجتمع ، وطرق التعامل السليم ، ما كان يدريه ، وبهذا يفسر قوله تعالى « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى (١) » .

الثانية : أن فى هذا الكلام السامى حجة على أن القرآن من عند الله تعالى ، وأن محمدا لم يأت به من عنده ، لأن ما كان يقرأ ولا يكتب ، وهذا كما قال الله تعالى فى سورة أخرى ، « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، اذا لارتاب المبطلون (٢) » .

الثالثة : أن قوله تعالى « ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » الدراية داخلة على الاستفهام ، فنفى الدراية متجه الى الحقيقة أى أنه ماكان يدرى حقيقة الكتاب ، ولا تفصيل الايمان ، وهذه تأكيدا ت لنفى العلم بالكتاب علم دراية ، ونفى العلم بتفاصيل الايمان علم دراية .

ولا شك أن كل كلمة من هذا النص وما سبقه تتآخى مع ما بعدها وما قبلها فى تقرير حقيقة ثابتة ، وهى أن القرآن روح من عند الله ، وكل روح فيها حياة ، وحياته فى الشريعة التى أنزلها ، والتوحيد الذى دعا اليه ، والحق الذى أثبته ، والصلاح الذى بثه ، ودفع الفساد فى الأرض ، ولكن القرآن نور هذا الوجود ،

---

(١) الضحى : ٦ ، ٧ .

(٢) العنكبوت : ٤٨ .

« ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا » •

٥٧ — وننظر فى النص ، وانسجام ألفاظه ، وتلاقى معانيه ، وانك تجد للاستدراك هنا موضعا طيبا ، اذ أن النص الكريم السابق كان فيه نفى الدراية عن حقيقة الكتاب وعن حقيقة الايمان والاستدراك هنا لا يفيد أن نفى الدراية دائم ، بل انه ينتهى بعلم الكتاب الذى هو النور الذى يهدى به الله تعالى •

ولنترك الكلمة للباقلانى فى الاعجاز فهو يقول :

« جعله سبحانه وتعالى روحا لأنه يحيى الخلق ، فله فضل الأرواح فى الأحياء ، وجعله نورا ، لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق ، ثم أضاف وقوع الهداية الى مشيئته ، ووقف وقوع الاسترشاد به عن ارادته • وبين أنه لم يكن ليهتدى اليه • لولا توفيقه ، ولم يكن ليعلم ما فى الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه ، وأنه لم يكن ليهتدى لولا هداه فقد صار يهتدى ، ولم يكن من قبل ذلك ليهتدى أى أن القرآن الكريم قبل نزوله ما كان النبى يدرى ما الكتاب ولا الايمان وبعد نزوله اهتدى ، وعلم ، وبلغ مرتبة أن يحمل الهداية والارشاد للناس بعد أن كان لا يدرى الكتاب ولا تفصيل الايمان وهذا يفيد أن القرآن تعليم الله للنبى ، وللناس من بعده » •

وأن الكلام السامى « ولكن جعلناه نورا » فى هذا استعارة تمثيلية أى أنه هو كالنور المضىء الذى لا يضل فيه السارى ، ولا يختفى على من يبصر بسببه شىء بل ان فيه تأكيد التشبيه بجعله هو النور ، وأن الذين لا يبصرون حقائقه ، وما فيه من علم ، العيب فيهم ، وليس فيه ، والنقص منهم ، وليس منه ، واضافة جعله نورا الى الله تعالى تشريف له فوق تشريف ، وهو يتفق مع النسق الذى ابتدأ به النص الكريم ، ولكن مع أنه النور الذى يهدى — لا يهتدى به الناس من غير أن يكون ذلك بمشيئة الله تعالى ، فقال سبحانه « من نشاء من عبادنا » ، فبين سبحانه سلطانه على القلوب ، وخص بالهداية من شرفه بأنه من عباده تعالى سلطانه ، وقام عدله ، وفى هذا اشارة بيانية الى أن الذى شاء الله تعالى هدايته هو من خلص

نفسه ، وجعلها لله وحده ، وشرف بأنه من عباد الله لا من اخوان الشياطين .

ولقد شرف الله تعالى نبيه بأن نسب اليه هداية الارشاد ، وبيان السبيل فهو نور معه نور الكتاب ، ولذا قال تعالى :

« وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، أكد الله تعالى عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان سبيل الحق ، والدعوة اليه ، وأنه المستقيم الذى لا عوج فيه ، ولا اضطراب .

فهنا هدايتان أولاهما هداية التوجيه والارشاد وبيان الحق ، ودعوته وهى للرسل ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فمن علم واستنار واهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما الله بظلام للعبيد والهداية الثانية العليا . وهى امتلاء القلب بالايمان بعد أن سار فى طريقه وأرشد اليه ، وهذا لمن يشاء الله هدايته من عباده المؤمنين .

وقد ذكر الله تعالى من بعد ذلك الحكم العدل باعطاء الطائع جزاءه من ثواب ، وما يستحقه العاصى من عقاب ، فقال تعالى : «ألا الى الله تصير الأمور» أى واليه وحده مآل الأعمال كلها ، وكل امرىء بما كسب رهين ، فمن عمل صالحا فله جزاؤه ومن عصى وبغى نال عاقبة ما عمل .

ونرى من هذا تآخى المعانى فى الآيات . وتسلسل ما ترمى اليه ، فبين أولا بعث النبى عليه السلام ، واعطاءه الدليل بمعجزة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذكر ثانيا الحجة على صدق القرآن ، ثم أشار الى أنه نور ، وذكر أن النبى عليه السلام عمله الارشاد وبيان الحق والطريق اليه ، وأن الهداية من بعد ذلك .

هذا تآخى المعانى ، وكون كل معنى مقدم للذى يليه ، وبالتالى مبنى عليه ودعامة لما بعده ، أما تآلف الألفاظ فى النغم ، والحروف ، فأمر فوق طاقة البشر .

وانه ليتألف من هذا الكلام صور بيانية للوحى ، والقرآن ونوره وهداية الأنبياء وموضعها ، وهداية الله تعالى ، وثمرتها فى القلوب وكونه لعباد الله المخلصين ، لا لعبدة أهوائهم وشهواتهم .

صورة بيانية للطمع والشح ثم الندم

٥٨ — تلك صورة لمن سيطر عليهم الشح فذاقوا عاقبته ، ثم تنادوا بالتوبة والتلاوة . قال تعالى :

« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا ، وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا انا لضالون ، بل نحن محرومون . قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا ياويلنا انا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (١) » .

سبحان الله تعالت كلماته ، وعز قرآنه ، وعلا بيانه ، ولعل من فضول القول أن أقول ان الآيات تصوير رائع لنفس الشحيح وحرصه ، وندمه ان ذلك من فضول القول : لأن القرآن كله رائع لا يصل الى روعته كلام مطلقا ، ولا يستطيعه قائل .

ان الآيات الكريمة فيها (١) صورة بيانية لنفس الحريص الغافل عن سلطان الله تعالى (٢) وصورة بيانيه لغفلة الحريص عن قضاء الله تعالى ، وأن كل شيء عنده بحساب (٣) وفيها بيان الحال المناعين للخير . وما يدور فى نفوسهم (٤) وصورة بيانية للندم كيف يدخل النفوس بعد التنبه . (٥) ثم حال الندم وما يليه من توبة نصوح . (٦) ثم بيان لحال الرجاء فى رضا الله تعالى .

وقبل أن نتكلم فى تلك الصور البيانية نقول ان الألفاظ ليس فيها نبوة تبدو ، ولو بترجيع النظر كرات ، والتناسق فيها متوافق النغم تفيد برنينها ، وتصل الى القلوب فى عميقها ، والمعانى متآخية تتجه كلها الى تصوير الطامعين أمل الشح،

---

(١) القلم : ١٧ — ٧٣ .

وكيف يبتدىء بالحرص العنيف ، المغالى فيه ، وتغليب الطمع فى كل شىء ، والاستيثاق من تحقق ما يطمع فيه ، كما يصور له الطمع ، ثم يشتد المنع حتى يكون لكل خير ، ثم تكون المفاجأة .

هذا وان مجال التصوير يظهر فى أن الموضوع كله ذكر مثلا لكل مناع للخير ، لأنه ذو مال وبنين ، ودفعه غروره ، بما آتاه الله من مال ، ثم كفر به واعتدى ، وكانت عاقبته أنه حرم مما طغى به وصار يوم القيامة أمام الجزاء الأليم بيد أن أولئك أصحاب الجنة وهى الحديقة المثمرة ، كانت لديهم فرصة الرجاء بعد الندم ، أما هؤلاء فقد فاتت فرصة الرجاء ولات حين مناص ، ولنذكر بعد ذلك مانستطيع الاشارة اليه من النواحى البيانية .

٥٩ — الصورة الأولى صورة الطمع المتغلغل فى النفس الذى ينسيها كل شىء ما عدا ما تطمع به النفس ، فقد قال تعالى انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون » .

اختبرهم الله تعالى بالطمع كما اختبر أصحاب البستان المثمر ، ونرى التشبيه هو ما يسمى بالتشبيه التمثيلى ، وهو تشبيه حال الطاغين المعتدين أن رأوهم استغنوا لأنهم ذوو مال وبنين ، فغلبهم الطمع ، حتى أوبأهم فى أسوأ الأحوال ، والعناد مع الله تعالى ، بحال أهل الحديقة اذ غرهم الغرور فظنوا أنهم واصلون الى ما يبتغون ، وأقسموا على ذلك غير مقدرين عاقبة ، ولا حسابا لما يأتى به الله تعالى . والتشبيه بلا ريب للتقريب ، لا للمساواة ، لأن حال الكفار أشد عتوا وأبلغ غرورا ، وهكذا كل تشبيهات حال القيامة وما وراءها بحال ما يقع ليس للتساوى أو لأن المشبه به أبلغ فى وجه الشبه ، ولكن لتقريب الغائب بتصويره بالحاضر ، ومثل ذلك تصوير المعنويات بالمحسوسات ، وما يكون من جزاء وعقاب هو من المحسوسات ، ولكنه غائب .

وهنا فى النص نجد تصوير النفس الطامعة ، اذ أنها لشدة رغبتها تتصور محل الطمع واقعا لا محالة ، ولذلك أقسموا جاهدين فى قسمهم ليصرمنها ، أي ليقطعنها

قطعا يستأصلونها من أدناها ، وهذا اللفظ فى هذا المقام أبلغ من القطع ، لأن الصرم قطع من الجذور ، أى هو قريب من القلم ، ولتصورهم استجابة لطمعهم أنهم واصلون أكدوا الصرم باللام ونون التوكيد الثقيلة ، ولشدة الطمــع لم يتوقعوا تخلفــا قط ، ولذلك لم يستثنوا ، فلم يقولوا ان شــاء الله ، أولا ، لأن حرصهم ورغبتهم الجامحة أنستهم الله تعالى • ولأن تطلعهم الى ما تهوى أنفسهم لم تجعل لاحتمال التخلف موضعا فى عقولهم ، وكانت اللهفة والحرص على التنفيذ قد جعلاهم معجلين التنفيذ ، فهم يبكرون به مصبحين غير متلبثين ولا متأخرين لأن القطع أمر محبوب ، لا يرون معه ابطاء ، ولا تريثا ، بل يستعجلون ما يريدون بل ما يهوون•

وقد صور الله سبحانه وتعالى غفلتهم عما يقدره الله تعالى ، مع أنه متحقق، فهم يقدرون ويرغبون ، ويستعجلون ، والله من ورائهم محيط ، وقد صورت الآية الكريمة قدر الله تعالى بقوله تعالت كلماته : « فطاف عليهــا طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » الطائف العارض الذى يعرض ليلا من ريح صرصر عاتية أو عواصف تقتلع الأشجار ، وتلقى بالثمار ، وهذا الطائف بأمر الله تعالى ، فكل شىء فى الوجود بارادة الله تعالى القدير ، والصريم الأخشاب المتراكمة ، أو الأشجار القائمة المصروم ثمرها المقطوع منها ما أينعث ، وهذا بلا شك تصوير بين، لما يجريه الله تعالى فى الأرزاق ، ومهما يقدر الانسان فى كسب الرزق ويحــاول التحكم فيه ، فان الله تعالى فوق ما يقدر •

ونرى من هذا تصوير ما فى نفوسهم ، وبيان ما يحيط بهم فى بيان متماسك فى ألفاظه ، متآخ فى معانيه •

٦٠ — ولقد صور سبحانه وتعالى صورة الحرص ، ومنع الخير فى أعنف صوره النفسية ، فقال تعالت كلماته « فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » •

أنزل الله بالحديقة ما أنزل وهم لا يعلمون ، فكان حرصهم على ماهو عليه ، وتعجلهم لجنى الثمار ، كما هو ، وقد صور الله تعالى ذلك بذكر حالهم أنهم تنادوا،

أى نادى بعضهم بعضا مجمعين على ما أرادوا ، أن أصبحوا فى الغد مبكرين على زرعكم وثماركم الذى حرثتم أرضه ، وأصلحتم ثمره ، ان كنتم تريدون قطعه ، وقطف ينعه ، ويلاحظ أن التعبير بصارمين ، فيه معنى الارادة الصارمة للقطع الذى لا ريب فيه .

وان معنى التعجل والحرص قد أكد بقوله تعالى حكاية عنهم « فانطلقوا وهم يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » هذه النصوص تصور اجتماعا وافتراقا ، فقد اجتمعوا على نية القطع ، واجتمعوا على المسارعة فيه ، واجتمعوا على أمر خبيث لم يعلنوه ، ولكن اتفقوا عليه فى تخافت واسرار ، واجتماع على تلك النية الخبيثة ، وان كلمة يتخافتون تصوير لحالهم الحسى ولأمرهم النفسى ، ولمعنى المنع ، فان الامتناع عن الخير لا يكون الا باصرار النفوس ، والتفاهم فى سر ، ولا يكون فى جهر ، فتخافتوا على ألا يعطوا مسكينا ، وعبر عن المنع عن اعطاء المسكين بمنعه من الدخول ، فهم لا يمنعون العطاء فقط ، بل يمنعونه من الدخول بنهى مؤكد ، وباصرار على المنع ، ولو بالدفع أو القهر . فضلا عن الطرد والنهر ، واغلاق الأبواب واقامة الحراس المانعين ، وأكدوا تنفيذ فكرتهم بما حكى الله عنهم من تأكيد المنع بالنون الثقيلة . هذه أحوال اجتماعهم ، أما افتراقهم فهو دخولهم على الحديقة ، متفرقين كل فى جانب منها،ودل على ذلك قوله «فانطلقوا» فهم ذهبوا ليقطعوا ، ويجمعوا كل فى جانب تجمعهم فكرة التعجل ، والتصميم ، والالحاف فى منع المساكين ، وقال تعالى فى تصوير تعجلهم مع سيطرة فكرة المنع عليهم «وغدوا على حرد قادرين » فغدوا معناها أقدموا فى باكورة الغداة . والحرد معناه المنع والتشدد فيه ، والمعنى أنهم أصبحوا قاصدين القطع ، ومعتزمين المنع من حق الفقير بل منع دخوله ، وموضع قادرين هنا هو وصفهم بالقوة على العمل والتنفيذ والمنع بكل وسائل .

هذا تصوير لا تعرف اللغات تصويرا للحرص والتعجل ، والاستيثاق بالايمان وعدم التردد فيما يعملون ، ونية السوء ، والتخافت فيها — مثله،«ولو اجتمعت

الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

٦١ — ولكن الآيات الكريمات بعد تصوير حالهم هذه فى التعجل والحرص، لتصوير المفاجأة ، وتنبيه المفاجأة للغافل وايقاظها للضمير النائم ، واثارتها للوجدان الساهى ، فيقول سبحانه فى رؤيتهم لتهدم ما بنوا عليه اشباع طمعهم، وما حملهم على نية الشر ، فقال تعالت كلماته ! .

« فلما رأوها قالوا انا لضالون ، بل نحن محرومون » .

كانت المفاجأة بمقدار الحرص والطمع . واسترسالهم فى المطامع المادية حتى استأثروا بها ، ولم يعطوا منها حق الفقير المسكين والسائل والمحروم ، واذا كان حرصهم بلغ أقصاه ، فالمفاجأة بالحرمان كانت أشد وقعا ، أصابتهم بالحيرة الشديدة ، والضلال البعيد ، وأول الضلال أنهم توهموها غير أرضهم ، فلما استيقنوا أحسوا بضلال آخر معنوى أشد فتكا فى النفوس وتأثيرا فى القلوب وهو احساسهم بالضلال المعنوى اذ قدروا ، ولم يدركوا تقدير الله ، وحسبوا أن الأمر اليهم وحدهم ، والله فوقهم ، فلما أدركوا ضلال تفكيرهم قرروا الحقيقة الثانية ، وهى أن الله تعالى قدر حرمانهم ، وما قدره نافذ لا محالة ولذا قالوا كما حكى الله عنهم مؤكدين « بل نحن محرومون » فالاضراب معناه هنا أنهم ترقوا من حال الضلال المؤكد الى حال الايمان بالحرمان المؤكد .

وان قوله تعالى عنهم « بل نحن محرومون » وبعد « انا لضالون » فيه اشارة واضحة الى الأسف والألم المرير ، ألم الضال ، والحرمان من الهداية ، ثم الحرمان المطلق من الثمرات التى طمعوا فيها ، وتخافتوا على ألا يعطوا الفقير ،

واذا كان قد اجتمعوا على ما كان منهم أولا ، فقد اجتمعوا على المفاجأة والحرمان ثانيا ، ولكن يظهر أن الشر لا يمكن الاجماع عليه دائما ، بل لابد من قائم لله تعالى بحجة ، واذا لم يستمع له قول ابتداء فان قوله سيكون له صدى فى النتيجة بعد أن تتبدى الأمور وتنجلى .

وكذلك كانت حال أصحاب الجنة ، فقد كان فيهم رشيد ينبههم الى خطأ

ما أزمعوا أن يفعلوه ، وقد حكاه الله سبحانه وتعالى بقوله . « قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » .

الأوسط هو الأمثل ، والوسط فى أوصاف الخير هو الأمثل دائما ، ومن ذلك قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا (١) وهذا الأمثل عندما رأى حالهم وتدبيرهم وطمعهم ، وما يسرون به وما يجهرون ، وما يتخافتون وما يعلنون لاحظ أنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكان لابد لكى يدركوا صالح أمورهم أن يؤمنوا بالله وأن يذكروه فى أعمالهم ظاهرة وباطنة ، فهم لا ينقصهم الجد فى العمل، ولكن ينقصهم الايمان ، فقال لهم « لولا تسبحون » أى هل تسبحون وتنزهون الله تعالى ، وتقدسونه ، وتعلمون أنه القاهر فوق كل شىء ، وأنه العليم الحكيم ، وهنا كان فيما حكاه الله تعالى بالتعبير « ألم أقل لكم لولا تسبحون » الاستفهام الداخل على النفى فى معنى الاثبات ، لأن نفى النفى اثبات، وهو يدل على التوبيخ، وتذكيرهم بأنهم لم يفعلوا ما فعلوا فاقدين للمنبه المرشد ، فقد أرشدهم الى الطريقة المثلى والمنهاج الأسلم ، وهو الايمان بالله تعالى وتقديسه وتنزيهه ، والاحساس بأنه الغالب على كل شىء القاهر فوق عباده .

٦٢ ــ ان المفاجأة مع التذكير ، ووجود الضمير والنفس اللوامة من شأنها أن تحيى موات القلوب ، وخصوصا أنه وجد من بينهم من ربط بين الحرمان الذى فوجئوا به والضلال الذى كان من نسيان ربهم ، وحرصهم وطمعهم ، وتفاهمهم على حرمان الضعيف مما أخرج الله تعالى من الأرض كان ذلك كله سبيل الهداية التى تجىء ، ومن القارعة التى تقرع الحس والنفس فتنبهوا فعلموا ما ينقصهم ، وأنهم لهجوا فى الدنيا ، ولم يذكروا الله تعالى خالق السموات ، فقالوا فيما حكى الله تعالى عنهم « قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين » .

بعد أن تنبهوا من غفلتهم ، واستأنسوا بالحق من تذكير أمثلهم طريقة استجابت نفوسهم لداعيه ، وعلموا أمرين : علموا أنهم كانوا غافلين عن ربهم ، وعلموا أنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الناس فيما تخافتوا به ، قالوا فى اعلان

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

ايمانهم بالله ، « سبحان ربنا » نقدس وننزه ونسلم أمورنا ، لربنا الذى خلقنا وربانا وهو الحى القيوم القائم على كل شىء • فرجعوا بذلك الى الله تعالى خالق كل شىء ، ولكن لا يكون الرجوع كاملا ، الا اذا تابوا توبة نصوحا ، وأحسنوا التوبة ، وأول طريق للتوبة الاقرار بالذنب اقرار من يحس بذل المعصية ، وذل الذنب قربه كما يقول ابن عطاء الله السكندرى « ان معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا » ولهذا الاحساس بالذنب ، قالوا مؤكدين القول « انا كنا ظالمين » لقد ظلموا أنفسهم بطمعهم وحرصهم ، ونسيان ربهم وظلموا الناس بمنع الفقراء من حقهم ، وأن الاحساس بألم المعصية من شأنه أن يجعل كل واحد يلقى تبعة التقصير أو التنبه على غيرهم ، فهم كانوا مجتمعين على طمعهم وحرصهم وتعجلهم ، ولكنهم بعد أن أحسوا بجرمهم أخذ كل واحد يتبرأ من أنه الذى ابتدأ بالدعوة بالمعصية ، وأن الآخر هو الذى دعا فأجاب ، ولذا قال الله تعالى حكاية عنهم بعد أن دخل الايمان قلوبهم وأشربوا حبه « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » كل واحد منهم يلقى على الآخر لوما ، لا كل اللوم ، فانهم جميعا ملومون لأنهم جميعا نووا وهموا أن ينفذوا ما نووا ، والتلاوم هنا ليس هو الاختلاف الذميم ، ولكنه هو الاحساس الكريم ، اذ أنهم أحسوا بأن عبء المعصية كاملا ينوء بكل واحد منهم، فيريد أن يلقى جزاء منه على صاحب له وان اتفاقهم لا يجىء من غير داع منهم، فاذا كان أوسطهم دعاهم الى الخير ، ولم يستجيبوا ، فقد وجد منهم من دعا الى الشر واستجابوا له ، وكان شرهم متعدد الأطراف ، فكان من كل منهم من دعا الى ناحية دون الأخرى ، وهنا نجد أن التعبير بالتلاوم لا يدل على الفرقة والانقسام، بل انه فى هذا لا ينافى الالتئام •

وانهم ينتهون من هذا التلاوم الذى ابتدأ بالألم من عبء المعصية ينتهون بعد التلاوم لفرط احساسهم بالندم الى أن يقولوا « قالوا ياويلنا انا كنا طاغين» كان الاقرار بالذنب فى هذه المرة أقوى من الاقرار أولا ، لأنهم أحسوا بالهلاك الشديد ينزل بهم ، قالوا منادين الويل : « ياويلنا » أى أيها الويل النازل باستحقاق أقبل فان ذلك وقتك ونحن موضعه ولا نتزايل عنه ولا نخرج ، وعللوا الويل الذى

يستحقونه بأنهم كانوا طاغين » والطغيان دائما يؤدى الى الظلم ، فاذا كانوا فى الآية السابقة قد اعترفوا بالظلم ففى هذا النص السامى اعترفوا بسببه ، وهو الطغيان ، والطغيان يجعل صاحبه يحسب أن قدرته ليس فوقها قدرة ، والاحساس بالطغيان يبتدىء من وقت أن يحس الشخص بأنه استغنى عن معونة غيره ، كما قال الله تعالى : « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى (١) » وقد ظنوا أنهم لا يحتاجون الى معونة أحد ، وأن الله لا يمنعهم خيرا أوتوه ، وأن الأرض أرضهم والعمل عملهم ، والكسب كسبهم وحسبوا أن الثمرات آتية لا محالة .

بعد ذلك اتجهوا خاضعين الى ربهم معتقدين أن الخير بيده ، وأن لا سلطان الا سلطانه فاتجهوا بالرجاء بعد أن رأوا المنع جهارا نهارا وقالوا راجين « عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، انا الى ربنا راغبون » هنا كان التفويض كاملا ، وان ذلك النص الكريم يفيد فى تفويضهم ثلاثة أمور فى أجمل تعبير من الله تعالى عن ضمائرهم الخائفة ، بعد أن خلعوا رداء الطغيان .

أولها — الرجاء ، والرجاء يتضمن معنى التفويض من ناحية أنهم لا يرجون الا من الله ، ومن ناحية أن كل ما يكون من الله تعالى — خير ، فاذا كان نزل بهم ما يكرهون ، فعسى أن يكون الخير فى هذا الحرمان ، كما قال تعالى « فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (٢) » ومن الخير أن هذبت نفوسهم ، واذا كان حالهم من قبل حال طغيان وغرور ، فعسى أن يعطيهم الله تعالى بديلا لما منعوه ، ويكون مع الاطمئنان .

ثانيها — الاتجاه الى الله تعالى مالك أمورهم ، ومربيهم ، والكالىء لهم والحامى ، والشعور بالمساواة مع المساكين فى ربوبية الله الخالق لكل شىء .

ثالثها — قولهم : « انا الى ربنا راغبون » ولا أحسب أنه يمكن أن نضع كلمة مكان راغبون ، مع الى ، وتجد فى هذا التعبير اشارات بيانية رائعة » أولاها فى تكرار كلمة ربنا للشعور بنعمه سبحانه الظاهرة والباطنة ، والثانية فى تقديم الجار

---

(١) العلق : ٦ ، ٧ .   (٢) النساء : ١٩ .

والمجرور على خبر ان ، فان ذلك التقديم للقصر ، وهو يفيد أنهم لا يرغبون فى مال ولا نشب ، ولا يحسبون شيئا يمكن أن يكون بغير ارادة ربنا ، اذ كانوا قد حسبوا أنهم بجهودهم يصلون ويمنعون الماعون ، ويقسمون ألا يدخلنها مسكين ، ولكنهم الآن لا يتجهون الا الى الله تعالى العلى القدير ، والتعبير براغبون يفيد أنهم يسيرون فى طريق الله تعالى وحده برغبة ومحبة ، فهم يطلبون طريق الله تعالى لا خوفا من عقابه ، ولا رجاء لثوابه فقط ، ولكن محبة لذاته العلية ، فانتقلوا من دركة العصيان الى مرتبة المحبة وطلب الرضوان .

٦٣ ـ ونرى فى هذه الآيات الكريمة المصورة لتلك القصة التى تشتمل على العبرة الواضحة فيها تتلاقى المعانى وكل معنى ردف لما سبقه ، ومقدم لما يليه فى تآخ بين جزئياته ، وتعانق مع كلياته ، كل جزء من الكلام يوعز لما يليه ، وفيها الألفاظ مؤتلفة فى نغم يهز النفس وتآلف بين الألفاظ مفردة ، وجملا ، وفيها تصوير للنفس الانسانية كيف يدخل اليها الطمع ، ومع الطمع الشح ، واذا سكن الشح قلبا دخل منه الظلم وهضم الحقوق ، وانه لكى ينجو المؤمن من أن يكون ظالما عليه أن يراقب مداخل الشح الى نفسه ، فان سد طرقها اليها ، فقد فاز ، وكان عادلا ، كما قال تعالى فى سورة أخرى: «ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون»(١). فان وراء الشح الهلاك ، ووراء السماحة الفوز .

وان الآيات تصور لنا حال من يغتر ، ومن يطغيه الاستغناء ، ومن يحرم نعمة الاعتماد على الله تعالى والتفويض اليه ، ثم حاله عندما يفاجأ ، فيجد قدر الله تعالى أمامه يرد عليه طغيانه ، ثم تصور النفس التائبة ، وذلك كلام العزيز الحميد .

النفس الفرعونية

٦٤ ـ واذا كانت هذه الآيات تلوناها تصور النفس التى تطغى أن رأتها استغنت ، وحسبت أنه لا قدر فوق ما تقدر ، وكيف تفاجأ بقدر الله فتتنبه ، فقد صور الله تعالى فى كتابه العظيم ، النفس التى تطغى ، فتتغطرس فتتحكم فى

---

(١) الحشر : ٩ .

الرقاب ، وتفرق بين العباد ، فهذه يأخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتــدر ، ولا مكان لتوبتها ، اذ تفاجأ ، لأنه لا يكفر ذنوب العباد الا ردها ، ولا سبيل لرد ما فعلوه ثم كان فسادهم ، وتضييعهم الناس ، ولذلك يؤخذون بذنوبهم • واقرأ قوله تعالى: « ان فرعون علا فى الارض ، وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين ، ونريــد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (١) •

ولا شك أن نسج الآيات متماسك ، بخيوط دقيقة غير قابلة لأن تنقطع وهى واضحة فى تصوير الحاكم الفاسد كيف يعلو فى الأرض ، وكيف يتحكم ، وقد قال فى صيغة العبارة الباقلانى بالنسبة للآية الأولى :

« هذه تشتمل على ست كلمات ، سناؤها وضياؤها على ما ترى ، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، ورونقها على ما تعاين ، وفصاحتها على ماتعرف •

وهى تشتمل على جملة وتفصيل ، وجامعة وتفسير ، ذكــر العلو فى الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان ، وسبى النساء واذا تحكم فى هذين الأمرين ، فما ظنك بما دونهما ، لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم ، والقلوب لاتقر على هذا الجور ، ثم ذكر الفاصلة التى أوغلت فى التأكيد ، وكفت فى التنظيم ، وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره •

ثم ذكر وعده بالتخليص بقوله ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » وهذا من التأليف بين المؤتلف ، والجمع بين المستأنس (٢) •

هذا ماذكره الباقلانى من ناحية التآخى فى الألفاظ والالتحام فى نسجها ، وانك لتجد ذلك التآخى فى سوق العلو الذى تعالى به وهو فى الأرض ، فقال تعالى « علا فى الأرض » ، فهو علو من فى الأرض ولاصق بها فليس يعلو الى السماء ، ولكنه مستمر فى الأرض ، فهو استعلاء • وليس بعلو ، والاستعلاء طلب للعلو ،

(١) القصص : ٤ ، ٥ •

(٢) اعجاز القرآن ص ٢٦٥ •

أو الاحساس به ، وليس قائما على أى اعتبار ، فكان ذلك التقابل فى اللفظ من حيث الانسجام ، ومن حيث المعنى فيه دليلا على أنه استكبار وليس علوا فى ذاته .

ولكن كيف يستقيم له هذا العلو ، وهو لاصق فى الأرض متنقل فيها ، انما هو الغلو فى الكبر ، وحمل الناس على الاقرار أو السكوت ، أو ظهور الرضا وما هم براضين ، لأن أساس الرضا التخير ولا اختيار ، فان لم يكن فلا رضا .

وانتقل من ذلك النص المصور للاستعلاء الكاذب الظالم الى ماسلكه لحمل الناس على السكوت عنه ، أو الخضوع له كارهين وان مردت نفوسهم على الخضوع حتى صاروا كالطائعين ، وذلة الاحساس بالتحكم تارة فى نفوسهم حتى أخضعتها، فجعلتها خانعة . وأظهرتها راضية ، ولا رضا عندها لأنه لا اختيار لها فيما تختار .

ذكر سبحانه ما سلكه فرعون كما يسلكه أى طاغية من طواغيت هذه الدنيا الذين يظهرون فى كل زمن ، وفى أرض كأرض مصر ، وناس كناسها ، كما أشار الى أنه عمل على تفريق جمعهم ، وتشتيت أفكارهم ، وصاروا متفرقين فى ذات نفوسهم ولا تجمعهم جامعة حق ، ولا ثورة على ظلم ، بل كان يقول لهم فى استكبار « أنا ربكم الأعلى » ، ويقول فى استنكار « ما علمت لكم من اله غيرى » (١) .

وقد قال تعالى فيما سلكه « وجعل أهلها شيعا » وهنا نجد كلمات ثلاثا ، كل واحدة منها تنبىء عن قصد الفرقة والانقسام بعد الوحدة والالتئام ، فكلمة جعل هى بمعنى صير . وهى تدل على أنهم كانوا متحدين فى المشاعر والأحاسيس متفقين فى المنازع ، والمطامح والآمال فجعلهم متفرقين منتشرين فى غير اجتماع ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، والكلمة الثانية أهلها فهم كانوا قبلها أهلا ـ أى أنهم كانوا مجتمعين غير منقسمين ، فلكى يعلو عليهم أجمعين فرق جمعهم وشتت شملهم ، فكيف يعلو انسان مهما يكن طاغوته ومهما تكن قسوته وغلظته وحيلته على قوم متحدين مجتمعين ، ولكنه يخذل بينهم ، ثم يملك عليهم .

والكلمة الثالثة كلمة شيعة ، فان الشياع يتضمن معنى الانتشار ، وأن يقوى

---

(١) القصص : ٣٨ .

جزء على الآخر يحسب كل جزء منهم أنه أقوى من الآخر ، وأنه لا تربطه به رابطة ، ولا يجمعهم به قومية أو رحم ، أو تشابك المصالح ، ودفع المضار ، فاذا كانوا كذلك استعلى واستكبر ، ولا يجد من يرده عن غيه ، ويقمعه فى شره ، فيكون الهلاك ، وتقطع الأسباب •

وان النتيجة التى تكون أثرا لذلك ، أن يجعل من طائفة منهم بطانة له ، وجندا يستنصر بهم ويتخذهم أسواطا يضرب بها غيرهم ، ويتحكم فى جمعهم ، ولذلك قال تعالى فى ذكر هذه النتيجة الحتمية التى تتبع التفرق تبعية المسبب لسببه ، والنتيجة للمقدمة : « يستضعف طائفة منهم » أى يصور طائفة منهم ضعفاء ، أو يطلب ضعف طائفة منهم ، ويتتبعه ، وهنا اشارة بيانية رائعة لا تكون الا فى القرآن الكريم ، وهذه الاشارة هو أنه ذكر الطائفة المستضعفة ، ولم يذكر الطائفة التى جعل فيها قوته يضرب بها رقاب الناس ، والسبب فى أنه تعالى لم يذكرها موصوفة بالقوة ، لأنها وان لبست لبوس القوة ليست فى حقيقة أمرها قوية فى شىء ، لأنها ليس لها اختيار فيما اختارت ، ولأنها لا تملك من أمرها شيئا بل مسخرة لطغواه ، مرادة له ، وليست بمريدة فيما تفعل ، والقوى هو الذى يفعل ما يريد هو ، لا مايريده غيره،ويعمل ليرضى شهوة نفسه لا مايرضى غيره وليس هو من تكون ارادته فانية فى ارادة غيره قد لبس جلد النمر ، وما هو اهابه ، واذا كانت الطائفة المستضعفة ايذاؤها بدنى مادى • فهؤلاء الذين ظهروا بمظهر القوة ايذاؤهم معنوى ، وهو فناء انسانيتهم وارادتهم وتفكيرهم ، وكل مكونات الانسان الكامل ، فهم ضعفاء ، وان ظهروا كأنهم الأقوياء ، فجنود السلطان الغاشم لا يعتبرون الأقوياء ، لأنهم أداة طائعة ، وامعات طامعة •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ذكر الضعفاء تمهيدا لبيان مظاهر الطغيان الذى يفعله الملوك مع من يتحكمون فيهم بحكم الهون والفساد ، لا بحكم المصلحة والرشاد ، وأنهم يرتكبون أقصى ما تتصوره العقول من تذبيح وتقتيل ، ولذا قال تعالى « يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم » وان ذلك شأن الطغيان دائما ، يقتل نخوة الأمة بقتل شبابها ، أو زجهم فى غيابات السجون من غير أمد ، ومن غير حكم ،

كما رأينا فى حكم الدكتاتورية فى ألمانيا ، وفى ايطاليا ، وهكذا ، وقد رأينا مثل ذلك فى العراق .

وقد ختم الله تعالت كلماته بالنص السامى بالباعث على الطغيان والتحكم والاستعلاء ، وتفريق الأمة ، فقال : « انه كان من المفسدين » أى أن الفساد مستحكم متغلغل فى أطواء نفسه ، وقد بعثه على جعل الأمة متفرقة ، وتحكيم طائفة فى طائفة ، فأغرى بينهم بالعداوة والبغضاء ، يحس كل فريق منهم بأنه مظلوم ، وظالمه هو الفريق الآخر ، يتظالمون فيما بينهم ، ويتعادون ، ليتمكن الظالم من ظلمهم والتحكم فى رقابهم ، وأن يقول لهم « أنا ربكم الأعلى » ولا ينكر أحد ، ولو فى قلبه ، لأن كل فريق يتهم الآخر بأنه عين عليه ، ويريد النكاية به .

وقد أكد سبحانه وصف الافساد فيهم بان وبكأن الدالة على أن الفساد كان فى الماضى ، ومستمر فى الحاضر ، وببيان أنه داخل فى ضمن المفسدين فى الأرض اخوان ابليس ، وينطبق عليه قوله تعالى فى شأن الظالمين الذين يمنون الناس الأمانى ويكذبون ويخلفون ، « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام ، واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالأثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد (١) » .

وان هذا الوصف الذى ساقه الله تعالى للوالى الفاسد ، هو وصف فرعون ، ومن استعلى واستكبر ، ووصف لكل طاغية من طغاة الدنيا يمنى الناس بالامانى ، حتى أنه ليصور لهم أنه سيجعل لهم الأرض نعيما ، وخيراتها لبنا وعسلا ، حتى اذا حكم تحكم ، وكان شهوته نظاما ، وهواه حكما ولا بد أن يرضى الناس حكومته طوعا أو كرها ، ومن قال له اتق الله قطع عنقه ، أو سلط عليه كلابه الذين جعلوا أنفسهم ملكا له ، يملك رقابهم ، ويظنون أنفسهم الاحرار ، وهم العبيد حقا .

(١) البقرة : ٢٠٤ — ٢٠٦

٦٥ ـ هذا ما تصوره الآيات فى وصف فرعون وأمثاله من الطواغيت الذين يظهرون فى العصور المختلفة ، واذا لم يتسموا باسم فرعون ، ففيهم صفاته وفعاله وفى أتباعه أوصاف أتباعه ، والمستضعفون ماكولون فى عهدوهم ، كما هم ماكولون فى عهده .

وبعد تصوير الله تعالى طغيان فرعون ، كان من نسق البيان الرائع أن يذكر نهايته ، وأنه اذا وصل الطغيان الى أقصى حده ، كانت النهاية ، ولذا ذكر سبحانه وتعالى فى مقابل ارادته الافساد ، وكونه متغلغلا فى كيانه ذكر فى مقابله ارادة الله تعالى ، وارادته سبحانه فـوق كل ارادة ، ولو كانت طغيان فرعون ، ولذا قـال سبحانه فى بيان ارادته ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (١) » .

ارادة طاغية مغرورة مستكبرة ، وهى ارادة الطغيان ، وارادة كريمة معطية مانحة مانعة من الشر والعيث ، وهى ارادة الله سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه يمن على المستضعفين ، ونجد هنا تعميما فى المن ، فلم يذكر سبحانه وتعالى ما يمن به ، بل كان التعميم ، فهو سبحانه يمن عليهم بالحرية بعد الاستعباد ، ويمن عليهم بالقوة بعد الضعف ، ويمن عليهم بالعزة بعد الذلة ويمن عليهم بالثمرات بعد الجدب ، وهكذا تتعدد النعم التى يمن بها سبحانه « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها »(٢) وكل هذه المعانى هى بعض ما تدل عليه كلمة نمن ، وخص سبحانه من بين هذه النعم التى يمن بها نعمة كبيرة هى للخلاص من حكم فرعون الى أن يكونوا أئمة ، أى ولاة لأنفسهم لا يملك أحد التحكم فيهم ولا السيطرة ، فكل حر أمير فى نفسه ، ويجعل منهم أمراءهم وأولياء أمورهم ، لا يفرض عليهم أمير لا يرضونه ولا ولى من غيرهم ، وآراؤهم فى حكمهم هى الغالبة فلا يحكمهم متحكم ، ولا يسير أمورهم متغلب ، فانظر كيف جمعت الكلمة كل هذه المعانى ، وجاءت من بعد ذلك كلمة تدل على كمال

---

(١) القصص : ٥ — ٦.
(٢) ابراهيم : ٣٤

ارادته سبحانه فى هذا الوجود فقال « ونجعلهم الوارثين » ونجد أنه سبحانه لم يبين الموروث ، وفيه اشارة الى عموم ما آل اليهم ، اذ أنهم سيخلفونه فى جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ولكن يكون لهم هذا اذا استقاموا على طريقة الحق ، ولم يخرجوا عن جادته ومنهاجه ، وغير ذلك .

بعد هذا يبين سبحانه وتعالى أن طغيان فرعون انتهى بالفناء وأن يذوق عاقبة أمره ، كما اغتر أصحاب الحديقة بحديقتهم المذكورة ، فقال تعالت كلماته . « ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

التمكين كان باعطاء سلطان لهم فى الأرض ، اذا استطاعوا القيام بحق التمكين ، فانه يحتاج الى قوى نفسية عالية وادراك لمعنى العزة والكرامة ، ولم يمردوا على الذلة والمهانة .

ثم يبين سبحانه عاقبة الظلم ، وأنه لم يدفع المحذور ، فقال تعالى : «ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

لقد كان فرعون وحده وزيره ، وجنود معهما تابعين غير مستقلين فى فكرة أو ارادة منهم ما كانوا ما يحذرون ، وهو أن يدبر الناس ما ينتقضون به على حكمهما ، أو يقتلوا فرعون ، فقد أراهم رب العالمين ، فكان موت فرعون على ماقدره الله تعالى لموسى عليه السلام ومن معه وهكذا كل طاغية ، يطغى ويستبد ، ويرتكب الفجور فى كل ناحية ، حذر أن تخدج خارجة ، وبعد أن يكون منه وما يكون من مثل مافعل فرعون ، ثم تكون من بعد كلمة الله تعالى هى العليا ، ويقع المحذور فى وقت لا يملك الرجوع ، كما قال فرعون ، قد أدركه الغرق . قال « آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ، آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » (١)

---

(١) يونس : ٩٠ — ٩٢

٦٦ ـ وبعد ذلك البيان الذى حاولنا به الوصول الى بعض أسرار المعانى القرآنية التى تعلو ولا يعلى عليها ، واليانعة الثمار الدانية القطوف فى أعلاها ، والثروة الخصبة المملوءة حياة فى أدناها . كما قال البليغ العربى القرشى نريد أن نشير اشارة الى ما وصل اليه تفكيرنا فى اجمال ماسبق ، فنجد :

أولا ـ اتساق العبارة فى المقابلة بين العلو المصطنع والالتصاق بالأرض ، الذى يفيد مع هذه المقابلة اللفظية أنه سيطر على الأرض واستمكن فيها وتحكم حتى ساغ له أن يقول : « أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى»(١).

ثانيا ـ أن التعبير باستضعاف طائفة منهم فيه اشارة الى أن الضعف ليس طبيعيا فطريا ، ولكنه يكون بالاستضعاف وأن كل من يراد على الضعف لا يستسلم فيستضعف ، بل يقاوم ويناضل ، فيموت عزيزاً ، أو يمنحه الله تعالى القوة ، وأن الرضا بالذل يؤدى الى الموت ، وطلب العزة يؤدى الى الحياة ، وكما قال خليفة رسول الله أبو بكر رضى الله تعالى عنه « اطلب الموت توهب لك الحياة » .

وثالثا ـ أن الاستضعاف يؤدى الى الموت لا محالة ، ويكون الموت على نحو لا كرامة فيه ، وصوره سبحانه وتعالى بقوله تعالى :

« يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » فهو موت ذليل فيه خسة الذل ، وتمثل النخوة ، أما الموت فى سبيل الكرامة فهو موت عزيز كريم ، ورحم الله الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده اذ يقول : « ان موتا فى سبيل الحق هو عين البقاء ، وحياة فى ذل هى عين الفناء » .

رابعا ـ أن القوة تكون للقوى بتمكين الله تعالى وبمشيئته ، ذلك بأن يهيىء الأسباب ليستبدلوا بضعفهم قوة فيمنحهم الأمن،وذلك بأن يجعلهم يشعرون بأنهم سادة ، وليسوا عبيداً ، وهذا يتضمنه التعبير بقوله تعالى «ونجعلهم أئمة» ، أى يجعلهم مسيطرين على أنفسهم ، كما نوهنا فيما ذكرنا من قوله تعالى كما من الله تعالى على بنى اسرائيل اذ جعلهم مالكين لأنفسهم مسيطرين على أمورهم اذ قال

---

(١) الزخرف : ٥١

تعالى : « واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين (١) » ومعنى جعلهم ملوكا أنه سبحانه وتعالى جعلهم أحراراً يماكون شئون أنفسهم . ويتولون أمورهم لا مسيطر يسيطر عليهم .

هذه نظرات الى النص القرآنى الكريم فى بعض شأن فرعون وماله ، ومن يجرى فى حكم شعبه على طريقته ، ويتحكم فى الرقاب تحكمه ، ونجد فيه جمال اللفظ ، وجمال القصص ، والألفاظ التى تشع منها المعانى كأنها الضياء المتلألىء والماء العذب النمير الذى ينساب فى النفس المؤمنة ، والله سبحانه هو العلى الحكيم ، وكلامه هو النور المبين الهادى الى رب العالمين .

قوة البلاغة فى الأسلوب من كلمات متآلفة

٦٧ — يقول الخطابى فى رسالته فى اعجاز القرآن فى بيان البلاغة القرآنية : « اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو بوضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى اذا أبدل مكانه غيره ، جاء منه اما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، واما ذهاب الرونق الذى يكون منه سقوط البلاغة ، ذاك أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى افادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك اقعد واجلس وبلى ونعم ، والأمر فى ترتيبها بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة خاصة تتميز بها عن صاحبتها .

وهكذا يسترسل فى بيان التفرقة بين الألفاظ ، ويضرب الأمثلة فى القرآن ، وفى اللغة فى التفرقة بين الألفاظ التى يزعم أنها تدل على معنى واحد يؤديه كل واحد منها من غير افتراق فى المؤدى مع أن المؤدى مختلف متباين .

وانه يذكر أن ألفاظ القرآن مختارة تدل على أدق معانيها ، فمثلا ذكر عن اخوة يوسف عليه السلام أنهم قالوا أكله الذئب ، ولم يقولوا افترسه ، لأنهم لو قالوا افترسه لطالبهم ببعض أثره ، والأكل افناء الجسم فى جسم .

---

(١) المائدة : ٢٠

وان الخطابى ليقول فى بحثه القيم : « اعلم أن القرآن انما صار معجزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعانى من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء الى طاعته » وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر واباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وارشاد الى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، واضعاً كل شىء منها فى موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه » •

واذا كانت ألفاظ القرآن ومعانيه لها ذلك المكان الأسمى الذى لا يمكن أن يباهد الى سمائه انسان أو جن ، شرقى أو غربى ، فان فى القرآن مع جمال الألفاظ ورونق الأسلوب ، خاصة لا يصل اليها أحد فى الألفاظ والأسلوب والمعانى •

وقد قسم الخطابى الكلام البليغ الى أجناس ثلاثة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق السهل ، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ، دون النوع الهجين المذموم الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه البتة » •

وان هذا الكلام لا يمكن أن يمر من غير أن نبدى عليه ملاحظة لاحظناها ، انه يفرض أن الكلام البليغ يتفاوت بتفاوته فى الجزالة والسلاسة والسهولة ، وهذا يوهم أن القرآن الكريم تتفاوت بلاغته ، وهذا الزعم باطل ، فالقرآن كله رتبة واحدة فى البلاغة فى المنزلة التى لا يمكن أن يسمو اليها بليغ ، لأن البلاغة أن يكون الكلام موافقاً لمقتضى الحال ، فالعبارات الجزلة القوية تكون فى موضع الانذار ، والعبارات السهلة غير المسترسلة تكون فى التبشير ، والعبارات المسترسلة فى مواضع التنبيه الى وجوب التفكير والتدبير ، وكل بليغ فى موضعه ، ولا يختار سواه ، فلا تكون عبارات الانذار كعبارات التبشير ، ولا تكون عبارات الدعوة الى التأمل كعبارات التهديد والتخويف ، هذه ملاحظة أبديناها ، على عبارة الخطابي ، وكان حقاً علينا أن نبديها فلا نجعلها تمر بغير تعليق •

وان الخطابى قد بين أن القرآن الكريم قد اشـــتمل على الأجناس الثلاثة فى عبارات قيمة حازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصـــة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة ، والعذوبة ، وهما على الانفراد كالمتضادين ؛ لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن،يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ، ليكون آية بينة ودلالة على صحة ما دعا اليه من أمور دينه ، وانما تعذر على البشر • الاتيان بمثله لأسباب ؛ منها أن علمهم بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التى هى ظروف المعانى والحوامل لها غير كامل ، ولا تدرك أفهامهم جميع وجوه النظم التى بها يكون ائتلافهـــا ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلون باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها الى أن يأتوا بكلام مثله ، •• وانما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة لفظ حامل ، ومعنى قائم ، ورباط لهما ناظم •

وانا نوافق الخطابى فى أن عدم قدرة البلغاء من الناس على الاتيان بمثل القرآن من أسبابه نقص علمهم باللغة ، جزلها وسهلها ، وعدم علمهم بالمعانى وأنى يكون علمهم بجوار علم الله تعالى الذى أحاط بكل شىء علما •

ونقول من ناحية ثانية : ان البلغـــاء من الناس يختلفون جزالة وســـهولة واسترسالا ، تبعا لطبائعهم وبيئاتهم وما يتجهون اليه ، فالفرزدق كان يميل الى اختيار الألفاظ القوية ، أو الحوشية ، ويتقحم بذلك الوعر من القول وقالوا انه كان يحاول أن ينهج نهج البدويين من الجاهليين ، وجرير يتخير السهل العذب من الألفاظ ، وكذلك كان الأمر فى شعراء الجاهلية فامرؤ القيس كان يتخير الوعر الجزل من الألفاظ ، وهو يقيم فى الصـــحراء العربية ، ولانت ألفاظه لما كرثته الكوارث ، ورحل الى أنقرة ، وهـــكذا •• فكان من البلغاء من البشر من غلبت عليهم عذوبة الألفاظ ، ومنهم من غلبت عليه جزالتها وقوتها ، بل وعورتهـــا ، ويختلف الرجل الواحد باختلاف حاله ، وتغير البيئات عليه •

هذا فى بلاغة البشر ، أما القرآن فبلاغته من عند الله خالق كل شىء القادر على كل شىء ، والخالق للناس وبيئاتهم ، فكان فى كلامه المبين ، كل أجناس القول ومناهج البيان بلا تفاوت فى البلاغة القرآنية ، وان اختلفت ألوان الألفاظ وأجناسها بين جزل قوى • وعذب سهل ، وكلام مرسل ينساب فى النفس انسياب النمير ، وكل فى موضعه •

التلاؤم :

٦٨ — يقصد بالتلاؤم فى الأسلوب أن تأتلف مخارج الحروف والكلمات كما ذكرنا ، والانسجام فى النغم بينها ، ويعد القاضى عبد الجبار أن تآخى النغم فى الألفاظ والحروف من حلاوة الكلام ومحسناته ، ولكنا نقول انها بالنسبة للقرآن الكريم من تأثيره فى النفوس ، فهو فى القرآن طريق الوصول الى القلوب ، وان نظمه على ماسنبين يسير هو وأسلوبه بألفاظه ومعانيه الى القلوب ليأخذها من طبعها الأرضى ليعلو بها الى الأفق السماوى •

ويذكر أبو عيسى الرمانى فائدة التلاؤم فيقول : « والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ ، وتقبل النفس لمعناه ، لما يرد عليها من حسن الصورة ، وطريق الدلالة ، ومثل ذلك مثل قراء الكتاب فى أحسن ما يكون الخط والحرف وقراءته فى أقبح ما يكون من الحرف والخط ، فذلك متفاوت فى الصورة• وان كانت المعانى واحدة » •

وان الكلام يذاق كما يذاق الطعام ، فكلما كان التنسيق والتلاؤم حسن فى الذوق •

وان لغتنا العربية لغة نطق ابتداء ، وصارت من بعد لغة كتابة ، ولم تنفصل عنها خاصتها ، فهى نطق وكتابة ، ولذلك كان لمخارج الحروف أثر فى فصاحة الكلام • ولا شك أن مخارج الحروف مختلفة منها ما يكون فى أقصى الحلق ومنها

ما هو من أدنى الفم . ومنها ما هو فى الوسط بينهما ، فالتلاؤم فيها بأن تكون الكلمة حروفها متقاربة المخارج ، والكلمات متقاربة المخارج ليسهل النطق على اللسان ، وتتقبله الأسماع .

فاذا أضيف الى ذلك التآخى فى المعانى كان التلاؤم الكامل، والأسلوب الرائع، ذلك ما جاء فى القرآن .

٣ – تصريف البيان

٦٩ – اختلفت مناهج البلغاء كتاباً وشعراء ، كل يجيد منهاجا معينا ويمتاز فيه ، ويكون من الأوساط فى غيره أثر دون الأوساط ، فمنهم من يجيد الوصف، ويحكى الأشياء لقارئه كأنه يراها ، ومنهم من يجيد القول الوعر العنيف ، ولا يكون منه السهل الميسر ، ومنهم من يجيد شعر الغزل ، ولا يجيد غيره ، ومنهم من يجيد القول الساخر ، ولا يجيد القول الجاد كما نرى فى بعض كتاب العصر ، ومنهم من يجيد الكتابة فى السياسة ، فاذا كتب فى غيرها هان وابتذل ، ومنهم من يجيد الكتابة فى التحليل ، واثارة التأمل ، وهكذا ، وقل من يجيد الدخول الى الكلام البليغ فى أكثر من باب أو بابين ويكونان متآخيين ، غير متناقضين .

أما القرآن المعجز الذى هو فوق قدرة البشر ، فان البلاغة فيه فى كل أبواب القول ، وهى فى كل باب تعلو علواً كبيراً عن المجيدين فى هذا الباب وحده ، ولذلك كان تصريف القول فيه من تهديد وانذار وتبشير ، واثارة للتأمل ، ودعوة للتفكير فى آيات الله تعالى الكونية والقرآنية ، والتفكير فى النفس وفى الحس ، كل ذلك من دلائل الاعجاز وسره .

ولقد قال سبحانه فى ذلك : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا ، وما يزيدهم الا نفوراً (١) » أى أن التصرف لزيادة التنبيه ، وكلما زاد تنبيههم بالحق وارشادهم ازدادوا نفوراً ، فزادوا كفراً ، وقال تعالى « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس الا كفوراً (٢) أى أن الله تعالى صرف فى القرآن بضرب الأمثال وبيان الأحوال ، رجاء أن يؤمنوا ، ولكن سبق الكفر اليهم جعلهم يأبون الايمان بالله والخضوع له ، فزادوا نفوراً عن الحقائق كما ينفر المريض السقيم عن الدواء الناجع ، والغذاء الصالح وقال تعالى « ولقد صرفنا فى هـذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شىء جدلا (٣) » ذكر الله تعالى أنه يصرف القرآن بذكر الأمثال والأحوال ، ولكن الذين سبق الضلال اليهم يجادلون والجدل

---

(١) الاسراء : ٤١ (٢) الاسراء : ٨٩

(٣) الكهف : ٥٤

فى الحق الواضح المبين ، يطمس الحقائق ، ويطفىء النور ، ويختفى نور الحق وسط الأقوال المتضاربة والأهواء المتنازعة ٠

وقال تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً (١) » ٠

وقال تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون » (٢) ٠

وقال تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » (٣) ٠

وقال تعالى : « وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون » (٤) أى نصرف الآيات ليفقهوه ويدركوا الحق ان كانوا غير ضالين ، ولم يطمس على قلوبهم وليقولوا درست وتعلمت ويكذبوا ان طمس على قلوبهم ولم يؤمنوا بالحق ، كما قالوا يعلمه غيره ، ورد تعالى عليه بقوله : « لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ٠ وهذا لسان عربى مبين » (٥) وقال تعالى : « كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » (٦) ٠

٧٠ — وبهذه النصوص الكريمة تبين أن القرآن كان يصرف الآيات بمعنى أنه يتضمن الأمر بالتوحيد والتكليفات الشرعية التى بها صلاح المجتمع وتكوين مدنية فاضلة تحترم فيها حقوق الانسان احتراماً كاملا ، بأوجه مختلفة من البيان ، من تهديد وانذار الى تبشير ، وتوبيخ واستنكار ودعوة الى التأمل فى خلق الله تعالى ، وفى الأنفس ، ومن قصص يدركها أولو الألباب لسياق العبر والمثلات ، وهكذا تتنوع أساليب القول ومناهج التأثير ، لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ٠

---

(١) طه : ١١٣ — (٢) الانعام : ٤٦

(٣) الانعام : ٦٥ — (٤) الانعام : ١٠٥

(٥) النحل : ١٠٣ — (٦) الاعراف : ٥٨

وان التصريف فى القرآن الكريم على ضربين أحدهما — فى المعانى ، وثانيهما فى الألفاظ والأساليب ، فأما التصرف فى المعانى ، فان المؤدى فى جملته يكون واحداً ، ولكن يختلف فى دلالته بالنسبة للسياق ، فالقصة الواحدة كقصة نوح تذكر فى القرآن فى عدة مواضع،ولكن لها فى كل مرة عبرة،وهذا تصريف فى المعانى وان كانت الألفاظ تختلف أو تتقارب أو تتحد العبارات فى بعض الأحيان ، ولقد قال فى تصريف المعانى الرمانى فى رسالته اعجاز القرآن : « وهذا الضرب من التصرف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى التى تظهره وتدل عليه ، وتصريف المعنى فى الدلالات المختلفة قد جاء فى القرآن فى غير قصة . منها قصة موسى عليه السلام فى صورة الأعراف وفى طه والشعراء . لوجوه من الحكمة ، منها التصرف فى البلاغة من غير نقصان ، ومنها تمكين العبرة والموعظة (١) » .

٧١ — وأول تصريف فى مناحى القول فى القرآن يكون فى السور ، فمنها الطويل التى يجد فيها القارىء أبواب العلم الاسلامى المختلفة من بيان الوحدانية، وبطلان الوثنية ، وتوجيه الأنظار الى الكون ، وما فيه من دلالة على قدرة ، والأرض وما حوت من كنوز وزروع وثمار ، ومن اتصال الأرض بالسماء بالمطر الذى يكون غيثاً يحيى الأرض ، وينبت الزرع ، ويسقى كل حى ، ومن شرائع فيها المصلحة الانسانية وكرامة الانسان ، وتكريمه بالعقل .

وفيها القصار التى يسهل على القارىء حفظها ، وأن يعيبها صدره لما فيها من جمل قصار يسهل وعيها ولاعتبار بها ، وذكرها فى صلواته ، وفيها بيان الوحدانية وذكر اليوم الآخر ، وفى بعضها تجد أحكاماً شرعية ، مثل قوله تعالى فى سورة الكوثر « انا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ان شانئك هو الأبتر » ، ففيها ذكر لليوم الآخر ومقام النبى عليه السلام ، ومقام الشانئين الذين عادوه ، وعادوا الحق معه وحكم الأضحية .

واقرأ قوله تعالى : « والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا

(١) رسالة الرمانى من مجموع الرسائل فى اعجاز القرآن ص ١٠١

الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، ففى هذه السورة القصيرة جماع الخصال الانسانية التى تصلح الاحاد والجماعات ، وهى الايمان الذى يعمر القلوب ، ويوجه الجوارح ، فلا صلاح لانسان أو جماعة الا اذا صلحت القلوب، وأثمر الايمان العمل الصالح فى الآحاد ، وكانت الجماعة كلها للحق تتواصى عليه وتتعاون ، فما صلح قوم ضاع الحق بينهم ، وتخاذلوا فى نصرته ، وان السبيل الى احتمال أعباء الحق ، هو الصبر ، فان الصبر فيه ضبط النفس ، والابتعاد عن الشهوات وجعلها خاضعة للعقل ، بحيث تكون أمة ذلولا لا سيداً مطاعا وما تخاذل قوم عن نصرة الحق الا لأن الشهوات قد استولت على نفوسهم ، وصار السائد على الجماعة الهوى المطاع ، والشح المتبع ، ولذلك نص الله سبحانه وتعالى على أن الجماعة الفاضلة هى التى تتواصى على الحق ، فلا يذل صاحب حق ، ولا يعلو أهل الباطل ، وتتواصى على الصبر ، وضبط النفس ، وقدعها عن أهوائها ، وشهواتها .

وفى القرآن السور المتوسطة التى ليست بالطوال ولا القصار ، ومنها مايقرب من الطوال ومنها ما هو قريب من القصار ، وهى مشتملة على جل مقاصد الشريعة الاسلامية فى عبارة موجزة ، مثيرة ، ولكن بوضوح ، ومبينة ، ولكن بايجاز .

وكأن الله سبحانه وتعالى بذلك التصريف فى السور بين الطويل ، والمتوسط والقصير ، وكلها فى أعلى درجات البلاغة يقدم مائدته الكبرى ، وهى القرآن للناس أجمعين ذوى العلم الذين يتسع علمهم للاحاطة بالسور الطوال وما فيها من علم بالشريعة ، وما فيها من علم الكون الذى لا يحيط به من دونهم ، وهم أوتوا مدارك تسموا اليها ، وتستخرج من كنوزها جواهر .

وأعطى الذين يشغلهم أسباب الرزق عن الاحاطة قصار السور ، وفيها غناء لا قصور فيه ، بل انه كمال فى كمال .

وبين هؤلاء وأولئك الذين يطلبون السور المتوسطة طولا ، وهم الشادون فى العلم الذين لهم من وقتهم ما يمكنهم أكثر ممن كانت لهم قصار السور .

وقد يقول قائل هل تقسيم القرآن الى سور قصار وما بينها تنزيل من الله تعالى ! .

ونقول فى الجواب عن ذلك : ان ترتيب السور بوحى من الله تعالى ، وقد بينا ذلك فيما أسلفنا من قول فى جمع القرآن .

التكرار فى القرآن

٧٢ ـ كانت السور منها القصار ، ومنها الطوال ، وأن الجميع بترتيب من الوحى الالهى ولم يكن من عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وحى ، بل هو من توقيف الله تعالى ، ووحيه ، وان وضع الآيات بعضها بجوار بعض من وحى الله تعالى ، اذ كانت الآية اذا نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها فى مكانها من السورة التى يعينها بالوحى . النازل عليه ، والذى كان لا ينى عن الاتصال به فيما يتعلق بالقرآن الكريم ، وان ذلك من الاعجاز اذ أن الآيتين المتلاصقتين مع أنهما قد تكونان نزلتا فى زمنين متباعدين ، نجد أن كل واحدة لقف للأخرى ، وهما صنوان متلازمتان متآخيتان ، وذلك من سر الاعجاز ودلائله ، اذ أن التناسق البيانى بينهما متصل ، والمعانى متلاقية ، وكل واحدة منهما تتمم الأخرى فى الموضوع فى أحيان كثيرة ، وفى التوجيه النفسى ، والتوالد المعنوى بينهما ، بحيث لا يتصور القارىء للقرآن الكريم ، أو المستمع لترتيله والمدرك لنغمه ، لا يحسب أن بينهما فارقاً زمنياً فى النزول .

وبجوار طول السور وقصرها ، مع الاعجاز فى كلها قد نجد فى القرآن تكراراً ، وهو من تصريف البيان ، لا من الاطناب المجرد ، وانما هو لمقاصد ولتوجيه النظر ، ومناسبة المقام ، ولقد لاحظ ذلك الأقدمون الذين تكلموا فى سر الاعجاز وقد قال فى ذلك الجاحظ فى كتابه الحيوان .

« رأينا الله تبارك وتعالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الاشارة والوحى والحذف ، واذا خاطب بنى اسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام » .

وأنا نقدر كلام الجاحظ حق قدره ، وان ذلك واضح فى كثير من آى القرآن ، وان الأعراب الذين يعتمدون على ذاكرتهم لأنهم أميون يناسبهم الكلام الموجز ، وأحيانا يغنى فيهم لمح القول ولحنه واشاراته ، ولكن نلاحظ ثلاثة أمور :

أولها — أنه قال وزاد فى الكلام ، وانا لا نحسب أن هـذه الكلمة تتفق مع بلاغة القرآن ولا مقامه ، فليس فى القرآن زائد ، وان أطنب فى القول ؛ لأن الزيادة تتسم بالحشو ، ومجال ذلك فى أبلغ القول الذى نزل من عند الله تعالى ، ولعله أراد معنى البسط والاطناب ، لا أصل الزيادة ، ولا يمكن أن يكون قد أراد الحشو ، ولكن مع كل نقول هذه العبارة ليست سائغة .

الثانى — أن الآيات المكية وقد كان الخطاب لعبدة الأوثان ، فانا نجد فيهـا بسطاً فى القول ، وخصوصاً فى الاستدلال من الكون على أن الله سبحانه وتعالى خالقه ، وفى الاستدلال بعجزهم ، والالتجاء اليه سبحانه .

اقرأ قوله تعالى « أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ اله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا أ اله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أ اله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أ اله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السـماء والأرض أ اله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ، ان كنتم صادقين » (١) .

وان هذا الكلام الكريم لا يمكن أن يكون خطاباً لليهود وحدهم ، وانما هو خطاب للعرب ، ولم يكن باللمح والاشارة . بل كان بالتصريح والعبارة ، فلم يكن بالايجاز ، وان كان الايجاز القرآنى من نوع الاعجاز . بل كان بالاطناب المتسق المبين ، وكان فيه بعض التكرار وهو تكرار فى موضعه ، لأن التوجيه الى النظر فيما تحت أيديهم هو فى ذاته مقدمة لنتيجة وهى الوحدانية للمعبود ما دامت وحدانية

---

(١) النحل : ٦٠ — ٦٤.

الخالق قد ثبتت بهذا الكلام ، فكان لابد أن تذكر النتيجة أمام كل مقدمة ، لأنها وحدها دليل ، ولو لم تذكر النتيجة أمام كل مقدمة، لكانت النتيجة ثمرة لمجموعهما، مع أن كل واحدة منها صالحة لأن تكون الوحدانية نتيجة لها ، دون أن تنضم معها غيرها .

الملاحظة الثالثة ، وهى مبنية على الملاحظة السابقة ، أن الايجاز والاطناب يكون لكل موضعه ، ومقامه ، فلكل مقام مقتضاه الذى توجه أحوال البيان المعجز .

وقد لاحظنا أن مقام الاستدلال على الوحدانية من المواضع التى يحسن فيها الاطناب ، وكلام الله تعالى اتجه الى ذلك ، كما رأينا فى الآية السابقة ، وكما نرى فى سورة الرحمن فانها تذكير بنعم الله تعالى . وكل نعمة كفروا اذ استعملوها فى غير موضعها ، وفى غير أمر الله تعالى ونهيه ، واذا كان جزاء النعم كفراً بالمنعم، واشراك غيره معه فى العبادة ، فقد قال تعالى فى سورة الرحمن « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف ، والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ، ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان .. الى آخر السورة الكريمة .

وهكذا نجد بعد كل نص سام تتبين فيه نعمة الخالق بديع السموات والأرض يكون تذكيراً بنعم الله ، ووجوب شكرها بالطاعة وتجنب المعصية والاقرار بوحدانية المعبود ، وألا يعبدوا غيره سبحانه وتعالى ، وفى ذلك اشارة الى أن كل نعمة من هذه النعم ، وبينة من هذه البينات توجب وحدها الشكر، وتوجب الاقرار بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

١ قصص القرآن من الناحية البيانية

٧٤ — ومن المواضع التى يحسن فيها الاطناب ، بل التكرار أحياناً قصص القرآن ، ولا نذكره هنا من ناحية أنه من وجوه الاعجاز فى ذاته ، فلذلك موضع خاص من القول ، انما نذكره من ناحية التكرار فيه ، وموضـــع ذلك من سر الاعجاز ، وبلاغة القرآن التى لا تساميها بلاغة فى الوجود ، وان ذلك التكرار من تصريف القول الذى هو وجه من وجوه البيان القرآنى الذى قصد اليه الـكتاب العزيز •

لقد تكررت قصص الأنبياء ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالاطناب أحياناً ، والايجاز أحياناً ، وذكرت قصة عيسى عدة مرات ، وذكرت قصـــة ابراهيم عدة مرات ، وذكرت قصة موسى عدة مرات ، وانه يبدو بادى الرأى أن ذلك من مكرور القول • وفيه التكرار ، فما وجه البلاغة فى هذا التكرار •

اننا اذا نظرنا نظرة فاحصة تليق بمقام القرآن ، ومكانته فى البيان العربى، نجد أن التكرر فيه له مغزى ، ذلك أن القرآن ليس كتاب قصص وليس كالروايات القصصية التى تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة •

انما قصص القرآن ، وهو قصص لأمور واقعة ، يساق للعبر واعطاء المثلات، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال وعاقبة الهـداية ، وبيان ما يقاوم به النبيون ، ووراءهم كل الدعاة للحق ، فهو قصص للعبرة بين الواقعات، لا لمجرد المتعة من الاستماع ، والقراءة ، ولذلك قال الله تعالى فى آخر قصة نبى الله يوسف عليه السلام ، « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصـــيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١) •

ولكى يتبين القارىء الكريم ، أن التكرار بسبب تعدد العبر التى هى المقصد الأول من القصص ، نذكر قصة ابراهيم وقصة موسى عليهما وعلى نبينا أفضل

---

(١) يوسف : ١١١

الصلاة وأتم التسليم ، فانهما ذكرنا كثيرا فى القرآن الكريم .

قصة ابراهيم :

٧٥ — ذكرت قصة ابراهيم فى القران عدة مرات ، لتعدد العبر فيها ، وان ابراهيم كان أبا العرب فقصصه له مقامه عند العرب ، ونذكر من قصصه بعضه لا كله ، فانه ليس هذا مقام ذكره فى القرآن .

(أ) أول ماتذكر من قصة ابراهيم ، هو مايربطه بالعرب ، وما كان شرف العرب به وهو بناء الكعبة ، فقد ذكر هذا البناء الذى قام به ، وعاونه فيه ابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وبابراهيم واسماعيل تشرف العرب ، بأنهم سلالتهما ، وبالبيت الحرام اعتزوا ، وعلوا فى العرب ، اذ كان مثابة للناس وأمناً ، وقد قال تعالى فى هذا البناء الذى قام بأمر ربانى :

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال انى جاعلك للناس اماماً ، قال ومن ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين ، واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين ، والركع السجود ، واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً أمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر ، فأمتعه قليلا ، ثم اضطره الى عذاب النار ، وبئس المصير ؛ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم »(١)

ثم بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه كان استجابة لدعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبذلك تتبين الصلة بين الاسلام ودعوة ابراهيم ، فاذا كان العرب يفتخرون بابراهيم عليه السلام ، فهذه دعوته قد استجيبت فى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

(ب) نجد بعد هذه القصة قصة النفس البشرية فى نبى الفطرة ابراهيم عليه

---

(١) البقرة : ١٢٤ — ١٢٨

السلام ، اذ النفوس ولو كانت مؤمنه تتمتع بكثرة الدليل ، تزداد ايماناً ، وان كان أصل الايمان قائماً ، فزيادة البينات تزيد المؤمن ايمانا ، وتزيد الجاحد كفرا وعناداً .

واقرأ قصة طلبه زيادة الايمان : « واذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال أو لم تؤمن قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير، فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم » (١) .

ومن قبل ذلك فى الذكر كانت قصته مع الملك عندما ناقشه فى اثبات وجود الله وكيف استطاع ابراهيم عليه السلام أن يفحمه اذ هو لا يؤمن الا بالمحسوس اذ قال تعالى : « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين »(٢) .

وترى فى قصة ابراهيم والطير أنه صور النفس الانسانية ، ولو كانت نفس نبى مؤمن يدعو الى تكشف المجهول ، وتعرف المستور ، والمؤمنون يديهم الله تعالى ، ومن لا يريدون الهداية يتركون فى غيهم يعمهون .

وفى قصة ابراهيم مع الملك نجد ابراهيم الأريب يأخذ بالطريق الذى يحسم الخلاف دون الطريق الذى يحدث لجاجة من غير افحام ، اذ الملك فهم أن القتل امانة وتركه احياء ، فلم يسترسل رسول الله الفطين الأريب فى تعريف للموت والحياة،بل عمد الى ما يفحمه حسباً ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين .

ومن هذا ترى أنه ليس ثمة تكرار فى المعانى والعبر والعظات ، وان كان الموضوع فى الأحوال الثلاث يتعلق بابراهيم عليه السلام .

(ج) ولننتقل الى قصة أخرى موضوعها يتعلق أيضاً بابراهيم عليه السلام ، وهو تدرج النفس الانسانية فى الاتجاه الى طلب الحقيقة الالهية ، والايمان

---

(١) البقرة : ٢٦٠ (٢) البقرة : ٢٥٨

بالوحدانية كيف ابتدأ ابراهيم عليه السلام تأمله فى الكون ليتعرف من الوجود سر الوجود ، وعظمة الخالق ، فاول ما استرعاه نجم ساطع تالق ، فحسبه ربه ، ولكن الرب موجود دائما ، فلما غاب نفر مما زعم ثم راى القمر ، فحسبه كذلك ، ثم رأى الشمس ، وهكذا حتى هدى الى أن سر الوجود يجب أن يكون غير هذا كله ، فاتجه الى الله ، واليك القصة كما ذكرها القرآن ، وكما وقعت ، قال تعالى : « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، انى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال ياقوم انى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه . قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ماتشركون به الا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شى علما أفلا تتذكرون » (١) .

ونرى من هذه لقصة أنها مغايرة تمام المغايرة لما سبق ، وان كانت غير معارضة لها ، بل هى متممة ، ولا تكرار فى القصص ، انما الموضوع ، وهو ابراهيم عليه السلام هو المتكرر ، ونرى أنه ابتدأ بنفى عبادة الأصنام على أساس أن البديهة تدعو الى ذلك ، وأن ضلال العقل هو الذى يؤدى الى عبادتها ، ثم أخذ يبين أن طريق اليقين يبتدىء بالشك فى صدق ما تضل فيه الافهام ، فأخذ يعرض على عقله ما يتصور أن يكون فيه نفع ، فاتجه الى الكوكب السارى ثم الى القمر المنير ، ثم الى الشمس السراج ، فوجد أن كل ذلك يأفل ، ويجرى عليه تغير ، فاتجه الى خالق ذلك كله ، ولذلك يقول بعض العلماء ، ومنهم ابن حزم الظاهرى ان ادراك الله ضرورى اذا استقامت الفطرة ، ولم تركس فى ضلال الأوهام .

(د) انتقل سيدنا الخليل من الاهتداء الى الله تعالى الى عمل ايجابى نحو الأصنام دفعه الشباب ونور الله الى أن يحطمها ، وهذا يجىء فى قصص القرآن

---

(١) الانعام : ٧٤ — ٨٠

الكريم ، فيذكر سبحانه أنه عقب أن نال ابراهيم رشده ، وهو فى حياطة الله ، تقدم ليثبت ضلال عبادتها ، وأنها لا تضر ، ولا تنفع ، فحطمها . ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك .

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ، وكنابه عالمين . اذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين، وتالله لأكيدن أصنامكم ، بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، انه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ، فرجعوا الى أنفسهم ، فقالوا انكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم ، لقد علمت ماهؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ، ان كنتم فاعلين ، قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين (١) (صدق الله تعالى العظيم) .

هذه قصة من قصص ابراهيم عليه السلام ذكرها القرآن الكريم فى موضع غير المواضع السابقة،ولا ترى تكرارا فيها ، واذا كان قد ذكر فى قصة تتبع الكواكب والقمر والشمس الحكم على أبيه وقومه بالضلال ، فقد ذكر ذلك مجملا فى الأول، أما هنا فقد ذكر المناقشة التى جرت بينهم فى ذلك، ثم ذكر تدبيره فى حطم الأصنام، واثبات عجز الأصنام بالدليل القاطع ثم نجاته من النار ، فكان بهذا مثبتاً بالعمل أنهم لا ينفعون ولا يضرون ، ولما سألوه عما فعل بالأصنام قال متهكما : « بل فعله كبيرهم » فأنطقهم بضلالهم اذ نكسوا ثم قالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ،

---

(١) الانبياء : ٥١ — ٧٠

وقد أثبت الواقع أيضا أن الله وحده هو الذى يضر وينفع اذ جعل سبحانه وتعالى النار « برداً وسلاماً على ابراهيم » •

وهنا لا نجد تكرارا مطلقا ، وان الموضوع واحد ، فهذه قصة ابراهيم ولكن غرقت فى أبواب شتى لأن النسق القرآنى المعجز اقتضى ذلك ، اذ يكون كل جزء مكونا لقصة ذات عبرة مستقلة فى ذاتها ، فهى قصة واحدة الموضوع ، فى قصص متعددة العبر •

(هـ) ولندخل الى جزء آخر من قصة ابراهيم ، ونراه مستقلا غير مكرر ، وهو صلة ابراهيم بأبيه ، وكيف كان حريصا عليه مع رفق الدعوة واحسان البنوة ، وطرق الهداية الرشيدة ، يقول الله تعالى حكاية عن ابراهيم بعد أن صار صديقاً نبياً •

« واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً ، اذ قال لأبيه يا أبت لم تبعد مالا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطاً سويا ، يا أبت لا تبعد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فيكون للشيطان ولياً ، قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم • لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا » (١) •

وهنا نجد رفق الدعوة التى تفيض بحنان البنوة فى عباراتها، وفى نغماتها الهادئة وفى معانيها العاطفة ، ولا يمكن أن يوجد فى أى لغة فى أى كلام عبارات تفيض برفق الدعوة ، والعطف ، والرعاية بمثل هذه العبارات لأنها كلام العليم الحكيم العزيز الكريم •

وبمقدار مافى عبارات الابن من رفق واسترضاء واستعطاف كانت عبارات الأب كما صورها القرآن جفوة ، وكأنها الجنادل تصك الآذان ، ولم يمنع ذلك الابن

---

(١) مريم : ٤١ — ٤٧

العطوف من أن يعد أباه بأن يستغفر له ربه ، لأن له مكانه عند الله تعالى « انه كان بى حفيـاً » .

ولكن الله تعالى يخبره بأنه ليس له أن يستغفر لأبيه ، لأن كـل امرىء بمـا كسب رهين ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وكل انسان وما قدمت يداه ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ، وقد نهى الله تعـالى عن الاستغفار للمشركين ، وعـفا عن ابراهيم اذا استغفر لأبيه ولكنه أمره بالبراءة منه فتبرأ ، وقال تعالى فى ذلك .

« ما كان للنبى والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ، ولو كـانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيـه الا عن موعدة وعدها اياه ، فلما تبين له أنه عـدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم » (١) .

هذه قصة ابراهيم عليه السلام قبضنا منها قبضة ، لكيلا يتوهم القارىء للقرآن، أو المستمع لتلاوته أن فيها معانى مكررة وألفاظا مرددة ، ومنها يتبين أنه لا تكرار قط فيها، ولكن حكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء فى مواضع ، لتكون كل عبرة بجوار خبرها فى القصة ، ولو اجتمعت فى مكـان واحد ، لاختلطت العبرة بالقصـة الخبرية وما تميزت كل عبرة تميزاً يجعلها كونا مستقـلا مقصوداً بالذات ، وبقية الأجزاء التى لم نرطب قلمنا بذكرها لا تكرار فيهـا بل كل واحدة لهـا عبرتها .

قصة موسى عليه السلام :

٧٦ — قصة سيدنا موسى ذكرت فى القرآن الكريم كثيراً ، لأنه هو الذى نزلت عليه التوراة، وفيها المبادىء المقررة فى الشرائع السماوية، وكثير من أحكام المعاملات فيها لم ينسخ ، بل جلها صدق عليه القرآن الكريم ، كما وصفه الله تعـالى اذ قال سبحانه « ومصدقا لما بين يدى من التوراة » (٢) ولأنها تبين أحوال اليهود ، ولأن فيها أوصافهم الحقيقية من الشك والتردد فى الحق ، وخذلانه ، وما وسموا به من

---

(١) التوبة : ١١٣ — ١١٤

(٢) آل عمران : ٥٠

خنوع وخضوع الى آخر ما ذكره القرآن عنهم ، وكل ذكر لهم يجىء معه ذكر لنبى من الأنبياء ، ففيهم تجارب الانسانية الفاسدة ، وحالهم فى هذه الأيام هى امتداد لما ذكره القرآن من أوصافهم .

وان المتتبع لقصة سيدنا موسى فى القرآن يجدها متعددة العبر ، فى جهاده ، وفى قومه ، وفيما لقيه ، وهو من أولى العزم من الرسل الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، ففى كل واقعة من وقائع حياته عبرة . ولا تكرار بالقدر الذى يتوهمه التالى للقرآن أو المستمع لتلاوته، ولنقبس قبسات من ميلاده الى جلاده مع فرعون الطاغية الذى كان من أغنى ملوك العالمين ، وأشدهم طغيانا ، ولسنا تحصى كل المواضع بل نذكر ما يتوهم فيه التكرار من قصد لجديد .

(ا) أول ما نتجه اليه هو ميلاده ، وما أحيط به من خوارق للعادات ، فقد قال تعالى فى سورة القصص « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت أمرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولداً وهم لايشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ان كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب، وهم لايشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ، فرددناه الى أمه كى تقر عينها ، ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » (١) .

وفى هذه القصة نجد عدة خوارق للعادات اقترنت بنبى الله موسى عليه السلام فى نشأته . فقد ولد ، فخافت عليه أمه ، اذ أن فرعون اللعين الذى يعد أستاذاً لكل طاغية فى الأرض ، كان يرهق بنى اسرائيل ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم لكيلا تكون منهم فى القابل قوة تناوىء حكمه ، وترد طغيانه ، ولكن الله تعالى ألهم نفس

(١) القصص : ٧ — ١٣

أمه الصافية ، أن تصنع له تابوتاً ، وتلقى فيه فلذة كبدها ، وتدفعه الى البحر ، فكان الوحي أو الالهام صادقا كل الصدق ، مصدقا كل التصديق ، فالتقطه آل فرعون ليكون المصير والمآل أن ينجو ، وأن تكون رسالته عدوا للشرك ، وحزنا على آل فرعون ، اذ أنه سيقاوم فرعون ، ويقتلعه من أرض مصر . وقد وهب قلب امرأة فرعون الرحمة لهذا الملقى فى اليم ، وقد ألهم الله أم موسى أن تتقصاه ، حتى تعرف أنه آل أمره الى بيت فرعون ، ويجىء الأمر الثالث الخارق للعادة ، فيمتنع الرضيع عن المراضع بأمر الله التكوينى ، وتعرف أخته التى تقصت أخباره . فتدلهم — وهى المترقبة المترصدة — على من يكفله ، تدلهم على أمه ، وبذلك يرده الله تعالى اليها ، وتخصيصه بنى اسرائيل بظالم خاص . فيقول الله سبحانه « ولما بلغ أشده آتيناه كما وعد ، وهو أصدق الواعدين ، وقد اقترنت هذه الخوارق بنشأة موسى ، كما تقترن الخوارق بنشأة كل رسول من رب العالمين ، وقد رأيناها من بعده مقترنة بولادة محمد خاتم الأنبياء ، وآخر لبنة فى صرح النبوة ، مما هو مذكور فى السيرة النبوية العطرة ، ان سورة القصص يرى التالى لها المتتبع للقصة أنها ذكرت بالاجمال ولادته ونشأته فى بيت فرعون الى أن أرسله الله رسولا نبياً ، ولاقى فرعون فى عزمة المؤيد من الله تعالى، وفيها ختام حياة فرعون، وما انتهى اليه من غرق فى اليم .

ابتدأت بعد نشأته . ببيان أنه فهم طغيان فرعون ، ولظلمه لبنى مصر عامة ، حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه .. قال هذا من عمل الشيطان، انه عدو مضل مبين ، قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين » (١) .

أدرك موسى بنفاذ بصيرته القدرة على الحكم على الأمور والعلم بمداخلها ، فأعطاه الله تعالى حكمة وعلما وخرج من سجن القصر الى حيث الشعب يتحسس الأمور ، ويتعرف مقتضياتها ، وغاياتها ومآلاتها ، فدخل المدينة فى وقت لا يعلم

(١) القصص : ١٤ — ١٧

أهلها أنه من قصر فرعون ، ورأى الاسرائيلى الذى يدل ظاهر الحال على أنه من المظلومين ، يقتتل مع المصرى الذى يدل ظاهر الحال على أنه من الظالمين ، فاستنصر به الذى من شيعته على الذى من عدوه وقتله ولكنه ندم ، اذ قتل قبل أن يتبين ، وتاب الى الله ، واعتزم على ألا يعود لمثلها .

ولكن تتكرر المأساة ، وتعاوده رغبته الانتصار لمن هو من شيعته ، فينبهه الآخر الى انه لا يصح أن يكون جباراً فى الأرض ، اذ جاء من شيعته من يستنصر به على مصرى آخر فيعرفه المصرى فينبهه .

عندئذ يحس الطيب الأمين الذى أراد الله تعالى له أن يكون من المصطفين الأخيار . بأنه صار فى خطر أن يبطش به فرعون وأعوانه ، وقد جاء النذير بذلك: « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فأخرج انى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب . قال رب نجنى من القوم الظالمين » (١) .

خرج من المدائن الى حيث الأمن والاستقرار ، خرج الى الصحراء ، حيث السماء الصافية ، والنور المشرق ، فتوجه تلقاء مدين ، وارتبطت حاله بشعيب كبير مدين . وخاطبه الله تعالى من وراء الشجرة، وقد آنس ناراً ذهب ليصطلى هو وأهله بها ، فهداه الله تعالى ، وبعثه الى فرعون وقومه ليلقى الطاغى الأول فى العالم . وأعطى المعجزة الأولى ، وكانت لأن الله تعالى يخاطبه ، وقد قال الله تعالى لما أتى الى جذوة النار : « فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ، ولم يعقب ، ياموسى أقبل ولا تخف أنك من الآمنين ، اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم اليك جناحك من الرهب ، فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه ، انهم كانوا قوما فاسقين ، قال رب انى قتلت منهم نفسا ، وأخاف أن يقتلون ، وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى أنى أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضك بأخيك ، ونجعل لكما

(١) القصص : ٢٠ — ٢١

سلطانا ، فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ، فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة الدار ، انه لا يفلح الظالمون ، وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فأوقد لى ياهامان على الطين ، فأجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى ، وانى لأظنه من الكاذبين • واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم الينا لايرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » (١) •

الى هنا بين القرآن حياة الكليم عليه السلام من وقت أن نشأ رضيعا ، وكيف ملأته عناية الله تعالى ، وهو يتدرج ، حتى صار شاباً سوياً ، قادراً ، ورأى الظلم عيانا ، وصقلته الحاجة الشديدة ، حتى صاح ضارعاً الى ربه « انى لما أنزلت الى من خير فقير » فصار من تربى فى ترف فرعون فى حاجة الى عيش الكفاف ، ووجده فى أن يكون أجيرا لشعيب بمهر احدى ابنتيه ، فالتقى فيه ترف النعمة ابتداء حتى زهد فيه ، لما تأشب حياته فيه من احساس مرير بالظلم فأقبل على الشعب يعيش فى وسطه عيشا مريرا ، ولكنه هنىء ، وحياة لاغبة ، ولكنها فى راحة الضمير والوجدان •

عندئذ بدأت أرهاص النبوة ، ثم كانت الرسالة ، وشعر بشدة التكليف ، لأنه سيكون فى مواجهة فرعون الذى قتل من قومه نفسا ، والتقى فرعون بطغواته ، وجهله ، فحسب أن الله فى السماء الدنيا ، وأراد أن يتخذ الأسباب للارتفاع اليه • ومع جهله بالحقائق الالهية استكبر هو وجنده ، فكأن الجند فى جانبه ، والشعب ليس فى جانبه ، أو هو مغلوب على أمره لا يحرك ساكناً حيث يجب أن يتحرك ، ولا يدفع ظلماً يجب أن يدفع ، ثم نزل العقاب بفرعون وجنده ، فألقوا فى البحر • هذه قصة موسى رضيعا ، فشاباً قوياً ، فأجيراً فتيا ، فمبعوثا نبيا ، فمجاهداً مجالداً ، حتى أدال الله تعالى من الطاغى المتغطرس •

---

(١) القصص : ٣٠ — ٤٠

٧٧ — جاء بعد هذا الاجمال تفصيل لما ذكر بالاجمال من الوقائع ، وكان فى التفصيل ذكر للنعم التى أنعم الله بها على موسى •

وأول تفصيل كان فى ذكر التأهب للقاء فرعون ، فقد توقع أنه سيلقى عنتاً ، وما ذكر من بعض التكرار فلأنه لا بد منه ليقوى موسى على اللقاء ، وليذكر بالنعم التى أنقذته سابقاً ، ليعلم أن الله تعالى معه ومؤيده ومنقذه ، ذكره بنعمه عليه رضيعا ثم كيف ابتدأ التكليف ، ثم كيف استعان بأخيه ، ثم كيف استعد للقاء الرهيب ، اذ قال : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى ، أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً انك كنت بنا بصيرا قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى » (١) ثم ذكره بعظم مننه السابقة ليتأكد أن الله تعالى مؤيده بنصره ، وليعلم أنه مهما يكن أمر فرعون ، فان الله تعالى لن يمكنه منهما •

ثم جاء التكليف بالرسالة ومخاطبة فرعون نتيجة للآيات التى ذكرها أولا ، ثم ذكرها ثانياً ليربط التكليف بها ، وهذا نص التكليف الخطير : « اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا ، اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه ، فقولا له انا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى اسرائيل ، ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى » (٢) •

وفى هذا النص دعاهم الى التقدم برقيق القول ارشاداً لسبيل الدعوة ، اذ هى تكون بالتى هى أحسن ليلين الطاغى وليسكن النافر ، وقد أبديا لله سبحانه الخوف من أن يطغى ، فوعدهما سبحانه بأنه سيكون معهما ، وقد سبق القول ، بسابغ نعمه ، وصادق وعده ، وكان لابد من ذكر ذلك عند دعوتهما الى ذلك الاقدام الخطير•

وقد كانت اجابة فرعون أن سألهما عن ربهما فأجابا قائلا أحدهما ومصدقاً من

---

(١) طه : ٢٥ — ٣٧ (٢) طه : ٤٣ — ٤٧

لآخر : « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم أن فى ذلك لآيات لأولى النهى .. » (١) .

وأخذا يذكران أسباب الهداية مبينين حقائق الوجود كله ، ولما تقدم موسى له بالعصا التى قلبت ثعباناً مبيناً وقال سبحانه « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » لم يفكر فرعون الا فى سلطانه ومن استرقهم ، فقال : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ، فلنأتينك بسحر مثله ، فأجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى (٢) » . التقى السحرة وموسى، ووقعت المعارك بين الحق يؤيده الله ، والسحر يؤيده الباطل ، والله يطمئن عبده الرسول وقد رأى السحرة فيقول له : « لا تخف انك أنت الأعلى » (٣) .

وقد كانت نتيجة المعركة بين الحق والباطل أن خر السحرة ساجدين لله ، وهنا تتجلى الحقيقة ، ويتجلى الفداء فى سبيل الحق والطغيان الفرعونى الذى يستنكر أن من المصريين من يذعن الحق قبل أن يأذن الطاغوت الأثيم ، وينذر بالعذاب العسير ، وقال « آمنتم له قبل أن آذن لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » (٤) .

وهنا تتجلى قوة الايمان لأنه اذا سكن القلب ، واطمأنت به النفس هان تهديد العباد ولو كان من فرعون ذى الأوتاد ، « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا ، انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ، انه من يأت ربه مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا » (٥) .

---

(١) طه : ٥٠ — ٥٤
(٢) طه : ٥٧ — ٥٨
(٣) طه ٦٨
(٤) طه : ٧١
(٥) طه : ٧٢ — ٧٥

وينتهى هذا الجزء من قصة موسى وفرعون بأنه مقصد قائم بذاته ، وهو تفصيل اللقاء بين الحق يؤيده الدليل ، وبين الباطل يؤيده الطاغوت ، وفيه قوة الايمان عند المؤمن ، وما جاء من ذكر لألاء سبق بيان فيها ، فلكى يتخذ من التأييد الأول والوعد به وصدق الوعد دليلا على صدق الوعد الجديد، وقد اشتدت الشديدة.

الدعوة فى أوساط الشعب :

٧٨ — سرت الدعوة بين المصريين سريان النور فى الظلمة ، ومع قوة فرعون الطاغية سرت الدعوة بين الشعب ، بل كان من ملأ فرعون نفسه من آمن ، ودعا الى الايمان ، وتجرى المجاوبة فى ربوع مصر حاضرها وريفها ، وفرعون يرعد ويبرق ، ويهدد ، ولا مستمع يستمع ، لان الحق أبلج ، فالله تعالى يقول عنه : «فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وما كيد الكافرين الا فى ضلال ، وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ، وقال موسى انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذباً فعليه كذبه ، وان يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ، قال فرعون ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن يا قوم ، انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد ، ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ، ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » (١) .

---

(١) غافر : ٢٥ — ٣٤

استمرت المجاوبة بين الذين آمنوا وبين فرعون ، وكان فرعون ومن معه يصدون عن سبيل الله تعالى . والذين آمنوا يدعون الى سبيل الرشاد « وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هى دار القرار » الى قوله تعالى « وياقوم مالى أدعوكم الى النجاة ، وتدعوننى الى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار ، لا جرم أنما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الاخره وان مردنا الى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى الى الله ، أن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب (١) .

استمرت المجاوبة بين الحق والباطل ، فى داخل الشعب المصرى ، وبين آل فرعون والمؤمن ، ولعله — والعلم لله وحده — أن الذين آمنوا من آل فرعون وأهل مصر عدد قليل كالذين آمنوا بمحمد من بعد قد كانوا عدداً قليلا ، ومن الضعفاء ، فكان لا بد من هجرة موسى من مصر ، كما هاجر محمد من مكة الى المدينة ، وكان معه الذين اتبعوه باحسان ، ونالهم ما نالهم من الأذى .

خروج بنى اسرائيل وموسى من مصر :

٧٩ — كان أتباع موسى عليه السلام من بنى اسرائيل الذى جاء لاستنقاذهم ، وبعث للدعوة الى الوحدانية أولا ، واستنقاذ المظلومين من الظالمين ثانياً ، فكان لابد من الهجرة ، ومن أراد أن يلحق بهم من المصريين .

لقد جاء الأمر بالهجرة وأن تكون ليلا ، كما كانت هجرة محمد عليه السلام خفية ، وقد ساق سبحانه وتعالى قبل الخروج قصة الدعوة الموسوية ، وما لاقته من فرعون وشيعته . وليتبين انه لا أمل فى ايمان غير الذين آمنوا من قبل ، لذلك جاء الأمر بالهجرة كما جاء بعد ذلك الأمر بالهجرة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى فى ذلك : « وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى ، انكم متبعون ، فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وأنهم لنا لغائظون ، وانا

(١) غافر : ٣٨ — ٤٥

لجميـــع حذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقـــام كريم ، كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ، فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون ، قال كلا ان معى ربى سيهدين ، فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين » (١) •

انتهى أمر فرعون بهذا الاغراق . ولكنه لمـــا أوشك على الغرق جاء اليه الايمان متأخراً ، فكانت المعجزة أن الله أبقاه مثلا للآخرين وان الله يقول مفصلا مهلكه من غير تكرار ، وان ذكر المقدمات مفصلا ، قال سبحانه : « وجاوزنا ببنى اسرائيـــل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى اذا أدركه الغرق قال ، آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت من قبل، وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وان كثـــيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » (٢) •

انتهى فرعون ، ونلاحظ هنا ثلاث ملاحظات :

أولها : أن فرعون كان دائماً يذكر جنوده على أنهم الذين يوالونه فى طغيانه ، ويمالئونه فى عدوانه ، وينصرونه . والشعب لا يذكر فى مقام المناصرة لفرعون •

وثانيها أن الذين آمنوا من الشعب عدد لا يكون كثرة تهز ملك فرعون ، واذا كانوا كثرة لم يذكروا مع فرعون لأنهم فريسته ، فلم ينصروا بكثرتهم دعوة موسى، وكانوا كشأنهم فيما يتعلق بملوكهم ان خالفوا الحق نافق منهم من ينافق ، وتملق من يتملق ، والشعب وقف موقف النظارة ، ولذلك كانت الهجرة اذ قل النصير المؤيد، وكثر العدو المناهض •

ثالثها : أن الله تعالى أجرى على يد موسى معجزات تتصل بمصر الزراعية كما ذكر فى سورة الأعراف ، لقد ذكر فى السورة موسى وفرعون ، وذكرت هنا كمـــا ذكرت فى غيره العصا والسحرة وكررت لأنها المعجزة الكبرى التى تحدى بها ، كما

---

(١) الشعراء : ٥٢ — ٦٤ (٢) يونس : ٩٠ — ٩٢

كان القرآن الكريم يذكر كثيراً فى القرآن لأنه المعجزة الكبرى التى جاء بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد اخبر الله تعالى آل فرعون بمعجزات زراعية تتعلق بالزرع والضرع ، فقال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا ما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون • فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين » (١) •

وهكذا توالت المعجزات حتى بلغت تسعاً ، كما قال تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم ، فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر ، وانى لأظنك يا فرعون مثبورا ، فأراد أن يستفزهم من الأرض ، فأغرقناه ومن معه جميعا ، وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الأرض ، فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشراً ونذيرا » (٢) •

هذه قصة موسى مع فرعون ومع أهل مصر قد ذكرنا جزءا منها ، وهى فى فصول متعددة من أجزاء القرآن الكريم ، ونلاحظ مع بلاغة القصص وقوة تأثيره الذى قد نتكلم عليه من بعد ، أنه لا تكرار فى جزء من القصة فلا يكرر جزء بمعناه فى آيات واحدة ، بل يذكر أيضاً بمعناه فى آيات أخرى ، وان كل جزء من القصة اتجه فى معناه وجزئياته ، وغاياته ومراميه الى مقصد بل لكل جزء معنى سبق له لم يسق له غيره ، واذا كانت بعض العبارات أو المعانى تكررت ، فان ذلك لبيان المقصد الأصلى

---

(١) الاعراف : ١٣٠ — ١٣٦

(٢) الاسراء : ١٠١ — ١٠٥

ن الجزء . فمثلا رأينا فى لقاء موسى لفرعون ذكرت عبارات النعم وهو رضيع ، وكيف سهل الله سبيل العيش الرغيد ، ليبين له سبحانه أنه معه فى لقاء فرعون ، كما كان مع أمه فى القائه فى اليم ، ليلقى فرعون وهو رابط الجأش ، وهكذا نجد تكرار بعض المعانى ، لأنها ذكرت فى موضعها الأول مقصودة ، وذكرت فى موضعها الثانى تمهيداً لتصده ، وتثبيتاً لمغزاه ، فالتكرار لم يكن لمجرد التكرار ، بل هو تجديد للمعانى ، وليس ترديدا ، والفرق بين التجديد ومجرد الترديد أن الترديد يكون تكراراً لا غاية لها ، أو يكون لمجرد التوكيد ، أما التجديد فى تكرار اللفظ فانه يكون لغاية بعده لا تتم الا به •

موسى مع بنى اسرائيل :

٨٠ ــ قد قسمت قصة موسى فى القرآن الى قسمين : أحدهما ما كان وهو فى مصر يجاهد فرعون ويجالده ، وقد أشرنا فيه الى أنه لم يكن تكرار الا لتجديد الأمر، اذ يكون تمهيداً للمقصد من الجزء لا يتم البيان الا به ، أو هو مقدمة يتلوها الجزء الذى سبق له القول ، وكان لقصد غير الأول •

أما القسم الثانى فهو ما كان بعد الهجرة الى الطور ، وصار موسى مع بنى اسرائيل ، وقد خلصوا من فرعون وجنده ، وفى هذا القسم تلقى الألواح وعلم التوراة ، ولاقى المرارة فيها من بنى اسرائيل وضعفهم وتقليدهم كما لاقى من قبل الجهاد مع فرعون •

وفى قصة بنى اسرائيل مع موسى عليه السلام يتبين ما يكون عليه قوم قد مردوا على الخنوع ، وضعفت فيهم النفوس ، واستمرءوا الهون من الحياة ، ورضوا بالمكان الدون واستقروا فيه •

انتقل بهم موسى عليه السلام الى الطور ، فأرسل الله لهم السلوى والمن طعاما ، وأظل الله تعالى عليهم بالغمام حتى لا تلفحهم شمس الصحراء ثم توالت عليهم النعم وتوالت خوارق العادات ، ولقد ذكرت الآيات القرآنية فى أول سورة البقرة بعض أخبارهم ، فقال تعالى :

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على

العالمين (١) ، واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ، واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، واذ فرقنا بكم البحر ، فأنجيناكم ، وأغرقنا آل فرعون ، وأنتم تنظرون ، واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده . وأنتم ظالمون ، ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ، واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . واذ قال موسى لقومه ، يا قوم ، انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، انه هو التواب الرحيم ، واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ، وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوا الباب سجداً ، وقولوا حطة نغفر لـــكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين ، فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون . واذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قـــد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثـــوا فى الأرض مفسدين ، واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً ، فان لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون ، ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ثم توليتم من بعد ذلك ، فلو

---

(١) هو تفضيل نبى ، وليس تفضيلا ذاتيا ، وذلك لأن الله اختارهم بقيـــادة موسى لمقاومة فرعون ، ولأنه فضلهم واختار بعض الانبياء منهم ، وقد عصوا فأنكروا نعمـــة الله فاستحقوا سخطه .

فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين • ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين واذ قال موسى لقومه ، ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين• قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى: قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون • قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى أن البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون ، قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لا شية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون • واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ، ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون (١) صدق الله العظيم •

وفى هذه النصوص السامية المعجزة المحكمة نجد القرآن الكريم يذكر بنى اسرائيل بأن الله تعالى خصهم بنعم لم يعطها غيرهم ، وأنه فضلهم فى عصرهم بأن جعل منهم الذين يقاومون طاغوتاً من أعظم طواغيت الأرض ، وخصهم بكثرة المعجزات التى تجرى على أيدى نبيهم الذى هو من أولى العزم من الرسل ، وأنه سبحانه جعل من ذرية يعقوب أبيهم أنبياء كثيرين ومرسلين ، ومع هذه النعم المتضافرة ، والآيات المتكاثرة يكفرون بالنعمة ويبطرون معيشتهم، ويتخذون تفضيل الله لهم تفضيلا نسبياً فى عصرهم ذريعة للكفر بالنعمة ، لا نشكرها ، وان الله قد أخذ عليهم الميثاق ألا يعبدوا غيره ولا يؤمنوا الا به ، ولكن نفوسهم التى مردت على التقليد والخنوع للقوى ، سولت لهم أن يعبدوا العجل ، كما كان يعبده المصريون ، وفعلوا ذلك تقليداً ، وخضوعا للأهواء ، وتركوا وراءهم ظهرياً أوامر الله تعالى الذى أنقذهم من ظلم فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ،ويستحيى نساءهم ويأمرهم الله تعالى

(١) البقرة : ٤٧ — ٧٤

بأن يدخلوا متطامنين خاضعين فيحرفون كلام الله تعالى عن مواضعه ، ويمن الله تعالى عليهم بخير الطعام ، وأطيبه فيأخذهم الألف الى ما دونه ، ويستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأنهم خاضعون لأهوائهم غير مستطيبين لرزق ربهم ، ويرون المعجزة نهاراً ، وينعمون بها ، اذ يطلبون الماء فلا يجدونه فيأمر الله نبيه موسى الكليم بأن يضرب الحجر بالعصا ، فينبعث اثنتى عشرة عيناً ، ويكون لفرقهم الاثنتى عشرة مشاربهم « قد علم كل أناس مشربهم » (١) .

ومع هذه النعم المتوالية والآيات البينات الباهرة يأمرهم الله تعالى بالطاعات ويأخذ عليهم الميثاق ، ويؤكده بأن يرفع عليهم الطور حتى يصير كأنه ظلة فوقهم تأكيداً للميثاق بالآية التى اقترنت به ، ومع ذلك لا يطيعون عامدين ، اذ يتولون معرضين عن ذلك البيان الموثق ، لأنهم قد طبعوا على الجحود ، وكانوا مضرب المثل فيه ، واذا كانت الآيات قد تضافرت بالبيان عليهم ، فان الله تعالى جعل فيهم ومنهم آية بينة تدل على أن الجحود لا ينشأ عن نقص الدليل ، بل يكون مع تضافر البينات ، فتزيدهم الآيات كفراً وعناداً .

وان الله تعالى يأمرهم بيوم السبت لكى يكون لهم راحة واستجماما ، وأن يبتعدوا فيه عن المادة ويعكفوا على أنفسهم يهذبونها ويفطمونها عن دواعى المادة، فيذهب شرههم المادى ، ورغبتهم فى طلب المادة الى أن يعملوا فيه شرها وطمعا فيمسخ الله تعالى نفوسهم قردة تنزو مثلها ، وخنازير تطلب الخسائس طلبها .

« ان الله تعالى يختبرهم فى ايمانهم بأن يذبحوا بقرة ، ولكنهم تأثراً بالمصريين وما كانوا عليه من عبادة العجل ، يترددون فى ذبح البقرة فيجادلون فى ذبحها متجاهلين أمرها ، ولو أتوا الى أى بقرة فذبحوها لكان فى ذلك الاستجابة الكاملة ، ولكنهم يثيرون الريب حول الطلب ، سألوا عن حقيقتها ، وعن كونها صغيرة أو كبيرة، فأجيبوا ، ثم سألوا عن لونها ، فأجيبوا ، ثم سألوا عن كونها متخذة معلوفة للنماء

---

(١) البقرة : ٦٠.

والتوالد ، أم هى ذلول عاملة ، فذبحوها وما كادوا يفعلون تقليداً للمصريين وتأثراً بأفكارهم ، وأوهامهم فى دينهم •

هذه قصة بنى اسرائيل فى تلقيهم لأوامر الله تعالى ، وما جاء من القرآن خاصاً بهم فى عهد موسى عليه الصلاة والسلام ، فهو لمقاصد أخرى من أجزاء القصة كما ذكرنا فى قصة موسى ذاته •

بنو اسرائيل والأرض المقدسة :

٨١ — لم يكن بنو اسرائيل فى عهد موسى الا قوما أذلهم الخضوع وضربت عليهم الذلة ، وأرمضتهم الطاعة الذليلة التى كانت رقا أو ما يشبهه ، وقد بدا ضعف نفوسهم فى عهد موسى ، فقد أراد أن يدخل بهم الأرض المقدسة ، فضعفوا ووهنوا ، وتلمسوا لأنفسهم المعاذير ، وما هى الا معاذير المستكين المؤثر للاستكانة ، والرضا من الحياة بأدناها •

طلبهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لهم أن يدخلوها ، ولنسمع الى كتاب الله تعالى يحكى حالهم من الجبن والخنوع والذل •

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكاً ، وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى ان فيها قوماً جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون • قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه ، فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى أنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون • قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين • قال ، فانها محرمة عليهم أربعين سنة • يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين (١) » •

---

(١) المائدة : ٢٠ — ٢٦

هذا نص القرآن الكريم فى قصة جبن اليهود وتخاذلهم عن أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله سبحانه وتعالى عليهم أن يدخلوها ، ويجب أن ننبه هنا الى أن المراد أن الله تعالى كتب عليهم أن يدخلوها ، لا أنه كتبها لهم ملكا دائماً مستمراً باقياً ، يطالبون بحقه ، وان ذلك هو مفهوم الكتابة ، ويستفاد من النص الكريم ذلك، أن النص الكريم ليس فيه أنه كتبها لهم ، بل كتب فقط عليهم أن يدخلوها ، اذ يقول سبحانه عن طلب موسى منهم الدخول : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » فالكتابة التى فرضها الله تعالى هو الدخول وهو واجب وليس بحق ، فلم يكتب لهم أرضاً ، بل فرض عليهم أمراً بدليل عودة الضمير على الدخول المكتوب لا على الأرض .

وان منطق الحوادث يوجب عليهم أن يدخلوها ، ليقيموا فيها شعائر الموسوية، اذ أنهم خرجوا من مصر لعدم صلاحيتها لأن تقوم فيها شرائع موسى ، كما لم تصلح مكة ، لأن تكون موطن الشرع الاسلامى الا بعد تحطيم الأوثان ، وأن يمنع المشركون من دخولها ، لأنهم نجس لا يدخلون المسجد الحرام بعد عامهم .

وان دخولهم فيها كان لأجل اقامة التوراة فيها ، وجعلها الحكم الذى لا ترد حكومته ، وما كانت لذواتهم ، فلم تكن لأنهم بنو اسرائيل ، بحيث يكون الاستحقاق ذاتياً ، أو ميراثاً يرثه الأخلاف عن الأسلاف ، وقد انتهى عهد موسى، وانتهى شرعه ، وحالت أحوالهم ، وتغيرت أمورهم وليست الأرض ميراثاً يؤخذ ، انما الأمر هو الدخول لاقامة الشريعة الموسوية ، وقد نسخت بشريعة محمد ، فصارت الخلافة النبوية الى محمد خاتم النبيين ، فقومه الذين يقيمون شرع الله هم أهلها ، والذين يجب عليهم أن يدخلوها آمنين مطمئنين ، فليست أرض الله ميراثاً يورث للذوات ، انما هى مقام الشرع الناسخ لا المنسوخ .

ويلاحظ من بعد ذلك أمور ثلاثة قد أشارت اليها الآيات الكريمات :

أولها — أن الاسترخاء والضعف النفسى قد أصابهم بسبب ترفهم أولا ، واستضعافهم ثانياً ، وطغيان فرعون فى حكمهم ثالثاً ، وبأنهم حرموا حب الفداء ، واذا حرم قوم حب الفداء هانت عليهم أنفسهم ورزقوا الوهن ، وكذلك بنو اسرائيل،

فقد خافوا من غير مخوف ، وماتت فيهم النخوة ، كما تدل الآيات الكريمات •

وثانيها — أن ضعفهم أفقدهم قوة الايمان ، والشك فى حكم الديان حتى انهم ليقولون لموسى عليه السلام «اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون» •وذلك تهكم يدل على وهن ايمانهم ، كما وهنت نفوسهم •

وثالثها — أن الأمم لا تتربى الا بتعود خشونة العيش ، كما تعودت نعومته ، وأن تذوق جشبه كما ذاقت حلاوته ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى أنه لا يمكن أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله تعالى أن يدخلوها قال « فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض » •

وهذا كما يبدو من الآية تحريم كونى ، أى أنه لا يمكن أن يستطيعوا الدخول الى الأرض المقدسة مقاتلين مجاهدين الا بعد أن يذهب عنهم ذل الوهن ، ويأتى جيل جديد قد ذاق طعم الشدة ، وعلم الحياة نضالا ، ولم يعلمها استكانة وضعفاً ، والتقدير بالأربعين ، لا أحسب أنه يقصد به العدد ولكن يقصد به الكثرة التى تنشىء جيلا تربى فى شظف العيش وصلابة الحياة وقسوتها •

ولقد أخذ هذه الحقيقة القرآنية ابن خلدون ، وجعل أساس قوة الأمم شدة الحياة وصلابتها ، فانها اذا استرخت أبدل الله منها بقوم أولى بأس شديد تربوا فى البداوة ، وذاقوا بأساءها •

٢ - قصص القرآن لون من تصريف بيانه

٨٢ — ذكرنا أن البيان القرآني فيه تصريف القول على ألوان متعددة متباينة في حقيقتها متلاقية في غايتها ، ولا يمكن أن يكون لكلام بشر مع سمو البلاغة ، وبلوغها المقام الذي لا يناصى في كل أصنافها ، بل لا يمكن أن يبلغ الغاية في صنف واحد من أصنافها ، وقد ذكرنا ما في القرآن من اطناب من غير تكرار ، وذكرنا ما يتوهم فيه التكرار في القصص وبينا أنه لا تكرار يعد ترديدا ولو على سبيل التوكيد ، انما ما يتوهم فيه التكرار انما هو تجديد المعنى لغاية أخرى ومقصد آخر ، وكان الذكر لما يتوهم تكراره فيه كمال المعنى ، ولا يمكن أن يستغنى القول عنه ، انما التكرار المردود يكون فيما لو حذف المتوهم تكراره ما نقصت الغاية ، وما اختل بيان المقصد ، وتكرار القرآن ليس على هذا بل هو تكميل لا بد منه ، وتتميم لا يستغنى عنه ، وذلك يكون في القصص ، وفي الاستدلال بآيات الله تعالى الكونية ، على وحدة من خلق وكون وأبدع ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال • •

والآن نذكر القصص القرآني على أنه لون من تصريف البيان القرآني ، وتغير أشكاله كما ذكر الله تعالى في القرآن ، ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل •

ان القصص القرآني فيه العبرة ، وما ذكرت قصة الا كان معها عبرة أو عبر ، وفيها المثلات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم ، وفيها بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور ، والجبابرة الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ، والله من ورائهم محيط •

وان القصص فيه ايناس صاحب الرسالة المحمدية بأخبار أخوانه من المصطفين الأخيار ، واثبات قوله ، فقد كانت تلك الأخبار الصادقة ما كانت لتعلم الا لمن شاهد ، وما شاهد أحداثها وهو لا يزال في بطن الغيب ، كما قال سبحانه وتعالى عقب قصة مريم : « وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم ، اذ يختصمون » (١) • وكما قال في قصة موسى عليه السلام ووقائعها ، فقد قال تعالى:

---

(١) آل عمران : ٤٤

« وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً ، فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور ، اذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » (١) •

لم يكن محمد مشاهداً الأحداث التى جاء القرآن الكريم بقصصها ، وهى صادقة، وثابتة فى الصادق من أخبار النبيين فى كتبهم التى يتداولها أهل الكتاب ، ولم يتناولها التحريف •

ولم يكن بمكة مدرسة لاهوت ، بل لم يكن بمكة يهود ، ولا نصارى الا خمار ألحدوا بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ منه كذباً وبهتاناً ، فقال الله تعالى رداً عليهم « لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » (٢) •

وكانت مكه بلداً أمياً ، ليس به علم ولا رياسات ، الا مباريات رياسية فى البيان، وكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك اذا لا رتاب المبطلون » (٣) •

لذلك نقول : ان القصص القرآنى ذاته فيه اعجاز ذكره الكتاب جاء على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب ، اذ هو النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل •

ويتساءل أى تال للقرآن من أين جاء محمد بهذا القصص الحق ، وهو لم يشاهد وقائعه ، ولم يقرأها ، لأنه لم يكن قارئاً ، انه من عند الله العزيز الحكيم علام الغيوب ، وبذلك كان القصص الصادق من التحدى •

التصريف البيانى فى قصص القرآن :

ذكر الله تعالى الحقائق الاسلامية فى القصص ، فلم يكن عبرة فقط ، بل كان

---

(١) القصص : ٤٤ — ٤٦ (٢) النحل : ١٠٣

(٣) العنكبوت : ٤٨

بياناً لحقائق الاسلام ، فتجد فيه بياناً لعقيدة التوحيد ، والبرهان عليها جاء فى سياق القصص عن النبيين السابقين . فقد رأيت فى قصص سيدنا ابراهيم عليه السلام ، كيف كانت الدعوة الى التوحيد ، وكيف أبطل عبادة الأوثان بأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنه جعلها جذاذاً الا كبيراً لهم . وأنهم أرادوا عقوبته بالحرق بالنار ، فجعلها الله تعالى برداً وسلاماً على ابراهيم .

واقرأ بعض القصص عن سيدنا نوح الأب الثانى للبشر ، تر الأدلة على التوحيد بأن تجد فى بعضها أدلة التوحيد تساق الضالين ، ويوجه أنظارهم الى الكون وما فيه، فقد قال تعالى :

« قال يا قوم انى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه ، وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم الى أجل مسمى ، ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ، قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم دعائى الا فراراً ، وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً . ثم انى دعوتهم جهاراً ثم أنى أعلنت لهم وأسررت لهم أسرارا ، فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلا فجاجاً » (١) .

ألم تر فى هذه النصوص السامية تسلية واضحة للنبى صلى الله عليه وسلم ، اذ فيها بيان ما لقيه نوح ، وكيف كانت الأدلة القاطعة لا تزيدهم الا نفوراً من الحق وفراراً من اتباعه ، واصراراً على الباطل ، وفى كل ذلك عزاء للنبى صلى الله عليه وسلم لئلا تذهب نفسه حسرات على كفر الكافرين وجحودهم بعد الأدلة القاطعة .

ومع هذا العزاء الروحي ، والعبرة التي تريح الدعاة الى الحق ، نجد فى السياق

(١) نوح : ٢ — ٢٠

البرهنة على التوحيد ، وأن الله تعالى وحده هو الخالق ، وأنه بالتالى المستحق للعبادة وحده ، فلا معبود سواه .

وسوق الأدلة على التوحيد فى سياق قصة ، يجعله يسرى الى النفس من غير مقاومة ، وتكراره يجعله يخط فى النفس خطوطاً ، وتتعمق الخطوط فيكون الايمان.

وانك لترى الدعوة الى التوحيد واضحة فى قصة يوسف عليه السلام ، فهو فى السجن يدعو الى التوحيد وعبادة الله وحده ، ويجعل سلواه ، وهو فى السجن الدعوة الى الوحدانية ، وسوق الأدلة ، فالله تعالى يحكى عنه أنه يقول لصاحبه فى السجن : « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ، ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) .

انظر الى الاستدلال القيم على أن الواحد الأحد ، خير من أرباب متفرقين ، يتيه العقل فيهم ، وأنهم لا حقائق لهم تتعلق بالألوهية ثم يذكر ذلك عقب أن بين تأويل ما عجز عنه المؤلون من رؤى ، وقال انه قد علمه ربه .

ثم انظر الى هذا القصص وذكر التوحيد يجىء فى أثنـــاء السجن بسبب فرية نسائية افترينها عليه ، ويجىء فى وسط قصة نسوة المدينة ، انه يكون طريفاً ، فيكون له تأثير أقوى وأشد .

٨٤ — وليس القصص القرآنى فيه اثبات أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وبطلان عبادة الأوثان التى هى أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، بل فيها اثبات الوحدانية أمام الذين يدعون ألوهية المسيح عليه السلام.

---

(١) يوسف : ٣٧ — ٤٠

واقرأ قصة عيسى عليه السلام ، فان فيها الدليل على أنه ليس الا عبداً لله تعالى ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : « ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الارض ، وكفى بالله وكيلا ، لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً » (١) .

ونرى من هذا أن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ، واثبات بطلان أن الله تعالى ثالث ثلاثة ، وساق الدليل ، وهو أن الله تعالى خالق كل شىء وله كل ما فى السموات والأرض ، وصلة كل مخلوق كمثيله وان اختلف طريق غيره فصلة المسيح عليه السلام بالله من حيث الخلق والتكوين كصلته بأى مخلوق سواه ، ولا يؤثر فى هذه الصلة التكوينية أنه عبد ممتاز ، وأنه رسول من رب العالمين ، وان كانت طريقة تكوينه أنه وجد من غير أب ، فان ذلك لا يجعله الها أو ابن اله ، كما قال تعالى فى مقام آخر فيه اشارة الى قصة عيسى ، اذ قال الله تعالى « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون (٢) » .

وأقرأ قصة أخرى لسيدنا عيسى عليه السلام ، فقد قال الله تعالى : « وحسبوا الا تكون فتنة فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون ، لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم الا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم

---

(١) النساء : ١٧١ — ١٧٢

(٢) آل عمران : ٥٩

الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعا، والله هو السميع العليم » (١) .

وهنا نجد الرد على من يجعلون المسيح الها،لقد نفى الدعوى من أصلها اذ بين أن المسيح الأمين لم يدعها ، ولا يمكن أن يدعيها فقد كان هو داعيا الى التوحيد ، نافيا للشرك بربوبية الله ، وأنه كسائر الناس مخلوق وأن الله ربه كما هو رب الناس جميعا ، وبين سبحانه بطلان دعوى الألوهية له ولأمه بأنهما محتاجان ، ويأكلان الطعام كسائر الناس ، والله تعالى غنى لا يحتاج ، وليست له صفة الحوادث من طعام وغذاء ، وبين ثالثاً أنه لا يضر ولا ينفع الا باذن من الله تعالى خالقه من غير أب ، وانه من بعد ذلك عبد لا يستنكف ولا يستكبر .

ونرى أن نفى التثليث واثبات بطلانه بالدليل ، جاء فى ضمن قصة ، فكان تصريفاً فى الاستدلال ، اذ أن سوق الدليل فى ضمن قصة يجعله أكثر سريانا فى النفس ، وانسيابا فى أطوائها .

الحث على المعاملة الطيبة فى القصص :

٨٥ ـ وأنه مما جاء فى القصص أن دعوة النبيين عليهم الصلاة وأتم السلام جاءت للخير الى حسن التعامل ، واصلاح الأرض ، وأن اصلاح الأعمال والنفوس ومنع الفساد فى الأرض من أعظم المقاصد فى الشرائع السماوية بعد عبادة الله تعالى، والايمان باليوم الآخر ، واذا كان ذلك فى ضمن قصة استمكنت فى النفس واتجهت الى مداخلها من غير تعويق من ملاحاة جديدة ، غير ما كان فى عهد النبى الذى ذكرته القصة .

اقرأ قصة شعيب عليه السلام ، فقد قال تعالى « والى مدين أخاهم شعيبا ، قال:ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره،قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها، ذلكم خير لكم أن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن

---

(١) المائدة : ٧١ ـ ٧٦

سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين • وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به ، وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » (١) •

أما ترى فى هذا النص القرآنى الذى تتضمنه قصة شعيب عليه السلام دعوة صريحة الى ناحية عملية ، تتصل بالاصلاح الاجتماعى ، ومنع الفساد فى الأرض ، والقيام بحق الأمانة فى التعامل •

وفى موضع آخر من قصة شعيب نجده يكرر الدعوة ، ثم يبين سبحانه كيف تقاوم دعوة الحق بالاصرار على الشر ، وكيف كان الاصرار عليه الى أن يديل الله تعالى بما ينزل بالعصاة ، وبما يؤدى الى فساد أخلاق الأمة ، لقد قال الله تعالى حكاية لقول شعيب : « قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ، ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ، قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسنا ، وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » (٢) •

ونرى من هذه المجاوبة أنهم يصرون على ماهم عليه ، ويعدون ارشادهم الى الحق فى المعاملة ، تدخلا فى شئونهم المالية ، وكأنهم يظنون أن شئون المال لا صلة له بالتدين ، كما يجرى على ألسنة بعض الذين لا يريدون بالدين الحق وقارا ، ويبين سيدنا شعيب عليه السلام أنه اذ ينهاهم ، هو أول من يتمسك بألا يفعل ما نهى عنه ، اذ يقول عليه السلام : « وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه » وفى ذلك اشارة الى أن من يدعو الى أمر يهدمه ان خالفه فى عمله ، وأن الاستجابة الى الداعى الى الخير تقتضى أن يكون الداعى مستجيبا له وهكذا ، فان الله تعالى يأخذ

---

(١) الاعراف : ٨٥ ــ ٨٧ (٢) هود : ٨٤ ــ ٨٨

على بنى اسرائيل ، أنهم يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، فقد قال تعالى «أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون»(١).

ميزان العدالة فى الحكم :

٨٦ — ويبين الله سبحانه وتعالى بطريق القصص القرآنى — لأنه من تصريف البيان ، كما أشرنا — أن مقياس الحكم العادل ادراك الحق ، وألا يجعل القاضى أو الحاكم للهوى سلطاناً فى الحكم . فان كان الهوى كان الشطط فى الحكم ، ومظنة الوقوع فى الظلم ، وان كان الحاكم لا بد أن يكون مدركا للحق فلا بد من عنصر العلم ، وابعاد الهوى .

واقرأ قصة داوود عليه السلام الذى أعطاه الله الملك والحكمة ، فاقرأ العبارات السامية التالية :

« وهل أتاك نبأ الخصم ، اذ تسوروا المحراب ، اذ دخلوا على داوود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا الى سواء الصراط ، ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيراً من الخلطاء ، ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ، وظن داوود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعاً وأناب، فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ، يا داوود انا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » (٢).

هنا نجد القصة عن نبى الله داود عليه السلام تتضمن ثلاثة أمور فى التنبيه على كل واحدة منها تنبيه الى أمثل الطرق للوصول الى العدل فى الأحكام .

أولها : أنه سبق الى الحكم من غير أن يستمع الى كلام الخصم ، فقضى لأحد

---

(١) البقرة : ٤٤ (٢) ص : ٢١ — ٢٦

الخصمين ، قبل أن يستمع الى كلام الآخر ، فان ذلك مدرجة الظلم ، بل قد يكون ظلماً .

ثانيها : أنه لم يكتف بالحكم فى القضية المعروضة ، بل عمم الحكم ، والقضاء يكون فى القضية المدروسة ، ولا يتجاوزها .

الأمر الثالث ، وهو يفصل التفرقة بين الحكم الظالم والحكم العادل ، أن الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة وأما الحكم الظالم فانه يكون تحت سلطان الهوى والشهوة وان الملوك والحكام المستبدين يكون مصدر شرهم أهواؤهم ، فهم يتبعون أهواءهم فيما يحكمون به ، وما ينزلونه بالناس ، فهم يسنون النظم تبعاً لأهوائهم ، ويطبقونها تبعا لأهوائهم ويجعلون شيعتهم تسارع الى تنفيذ أهوائهم، ولا يفهمون المصلحة الا تابعة لأهوائهم ، فاذا نهى الله تعالى نبيه داود عن اتباع الهوى وهو خليفة حاكم ، فانما نهاه عما يؤدى الى فساد الحكم ، وبهذا يتبين أن حكم الهوى كان مصدر فساد الحكم فى الماضى ، كما هو مصدر الفساد فى كل الأزمان ، وذكر ذلك فى قصة من قصص القرآن يزيد المبدأ تبيينا وتأكيداً ، وقد بينا أن ذكر أى أمر فى قصة يجعله يسرى فى النفوس . ويدخل الى الضمائر ان كان فيها استعداد للحق .

ولا شك أن هذا كله يدل على أن القرآن يصرف فيه سبحانه البيان تصريفاً ليكون أقرب الى التأثير والدفع الى العمل ، وليس ذكر القصص للعبرة فقط ، بل هو مرشد وهاد مع ذلك الى أقوم السبيل ، والله أعلم .

بيان بعض الأحكام بالقصص القرآنى :

٨٧ — من صور التصريف البيانى بالقصص القرآنى بيان ببعض الأحكام الشرعية ، فان ذلك يثبت هذه الأحكام ويدعمها ، لأنها تكون أحكاماً متفقاً عليها فى كل الشرائع السماوية ، وبيان أنها غير قابلة للنسخ ، وأنها مؤكدة ثابتة . وفى القصة تكون حكمة شرعيتها قائمة والغاية منها ثابتة ، ولنذكر من ذلك قصة قابيل وهابيل ولدى آدم .

فقد قال الله تعالى فيها : « وأتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تبوء باثمى واثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ، ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ، فأصبح من النادمين (١) » .

هذه القصة تثبت أن الغيرة والحسد يؤديان الى الاعتداء ، وأن ذلك يحدث بين أقرب الناس بعضهم لبعض ، وأنه لا علاج للحسد باخراجه من النفوس ، فهو فيها دفين ، نعم انه مرض ، ولكنه مرض لايمكن أن يكون منه شفاء ، والناس ليسوا سواء فمنهم شقى وسعيد .

واذا كان الأمر كذلك فلا علاج الا ببتر من استكن فى قلبه ان تعدى استجابة له ، والاعتبار فى النظم لصلاح الجماعة ، لا لصلاح الآحاد فقط ، ولذلك قال الله تعالى عقب ذكر قصة ولدى آدم :

« من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون(٢)» .

وانا لنرى هذا القصص المحكم قد ارتبط فيه الحكم بسببه ، فهو فى جزء من القصص ذكر سبحانه ما كان بين الأخ وأخيه من محاربته فطرة الأخوة الرابطة ، وأنه حمل نفسه حملا على ارتكاب جريمته ، اذ هى مخالفة للطبائع السليمة ، ولذلك قال سبحانه وتعالى « فطوعت له نفسه » حتى اذا تمت الجريمة رأى بشاعتها فى جثة أخيه ، فأراد أن يواريه فضل ، حتى رأى غراباً يبحث فى الأرض ليوارى جثة غراب مثله ، وعندئذ بدا له جهله ، وندم اذ رأى غرابا هو أحن على أخيه منه، وهو أعلم كيف يوارى سوءة أخيه .

---

(١) المائدة : ٢٧ — ٣١ (٢) المائدة ٣٢

وما كانت أمور الناس لتترك فوضى ، يجرم من يجرم ثم يندم ، فكانت شرعية القصاص ، لأن الاعتداء بالقتل اعتداء على حق الحياة فى كل انسان ، ومن قتل نفساً بغير حق فهو على استعداد لقتل غيرها ففى عمله تعريض النفوس الانسانية لاعتداء المعتدين المفسدين ، ومن أحياها بالقصاص من القاتل ، فكأنما احيا الناس أجمعين ، كما قال تعالى : « ولكم فى القصاص حياة (١) » .

وان هذا يدل على أن شريعة القصاص شريعة أزلية خالدة باقية ، وأنها كانت فى الشرائع السابقة ، ولم تخل شريعة من شرائع النبيين الكرام منها ، ولقد ذكرت بحكمتها ، ونتيجتها ، وهى احياء للأمة واهمالها أهانة لها .

ولا شك أن ذلك تصريف بيانى قرآنى فى بيان الأحكام .

وقد جاءت الأحكام أكثر تفصيلا فى بيان القصاص فى الأطراف مع النفس فى قصص عن بنى اسرائيل ، والتوراة وما جاء فيها . ولنتل على القارىء الكريم ما جاء فى ذلك ، وان كنا سنتلوا أكثر مما تلونا من الماضى ولقد قال الله تعالى فى وصف بعض بنى اسرائيل فى عصر النبى صلى الله عليه تعالى وسلم الذين أرادوا أن ينفروا من حكم التوراة فى مجرم ارتكب جريمة لاجئين الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حاسبين أن عنده حكما أخف من حكم التوراة ، لهوى فى نفوسهم . قال تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت، فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين ، وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالاذن ، والسن بالسن،

(١) البقرة : ٢٧٩

والجروح قصاص ، فمن تصدق به ، فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ، وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فأحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً . فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وان كثيراً من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (١) » .

وترى من هذا النص الكريم بياناً للأحكام الشرعية الخاصة بالقصاص فى تفصيل محكم مستقر مقنع ، فهو يجعل القصاص فى الأطراف ، كما هو ثابت فى النفس ، بل انه يثبت القصاص فى الجروح ، ويوثق الأحكام بأنها نفذت فى الانجيل ، اذ جاء الانجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ويوثقها بأن القرآن مصدق لما جاء فى التوراة ، ولكن له هيمنة ، وسلطان ، يبقى ما يبقى ، وينسخ ما ينسخ ، وما يثبت أنه نسخ من أحكامها ، فهو منسوخ ، لأن له الهيمنة الكاملة.

وفى القصاص الشريعة باقية . وفى التوراة كما هو فى القرآن جواز العفو عن القصاص ، اذ يقول سبحانه فمن تصدق به ، فهو كفارة له . والقصاص ثبت بالقرآن ، فالله تعالى يقول :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف ، وأداء اليه باحسان

(١) المائدة: ٤٢ — ٥٠

ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عــذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » (١) .

وهكذا نجد ذكر الأحكام الثابتة التى لم يعترها تغيير ونسخ بطريق القصص نوع من تصريف البيان وتثبيت الأحكام .

أسلوب القصص فى القرآن

٨٨ — قد ذكرنا فى القول السابق ما يختص به أسلوب القرآن من صور بيانية فى ألفاظه فكل لفظ يعطى صورة بيانية ، يناسب المقام الذى ذكر فيه ، ويتجمع من الأسلوب صــورة بيانية تكون الصور اللفظية أجزاء فيها ، وان كان لها صفــة الاستقلال ، ومن المجموع تتكون صور تصور المعانى ويكون لها أطياف فى اجتماعها وانفرادها .

وذلك ثابت فى أسلوب القصص ، كما هو ثابت فى كل أساليب القرآن الكريم من غير تخصيص فيها ، بل كلها درجة واحدة يعجز البشر عن أن يصلوا اليها ، فكل لفظ له اشعاع نورانى يشع منه ، وكل جملة ينبثق منها النور الالهى الذى تنطفىء بجواره كل الأنوار .

ومع هذا فالقصص القرآنى باعتباره قصصاً فيه أخبار عن أمم ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم وأشخاص يعاندونهم وان القصص يمتاز مع الصور البيانية التى تنبعث من الكلام مجرداً ، وصور أخرى تصور الأشخاص والوقائع والمشاهد فاذا ذكرت حال شخص صور تصويراً واضحاً كأنك تراه وتشاهده ، والعبارات تصور حاله من خوف ، أو حنان ، أو انزعاج أو جحود ، وكأن المعانى صور واضحة فى الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصوراً متحركا يصور الشخص فى مشهد من مشاهد الذعر ، ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية والأساليب فى تصويرها .

ولنذكر فى ذلك بعض ما تلونا من قبل ، لنعيد تلاوة حال أم موسى ، وقد ولدت

---

(١) البقرة : ١٧٨ — ١٧٩

ولدها ، وهى تعلم أن فرعون يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، وتخطرها الفطرة الملهمة التى كانت بمثابة وحى أو هى وحى لها أن تلقى ولدها فى اليم ، لأنها خير لها أنه يلقى لقدر الله تعالى وقضائه من أن يذبح بين يديها ، وهذا ما نعيد تلاوته، وما أطيب القرآن فى اعادة تلاوته « وأوحينـــا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه ، فألقيه فى أليم ، ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليـــك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وهم لا يشعرون ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كانت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب ، وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون » (١) •

ان القصة ترينا صورة أم مضطربة منزعجة خائفة لما أثقلت ألقت حملها ، فاذا اثقال جديد ، انها تريد نجاته ، فيعلوها الاضطراب والخوف والفزع ، واذ الالهام يجيئها بالقائه باليم مع اثلاج قلبها بألا تخاف ، وألا تحزن ، ومن الله تعالى عليها بالاطمئنان بأنه سيعود اليها ، وهكذا يكون الاطمئنان فى موطن الخوف ، والقرار فى موطن الاضطراب ، والسكون فى موطن الهلع ، يغيب عنها فلذة كبدها فيفرغ قلبها ، ويغلب الفزع على الاطمئنان وهى تغالب حال الفزع بحال الاطمئنان الى أن وعد الله تعالى بالاطمئنان ويصطرع الأمران فى نفسها ، يغلب الالهام فتطمئن ، ويغلب الفزع القلبى فتكاد تبـــدى أمرها ، وتظهر سرها ، ولو علم به أعـــداؤه وأعداؤها أعداء الله تعالى ، ولكن الله تعالى يربط على قلبها بالصبر وهى تصـــبر ولكنها لا تسكن بل تتحرك بعمل ، فترسل أخته لتتقصى أخباره ، وتتعرف أحواله فترى المعجزة الكبرى ، اذ يمتنع عن المراضع ، حتى يعود الى أمه وتأخذه أخته الى الأم التى تضطرب بين اليأس والرجاء ، بين الأمل الباسم والحرمان الدائم •

أقرأ النص القرآنى ، وتراه مصورا لحال تلك الأم الرءوم ، فهل تجد مصورا

---

(١) القصص : ٧ — ١٢

متحركا أو واقفاً يستطيع تصوير هذه الحال ، ولكنه القصص القرآنى المصور الذى نزل من عند الله تعالى .

٨٩ — ولنعد الى قصة موسى وقد تربى فى قصر فرعون ، حيث الترف والبطر ، وفى جو الغطرسة والسلطان ومن يدعى لنفسه الألوهية ، فهل شعر موسى بما يشعر به المترفون المسرفون ، الذين يستعبدون الناس ولكنه فى الوقت ذاته كان يعيش فى أحضان قومه ، حيث كان على كثب ممن يقتل فرعون أبناءهم ، ويستحيى نساءهم فهو البعيد عنهم بحسه القريب منهم بنفسه ، يعيش معهم ، وان جفاهم فى المسكن والاقامة ، ولذلك كان القريب فى قصر فرعون المستأنس بمن يؤويهم فرعون ، فيعيش معهم .

ولقد بدا ذلك على أكمله يوم أن بلغ رشده ، واستطاع أن يخرج من محبس فرعون فى النعيم ، ويلاقى الحياة التى يلاقيها قومه ، ولقد قص الله سبحانه وتعالى قصصه بعد أن بلغ رشده ، وصار رجلا سوياً ، فى أسلوب ينم على الرغبة فى الجهاد وتحمل شدائد الحياة ، فيقول سبحانه فى أحسن قصص مصور « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » (١) .

خرج موسى من المحبس ، ودخل المدينة ، وأهلها لا يتوقعون أن يخرج رجل فى ظل القصر ، الى حيث الشعب ، ينازل من ينازل ويسالم من يسالم الى حيث الحياة اللاغبة العاملة ، فكان ذلك مفاجأة ، عبر عنها القرآن بقوله على حين غفلة من أهلها ، خرج ونفسه مملوءة غيظا على الذين كانوا أداة فى يد فرعون يسوم بهم الناس عذابا ، فوجد مصريا يقتل واحداً من شيعته فسارع اليه زعمه أنه اليهودى يعتدى عليه ، فاندفع فقتل المصرى . ولكنه وقد استرجع ضميره الذى كان فى غفوة بسبب العداوة المستحكمة بين العنصرين ، وبسبب ما رأى من فرعون ومن معه من جند وأشياع ، وأهل مصر صامتون كدأبهم عندما يرون ظلماً عنيفاً

---

(١) القصص : ١٤ — ١٥

صارخاً يقفون كالنظارة ، لا يتحركون لظلم واقع ، ولا لهم مستحكم مانع •

وتكررت المأساة بين اليهودى الذى استنصره بالأمس ومصرى آخــر فيقوى صوت الضمير على استغاثة اليهودى ، ويعلم أنه فرعونى ضال كثير الشكاس ، وأن المصرى مظلوم فى معاملته ، ولكنه مع ذلك تغالبه فى نفسه مشاعر ، فيهم بأن يبطش بالذى هو عدو لهما • وعندئذ نطق المصرى لائما ، مذكراً بأنه يريد أن يكون جباراً فى الأرض ، وما يريد أن يكون من المصلحين الذين يعملون على الاصلاح بين المتخاصمين من غير اضافة اعتداء الى اعتداء ، ويقول له فى عتب لائم « ان تريد الا أن تكون جباراً فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين » (١) •

وموسى فى نفس حائرة بين عز الدنيا وقد تركه وراء ظهره ، وجعل نداءه دبر أذنه ، وبين الحق والعدل والاخلاص وهو الى الثانى يميل ، ومن الأول ينفر ، وبينا هو على هذه الحال يتردد بين ماض مريح ، وجديد يريد أن يخوض فى شدائده ، ليعيش كما يعيش قومه ، فيشاركهم فى ضرائهم ، واذا النذير ينذره : « وجــاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج انى لك من الناصحين (٢) » قضى الأمــر ، وانتهت الحيرة ، واستقبل الحيــاة الجديدة بلأوائها وجهاً لوجه ، ولنترك القول لكتاب الله تعالى يذكر لنا حاله من بعد ذلك الانذار • اذ نجد التصوير الذى تعجز عنــه كل أدوات التصــوير الساكن والمتحرك ، وهو يصور موسى قد أحس بخطر قوم فرعون ، وفرعون ، وآل مصر، يترقبونه ، فالله يقول فى كلام مصور للأرواح والأشباح : « فخرج منها خائفــاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم أمرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصــدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى الى الظل ، فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير » (٣) •

---

(١) القصص : ١٩   (٢) القصص : ٢٠

(٣) القصص : ٢١ — ٢٤

تصوير للحيرة • فربيب النعمة خائف يترقب المتتبع ، والمترصد ، ويتوجه من ريف مصر وخضرته الى لفح الصحراء وجدبها ثم هو يحس بالحاجة ، وهو الذى كان يتناول ويرمى ، واذ لفحته الشمس آوى الى الظل ، لا يرجو الا الله ويعلم أن الله تعالى لا يتخلى عنه •

وانى مهما أحاول من تصوير للقصة بعبارتى ، فلن نصل الى ما يقع فى نفس القارىء اذا تلاها مجرد من غير تعليق عليها ، انها تصور ربيب النعمة فى صورة كأنها المرئية ، وكأنها مشاهدة محسوسة ، وليس أخباراً مكتوبة أو متلوة •

انه حائر ، فيفاجأ باحدى المرأتين تأتيه تمشى على استحياء ، وهى تدعوه الى أبيها ليجزيه أجر ما سقى لهما ، ويذهب الشاب القوى الى الشيخ الضعيف ، وهنا يرى الشجرة الوارفة ، فى وسط الصحراء ، ويجد الحياة الزوجية ، وراحة الحياة بعد شقائها ، ويذوق طعم الدنيا ، ولم يكن فى بيت فرعون يذوقها ، ذلك أن النعيم معنى نسبى لا يذوقه الا من ذاق الألم فى هذه الدنيا ، والنعيم من غير ألم يرنقه يكون راحة عفنة ، فموسى عليه السلام ، بعد أن نال عيشه بالكد واللغوب ، وعاش بين الرجاء والخوف أحس بطعم الحياة ومعناها ، وتأهب للرسالة ، لأن الرسالة لا تكون الا لمن اصطفاهم الله تعالى ممن ذاقوا طعم الحاجة وعزة الحق ، ولم يترفوا بالنعيم ، وكذلك أمر النبيين والصديقين ، وكذلك كان تاريخ كل الأنبياء ، وخصوصاً أولى العزم من الرسل •

هذا وانا نطالب القارىء أن يقرأ أى جزء من قصة موسى فانك تراه مصوراً للموقف الذى يعرض له أبدع تصوير ، وكأنك تشاهد ، ولا تسمع وتتلو ، وانه لهو القصص الحق •

٩٠ — وانك اذا قرأت مجادلة المشركين مع نبى من الأنبياء ، كنوح وابراهيم وعيسى • وشعيب وهود ، تحس بأنك تشاهد مشهداً مرئياً ، لأنك تستمع الى كلام متلو ، فتنتقل أنت وعقلك وجوارحك كلها الى هذا المشهد الكريم الذى يصور

عقليـــة الذين يجادلون ، وما يبذله الرسول ، وما يتحمله فى سبيـــل اقناعهم ، او الزامهم كلمة التقوى ، ولا يريدونها ، اقرأ مجادلة نوح عليه السلام لقومه ، وهم يجادلون فى الله ، ونوح يريد أن يهديهم بأمر الله تعالى ، واتل قوله تعالى « ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه انى لكم نذير مبين ، ألا تعبدوا الا الله ، انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده ، فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قـــوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوماً تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفلا تذكرون ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذا لمن الظالمين، قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال انما يأتيكم به الله ان شاء ، وما أنتم بمعجزين (١) » .

هذا مشهد من مشاهد القول تجد فيه مناقشة قوية بين دعوة الحق ، وجحود أهل الباطل ، وتراه كأنه مصور أمام البصيرة وترى فيه صاحب الحق يدلى بالبينات والحق وحده أبلج ، وترى فيه أهل الباطل يتخذون من الحس دليلا على الحق ، وحسهم كاذب ، فيستدلون على أن الدعوة ليست دعوة حق بأن أتباعها الفقراء الأرذلون فى أعينهم الذين يزدرونهم والنبى عليه السلام يجادلهم بالتى هى أحسن وهو يسوق البينات ، ولكنهم يتبرمون بدعوة الحق .

ولا شك أن العبارات لا تدل على المعانى المقصودة فقط ، بل وضعت الألفاظ ومعانيها ، وأطيافها فى بيان مصور يسكن به الخيال والنفس ، كأنه واقع محسوس، لاقصص متلو فقط .

وبعد ذلك بين الله تعالى لنوح أنهم لا يؤمنون ، ولم يبق الا انزال العقاب بهم،

---

(١) هود : ٢٥ — ٣٣

وأقرأ صورة العقاب تراه قصصاً مجرداً ، ولكنه مشهد واضح بين يصل الى درجة المرئى للقارىء المتنبه ، اقرأ قوله تعالى :

« وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ، ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال : ان تسخروا منا ، فانا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى اذا جاء أمرنا ، وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم، وحالَ بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى، وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقالَ رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح انه ليس منَ أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم أنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ، قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم »(١) .

ذلك هو بعض قصص نوح عليه السلام من وقت أن يئس من ايمانهم وأخبره ربه العليم الحكيم أنه بلغ الحجة وحقق الرسالة ، وأنه لن يؤمن أحد من قومه لم يكن قد آمن . وأن العقاب نازل لا محالة ، وترى كل نص من نصوص هذا الجزء من القصة مصوراً بيانياً لما أنزله تعالى ، فترى جزءاً يصور كيف أخذ نوح يبنى سفينته ، والقوم ينظرون اليه ساخرين غير عالمين بالعاقبة التى تنتظرهم ، والغاية التى قدرها الله تعالى من هذا البناء والخيال يرى الصورة من وراء العبارات كأنها

(١) هود : ٣٦ — ٤٨

بين يديه حقيقة بالعيان ، وليس خبراً من الأخبار ، وان كان يذكر فى أعلى صور القصص المصور ، ثم ترى الايذان بالابتعاد عن موطن الغرق ، وقد فار التنور ، وانى قد أدرك من هذا أنها كانت تسير بالبخار اذ فار التنور فتحركت بعد أن فار ، والله تعالى أعلم بمراده ، وان كان اللفظ دالا ، بل هو مصور لتنور فار فحرك ببخاره ماحرك من آلات تسير السفينة ، وتجرى بهم فى موج كالجبال والقارىء يرى فى هذا صوراً تثير الخيال ، وتجعل الخبر مرئياً أو كالمرئى ، وان ذكر الموج فى هذا المقام يصور كيف كان السيل عارماً ، وأنه لم يكن غيثاً حتى لم يبق الا من خرج بالسفينة نجيا .

ثم نجد فى ذلك القصص أمراً معنوياً مصوراً كأنه ملموس ، وهو حنان الأب، ورفقه بولده ، فقد رأينا فى النبى المجاهد عاطفة الأبوة تعلو ، فينادى ابنه وكأننا نسمع النداء فى مشهد من مشاهد الأبوة ، ثم نجد الابن ، وقد غره غرور الصبا ، والابتعاد عن التصديق ، حتى حسب أنه بمنجاة من الغرق اذ اعتصم بجبل آوى اليه ، وحال بينه وبين أبيه الموج ، فكان من المغرقين ، والأب تنفطر نفسه ، فتغلبه شفقة الأبوة عن رؤية أمارات الموت ، ويتجه الى ربه باكياً حزيناً اذ نجا أهله الا ابنه ، فيقول ، وكأننا من فرط التصوير نسمع أنين الأب ، بعد أن نجا كل من فى السفينة ، وقد استوت فى طريقها وهلك الظالمون ، يضرع الى ربه يقول ان ابنى من أهلى ، وكان قد وعده ربه بأن ينجى أهله ، فيقول ان وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، وهنا نجد رب العالمين يبين أنه داخل فى عموم الكافرين ، لأنه كفر ، وأهلك هم الذين آمنوا ، ولم يعارضوك . ويقول سبحانه : « انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس به علم ، انى أعظك أن تكون من الجاهلين» .

تعارض العطف مع الواجب ، فتحت قوة العاطفة الأبوية نطق بما نطق فنبهه الله تعالى الى الواجب ، ولم ينبه غافلا ، ولكنه نبه يقظاً مؤمناً ضارعا وان كان قد ناجى ربه بصوت البشرية ، فتاب ، وقال « رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين .

القصص الدق المصور فى أهل الـكهف :

٩١ — ومن أروع القصص القرآنى المصور فى صدقه ، وسرد حقائقه قصة أهل الكهف التى هى آية وحدها فى التصوير البيانى القصصى الصادق ، وهى فى كل جزئيه تصور الأمر كأنه مرئى بالحس ، لا مذكور بالخبر وحده واقرأ قوله تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، اذ أوى الفتية الى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الهاً ، لقد قلنا اذا شططا ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهدى الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعبا ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً ، فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً ، انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم ، أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذاً أبدا ، وكذلك أعثرنا عليهم ، ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ، اذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم الا قليل ، فلا تمار فيهم الا مراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم

منهم أحداً ، ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت ، وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا ، ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً » •

هذه قصة أهل الكهف ، والرقيم ، وهو الحجر الذى رقم عليه أنه رمز لمأواهم ليكونوا عبرة ، وليكونوا دليلا ناطقاً ، على الايمــان بالبعث والنشور وان الذين يجحدون بهما يرونهما عيانا فيهم ، اذ بعثهم الله سبحانه وتعالى، وقد حسبوا أنهم مضى عليهم يوم أو بعض يوم •

والقصة الكريمة كما ذكرها القرآن الكريم فى قصصه الحق لها مشاهد تذكر كأنها ترى ، وكأن الانسان يعاين وقائعها ، فى أسلوب قرآنى قصصى تؤخذ منه مغزى القصة فى غير التباس ، ولا ارتياب •

المشهد الأول : اراء فتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله تعالى هدى ، وقد فروا من الوثنية الى الوحدانية ، ومن الوثنيين الى جوار ربهم ، وقد ربط الله على قلوبهم فاستمسكوا بايمانهم ، واعتصموا بربهم ، وكان الايمان قد سكن وعاء القلوب ، فربط الله تعالى بالصبر حتى لا يخرج من وعائه الذى استقر فيه ، واطمأن ، فلا يتشعع أمام أى حادث وان الايمان اذ سكن ، واطمأنوا كانت رحمة الله تعالى أن ضرب على آذانهم بمعنى أنه خيم عليها ، فأصبحت لا تسمع لغو الحديث ، وانهم اذا آوا الى الكهف قطعهم الله تعالى عن لغو الوثنية وظلم أهلهــا ، فاجتمــع لهم الانزواء عن الناس ، والبعد عنهم بالحس ، فلا يرون الناس ، ولا يسمعون عنهم، وساروا فى غيبوبة كأنهم الموتى ، وليسوا أمواتاً ، وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ، وكل ذلك فى تصوير قصصى كأن التالى للقرآن يراهم ، وهم يهرعون الى الكهف يأوون راجين الرحمة والرشاد ، مبتعدين عن الآثام ، وما فى الدنيا ، وقد زادهم الله تعالى ، فجعلهم رقوداً ، وهنا نجد الصورة واضحة أن ناساً يظن أنهم أيقاظ ، وهم رقود ، وقد بقوا على ذاك سنين عددا تجاوزت ثلاثمائة •

والمشهد الثانى : بعثهم ، وقد اختلف الناس فى أمر المدة التى استمروها فى الكهف ، وقد مرت الأجيال ، وهم يحسبون أنهم أيقاظ ، فقد استمروا كما ذكر فى القرآن الكريم ثلاثمائة سنة وزادوا تسعاً .

ويجىء بعد البعث الكلام فى المدة التى مكثوها ، والسبب فى اختيار مأواهم ، فقص الله خبرهم بالحق تفصيلا بعد أن ذكره اجمالا ، لقد قاموا من سباتهم ، وهم يرددون ايمانهم بالله تعالى ، واعتراضهم على أقوامهم ، ويحكون ما كان منهم مع أقوامهم « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين » وأن قومهم اعتزلوهم ، وهم لا يعبدون الا الله تعالى ، ونرى الصورة القصصية واضحة بينة ، هادية مرشدة تصور الملاحاة بينهم وبين أقوامهم، حتى اعتزلوهم معتصمين بربهم ، مؤمنين به ، وهذا المشهد كل أجزائه واضحة، حتى انه يصور الكهف ومن فيه وخرجوا منه فى مشهد واضح بين ، هو كالعيان بتصوير القرآن الكريم .

والمشهد الثالث : منظرهم وهم رقود ، وحال الكهف ، وصورته ، فهم فى فجوة منه ، يتجهون فيه الى الشمال والشمس تخرج لهم من الشرق يميناً ، وتودع الكون فى غربهم . فالشمس والهواء ، يحيطان بهم ، وذلك أصلح مكان ، اذ يستقبل الشمس فى غدوها طالعة ، وفى غروبها رائحة ، والهواء من البحر يجىء اليهم ، فينعشهم نسيمه العليل . فأسباب الحياة الطيبة قائمة ومهيأة لهم ، وهم رقود ، وان كان الرائى يحسبهم أيقاظاً ، والوصف القصصى مصور المكان كأن القارىء للقرآن يراه ، وهو يتلو كتاب الله تعالى .

وانهم فى هذه المنامة يتقلبون كالأيقاظ الأحياء بارادة الله تعالى وأمره الكونى « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » ولا يترك القرآن الكريم من الصورة المكانية شيئاً الا بينه ، وصوره ، فيذكرهم وكلبهم يحرسهم وهو بالوصيد ، وهو فجوة بالجبل الذى فيه الكهف ، فالتصوير القصصى كامل يرى فيه القارىء صورة للمكان ، وكأنها مصورة بصورة باهرة ، وليست كلاماً متلواً ، ولكنه كلام الله تعالى العزيز الحكيم .

وان المكان فيه رهبة ، وحالهم فيها هيبة ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعباً .

المشهد الرابع : الذى تصوره القصة ، وقصص القرآن كله حق لا ريب فيه ، وهو تيقظهم بعد الرقدة ، وحالهم ، وقد رأوا الحياة اللاغبة التى كانوا عنها غافلين ، وكانوا فيها راقدين ، وأول سؤال توجهوا به ، سألوا به أنفسهم ، كم لبثوا فى منامهم ، وقد سألهم هذا السؤال واحد منهم ، فقالوا كأنهم مجمعون لبثوا يوماً أو بعض يوم ، ولكنهم كشأنهم لم يتخبطوا ، ولعلهم ظنوا أن المدة أطول من ذلك ، ولذلك قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، وهنا تجدهم اتجهوا الى الحياة يطلبون رزقهم ، ومعهم نقود فضية قد ضربت منذ تسع وثلاثمائة سنة تكشف للناس عن أمرهم ، وكانوا ككل أهل الايمان أهل تسامح ، فقد طلبوا من مبعوثهم أن يتلطف ، وألا يشعر بهم أحداً ، حتى لا يكون منهم أذى ويظهر أنهم بهذه النقود عثر الناس على أمرهم ، وعرفوا حقيقتهم ، وكان الهام الله بذلك ليعرف الناس حقيقتهم وتكون حياتهم فى الكهف ورقدتهم فيه دليلا محسوساً على أن وعد الله تعالى بالقيامة حق ، ولذا قال سبحانه « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، اذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً » وهذه كلها مشاهد فى القصة تعاين فيه أحداثها فى قصص محكم .

التصريف فى صور العبارات القرآنية

٩٢ — من أدل شىء على بلوغ القرآن أعلى درجات البلاغة ، تصريف المعانى والألفاظ فى كل باب من أبواب القول ، وقد أشرنا الى ذلك فى أول كلامنا فى بيان تصريف الكلام القرآنى ، وتصريف القول يتناول الألفاظ ، وتصريف الألفاظ يتضمن لا محالة تصريف المعانى ، لأنه لا مرادف فى القرآن ، ولا يوجد لفظان يؤديان معنى واحداً ، من حيث الاحكام والدقة ، ولا يوجد أسلوب يؤدى معنى يؤديه الأسلوب الآخر ، وان كان يبدو بادى الرأي أن المعنيين يتحدان فى جوهر

المعنى ، ولكن عند التأمل فى الاشارات البيانية التى تشير اليها الألفاظ ، والتى تطيف حولها ، وتشع منها ، تجدها مختلفة ، وان كل تعبير فى العبارات القرآنية عن أخواتها فى مثل موضوعها يحدث تغييرا فى المرامى ، ولحن القول ، حتى الوقوف والفواصل تؤدى باختلاف نغمها مالا تؤديه مثيلاتها مما هو فى موضوعها ، وان النغمات القرآنية التى تتخالف أحيانا تكون كل نغمة فى مقامها تومىء بموسيقاها الى اشارة لا تومىء اليها نغمة أخرى لآية فى هذا الموضوع نفسه •

ولنضرب فى ذلك بعض الأمثال فى الاختلاف فى الأسلوب ، والموضوع واحد ، وتغير المعانى قوة ورفقاً • وكل فيما يناسبه •

الاستفهام والنفى :

٩٣ — لاشك أن النفى المجرد ، والنفى بطريق الاستفهام كلاهما يدل على أصل النفى • ولكن النفى بطريق الاستفهام أقوى دلالة فى معنى النفى ، لان النفى بالاستفهام فيه معنى أن المخاطب سبق الى النفى ، فكان النفى من القائل ، والاقرار به من المخاطب ، اقرأ قوله تعالى فى ادعاء المشركين أن الله تعالى حرم بعض الأطعمة ، فنفى الله سبحانه وتعالى ذلك بقوله : «قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؛ ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة ، فلوشاء لهداكم أجمعين ، قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فان شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون (١) ، ألا ترى أن هذا الاستفهام للنفى ، اذ المعنى الجملى « ماعندكم من علم بأن الله تعالى حرم عليكم ان أنتم ان الا تخرصون ؛ تتوهمون ماليس له حقيقة واقعا •

ولا شك أن المجىء بصورة استفهام فيه مزيتان احداهما تنبيه الى أنه كان يجب عليهم قبل أن يعتقدوا أن يتعرفوا الدليل الذى يسوغ لهم العلم حتى لا يقولوا على الله مالا يعلمون • والثانية — أن فى الاستفهام حملا لهم على

---

(١) الانعام : ١٤٨ — ١٥٠

أن يقروا بالنفى ، وفوق ذلك كله فان سياق الكلام فيه توبيخ لهم لأنهم بنوا عقائدهم على أمور باطلة ، لاأساس لها من حق ولا علم ، وان هـذا نوع من الاستفهام الذى يراد به النفى يعبر عنه علماء البلاغة بأنه استفهام انكارى ؛ لانكار وقوع موضع الانكار ، وهناك انكار يقال له انكار الواقع ، وهو يكون فى معنى التوبيخ على ماوقع على أنه لا أصل له .

اقرأ قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق (١) » . وهذا انكار لما وقع منهم ، وانكار الواقع توبيخ ، ذلك لأن المشركين كانوا يوجبون الطواف عراة ، وكانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، والله سبحانه وتعالى نفى ذلك التحريم الواقع منهم بهذه الصيغة « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » والنفى بصيغة هذا الاستفهام فيه مبالغة ، لأن فيه اشارة الى أنه لا يسوغ لعاقل أن يكون منه ذلك التحريم ، لأنه عمل غير معقول فى ذاته ، اذ المؤدى : لا أحد حرم زينة الله من لباس ساتر ، ولا أحد يحرم طيبات الرزق التى لاخبث فيها من حيث الحقيقة ، ولا من حيث المعنى ، مادام طريق الكسب طيباً ، وأن الله لايأمر الا بالقسط الذى يتفق مع الفطرة ، ولذا قال تعالى من بعد ذلك ، « قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون (٢) » .

وقال سبحانه من قبل هذه الآيات : قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون ، فريقاً هدى ، وفريقاً حق عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ، يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين (٣) » .

٩٤ ـ وقد ذكر عبد القاهر فى كتابه دلائل الاعجاز الحكمة فى سبب تسمية

---

(١) الاعراف : ٣٢ (٢) الاعراف ٣٣

(٣) الاعراف : ٢٩ ـ ٣١

الاستفهام بالانكارى ، سواء أكان لانكار الوقوع بمعنى النفى أو لانكار الواقع بمعنى التوبيخ ، فقال رضى الله تعالى عنه .

« وأعلم أننا وان كنا نفسر الاستفهام فى مثل هذا الانكار بالنفى ، فان الذى هو محض المعنى أنه ليتبين السامع ، حتى يرجع الى نفسه ، فيخجل ويرتدع ، وييين الجواب ، اما لأنه قد ادعى القدرة على فعل مالا يقدر عليــه ، فاذا ثبتت على دعواه قيل له فافعل فيفضحه ذلك واما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله.فاذا روجع فيه تنبه ، وعرف الخطأ، واما لأنه جوز وجود أمر لا يجوز مثله ، فاذا اثبت على تجويزه وبخ على تعنته ، وقيل له فأرناه فى موضع وفى حال ، وأقم شاهداً على أنه كان فى وقت ، ولو كان يكون للانكار ، وكان المعنى فيــه من بدء الأمر لكان ينبغى ألا يجىء فيما يقوله عاقل : انه يكون حتى ينكر عليه ، كقولهم أتصعدا بى الى السماء ، أتستطيع أن ننقل الجبال ، أ الى رد ما قضى من سبيل.

ومؤدى هذا الكلام أن الانكار اذا كان نفياً لوقوع أمر ، فمؤداه أن الأمــر لا يقع ، ولا يعقل أن يقع ، فهو نفى مؤكد ، اذ هو ليس نفياً للفعل فقط ، بل هو نفى له مع بيان أنه لا ينبغى ولا يجوز أن يقع ، واذا كان الفعل قد وقع فهــو توبيخ على الوقوع ، واستنكار له ، كما رأيت فى قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق (١) » ويلاحظ أن الانكار سواء أكان انكاراً للوقوع بمعنى النفى أم انكاراً للواقع بمعنى التوبيخ ، فان فيه حمل الفاعل على الاقرار بالنفى أو اثبات ما أوجب التوبيخ .

٩٥ ــ ومن الاستفهام فى القرآن ما يكون لبيان الاستحالة ، وهو يقارب فى معناه مفنى انكار الوقوع الى حد أنه يكون احتمال غير معقول ، ومن ذلك قوله تعالى « أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى » ، بمعنى أنــك تخلق فيهــم بصراً يبصرون به وان هذا فيه استفهام انكارى ، وفيه استعارة تمثيلية ، فقــد مثلت حالهم بحال الأصم الذى لا يسمع ، أو فى آذانه وقر ، وبحال من فقــد البصر ، وان من يطلب هدايتهم كمن يطلب السمع من الأصم ، أو يطلب الابصار ممن فقد

---

(١) الزخرف : ٤٠

البصر ، فالاستفهام لاستحالة موضوع السؤال وانه لا يقع .

ومن ذلك أيضاً الاستفهام الذى عبر به القرآن عن حال الجاحدين الذين يتوهمون أن الفقراء فى الدنيا لا يمكن أن يكونوا هم أول المهتدين متوهمين أن الفضل بسعة الرزق وكثرة المال ، لا بالتقوى والمسارعة الى الخير ، فالله تعالى يصور حالهم بهذا الاستفهام ، فيقول تبارك وتعالى : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا (١) » فالاستفهام على مقتضى نظرهم يوجب ألا يكون الله تعالى من عليهم قبلهم ، وذلك من فساد القياس ، اذ قاسوا الفضل بمقياس المادة ولم يقيسوه بمقياس الفضيلة والتقوى والمسارعة الى الخير .

ومن الاستفهام الذى ينبىء عن استحالة الجواب ، قوله تعالى آمراً نبيه :

« قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ، ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين (٢) » فى فالاستفهام هنا واضح أنه لبيان استحالة أن يدعو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما يدعون من دون الله تعالى ، وان حالهم فى عقيدتهم الباطلة ، كحال من يسير فى بيداء وقد استهوته الشياطين الصارخة فاندفع الى غير هدى حتى تاه فى المهمة القفر ، وله أصحاب ينادونه فلا يستجيب لهم لأن الباطل قد ضرب على قلبه ، ولأن استهواء الشياطين قد غلب عليه .

ومن قبيل الاستفهام الداخل على ما لايجوز التغيير فيه ما جاء على لسان ابراهيم عليه السلام ، وقومه يحاجونه يريدون أن يردوه ، فقد قال تعالى «وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان (٣) » .

ومن الاستفهام الذى يدل على استحالة موضوعه ما ذكره سبحانه وتعالى من أنه يوجه الى السيد المسيح عيسى عليه السلام يوم القيامة ، اذ يقول سبحانه :

---

(١) الانعام : ٥٣ (٢) : الانعام : ٧١

(٣) المائدة : ١١٦ — ١١٨

« واذ قال الله : ياعيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، انك أنت علام الغيوب ، ماقلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم (١) » .

وهنا نجد تلك المجاوبة التى أعلمنا سبحانه تعالى أنها ستكون بينه وبين المسيح عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم كان الاستفهام فيها لبيان استحالة أن ابن مريم قال لهم اعبدونى « وأمى الهين من دون الله » ولذلك جاءت الاجابة على السؤال باستحالة موضوعه ، وأنه ما كان ولا يمكن أن يكون من عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام .

٩٦ — ومن الصيغ الاستفهامية تلك التى تجىء فى القرآن الكريم ما يكون للافحام ، والرد ، كالرد بالصيغة الاستفهامية ، اذ يقول سبحانه وتعالى عنهم . « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، واليه المصير (٢) » .

وان ذلك الاستفهام مع دلالته على استنكار قولهم فيه دلالتان أخريان : احداهما — اعلامهم بأنه سيعذبهم بذنوبهم وأنهم مأخوذون بما يقترفون من سيئات ، وما يجترحون من مآثم ومظالم . الثانية — الدلالة على أن عمل الخير له ثوابه ، وعمل السوء له عقابه ، وأن من يقول غير ذلك فهو مبطل ، وما كان لهم أن يدعوا محبة الله ، وأنهم منه بمنزلة الأبناء من الآباء ومع ذلك يعصونه ، وينشرون فى الأرض الفساد .

فهذا استفهام مع ما فيه من احكام واستنكار يتضمن معانى سامية فيها التهديد لمن يعصى ، والتبشير لمن أطاع .

---

(١) الانعام : ٨٠ (٢) المائدة ١٨

وهناك لون من ألوان الاستنكار يكون منصباً على المساواة الظالمة بين الخير الأدنى ، وما هو أعلى منه ، كما فى قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين (١) » .

لقد كانت قريش تتنافس على السقاية وسدانة البيت الحرام ، وتسابق الى عمارته ان احتاج الى عمارة ويحسبون أن ذلك يجعل لهم فضلا على الناس ولو كانوا مشركين ، وقد قرر سبحانه أن الايمان بالله ورسوله ، والجهاد فى سبيله ، والتقدم لفداء الحق ونصرته لا يساويه مجرد السقاية والسدانة والعمارة ، ولو كان لبيت الله الحرام الذى هو مثابة للناس وأمن، والايمان والعمل الايجابى لنفع الناس وحماية الحق والذود عنه ، هو فى المكانة السامية وقد أتى سبحانه بذلك فى صيغة استفهام انكارى ، وهو منصب على التسوية بين الأمرين ، وهو استنكار فيه توبيخ ، وفيه ابطال للباطل ، واحقاق للحق ، واعلاء لشأن الايمان والجهاد ، وأنه فوق كل شأن .

ومن الاستفهام الذى يحكى عن المشركين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ما يذكر على سبيل الاستغراب ، وظن الاستحالة . ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن المشركين « وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً (٢) » .

ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة الرعد : « وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٣) » .

وان هذه الاستفهامات هى من قبيل الانكار ، والاستغراب ، فترى المشركين يعلنون انكارهم للبحث، ويستغربون أن يكون، يستغربون البعث فى ذاته، ويقرنون

---

(١) التوبة:
(٢) الإسراء : ٤٩ — ٥١
(٣) الرعد : ٥

ذلك بحال الذين يموتون من بعثرة أجسامهم بعد أن يصيروا رفاتا ، ويضيفون الى استغراب البعث فى ذاته ما يقررونه فى اعتقادهم من أحوالهم ، يحسبون أنهـا تبرر الانكار ، أو تزيد الاستغراب ، فيسألون من الذى يبعثهم من مراقدهم ويوهم قولهم أن ذلك غريب .

وفى سورة الرعد فى النص الذى نقلناه يستغربون ويتعجبون يبين الله تعالى أن موضوع العجب هو عجبهم ، لأن البعث فيه سر الوجود ، اذ أنهم لم يخلقوا عبثا ، واذا كـان الابتداء ليس فيه عجب ، فالاعادة ليس فيها عجب أيضـاً ، فالاستغراب موضوعه استغرابهم هم .

وانا نجد فى كل الأمثلة التى ذكرناها فى الاستفهام تصريفا فى القول يوجـد جدة فى جملة عن سابقتها، وانه لو كان النفى أو الاستغراب والتعجب أو الاستنكار والتوبيخ بلغة واحدة ما كان التنويع فى التعبير ، الذى هو ميزة لكل كلام ، فضـلا عن أبلغ كلام رأته الانسانية ، لأنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وانه بديع فى نسقه ، فى أعلى درجات من الابداع ، وانه كما قال الكافر الذى سمعه : يعلو ، ولا يعلى عليه ، وانه ذو القطوف الدانية ، والجمال دائمـــاً .

٩٧ ــ ومن الاستفهام ما يكون تقريراً للواقع ، وذلك يكون فى الحـال التى تستوجب العجب ، أو توجب الاستنكار ، اذ يكون الواقع المقرر مستنكراً ، لأنه ليس من صنيع أهل الايمان ، ولا مما تستسيغه الفطرة السليمة ، أو تستحسنه الأخلاق الحكيمة ، أقرأ قوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون (١) » .

وان هذا الاستفهام التقريرى الذى يؤكد الرؤية العالمة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان معنى أرأيت ، لقد رأيت الذين يكذبون بالدين ، وان مجىء

---

(١) سورة الماعون ــ كلها

العبارة بطريق الاستفهام فيه تأكيد لمعنى الرؤية لأولئك الذين اتصفوا بهذه الصفات الغريبة التى تتماسك كل صفة مع أختها ، وكأنها ملازمة لها لا تفترق عنها ، وكأنها منها ، فالتكذيب بالدين هو صفة الجاحدين، لا يؤمنون بالحق ، ولا يهتدون بهديه، وأولئك دأبهم النفرة من الناس ، وألا تكون فيهم رحمة بالضعيف ، فهم يقهرون اليتيم ويذلونه ويرهقون ، ويمنعون كل عون ، اذ يمنعون الذكوات التى هى عون الأقوياء للضعفاء ، وهم لا يتذكرون ربهم ، ولا يدنون منه ، حتى فى الصلاة ، وصلاتهم ويل عليهم ، وليست قربة لهم، وهى محسوبة عليهم على أنها من السيئات ولا تحسب لهم على أنها من القربات ، وهم فى أعمالهم يراءون ، والرياء شرك خفى، ومن تصدق يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك .

وان موضع الاستفهام هنا لا يغنى عنه التقرير المجرد ، لأن مؤدى الاستفهام أن المخاطب قد سئل عن الرؤية مثلا ، فأجاب عنها بالايجاب ، فكان تقرير الواقعة باقرار من المسئول ، فهو تقرير معه التصديق وهو مع ذلك تنبيه الى الصفات المرذولة التى اتصف بها أولئك الجاحدون بأصل الدين ، من قهر اليتيم ، ومنع المسكين ، والصلاة الساهية عن معنى القرب الى الله تعالى ، وهم يراءون الناس ويمنعون كل عون حقيقى .

ومن الاستفهام التقريرى الذى يثير الانتباه الى الحقائق التى يتضمنها قوله تعالى : « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون ، قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك الا القوم الظالمون (١) » .

وان هذه الآيات الكريمات فيها عدة استفهامات أولها تقريرى ، وهو تقرير الرؤية كأنهم سئلوا عنها . فأجابوا بالايجاب ، فكان التقرير مؤيداً بالاقرار ، وكان حكما مؤيداً بالدليل ، وهو الاقرار سلطان الأدلة والاستفهام كان موضوع الاستفهام الأول ، وهو قوله تعالى « ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم » وهو استفهام فى معنى النفى ، فهو انكارى ، أى

(١) الانعام : ٤٦ — ٤٧

أنه لا اله غير الله يأتيكم فهو يتضمن مع النفى اقراراً من السامعين بأنه لا اله غيره واثارة العجب ممن لا يقرون بهذه الحقيقة فهى موضع البرهان وقد تضمن النص الكريم استفهاماً ثالثاً لتوجيه النظر الى مايصرفه القرآن من أدلة مختلفة ، وذلك الاستفهام توجيهى تنبيهى تقريرى ، وهو قوله تعالى : « انظر كيف نصرف الآيات ، ثم مم يصدفون » فقوله كيف نصرف الآيات فيه توجيه النظر الى تصريف للآيات ، وجاء بصيغة الاستفهام لتصوير التصريف فى الآيات التى أنزلها الله تعالى، أو كانت فى الكون ، وما كان ذلك التصور لها ليتحقق اذا لم تكن الدعوة الى النظر ، ثم الاستفهام الذى يأخذ النظر ليضعه على ذلك التصريف ، ثم كان الاستفهام متضمناً معنى الاستنكار لحالهم ، اذ أنهم مع تصريف الآيات وجعلها فى صورها جديدة تسترعى الالتفات والاتجاه الى ادراكها ، والتنبه لها ، ومع ذلك — لكثرة جحودهم ولجاجة الباطل فى نفوسهم — يعرضون ، ولا تستولى عليه نفوسهم ، كشأن الفكرة المجددة ، فانها تسترعى الأفهام وتأخذ بالألباب ، ولكنهم عموا ، فلا يجديهم تصريف ، ولا يأخذ بألبابهم تجديد الأسلوب لأنهم معرضون ، انك لاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين .

وفى النص استفهام تقريرى على منهاج لا يعرف الا فى القرآن ، فانى لم أقرأ كثيراً فى غير القرآن ذلك المنهاج الاستفهامى اذ يقول سبحانه « أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون (١) » فالتعبير فى الاستفهام أرأيتكم — ليس مشهوراً فى الأساليب العربية ، ونجد هنا الخطاب تكرر فيه ، فالتاء المفتوحة خطاب ، والكاف خطاب التاء خطاب للمفرد ، والكاف خطاب للجمع ، والتاء متجهة الى مخاطبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والكاف متجهة الى خطاب الجمع ، فاجتمع خطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخطاب الجماعة، وذلك لأن فى الاستفهام تقريراً لرؤية النبى عليه الصلاة والسلام وتقريراً لرؤية كل المخاطبين بالقرآن الكريم ، وكان لابد لاجتماع الخطابين ، خطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليقرر الواقع وهو علمه عليه السلام ، وتقرير الحقيقة الثابتة للناس

---

(١) الانعام : ٤٧

أجمعين ، وهى أن عذاب الله الذى يجىء بغتة فى خفاء ، أو جهرة فى وضح النهار لا يهلك الا القوم الظالمون فهو جاء لأجلهم منصباً عليهم ، وهنا أمران يجب التنبيه اليهما •

— أولهما — أن الزمخشرى ، ومن حاكاه ، كالبيضاوى وغيره قالوا ان الكاف حرف لتأكيد الخطاب لا موضع لها من الاعراب فهى ليست ضميراً ، ولكنها من الحروف التى تبنى على غير محل من الاعراب ، وحجتهم أن رأى استوفت المفعولين من غير تقدير الكاف فى موضع الضمير ، ونحن نميل الى أنها ليست زائدة ، لتأكيد الكلام ، وليست حرفاً ، ولكنها اسم بمعنى أنفسكم ويكون تأويل القول على هذا أرأيت أنفسكم ، وجمع ليشمل كل الناس، وكل المخاطبين ، وعلى هذا التأويل يكون المعنى أرأيت أيها النبى الناس ، وقد صاروا عرضة لعذاب يعم الجميع أم يخص الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الناس وظلموا العقل فضلوا وأضلوا كثيراً ، وأفسدوا فى الأرض والله لا يحب الفساد •

— الأمر الثانى — أن قوله تعالى : « هل يهلك الا القوم الظالمون فيه استفهام انكارى بمعنى انكار الوقوع والمعنى لا يهلك الا القوم الظالمون • واقترن الكلام بالوصف يدل على سبب استحقاق الهلاك ، وهو الظلم ، فبظلم منهم هلكوا ، وكان ذلك تأكيداً للنفى بذكر السبب فى أنهم اختصوا بالهلاك •

ومن هذا النوع فى الاستفهام الذى اقترن بتاء الخطاب والكاف ، وكان كلاهما بالمفرد قوله تعالى : « أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة ، لأحتنكن ذريته الا قليلا ، قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً (١) » •

الله سبحانه وتعالى يحكى عن ابليس اللعين قوله وهو يخاطب رب العالمين والاستفهام لتقرير الواقع ، لا لنفيه والكاف على قول الزمخشرى هى تأكيد لمعنى التأكيد ، ونحن نرجح ذلك ، لأن التاء مفرد والكاف مفرد ، وهو تأكيد لفظى

(١) الإسراء ٦٢ — ٦٣

يتوافق المؤكد مع المؤكد فى الافراد ، أما الاستفهام السابق فمعنى التأكيد فيه بعيد، للتخالف فى الأفراد والجمع ، وهذا النوع من البيان لتصريف القول ، وقد ذكر طبيعة ابليس الفاسد بأنه سيجعل ذلك الذى كرمه تعالى عليه الهلاك لذريته الا قليلا، وهذا من غرور أبليس ، ومن يسكن الشيطان قلوبهم ، وهذا كقوله : « لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين » •

ونلاحظ أن خول الاستفهام على رأى ، مع وجود ضميرى خطاب فى جملة واحدة أو على قول الزمخشرى ضمير خطاب وحرف خطاب — هو استعمال قرآنى ، لا أعرف أن العرب قد استعملوه كثيراً قبل القرآن ، وفيه من معانى الاستنكار أو التنبه أو التعجب فى أبلغ صور • وان هذا من سر الاعجاز ، ودليل على أن القرآن لم يكن علمه البيانى عند العرب من قبله •

٩٨ — والاستفهام أحياناً يكون للتسوية « بين أمرين ، ويكون هذا لبيان وحدة النتيجة والغاية مثل قوله تعالى « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (١) » وان أداة الاستفهام فى هذه ليست للاستفهام الحقيقى ، ولا للانكار ولا للتعجب ، ولا لغير ذلك مما ذكرناه مقاصد للاستفهام ، وفى النص القرآنى تأكيد لجحود الذين كفروا ، والاشارة الى أنهم سبقوا الى الجحود ، فالأدلة مهما تكن قوية لاتجد مكاناً فارغاً لتملأه ولكنها تجد قلبا مملوءاً جحوداً ، فلا سبيل لأن يدخل الحق ، ومن ذلك قوله « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص (٢) » •

فهنا كانت التسوية بين أمرين من حيث الانتهاء الى نتيجة واحدة ، فان الأمر الذى لا يكون ثمة مفر منه ، يستوى فيه الصبر والجزع من حيث ان كليهما لايدفع المحظور ، وان كان الصبر أجدى لأنه يوجد فى الجملة قراراً ورضاً وتقديراً للأمر • كما قال عليه الصلاة والسلام « ان صبرتم أجرتم ، وان جزعتم وزرتم •

وقد تكون ألف الاستفهام للترديد بين أمرين فى ظاهر القول ، وليست الغاية

---

(١) البقرة : ٦ (٢) ابراهيم : ٢١

متحدة ، والعقل يقرر صدق أحدهما كما فى قوله : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها(١) » فان هذا الاستفهام ليس فيه تسوية بين أمرين فى الحكم أو النتيجة والغاية ، بل المعقول يثبت أحدهما ، وينقض الآخر بدليل من العقل والحس ، فانه لاشك أن الأشد خلقا هو الأكبر حسا ، والأعظم تأثيراً ، والأدق احكاما ، وهو السماء بما تصف فيهـا ، واذا كان سبحانه مالك السموات والأرض ، وما بينهما ، وما فيهما ، من دابة فهو على ما يشاء قدير •

ومؤدى هذا الكلام نفى سلبى ، وحكم ايجابى ، فأما النفى السلبى فهو أن الانسان ليس أشد خلقا ، وأما الحكم الايجابى ، فهو بيان سلطان الله سبحـانه وتعالى القاهر فوق كل شئ •

وهذا النوع من الترديد انما يكون دائما لحمل المخاطب على الحكم الصحيح فهو لا يدل على التسوية ، بل يدل على التفرق فى الحكم ولينطقوا بالصواب أو ليلتزموا به ، ان لم ينطقوا ، أو ليفحموا ان لم يسترشدوا وضلوا ، وهو استدلال على الحكم ومن ذلك النوع من الاستفهام قوله تعالت كلماته •

« أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخـالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم ، وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشـاء لجعلنـاه حطاما فظلتم تفكهون ، انا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجا فلو لا تشكرون • أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ، ومتاعا للمقوين (٢) » ونرى هذه الاستفهامات المتقابلة التى يجئ فيها بين الاستفهامين لفظ أم التى تـدل على التعادل بالظاهر من اللفظ ، ولكنها ليست متعادلة من ناحية الحقيقة الثابتة فهى مقابلة بين حق وباطل، للتنبيه على الحق بالدليل والتنبيه بالاستفهام بطريق التقابل

---

(١) النازعات : ٢٧ — ٢٩ (٢) الواقعة : ٥٧ — ٧٣

فاذا كان التقابل بين أن يكونوا هم الخالقين للأنفس فى ظهــور الآباء وبطــون الأمهات اذ أن الخالق هو الله سبحانه : فالفطرة والبداهة والحس تقــرران الأول فالحكم بلا ريب ينتهى بمقتضى التقابل هو أن الخالق هو الله سبحانه ، وكــذلك الأمر فى الزرع ، وكذلك الأمر فى الماء ، وكذلك الأمر فى النار .

فهو استفهام ليس على حقيقته ، ولا للانكار المجرد ، ولكنــه للتنبيــــه ، والاستدلال على الحق بالاشارة الى البطلان الذى يكون فى الجانب المقابل للحق، فانه اذا بطل النقيض كان الحكم بصحة نقيضه ، فاذا كان التردد بــين كونهم الخالقين ، والخالق هو الله ، وتأكد بالحس بطلان وصفهم بالخلق فقد ثبتت صفه الخلق لله تعالى ، وبذلك يكون الاستفهام للتنبيه والاستدلال ، كقوله تعالى « وانا وأياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين (١) »

ومن ذلك النوع ما حكاه الله تعالى عن سيدنا يوسف وهو يقــول لصاحبى السجن : « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (٢) » فان هذا التقابل بين باطل تثبت البداهة بطلانه ، واذا بطل أحد المتقابلين صدق فكان الاستفهام للتنبيه الى الحق مؤيداً بالدليل القاطع .

٩٩ — والاســـتفهام التنبيه كثير فى القـــرآن ، وكذلك لاثارة العجب حــول ما يدعون من ترهات وأباطيل وبيان وجه غرابتهـــا ولا يمكن احصــــاء ذلك ، واستقراؤه وتتبعه ، ولكن يمكن ضرب الأمثال ، وما يذكر يكون شاهدا على ما لم نرطب ألسنتنا بتلاوته ، ولا أسماعنا بالاستماع له والانصات والتدبر فيه .

اقرأ قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ، اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ الى أهله فجاء بعجل حنيذ ، فقربه اليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم » فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها ، وقالت عجوز عقيم (٣) الى آخر القصة ، وترى القصة ابتدأت بالاستفهام للتشويق ، وللتنبيه الى الاستماع ، وقد ابتدأت

(١) سبأ : ٢٤ (٢) يوسف : ٣٩
(٣) الذاريات : ٢٤ — ٢٩

بعبارة فيها اجمال لتكون تمهيداً لما يجيء بعد ذلك من التفصيل •

ومن الاستفهام الذى للتنبيه الى قدرة الله تعالى ، وهم لا ينكرون الجواب فيكون الاستفهام للاقرار به وتقريره قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون ، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ، قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى الى الحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع ، أمن لا يهدى الا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون ، وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، ان الله عليهم بما يفعلون (١) » •

ففى الآية الأولى كانت أربعة استفهامات عن الرزق من يرزقه وعمن يملك السمع والأبصار فيسلبهما ان شاء ويبقيهما ، ويردهما ان سلبهما ، وسألهم عمن يخرج الحى من الميت ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فى إجابة هذه الأسئلة ، فجاء الاستفهام الأخير فى هذه محرضا على التقوى ، اذ أن التقوى كانت من نتائج اقرارهم بالاجابة الصادقة عن هذه الأسئلة التقريرية التنبيهية اذ أن العبادة لا تكون الا للخالق وحده ، فالمعبود الذى يستحق أن يكون الها هو الخالق النافع الضار •

ونرى أن الأسئلة كانت اجابتها بالايجاب لا بالسلب وبين سبحانه وتعالى ماترتب على الايجاب باقرارهم الصريح ، وهو أن تمتلىء قلوبهم بتقوى الله تعالى، فلا تعبد غيره •

وجاءت بعد ذلك الآيات أسئلة الاجابة فى بعضها بالسلب لأنها خاصة بما يشركون بها عبادة الله سبحانه وتعالى من أوثان ، وغيرها •

---

(١) يونس : ٣٦٣.

الاستفهام الأول كان عن شركائهم هل يفعلون ما قرروا أن الله يفعله ، ولسان حالهم أن يجيبوا بالسلب لأنهم يرون أنهم لا يضرون ولا ينفعون ، وسألهم عمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ولسان حالهم يقول الله .

وهكذا نرى أن الاستفهام فى كل هذه المقامات فى القرآن كان لاثارة التنبيه الى الحقائق ، واذ انتبهت العقول اتجهت الى طلب الحق فى غير عوج بل بطريق مستقيم .

وانى أحسب أنه بعد أن نزل القرآن وأشرب الناس مناهجه ومسالكه ، كان من أجود الطرق التعليمية اثارة الانتباه بالاستفهام تنبيهاً الى مايوجه الى التلاميذ من علم ، فكان استفهام القرآن موضحاً أقوم المسالك للتنبيه الى الحقائق واثارة الأفهام اليها ، وتفتيح الذهن لتدخل عليه المعانى والحقائق العلمية .

١٠٠ — وان القرآن سلك فى الاستفهام مسلكا لم نره كثير الاستعمال عند العرب من قبل نزول القرآن ، ولكنه شاع بعد نزوله من غير سمو الى مسلك القرآن وهو دخول أداة الاستفهام على حرف النفى ، مثل قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وانزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج (١) » .

فأنت ترى من السياق القرآنى أن همزة الاستفهام دخلت على لم التى هى حرف نفى ، فالاستفهام دخل على حرف نفى وجاء بينهما فاء هى للدلالة على أن السؤال مرتب على ما كان قبله وما قبله كان تعجباً من أمر البعث ، اذ قالوا « أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » ، وأنهم كذبوا بالحق لما جاءهم فكانت الآيات التى وليت الاستفهام رداً على تكذيبهم ، وفيها الدلالة على اثبات ما أنكروا ، فالفاء للدلالة على ترتيب الاستفهام ، ولكنها أخرت عن أداة الاستفهام ، لأن الاستفهام له

---

(١) ق : ٦ — ١١

الصدارة ، فهى مؤخرة عن تقديم فى نسق الترتيب الفكرى •

والاستفهام الداخل على النفى مؤداه الحث على النظر ، لأن الاستفهام عن نفى النظر ، وتقرير عدم النظر ، فاذا كان الاستفهام ابتداء يقرر أنهم لم ينظروا ، وفى النظر تعرف لآيات الله تعالى فى الكون ، فالاستفهام وحرف النفى يدلان على الاثبات وهو هنا طلب النظر ، فكأن المعنى على هذا المنطق المستقيم ثبت أنكم لم تنظروا ، فالواجب أن تنظروا فالاستفهام ابتداء كما يبدو من سياق الكلام يقرر أنهم لم ينظروا لأن عدم النظر كان موضع الاستفهام ، ومن المقررات البلاغية أن الاستفهام دائماً يدخل على ما يكون موضع شك ، ويقدم فيه ما يكون موضع الشك ، فاذا كان موضع وقوع الفعل • كان الاستفهام مسلطا على الفعل، مثل قول الموحدين للوثنيين : « وندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا (١) » فهنا نجد موضع الاستنكار هو ذات الفعل ، فكان عقب أداة الاستفهام ، واذا كان الفعل قد وقع ، وموضع الشك هو الفاعل ، فانه يجىء وراء الاستفهام ، كقوله تعالى حكاية عن قوم ابراهيم اذ رأوا أصناما جذاذا ، قال الله تعالى عنهم أنهم قالوا له « أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم (٢) » فالفعل ثابت بالعيان أمامهم ، ولكن الفاعل هو الذى يريدون البحث عنه ومعرفته •

وبهذا المنطق البيانى نرى أن الاستفهام فى هذا النص أفلم ينظروا داخل على الفعل المنفى ، فاذا كانت الهمزة للتنبيه أو التقرير ، أو التوبيخ ، لأنهم لم ينظروا وهو الراجح فى نظرى فيكون لانكار الوقوع وانكار الواقع ، واذا كانوا يوبخون لأنهم لم ينظروا ، فالتوبيخ يكون دعوة للفعل ، وحثاً على النظر •

ومن الاستفهام الداخل على النفى ، قوله تعالى فى قصص القرآن عن أنبائهم: « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قوم نوح ، وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به ، وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب قالت رسلهم أفى الله

---

(١) الانعام : ٧١ (٢) الانبياء : ٦٢

شك فاطر السموات والأرض(١) » ونجد فى الاستفهام الذى صدرت به الآية الكريمة أن همزة الاستفهام دخلت على (لمْ) النافية ، فكان موضع الاستفهام عدم اتيان نبأ الذين من قبلهم ، ولو سرنا على ما يقتضيه السياق اللفظى للنص السامى يكون الاستفهام عن عدم الوقوع ومعناه انه لم يأتكم ، واذا كان الاستفهام للتقرير أو التنبيه فمؤداه أنه لم يأتكم ذلك ، وفى هذا تشويق لمعرفته ، وتوجيه لطلبه ، ولذلك جاء من بعد ذلك النبأ عن الرسل السابقين ، ويكون فى هذا تثبيت الخبر لمن يطلبه مصغيا الى حقائقه ، معتبراً بعبره •

ولقد جرت بين كتاب علم البلاغة كلمة نفى النفى اثبات ، ويطبقونه على استفهام يدخل على فعل منفى فيكون الاستفهام داخلا على منفى ، والاستفهام نفى ، فيكون نفيا لنفى ، ونفى النفى اثبات ، وان ذلك يسير اذا كان الاستفهام للانكار ، انكار الوقوع ، فيكون انكارا للمنفى فيكون اثباتا ، وقد قلنا انه حتى فى هذه الحال ، لا يخلو الاستفهام من تنبيه ، واقرار بما جاء الاستفهام عنه ، ولكن الاستفهام الداخل على النفى يتضمن الحث على طلب الأمر المنفى الذى دخل عليه الاستفهام كما رأيت فى قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم » كما تلونا من قبل ، وقد يكون الى تلقى علم ما نفى فى حيز الاستفهام كما رايت فى الآية السابقة •

وقد يتضمن الحث على العمل ، والتحريض عليه اذا كان ذلك العمل غير محقق فى الوجود ، أو هناك شروع فى تحقيقه ، وذلك يكون غالبا عند نفى الأمر المستقبل كما نرى فى قوله تعالى : « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ، أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه ، ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء(٢) » •

ونرى من ذلك أن الاستفهام دخل على النفى ، وهو عدم القتال أ وعدم الاهبة

---

(١) ابراهيم : ٩ ــ ١٠
(٢) التوبة : ١٣ ــ ١٥

له ، والاستعداد للتقدم ، فالمستفهم عنه عدم القتال والاستعداد له وقد وجدت أسبابه ، وتعددت موجباته ، فكأن الاستنكار منصبا على النفى ، والاستنكار لحال مستمرة ، حث على تغييرها ، واذا كان الاستنكار على ما وقع توبيخا لمن أوقعه ، فالاستنكار لأمر لم يقع بظاهر الحال واستصحابها تحريض على تغييرها ، وتوجيه للاتيان بها .

وان الاستفهام الذى ينطبق عليه قول بعض الكتاب فى علم البلاغة وهو نفى النفى اثبات يكون فى مثل قوله تعالى « ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (١) » ونرى من هذا أن الاستفهام دخل على المنفى ، فكان انكاريا لنفى الوقوع ، فنفى على زعمهم القائل أنه لم يك فى نشأته من منى ، أو كانوا عن ذلك فى غفلة ساهين وكانوا فى حاجة الى التذكير ، والاحساس بمبدئهم ، ليعرفوا منتهاهم ، وأن الذى أوجدهم من منى يمنى أشخاصاً ذكورا واناثا قادر على اعادتهم ، كما بدأهم يعودون .

فالاستنكار لجهلهم هذه الحقيقة ، أو تجاهلهم ، وكأنهم لا يعلمون ، فاستنكر هذا عليهم فكان نفيا مستنكرا لحال التجاهل .

ولا شك أن هذا فيه تنبيه ، وفيه لوم على تجاهلهم تلك الحقيقة ، وبيان أنه يجب عليهم أن يعرفوها ، ليكونوا فى تذكر دائم بقدرة الله تعالى فى تدرجهم فى الوجود من أصلاب الآباء الى أرحام الأمهات ، ويعلموا بذلك قدرة الله تعالى على الاعادة .

ومن الاستفهام الداخل على النفى الذى من قبيل أن نفى النفى اثبات ، التنبيه الى أن النبى يصنع على عين الله تعالى ، ويتولاه وألا يكون فى يأس من رحمة الله تعالى ؛ لأنه فى ولايته ، ولا يضيع من يكون فى ولاية الله تعالى . ومن ذلك قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا

---

(١) القيامة : ٣٧ — ٤٠

لك ذكرك ، فان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا ، فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب » (١) •

فان الاستفهام هنا لانكار الوقوع ، أى لانكار أن الله تعالى لم يشرح صدر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليتلقى الوحى الذى أوحى به اليه ، واذا كان الانكار نفيا فالمؤدى للقول : قد شرحنا صدرك ، وكان الاستفهام للنفى •

١٠١ — واننا فى ختام هذا البحث من التصريف البيانى فى القرآن نقرر بالنسبة للاستفهام فيه ، أن الاستفهام باب من تصريف القول فى القرآن ، وفيه من أسرار الاعجاز ما فيه ، فمن الاستفهام ما يكون بعبارات تتفق مع النسق العربى السليم ، ولكنه لم يعرف بين البلغاء قبل القرآن وانى أرى أن أكثر صيغ الاستفهام التى جاء بها القرآن غير مسبوقة قبله ، وان الاستفهام كان يستعمل أحيانا للتنبيه ، وأحيانا للاستدلال ، وأحيانا للتعجب ، وأحيانا ليوجه الأنظار الى الكون وما فيه ، وما يجرى بين الناس ، وان ذلك كله مما يدل على علو القرآن على مستوى ما كان عليه أكبر البلغاء ، وأقواهم سلطانا فى الأسلوب العربى •

---

(١) الانشراح كلها

الحقيقة والتشبيه والاستعارة فى القرآن

١٠٢ — هذا باب من أبواب تصريف القول فى القرآن ، وضرب الأمثال به ، والحقيقة فى اصطلاحنا ليست مقابلة للمجاز بكل فروعه ، فقط بل هى مقابلة للمجاز والتشبيه والاستعارة ، وهى ضرب من ضروب المجاز ، واذا كان علماء البلاغة يعدون التشبيه من قبيل الحقيقة ، اذ أن أساس الحقيقة فى نظرهم أن يستعمل اللفظ فيما وضع له والتشبيهات التى تكون بأدوات التشبيه الألفاظ موضوعة فى مواضعها ، والمجاز الذى يقابل الحقيقة أن تكون الكلمة غير دالة على غير ما وضعت لعلاقة بين المعنى الأصلى ، والمعنى الذى استعملت فيه مع قرينة دالة على هذا ، وعدم ارادة المعنى الأصلى .

ذلك هو اصطلاح علماء البلاغة ولاغبار عليه ، ولكنا فى مقام الاعجاز القرآنى نذكر الحقيقة — غير المجاز ، وغير التشبيه ، ونريد الحقيقة المجردة ، أى استعمال الالفاظ فيا وضعت له من غير ذكر مقابلة بين لفظ ولفظ طريق التشبيه الذى يجمل المعانى أو يقربها ، أو يأتى بصورة بيانية تلتقى فيها الحقيقة مع اثارة خيال يكون كأطياف الصور .

فالحقيقة التى نطلق عليها حقيقة ونحن نتكلم فى القرآن ما تدل عليه الألفاظ فى أصل وضعها من غير مجاز ، ولا استعانة بتشبيه ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، ونتكلم هنا فى الحقيقة ، والتشبيه ، والاستعارة التى هى التشبيه من غير ذكر أداة التشبيه أو مايدل عليه . وفى القرآن هذه الأمور كلها مع أنواع المجاز المرسل الذى لم تكن العلاقة فيه بين المعنى الأصلى والمعنى المجازى المشابهة بينهما .

١٠٣ — ان القرآن قد كان فيه التعبير بالحقيقة ، وهنا نجد السكاكى يعتبر التعبير المجازى أبلغ من التعبير عن المدلولات بالألفاظ التى وضعت لها ، وقد يكون ذلك فى غير القرآن ، ولكنه ليس على اطلاقه حتى فى غير القرآن ، أما القرآن فليس فيه جزء أبلغ من جزء ولا أبين ، بل كل فى موضعه وفى منهاجه ، بلغ أقصى درجات البلاغة التى لا تسامى ولا تناهد وليس فى طاقة أحد من البشر أن يأتى بمثله .

ولا شك أن بعض الموضوعات القرآنية لا يكون للمجاز أو للتشبيه موضع ، بل أن المجاز والتشبيه فيها يخل بالبلاغة فيها حتى فى كلام الناس ، وليس من النثر الفنى فيها التشبيه الا أن يكون للتقريب •

وان الحقيقة تستعمل فى كثير من مواضع القرآن كالأحكام الشرعية التكليفية ، لأن بيانها يحتاج الى أن تكون الكلمة محدودة المعنى ليتم القيام بموجبها ، وتكون الطاعة محدودة المعالم ، لا احتمال فيها اذ أن المطالبة بعمل توجب تعيينه بما لا يوجد فيه احتمـال لمعنى غير المراد ، ليتم التكليف على بينة وعلم واضـح بالمطلوب •

وكذلك القصص ، فان القصص ذكر لحقيقة ما وقع لتكون به العظة الكاملة ، بحيث يتجه التالى للقرآن الى مغازى القصة • ومراميها من غير تزيد ، كما رأينا فى كثير من القصص القرآنى فيما تلونا من قصص نوح وابراهيم وموسى ويوسف من قبله ، فانك ترى فيه الحقائق مجردة الا من بيان وجه العبرة ، ولا تجد للمجاز والتشبيه الا قليلا •

وكذلك الاستدلال على الوحدانية بالنظر فى الكون وما اشتمل عليه ، والنظر فى الشمس والقمر والنجوم المسخرات وهكذا ، مما يوجب الاتجاه مباشرة الى الحقائق •

١٠٤ — وان بلاغة الحقائق التى تذكر من غير استعانة بمجاز أو تشبيه لا تقل عن المواضع التى كان فيها تشبيه أو مجاز بالاستعارة أو غيرها ، فان ذلك يكون لمعان مقصودة ، وغايات أخرى وراء فكرة البلاغة التى هى وصف عام للقرآن كله من غير تفاوت ، لأنها تتعلق بكتاب الله العزيز الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله، ولو كان معه الجن والانس ، كما قال تعالى ، « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (١)» •

ويقول فى ذلك الباقلانى ، فى كتابه اعجاز القرآن « ان عجيب نظمه ، وبديع

---

(١) الاسراء : ٨٨

تأليفه لا يتفاوت ، ولا يتباين ، على ما يتصرف فيه من الوجوه التى يتصرف فيها من قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، واعذار وانذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، وتجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب الأحوال .

وبعد أن يبين اختلاف البلغاء فيما يجددون من أبواب ، ثم يقصرون فى غيرها فيقول : « وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد فى حسن النظم وبديع التأليف والوصف لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا . ولا اسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك تأملنا ما ينصرف فيه من وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الاعجاز فى جميعها على حد واحد لا يختلف وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً وتبيناً . ويختلف اختلافا كبيرا ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو نهاية البلاغة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ، لأن الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه .

ونرى من هذا أن الاجماع على أن القرآن كتاب الله لا تتفاوت عباراته (١) لأنه من عند الله الذى لا تفاوت بين الأشياء عنده ولا فرق فى البلاغة بين ما كانت الحقائق فيه تذكر مجرة عن التشبيه ، والمجاز

ولنذكر بعض آيات الأحكـــام التى تذكر الأحكام مجردة ،أقرأ آية المحرمات قال الله تعالى : «ولاتنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد ســـلف ، انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، حرمت عليكم أمهاتكم ، وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخوتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم

---

(١) الاعجاز ص ٢٥ — ٥٦

بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن ، فلا جنـــاح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد ســـلف ، ان الله كان غفورا رحيما والمحصنات من النساء الا ماملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن ، فآتوهن أجورهن فريضة،ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة،ان اللهكان عليما حكيما، ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات، ولا متخذات اخدان فاذا أحصن فان أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصـــناتمن العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (١) » .

هذه آية من آيات الأحكام لم يستعمل فيها المجاز ، ولا التشبيه ، ومع ذلك هى بالغة من البلاغة حد الاعجاز القرآنى فالتآخى بين الألفاظ والمعانى ثابت ، حتى ان كل كلمة فيها حكم ، تومىء الى التى تليها ، مع بيان الحكمة الشرعية ، والتعليل لبيان المحرمات التى حرمها وكانت حلالا فى الجاهلية فى زعمهم ، كزواج من كانت زوجة لأصل من أصوله ، وابتدأ بها سبحانه لما لها من خطر وشـــأن ، اذ يتبين تحريم ما أحلوا بزعمهم وما يبتدأ به الكلام يكون قوى التأثير ، وقـــد وصفه سبحانه بأنه فحش فى الواقع ، لأنه أمر غير مألوف فى الطبائع الســـليمة ، والأخلاق الكريمة ، وأنه ممقوت عند الناس لا يفعله رجل يألفه الناس ، بل يمقتونه ، ولذلك كان يسمى عند العرب (نكاح المقت) ، فمع أن الجاهلية ما كانت تحرمه بزعمها ، كانت تكرهه وتمقته ، ولا يفعله الكرام .

ولما جاء النص الكريم بتحريم الأمهات ، وهن الأصـــول من على استشرفت النفس لمعرفة حال البنات ، أتحل أم تحرم ، فجاء التحريم فى وقت الاستشراف اليه ، والتطلع نحوه ، فكان البيان وقت الحاجة اليه وكذلك الأخوات وهن أولاد الآباء والأمهات ، والعلاقة بهن تلى العـــلاقة بالأولاد ، ثم جاء من بعد أولاد

---

(١) النساء : ٢٢ — ٢٥.

الأبوين ، وهن الأخوات ، أولاد الأجداد ، وهن العمات ثم الخالات فكانت كل طائفة ممهدة لذكر التى تليها ، تجذبها اليها بمقتضى تداعى المعانى ، كل معنى يدعو أخاه ، وكل واحدة تلتحم مع أختها فى تآلف لفظى ، وتآخ معنوى .

ولقد كانت المرضع تعد أماً ، كالأم النسبية ، لأن هذه اذا كانت قد حملته فى بطنها ، وغذته من دمها جنيناً فتلك قد وضعته فى حجرها وغذته من لبنها رضيعا وأنشزت عظامه، وأنبتت لحمه ، كمـا كانت الأولى ، فكان من تداعى المعانى ، أن يذكر فى ايجاز غير مخل ، الأمهات الرضاعيات من أولادهن ، ومن التقى معه على ثدى واحد .

وكان من مقتضى التناسق المعنوى أن تذكر بعد صلات النسب الصلات السببية، وهى المصاهرة فابتدأ بأمهات الزوجات ، ثم اتجه الذهن بعد تحريم أمهات نسائكم الى الربائب ، لأنه اذا ذكرت الأم تطلعت النفس الى ذكر حكم البنت ، فذكر بعد تحريم أمهات الزوجات ما يتعلق بتحريم بنات النساء ، وهن الربائب ، وذكر حكمة التحريم وهو أنهن فى حجره وكبناته .

واذا ذكرت أمهات الزوجات ، وبناتهن ، وزوجات الآباء ، يكون لتتميم القول، ولما يستدعيه قانون تداعى المعانى أن تذكر زوجات الأبناء أهن حلال ، أم لا .

وهكذا نرى أن المعانى كل واحدة تدعوها السابقة فتلاحقها فى اتساق ونسق جامع .

وكل ذلك فى نغم متآخ ، وفى صورة بيانية من مجموع القول ، فعندما تقرأ الآيات من أولها الى آخرها ، تجد صورة بيانية ، لأسرة متكاملة ، ليس فيها تقاطع، بل فيها تراحم ، وتواصل ومحبة ومودة فما كان ذلك التحريم الا لتكون المودة هى الواصلة فلا يفحش ابن مع أبيه ، ولا يمقت ولد أباه ، ولا يعتدى أب على ابن .

وان ما اختص به القرآن من تقابل بين الحقائق فى البيان ، وتوافق فى العبارات من غير منافرة ، ولا معاضلة ، متحقق ثابت لا مجال لانكاره ، وما اختصت به العبارات من اشراق وضياء ، تجده منيراً حول الكلمات .

واذا كنا قرأنا آيات الزواج وتكوين الأسرة ، فلنقرأ حكم الله اذا تنافر ودها ، وأصبح التفرق بينهما أمراً لابد منه ، « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته » فقد قال تعالى :

« يأيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجهن ، الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر • ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ، واللائى يئسن من المحيض من نسائكم • ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن ، وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله اليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا ، أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وان كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ،وان تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا »(١) •

وترى من هذه النصوص القرآنية أنها تضمنت أحكاما كثيرة، تضمنت أحكام الطلاق وأحكام العدة ، وأحكام الرجعة ، وأحوال المعتدات وتضمنت بعض أحكام الرضاعة ، وأحكام النفقات بين الأزواج ، وخروج المعتدات من بيوتهن •

وهنا نلاحظ ملاحظة نفسية قد نبه اليها القرآن الكريم فى ألطف تعبير وأعطف نص وكأنه بلسم لشفاء نفوس مجروحة ، قد أرثتها حرقة الألم بسبب الفراق ، ذلك أن الآيات موضوعها الطلاق وهو لا يكون الا اذا تعذر الوفاق ، فالنفوس تكون مضطربة ، واليأس يكون مخيما ، والعلاقات تكون فى حال آيسة ، ولذلك

---

(١) الطلاق : ١ — ٧

نجد فتح باب الأمل لتلك النفوس التى اعتراها يأس من الحياة الزوجية السليمة . اذ يقول سبحانه بعد وضع الحدود ، وأن من يتعداها يظلم نفسه « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا »(١) ، ثم يبين سبحانه وتعالى العدة ويبين أنها فيصل تفرقة ، أو عودة ، وأن المطلوب امساك بمعروف أو تسريح باحسان ، ويذكر أن الأمر قد يكون فى طياته مايخرج النفوس من مضطرب الخلاف الى متسع الوفاق ، فيقول سبحانه ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجا »(٢) من ذلك المزدحم الذى تعترك فيه الأحاسيس والمشاعر بين عشرة طيبة أو فرقة لاظلم فيها ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك المقام أيضا « قد جعل الله لكل شىء قدرا (٣) وبعد أن يبين سبحانه وتعالى العدة للآيسة من الحيض ، ومن لم تره ، وهى ثلاثة أشهر ثم يبين عدة الحامل ، بعد أن بين عدة الحائل هنا ، ويقول لنفوس محرجة آسفة حزينة عرفت الحاضر والماضى قد فات ان خيرا وان شراً ، وهى تجهل القابل ، فهى تجهل ما يطويه ، فيقول سبحانه « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا (٤) ويذكر سبحانه وتعالى وجوب النفقة فى مواضع وجوبها ، وأحوال وجوبها ، والارضاع ووجوبه ، ثم يبين مقدار الواجب ، على أن يكون على قدر طاقته ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، « لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً »(٥) .

وهكذا نجد العبارات القرآنية السامية فيها طمأنة النفس على ما يطويه المستقبل ، فيجعل لهم رجاء بمخرج يخرجهم ، أو يجعل من أمره يسرا ، وان هذا النوع من القول هو الذى يقال عندما تتأزم النفوس ، وتقطع العلاقات بعد ود كان دائما أو كان يرجى له الاستمرار ، ويشترط لتحقق ذلك الذى الأمر فرج الله به الكروب التقوى والعمل الصالح ، وان هذين اذا تحققا فى تلك الحال طابت النفوس ورضيت بالواقع ان لم يكن منه مناص وغيرته بالايمان ان كان ثمة محل للتغيير .

وان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ليعلم الذين يرون أسرة قد ضاقت

---

(١) الطلاق : ١ (٢) الطلاق : ٢ (٣) الطلاق : ٣
(٤) الطلاق : ٤ (٥) الطلاق : ٧

صدور أهلها حرجا ، واستولى عليها من الحياة الزوجية الصالحة يأس وغلبت شدتها وذهت رخاؤها أن يفتح باب الرجاء فيها بعد اغلاق الآمال ، وأن يكون ميسراً ، ولا يكون معسرا ، وأن يكون مبشرا ، ولا يكون منفرا •

وان تلك النصوص القرآنية السامية تجد فيها البلاغة التى تصل الى أعلى الدرجات فى ذاتها لافى نسبتها ، فابتدأ الله تعالى الخطاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم خاطبت المسلمين من بعد مواجهته ، وخوطبوا بالجمع للاشارة الى تكافل جمعهم ، وتضافرهم وتعاونهم على البر والتقوى فى المواطن الحرجة ، والاستعانة بالمشورة والرأى ، وقد أمر بالرفق بالمرأة ، فلا يطلقها الا وهى متصلة بحال العدة ، لكيلا يرهقها باطالتها ، فتكون بين اليأس والرجاء فى قلق نفسى ، وهكذا استمرت الأحكام الرفيقة تبين الآيات منها حكما بعد حكم •

وجمال التعبير يشرق دائماً ، وحلاوة النغم تنساب فى النفس انسياب النمير العذب ، كما تنطلق الأحكام الى العقل والقلب فى اتعاظ واعتبار واهتداء الى الحق وفى انسجام فكرى •

واذا كان سرد الأحكام خصوصاً فى موضع دقيق كأحكام الأسرة يكون بادى الرأى فى كلام الناس جافا غير مشرق ، فان ذلك كلام الناس ، أما فى كلام الله تعالى فانه مشرق طيب الأعراق ، واضح القسمات فى نغم هادىء يطب للقلوب جفاؤها ، فيذهب وللنفوس فتتقى الشح ، وهو عظة وهداية وتوجيه الى العدل المطلق المنظم للأسرة فى سلامتها وبقائها ، وفى فصلها وانتهائها ، وسبحانه الله العليم الخبير •

التشبيه فى القرآن

١٠٥ — انتهينا الى أن التشبيه فى القرآن ليس هو مقياس البلاغة ، لأن البلاغة القرآنية العالية كما تكون فى حال التشبيه والاستعارة والمجاز ، تكون أيضاً فى الكلام الخالى من كل هذا وأخص ما يكون ذلك فى آيات الأحكام ، وقد يكون فى القصص والاستدلال ، وغير ذلك مما نعرض له ، وقد تلونا عليك آيات من آيات

الأحكام ، وجدنا فيها النص الكريم فى حقائقه ، وفى بعده عن كل المحسنات البديعية أعلى من كل كلام ، وهو بديع فى ذاته من غير حاجة الى البديع الصناعى ، أو الاصطلاحى ، فانه فوق قدر البشر ، وفوق ما يصطنعه البشر ، وما يصطلح عليه العلماء ، وانه يتعلم منه ،وان كان لا يحاكى ، ويؤخذ منه وان كان الوصول الى مقامه غير ممكن .

ولنتكلم الآن فى تشبيه القرآن .

لقد ذكر الرمانى فى رسالته النكت فى اعجاز القرآن : « التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حس أو عقل وان ذلك التعريف يضع المشبه والمشبه به فى مرتبة واحدة ، وانى لا أرى ذلك ، ولا يراه علماء البلاغة الذين جاءوا بعد أبى الحسن الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ — فانهم يعرفونه بأنه جعل أحد الشيئين فى مقام الشىء الآخر لأمر مشترك بينهما . وهو فى ثانيهما أقوى مظهراً أو أبين مخبراً ، كما تقول على كالأسد فى الشجاعة ، فهو فى الأسد أظهر ، ولا يمكن أن يقال : « ان أحدهما يسد مسد الآخر ، صورة أو معنى » .

ولنترك التعريف مع رأينا فيه ، ولننظر فى قوله من بعد ، فهو يقول : « وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء، وتظهر فيه بلاغة البلغاء ، وهو على طبقات فى الحسن، فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما ، والأظهر الذى يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه » ويذكر وجوه التشبيه وأنواعه فيقول فى ذلك :

« منها اخراج ما لاتقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، ومنها اخراج ما لم تجربه عادة الى ما جرت به عادة ، ومنها اخراج ما لا يعلم بالبديهة الى ما يعلم بالبديهة ، ومنها اخراج مالا قوة له فى الصفة الى ماله قوة فى الصفة ، فالأول نحو تشبيه المعدوم بالغائب ، والثانى تشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، والثالث تشبيه اعادة الأجسام باعادة الكتاب ، والرابع تشبيه ضياء النهار » .

ولاشك أن هذه الوجوه لا تشمل كل أقسام المقسم ، فمن التشبيهات ما ليس بوجه من هذه الوجوه كتشبيه غير الواضح بالواضح كما ترى ذلك فى كثير من

الآيات القرآنية ، وكالتشبيه الذى يقصد به بيان ما أكنه سبحانه وما خلق وما دبر فهو تقريب بالمغيب عنا الى المعلوم لنا ، وما عنـــد الله أعظم وأكبر ، وقد يكون التشبيه لتقريب المعنى الكلى من المعنى الجزئى أو لتصوير المعنى الكلى فى بعض جزئياته ، كقوله تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون (١) فانه كان عقد المشابهة بين المعنى الكلى، وهو المعنى الجامع الذى يوضح به الحقائق بالأمثال التى ضربها وبينها للناس ، ومن ذلك الأمثال التى تضرب لتقريب أصـــل الخلق والتكوين من عقول المكلفين ، وهكذا وقد يكون هذا يتضمنه مطوى كلامه ، ولكنه غير بين •

ولقد قسم أبو الحسن الرمانى التشبيه بالنسبة للغرض منه الى قسمين فيقول التشبيه على وجهين تشبيه بلاغة وتشبيه حقيقة ، فتشبيه البلاغة كتشبيه أعمال الكفار بالسراب ، وتشبيه الحقيقة نحو هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت» •

ونحن نقول ان ذلك التقسيم يجوز أن يكون بالنسبة لكـــلام الناس ، أما القرآن الكريم ، فان كل تشبيهاته ، فيها البلاغة وفيها الحقيقة ، والمثل الذى ذكره وان كان فى أعلى درجات البلاغة هو الحقيقة ، فان التشبيه صادق فى الواقع لأن أعمال الذين كفروا هى السراب الذى ليس له واقع ، ولكنه وهم يسيطر بابصـــار ضال ، فكما أنه لا جدوى والمتعلق به لا يتعلق بأمر واقع ، فكذلك اذا رأوا أن أعمالهم فيها خير يعود عليهم فهم واهمون ، والصفة المشتركة فى التشبيهين هى أن الوهم وهو ما ليس واقعاً وتصوروه على أنه واقع ، فقـــد تصوروا أن أعمالهم حسنة ، اذ زينت لهم أمراً حسنا ، كمن يرى السراب فيحسبه ماء وهو ليس بماء •

ولذلك نقول ان الوجهين محققان فى كتاب الله تعالى ، ففى التشبيه القـــرآنى الحقيقة الصادقة ، والبلاغة القائمة المعجزة • وقد أتى بالأمثلة على وجه التشبيه التى ذكرها ، وتبعه الباقلانى فى كتابه اعجاز القرآن ، فلا ضير علينا اذا تابعناه ، كما تابعه من كان عصره على مقربة من عصره •

١٠٦ — وقد ذكر الرمانى ، وتبعه الباقلانى مثـــلا للتشبيه الذى شبه فيـــه

---

(١) الحشرات : ٢١

ما لايقع عليه الحس مما يقع بقوله تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً (١) .

هذا ما ساقه الرمانى من الآية ، ولنتمه ببيان مافيها من تشبيه ، فقد قال تعالى بعد ذلك « ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٢) .

وقد علق الرمانى على التشبيه الأول فى الآية الأولى ، فقال : « وهذا بيان قد أخرج ما لاتقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، وان اجتمعا فى بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ، ولو قيل يحسبه الرائى ماء ثم يظهر أنه كان على خلاف ما قد رأى لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن لأن الظمآن أشد عليه حرصاً ، وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الأمنية حصل على الحساب ، الذى يصيره الى عذاب الأبد ، نعوذ بالله من هذه الحال ، وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف اذا تضمن ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة وصحة الدلالة .

ولم يبين لنا الرمانى ، لماذا كان تعبير القرآن فى التشبيه حيث يرى السراب أبلغ من أن يقال يحسبه الرائى ماء ، لم يبين بوضوح أوجه ذلك ، ونرى أن قول القائل يحسبه الرائى ماء يفسد التشبيه ، ولا يفيد الحاجة ، لأن النص فيه ما يفيد الرغبة فى طلب الماء وشدة الحاجة اليه ، وذلك محقق فى المشبه ، اذ أن الذين كفروا بآيات الله فى وقت حاجتهم الى عمل صالح يظنون أن عملهم هذا منه وهم محتاجون الى ما يتقدمون به الى ربهم من عمل صالح فهم فى وقت حاجة الى عمل صالح ، كالظمآن يطلب الماء .

وان التشبيه يدل على حيرة الكافرين ، حتى يتوهموا ما لايقبل الوقوع واقعا وقد أكد حيرتهم ما جاء بعد ذلك ، اذ يقول سبحانه وتعالى : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا

---

(١) النور : ٣٩ (٢) النور : ٣٩ — ٤٠

أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (١) » .

فاذا كان التشبيه الأول شبه حالهم بحال من يتوهمون فى عملهم خيرا ، فيكونون كالظمآن يحسب السراب ماء لحيرتهم ، واضطرابهم وحاجتهم الى الماء ، فالمثل الثانى يصور حيرتهم ، بسبب أنهم فى ظلام دامس فقد شبه سبحانه وتعالى حالهم من حيث الحيرة والتباس الأمور عليهم ، وانقطاع الادلة وانهم يظنون الخير حيث لا مظنة ، أعمالهم بظلمة حالكة فوقها ظلمة مثلها ، وفوق هذه الظلمات سحاب يوجد غمة ، فليست أعمالهم خيرا ولكنها شر عظيم عليهم ، وهم يضاعفون من الظلمات بتوالى أعمالهم الشر فيهم ، وسيرهم فى طريق الغى الذى لا حد له ، وقد تكاثف عليهم سوء ما فعلوا .

وخلاصة ما يستنبط من التشبيهين أنهم فى حيرة يطلبون ما ينجيهم فلا يجدونه ، واذا توهموه فى أمر زال الوهم بالحقيقة المبصرة ، وأنهم بسوء أعمالهم فى ظلمات بعضها فوق بعض وهى فى نفوسهم ، وما يحيط بهم ظلمة داكنة لايجدون بصيصا من الأمل يفتحون أعينهم لرؤيته .

والتشبيهان يعطيان صورتين من البيان، تدلان على كمال الحيرة وكمال الظلمة، فالمثل الاول يعطى صورة عطشان يطلب الماء ، فيتوهمه فى سراب فيجرى وراءه عطشان صادياً ، حتى اذا أجهدته المشقة وبعد الشقة لا يجد شيئاً ، والثانى يعطى صورة لشخص كانت عليه الظلمات توضع واحدة فوق واحدة ، واذا كانت فيها فرجة يرجو منها الرؤية لا يصل اليه النور للسحاب الذى به كانه الغمة ، ومن تشبيه الأمر غير المحسوس بالأمر المحسوس ، كالمثل السابق فى قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لايقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد (٢) » .

ويقول الرمانى فى التعليق على التشبيه « فهذا بيان قد أخرج ما لاتقع عليه الحاسة الى ما تقع عليه الحاسة ، فقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الهلاك وعدم

---

(١) النور : ٤٠ . (٢) ابراهيم : ١٨ .

الانتفاع ، والعجز عن الاستدراك لما فات ، وفى ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة » هذا كلام الرمانى» وهو صدق ، وانى أذوق من التشبيه شيئاً بيانياً آخر، ذلك أن أولئك الكافرين كانوا يحسبون أن أعمالهم لها أثر فى الوجود فى زعمهم، ويتوهمون وقوع ذلك وأنهم قدموا ، ولكنهم يفاجئون بريح شديدة فى يوم عاصف ، تبدد ما كانوا عليه من أحلام ، كانوا يتوهمون أن مالهم فى الدنيا ينفعهم فلما جاء يوم القيامة بددت أحلامهم ، فتقدموا عاطلين فى حلبة العمل الطيب وكان ذلك هو الضلال البعيد ، لأنهم زعموا باطلا ، ثم رأوا الحقيقة عيانا وفى ضمن القول عبر عن عملهم بأنه سراب ، أى أنه شىء ليست له قيمة ذاتية بل هو هباء فى ذاته .

١٠٧ — وقد جاء الرمانى بمثل فيه تشبيه ما لم تجربه العادة بما تجرى به العادة ، وهو قوله تعالى فى توثيق الميثاق على بنى اسرائيل « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون (١)» ويقول فى ذلك الرمانى « وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة الى ما جرت به العادة ، وقد اجتمعا فى معنى الارتفاع فى الصورة ، وفيه أعظم الآيات لمن فكر فى مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو علمه به ، ليطلب الخير من قبله ، ونيل المنافع بطاعته » .

هذا ما ذكره الرمانى فى معنى التشبيه . وهو تشبيه ما لم تجربه العادة ، الى ما جرت به العادة ، كأن التشبيه كان لغرض تقريب المعنى ، وتصوير الغريب كأنه قريب ، وذلك فى تشبيه الجبل مرتفعاً كأنه ظلة ، وهذا المعنى فى ذاته صحيح ولكنه فيما أعتقد ، لا يصور معنى التشبيه من كل الوجوه ، لأن رفع الجبل كان لتوثيق الميثاق عليهم ، وحملهم على الأخذ به واثبات قدرة الله تعالى ، والقاء المهابة فى قلوبهم ، فالتشبيه بالظلة للدلالة على الاحاطة وتصويره لهم كأنه نازل بهم واقع عليهم ، ليعرفوا أن ميثاق الله له رهبته وأن عليهم طاعته ، ولذلك قال سبحانه بعد أن رأوا الجبل مرفوعا عليهم وأنه محيط بهم « خذوا ما آتيناكم بقوة — أى بعزم

---

(١) الاعراف : ١٧١.

شديد — واذكروا مافيه لعلكم تتقون » .

ومن هذا النوع الذى ذكره الرمانى قوله تعالى : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى اذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات ، لقوم يتفكرون » (١) .

وقد خرج الرمانى التشبيه كالآية السابقة فى نظره ، فقال : « قد أخرج ما لم تجربه العادة ، الى ما جرت به العادة ، وقد اجتمع المشبه ، والمشبه به فى الزينة والبهجة ، ثم الهلاك بعده ، وفى ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر فى أن كل فان حقير ، وان طالت مدته ، وصغير ، وان كبر قدره » .

وما ذكره الرمانى حق فى ايجازه، ولكنه ناقص ونوضحه بعض التوضيح فنقول ان التشبيه تصوير للحياة ، فان مثلها فى بهجتها ومسراتها ، وهناءتها والسعادة فيها مهما تبلغ من المظهر البهى ، والزينة الباهرة ليس لها بقاء ، وانما مآلها الى الفناء ، كمثل الماء ينزل من السماء فينبت النبات الذى يأكل منه الناس مستمتعين، والأنعام والدواب ، وانه اذ يبلغ أقصى زخرفه ونضرته ومتعته ، وامتلاء أهل الأرض بالغرور ، وظنوا أن كل شىء فى قبضة أيديهم جاءهم أمر الله ، فصار النبات هشيما ، والانسان رميما كان لم يقم أحد بالأمس .

وان ما ذكره الرمانى صادق فى ايجازه ، ولكنه لا يصور الصورة التى يدل عليها التشبيه ، وهو يريك الحياة كالعروس فى جلوتها ، ثم كالهشيم فى صغاره .

ومن التشبيهات التى ساقها الرمانى قوله تعالى : « انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » (٢) .

ويقول الرمانى فى بيان وجه التشبيه ، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة

---

(١) يونس : ٢٤

(٢) القمر : ١٩ — ٢٠

الى ماقد جرت به عادة وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما واهــلاكه اياهما وفى ذلك توحد الآية الدالة على عظيم القدرة ، والتخويف من تعجيل العقوبة •

وان هذا القدر الذى ذكره الرمانى متحقق ، ولكن لا يمكن أن يكون وجــه التشبيه هو تشبيه مالم تجر العادة به بمــا جرت به العادة فقط ، انمــا الألفاظ والأسلوب ، وما يثيره من صور بيانية تعلو به عن أن يكون لمجرد اثبات مالا تجرى به العادة الى ماتجرى • انما المقصود من التشبيه فيما نحسب تصوير عذاب الله تعالى ، فالله تعالى أرسل عليهم ريحاً شديدة البرد ، فى يوم كله بأس وشدة ، وهو كالنحس عليهم ، طويل فى آلامه ، ومستمر فيها ، ولو كان فى الزمن قصيرا ، ثم يصور الله تعالى نزع المشركين من غرورهم واعتزازهم بمالهم وطغوائهم، وينزعون بعنف شديد لايقوون فيه على الامتناع ولا الاصرار على البقاء ، كمــا تنــزع مؤخرات وجذور نخل غاصت جذوره فى أعماق الأرض •

هذا بريق التشبيه المرعد الذى يصور ما ينزل بالمشركين الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد •

ومن التشبيهات التى ذكرها الرمانى على أنها تقرب ما لم تجريه العادة الى ما جرت به العــادة ، قوله تعالت كلماته « فاذا انشقت السمــاء ، فكانت وردة كالدهان » (١) •

وقال فى التشبيه قد أخرج ما لم تجربه عادة الى ماقد جرت به عادة ، وقد اجتمعا فى الحمرة وفى لين الجراهر السيالة ، وفى ذلك الدلائل على عظم الشأن ونفوذ السلطان لتنصرف الهمم الى ما هناك بالأمل •

وان تصوير التشبيه ، وقصره على ذلك الوجه ، وهو تشبيه ما لم تجــربه عــادة الى ما تجرى به عادة ربما يكون غير مصور لمعنى التشبيه ، وما يثير من صور •

ان التشبيه تصوير لما يقع اذ تقوم القيامة ، فالسماء ذلك البناء الذى تجرى

---

(١) الرحمن

فيه الكواكب والنجوم ، كل فى مساره ، وهى البناء الذى بناه الله تعالى شامخاً عظيماً ذا بروج صار وردة كالدهان .

وفى ذلك تصوير للدنيا اذ تقوم القيامة ، فتكون السماء لينة كالورد الذى يشبه الدهن مبالغة فى ليونته التى تصل الى حد السيولة .

١٠٨ — ويسوق الرمانى أمثلة أخرى يتبين فيها تشبيه ما لم يعلم الا بالنظر بما يعلم بالبداهة من غير محاولة نظر واستدلال ، ومن ذلك قوله تعالى : « وجنة عرضها كعرض السماء والارض » (١) ، ويقول فى التشبيه هنا ، قد اخرج مالا يعلم بالبداهة الى ما يعلم ، وفى ذلك البيان العجيب بما قد تقرر فى النفس من الأمور ، والتشويق الى الجنة بحسن الصفة مع مالها من السعة وقد اجتمعا فى العظم .

وانا نجد الآية الكريمة فى تشبيهها ليست من قبيل تشبيه ما لا يعلم بالبداهة بما يعلم بالبداهة ، فاننا نرى أن كليهما لا يعلم بمجرد البداهة ، بل يعلم بالنقل المصدق ، فهما سواء فى صلتهما بالعلم الضرورى ، وانما اذا قيل ان المراد تصوير المعقول بما يتصور أن يكون مشهورا محسوسا والجميع باخبار الله تعالى ، لا بمجرد النظر ، سواء كان الامر ضروريا أم نظريا . واننا اذا تلونا ما قبل هذا النص وما بعده وهو قوله تعالى : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماء والارض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم (٢) » .

ونرى من هذا أن المراد السعة فى النعمة ، وان السعة فى النعمة كالسعة فى المكان ، وهى تدل عليه ، والمراد من الكلام كله الحث على طلب مغفرة الله تعالى ، وان الكلام كله يصور الجنة ، بأنها خير الوجود كله ، وأنها أوسع ، وأنه اذا كانت النار تسع كل المجرمين ، لان لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم ، فالجنة تسع المتقين الابرار ، لانها واسعة عريضة كعرض السماء والارض .

---

(١) الحديد : ٢١ (٢) الحديد : ٢١

ومن التشبيه الذى ذكره الرمانى على أنه تشبيه ما لايعلم بالبداهة الى مايعلم قوله تعالى « مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » (١) ثم قال : وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة الى ما يعلم بالبديهة ، وقد اجتمعا فى الجهل بما حملا. وفى ذلك العيب أن ضيع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير ولسنا نرى فى الكلام ما يدل على أن المشبه لا يعلم بالبداهة ، والمشبه به يعلم بالبداهة . ان الذى نراه ليس علم الرواية وعلم الدراية ، انما الذى تتجه اليه الآية الكريمة فى صدرها ونهايتها ، هو تشبيه علم لا يقرنه العمل ، بعدم العلم ، فهم يحملون علما لا ينتفعون به ، بل يعملون بنقيضه ، يحملون علم الهداية ولا يهتدون ، كمثل الحمار يحمل أسفارا .

وكان تشبيههم بالحمار الذى يحمل أسفارا وهو غير صالح للانتفاع ، وفى التعبير القرآنى اشارة بيانية تبين أن العمل هو ثمر العلم ، ولا يقال انه قد ناله من أخذه من غير عمل ، وذلك قوله تعالى : « حملوا التوراة ثم لم يحملوها » ان الله حملهم التوراة علماً لأجل العمل ، فعلموها ولم يعملوا بها . فكانوا غير حاملين.

١٠٩ — وقد ساق الرمانى من تشبيهات القرآن تشبيهات فيها المشبه يكون أضعف صفة من المشبه به فيلحق به لأنه أقوى صفة منها ، ومن ذلك قوله تعالى : « وله الجوار المنشئات فى البحر كالاعلام » (٢) ويقول فى ذلك فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له فى الصفة الى ماله قوة فيها ، وقد اجتمعا فى العظم الا أن الجبال أعظم ، وفى ذلك العبرة من جهة القدرة ، فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما فى ذلك الانتفاع بها ، وقطع الاقطار البعيدة فيها .
وان ذلك الكلام حق ، فانه اذا كان الجميع بين المشبه والمشبه به القوة ، فالجبل أقوى ، واذا كان الظهور فالجبل أظهر ، ولكن يلاحظ أن المقصود من التشبيه لا يعنى به الرمانى كثيرا، بل تكون عنايته بالاوصاف الظاهرة، أو المقاصد القريبة.
وان المقصود فى هذا السياق هو بيان سر الله تعالى فى خلقه وتسخيره للانسان ، فانه اذا كانت الجبال والأوهاد وجدها الانسان كذلك ، وهى رواسى الأرض ، وبها

---

(١) الجمعة : ٥ (٢) الرحمن : ٤٢

ثباتها ، فان الجوارى ، وهى السفن التى تتقارب فى علوها وفى قوتها وأثقالها الجبال تجرى على الماء وهو يحملها مع أنه سائل لا صلابة فيه وتجرى فيه ، وتنقلهم الى بلد لم يكونوا واصلين اليه بغيرها ، فقدرة الله تعالى فيها أظهر،لانها منشأة ترى نشأتها ، وهى تجرى بأمر الله تعالى ولا يجرونها •

ويضرب الرمانى مثلا فيما يجرى فى المعنويات ، ومن ذلك قوله تعالى «أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر (١) • ثم يقول : وفى هذا انكار لان تجعل حرمة السقاية والعمارة كحرمة من آمن بالله وكحرمة الجهاد ، وهو بيان عجيب وقد كشفه التشبيه بالايمان الباطل والقياس، وفى ذلك الدلالة على تعظيم حال المؤمن بالايمان ، وأنه لا يساويه مخلوق على صفته فى القياس • ومثله قوله تعالى « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات » (٢) •

ونجد الرمانى فى المثال يأتى بالتشبيه منفيا مستنكرا ، كما أتى به محققا موجها، فان الاستفهام هنا لانكار الواقع، فهم قد آثروا أن يكونوا عامرين للبيت، قائمين بالسقاية والرفادة ، وتنافسوا على ذلك زاعمين أن فيه الخير كله ، وأنه قد يغنيهم عن الايمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله ، بل يزعمون أنهم بسدانة البيت الحرام ، والقيام على السقاية والرفادة أفضل ممن آمن بالله وجاهد فى سبيله • والحقيقة أنهما لا يستويان ، فالانكار المشابهة والتساوى بينهما فضلا عن اعتبار السقاية والعمارة أفضل وأشرف • والله سبحانه وتعالى أعلم •

هذا ما ساقه الرمانى من وجوه التشبيه ، وقد نقلناها ، كما نقلها الباقلانى لانها وجوه لها اعتبارها ، ولان فيها ضبطا لاقسام التشبيهات القرآنية ، وان كانت غير شاملة لكل الأقسام ، بل انها ذات وجوه شتى •

ولكنه لم يتعرض الا قليلا لأغراض التشبيهات ومراميها ، وما تصوره من صور بيانية ، وما تتجه من بسط للمعانى النفسية ، وتوجيه للحقائق الكونية والروحية ،

---

(١) التوبة : ١٩　　　(٢) الجاثية : ٢١

ووصف للملائكة الأطهار ، والآدميين الأخيار .

ولنضرب بعض أمثلة لتشبيهات القرآن الكريم التى تجعل فيها المعانى كأنها صور محسوسة لافتة العقول الى الكون وما فيه ، اقرأ قوله تعالى فى تشبيه المنافقين وترددهم بين الحق والباطل ، وظهور ضوء الحق ، وعمى بصائرهم عنه ، فقد قال تعالى :

« مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون (١) » ، وترى هنا تشبيه حال المنافق المضطرب بين الحق والباطل ، ولكن يريد الحق تابعا لهواه ، فهو يطلبه ليستضىء بنوره ، ولكن ما أن يبدو النور ، حتى يصاب بالعمى بسبب الهوى الذى يسيطر على قلبه ، فيضىء النور ما حوله ، ولا يستضىء به ، وهو الذى استوقد النار ، ثم ينتهى أن يصير كالصم الذين لا يسمعون ، لأنه لا يستمع لنداء الحق ويصير كالبكم ، لأنه لا ينطق بالحق الذى يجب عليه أن ينطق به ، وكالأعمى الذى لا يميز بين الاشياء لأنه وقد طمس الله تعالى على بصيرته ، فأصبح لا يميز بين باطل استهواه لفساد قلبه ، وحق قامت البينات عليه ، وفى الحكم عليهم بالصم والبكم والعمى تشبيهات فردية ، وهى تقوم على التشبيه .

والتشبيه فى هذا النص تشبيه حال بحال ، والآية صريحة فى ذلك لأن الله تعالى يقول : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » أى حالهم كحال الذى استوقد نارا ، فهو تشبيه تمثيلى شبهت حال المنافقين ، وأكثرهم من اليهود فى كونهم كانوا يتطلعون الى نبى قد حان حينه ، وأدركهم ابانه ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلما بدا الضوء من حولهم ، ولم يستضيئوا هم به ، فلم يهتدوا بقول سمعوه ، ولا انطلقوا بحق عرفوه ، ولا استرعتهم بينات رأوها فكانوا صما بكما عميا .

وقد ضرب سبحانه وتعالى فى السياق القرآنى مثلا بتشبيه آخر ، يمثل جانبا من جوانبهم ، فقال بعد التشبيه الأول « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد

---

(١) البقرة : ١٧

وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ،يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، ان الله على كل شىء قدير (١) » .

وفى هذا المثل شبه سبحانه وتعالى حالهم بأمرين : كل واحد منهما تشبيه قائم بذاته ، أولهما : أنه سبحانه وتعالى شبه حالهم بحال قوم أصابهم مطر شديد ينصب عليهم انصبابا ، صحبه غمام بعد غمام فيه ظلمة بعد ظلمة وفيه رعد وبرق ، وفيه الانذار بالعذاب الشديد ، فهم فى خوف ووجل يحسبون كل صيحة فيها الموت ، ويجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، وفى هذا تصوير لنفس منافقة ، فهى نفس تائه فارغة دائما لا تستقر على أمر ، ولا تطمئن على قرار ، فهم فى اضطراب ، لأنهم لا يؤمنون بشىء ، والايمان هو المطمأن دائما . الا بذكر الله تطمئن القلوب ، واذا كان التشبيه السابق يصور حالهم فى طلب الدليل وعدم الاخذ به لغلبة الهوى، وسيطرة الشهوة، والجحود الموروث، فهذا التشبيه يصور حالهم من هلع مستمر وخوف من غير مخوف ولذلك يقول بعض علماء النفس : ان النفاق منشؤه ضعف فى النفوس .

والتشبيه الثانى متفرع عن التشبيه الأول ، وان كان يصلح تشبيها قائما بذاته وهو ما أومأ الله اليه تعالى بقوله : « يكاد البرق يخطف أبصارهم » وان هذا تتميم للأول ، وهو أيضا قائم بذاته ، فانه اذا كان الرعد يجعلون أصابعهم فى آذانهم به ، فالبرق الذى يصحب الصيب شديد مفزع له بريق يكاد يخطف أبصارهم ، ولكن كان هو تشبيها لحالهم ، وهى أن المنافق متردد دائما . فالبريق يضىء لهم فيمشون فيه، ولكن سرعان ما تظلم عليهم نفوسهم فيقيمون حيث هم من نفاق ، ويختم الله تعالى النص القرآنى فى هذا التشبيه المحكم ببيان قدرة الله تعالى وسيطرته عليهم وأنه سبحانه لو شاء لأفقدهم سمعهم وبصرهم حقيقة ، كما فقدوا سماع الحق استماع انصات ، وادراكه ادراك طالب للحقيقة.

---

(١) البقرة : ١٩ — ٢٠

والتشبيه فى هذا المثل كسابقه ، تشبيه تمثيلى ، انه شبه حالهم فى ضعف نفوسهم والبلبال المسيطر عليهم واضطراب أحوالهم بحال قوم أصابهم مطر لم يكن غيثا منقذا ، بل كان مرهبا ومفزعا ، فكانوا فى خوف واضطراب من غمام مظلم ، وريح عاصف ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف وصاروا يجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر الموت ، فهو تصوير لضعفهم وفى التشبيه الثانى الذى هو فرع بالنسبة لما قبله تصوير لفزعهم من البرق ، وتصوير لكون أسباب الهداية بين أيديهم وهى فى ذاتها مضيئة ، ولكنها تظلم عليهم فيقيمون على نفاقهم ، ويستمرون فى غيهم ، والله قاهر فوقهم ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم •

١١٠ — وقبل أن نغادر الكلام فى التشبيه الى الاستعارة ، وهى لون من ألوانه لابد أن نشير الى أمور ثلاثة :

أولها — أن التشبيه بلا شك من أسرار الاعجاز ، ويعده الباقلانى من أسباب الاعجاز ، ولكن يعد الكلام فى القرآن من غير مجاز ولا تشبيه بأى لون من ألوانه معجزا بلغ ذروة البلاغة من غير أن تعرف سببا واضحا يدرس على أساسه ، وتتعرف أسرار البلاغة فيه من اشعاعه وليس معنى ذلك أن الاعجاز ليس بيانيا ، بل هو بيانى ، ويبدو ذلك فى تساوق المعانى ، وأخذ الألفاظ بعضها بحجز بعض فى احكام قول • ونغم ورنين يكون أحيانا شديدا يصك آذان المنذرين ، وأحيانا كأنه نسيم عليل يحيى النفوس ويشفى أسقام القلوب وأحيانا يكون وصفا عميقا لخواطر النفوس ، وما يستكن فى القلوب ، وهذه هى البلاغة فى القرآن التى تعلو عن أن توضحها الأفهام كما يرى ضوء الشمس ولا يعرف كنهه ، وكما تحس بالحرارة الدافئة ، ولا تعرف ماهيتها ، والله على كل شىء قدير •

الأمر الثانى — أن تشبيهات القرآن أيا كان وجهها صور بيانية ، تتضح منها الحقائق الظاهرة ، والمعانى العاطفة ، كأنها أمور محسوسة مرئية ، فاذا كان التشبيه بأمر محسوس كانت الصورة البيانية كأنها مرئية واضحة ، فالتشبيه الأول من تشبيهات المنافقين تقرؤه كأنك ترى رأى العين رجلا استوقد نارا ، والسين والتاء للطلب ، وهما يدلان على أنه بذل مجهودا فى طلب الضوء ، وعالج الأمور

فى طلب الوقود ، حتى وصل اليه بجهد ومشقة ، ولكن ما أن أضاء حتى ثبت أنه لم يكن فى الضوء فائدة له ، لانه غلبته شهوته ، فغلبت شقوته فكان الضوء لمن حوله ولم يكن له ، فلم ير النور الذى طلبه ، وأصم أذنه عن الحق، وانقبض لسانه فلم ينطق بحق ، والبيان القرآنى الكريم صور ذلك كأنك تراه ، لا تقرؤه تعالت كلمات الله •

والتشبيه بما تضمن من تشبيه فى آخره ، يريك صورة الضعف ، وما يحدثه النفاق فى النفوس من ضعف يجعلها تطير حول كل مطار ولا تطمئن على قرار ، فهى تسير برعونة نحو المطامع ، وتستخذى وتذل وتخنع أمام المفازع ، وقد شبههم بقوم نزل عليهم مطر ينصب انصبابا ، والظلمات قد صارت كسقف مرفوع فوقهم والرعد بهزيمه يزعجهم ، والبرق يخطف أبصارهم ، وذلك تصوير كأنه المرئى ، وتبين لمعنى الخوف والاضطراب الذى يسكن قلوبهم ، ويجعلهم بين خوف يؤرقهم ، ومطامع تحركهم ، والشر يحوط بهم فى كل أحوالهم •

الأمر الثالث الذى نجده فى تشبيهات القرآن أننا نجده يقرب المعانى ، ويأخذ من التشبيهات الأدلة المفرقة بين الحق والباطل ، اقرأ قوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون • وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم » (١) •

ونرى أن التشبيه الأول من قبيل التمثيل ، وهو تشبيه حال من يعبد الأصنام اذ يسوى بينها وبين الخلاق العليم — بحال من يجعل العبد المملوك الذى لا يقدر على شىء بحال من رزقه الله تعالى رزقا حسنا ، وهما لا يستويان حالا وشأنا ، والنتيجة لايستوى صنم لا يقدر على شىء بالله تعالى الذى يملك الوجود كله ، وهو على كل شىء قدير •

وفى التشبيه الثانى كان التشبيه بين حال المشركين فى تسويتهم بين الله القادر ، والحجر الذى لا يضر ، ولا ينفع ، وحال من يسوى بين رجل أبكم وهو كلّ ،

---

(١) النحل : ٧٥ — ٧٦

وبين رجل ينطق بالحكم ويقيم العدل لا يستويان ، فلا تصح عبادة الأوثان وتسويتها بالله .

وان الله سبحانه وتعالى يقرب الحقائق بين قوم حسيين بالمحسوسات ، يضرب الأمثال بالتشبيهات لتقريب الحقائق ، وتوضيح الأدلة بما يقربها ، ولو كان ذلك بالاشياء التى يستحقرها المشركون، وهى فى ذاتها ليست بحقيرة ، ولكنها جليلة ، لأنها من خلق الله تعالى ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك : « ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به الا الفاسقين » (١)

وبعد فان القرآن غذاء الأرواح ، ومائدة الله للنفوس مختلف ألوانها ، وكلها طيب الثمرات ، نفعنا الله به ، وجعله درعنا فى الأحداث التى تنزل بنا نأوى عنده ونركن اليه ، ولا تعشو الا الى ضوئه .

الاستعارة

١١١ — الاستعارة ضرب من ضروب التشبيه وتكون العلاقة بين المعنى الأصلى للفظ بالوضع الأصلى والمعنى فى الاستعمال المجازى المشابهة ، فاذا قال القائل عن رجل شجاع معبراً عنه بكلمة الأسد ، أو قال عن رجل خطيب شجاع انه على بن أبى طالب فان العلاقة تكون فى الأول الشجاعة التى يضرب بالأسد المثل فيها ، وفى المثل الثانى الشجاعة والخطابة .

وعلى ذلك يكون بين التشبيه والاستعارة اتصال ، وان شئت فقل انها طريق من طرق التشبيه أو هى تشبيه فيه مبالغة فان المشبه يدعى فيها أنه فرد من أفراد المشبه به ، ولذلك لابد فيها من أمرين : أولهما ألا تكون ثمة أداة تشبيه كالكاف أو الاستعمال أو أن يكون المشبه محمولا عليه والمشبه محمولا مثلا ، وألا يكون المشبه مذكوراً بأى صورة من الصور ، وثانيهما — أن يكون اللفظ الدال على المشبه

---

(١) البقرة : ٢٦

به لفظاً عاماً كاسم جنس ، لكى يدخل المشبه فى عموم أفراده بمظهر اللفظ ، كأن يقول نقدم للأعداء أسد له لبد ، فانتقم الله تعالى به منهم ، فان قرينة القول تدل على أنه انسان ، وكأنك ادعيت أنه من أفراد الأسد ذلك الرجل الشجاع الذى أطلقت عليه اسم الاسد .

وقد عرف أبو الحسن الرمانى الاستعارة ، فقال : وهى تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للابانة . وهذا التعريف هو فى معنى ما ذكرنا ، غير أنه أشار الى أن الاستعارة نقل اللفظ من المعنى الذى وضع له الى معنى آخر لعلاقة المشابهة بين المعنيين . وهو فى المعنى ادعاء أن لفظ المشبه به اتسع حتى صار عاما ، فدخل فى عمومه المشبه ، ويفرق بين المعنى بالوضع الأول والمعنى بالوضع الثانى بالقرينة ، فهى مانعة من ارادة المعنى بالوضع الأصلى .

والاستعارات فى ألفاظ القرآن كثيرة منها قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويه الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب » (١) .

فالتعبير بأم الكتاب تعبير مجازى بالاستعارة ، لأن الأم هى الأصل وهى التى تقوم على أولادها ، ويرجعون اليها فى غذائهم وعواطفهم ، فشبهت بها الآيات المحكمات التى هى أصل الدين ومرجعه ، واذا كانت متشابهات ، فهى تفسير بالرجوع الى هذا الأصل ، وهو المحكمات .

ومثل ذلك قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (٢) ولتعبير مجازى بالاستعارة ، والمراد بالأم الأصل ، وهو الشريعة المتفقة فى كل الديانات ، فبنسخ الله تعالى ، وثبت ، ولكن أصل هذه الشرائع لا يتغير ، وهو

(١) آل عمران : ٧ (٢) الرعد : ٣٩

الذى بينه الله تعالى فى قوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب » (١) .

ومن الاستعارة فى الافعال قوله تعالى : «ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن (٢)» . فقد شبه سبحانه وتعالى تقديم المؤمنين أنفسهم رجاء ما عنده من نعيم مقيم ، ورضوان من الله أكبر شبه ذلك بمبايعة بينهم وبين ربهم لكمال الالتزام عليهم ، ورجاء ما طلبوه من رضوان ونعيم مقيم ، وهى استعارة تمثيلية ، والاستعارة التمثيلية فيها تشبيه حال بحال ، لا تشبيه ألفاظ مفردة يمثلها ، وان المشبه محذوف ، ولذا تحقق كونها استعارة .

ومن الاستعارة التعبير عن النفاق بالمرض ، وان ذلك كثير فى القرآن ومنه قوله تعالى فى وصف المنافقين : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا »(٣) وقوله تعالى « واذا ما أنزلت سورة ، فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون » (٤) .

وفى الآيتين الكريمتين نجده سبحانه وتعالى عبر عن النفاق بالمرض ، وذلك للمشابهة بين مرض الأجساد والنفاق فهو يفسد القلوب ، والعقول والمدارك ، كما يفسد المرض الأجساد ويضعف الحركات وقد يشلها ، ومعه الوهن دائما .

ومن الاستعارات القرآنية التى تعلو الى أسمى مراتب البلاغة ، ولا يصل اليها بيان انسانى ، انما هو بيان القرآن فقط قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (٥) .

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) التوبة : ١١١
(٣) البقرة : ١٠ (٤) التوبة : ١٢٤ — ١٢٥

ففى هذا النص السامى تلاقينا عدة استعارات تبلغ أعلى درجات السمو البيانى ، ولنأت من آخر النص الكريم فآخره كأوله فى اجتذاب النفوس والعقول والمشاعر الى معانيه ومبانيه . أضاف اللباس الى الجوع ، وفى ذلك تشبيه اللباس بالجوع من اضافة المشبه الى المشبه به على سبيل الاستعارة ، فالجوع القائم المستمكن الذى يعم فيه القل ويكثر العدم ، والخوف الذى يفزع النفوس ، ويذهب بالاطمئنان ، ويلقى بالاضطراب شبه باللباس السابغ ، لأن اللباس يعم ويكسو الجسم كله ، وكذلك الجوع اذا عم ، والخوف اذا طم ، فانه لا يبقى فى الجماعة أحد لم ينله ، لأن الأزمات الجائحة ، والخوف من عدو داهم لا ينجو منه أحد ، فكان التعبير عن هذه الحال باللباس ، وفوق ذلك فان اللباس يلتصق بالجسم ويلازمه ولا يفارقه ، وكذلك الجوع والهم والغم والخوف ، وفى ذلك تصوير للأمه أو المدينة اذا عمها البؤس والشقاء وداهمها الخوف من كل مايحيط بها .

وهناك استعارة أخرى ، وهى قوله تعالى « أذاقها الله لباس الجوع » فان اللباس يلبس ولا يذاق ولكن لباس الجوع والخوف لأنه يتصل بالنفس ، وبالنعمة تزول بعد أن كفروا بها ، عبر عنه بالذوق ، فشبه حال النزول بحال الاذاقة ، للنزول الذى ترتب عليه أن أحسوا بمرارة المذاق بعد أن كانوا فى بحبوحة العيش ، فكان التعبير بأذاق أنسب لهذا المعنى .

وهناك استعارة تمثيلية ثبتت من مجموع العبارات ، وهو تشبيه حال جماعة من الناس كانت مؤمنة مرزوقة فلما كفرت بالنعم فلم تقم بحقها ، ولم تؤد الطاعات، ولم تنته عن المنهيات بحال قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها واسعاً من كل مكان فجحدت نعمة الله تعالى فضاق رزقها ، وبدلت من الأمن خوفا ، ومن الرغد جوعا .

١٠٢ — ومن الأمثلة التى ساقها الرمانى للاستعارة قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » (١) ويقول فى التعليق على هذا النص الكريم : « أصل الاشتعال للنار وهو فى هذا النص أبلغ ، وحقيقته كثرة شيب الرأس الا أن الكثرة لما كانت

---

(١) مريم : ٤

تتزايد تزايداً سريعاً ، صارت فى الانتشار والاسراع كاشتعال النار ، وله موقع فى البلاغة عجيب وذلك أنه انتشر فى الرأس انتشاراً لا يتلافى كاشتعال النار .

وان هذا التعبير لم يكن معروفا عند العرب ، وذلك أنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار ، للسرعة ، وللبياض ، وللملازمة ، ولأنه ينتهى بتدمير ما تتصل به ، وتجعل حطامه تراباً .

ويسوق الرمانى من أمثلة الاستعارة قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فاذا هم مظلمون » (١) ، ويقول الرمانى فى ذلك : « نسلخ مستعار ، وحقيقته يخرج منه النهار ، والاستعارة أبلغ ، لأن السلخ اخراج الشىء مما لابسه ، وعسر انتزاعه منه لا لالتصاقه به ، فكذلك لباس الليل » .

هذا ما قاله الرمانى ، ولكى نتصور الاستعارة ، وما تضفيه من معان على الحقيقة المجردة ، نقول : ان مفردات الراغب الاصفهانى جاء فيها فى مادة سلخ: السلخ نزع جلد الحيوان . وقال تعالى : « نسلخ منه النهار » أى ننزعه ومؤدى هذا الكلام أن المسلوخ المنزوع هو النهار ، وأن الجسم الذى انسلخ منه هو الليل ، ولذلك قال تعالى كنتيجة للسلخ « فاذا هم مظلمون » أى أن النزع كانت نتيجة أن صار الناس فى ليل مظلم ، ويكون معنى الاستعارة أن القرآن الكريم شبه فيه النهار بالنسبة لليل باهاب من النور أحاط بالليل احاطة الاهاب بالشاة مثلا ، فلما نزع منه كان الليل ، والجامع بين السلخ والنزع ، هو الرفع لشىء ملازم محتك ، ولا شك أن الاستعارة أبلغ كما ذكر الرمانى ، ولكن ماوجه البلاغة المفصلة ، نقول فيما نحسب ان الاستعارة تدل على أن الذى أحاط هو النهار ، ونسلخ لا تدل على أن أيهما هو المحيط بالآخر ولكن المسلوخ هو النهار ، ان هذا يدل ، على أن النور بالنسبة للكرة الأرضية عارض من نور الشمس ، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى دوران الشمس فقال : « والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (٢) .

---

(١) يس : ٣٧

(٢) يس : ٣٨

ومن الاستعارات الواردة فى القرآن التعبير عن العلم والايمان بالنور وعن الكفر والعناد بالظلمات مثل قوله فى أول سورة ابراهيم « الركتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » وقد قال فى ذلك الرمانى : كل ما جاء ذكر من الظلمات الى النور ، فهو مستعار ، وحقيقته من الجهل الى العلم والاستعارة أبلغ ، لما فيه من البيان بالاخراج الى ما يدرك بالابصـــار .

وان الظلمات ليست الجهل فقط ، بل هى تشـــمل الجهل والـكفر والجحود والعصبية الجاهلية وكل ما يسـيطر على الأنفس من غير سـلطان من الحق ، ولا العقل ، ولا الاتجاه الى الحق فى طريق مستقيم لا التواء فيه ، ولذلك عبر عن الباطل بالظلمات ، لأن له أسباباً متكاثفة بعضها فوق بعض والنور واحد ، وهو الحق وطلبه والاذعان له .

وان الاخراج من الظلمات الى النور .نقول انه استعارتان ، ان جعلنا الاستعارة فى معنى الظلمة ، فاستعير لفظ الظلمة وهى حسية للجهل والكفر ، وتحكم الهوى والجحود ، لأن هذه يحدث منها ضلال فى طلب الحق ، كما يحدث الضلال من السير فى الظلام ، فكان وجه الشبه الضلال فى كل ، والايمان مع الاذعان له يبعد عن الضلال، كما يبعد النور عن السير فى الطريق الضال ، ويهدى الى الطريق المستقيم، أو نقول ان القرآن الكريم يشبه حال الضـــالين الذين يطلبون الحق ، ويجدون الهداية ويأخذون بها ، ومع رسولهم الكتاب المبين الذى يهدى بحال أولئك الذين يكونون فى ظلام دامس لا يهتدون معه ويخرجون من الظلمة الحالكة الى النور فهو تشبيه حال بحال بجامع الحيرة ثم الاهتداء فى كل .

١١٣ — ويذكر الرمانى من الاستعارة البيانية قوله تعالى « وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم» (١) ويقول فى ذلك الرمانى العقيم مستعار الريح ، وحقيقته ريح ليس بها سحاب غيث ، والاستعارة أبلغ ، لأن حال العقيم أظهر من حال

---

(١) الذاريات : ٤١

الريح التى لا تأتى بمطر ، لأن ما يقع لأجل حال منافية أوكد مما يقع من حال منافية وأظهر » والمعنى أن الاستعارة هنا فى لفظ عقيم ، لأن العقيم لا يرجى معها خير قط ولا تنتج ، لأن العقم حال تمنع الانتاج ، فعدم انتاج الريح بماء ذكر سببه ، وهى أنها ليست منتجه بذاتها كحال العقيم التى لا تحمل ولا تلد ، والوصف بالعقم مناسب لأنهم توقعوا أن يكون غيثاً ، فكان فيها الهلاك ، ولقد بين الله تعالى معنى عقمها فى آية أخرى فقال تعالت كلماته « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين »(١) •

وهكذا نجد الاستعارات البيانية فى القرآن كثيراً وذلك لأسباب كثيرة نذكر منها ثلاثة :

أولها : أن اللغة العربية لا تتسع للمعانى النفسية السامية فى القرآن ، فانه علم لا تدل على حقائقه ألفاظ ذات دلالة معينة وكانت بلغة العرب الذين لم يصلوا هم ولا غيرهم الى الحقائق العلمية والنفسية التى يتصدى القرآن الكريم لبيانها ، وكشف عيون الحقائق فيها • فكان لابد من الاستعانة بالاستعارة من الألفاظ التى وضعت للمعانى الحسية لتكتشف بها العلوم النفسية والاجتماعية والعقلية ، ولتقرب المعانى الى ذهن الأعراب ، ومن هم أعلى منهم ادراكا لأنه الكتاب المبين ، وليخرج الأميين الى حيث العلم ، والى الكتاب الذى علم الانسان ما لم يعلم •

ثانيها : أن القرآن الكريم فيه الأخبار عن الأمور المغيبة التى وقعت فى الماضى، والأمور القابلة ، وخصوصاً ما يكون فى الجنة وفى النار من عذاب أليم ، فنعيم الجنة فيه فاكهة ونخل ورمان ، وفيها أنهار من عسل مصفى ، وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين ، وهكذا ، ولكن أهى من نوع خمر الدنيا ، وفاكهتها ، لقد ورد عن ابن عباس أنها ليست كخمر الدنيا ، وما يذكر فيها ليس من نوع ما فى الدنيا ، ولا من جنسه ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر •

---

(١) الاحقاف : ٢٥

ونحن نؤمن أولا بأن نعيم الجنة حسى وعذاب النار حسى ، ونؤمن ثانيا ، بأن كل ذلك ليس من جنس ما هو فى الدنيا ، بل هو أعلى وأعظم ، فكان الألفاظ التى تقال عن ذلك مستعارة من ألفاظ الدنيا،ليمكن تقريبها الى النفوس والأشخاص الذين لا يرون الا المحسوس •

ثالثها : أن الاستعارة تثير صوراً بيانية فى الألفاظ والمعانى كالتشبيه ، لأنها تربط بين المعانى بعضهـا مع بعض وفيها نقل ألفاظ من معان الى القريب منهـا المتناسب معها ، فوق ما يثيره من أخيلة تحلق بالتالى للقرآن فى أجواء من البيان اقرأ قوله تعالى فى تصوير حال من اعتراه الندم ، ولا يجد مخلصاً الا أن يعترف قوله « ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » (١) •

فالتعبير بقوله تعالى « سقط فى أيديهم » هو استعارة فى الدلالة على الندم ، لأن النادم يحس بالسقوط ، ويحس بأنه هبط ، فشبه القرآن حالهم فى أن الندم برح بهم بمن سقط فى يده وهو دال على سقوطه فيما لا يليق ، فشبه المعنى الخاص بالندم من ألم ، ومن ظهور للخطأ ، أو الاحساس بالخطيئة بمن سقط فى يده دليل اثمه ، ولا يجد مناصا من التخلص من جرمه ، وان الصورة البيانية التى تصورها كلمة سقط ، وتبين حالهم لا يقوم مقامها كلمة ندموا •

ولقد صور سبحانه وتعالى حال أهل الكهف فى أنهم لا يسمعون، فقال تبارك وتعالى « فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا » (٢) فان كلمة ضرب تدل على أن الله تعالى منع السماع ، كأنه غلق عليهم باب السمع ، وضرب عليه ، فلا يفتح سنين عدداً ، وذلك يصور حالهم من أنهم لا يسمعون ما يجرى ، والناس يحسبونهم أيقاظاً يحسون بما يحس غيرهم ،و لقد قال الرمانى فى معنى الاستعارة هنا ، فقال : « حقيقة معناه ، منعناهم الاحساس بآذانهم من غير صمم ، والاستعارة أبلغ ، لأنه كالضرب على الكتاب ، فلا يقرأ ، كذلك المنع من الاحساس فلا يحس،

(١) الأعراف : ١٤٩ (٢) الكهف : ١١

وانما دل على الاحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار ، لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير ذهاب للبصر فلا يبطل الادراك رأساً ، وذلك بتغميض الأجفان ، وليس كذلك منع الأسماع من غير صمم فى الآذان ، لأنه اذا ضرب عليها دل على عدم الاحساس من كل جارحة يصح بها الادراك ، ولأن الأذن كانت طريقة الى الانتباه ، فلما ضربوا عليها لم يكن سبيل اليه » .

ومؤدى هذا الكلام أن الضرب على الآذان يفيد فقد الاحساس المطلق بعمل الله ، وهو غير الضرب على الابصار ؛ لان عدم الابصار لا يقتضى فقد الاحساس اذ قد يكون غير مبصر باغماض ، ولكن الاسماع لا يفقده مع بقاء الآلة سليمة الا بفقد الاحساس ، فاذا كان الله تعالى قد ضرب على آذانهم ، مع بقاء الآذان سليمة ، فان ذلك لا يكون الا بفقد الاحساس والله على كل شىء قدير .

المجاز والكناية

١١٤ — المجاز يعم الاستعارة وغيرها من أنواع المجاز ، اذ أن المجاز معناه أن ينقل اللفظ من دلالته على المعنى الذى وضع له الى معنى آخر ، لعلاقة بينهما ، مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلى ، مثل قوله تعالى ، « فليدع ناديه » (١) فان المكان لا يدعى انما يدعى من يحلون فى هذا المكان . والقرينة الاستحالة . والعلاقة هى المحلية ، أطلق المحل وأريد الحال ، ومثل قوله تعالى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » (٢) والآذان لا تدخلها كل الأصابع ، وانما أريد بعضها والعلاقة هى الجزئية أطلق اسم الكل وأريد الجزء . وهكذا .

وتختص الاستعارة من بين أنواع المجاز بأنها مجاز علاقته المشابهة بين المعنى الأصلى ، والمعنى الذى نقل اللفظ اليه وقد كان التقسيم المنطقى يوجب أن نتكلم فى استعارات القرآن بعد الكلام فى المجاز ذاته ، لأن الكلام فى العام يسبق الكلام فى الخاص ، اذ أن العام جزء من الخاص ، والخاص جزئى والعام كلى ، ومن المقررات المنطقية أن كل عام جزء لجزئية ويضربون لذلك مثلا بالحيوان والانسان ،

---

(١) العلق : ١٨ (٢) البقرة : ١٩

فالانسان حيوان ناطق ، فيتكون من جزءين جزء هو الحيوانية ، والثانى النطق بمعنى العقل والادراى ووزن الأمور ، فالحيوان وهو الكلى جزء من الانسان ، وهو النوع الجزئى .

ولكن عدلنا عن منطق التقسيم فى التصنيف الى تقدم الجزئى على الكلى أو الى تقديم الاستعارة على عموم المجاز لأن الاستعارة من حيث ان العلاقة فيها المشابهة كانت ضرباً من ضروب التشبيه دخل فيه المشبه فى عموم المشبه به فكانت المناسبة بينها وبين ماسبقها من تشبيه أقوى من دخولها فى عموم المجاز .

وقدمنا الاستعارة لأنها أشهر وأكثر فى القرآن ، وأكثر تصويراً لمعانى البيان ، والصور البيانية القرآنية فيها أوضح ، وقد ضربنا على ذلك الأمثال ، وقد قصر عبد القاهر فى كتابه دلائل الاعجاز القول على الاستعارة ومايتبعها من تمثيل وضرب للامثال ، فقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه :

« وأنا اقتصر هنا على ذكر ما هو أشهر منه (أى من المجاز) وأظهر ، والاسم والشهرة لشيئين الاستعارة والتمثيل ، وانما يكون التمثيل مجازاً اذا جاء على حد الاستعارة » .

فالاستعارة أن تريد تشبيه الشىء بالشىء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجىء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه ، تريد أن تقول رأيت رجلا هو كالأسد ، فى شجاعته وقوة بأسه سواء ، فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً .

واما التمثيل الذى يكون مجازاً لمجيئك به على حد الاستعارة فمثاله قولك فى الرجل يتردد فى الشىء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلا ، وتؤخر أخرى ، فالأصل فى هذا أراك فى ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم اختصر الكلام ، وجعل كأنه يقدم رجلا ويؤخر أخرى على الحقيقة ..

وكذلك نقول للرجل يعمل فى غير معمل أراك تنفخ فى غير فحم ، وتخط على الماء ، فتجعله فى ظاهر الأمر كأنه يخط . والمعنى على أنك فى فعلك كمن يفعل ذلك ، ويقول فى الرجل يعمل الحيلة ، حتى يميل صاحبه الى الشىء قد كان يأباه ، ويمتنع

منه ، مازال يفتل فى الذروة والغارب ، حتى بلغ منه ما أردا ، فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان من فتل ذروة وغارب ، والمعنى على أنه لم يزل يرفق بصاحبه رفقاً يشبه حاله فيه حال الرجل يجىء الى البعير الصعب ، فيحكه ، ويفتل الشعر فى ذروته وغاربه ، حتى يسكن ويستأنس ، وهو فى المعنى مثل الرجل يقول فلان يقرد فلانا ، يعنى به أنه يتلطف له فعل الرجل ينزع القراد من البعير ليلذ لذلك ، فيسكن ويثبت فى مكانه ، حتى يتمكن من أخذه ، وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحوا فيه هذا التمثيل ، ثم لم يفصحوا بذلك ، وأخرجوا مخرجه ، وان لم يريدوا تمثيلا » •

وان الأمثال كلها من قبيل التمثيل ، وهو من باب الاستعارة ، كما قال عبد القاهر ، ذلك ، لان الاستعارة ذات شعبتين ، احداهما أن تكون فى تشبيه شىء بشىء ، من غير أداة تشبيه كتشبيه الرجل بالأسد ، وتشبيه شيوع الشيب فى الرأس باستعار النار فى وقودها والشعبة الثانية تشبيه حال بحال ، وهو التمثيل ، وهاتان الشعبتان تجريان فى التشبيه الذى يكون بأداة التشبيه ، كما تكونان فى الاستعارة ، اذ أنهما متلاقيان فى المعنى والاختلاف فى طريق الأداء •

ومن الاستعارة التمثيلية ظهرت الامثال التى تعد من جوامع الكلم ، فهى ليست الا تشبيه حال بحال ، فهى تشبيه حال مضربها بحال موردها ، تقول العرب الصيف ضيعت اللبن ، فموردها أن شيخا طلب يد فتاة فردنها ، وكان الزمان صيفاً لكبر سنه ، ثم احتاجت من بعد الى قدر من اللبن عنده ، فقال لها الصيف ضيعت اللبن فصار مثلا ، يضرب لمن يرفض أمراً ، ثم يجىء يطلب شيئاً ، ما كان يحتاج اليه لو لم يرفض •

وهكذا ، والأمثال من أبلغ كلام العرب ، لأنها تؤدى معانيها فى أوجز لفظ ، وأروع خيال •

١١٥ ـ وان عبد القاهر يعد طريق التعبير ثلاثة ، الحقيقة ، ويدخل فيها التشبيه على طريق علماء البلاغة ، وقد بينا من قبل أننا نعد الحقيقة مالا يدخل فى عمومها التشبيه ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، والاختلاف لفظى •

والثانى من طرق البيان المجاز ، وقد أشرنا الى القول فيه •

والثالث من الطرق الكناية ، ويعرف عبد القاهر الكناية بأنها : « أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء الى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود ، فيؤتى به اليه ، ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم طويل النجاد ، (أى طويل علاقة السيف) يريدون طويل القامة ، وكثير الرماد يعنون كثير القرى ، وفى المرأة نئوم الضحى ، والمراد أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا فى هذا كله — كما ترى — معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا اليه بذكر معنى آخر ، من شأنه أن يردفه فى الوجود ، وأن يكون اذا كان ، أفلا ترى أن القامة اذا طالت طال النجاد ، واذا كثر القرى كثر رماد القدر ، واذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ، ردف ذلك أن تنام الى الضحى » .

ويلاحظ فى الكناية أنه لا مجاز فى المعنى ، واللفظ على ظاهره بادى الرأى ، ولكن لا يراد ذلك الظاهر ، وانما يراد لازمه وسماه عبد القاهر رادفه ، أى أنه يفهم تبعاً له ، واللزوم ليس هو اللزوم العقلى دائماً ، بل قد يكون فى بعض الأحوال لزوماً عادياً يجوز أن يختلف ، فمثلا طويل النجاد يلزم عقلا أن يكون طويل القامة ، ولكن كثير الرماد ، لا يلزم لزوما عقليا أن يكون كثير نار القدر ، فقد يكون وقود النار لغير القدر ، ونئوم الضحى قد تكون لأنها مترفة عندها من يقوم بحاجاتها ، وقد يكون ذلك كسلا ، أو مرضا .. الى آخره ، ولكن الكثير فى العادة أن يكون ذلك عن عرف .

وقد ذكرنا فى الماضى مكان المجاز ، بكل صوره فى دلائل الاعجاز ، وقد ذكر عبد القاهر مكان الكناية فى الكلام البليغ فقال رضى الله عنه « قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح ، والتعريض أوقع من التصريح .. الا أن ذلك وان كان معلوما على الجملة فانه لا تطمئن نفس العاقل فى كل ما يطلب به العلم حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يغلغل الفكر فى زواياه وحتى لا يبقى موقع شبهة ، ولا مكان مسألة » .

١١٦ — هذا وان هذه الطرق البيانية من تشبيه واستعارة وسائر أنواع

المجاز ، والكناية ليست فى ذاتها أصل البلاغة ، بحيث اذا وجدت فى أى قول كان بليغا ، انما البلاغة لابد أن تكون متحققة ابتداء فى مادة الكلام وفى موضوعه ، وفى صوره البيانية ، وان هذه طرق تكون جزءاً من بلاغة الكلام البليغ ، وليست هى الخاصة التى تجعله بليغا ، ولو لم يكن ذا موضوع ، أو كان موضوعه من سفساف القول ، وغث المعانى ومبتذلها ، انما هى تكون مع أخوات لها فى مثل جمالها ، وجلال موضوعها » .

وقد ذكرنا ذلك فى ماضى قولنا فى الاستعارة قوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » فانا نجد أنه بلا ريب جمالا واضحا فى تشبيه شيوع الشيب فى الرأس باشتعال النار ولكن فى الحقيقة لا نجد الجمال فى هذه الاستعارة وحدها ، بل فيها وما معها من نظم ، وتآخ فى الكلمات وقد بين ذلك عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ، فقال فى بيان أن الجمال والجلال انما يكون فى مجموع القول لا للاستعارة وحدها : انك ترى الناس اذا ذكروا قوله تعالى: «واشتعل الرأس شيبا»لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ،ولم ينسبوا الشرف الا اليها ولم يروا للمزية موجباً سواها ، هكذا نرى الأمر فى ظاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ولا هذه الروعة التى تدخل على النفوس لمجرد الاستعارة ، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه الى الشىء ، وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند اليه ، ويؤتى بالذى هو الفعل له فى المعنى منصوباً بعده مبينا أن ذلك الاسناد ، وتلك النسبة الى ذلك الأول انما كان من أجل الثانى ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم طاب زيد نفسا ، وقر عمرو عينا ، وتصبب عرقا ، وكرم أصلا ، وحسن وجها وأشباه ذلك مما نجد الفعل فيه منقولا الى ما ذلك الشىء من سببه (١) ، وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب فى المعنى ، وان كان هو الرأس فى اللفظ كما أن طاب للنفس ، وقر للعين ، وتصبب للعرق واذ

---

(١) يريد عبد القاهر أن يقول ان الجمال فى اشتعل الرأس شيبا ليس فى الاستعارة فقط وانما هو ابتداء فى التمييز المحول من الفاعل ، ففى ذكر الفعل غير مسنه لفاعله بل أسند لما هو فى موضع الفاعل . ثم ذكر بعد ذلك الفاعل الحقيقى وهو الشيب على أنه تمييز ، وفى التعبير بالتمييز يدل الفاعل اشارة الى سبب اسناد الفعل . وسبب ذكر الاشتعال .

أسند الى ما أسند اليه كان لأنه سلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب وان تدع هذا الطريق فيه ، وتأخذ اللفظ فتسنده الى الشيب صريحا . فتقول اشتعل شيب الرأس ، والشيب فى الرأس ، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن ، وهل ترى الروعة التى كنت تراها فان قلت ، فما السبب فى أنه كان اشتعل . اذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، ولم تأت بالمزية من الوجه الآخر فما وجه هذه البينونة ؟ ان السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس الذى هو أصل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من كل نواحيه وأنه قد استقر به وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شىء أو لم يبق منه الا مالا يعتد به ، وهذا مالا يكون اذا قيل اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب فى الرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة » .

وقد أجاد عبد القاهر فى بيان وجه البلاغة فى الاستعارة مع أردافها من مجموع الكلام ، واذا كانت هى فى ذاتها ، تجعل القول ، فان سر الاعجاز فيها ، وفى مجموع العبارات .

وقد ضرب الامام عبد القاهر مثلا آخر مقاربا لقوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » وقوله تعالى . « وفجرنا الأرض عيونا »(١) فقال رضى الله تبارك وتعالى عنه فى بيان أن التمييز بعد التعميم ولو من غير استعارة بلاغة معجزة .

« ونظير هذا فى التنزيل قوله عز وجل : « وفجرنا الأرض عيونا » التفجير للعيون فى المعنى واقع على الأرض فى اللفظ كما أسند هناك الاشتعال الى الرأس، وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا ، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد صارت كلها عيونا وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها ، ولو أجرى اللفظ على ظاهره فقيل ، وفجرنا عيون الارض ، أو العيون فى الارض ، لم يفد ذلك ولم يدل عليه ، ولكان المفهوم منه أن الماء قد فار من عيون متفرقة فى الأرض ، وانبجس من أماكن منها » .

وهكذا يتبين من ذلك الكلام القيم أننا اذا كنا قد ذكرنا التشبيه والمجاز

---

(١) القمر : ١٢

والكناية فليس الاعجاز لها وحدها ، بل لهامع مجموع الألفاظ والأسلوب وتناسق العبارات ، فمن كل ذلك يتكون اعجاز الذكر الحكيم •

الكنايات فى القرآن

١١٧ — قد تكلمنا فى التشبيه والاستعارات ، وسائر أوجه المجاز بكلام مجمل واقتبسنا شواهد من القرآن ، وان لم تكن كثيرة فانها منيرة ، وان لم يكن فيها استقراء ففيها غناء •

ولكن لم نتعرض للكنايات فى القرآن بقدر كاف اذا كانت الكنايات كما تدل عبارات اللغويين وعلماء البلاغة هى الدلالة على اللازم عادة أو عقلا بذكر الملزوم ، فكثرة الرماد كما مثلوا يلزمها كثرة الضيفان ، وطول النجاد يلزمه طول القامة ، فان الكنايات فى القرآن كثيرة ، ولكنها تمتاز بارادة اللازم والملزوم ، وفى ذلك كثرة المعانى مع ايجاز الألفاظ ولنضرب على ذلك بعض الأمثال نقتبسها من كتاب الله سبحانه وتعالى • يقول الله تعالى فى وصف المتقين •

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (١) •

هذا وصف حسى لمشيهم ، ولقائهم ، فهم يمشون غير مسرعين ، ولا متباهين بل يمشون مشياً هينا لا سرعة فيه ولا ابطاء ، واذا خاطبهم الحمقى ، لا يمارونهم ولا يجادلون ، فان المراء يخل بالرقار ، وملاحاة السفهاء ليست من دأب العقلاء • هذا هو الظاهر وهو المراد ، ولكن المقصود مع هذا هو وصفهم بتقوى الله وخوفه، والاطمئنان الى عفوه، فيلتقى الخوف بتكبير الذنوب،مع الرجاء فى العفو والغفران•

والمعانى الثانية ملازمة للأولى ، فكان المراد ابتداء هو اللازم والملزوم فى ذاته، ولكن السياق كان للثانى •

ومن الاشارات الكنائية التى أريد فيها اللازم ، وذكر الملزوم كان للدلالة

---

(١) الفرقان : ٦٣

عليه قوله تعالى : «ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١)» فان ذلك الكلام السامى فيه حكم على أولياء الله المخلصين له سبحانه بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وذلك مراد لاريب فيه، وذلك يلازمه أن يكونوا قريبين من ربهم، قد أخلصوا له ، واستحقوا رضوانه ومن يكون قريباً من حبيبه ، لا يخافه فى مستقبل ولا يحزن فيه على ماض وقع منه ، لأن المحبة تجعله قريب الرجاء فى الغفران ، والطمع فى الرحمة ، وقد بين سبحانه الطريق لمحبة الله تعالى ونيل رضوانه ، وهو التقوى ، فقال تعالت كلماته : « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة (٢) » .

ومن كلام الله تعالى فى التنزيل ما جاء عن وصية لقمان لابنه اذ قال تعالت كلماته :

«يابنى انها ان تك متقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير ، يابنى أقم الصلاة. وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، ان أنكر الاصوات لصوت الحمير (٣) » .

وان هنا عبارتين ساميتين فيهما كناية واضحة ، وقد علمت أن كنايات القرآن تدل على اللازم والملزوم ، ويقصد ان بالعبارة الأولى قوله : « انها ان تلك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله » أنه يراد بها ما تحويه الألفاظ الظاهرة من معان عالية ، وفيها اثبات قدرة الله تعالى باخراج حبة الخردل من صخرة أو فى السموات أو فى الأرض هذا هو ما تدل عليه الألفاظ ، وهناك اللازم لهذا ، وهو اثبات علم الله الذى لا يخفى عليه خافية ، واثبات قدرة الله تعالى الذى لا يعجز عن شىء فى السماء ولا فى الأرض ، ولازم لهذا اللازم ، وهو البعث والنشور ، لأنه اذا كان سبحانه وتعالى قادراً على أن يأتى بالحبة من الصخرة أو من أى جزء فى السماء أو الأرض ، فهو قادر على اعادة

---

(١) يونس : ٦٢ — (٢) يونس : ٦٤

(٣) لقمان : ١٦ — ١٩

ماخلق ويتلاقى ذلك القول الحكيم مع قوله تعالى « قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رءوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبـاً ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده ، وتظنون ان لبثتم الا قليلا (١) » •

العبارة السامية الثانية حكايته تعالى لقول لقمان : « ولا تصعر خدك للنـاس ولا تمش فى الأرض • الى قوله تعالى • ان أنكر الأصوات لصوت الحمير (٢) » فان هذه الأوامر يراد منها ما يدل عليه ظاهر الألفاظ من أنه لا يصعر خده للناس بأن يميله عن شكله ، فلا يقبل عليه بكل وجهه ، ومن أنه يقصد فى مشيه فلا يتباطأ ولا يسرع ، بل يسير بتؤدة واطمئان ، ومن أنه يغضض من صوته ، فلا يتعالى ويتكلم صياحا ، ويراد أيضا معنى لازم لها ، وهو التطامن والاتصال بالنـاس اتصال رفق ومودة من غير كبرياء ، وألا يغمط الناس حقوقهم ، وألا يبطر نعمة الله تعالى ، وألا يدلى نفسه بغرور ، لأن الغرور مطية الشيطان ، والسبيـل الى العصيـان •

١١٨ — هذا وان الكنايات فيها الاشارة البيانية التى تكون لوازم للعبارات ، ولقد قسم علماء الأصول دلالة الألفاظ القرآنية الى دلالة العبارات ، سواء أكانت هذه العبارات تدل بالدلالة الحقيقية من غير تشبيه أو دلالة فيها تشبيه أو فيهـا مجاز ، فالاستعارة أو غيرها من أنواع المجاز ، وبجوار ذلك دلالة الاشارات ، وهى دلالة اللوازم ، وانه كلما كانت دلالة اللوازم كانت البلاغة » •

ولنقبض قبضة من الآيات التى قال الفقهاء فيها ان فيها دلالة على الأحكام بالاشارة ، أى بالكناية أو بدلالة الملزوم على اللازم ، وهى تفهم كنتيجـة لازمة للعبارة ، وقد قالوا فى تعريفها ان الدلالة بالاشارة هى ما يدل عليه اللفظ بغـير العباراة التى تدل عليها الألفاظ ، ولكنه يكون نتيجة لازمة لمـا تدل عليه ألفاظ العبـارة ، ومن ذلك قوله تعالى « وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا

---

(١) الاسراء : ٥٠ — ٥٢ (٢) لقمان : ١٨ — ١٩

ما طاب لكم من النساء مثنى وثـلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحـدة ، أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا (١) » •

وان عبارة النص يفيد طلب العدالة مع اليتامى ، وافادة اباحة تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، واباحة الدخول بملك اليمين ، هذه أحكام علمت من العبـارة نفسهـا •

وهناك أحكام أخرى فهمت من لوازم العبارة ، وهى الدلالة بالاشارة التى هى ضرب من ضروب الكناية : الأول وجوب العدل مع الزوجة ، وأن الرجل لا يحل له أن يتزوج اذا لم يعدل مع الزوجة ولو واحدة ، اذا تأكد أنه لا يعدل ، والثانى الذى يدل عليـه لازم الآيات أن المساواة بين الأزواج فى الأمور الظاهرة ، كالطعـام والمسكن ، والكسوة ، والمبيت اذا عدد الأزواج واجبة ، وتدل باللازم أن عليه نفقة زوجته ، وأنه لا يتزوج الا اذا كان قادراً على اعالة زوجته •

وذكروا من الآيات التى تدل بلازم المعنى فيها آية المداينة فقد قال تعالى: «يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجـل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب ، كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليـه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أو لا يستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل • واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضـل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء ، اذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا اذا تبايعتم • ولا يضار كاتب ولا شهيـد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم » (٢) •

وان الأحكام التى وردت بهذا النص كثيرة ، لا نريد أن نحصيها • ولكن ورد

---

(١) النساء (٢) البقرة : ٢٨٢

فيها أحكام ليست من النص ، ولكنها لازمة للنص ، منها أن المكتوب يكون حجة على من أملاه وخصوصا أنه موثق بالشهادة ، وهو حجة لمن أثبت الاستدلال بالكتابة فى المرافعات ويفيد باللزوم بأن السفيه أو الضعيف الذى له ولى مال تكون عبارة الولى المالى عبارته ، ويلتزم بما تثبته •

ويفيد ثالثاً بأن شهادة المرأة لا تسمع وحدها ، بل تسمع مع أختها التى تشهد معها ، لأن الله تعالى يقول « أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى » وذلك يقتضى أن تحضرا معاً لتسترشد كل واحدة بالأخرى ان ضلت ، وذلك فهم من مقتضى أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، لأنه لا يمكن أن يكون ذلك الا اذا اجتمعتا فى الأداء ، وسمعت كل واحدة كلام الأخرى ، وذلك بخلاف شهادة الرجل فانه لابد أن يسمع كل واحد منهما منفرداً ، لكيلا يومىء أحداهما الى الآخر •

ومن النصوص التى تدل باشارتها وعبارتها قوله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك ، فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير » (١) •

قد فهمت الأحكام التى ذكرتها الآية الكريمة بالنص ، وفهم بالاشارة معان أخرى تلازم ما نص عليه كنتيجة له • وما نص عليه فى العبارة هو ملزوم والثانى لازم له •

ومن ذلك أولا — أن المولود ينسب الى أبيه لا الى أمه ، لأنه المولود له ، فاللام تفيد ذلك الاختصاص ، وتفيد ثانياً — أن المولود لأبيه له عليه شبه ملكية ، فمال الولد لأبيه عليه نوع ملك فالولد كسب أبيه ، ولقد صرح بذلك النبي صلى الله

---

(١) البقرة : ٢٣٣

تعالى عليه وسلم فقال : ((أنت ومالك لابيك)) ويفيد ثالثا ــ أن الأب لا يشاركه فى نفقه ولده أحد وأن الولد لايشاركه فى نفقة أبيه أحد•ويفيد رابعا ــ أن الاصل فى الارضاع أن يكون على الأم ، ويجوز الاسترضاع باتفاقهما وأن أجرة الرضاعه تكون على الأب ، ونفيد خامساً ــ أن فصــل الولد الذى لا ارادة له عن الأم فى رضاعته يكون عن تراض منهما وتشاور •

وهكذا نجد أسرار البيان القرآنى تتكشف عن طريق هذه اللوازم التى تجىء تبعاً للمنطوق ، وتتفاوت فيها الأحكام من غير أن تكلف الألفاظ من المعانى اللازمه مالا تطيق بتكلف التأويل ، وتجىء الأسرار القرآنية العالية التى لا تكون الا لكلام الله سبحانه وتعالى •

ومن الآيات القرآنية التى تدل فيها العبارات على معان من الألفاظ ، ثم تجىء لازماً لها عن طريق الاشارة كما يعبر الأصوليون • أو الكنايات كما يعبر علمــاء البلاغة ــ قوله تعالى : ((وأمرهم شورى بينهم)) [1] فان هذا النص الكريم أفاد بالعبارة أن الحكم الاسلامى وادارة الدولة الاسلامية فى اقتصادها ونظمهــا ، وادارتها تقوم الشورى ، وهذا ما تفيده الآية بالنص •

وتفيد مع ذلك بطريق الاشارة ، والنتائج التى تكون ثمرة لهــذا النص أو طريقاً لتنفيذها ــ أولا ــ أنه لابد أن يــكون اختيار الحاكم أو الخليفــة برضا المسلمين فلا تصح الخلافة الا باختيار المسلمين ورضاهم ، ولذلك كانت البيعة فى الاسلام ، وتفيد ثانياً أنه لا ينفذ حكم أو قانون الا اذا أقرته جماعة المسلمين ، أو الصفوة المختارة منهم ، وتفيد ثالثا أنه لابد من وجود جماعة مختارة من الشعب اختياراً أساسه الحرية والرضا ، يكون عملها مراقبة الحكام ، والنظر بعين فاحصة فى أعمالهم وألا يسن قانون الا برأيهم فكل هذه لوازم لتحقيــق معنى الشورى وتنفيذه ، وتفيد رابعا أن الأعمال الفنية كقيادة الحرب ، والصناعة تكون ثمة تحت رقابة على القائمين بها من صفوة مختارة منهم ، يكون عملها التوجيه •

---

(١) الشورى : ٣٨

وهكذا تثبت هذه الأمور كنتائج لتنفيذ الأمر بالشورى •

وان دلالة العبارات التى يمكن معرفتها بالسنة واللغة هى المفاتيح لما تومىء اليه ، فلا يمكن أن تعرف أسرار القرآن الكريم الا اذا عرفت المعانى الأولى ، وان معرفة ما تومىء اليه ألفاظ القرآن من اشارات لا يكون الا بعد الدخول الى الساحة العليا ، والارتفاع بالعقل الى أعلى المدركات الانسانية ، ولذلك يقول الغزالى رضى الله تعالى عنه ان معرفة السنة واللغة هى المفتاح الذى يدخل منه العالم الى علوم القرآن ، وفيه علم كل شىء يتعلق بالشرائع والنفس الانسانية ، وعلاج أدوائها ، واليوم الآخر ، وما أخبرنا به العزيز الحكيم علام الغيوب •

٤ ـ نظم القرآن وفواصله

١١٩ ـ تكلمنا فى ماضى قولنا فى وصف عام لبلاغة القرآن ، وتكلمنا فى ألفاظه، وبينا بشواهد الآيات أن كل كلمة لها صورة بيانية فى السياق الذى سيقت له ، ثم تكلمنا عن الأسلوب ، وذكرنا مستشهدين بالآيات البينات أن كل كلمة لقف مع أختها ، ويتكون من مجموع الكلمات المتلائمة المتآخية صورة كاملة للبيان تعطيك صورة بيانية ، كل كلمة تعطيك جزءاً منها ، مع كونها فى ذاتها صورة بيانية وحدها، وضربنا لك الأمثال .

ثم تكلمنا من بعد على تصريف البيان القرآنى ، فبينا كيف كان التصرف فى الاستدلال على وحدانية الديان ، وبطلان عبادة الأوثان ، وكيف كان التنويع فى البراهين التى يسوقها ، والتى تعلو فى دقة الحكم على الأدلة الخطابية ، وتعلو فى النسق البيانى ، والنغم الموسيقى عن البرهان المنطقى ، مع اشتمالها على أدق معناه ، وان غاير الأشكال .

وذكرنا الاستدلال على الوحدانية فى سياق القصص والعبرة ، ثم بينا من بعد ذلك تصريف القول بطريق القصص ، والتصوير القصصى للوقائع ، حتى كأنك ترى المشاهد ، لا أنك تقرأ القصص .

ثم تكلمنا فى الاستفهام القرآنى ، وخضنا فى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية والاشارة البيانية لمن يغوص فى علوم القرآن الكريم ، ويتعرف أسرار الحقائق التى اشتمل عليها ، سواء أكانت حقائق كونية أو نفسية ، أم كانت تتعلق بنواميس الاجتماع وتربية المجتمعات .

ذكرنا ذلك فى اجمال يشير ولا يحيط ، ويوجز ، ولا يفصل .

ولكن مع ذلك نرى للقرآن صورة هى فى الاعجاز أبعد مما سبق ، ذلك أنك اذا قرأت القرآن مرتلا ، أو كاشفاً بالصوت مع الترتيل تحس بأنه ليس من نوع الكلام الذى سمعته وتسمعه وتقرؤه ، وانك تميز بذوقك القرآن عند سماعه عن

غيره ، فله نظم يعلو عن كلام البشر ، وله نغم أعلى من أن نسميه موسيقى • يذوقه كل فاهم ، وان كان لا يستطيع وصفه ولا تعريفه ، ولا بيان سره ، كما يذوق الذائق طعاماً طيباً ، ولا يعرف اسمه ، ولا أرضه ، ولا سر طيبه ، ولكنه يحكم بطيبه وان كان تفصيل السبب لا يعرف •

وليس ما نقوله هو من قبيل ما فندناه من قبل ، وهو ما سمى بالصرفة ، فان الصرفة على قول الذين يزعمونها ، عجز عن المحاكاة أو المشابهة بصرف الله تعالى• انما الذى نقوله ، هو أن الاعجاز من خصائص القرآن البيانية وغيرها وان كانت البيانية أظهرها ، وهى التى تحدى الله تعالى بها العرب أن يأتوا بمثلها ولو مفتريات فالنظم والنغم ، والفواصل ، وما يشبه الموسيقى وان كان أعلى أوصاف ذاتيه ولعلنا نتنزل بالقرآن ان سمينا ما نذكر موسيقى، فروعة القرآن أعلى ، وذلك سبب من أسباب العجز ، وهو غير الصرفة •

لقد وجدنا للقرآن حلاوة فى الألفاظ والأسلوب والفواصل ، وغير الفواصل — ليست فى غيره، وهذا ما سميناه النظم تقريباً للفهم ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى، وهو ما وصفه الوليد بن المغيرة بقوله :

ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر •

١٢٠ — وبعد هذه التقدمة التى نمهد بها للقول ، نقول ان نظم القرآن ليس من أى نوع من أنواع النظم الذى يعرف عند أهل البيان ، فليس نثراً مرسلا ، وليس نثراً مصنوعاً ، وليس نثراً فيه ازدواج كما أنه ليس نثراً مسجوعاً ، وليس فيه فواصل تشبه السجع ، ولكنه شىء غير هذا ، وغير ذلك •

ويقول الباقلانى فى كتابه اعجاز القرآن عن بديع نظمه : أنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ، والذى أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ، ونكشف الجملة التى أطلقوها » ثم يتكلم عن الاعجاز فى النظم فيقول :

« فالذى يشمل عليه بديع نظمه وجوه :

منها ما يرجع الى الجملة ، وذلك أنه نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم الى ما يرسل ارسالا ، فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وان لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل فيه ، ولا يتصنع له . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ، ولا فيه شىء منه ، وكذلك ليس من قبيل السعر ، لأن الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى أن فيه شعراً كثيراً ، والكلام عليهم يذكر بعد هذا الوضع .

فهذا اذا تأمله المتأمل ، تبين له بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ، أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز وهذه خصوصيات ترجع الى القرآن وتميز حاصل فى جميعه » .

وان الباقلانى لا يكتفى بذكر ما بين أن القرآن ليس على الصفة التى امتاز بها بليغ الكلام عند العرب ، بل هو أعلى من ذلك يأتى بابلغ الشعر وأبينه وأجود الخطب وأوقعها ، ثم يأتى بأكمل الكتب ، ولا يكتفى بذكر كلام البلغاء ، بل بكلام صاحب جوامع الكلم وهو محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقرر أنه وان كان فوق أى كلام للبشر ، دون كتاب الله ، المعجز بكل ما اشتمل عليه ، وبكل ما فيه من لفظ ونغم وأسلوب .

ويذكر رضى الله عنه وجها آخر من وجوه الاعجاز فى نظم القرآن وأسلوبه ، فيقول .

« ومنها أنه ليس للعرب كلام يشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر ، وانما تنسب الى حكيمهم كلمات محدودة ، وألفاظ قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة (قليلة أو كثيرة) يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز ، والتعسف ، وقد كان القرآن على طوله متناسبا فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به ، فقال عز من قائل : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم الى ذكر الله (١) » وقوله تعالى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٢) » فأخبر سبحانه أن كلام الآدمى ان امتد وقع التفاوت ، وبان الاختلال .

وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذى بدأنا ذكره ، فتأمل تعرف الفضل .

وفى ذلك معنى ثالث، وهو أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لايتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، واعذار وانذار ووعد ، ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم ، وأخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، وتجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور » .

ثم يقول رضى الله عنه : « وقد تأملنا نظم القرآن » فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا اسفاف فيه الى المرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما تنصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الاعجاز فى جميعها ، على حد واحد لا يختلف ، وكذلك قد

(١) الزمر : ٢٣
(٢) النساء : ٨٢

يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بينا ، ويختلف اختلافاً كبيراً ، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ، ولا متفاوت ، بل هو نهاية البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليــه (١) .

ويذكر الباقلانى أن من دلائل الاعجاز تفاوت كلام البلغاء فى الوصل والفصل، والانتقال من معنى الى غيره ، وتقريب المعانى وتبعيدها ، وأن القرآن ليس فيه ذلك النقص الذى يعرو كلام البشر ، ويختلف قوة وضعفا فى ضم المعانى وتفريقها والقرآن فى ذلك النمط المتسق الذى لا يجارى .

١٢١ — هذه أمور تقريبية تقرب معنى الاعجاز ، ولا تحده ، وتذكر بعض الأسباب ولا تتقصاها ، انه ككل الأمور التى تحس بها ولا نستطيع تعرف دقائق أسرارها ، فهو كتاب الله الذى يعلم السر وأخفى ، ولكنا نقر بالعجز عن الاتيــان بمثله لاننا ندرك علوه ولا تعرف الاسباب التى عات به . وليس هذا من الصرفة كما ذكرنا ، انما الصرفة أن تعرف قدره وقدرتنا على مثله ، ولكن ننصرف عن ذلك.

وان القرآن ليس من قبيل ما اصطلح عايه الناس فى علوم البلاغة ، فليس نثراً مرسلا كما ذكرنا ، لأن النثر المرسل ليس له نغم مؤتلف ، وهو فى قدرة كل انسان بليغ ، وقد تلونا عليك بعض الآيات فى الأحكام الشرعية ، فرأينا ائتلافا فى النغم ، وروعة فى البيان ، لا تجعلانها كلاما مرسلا كسائر الكلام . فانك واجد التآخى بين الألفاظ والتناسق فى الأسلوب ، والمعانى التى تتداعى ، ويأخذ بعضها بحجز بعض ، وكل كلمة تومىء الى أختها .

ولنضرب مثلا من الكلام الذى ليس ما يشبه السجع ولا القافية ولا الازدواج ولا الشعر ، اقرأ قوله تعالى :

« ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى، ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الاصباح ، وجعل الليــل سكنا ، والشمس والقمر

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى

حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (١) .

انك واجد فى كل كلمة مع أختها اشراقا ، وصورا بيانية : لقد ذكر سبحانه ، كيف يفلق الحب فيكون زرعا ، اذا أتى حصاده أكل منه الانسان والحيوان،وازينت به الأرض ، وأتت من كل زوج ، وغير ذلك من الصور والأحياء ثم التعبير بفالق النوى ، وكيف يخرج من النوى الدوحة الباسقة الوارفة الظلال ، والأشجار الدانية القطوف ، واليانعة الثمار ، ثم كيف يعطر الوجود بالرياحين والزهور من هذه النواة اليابسة ، وكيف يخرج سبحانه وتعالى من التراب أحياء ومن الحب الجامد، والنواة الصلبة غصونا حية ، وزروعا رطبة ، وكيف تدور الحياة الى موت ، فيخرج الميت من الحى وان ذلك مرئى ، وانما ينبت الزرع ويخضر ، ويستوى على سوقه بعد أن يخرج شطأ ، ثم يصير حطاما .

ثم بين سبحانه أن الذى فعل ذلك هو سبحانه فى اشارات بيانية ، فيها استعلاء ، وفيها توجيه بأبلغ ما يكون التوجيه ، ثم كان الختام باستفهام انكارى وتعجب ، لأن الأمر يستدعى التعجب فى ذاته ، ثم ختم الكلام بختام فيه رنات قوية لائمة فى معناها ، ومنبهة للعقول فى نغمها وفى موسيقاها ، ثم جاء بعد البيان عن الارض وما فيها من زرع وضرع ، وباسقات — الى السماء ،وما فيها من بروج وأفلاك ونجوم وشمس وقمر ، وما يصدر عنها من نور وضياء ، وكان الانتقال من الأرض الى السماء بتقريب فى الألفاظ والمعانى ، فعبر سبحانه عن خروج النهار من الليل بالفجر الصادق الذى يشق الظلام ، فقال سبحانه — فالق الاصباح — وفى ذلك مقاربة فى التعبير بين فلق الحب » والنوى ، وشق النور فى الظلام ، ثم جعل من بعد ذلك نتيجة لهذا الاصباح أن كان الليل سكناً ، ووجه الأنظار الى الشمس والقمر ، فجعلهما سبيلا لحسبان الايام والليالى والشهور ، ثم ختم النص بما يفيد أن ذلك كله من حكمة الله تعالى العلى التدبير ، وهنا نجد المعنى واللفظ يختمان بختام

---

(١) الأنعام : ٩٥ — ٩٨

من القول يدل على انتهاء هذا الجزء ومثله فى ذلك ــ ولكلام الله تعالى المثل الأعلى، كمثل من يصور أجزاء كل جزء منه ناطق وحده متميز بوجوده مع الاتصال الوثيق بما يليه ، وقد كانا على مقربة بعضهما من بعض فى نسق بيانى ، لا هو من السجع، ولا من الارسال ولا من الشعر ، ولكنه فوق ذلك ، وفيه مزايا كل واحدة من هــذه الأقسام مع الزيادة التى تجعل الكلام لا يطاول بياناً .

وقد ذكر من بعــد ذلك زينة السماء اذ قد زينت بالنجوم كالمصابيح للأرض يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وفى ذلك اشارة واضحة الى بيان نعم الله تعالى فى اليابس والماء ، ففى الأرض زروع وثمار ، وحيوان قد سخرت لبنى الانسان ، ومن البحر تستخرج حلية ، وتأكل منه لحماً طرياً ، وفى السماء يهتدى بالنجوم فى دجنة الليل ، ويسير فى البحر بالجوار المنشئات كأنها الأعلام .

وختمت الآية الكريمة بما يدل على أن ادراك هذه النعم يحتاج الى علم وايمان بالحق ، ولا حياة لعلم بغير ايمان بالحق ، ولا حياة لايمان من غير علم ، فهمــا متلازمان .

ثم بين سبحانه خلق الانسان ، وهو كون قائم بذاته فى ادراكه بصبر وبصيرة، وفى أصل نشأته ما يساوى أصل الوجود كله ، ولذلك قال سبحانه وتعــالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون » (١) .

وان الله ختم الآية الكريمة بما يناسب خلق الانسان الدقيق الذى لايدركه الا نافذ البصيرة ، فقال سبحانه : « ان فى ذلك لآيات لقوم يفقهون » فالفقه هو العلم الدقيق العميق الذى يشق الظلام حتى يصل الى الحقيقة .

وانا نجد من هذا أن القرآن لا يمكن أن يوصف بأنه نثر ، ولا بأنه مزدوج له فواصل ، ولا بأنه سجع له قواف ولا بأنه شعر ، فليس له أوزان ولا قواف ، بل هو ذو نظم اختص به من كل الكلام .

ولو حاولنا أن نعرف سر ذلك النغم وتلك الموسيقى ، وذلك التآخى لعجزنا

---

(١) الذاريات : ٢١ ــ ٢٢

أن نعرفه على وجه التحقيق ، انما نعرف تأثيره فى نفوسنا اذا تهدت ووصلت الى ذوق ذلك الأسلوب ، وذلك أمر يدرك لذوى الألباب ، ولا يعرف سره •

وان النظم القرآنى تأليفه كله له رنين الموسيقى ، لقد جرى العرب كتاباً وشعراء وخطباء على أن يجدوا النغم فى فاصلة سجع أو قافية شعر ، ولكن نظم القرآن ونغمه ينبعث من كلماته وحروفه وأسلوبه ، فحروفه متآخية فى كلماته لها موسيقى ونغم تهتز لها المشاعر ، وتسكن عندها فتطمئن النفوس ، والكلمات فى تآخيها فى العبارات تنتج موسيقى ونغما يخيص به القرآن وحده وان أى كلام مهما يكن علو صاحبه فى البيان لابد أن يكون مخيلفا عن القرآن لايمكن أن يلحق به ، لأنه كلام الله تعالى وفوق طاقة البشر •

ويعجبنى ما كتبه فى هذا الكاتب المؤمن مصطفى الرافعى اذ يقول : « كان العرب يترسلون فى منطقهم كلما اتفق لهم ، لا يراعون أكثر من تكبيف الصوت دون تكبيف الحروف التى هى مادة الصوت الى أن يتفق من هذا قطع فى كلامهم تفى بطبيعة الغرض الذى تكون فيه ، أو بما تعمل لها المتكلم على نمط من النظم الموسيقى ان لم يكن فى الغاية ، ففيه قرب من هذه الغاية •

فلما قرىء عليهم القرآن رأوا حروفه ، فى كلماته ، وكلماته فى جملة ألحاناً لغوية رائعة ، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هى توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به وكان ذلك أبين فى عجزهم ، حتى ان من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته الى ما حسبه نظما موسيقياً ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البيانى، كأنما فطن الى أن الصدمة الأولى للنفس العربية ، أنما هو فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها ، وليس يتفق ذلك فى شىء من كلام العرب الا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع » •

التلاؤم :

١٢٢ — ان المعنى الذى ذكره المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هو

ما سماه الرمانى بالتلاؤم ، أى تكون نغمات الحروف متلائمة بعضها مع بعض فى الكلمة ، والكلمات يتآلف نغمها بعضها مع بعض ، فى الجمل ، والجمل يتآلف بعضها مع بعض فى القول كله ، لما نرى فى القرآن الكريم ، فان الآية تتضافر ألفاظها فى نغم هادىء ان كانت الآية فى تبشير أو داعية الى التأمل والتفكير ان كانت فى عظة، وتتلاءم نغماتها قوية اذا كانت فى انذار ، أو فى وصف عذاب اقرأ قوله تعالى « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم، فأخذهم أخذة رابية (١) » .

انك ترى فى هذه الآيات الكريمات ، وهى انذار بما يكون يوم القيامة ، وما يستقبل الذين طغوا فى البلاد، وأكثروا فيها الفساد من عذاب شديد يترقبهم — ترى فى النغم قوة شديدة قارعة لأسماع الذين يشركون ، ويكفرون بالله تعالى ، ويفسدون ، ويعتدون ، ويظلمون ، ويشترك فى نغمة الترهيب الألفاظ بحروفها ، والجمل بكلماتها ، والخواتم بشدة جرسها ، وقرع الأسماع بها .

ثم اقرأ فى صورة الضحى نغمات الرحمة الواسعة ، اذ يقول سبحانه : « والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث (٢) » .

وانظر الى الآيات الداعية الى التأمل فى الكون ، وما فيه من أمور هادية تجد فيها النغمات الهادئة اللافتة الموجهة من غير قرع للأسماع ، بل بتوجيه للأفهام ، اقرأ قوله فى سورة الغاشية .

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال

---

(١) الحاقة : ١ — ١٠

(٢) سورة الضحى — كلها

كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت ، فذكر ، انمـــا أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، الا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الاكبر ان الينـــا ايابهم ، ثم ان علينا حسابهم » (١) •

وانك ترى فى هذا النص المبين قد اجتمع التأمل ذو النغمة الهادئة الموجهـــة من غير عنف فى جرس يسترعي الأسماع ويصرف الأنظار، واجتمع الانذار الشديد القوى ، ولم يكن ثمة تنافر بين الانذار الشديد ، والتأمل السديد بل كان الانتقال من مقام الى مقام لايبدو فيه التباين ، وان كان المقام الثانى انـــذارا ، ذلك لأن الانذار كالثمرة للتوجيه بالنسبة لمن لم تهده الآيات ، وتوجهه النظرات الى الكون وما فيـــه •

وانك اذ تنظر فى وصف الجحيم تجده فى نغم كأنما يخرج منه ريح السموم، وان وصف الجنة تجده فى نغمة أصواتاً حلوة كأنها ريح وريحان لأنها جنة ، واقرأ بعض السورة التى تلونا منها آنفا ، وصفا للجحيم ووصفا للنعيم ، فانك واجد لا محالة الفرق فى النغم ، اقرأ قوله تعالى : « هل أتاك حديث الغاشية ، وجـــوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ، ولا يغنى من جوع — وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة » (٢) •

تجد فى هذه النصوص وصفين لأمرين متباينين، أولهما وصف الجحيم وأصلها، وتجد فيه الألفاظ والمعانى والنغم ، كله يلقى بالألم فى النفس، والخوف من العذاب الشديد ، والمصير العنيد • والثانى وصف النعيم وأهله ، وترى فيهـــا الراحة ، والاطمئنان والقرار ، والسعادة ، ويشترك فى هذا ألفاظ وجمل ومعان ، ونغم حتى كأنك ترى لا تسمع •

١٢٣ — وان الكلام الذى يتسم بالبلاغة لا بد أن يكون فيه التلاؤم ، والتلاؤم ضد التنافر ، وعرفه الرمانى • فقال « التلاؤم نقيض التنافر ، وهو تعديل الحروف

---

(١) الغاشية : ١٧ — ٢٦

(٢) الغاشية : ١ — ١٦

فى التأليف ، والتأليف متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا ، ثم يضرب الأمثلة على التنافر الذى هو ضد التلاؤم ، ثم يذكر أن التلاؤم الذى يكون فى الدرجة الوسطى هو التلاؤم الذى يكون فى كـلام البلغاء وأهـل الفصاحة من الناس ، أما التلاؤم فى الطبقة العليا ، فانهلا يكون الا فى القـرآن الكريم ، ويقول فى ذلك رضى الله عنه :

والمتلائم فى الطبقة العليا فى القرآن كله وذلك بين لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام فى تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى ، وبعض الناس أشد احساساً بذلك وفطنة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد احساساً بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف الناس فى ذلك من جهة الطباع كاختلافهم فى الصور والأخلاق ، والسبب فى ذلك تعـديل الحروف فى التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً .

ويستفاد من معنى هذا الكلام أنه يرجع السبب فى علو التلاؤم فى القرآن كله الى التعديل بين الحروف بأن تكون الحروف متلاقية فى النطق ، فليس فيها تباعد فى المخارج شديد ، بحيث يصعب الانتقال من مخرج الى مخرج ، ولا التقارب الشديد الذى يجعل بعض الحروف يندغم فى بعض .

وان ذلك ينطبق على النطق ، فالتعديل فى المخارج بالبعد عن الاختلاف الشديد أو القرب الشديد ، انما هو يتعلق بالنطق وانك بلا ريب تجد ألفاظ القرآن الكريم وجمله بعيدة عن هذا كل البعد ، بل انه المثل الأعلى فى ذلك .

وان التلاؤم فى ألفاظ القرآن الكريم وجمله وآياته ومواضع الوقف فيه ليس فى المخارج فقط ، بل هو فيما هو أعلى من ذلك ، انما هو فى النغم ، وجرس القول وموسيقاه ، فلا تجد حرفا ينشز فى موسيقاه عن أخيه ، ولا الكلمة عن أختها ، ولا الجملة عن لاحقتها ، والآية كلها تكون مؤتلفة النغم فى الغرض الذى سيقت له ، فان كان انذارا كان النغم ارعاداً ، وان كان تبشيرا كان نسيما ، وان كان عظة كان تنبيها ، وان كان توجيها لافتا عما سواه ، وهكذا .

وقـــد قال الرمانى والتلاؤم فى التعـــديل من غير بعد شديد أو قـــرب شديد ذلك يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه فى الأسماع ، وتقبله فى الطباع ، فاذا انضاف الى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الاعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام ، كما تظهر له أعلى طبقات الشعر من أدناها اذا تفاوت ما بينها وقد عم التحدى للجميع لرفع الاشكال ، وجاء على الاعتبار بأنه لا تقع المعارضة لأجل الاعجاز فقال عز وجل : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهدائكم من دون الله ، ان كنتم صادقين» . ثم قـــال : « فان لـــم تفعلوا ولن تفعلوا » (١) فقطـــع بأنهم لم يفعـــلوا ، وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » (٢) ولما تعالوا بالعلم والمعانى التى فيه قال : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات (٣) ، فقد قامت الحجة على العربى والعجمى .

وان هذا يدل على أن العجز لم يكن لأجل المعانى فقط ، وان كانت معجزة فى ذاتها ، ولكن التحدى كان بالألفاظ والأساليب ، لأنهم أمة بايغة ولكنها أمية .

وقد أدركوا من أول الامر ما فى الالفاظ من جمال ، وما فى تأليف القول من نسق وانسجام ، وما فى جرسها من نغم ، ولما تورط بعض منهم فى أن يحاكوا القرآن ، لم يكن اتجاههم الا الى النغم أرادوا محاكاته فى نغمه ، فجاء كلامهم غثاً ، ليس فيه نغم ولكن فيه ما يدل على ادراك سقيم .

الفواصـــل :

١٢٤ — يعرف الرمانى الفواصل بأنها حروف متشـــاكلة فى المقاطع توجب حسن افهام المعانى ، ويقول : الفوصل بلاغة والاسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع ، فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب ماتوجبه الحكمة فى الدلالة ، اذ كان الغرض الذى هو حكمة انما هو الابانة عن المعانى التى اليها الحاجة ماسة ، فاذا كانت المشاكلة موصلة اليه فهو بلاغة ، واذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة ؛ لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة ،

---

(١) البقرة : ٢٤ (٢) الاسراء : ٨٨ (٣) هود : ١٣

ومثله مثل من رصع تاجاً ، ثم ألبسه زنجياً ساقطا ، أو نظم قلادة ، ثم ألبسها كلباً ، وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم ، فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : والأرض والسماء والغراب الواقعة بنقعاء ، لقد نفر المجد الى العشراء .

وهكذا نجد الرمانى يفرق بين السجع والفاصلة بأن الفاصلة بلاغة ، وأن السجع عيب ، وأن الفواصل الألفاظ فيها تتبع المعانى والسجع الألفاظ فيها مقصودة ، والمعانى تابعة ، ويظهر أنه لم يكن بين يديه الا سجع الكهان ، ولكن أكل السجع كذلك ، وألا يوجد سجع يزيد المعانى قوة ، وتكون فيه المعانى هى المتبوعة ، وليست تابعة ، وأن السجع يزيد المعانى ، ويعطيها قوة ويسهل قبولها ، ويكون باباً من أبواب تأكيدها .

واذلك خالف الرمانى فى ذلك الكلام الذين كتبوا البلاغة من بعد ، وقبل أن نخوض فيما قالوه ، نقرر أن الفرق ، هو بين الفواصل والسجع ، ان الفواصل معناها أن تكون مقاطع الكلام متقاربة فى الحروف كالنون والميم فى قوله تعالى « الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » ، وأما السجع فهو أن تكون المقاطع متحدة فى الحروف ، ونلاحظ أن الرمانى متأثر فى فكرة السجع بسجع الكهان الذى قصد به اتحاد الحروف من غير نظر الى المعنى ، ومن غير أن تكون المعانى فى ذاتها ذات قيمة بل لا يقصدون الا رص الكلمات متحرين اتحاد المقاطع .

وأنه عند التحقيق نجد أن الفواصل أعم من السجع ، فهى اما سجع تتحد فيه حروف المقاطع أو مجرد فواصل تتقارب فيها حروف المقاطع ، وذلك رأى ابن سنان فى كتابه سر الفصاحة (١) فهو يقول : الفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعا ، وهو ماتماثلت فيه حروفه فى المقاطع ، وضرب لايكون سجعا ، وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ، ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين من أنه يأتى سهلا طوعاً وتابعاً للمعانى ، وبالضد من ذلك ، حين يكون متكلفا يتبعه المعنى ، فان كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة ، وحسن البيان ، وان كان من الثانى فهو مذموم .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٦٥

وان هذا الكلام معناه أنه ليس كل فاصلة تكون الألفاظ تابعة للمعانى ، فيكون الحسن والافصاح والاحسان وليس كل سجع تكون المعانى تابعة للألفاظ ، فيكون التكلف ، بل التعميم بالحسن فى غير السجع والقبح فى السجع هو الخطأ ، ولا شك أن فوصل القرآن كلها من البليغ الذى تكون فيه الالفاظ تابعة للمعانى .

وأنه بلا ريب فى القرآن مقاطع تتحد فيها الحروف ، ومقاطع أيضاً لا تتحد فيها الحروف ، ولكن تتقارب ، ومن المقاطع التى تتحد فيها الحروف قوله تعالى فى سورة الغاشية « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة » (١) . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « والطور وكتاب مسطور فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور ، ان عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » (٢) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا ، ان الانسان لربه لكنود ، وانه على ذلك لشهيد ، وانه لحب الخير لشديد » (٣) .

وهكذا نجد اتحاد حروف المقطع ، فى مقطعين أو أكثر ، ثم تتغير ، الى اتجاه المقاطع فى حرف آخر ، ومن القرآن ماتتقارب فيه المقاطع ، مثل قوله تعالى « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أئذا متنا ، وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج ، أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروج » (٤) .

اننا لا نجد المقاطع متحدة الحروف ، ولكن نجد أموراً ثلاثة :

---

(١) الغاشية : ١ — ١٦
(٢) الطور : ١ — ٨
(٣) العاديات : ١ — ٨
(٤) ق : ١ — ٦

أولها — تقارب مخارج الحروف فى المقاطع ، فالدال والباء ، والظاء مخارجها واحدة النطق فيها متقارب ، ولا نفرة بينها .

ثانيها — وجود حرف المد قبل الحرف الأخير من كل مقطع ، وهو حرف الياء فى خمسة منها ، وواحد بالواو والوزن فى الخمس الأول منها هو وزن فعيل .

وبهذين الأمرين كان التقارب فى المقاطع ، تقارباً بيناً يجعل نسق القول واحداً ولو لم تتحد المقاطع .

والأمر الثالث هو اتحاد النغم والموسيقى فى كل المقاطع ، فهى كلها مؤتلفة فى حروفها وألفاظها ، وجملها ومقاطعها ، حتى كونت صورة بيانية تجعل كلام الله العزيز فوق كل منال .

وقد يكون الكلام فى القرآن خالياً من المقاطع فى بعض الآيات ، ولا ينزل فى نغمه وموسيقاه عن سمته ومستواه الاعلى ، ومن ذلك قوله تعالى «محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضونا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » (١) .

ومن ذلك كثير من آيات الأحكام مثل آية المواريث ، فالله تعالى يقول : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فان كن نساء فوق اثنتين ، فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ، ان الله كان عليما حكيما . ولكم نصف ما ترك أزواجكم ، ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد ، فلكم الربع

---

(١) الفتح : ٢٩

مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين ، غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ، تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم » (١).

وأننا لانجد فى هذا الكلام الا مقطعين لا يعدان فواصل متقاربة ، ولا فواصل متحدة فى آخرها بحروفها ، انما هو كلام الله المنثور من غير ارسال ، بل النغم متآخ ، والمعانى متلاقية ، والألفاظ متجانسة ، ومتلائمة مع بيان للأحكام ميسراً سهلا ، فلم ينزل ذكر الأرقام ، بمرتبة الكلام ، عن حد التلاؤم والتآخى .

أفى القرآن سجع ؟

١٢٥ — الأمر الذى لا مراء فيه أن القرآن الكريم فيه فواصل قد تتحد فيها حروف المقاطع ، وأحياناً وقد تلونا فيما مضى من القول آيات بينات فيها المقاطع متحدة الحروف ، فهل تعد هذه سجعا ! اختلفت فى ذلك عبارات كتاب البلاغة فى القديم .

ونجد الرمانى يحكم بأن القرآن فيه فواصل ليست من السجع ، وبذلك يعلو القرآن فى نظره عن أن يكون سجعاً ، ويقاربه فى ذلك الرأى أو يوافقه الباقلانى فى كتابه دلائل الاعجاز ، وسنعود الى الاستدلال لذلك الرأى ان شاء الله تعالى.

ولكن الآن نتكلم فى وجهة نظر الذين أثبتوا أن القرآن فيه سجع ، وان كان أعلى مما يستطيع الناس أو يزاولونه.

ومن هؤلاء أبو هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين ، فهو يقول :

« وجميع ما فى القرآن مما يجرى على القرآن من التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة ، لما يجرى مجراه من كلام الخلق ،

---

(١) النساء : ١١ — ١٣

ألا ترى قوله عز اسمه « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا (١) » • قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى من مثل قول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والفرض والغمر ، والبرض ومثل هذا من السجع المذموم ، اما فيه من التكلف والتعسف ، ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لرجل أندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل : أسجعا كسجع الكهان ، لأن التكلف فى سجعهم فاش، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعا لقال : أسجعا ثم سكت ، وكيف يذمه ويكرهه ، واذا سلم من التكلف ، وبرىء من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام •

ونرى من هذا أن أبا هلال العسكرى يخالف الرمانى فى أن السجع كله مذموم، بل منه المذموم الذى يظهر فيه التكلف ، ويرهق الألفاظ والمعانى ، حتى يحاول القائل أن يكون كلامه رصاً غير متماسك بملاط من المعانى •

ويرى أنه لا مانع من أن يوصف القرآن بأن فيه سجعاً ، ولكنه سجع فى أعلى مراتب الكلام ، بحيث لا يمكن أن يجاريه أحد ، ولا يصل الى علوه أحد من الخلق •

وابن سنان فى كتابه سر البلاغة يسمى ما فيه المقاطع متحدة سجعا ولكن فى درجة العلو القرآنى الذى لا يستطيع أحد أن ينهد فى كلامه اليه •

ويسوق نصوصا قرآنية يعدها من السجع منه ماتلونا ، ومنه قوله تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر » (٢) وقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد » (٣)

ويقول ابن سنان ان نغم السجع كان مقصوداً ، فقد حذفت الياء فى يسرى ،

---

(١) العاديات : ١ — ٥ (٢) الفجر : ١ — ٥ (٣) الفجر : ٦ — ١٢

وحذفت فى الواد ، وذلك صحيح فى اللغة ، ويقول قصـــد اليه طلبا للموافقة فى الفواصل •

ويستدل أيضاً بقوله تعالى : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » (١) •

ويتكلم ابن سنان فى البواعث التى بعثت الذين ينكرون أن يكون فى القرآن سجع ، فيحمد تلك البواعث مع الاصرار على المخالفة فيقول : وأظن أن الذى دعا أصحابنا الى تسمية كل ما فى القرآن فواصل ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً ، رغبة فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض فى التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه ، لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره فى كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه فى كونه عرضا وصوتاً وكلاماً عربيا مؤلفا ، وهذا مما لا يخفى ، فيحتاج الى زيادة فى البيان ، ولا فرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع •

ويقول فارضاً اعتراضاً ، وراداً عليه ، فاذا قال قائل « اذا كان عندكم أن السجع محمود ، فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً ، وما الوجه فى ورود بعضه غير مسجوع ! قيل ان القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعادتهم ، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مســجوعا لما فى ذلك من أمارات التكلف والاســتكراه ، والتصنع ، لا سيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعاً ، جرياً على عرفهم فى الطبقة العالية من الكلام ، ولم يخل من السجع ، لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصفة التى قدمناها ، وعليها ورد فى فصيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون عالياً فى الفصاحة ، وقد أخل فيه شرط من شروطها ، وهذا هو السبب ، فأورد القرآن مسجوعاً ، وغير مسجوع » •

ونحن لا نفرض احتمال التكلف فى القرآن قط ، لأنه من عند الله تعالى ولكن نقول هكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون هكذا كتابه ، واذا أردنا أن نلتمس حكمة لذلك ، فهى فيما قال سبحانه « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل

---

(١) القمر : ١ ــ ٢

مثل » فتصريف للقول فى القرآن ، كان من جماله الذى يعلو على كل البشر ، بأن يكون تصريف القول فيه بسجع أحيانا ان ارتضينا مذهب السجع ، أو الفواصل المتقاربة حروفها فى المقاطع أحياناً أو اطلاق الألفاظ فى القرآن ، من غير مقاطع ، مع ملاحظة أن ذلك كله فى أعلى ذلك درجات البلاغة التى لا يصل اليها أحد من البشر .

وابن الأثير فى كتابه المثل السائر يستنكر قول الذين يذمون السجع ، ويستنكر قول الذين لا يسمون ما فى القرآن من اتحاد المقاطع فى الحروف سجعا ، ويقول فى ذلك .

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به ، والا فلو كان مذموماً لما ورد فى القرآن الكريم ، فانه قد أتى منه بالكثير ، حتى انه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن ، وسورة القمر وغيرهما ، وبالجملة فلم تخل منه سورة .

وترى أنه يستحسن السجع ، ويرمى الذين لا يستحسنونه بأنهم لا يجيدونه ونقول انه لا يمكن أن يكون حسناً فى كل الأحوال ، فمثلا بيان الأحكام الشرعية فى أى كلام بليغ لا يصح أن تكون سجعا ، ولكل مقام مقال كما يذكر علماء البلاغة .

وخلاصة ما يقرره المثبتون للسجع فى القرآن أنهم يعتمدون على مايتلونه من من اتحاد الحروف فى مقاطع القرآن ، ويقررون مع ذلك أن سجع القرآن أعلى من كلام البشر ، فليس على شاكلة مثله فى كلام الناس ، لأنه أعلى من كلام الناس .

١٢٦ — من هذه النقول التى نقلناها نجد الذين يقررون أن فى القرآن سجعا يعتمدون أولا — على نصوص القرآن التى ثبت فيها أن الفواصل المتحدة فى الحروف كثيرة فى القرآن ، وثانياً على أن السجع ليس عيباً فى القول ، ولكنه من محسنات القول ، وقد وقع كثيراً فى كلام العرب الجيد وانه لم يكن سجع الكهان

هو السائد فقط ، بل كان من بلغاء العرب من اتجه الى السجع البليغ ، فقد روى عن أبى طالب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لسيف بن ذى يزن :

« أنبتك الله منبتاً طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه، ونبت زرعه فى أكرم موطن ، وأطيب معدن » .

وان الذين نفوا السجع من القرآن قالوا انه مذموم ، وعلى رأسهم الرمانى ، وجاء من بعده أبو بكر البلاقلانى ، فنهج ذلك المنهج وسار على ذلك الخط ، ونسبه الى الأشاعرة ، فقال :

ذهب أصحابنا كلهم الى نفى السجع من القرآن ، وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى غير موضع من كتبه .

واذا كان الذين ردوا على الرمانى قد بينوا أن السجع ليس مذموماً على اطلاقه ، انما المذموم منه سجع الكهان ، وما كان فيه اللفظ هو المقصود ، والمعنى تابع له .

وقد أنكر الباقلانى آن يكون فى القرآن سجع ، وما ادعوه من سجع فيه وساقوه ، هو وهم لا أساس له فقال :

والذين يقدرون أنه سجع هو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع ، وان لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا ، يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ لا يقع فيه تابعاً للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون السجع منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع ، كانت افادة السجع كافادة غيره ، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتحسين الكلام دون تصحيح .

واننا هنا نجد افتراقا بين الباقلانى وابن الأثير وابن سنان وأبى هلال العسكرى فى تعريف السجع ، فأولئك يعتبرون السجع ما اتحدت فيه ألفاظ

المقاطع ، سواء أكان المعنى هو المقصود ، وجاء الاتحاد تحسينا للقول ، أم كان المقصد هو اللفظ واتحاد ألفاظ المقاطع هو المقصود ، وفى الأول يكون السجع محموداً ، وفى الثانى لا يكون لائقاً بمقام القرآن الكريم •

أما الباقلانى وسائر الأشاعرة ، ومن سلك طريقتهم ، فانهم لا يذكرون السجع الا فى الصورة التى يكون فيها اللفظ مقدما على المعنى •

وان الذى دفع الباقلانى الى هذا هو تشبيه السجع بالشعر ، فالشعر تقصد فيه القوافى والمقاطع المتحدة فى الألفاظ ثم تكيف المعانى على الألفاظ ليستقيم المقطع ، كما تستقيم القافية ، واذا كان الشعر منفياً فى القرآن بالاتفاق فكذلك السجع الذى ينهج منهجه ، ويتبع طريقته ، وتجىء المعانى تابعة للألفاظ مكيفة بكيفها ، مأخوذة بطريقها ، وان الله تعالى عندما استنكر أن يكون قول شاعر ولا كاهن ، أدخل السجع فى النفى ، وهو السجع الذى يكون فيه المقصد الأول للفظ •

وانه اذا كانت الفكرةنفياً أو اثباتاً قائمة على الاختلاف فى الاصطلاح ، فانه قد زال الخلاف ، اذ لا مشاحة فى الاصلاح •

وبذلك ننتهى الى الاتفاق على أن القرآن فيه فواصل تتحد فيها المقاطع ولعلوها وسموها فى البلاغة كانت المعانى هى المقصد الأول ، وجاءت الألفاظ بجمالها واشراقها وحسن نغمها ، ورنة موسيقاها تابعة لذلك ، وقد يكون اتحاد المقاطع فى الحروف من مظاهر الجمال وحسن النغم • وانسجام الموسيقى وفى ذلك قوة التأثير ، بما لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله •

وعلى ذلك نقول ان من يفسر السجع بأنه الاتحاد فى حروف المقاطع من غير أن يكون المعنى تابعاً للفظ يحكم بأن القرآن الكريم فيه سجع فوق قدرة البشر أن يأتوا بمثله ، ومن يقول ان السجع كالشعر يكون المعنى فيه تابعاً للقافية والأوزان يكون القرآن الكريم منزهاً عنه •

ونحن نميل الى أن اتحاد المقاطع فى القرآن لا يعد سجعاً ، لأننا نرى السجاعين

يتجهون الى الألفاظ أولا ، وقد يكون سـهلا وحاواً ولكن الاتجاه فيه أولا الى الألفاظ ، وذلك غير لائق بالنسبة للقرآن •

١٢٧ — وبذلك يكون الحكم فى أمر اتفق الطرفان المتخاصمان فيه على تقديس القرآن الكريم ، وتنزيهه عن أن يكون مشابها لكلام الناس ، وان كان من جنسه ، ومكونا من حروفه •

ونختم الكلام بكلام لكاتبين مؤمنين قال أحـدهما فى وصف ألفاظ القرآن ونظمه ، وقال الثانى فى فواصله ومقاطعه ، أما الأول فالباقلانى ، فقد قال :

« ان القرآن سهل سـبيله ، فهو خارج عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريبا الى الأفهام ، يبادر معناه لفظه الى القلب ، ويساوق المغزى منه عبارته الى النفس ، وهو مع ذلك ممتنع المطلب عسير المتناول غير مطمع مع قربه فى نفسه ، ولا موهم مع دنوه فى موضعه أن يقدر عليه ، أو أن يظفر به ، فأما الانحطاط عن هذه الرتبة الى رتبة الكلام المبتذل ، والقول المسفسف فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة ، فيطلب فيه ، ولكنه أوضح مناره ، وقرب منهاجه ، وسهل سبيله ، وجعله فى ذلك متشابها متماثلا ، وبين مع ذلك اعجازه فيهم •

أما الثانى فهو الكاتب المؤمن مصطفى صادق الرافعى رحمه الله ورضى عنه فهو يقول فى فواصل القرآن ومقاطعه •

ما هذه الفواصـل التي تنتهى اليها آيات القرآن ؟ ما هى الا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا ، يلائم الصوت والوجه الذى يساق اليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها ، أو بالمد ، وهو كذلك طبيعى فى القرآن ••• قال بعض العلماء : كثير فى القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين ، والياء والنون ، وحكمة وجودها التمكن من التطريب بذلك • كما قال سيبويه انهم (أى العرب) اذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك اذا لم يترنموا ، وجاء ذلك

فى القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع •• فاذا لم تنته بواحدة من هذه (بالميم والنون والمد) كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة ، وتقطيع كلماتها ، ومناسبة للون المنطق بما هو اشبه وأليق بموضعه • وعلى أن ذلك لايكون أكثر ماأنت واجده الا فى الجمل القصار ، ولا يكون الا بحرف قوى يستتبع القلقلة أو السفير ، أو الصفير أو نحوهما مما هو صروف أخرى من النظم الموسيقى •

وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة ، وأثرها طبيعى فى كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه • ثم لا يجد من النصوص على أى حال الا الاقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ الذى يطمع فيه أو فى أكثره ، ولما وجد أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية الى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز • فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بينا ، أو ضعفا ظاهراً فى نسق الوزن ، وجرس النغمة ، وفى حس السمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ، وتساند الحروف ، وافضاء بعضها الى بعض ، ولرأيت لذلك هجنة فى السمع كالذى تنكره من كل مرئى لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا ، وذهب ما بقى منها الى جهات متناكرة » •

وان هذا الكلام يفيد فائدتين : أحداهما — أن موسيقى القرآن الكريم ونغماته هى التى استرعت أسماع العرب ، واستهوت نفوسهم ، ورأوا لها حلاوة ، وعليها طلاوة ليست من الشعر ، وان علت على أعلى ما فيه ، وليست من نوع كلامهم البليغ وان كانت من جنس كلامهم ، وأن ذلك التأليف فى النغم والجرس مع علو المغزى ، والمعنى ، واحكام التعبير ، ودقة الاحكام ، لا يمكن أن يصل اليه أحد •

وقد يقول قائل هل هذه الأنغام المؤتلفة مقصودة فى ذاتها ، وهى الاعجاز فنقول اننا مهما نحاول فى رد الاعجاز الى أسباب لا نجد سبباً واحداً بذاته هو الذى اختص بالاعجاز ، بل تضافرت فى ذلك الأسباب ، وكل واحد منها يصلح سبباً قائماً بذاته •

ولكن نؤكد أن جرس المقاطع والحروف والكلمات والجمل ، والفواصل ، وأبعادها كل هذا فيه اعجاز للعرب عن أن يأتوا بمثلها .

وان الدليل على أن جرس الآيات القرآنية بما حوت من حروف وكلمات هو من الاعجاز أن الله تعالى أمر بترتيل القرآن لا بمجرد القراءة ، فقد قال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » وبين سبحانه أن ترتيل القرآن بتعليم من الله تعالى ، فقد قال تعالت كلماته : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا »(١) فالله تعالى علم نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم الترتيل ، وهو علم أمته ذلك الترتيل ، وليس الترتيل مجرد القراءة ، انما الترتيل قراءة منغمة تنغيماً يظهر التناسق فى الحروف والجمل والآيات ويكشف معانيها ، ونغماتها ، وتلك هى موسيقى القرآن .

الفائدة الثانية التى يفيدها أن اعجاز القرآن لغير العرب هو بنغمه وجرسه الموسيقى ، فان الموسيقى لغة الانسانية ، وتهتز لها كل القلوب ، ونحن نوافقه فى اتجاهه الى أن القرآن معجز للعرب وغيرهم ، ولكن لانقصر اعجاز غير العرب على الموسيقى وحدها ، بل نقول ان ذات العبارات ، وشرائعه ، والعلم المبثوث فيه ، وكونه من أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وقد نشأ فى بلد أمى ليس فيه معهد ، ولا مدرسة — هذا كله فيه الدلالة على أنه من عند الله تعالى .

---

(١) الفرقان : ٣٢

٥– الإيجاز والاطناب فى القرآن

١٢٨ — ان القسمة العقلية للكلام كثرة وقلة بالنسبة لمعناه تحصره فى أربعة أقسام ، أولها الايجازة بأن تكون الألفاظ قليلة والمعانى كثيرة . وثانيها التقصير بأن تكون الألفاظ غير كافية للدلالة على المعانى . وثالثها الاطناب بأن تكون المعانى كثيرة ، والألفاظ كثيرة لا حشو فيها . ورابعها التطويل ، وهو أن تكون الألفاظ كثيرة ، وفيها ما لاحاجة اليه . وهذه الاقسام الاربعة من الناحية البلاغية متقابلة ، فالايجاز والتقصير متقابلان ، وأولهما باب من أبواب البلاغة وثانيهما عى فى القول ، ونقص فى البيان . والاطناب والتطويل متقابلان ، وأولهما بلاغة وحسن أداء ، وثانيهما عى وعيب فى البيان ، يدفع الى الملل والسآمة ، حتى يتبرم به السامع .

وقد ذكر الرمانى هذه الاقسام المتقابلة ، مع كل مايقابله ، فقال : الايجـــاز بلاغة والتقصير عى ، كما أن الاطناب بلاغة والتطويل عى ، والايجاز لا اخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ، لأنه لابد فيه من الاخلال ، فأما الاطناب فانما يكون فى تفصيل المعنى ، وما يتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، فان لكل واحد من الايجاز والاطناب موضعا ، يكون به أولى من الآخر ؛ لأن الحاجة اليه أشد ، والاهتمام به أعظم ، فأما التطويل فعيب ، وعى ؛ لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفى منه القليل فكان كالسالك طريقا بعيدا ، جهلا منه بالطريق القريب ، وأما الاطناب فليس كذلك ؛ لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة ، والفوائد العظيمة ، فيحصل فى الطريق على غرضه من الفائدة ، على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب .

وانه يستفاد من هذا الكلام أن الاطناب هو فى زيادة المعانى ، لا فى زيادة الألفاظ ، فان اللفظ اذا زاد لا يكون الكلام من الاطناب البليغ المستحسن الا اذا زادت معه المعانى ، وذلك يكون بتفصيل القول ، لا باجماله . اقرأ قوله تعالى : « وما تلكَ بيمينكَ ياموسى ، قالَ هي عصاي أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمي ،

ولى فيها مآرب أخرى (١)» اننا نرى هنا اطنابا حلوا تترطب به الألسنة والأسماع ، كان الايجاز أن يقول هى عصاى • وبقية المعانى تفهم ، ولكن محبة موسى لربه ، ورغبته فى أن يطيل المحادثة ، صرح بما يفهم ضمنا ، وبما يعلمه الله تعالى من غير بيان •

واقرأ مرة أخرى ما قاله موسى عليه السلام عندما كلفه ربه أن يقوم بحق الرسالة ، فقد قال راغبا فى حديثه مع ربه : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا، انك كنت بنا بصيرا ، قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ، ولقد مننا عليك مرة أخرى ، اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل، يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، اذ تمشى أختك، فتقول هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ، وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك لنفسى (٢) •

وهنا نجد فى هذا الكلام اطنابا فى خطاب كليم الله تعالى لربه ، فهو لا يكتفى بالملزوم حتى ينطق باللازم ، لأن الخطاب محبب الى نفسه لانه يخاطب ربه فيسهب فى القول من غير تزيد •

ثم تجد بعد ذلك فى كلامه ايجازا غير مخل ، قد حذف منه ما صرح به فى آيات أخر من قصة سيدنا موسى مع فرعون ، فذكر أن أخته قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، ولم تذكر أنه حرم عليه المراضع ، وقد عرف هذا من الآيات الأخرى ، ومنهم من هذه اذ أنه لا يمكن أن يكونوا فى حاجة الى من يكفله لهم ، الا اذا احتاجوا الى ذلك ، وحذف من قبل كلام امرأة فرعون ، وقد فهم ضمنا من قوله تعالى ، وألقيت عليك محبة منى •

وذكر هنا قتله نفسا ، وطوى ما كان منه عندما بلغ رشده ، ورؤيته

---

(١) طه : ١٧ — ١٨

(٢) طه : ٢٥ — ٤١

رجلا من شيعته يستغيثه فأغاثه وقتل الذى من عدوه ، ثم طوى سبحانه وتعالى خبر الأئتمار به ليقتله المتآمرون ، ثم خروجه ، والتقاؤه بابنتى شعيب وسقيه لهما ، ومجىء احداهما تمشى على استحياء ، ثم زواجه ، على أن يكون المهر عمله ثمانى حجج أو عشر ثم ايناسه بالنار ثم مكالمة الله تعالى ، وقد ذكر ذلك كله فى قوله تعالى « فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر يا موسى ، واصطنعتك لنفسى » (١) .

وهكذا نجد أن الاطناب لا يكون بكثرة الألفاظ فقط ، بل بكثرتها مع كثرة المعنى ، والايجاز لا يكون بكثرة المعانى فقط ، بل لا بد أن يكون فى الألفاظ دلالة واضحة على المعانى الكثيرة ، أو أن تكون هذه المعانى ذكرت فى مقام آخر من القرآن ، فان القرآن الكريم كل كامل لاتنتقص معانيه ، ولا تستغلق على قارئيه وقد يحذف القول فى مكان ، لأنه يفهم بدلالة الأولى فى مكان آخر .

وبين أيدينا فى هذا الباب آيات فى الميراث .

لقد قال تعالى فى ميراث الأولاد : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة ، فلها النصف » (٢) ، ونرى هنا أن النص الكريم ذكر أن ميراث الواحدة اذا انفردت النصف ، وميراث الاكثر من اثنتين الثلثان ولم يذكر الميراث اذا كانتا اثنتين فقط ولم تزيدا عن اثنتين ، أيكون النصف أم يكون الثلثين ؟

لقد تبين ذلك فى ميراث الأخوات ، فقد قال تعالى : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ، ان امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم ان تضلوا والله بكل شىء عليم »(٣) .

وهنا تجد الايجاز المحكم ، فنجد فى الآية الأولى تحذف ما يفهم بالأولى من الآية الثانية ، ويحذف من الثانية كذلك ، فقد ذكرت الآية حكم ما فوق الاثنتين :

---

(١) طه : ٤٠ — ٤١

(٢) النساء : ١١

(٣) النساء : ١٧٦

ولم تذكر حكم الاثنين ، وهو ما بين فى الآية الأخرى لأنهـا ذكرت أن مـيراث الاثنتين هو الثلثان ، واذا كانت البنت أقرب الى الميت من الأخت فيكون ميراث البنتين الثلثين بدلالة الأولى ، لأنه اذا كانت الأختان وهما أبعد تأخذان الثلثين ، فأولى أن تأخذهما البنتان الاثنتين ، لأنهما أقرب ، فلا يمكن أن يكون نصيبهن أقل من الثلثين .

والآية الأولى نصت على أن الأكثر من بنتين تأخذان الثلثين ، فلا زيادة عن الثلثين ، فالأولى بألا يزيد عن الثلثين نصيب الأكثر من أختين لأن الاكثر من اثنين من ذوى القرابة القريبة لا يزيد عن الثلثين ، فأولى ألا تزيد عن ذلك ذوات القرابة الأبعـد .

وأمثال ذلك كثير فى القرآن ، ومنه قوله تعالى« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليـوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك(١) » ، وهذه حال المطلقة الحامل ، وذلك ايجاز لا تفصيل فيه ، وبينت حال الحامل ، فى قوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن »(٢) .

١٢٩ — وان الأمر الذى يجب أن نعرفه ونؤمن به ونؤكده ، وهو الذى يليق ببلاغة القرآن التى لا تسامى ، ولا تناهد ، وتتحدى بها الأجيال كلها — فى كل اللغات — أن الايجاز ليس فيه قصور فى الألفاظ بجوار كثرة المعانى ، وليس فيها ابهام أو عدم وضوح ، بل الألفاظ تكون على قدر المعانى مع كثرتها ، فهى واضحة الدلالة ، كما أن المعانى وفيرة غزيرة مغدقة .

وان الاطناب كذلك فان المعانى تكون كثيرة ، والألفاظ على قدرها لازيادة فيها بحيث لا يمكن الاستغناء عن بعضها والاكتفاء ببعضه ، بل انك لو أردت حذف كلمة ، بل حرف من كلمة لأحسست بأنك قطعت جزءاً من الصورة البيانية : فـلا تكون الصورة كاملة بدونها ، بل تحس بفراغ فى مكانها لابد أن يملأ .

واذا كان الاطناب مع كثرة الألفاظ على قدر المعانى بحيث لا يستغنى بكلمة

---

(١) البقرة : ٢٢٨ (٢) الطلاق : ٤

عن كلمة ، والايجاز كذلك ، فما الفرق اذن بينهما ، ولم يكن ثمة حاجة • لأن يقسم بيان القرآن الى ايجاز واطناب ، وقد اتفق علماء البلاغة على أن فى القرآن الكريم النوعين •

واننا نقول فى الجواب ، ان الايجاز والاطناب طريقان للبيان ، كل منهما واف فى موضعه ، يؤدى الغرض الأول فى موضعه ، وهما يتباينان لا يجمعهما الا البلاغة البينة الواضحة ، وكل له مقامه •

ولنوضح الفرق بينهما فى الحقيقة ، ثم نوضح الفرق بينهما فى مواضعهما من القرآن الكريم •

فالفرق بينهما فى الحقيقة أن الايجاز يكون بحذف كلمة دلت القرائن عليها مع الوفاء فى حذفها ، كالوفاء فى ذكرها ، والبلاغة تكون فى الحذف فى مقام البيان ان كانت الدلالة قائمة ، والقرائن مثبتة ، ويكون فى الحذف فائدة لا توجد مع ذكر المحذوف كقول الله تعالى عن قول أخوة يوسف لأبيهم « واسئل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها وانا لصادقون » (١) •

وان القرية وهى مجموع المساكن والطرقات لاتسأل انما يسأل من فيها ، بل يسأل بعض من فيها ، وذلك دليل على أن المسئول هو البعض ، فهنا ايجاز بالحذف ، ولا نقص بذلك الحذف ، بل فيه زيادة معنى ، وهو أن الأمر شائع عام للجميع ، وكأن كل من فى القرية يعرف حتى البنيان ، والمساكن والأسواق ، أى أن ذلك أمر معروف ، لا موضع للكذب فيه •

وحقيقة الاطناب أن المعانى تكون والألفاظ على قدر واحد فى الكثرة، والألفاظ بناء متكامل لا ينقض منه لبنة ، ولكن الاطناب يكون متجها الى تفصيل الألفاظ فى الدلالة ، فلا يستغنى بلازم عن ملزوم ، ولا بملزوم عن لازم ، ولا بعام عن خاص ، ولا بخاص عن عام ، ولا بدلالة الأولى عن نص اللفظ ، ولا بالاشارة عن العبارة ، بل كل ما يقتضيه المقام يجىء فى وضوح كامل ، لا يكتفى فيه بالتضمن،

(١) يوسف : ٨٢

ولا بالاشارة ولا بالالتزام ، ومثال ذلك فى الحسيات ، وان كان لكلام الله تعالى المثل الأعلى أن تطلب من شخص وصف قصر ، فيصف أبعاده ، طوله وعرضه ، وارتفاعه وزيناته ، ثم يصف الغرفات غرفة غرفة ، ودعائم بناء القصر، ويسترسل فى وصفه كأنك تراه وهذا اطناب يكون له مقامه اذا كان لمن يريد شراءه أو سكناه•

وقد يقول فى وصفه أحياناً انه على أكمل صورة لتصور المترفين طلاء وحلية•

ولا شك أن الأول اطناب لا زيادة فيها مادام غير قاصد الا لبيان مافيه والثانى ايجاز لا قصور فيه •

ولنضرب لذلك مثلا سورة الطلاق التى بينت وقت الطلاق ، وما يكون بعده ، وما يجب للمطلقة ، وما يجب على المطلق ، مع الايجاز فى بعض الأحكام التى تشمل حال الطلاق وغيره •

قال الله تعالى : « يأيها النبى اذ طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهاة لله ذلكم يوعظ به ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدراً ، واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ، ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله اليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وان كن اولات حمل فأنفقوا عليهن ، حتى يضعن حملهن فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وان تعاسرتم فسترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ،

لا يكلف الله نفساً الا ما أتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا » (١) •

وانك ترى فى هذا النص الكريم المعانى الكثيرة ، فهى تكاد تشتمل أحكام المطلقات ، وفيها اشارة الى بعض أحكام عدة المتوفى عنهن أزواجهن ، وان الألفاظ ليست قليلة ، ومن المؤكد أنه لا زيادة فيها ، بل تخلل الايجاز بعضها •

وان أكثر آيات الأحكام فيها ذلك الاطناب الذى لاتزيد فيه الألفاظ عن المعانى ، لأنها تتعرض لما يكلف الله تعالى عباده ، ولا بد أن يكون ذلك واضحاً ، للمكلف كل الوضوح حتى لا يكون فى ذلك موضع ابهام تكون فيه معذرة للمكلف، بل انه بيان الله تعالى الشامل الذى لاابهام فيه ، ولا مظنة ابهام • أقرأ قوله تعالى فى تحريم الخمر ، اذ أطنب سبحانه ، فقد قال تعالت كلماته : « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة ، والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة • فهل انتم منتهون ، واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم ، فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ، ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا، اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » (٢) •

واننا نرى القرآن الكريم يأتى بالاطناب الذى لا زيادة فيه فى آيات الأحكام كما أشرنا بذلك ، وتلوناً من كتاب الله تعالى ، فانك لا تجد أن حكما أصلياً يأتى به القرآن يكتفى فيه بالاشارة عن العبارة ، وباللازم عن الملزوم ، بل كل ذلك صريح فى القرآن الكريم ، ولكن الفقهاء فى استنباطاتهم كانوا يأخذون أحكاماً من اشارات العبارات وكناياتها ، كما رأينا فيما ستنبطوه من قوله تعالى « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن » فانهم فهموا منه أن الولد لأبيه وأن له حق التربية وأخذ الفقهاء من اشارات العبارات كثيراً فى أبواب الفقه، وعد ذلك من بلاغة القرآن الكريم •

---

(١) الطلاق : ١ ـ ٧ (٢) المائدة : ٩٠ ـ ٩٣

وان أخذ الأحكام بطريق الاشارة دون العبارة لا يمنع أنه لم يكتف بذكر الملزوم فى بيان الحكم الأصلى ، وان ذلك ثمرات الحكم الأصلى فهمت منه وأما الأصل فلم يفهم الا بالعبارة الواضحة .

هذا ومن مواضع الاطناب الواضح فى القرآن الكريم ، القصص القرآنى فى مواضع العبرةوتسلية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان ما نزل بالأنبياء السابقين وما لاقوا من أقوامهم ، فان الاطناب فى ذلك يزيد قلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تثبيتاً وأنساً ، وان القصص فوق ذلك يكون مشتملا على مناقشة الأنبياء السابقين لأقوامهم ، وأدلة التوحيد التى جاءت على ألسنتهم ، وفيه بيان أحوال السابقين ، وما كان يسيطر عليهم وعلى بيئاتهم .

وانه من مواضع الاطناب الذى لا يكفى فيه الايجاز بطلان عبادة الأوثان ، ومجادلة المشركين ، ورد مطالبهم من معجزات غير القرآن . وبينات تثبت الرسالة سواه ، فان القرآن مشتمل على الكثير منه .

ومن مواضع الاطناب توجيه النظر الى الكون ، وما فيه من خلق السموات والأرض وما بينهما ، فان هذه مواضع تحتاج الى الاطناب الذى لا تغنى فيه الاشارة عن العبارة ، وفى القرآن الكريم من ذلك مايدل على عظمة الخالق من مظهر المخلوق ، ودلالة الأثر على المؤثر والموجود على من أنشأه ، والحاضر على الغائب.

ومن مواضع الاطناب مناقشة أهل الكتاب ، وبيان انكارهم ، واثبات ماضيهم الذى امتد فى حاضرهم .

١٢٨ — ويجب أن ننبه هنا الى أن التكرار ليس من الاطناب ، وهو من الحشو اذا كان فى سياق واحد ، فالسياق الواحد لا يتكرر فيه المعنى ، ولا يتكرر فيه اللفظ ، واذا بدا للقارىء الذى لا يمحص المعانى والحقائق أن فى الكلام القرآنى تكراراً للمعنى ، فان ذلك عند ذوى الفهم السليم تفكير سقيم ، لأن تكرار المعنى له وصف آخر يؤدى فكرة جديدة ، ومن ذلك قوله فى وصف ميثاق بنى اسرائيل الذى

أخذ عليهم وأقروا به ثم أعرضوا عنه ، فقد قال تعالى : « واذ أخـذنا ميثاق بنى اسرائيل ، لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم الا قليلا منكم ، وأنتم معرضون ، واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون » (١) .

ولقد ادعى بعض الناس أن فى الكلام تكراراً فى المعنى فى موضعين ، وان كان اللفظ لا يتكرر ، ففى الأول يقـول تعالى « ثم توليتم الا قليـلا منكم ، وأنتم معرضون » فيدعى بعض الناس أن فى النـص الكريم تكراراً ، لأن التولى هو الاعراض ، فما معنى وأنتم معرضون » الا أن يكون تكراراً ، وان النظر العميق يثبت أولا أن التولى هو الانصراف ، والبعد بالجسم ، والاعراض هو الانصراف بالقلب ، فأشبه هذا قوله تعالى » فأعرض ونأى بجانبه(٢)» وفى هذا تصوير حسى للاعراض فهـو لم يعرض بالقلب بعـدم الاذعان بل قرن المعنى النفسى بالمظهر الحسى، كذلك هنا قرن الاعراض النفسى بالمعنى الحسى لتصوير الاعراض — وجعل الحق وراءهم حسيا ، ثم قوله تعالى : (وأنتم معرضون) حال وفيه معنى توليتم ان كانت بمعنى الاعراض عامة ، وذلك لأن معنى هـذه الجملة الحـالية أى أن الاعراض النفسى عن الحق ، وجحودهم حال مستمرة من أحوالهم فالحق لا يصل الى قلوبهم .

والثانى وهو قوله « ثم أقررتم ، وأنتم تشهدون » فان الذين يدعون التكرار فى المعنى يقولون ان الشهادة هنا هى الاقرار فما معنى ذكرها بعد الاقرار الا أن يكون تكراراً .

ونقول فى الاجابة عن ذلك ان ذكر وأنتم تشهدون بعد الاقرار ليس تكراراً ، لأن الشهادة هنا ليس معناها الاقرار لأن الاقرار قد يكون عن أمر مغيب ، وانمـا معناها الحضور والرؤية ، والمعنى على ذلك أنكم حضرتم الميثـاق وأقررتم على

---

(١) البقرة : ٨٣ — ٨٤ (٢) الاسراء : ٨٣

ما فيه ، فهو اقرار موثق لا تستطيعون أن تدعوا الغفلة اذ هو قول وحضور ، فعن أيهمـــا تغفلون •

ومن الآيات القرآنية التى يدعى فيها التكرار بادى الرأى قوله تعالى فى قصة صالح عليه السلام مع قومه •

« واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال ، بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الارض مفسدين » (١) •

وقد قالوا ان هنا تكراراً فى المعنى لأن العثى هو الفســاد ، فمعنى لا تعثوا لاتفسدوا ، فكلمة مفسدين تكون تأكيدا للمعنى ، والجواب عن ذلك انه لا تكرار ، لأن النبى الأمين نهى عن الفساد ، وعن القصد اليه فكلمة مفسدين تدل مع لا تعثوا على عدم القصد اليه ، ومن جهة أخرى فيها ايماء الى أن الافساد وصف لهم ، فعليهم أن يتخلوا عن الوصف ، وهى كذلك تدل على شناعة حالهم ، وفساد جمعهم ، اذ أنه فساد لا صلاح معه ، فهل يقال بعد هذا ان ثمة تكرارا فى المعانى فى أى جملة من آيات كتاب الله تعالى •

وانه لا يوجد تكرار لفظى فى جملة واحدة ، ولا فى موضع واحد •

وقد ادعى بعض العلماء التكرار فى مواضع من القرآن وعلله بما لا يتنافى مـــع اعجـــاز القرآن الكريم بل انه من دلائل الاعجاز ، اذ أن تكرار المعنى الواحـــد بعبارات مختلفة فى مواضع مختلفة مع جمال الألفاظ والجمل فى مواضعها المختلفة ، كأن يكرر المعنى فى قصة ، فى سور مختلفة ، وكل عبارة معجزة فى ذاتها ، ويتحدى بها فى نغمها وموسيقاها وألفاظها وجملها ، وعجز العرب عن أن يأتوا بأى عبـــارة منها دليل على كمال الاعجاز فى جملته وفى أجزائه •

ونحن نرى أنه لا تكرار فى عبارات القرآن بمعنى أن يكرر المعنى من غير حاجة اليه بل ذكرنا أنه اذا تكرر لفظ أو معنى فانما يكون ذلك لمناسبة جديدة ، ويكون عدم ذكر ما يدعى فيه التكرار اخلالا ، وذلك مستحيل على كتاب الله تعالى •

---

(١) الاعراف : ٧٤

وقد ضربنا على ذلك الأمثلة من قصص القرآن ، ومن أنواع الاستفهام وذلك فى صدر كلامنا فى تصريف القول فى القرآن .

أقسام الايجــاز :

١٢٩ — يقسم الرمانى الايجاز الى قسمين : ايجاز حذف ، وايجاز قصر فيقول رضى الله عنه . الايجاز على وجهين حذف وقصر والحذف اسقاط كلمة للاجتزاء فيها بدلالة غيرها من الحــال أو فحوى الكلام ، والقصر بنية الكــلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ، فمن للحذف ، « واسأل القرية » ومنه « ولكن البر من اتقى » ومنه « طاعة وقول معروف » ومنه حذف الأجوبة ، وهو أبلغ من الذكر ، وما جاء منه فى القرآن كثير كقوله جل ثناؤه ، « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » ومنه قوله تعالى : «وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها(١) » ، كأنه قيــل حصلوا على النعيم ، وانما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس فيه تذهب كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان ، فحذف الجواب فى قوله : لو رأيت عليا بين الصفين أبلغ من الذكر ، لما بيناه .

هذا كلام الرمانى فى الايجاز بالحذف ، ونلاحظ فى ذلك أمرين :

أولهما — أن الايجاز هنا نسبى فى جزء من الكلام ، فقد يكون الكلام فى مقام الاطناب ، ولكن فى جزء منه يكون الحذف ، وذلك موجود فى بعض ما ذكره من أمثلة من تلك قوله آية البر ، فانها مطنبة بالنسبة لبيــان المستحقين للبر . فقــد قال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصــلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »(٢) .

(١) الزمر : ٧٣

(٢) البقرة : ١٧٧

ونرى من هذا أن مجموع الآية فى بيانها لا يعد من قبيل الايجاز ، بل هو اطناب على المعنى الذى بيناه فى الاطناب •

ولكن ذلك لا يمنع أن فى جزء من الآية الكريمة ايجازاً ، وعلى ذلك نقول ان الايجاز هنا نسبى أو جزئى •

ثانيهما — أن الحذف فى ذاته بلاغة اذ أنه يعطى الكلام قوة ، ويثير الخيال ليتصور المحذوف أعلى من المبين ، وقد بين ذلك فى حذف الجواب فى قوله تعالى «وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها » •

ومن ذلك فى معناه الذى يريده قوله تعالى : «ولو يرى الذين ظلموا ، اذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب » (١) فان جواب لو محذوف يلقى الرهبة فى النفوس ، وتذهب فيه العقول كل مذهب وتقدير ، ولم يذكر البلاغة فى ايجاز الحذف فى مثل قوله تعالى : «واسأل القرية » (٢) وفى مثل قوله تعالى «ولكن البر من أتقى » (٣) وقد تظهر بلاغة الحذف فى قوله تعالى «واسأل القرية » اذ أن فى ذلك اشارة الى شيوع القول فيها ، وأن القرية كلها تكلمت ، ومثل ذلك قوله تعالى : « فليدع ناديه » وأما قوله تعالى : « ولكن البر من اتقى » فان فيه تزكية للمتقين بجعلهم البر ذاته ، وأن نفوسهم علت وزكت قلوبهم حتى صارت هى ، وفى ذلك فوق هذا تصوير للمعنى قائما بالذين يتصفون،فيكون محسوساً معلوماً فيهم•

١٣٠ — ويعد الرمانى ايجاز القصر الذى عرفه بأنه بناء الكلام على تقليل الألفاظ — ويعده أغمض من ايجاز الحذف لأن الحذف فيه غامض يحتاج الى العلم بالمراضع التى يطبق فيها ، ويقول : فمن ذلك قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة» (٤) : ومنه قوله تعالى : «يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو»(٥) ، ومنه قوله تعالى : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها(٦) » ، ومنه « ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس »(٧) : وقوله جل وعلا«انما بغيكم على أنفسكم»(٨)

---

(١) البقرة : ١٦٥
(٢) يوسف : ٨٢
(٣) البقرة : ١٨٩
(٤) البقرة : ١٧٩
(٥) المنافقون : ٤
(٦) الفتح : ٢١
(٧) النجم : ٢٣
(٨) يونس ٢٣

ومنه « ولا يحيق المكر السىء الا بأهله » (١) وهذا الضرب من الايجاز فى القرآن كثير . وهو المثل الكامل لجوامع الكلم ، وجل كلام الله تعالى عن أن يكون له مثيل .

ونلاحظ أن الأمثلة التى ساقها تتصل بكلام قبلها ، فليست منقطعة . فهى أما أن تكون حكمة أو أعلى من حكمة أو قضية مستقلة مؤيدة الحكم الذى سبقها ، مبينة حكمته ، كقوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » فهى ختام آية القصاص ، التى يقول الله تعالى فيها « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى « الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء ، فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون (٢) » .

وترى من هذا أن الآية الكريمة تتميم لآية قبلها ، لأنها بيان للحكمة والمصلحة الكاملة فى القصاص ، ليقدموا عليه غير نافرين لأنه اتقاء لشر مستطير ، واذا كان القصاص فى القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من المضرة ولا شك أن الألفاظ قصيرة ، والمعانى التى تنطوى تحتها كثيرة ، وخصوصاً أن تنكير كلمة «حياة» يدل على تعظيم هذه الحياة التى تترتب على تنفيذ القصاص ، لأنها تكون حياة آمنة سعيدة لامزعجات فيها ، وخصوصاً اذا كان مع حق القصاص حق العفو من المجنى عليه فانه يربى التواد ، ويحل المحبة والمودة محـل البغض والعـداوة .

والآية الثانية التى ساقها الرمانى هى « انما بغيكم على أنفسكم » ، ونلاحظ أن الرمانى قطعها عن سابقها ولاحقها من لفظ ، اذ الآية هى قوله تعالى : « فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يأيها الناس: انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون (٣) » .

ولا شك أن الجملة التى اختارها من الآية الكريمة فيها ايجاز القصر الذى يعد

---

(١) فاطر : ٤٣ (٢) البقرة : ١٧٨ — ١٧٩

(٣) يونس : ٢٣

من أعلى جوامع الكلم ، ولكن يقطعها عما قبلها وما بعدها وما جاءت فيه من أن الظالمين يدعون الله تعالى ضارعين فى جـال فزعهم وخوفهم حتى اذا أمنوا بغوا وطغوا ، وفى قطع الكلمات عن أخواتها ، قطع للمعنى عما يكنها ويظلها .

وقوله تعالى : « ولا يحيق المكر السىء الا بأهله (١) » هى فى عمومها وشمولها فيها انجاز قصر ، ويمكن أن تكون مثلا عاليا يستشهد به فى القول ، ويصدق على كل خب لئيم ، ولكنه قطع الكلام عما قبله وما بعده ، فالآية الكريمة بهذا النص السامى « استكباراً فى الأرض ومكر السيىء ، ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » وكنا نود أن يأتى بالمثل الطيب فى بيئته من كلمات سابقة له ولاحقة .

وقوله تعالى : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا » هو كلام محكم بالغ أعلى ما تصل اليه بلاغـة القول ، وهى آية مستقلة ، ولكنها متممة لما قبلها . فهى متممة بالعطف على قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ، وكف أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما وأخرى لم تقدروا عليها (٢) » .

وقوله تعالى : « ان يتبعون الا الظن وماتهوى الأنفس » (٣) هى حكمة عالية فى ذاتها ، ولكنها مسبوقة ولها لاحق بها يحدها ، فهى جزء من قوله تعالى : « ان هى الا أسماء سميتموها ، أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » وان أخراجها عما قبلها وما بعدها يكون اخراجاً لها عما يحد أطرافها .

وقوله تعالى « يحسبون كل صيحة عليهم العدو » وصف كامل لكل جمـاعة يغلب عليها الخور والجبن ، ولكنها وصف للمنافقين ، واخراجها عما جاءت فيـه يعمم معناها ، وهى مخصوصة فى السياق .

---

(١) فاطر : ٤٣ (٢) الفتح : ٢٠ — ٢١
(٣) النجم : ٢٣

١٣١ — وتنتهى من هذه النظرات الى الكلمات السامية ، نجد فى ألفاظها ذات عموم ، ولكن لها فى حيزها خصوص الا قوله تعالى : «ولكم فى القصاص حياة» فهى فى حيزها ، ذات عموم ، لأن كونها حكمة لأحكام مقررة يجعل لها عموماً ، ولا يقيدها حيزة ، لأنها منطلقة ، وكذلك مثل قوله تعالى « لا يكلف الله نفساً الا وسعها» وقوله تعالى لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها» أما الآيات الكريمات الأخرى، فانها اذا ذكرت منفردة عن أخواتها كانت مثلا من جوامع الكلمة وكان لها العموم ، واذا أخذت مع أخواتها قيدت •

وعلى أى حال ، فان ايجاز الحذف فيها ثابت ، ولا مانع من استعمالها كأعلى مثل سائر ، والله أعلم •

وان الايجاز بغير حذف كلمات كثيرة فى القرآن لا تكاد تخلو منه سورة ، بل جزء من السورة ، بل صفحة من صفحاته النورانية ، وقد قلبنا بعض صفحات فى القرآن فوجدنا العبارات الآتية ، وكلها فيها ايجاز قصر ، ومن ذلك :

١ — قوله تعالى : «كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا ، وهو شر لكم »(١) فان هذا النص له معان كثيرة شاملة يطبق فى كل أمر يحبه الانسان ، وعاقبته وبيئة أو لا يدرى عاقبته ، ولا مايترتب عليه ، ومثل ذلك قوله تعالى : « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً(٢) » •

ومنه قوله تعالى : « ولولا دفع النـاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»(٣) فان هذا النص الكريم يشير الى المعركة الدائمة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والفضيلة والرذيلة ، وأن سيطرة الرذيلة والشر والباطل فساد فى الأرض ومقاومة الخير للشر دفع للفساد ، وفيه اشارة الى أن مقاومة الشر بسلاحه من غير انحدار الى الرذيلة ، رحمة بالناس ، فدفع الشر رحمة ، ورد الاعتداء ، وفى هـذه الآية اشارة الى نظرية الحرب الفاصلة ، والسلم الفاضلة •

---

(١) البقرة : ٢١٦ (٢) النساء : ٩
(٣) البقرة : ٢٥١

٣ — وقوله تعالى : « وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون(١) » فان هذه الآية تبين وحدة الأمة الاسلامية مع غيرها بأوجز عبارة ، فتشمل الوحدة الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، والاصفر ، والبادى والحضرى ، وسكان الوبر ، وسكان المدن ، لاتفرقهم الألوان ، ولا الالسنة ، وان التقوى يجب أن تكون لباسهم وشعارهم ، وهى التى تعلى ، ومثل ذلك قوله تعالى فى ايجاز « انما المؤمنون اخوة » •

٤ — ومنها قوله تعالى : « وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء »(٢) فهى فى ايجازها اعتذار عما كان من امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ، وانها لأحداث كثيرة ، فوق ما فيه من دلالة على معان نفسية تكون فى الوجدان الذى تحكمه شهوات ، الضمير اللائم ، المحاسب الذى يصوره قول الله تعالى « النفس اللوامة » •

٥ — ومنها قوله تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » فان هذا النص السامى بكلماته القليلة الموجزة ، فيه تصوير لحال المشركين الذين ألزمتهم الحجة، ولكن لم يذعنوا عصبية وعناداً ، ومحافظة على سيطرتهم الغاشمة •

٦ — ومن ذلك قوله تعالى : « أنا كفيناك المستهزئين» (٣) وفى هذا النص ايجاز فيه ألفاظ قليلة ومعان كثيرة بمقدار جرائم المشركين فى الاستهزاء بالنبى وأصحابه ، ومضايقتهم فى العبادة ، ومنها الطواف بالبيت فقد كانوا كلما لقوهم سخروا منهم، فمعنى كفيناك المستهزئين عاقبناهم على مافعلوا فى الماضى، وخضدنا شوكتهم فى الحاضر ، وشغلناهم فى القابل ، وسلط الله الحق على باطلهم الى آخر مانالهم فى الدنيا من خزى وما نالهم فى الآخرة من عذاب •

٧ — ومنها قوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً(٤)» فان هذا النص قليل الألفاظ فيه معان كثيرة لأنه سبحانه يشير الى أن هلاك الأمم انما يكون اذا شاع الفساد بين آحادها وانما

---

(١) المؤمنون : ٥٢
(٢) يوسف : ٥٣
(٣) الحجر : ٩٥
(٤) الاسراء : ١٦

يشيع الفساد ممن غلبت أهواؤهم وسيطرت عليهم شهولتهم ، وان ذلك من الذين نشئوا مترفين لا يرون حق الحياة خالصاً الا لهم، فيعم الفساد فى الأرض، وتتقطع الأمة وتتنابز ، وكل ذلك من سيطرة المترفين •

ومن ذلك قوله تعالى : « كل امرىء بما كسب رهين » أى أنه (١) مجزى بعمله ان خيراً فخير، وان شراً فشر، ومثله قوله تعالى : «وأن ليس للانسان الا ماسعى، وأن سعيه سوف يرى » (٢) ومثل قوله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى »(٣) •

١٣٢ — وان العرب كانوا يميلون الى الايجاز فى القول ، ويعدون الايجاز بلاغة ، وذلك لأنهم لم يكونوا أهل قراءة وكتابة ، بل كانوا أهل بيان باللسان ، وقد صقلت بذلك كلماتهم وهذبت عباراتهم ، وقد قال الجاحظ ان الايجاز فى القرآن كان عند محاجة العرب الاميين الذين يفهمون القول بالكلمات المشيرة غير المفصلة، والتفصيل من شأن من يعتمد على الكتاب دون اللسان •

ولقد كانوا يتبارون فى الكلام الذى تدل ألفاظه على معان كثيرة ، وكانوا يعدون من أبلغ كلامهم قول بعض العرب « القتل أنفى للقتل » أى من يريد القتل اذا علم أنه سيقتل ، فانه لا يقتل ، ولا شك أن ذلك حق وقد اتجه كثيرون من الأدباء والمفسرين الى الموازنة بين ما يعدونه أبلغ قولهم ،وقوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة » والموضوع أيهما أبلغ وأجمل أداء ، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى •

وقد عقد الرمانى فى رسالته موازنة بين الجملتين ، وان كانت الموازنة ليست بين متماثلين ، بل ليست بين متقاربين وان كان الموضوع متقارباً فقال :

وقد استحسن الناس من الايجاز قولهم : « القتل أنفى للقتل » وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والايجاز وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة ، أما الكثرة فى الفائدة ففيه كل مافى قولهم : « القتل أنفى للقتل، وزيادة معان حسنة منها ابانة العدل ، لذكره القصاص ، ومنها ابانة القرب المرغوب

---

(١) السطور : ٢١ (٢) النجم : ٣٩ — ٤٠

(٣) الانعام : ١٦٤

فيه ، لذكره الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله تعالى ، وأما الايجاز فى العبارة فان الذى هو نظير القتل أنفى للقتل « للقصاص حياة » والأول أربعة عشر حرفا والثانى عشرة أحرف وانما بعده عن الكلفة بالتكرار الذى فيه مشقة على النفس ، فان فى قولهم القتل أنفى للقتل تكرارا ، غيره أبلغ منه ومتى كان التكرار فهو مقصر ، فى باب البلاغة عن أعلى طبقه ، واما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود فى اللفظ ، فان الخروج من الفاء الى اللام أعدل من الخروج من اللام الى الهمزة، وكذلك الخروج من الصاد الى الحاء أعدل من الخروج اللام الى الهمزة ، فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صار أبلغ وأحسن وان كان الأول بليغاً حسناً » •

وهناك وجه لم يذكره الرمانى ، وهو أن كلمة العرب مقصورة على القتل أما كلمة الله تعالى ، فانها تشتمل القتل والاعتداء على الأطراف ، فتشمل النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، بل تشمل الجروح ، فمعناها أشمل • وأمر آخر لم يذكره الرمانى ، وهو أن كلمة القرآن ايجابية وسلبية معاً ، فهى ايجابية فى أنها تبين أن ثمة حياة رافهة هادية أمينة بالقصاص ، وفيها معنى النفي ، وهو ألا يكون اعتداء بأى نوع ، أما كلمة العرب فلا تتجاوز المنع ، وهو أن القتل يمنع القتل •

وأيضا فان كلمة القصاص فيها معنى المساواة بين الجناية وعقوبتها ، والقتل أنفى للقتل لا تستدعى بظاهر لفظها أن يكون القتل بالمساواة ، بل لا تمنع أن يكون القتل اعتداء ، والنص القرآنى السامى الذى لا يسامى فوق كل ما يدخل من معان على كلمة العرب القتل أنفى للقتل •

هذا مابدا لنا من زيادة كلمة القرآن من معان على كلمة العرب ، ولنعد من بعد الى ما قاله الرمانى فى هذا المقام فهو يقول :

وظهور اعجازه فى الأمور التى نبينها يكون باجتماع أمور يظهر بها للنفس أن الكلام من البلاغة فى أعلى طبقة ، لا يجازه وحسن رونقه ، وعذوبة لفظه ، وصحة معناه ، كقول على رضى الله عنه : قيمة كل امرىء فيما يحسنه فهذا كلام

عجيب ، يغنى ظهور حسنه عن وصفه ، فبمثل هذه الشذرات لا يظهر بها حكم ، فاذا انتظم الكلام ، حتى يكون كأقصر سورة أو أطول آية ظهر حكم الاعجاز ، كما وقع التحدى فى قوله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » فبان الاعجاز عند ظهور مقدار السورة •

ومؤدى هذا الكلام أن الاعجاز القرآنى ربما لا يبدو فى الكلمة أو الجملة مقطوعة عن سابقها ولاحقها ، ولو كانت الجملة ايجازاً انما يبدو فى السورة أو الطائفة من القرآن ، ونحن نخالف الرمانى فى ذلك ، فان كلمات القرآن مع أخواتها لها اشعاع من المعانى يثير الخيال والتأمل فى معانيها مادامت الجملة مستقلة فى دلالتها ، تأتى بمعان مفيدة ، مثل قوله تعالى « والصبح اذا تنفس » (١) « والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها » (٢) فكل جملة من هذه الجمل لا يستطيع أحد أن يأتى بمثلها •

ولقد ختم الرمانى كلامه فى الايجاز بذكر فضله وخواصه ، فقال رضى الله تعالى عنه :

واذا عرفت الايجاز ومراتبه ، وتأملت ما جاء فى القرآن منه عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان ، والايجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان ، والايجاز تصفية الألفاظ من الكدر ، وتخليصها من الدرن ، والايجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، والايجاز اظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير والايجاز والاكثار انما هما فى المعنى الواحد ، وذلك ظاهر فى جملة العدد وتفصيله كقول القائل لى عنده خمسة وثلاثة ، واثنان فى موضع عشرة ، وقد يطول الكلام فى البيان عن المعانى المختلفة ، وهو مع ذلك فى نهاية الايجاز • واذا كان الاطناب فى منزلة الأمر بحسن أكثر منها ، فالاطناب حينئذ ايجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه فاطناب فيه ايجاز» •

وان الرمانى يتجه بهذا الى معان ثلاثة :

أولها أنه يصف الايجاز بأن فيه تصفية للألفاظ من الكدرة ودرن القول وحشوه،

---

(١) التكوير : ١٨ (٢) الشمس : ١ — ٣

وأنه البيان عن المعنى بأقل ألفاظ ، وأن المعنى الكثير يكون فى أقل مقدار من اللفظ ، وأن المتكلم أو الكاتب يجهد فكره عند الاتجاه الى الايجاز ليأتى بأوجز لفظ يحمل أكبر معنى ، وقد قال امام من أئمة عصرنا فى البيان فى كتاب أرسله الى صديق له وأطنب فيه « اعذرنى فى هذا الاطناب فانه ليس عندى وقت للايجاز ، لأنه بالنسبة للبشر ليس سهلا ، لأن الاطناب ارسال الحقائق ارسالا ، أما الايجاز ، فانه جمع الحقائق فى أقل الألفاظ وأجملها ، وأبعدها عن الكدر والدرن •

ثانيها — أن الاطناب نسبى ، فانه اذا كان المعنى كثيراً واللفظ كثيراً ، فانه يكون اطناباً ، واذا كان المعنى الكثير يمكن أن تكون ألفاظه أكثر فان ذلك يكون ايجازاً مسبباً •

ثالثها — أن كل ألفاظ ذات معان كثيرة ، وقد وضعت على قدرها ، فان كان الواضح قلة الألفاظ مع كثرة المعنى كان الايجاز ، وان كان الواضح الكثرة فى اللفظ والمعنى من غير تزيد ، بل لمقصد ، فهو اطناب •

والقرآن فى حالى الايجاز والاطناب محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد •

طوال السور وقصاره

١٣٣ — ونحن نتكلم فى الايجاز والاطناب لابد أن نمس موضوع السور الطوال والسور القصار . لقد علمت مما قدمناه جمع القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم واعادة جمع ما كان فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مصحف جامع وما أعاد به عثمان جمع ما جمع أبو بكر وعمر ، ونشر نسخ مما جمع فى الاقاليم للمسلمين .

وقد قررنا فى ذلك أن الاجماع على أن السور رتبت بوحى الهى ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينتقل الى الرفيق الاعلى الا بعد أن قرأه على جبريل عليه السلام بذلك الترتيب وذلك موضع اجماع ، بل موضع تواتر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وان ترتيب السور فى المصحف العثمانى كانت بهذا الترتيب الذى نقروءه .

وان هذا الترتيب فى آيات السورة الواحدة لم يكن على حسب النزول بل كان كما ذكرنا بالوحى فكانت الآية اذا نزلت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال عليه السلام لكتابه وصحابته : فى موضع كذا من سورة كذا ، وكذلك لم يكن ترتيب السور فيما بينها تابعا لنزول الوحى ، بل كان بوحى توجيهى لوضع السور فى أماكنها فاذا كانت السور الطوال فى هذه المواضع من القرآن والسور القصار فى هذا الموضع من الطرف الاخير فيه بتوجيه من الله سبحانه وتعالى .

وكان من المستحسن أن نتكلم فى هذا لا فى مقدار البلاغة فيها ، فالجميع سواء ولكن من حيث الحكمة أن أمكن أن يؤدى تطاولنا الى معنى ندركه ، فكتاب الله فوق طاقتنا فى ادراك مراميه كلها ، لأنها ارادة الله وهى لاتقبل التعليل ، لأنه لايسأل عما يفعل ، وعباده هم الذين يسألون .

ولكن مع ذلك نحاول أن نتعرف حكمة الله تعالى أو ما نراه من أوصاف للسور الطوال وأخواتها القصار .

أننا نجد فى قصار السور وصفين :

أحدهما — أن نظم السور القصار كله يكاد يكون على نسق واحد مؤتلف النغم متآخى الالفاظ متلائم فى نظمه ، اقرأ قوله تعالى: «والشمس وضحاها ، والقمر اذا

تلاها ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والارض وما طحاها ، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ، كذبت ثمود بطغواها اذ انبعث أشـقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها»

وانك لترى النغم متحدا ، والفواصل متحدة ، والتلاؤم بين الفاظها منهاجه واحد وكأنها لقصرها لاتتغير فيها الانغام ولا مقاطع الكلام .

الثانى — من الاوصاف الواضحة فى السور القصار ايجاز القصر ، فتجد القصة من قصص القرآن تذكر فى كلمات جامعة ويبعد فيها الاسلوب عن الاطناب فى القصة لحالها فى مواضع من القرآن الكريم ، وكلها معجز ببيانه وبلاغته .

اقرأ قوله تعالى : «والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سـوط عذاب ، ان ربك لبا لمرصاد ، فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمن، وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » .

وترى من هذا كيف كان الايجاز المعجز ، لقد أشار سبحانه وتعالى الى قصة عادو ثمود وفرعون ، وقد وصف طغيانهم كما وصف قوتهم فى صنائعهم، وصلابة أرضهم ، وكل ذلك فى ايجاز .

والسورة القصيرة كلها فى موضوع واحد ، كما ترى فى قوله : « انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر أن شانئك هو الأبتر » وكما ترى فى سورة الفيل فى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليـل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل» وكسورة قريش :«لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

واننا نرى أن الجزء الأخير فى ترتيب القرآن الكريم الذى اختص باشتماله على قصار السور ، والذى يسهل حفظه على الناشئين الذين لا يريدون جمع القرآن كله فى صدورهم ، قد اشتمل على بيان العقيدة الاسلامية ، وعلى معاندة قريش ، وعلى جهود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وما لاقاه من عنت فى قومه، وعلى المبادىء الخلقية الاسلامية وما على أن كل مسلم يتحمل التبعية ، وعلى أصول المبادىء الاجتماعية ، وفيه اجمال كامل لقصص القرآن الكريم •

هذا شأن قصار السور وهى جزء من ثلاثين من القرآن الكريم • أما الطوال والمتوسط والأقرب الى الطول والأقرب الى القصر فهو يشمل نحو تسعة وعشرين جزءاً من ثلاثين جزءاً من القرآن •

وان السور المدنية أكثرها ليس من القصار ، وهو يشتمل على الأحكام التفصيلية للتكليفات الشرعية ، فسورة البقرة والنساء والمائدة فيها كثير من الأحكام الفقهية سواء أكانت فى الأسرة أم فى المعاملات المالية ، أم فى الزواجر الاجتماعية ، أم فى العلاقات الدولية ، وأحكام الجهاد ، وفيها كل ما يتصل بالسلوك الانسانى الذى فرضه القرآن الكريم وبعض التكليفات المتعلقة بالأسرة أو المعاملات المالية جاء فى السور التى بين القصر والطول كسورة الممتحنة وكسورة الطلاق •

وان السور الطويلة أو القريبة منها مع أنها ليست مرتبة على حسب النزول بالوحى ، بل هى كما ذكرنا مرتبة بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى عن ربه ، لأن النبى عليه السلام كان يأمر بوضع الآية عند نزول الوحى فى موضعها من السورة التى أمر بوضعها فى موضعها فيها •

ومع هذا الترتيب الموحى به الذى لم يكن على حسب النزول نجد السورة كلها مترابطة الأجزاء متصلة ، يأخذ بعضها بحجز بعض فى نسق بيانى رائع ، وكل آية مرتبطة برباط معنوى وبيانى • فالآية تتبع ما قبلها ، لا فى الموضوع ولكن فى نظام يشبه تداعى المعانى ، فالآيات تثير فى النفس المؤمنة المتبعة خواطر تجىء التى تليها لاشباعها وكأنها تجىء فى وقت الحاجة اليها ، فيكون التناسق القرآنى فى الألفاظ

والأنغام والفواصل والمعانى • وكل ذلك سر من أسرار الاعجاز الذى لا يمكن أن يكون الا اذا كان القرآن كله من عند الله العزيز الحكيم القادر على كل شيء ، الذى اختار القرآن معجزة صفيه خاتم الأنبياء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

القصار وتيسير الحفظ :

١٣٤ — يأمرنا الله تعالى بأن نحفظ ما تيسر من القرآن ، لأنه سبحانه وتعالى قال « فاقرءوا ما تيسر منه » وانه سهل سبحانه وتعالى علينا أن نحفظ المتيسر حفظه من القرآن ، فكانت تلك السور القصار الموجزة فى الفاظها الغزيرة المعانى فى مؤداها وهذا المعنى ذكره المرحوم الأستاذ مصطفى كامل ارافعى رضى الله عنه فى كتابه اعجاز القرآن ، ولنترك الكلمة له فقد قال : « ان لهذه السور القصار لأمراً وان لها فى القرآن لحكمة من أعجب ما ينتهى اليه التأمل حتى لا يقع من النفس الا موقع الأدلة الالهية المعجزة ، فهى لم تنزل متتابعة فى نسق واحد على هذا الترتيب الذى تراه فى المصحف ، اذ لم يكن أول ما نزل من القرآن ولا آخره : « قل أعوذ برب الناس » ثم هى (أى القصار من السور) بجملتها وعلى احصائها لا تبلغ من القرآن أكثر من جزء واحد والقرآن كله ثلاثون جزءا ، وهو يتسع من بعدها قليلا قليلا ، حتى ينتهى الى الطول ، فقد علم الله أن كتابه سيثبت الدهر كله على هذا الترتيب المتداول ، فيسره للحفظ بأسباب كثيرة ، أظهرها فى المنفعة ، وأولها فى المنزلة ، هذه السور القصار التى تخرج من الكلمات الى الآيات القليلة ، والتى هى مع ذلك أكثر ما تجيء آياتها على فاصلة واحدة ، أو فواصل قليلة ، لا يضيق بها نفس الطفل الصغير • وهى تتماسك فى ذاكرته بهذه الفواصل التى تأتى على حرف واحد أو حرفين ، أو حروف قليلة متقاربة ، فلا يستظهر الطفل بعض هذه السور ، حتى يلتئم نظم القرآن على لسانه ، ويثبت أثره فى نفسه ، فلا يكون بعد الا أن يمر فيه مرأ ، وهو كلما تقدم وجده أسهل عليه ، ووجد له خصائص تعينه على الحفظ وعلى اثبات ما يحفظ •• فهذا معنى قوله تعالى:«وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة المؤمنين(١) » وهى لعمر الله رحمة وأى رحمة »•

ولذا أردت أن تبلغ عجباً من هذا ، فتأمل آخر سورة فى القرآن ، وأول

---

(١) الاسراء : ٨٢

ما يحفظه الأطفال (أي بعد الفاتحة) وهى سورة « قل أعوذ برب الناس » وانظر كيف جاءت فى نظمها ، وكيف تكررت الفاصلة ، وهى لفظ الناس ، وكيف لا ترى فى فواصلها ، الا هذا الحرف (السين) الذى هو أشد الحروف صفيراً ، وأطربها موقعاً من سمع الطفل الصغير، وأبعثها لنشاطه واجتماعه ، وكيف يناسب مقاطع السورة عند النطق تردد النفس فى أصغر طفل يقوى على الكلام ، حتى كأنها تجرى معه ، وكأنها فصلت على مقداره ، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته فى أحرفها ونظمها ومعانيها ، ثم انظر كيف يجىء ما فوقها على الوجه الذى أشرنا اليه وكيف تمت الحكمة على هذا الترتيب العجيب •

وهذه السور القصار ، لو لم تكن فى القرآن كلها أو بعضها ما نقصت شيئاً من خصائصه فى الاعجاز ، ولكن عسى أن يكون الأمر فى حفظه على غير ما ترى اذا هى لم تكن فيه ، فتبارك الله سبحانه « مايجادل فى آيات الله الا الذين كفروا » •

ويضاف الى هذه الحكمة فائدة أخرى ، وهى تيسير القرآن ، وأداء الصلاة على العامة ، فانهم لولا هذه السور الصغار لتركوا الصلاة جميعاً وانه لاتصح الصلاة (أى كاملة) الا بآيات مع الفاتحة ، وقد أعانت الصغار ، ويسرت عليهم ، فكانت على قلتها معجزة اجتماعية كبرى • انتهى كلام الرافعى •

١٣٥ — واذا كانت ثمة سور طوال وأخرى قصار ، فانه يجب علينا أن نلتفت الى أن هناك آيات تطول ، وآيات تقصر مع أن الايجاز والاطناب يكون فى طوال الآيات وقصيرها ، ففى أثناء الآية الطويلة تقرأ قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »(١) وهى كلمات ذات معان غزيرة، فيها حكمة شرع الله وغايته، وتكليفاته ، وأنها تتجه الى التيسير ولا تتجه الى التعسير •

وأكثر الآيات الطوال تكون فى الأحكام التكليفية التى تحتاج الى التوضيح ، ولا يكتفى فيها بالاجمال بدل التفصيل كآية المحرمات فى قوله تعالى «حرمت عليكم أمهاتكم وأخواتكم ••• الى قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم(٢) » •

ومثل ذلك آية المداينة ، وهى أطول آية فى القرآن فقد قال تعالى : « يأيها

---

(١) البقرة : ١٨٥ (٢) النساء : ٢٤

الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى ، فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئاً ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا مادعوا ، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم(١) » .

وقريب منها فى الطول آية المحرمات كما أشرنا ، ومثلهما آيات المواريث ومن الآيات الطوال المبينة للأحكام التكليفية آيات الصوم . اقرأ قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ، ولعلكم تشكرون ، واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ، أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم ، وعفا عنكم ، فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون (٢) » .

وترى أن الآيات الأخيرة فيها بيان جزء من أحكام الصوم ، ولا تعد قصيرة ، بل طويلة ، ومن الآيات الطويلة بعض آيات القصص ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة

---

(١) البقرة : ٢٨٢ (٢) البقرة : ١٨٥ — ١٨٧

بنى اسرائيل « واذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها ، وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصر فان لكم ماسألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١) » •

وانا اذ نقول ان بعض الآيات فيها طول ، وبعض الآيات الكريمات فيها قصر، ليس معناه أن ما فيه طول هو من قبيل التطويل فى الكلام بل هو من قبيل الاطناب الذى لا تجد فيه كلمة زائدة ، ولا تجد فيه عبارة ليس ثمة حاجة اليها ، بل ان الآية التى يكون فيها تطويل قد تجىء فى جملة ما هو من قبيل ايجاز القصر مثل قوله فى أثناء آية الصوم الطويلة « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » ، كما ذكرنا آنفاً •

وليس المراد بالطويل أن تكون الألفاظ أكثر من المعانى ، بل المراد ما لايتجاوز حد الاطناب البليغ المستحسن • فالمعانى مع الألفاظ متكافئة وربما كان فيها ايجاز لا اطناب فيها فضلا عن التطويل ، والطول للآية ألفاظ كثيرة ومعان كثيرة ، ربما تكون أكثر من الألفاظ •

وان الطول لا يبعد عن حلاوة النغم ، وجمال النسق ، وحسن النظم ، وحلاوته وطلاوته ، ومن الآيات ما يكون قصيراً كما ذكرنا والفواصل متآخية ، والمعانى متكاملة • اقرأ قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى، قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى• فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسنا ، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى (٢) » •

---

(١) البقرة : ٦١ (٢) طه : ٨٣ ـ ٨٧

وترى أن هذه الآيات بعضها قصار ، والأخير كان منها طويلا نسبياً ، لأن فيها عتاباً ، وطبيعة العتاب لا يكون قصيراً ، ولا يكون بالاشارة .

واقرأ قوله تعالى فى هذه السورة « يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعا صفصفاً ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً ، يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ، ورضى له قولا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ، وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلما (١) » .

واننا نجد فى الظاهرة القرآنية العالية أن الآيات القصار تختص عن غيرها بأن لها خاصة وهو الاعتبار والوقوف عند فواصلها المتقاربة غير المتباعدة ، فتكون وقفة يقتضى السكون عندها ، فالجواب عن حال الجبال وهى أوتاد الأرض وبها تتماسك بأمر الله تعالى ، بأن الله تعالى ينسفها نسفاً ، وفى هذه الوقفة الصامتة يتدبر أمر الله فى نسف الجبال ، ويتخيل ذلك ، فيدرك قدرة الله تعالى على الاعـادة ، ويتدبر الأرض وقد نسفت جبالها ليس بها علو بتضاريس ، ولا انخفاض بجوار علو ، وهكذا تتبع الآيات القصير والوقوف عند آخر كل آية ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدعوك الى أن تقف لتتدبر وتتفكر ، وتعرف مآلك ، وأنه لا غرابة فى أن تعـاد الأجساد يوم البعث والنشور .

وان الآيات الطوال تكون فى موضوع يحتاج الى التدبر فى أوله وآخره ، وأخذه جميعاً ، كما رأينا فى آيات الأحكام ، وفى بعض القصص الذى يكون التـدبر فى مجموعه لا فى آحاده ، وفيه يتلاحق آخره بأوله ، كما رأينا فى النعم التى أفاض الله بها على بنى اسرائيل ، وكيف لاقوها بالكفران والعتو عتواً كبيراً .

وقد رأينا فى الآيات القصار أن كل آية تصلح وحدها لأن تكون موضع تدبر، بل يلزم فيها التدبر وان كانت متصلة بما بعدها وثيقة الاتصال .

ولننقل عليك بعض الآيات القصار من ذلك قوله تعالى فى سورة ص « كذبت

---

(١) طه : ١٠٥ — ١١١

قبلهم قوم نوح ، وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم صالح ، وأصحاب الأيكة ، أولئك الأحزاب ، ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب . وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق ، وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب ، انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ، والطير محشوره كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ، وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب ، اذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ، ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ، ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة، ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » (١) .

وهنا نجد الآيات كلها تتلاقى معنى العبرة ، وتثبيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأخبار النبيين ، وما كان من أقوامهم معهم ، وذكرت بعض قصة داود عليه السلام ، وما يتعلق بحكمه ، ومتاعبه من الخصوم ، ثم حكمه وخطأه فيه .

هذا كله معنى متلاحق الأجزاء بعضه يتمم بعضه ، ويتكون من الجميع صورة بيانية تستولى على لب الناظر اليها ، والمتفهم لمعناها ولكن فى الآيات انقصار أجزاء كاملة فى ذاتها ، وان تكون من مجموعها كل كامل غير منقطع فاقرأ من قصة داود عليه السلام أول ما أورد تجد قوله تعالى :«واذكر عبدنا داوود ذا الأيد انه أواب» فهذه صورة كاملة لنبى من أنبياء الله تعالى ، آتاه الله تعالى السلطان القوى المؤيد الثابت القائم على الحق ، وتلك وحدها صورة بيانية تستدعى التدبر فيها وجاء بها القرآن الكريم مفصولة فى الفاصلة عما وراءها لأنها وحدها يجب تدبرها ، لاجتماع الدنيا والدين فى رسول رب العالمين فلا يحسبن أحد أن الزهد فى الفقر والحاجة ، انما الزهد فى العفة حيث تكون القدرة ، ثم جاءت الآية التى تليها مبينة مقدار قوته

---

(١) ص : ١٢ — ٢٥.

فقال : « انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والأشراق » فهى له خاصة ، ثم الطير محشورة وهكذا كانت الفواصل معلنة أن ما قبلها يدعو الى تدبره والتفكير فيه •

وقد تكون فى الآية القصار، آية بين كل آية وأخرى تدعو الى التفكير بصراحة، كما دعت فواصل الآيات الى التدبر ميزات الفاصلة ، اقرأ قوله تعالى فى سورة الرحمن :

« الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان • علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام • فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما بروخ لايبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » (١) •

هذه نصوص قرآنية من الآيات القصار تجد كل آية منها تدعو الى التدبر والتفكر فيما تدعو اليه وما تدل عليه ، وقد كانت الفاصلة منبهة الى التروى فى معناه ، والتدبر فى مغزاه ، وهى متضامة مع سابقتها ولاحقتها لتأتى بمعنى كلى جامع ، وصورة بيانية رائعة •

وهكذا تكون آيات القرآن ، وألفاظه وجمله ، وكله اعجاز فى اعجاز تدل على أنه اللطيف الخبير العزيز الحكيم السميع البصير •

---

(١) الرحمن : ١ ــ ٢١

الإعجاز بذكر الغيب

١٣٦ — هذا باب من أبواب الاعجاز ، فيه جزء من القصص ، والجزء الثانى من الأخبار التى يتحدث القرآن فيه عن المستقبل ، فالغيب المذكور فى القرآن نوعان أحدهما غيب مضى ، وهو جزء القصص ، والثانى عن أمور تقع فى المستقبل وكلاهما اعجاز ، أو من دلائل الاعجاز مع البلاغة والبيان ، ومع العلوم القرآنية ، والأحكام التى اشتمل عليها القرآن الكريم .

ووجه الاعجاز فى الماضى وقصصه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب ، حتى يعلم بالتلقين علمهم، وكان قومه أميين لا يسود فيهم علم من أى طريق كان الا أن يكون علم الفطرة والبيان ، وارهاف أحاسيسهم بالشعر والكلام البليغ ، وتذوق الكلمات ، والمعانى.

لم يكن عندهم مدرسة يتعلمون فيها ، ولا علماء يتلقون عليهم ، وكانوا منزوين بشركهم عن أهل الكتاب ، والمعرفة فى أى باب من أبوابها ، وكانت رحلتا الصيف والشتاء الى الشام واليمن تجاريتين ، لا تتصلان بالعلم فى أى باب من أبوابه ، ولا منزع من منازعه .

وجاء القرآن الكريم فى ذلك الوسط الأمى يذكر لهم أخبار الأنبياء السابقين ، وأحوال أممهم معهم ، وما حل بالذين كفروا وضلوا ، وهم يرون هذه الآثار فى الأمم التى تصاقبهم .

جاء القرآن الكريم بتفصيله الصادق المحكم عن أخبار هؤلاء النبيين ، وقد وافق كثير منهم الصادق عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وما اختلفوا فيه عما جاء فى القرآن ، فان الفحص الدقيق يثبت بطلان تحريفهم ، وصدق القرآن الكريم ، فيما حكاه الله ، فانه علام الغيوب الذى أحاط بكل شىء علما .

ولقد ذكر القرآن ذلك الوجه من الاعجاز فقد قال تعالى بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله تعالى زكريا لها : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت

لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون(١) فان هذا النص يشير الى الدلالة على أن القرآن من عند الله ، وعلى أن ذلك النوع من العلم ما كان عند العرب ، وليس لهم به دراية •

وانه لم تذكر قصة مريم البتول فى التوراة ، ولا الانجيل ولا رسائل الرسل قط ، والقرآن الكريم وحده هو الذى بين اصطفاءها ، وفضلها على نساء العالمين•

ويقول الله تعالى بعد قصة نوح عليه السلام « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ان العاقبة للمتقين »(٢) •

وفى هذه الآية والتى قبلها اشارة واضحة الى أن هذا النوع من العلم ما كان معروفا عندهم وما كانوا يتذاكرون به •

وقد قال تعالى فى ذلك أيضا : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون»(٣)» فذكر القرآن أدق الأخبار، وما لا يعلمه أحد الا الله تعالى •

وكان ذلك القصص الحكيم اخباراً بالغيب ، الذى لا يعلمه الا علام الغيوب دليلا على أنه من عند الله العزيز الحكيم • وموافقته للصحيح من أخبار النبيين دليل على أن القرآن من عند الله، وأنه ليس حديثاً مفترى وليس أساطير الأولين اكتتبها ولا يمكن أن تملى عليه • ولا يوجد من يمليها عليه واذا كانوا قد ادعوا أنه تلقاها من بعض الناس فى مكة ، فهو لم يثبت اتصاله به ، ولسانه أعجمى ، وهذا كتاب عربى مبين ، وفوق ذلك ففى القرآن من صادق الأخبار مالم يكن فى كتب أهل الكتاب المسطورة ، ولا يأتيه الباطل فيما يقول •

١٣٧ ـ هذا الاخبار عن الماضى التى يشتمل عليه القرآن الكريم ، وهى فيما احتوت دليل قاطع على أن القرآن من عند الله ، اذ جاء بها أمى لا يقرأ ، ولا يكتب كما قال تعالى : « وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون (٤) » •

(١) آل عمران : ٤٤
(٢) هود : ٤٩
(٣) يوسف : ١٠٢
(٤) العنكبوت : ٤٨

وأما الاخبار عن أمور وقت فى المستقبل كما أخبر القرآن الكريم ، وما كان لأحد أن يعلمها الا من قبل العليم الحكيم اللطيف الخبير ، الذى لا يغيب عن علمه شىء فى السماء ولا فى الأرض فهو كثير .

ومن ذلك اخبار القرآن عن هزيمة الفرس بعد غلبهم ، فقد قال سبحانه : « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين (١) » .

وقد حدث ما أخبر به القرآن ، فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس فى بضع سنين ، وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ممن حضر هذه الحرب ، وعرف سبب الغلب، وما يتوقع من بعده ، وقد تفاءل المشركون من هزيمة الروم ، وهم كتاب ، وعلوا الفرس ، وهم أهل شرك ، وحسبوا من ذلك أن دعوة محمد مآلها الخسران وشأنهم فى ذلك هو شأن الذين يبنون علمهم على الأوهام ، وتخيل ما يحبون .

ومن ذلك أيضاً ما كان قبيل غزوة بدر الكبرى اذ يقول سبحانه : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم ، وتؤدون أن غير ذات الشوكة تكون لكم» (٢) لقد خرجت قريش بعيرها الذى كانت فيه ثروة قريش كلها ، وأراد المؤمنون أن يترصدوها مضايقة للكفار ، وأن يأخذوها نظير ماأخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم ، ولكن أبا سفيان التوى عن طريق يثرب ، ونجا بالعير ، وكان طلب الى قريش أن ترسل جيشاً يحمى عيرها ، ويغزو موطن الخطر ، فكانت المعركة ، فهم أرادوا ابتداء العير ، وليست ذات الشوكة ، وأراد الله تعالى الجيش ، وكان ذات الشوكة .

وما كانوا يتوقعون النصر على المشركين ، ولكنها حرب الفداء للعقيدة ، لا ينظر فيها الى الاستيلاء، بل ينظر فيها الى الاستشهاد ، ولكن الله تعالى أخبرهم بالنتيجة قبل وقوعها ، فقال تعالت قدرته : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » (٣) فكان هذا اخباراً بمغيب لم يكن الا فى علم الله تعالى .

---

(١) الروم : ١ — ٤ (٢) الانفال : ٧
(٣) القمر : ٤٥

ومن ذلك اخباره عن اليهود بقوله تعالى « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » (١) •

ويقول تعالى عن المشركين انهم عاجزون عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »(٢) وقوله تعالى : « فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحارة » (٣) •

وهكذا تجد فى القرآن اخبارا عن أمور قابلة ، وتقع كما أخبر ، وصدق فى ذلك كله ، وذلك لا يكون الا من عند الله ، ولا يمكن أن يكون بالتقدير الشخصى أو الحدسى ، فان ذلك يصدق أحياناً ، ويكذب أحيانا ، والأمر هنا كله صدق لاتخلف فيه وكان دليلا على أنه من عند الله العليم الخبير اللطيف البصير ، أودعه كتابه الكريم •

جدل القران واستدلاله

١٣٨ — القرآن كل ما فيه معجز ، فايجازه معجز ، واطنابه معجز ، وألفاظه معجزة ، وأساليبه معجزة ، ونغماته ونظمه وفواصله ، كل هذا معجز ، واستدلاله وجدله وبيانه لا يصل الى درجته نوع من الكلام، وقد ساق الامام الباقلانى طائفة من خطب العرب ، وأهل اللسن ، وأهل الايمان طائفة من أبلغها وأقواها ، ووازن بينها وبين الزام القرآن واقناعه واستدلاله ، فوجد أن الموازنة غير لائقة بذات القرآن ، والفرق بين القرآن، وكلام أعلى أئمة البيان يجعل الموازنة غير مستقيمة ، والفرق بينهما وبين القرآن هو كالفرق بين الخالق والمخلوق ، لأنه فرق بين كلام الخالق ، وكلام المخلوق •

ولعله من الخير أن ننقل تلك الخطبة التى اعتبرها الباقلانى من أعلى ما عرف من بليغ القول ، وهى رثاء على بن أبى طالب كرم الله وجهه لخليفة رسول الله أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه •

---

(١) البقرة : ٩٦ (٢) الاسراء : ٨٨ (٣) البقرة : ٢٤

لمـــا قبض أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء على باكياً متوجعا ، وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة •

رحمك الله أبا بكر ، كنت الف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنسه ، وثقته ، وموضع سره ، كنت أول القوم اسلاماً وأخلصهم ايمانا وأشدهم يقينا ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء فى دين الله ، وأحوطهم على رسول الله ، وأثبتهم على الاسلام ، وأيمنهم على أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سننا وهديا ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنـــده •

فجزاك الله عن الاسلام ورسوله خيراً كنت عنده بمنزلة السمع والبصر صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، فسماك فى تنزيله صديقاً ، فقال والذى جاء بالصدق، واسيته حين بخلوا ، وقمت معه عند المكاره حين قعـــدوا ، وصحبته فى الشدائد أكرم الصحبة ، ثانى اثنين ، وصاحبه فى الغار ، والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه فى الهجرة ، وخليفته فى دين الله وفى أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت حين تعتعوا (١) مضيت بنور اذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت أصوبهم منطقاً ، وأطولهم صمتا ، وأكثرهم رأيا ، وأشجعهم نفسا، وأعرفهم بالأمور ، وأشرفهم عملا كنت للدين يعسوباً(٢) • أو لاحين نفر عنـــه الناس ، وأخيراً حين قفلوا(٣) وكنت للمؤمنين أباً رحيما ، اذ صاروا عليك عيالا ، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه ، ورعيت ما أهملوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شمرت اذ خنعوا ، وعلوت اذ هلعوا ، وصبرت اذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك مالم يحسبوا •

وكنت كما قال رسول الله أمن الناس عليه فى صحبتك ، وذات يدك ، وكنت كما

---

(١) التعتعة : فى الكلام التردد من حصر أوعى

(٢) اليعسوب : الرئيس المقدم

(٣) رجعوا

قال ضعيفا فى بدنك ، قويا فى أمر الله ، متواضعا فى نفسك عظيم عند الله ، جليلا فى أعين الناس كبيراً فى أنفسهم .

لم يكن لأحد فيك مغمز، ولا لأحد مطمع، ولا لمخلوق عندك هوادة ، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل ، حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء ، أقرب الناس اليك ، أطوعهم لله ، شأنك الحق والصدق والرفق ، وقولك حكم وحتم ، وأمرك حلم وحـزم ، رأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ، واعتدل بك الدين ، وقوى الايمان ، وظهر أمر الله ، ولو كره الكافرون ، وأتعبت من بعدك اتعابا شديداً ، وفزت بالخير فوزاً عظيما ، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك فى السماء ، وهدت مصيبتك الأنام ، فانا لله ، وانا اليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره . فو الله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمثلك أبداً ، فألحقك الله تعالى بنبيه ، ولا حرمنا أجـرك ، ولا أضلنا بعـدك .

وسكت الناس ، حتى انقضى كلامه ، ثم بكوا حتى علت أصواتهم .

١٣٤ — هذه خطبة من عيون البيان العربى ، بل لعلها أبلغ خطبة بعد خطب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ان وضعناها بجوار القرآن أفلت ، كما تختفى النجوم اذا طلعت الشمس ، وأصبحت لا تساوى بجوار القرآن شيئاً ، وان الذين يسيئون الى كل كلام بليغ مهما تكن درجته هم الذين يضعونه بجـوار القرآن ، وأنى يكون كلام بجوار كلام خالق البشر وأنى يكون كلام ابن الأرض بجوار كلام الله فى اللوح المحفوظ .

واننا مهما نحاول تعرف أسرار البلاغة فى القرآن ، فلن نصل الى كلام محكم، كمن يحاول معرفة الروح فهى من أمر الله تعالى تعرف مظاهر الحياة منها ، ولـكن لا نعرف كنهها ، فنحن نعلم علو القرآن ، واعجـازه وامتيازه ، وأنه لا يحاكى ، ولكن لا نستطيع أن نعرف سر هذه الروعة التى يحسها كل قارىء مدرك .

ولعل من التوفيق للباقلانى أن جاء بأبلغ كلام ووضعه بجوار كلامه سبحانه ،

فبدأ بجواره هزيلا ، مهما تكن درجته فى البيان وذلك أمر ظاهر ، لم يجىء الاعجاز بصرف ، ولكن بادراك المقام البلاغي للقرآن وان لم يعرف السر كاملا .

ونعود الى ذات الخطبة نجدها صادقة كل الصدق فى وصف أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنها وصلت الى أقصى الغاية فى مناقبة ، وفى مقامه من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفى مواقفه فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومواقفه اذ انتقل عليه السلام الى الرفيق الأعلى ، فقد أنقذ الاسلام عند الصدمة الأولى ، وهى حالة الردة .

والخطبة العلوية هذه فيها وصف للحاكم العادل ، كيف يكون رحيما برعيته مصدر أمن ، لا مصدر ازعاج ، متطامناً لهم قريبا من أنفسهم ، لا يطمع القوى فى حيفه ، ولا ييئس الضعيف من عدله .

وقد ذكرنا هذه الخطبة أيضاً لنشير الى الينابيع البيانية التى استقى منها القول فى اعجاز القرآن ، وهى أساس لكل كلام محكم .

ومن معرفة بلاغة القول أن نعرف المواضع التى بنى عليها الاستدلال .

ونحن هنا نريد ابتداء أن نتعرف المنهاج القرآنى للاستدلال ، والأصول التى بنى عليها استدلاله فى نظرنا القصير وان كان فى كل ما يتعلق بالبيان عز عن المثيل ولا يمكن أن يكون له مثيل .

١٣٥ — وان رجال البيان فى بيان مناهج الخطب واستدلالها يتكلمون فى الينابيع التى يستقى منها الخطيب أدلته أو براهينه ، ونحن مع اقرارنا بأن منهاج القرآن أعلى من الخطابة ، كما هو أعلى من الشعر ومن السجع ، نرى أن نستعير من علماء البلاغة كلاما فى مصادر الاستدلال ، ونريد أن نتعرف المصادر الذاتية التى بنى القرآن الكريم استدلاله عليها ، وان كان مقامه أعلى وأعظم ، وهو معجز فى ذاته ، وليس ككلام البشر ، وان بنى على حروف البشر وألفاظهم ، ومن جنس كلامهم .

ويقولون ان الاستدلال الذي يستمد من مصادر ذاتية ، أى تؤخذ من ذات

لموضوع ، وهى أشبه بالبرهان المنطقى ، وان كانت أعلى ، هى ستة مواضع أو ينابيع أولها التعريف أى معرفة الماهية وثانيها ، التجزئة بذكر أجزاء الموضوع ، وثالثها التعميم ثم التخصيص ، ورابعها العلة والمعلول ، وخامسها ، المقـابلة ، وسادسها التشبيه وضرب الأمثال .

١ ــ الاستدلال بالتعريف :

١٣٦ ــ الاستدلال بالتعريف بأن يؤخذ من ماهية موضوع القول دليل الدعوى بأن يؤخذ مثلا من حقيقة الأصنام دليلا على أنها لا تصلح أن تكون معبوداً ، ومن بيان صـفات الله تعالى دليلا على أن يكون وحده المسـتحق للعبادة ، واذا كان موضوع القول هو الذات العلية تقدست أسماء الله ، فانه يكون الاسـتدلال على ألوهيته سبحانه ، ببيان صفاته ، وخلقه للكون صغيره وكبيره ، ولا تعرف الذات العلية الا بصفاتها ، ومن ذلك قوله تعالى : « ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الاصباح ، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ، وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » (١) .

ونجد فى هذا الكلام اثباتاً لوحدانيته سبحانه وتعالى ، وأنه وحده المعبود بحق ، وأنه لا اله الا هو ، وكان طريق الاثبات هو بيان خلقه وتنوعه ، وأنه وحده الخالق لكل شىء ، واذا كان الله تعالى هو الخالق وحده فهو الاله وحده ، وكان التعريف بالله تعالى هو السبيل لاثبات الربوبية له سبحانه ، وقد عرف سـبحانه

---

(١) الانعام : ٩٥ ــ ١٠٠.

وتعالى بصفاته وأثره سبحانه فى الوجود ، لأن الله تعالى لا يعرف الا بصفاته وآثاره فى الخلق والتكوين ، لأن معرفة حقيقة ذاته سبحانه وتعالى غير ممكنة فى هذه الدنيا ، وان الذى نعرفه أنه سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة الحوادث ، فليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

ومما يدل على عظمة الخالق ، واستحقاقه للعبودية ، وقدرته على البعث والنشور التعريف بالمخلوق ، وخصوصاً الانسان ، ومن ذلك قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميتون ، ثم انكم يوم القيامة تبعثون ، ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ، وماكنا عن الخلق غافلين » (١) .

ومن هذا نرى أن التعريف بالانسان فى خلقه ابتداء دليل على بعثه انتهاء ، ألم تر أن الله سبحانه وتعالى : ذكر أنه خلقه علقه ومن العلقة مضغة ومن المضغة عظاما، ثم كساها لحماً ، ثم أماتها ، ومن الطبيعى أن يكون قادراً على الاحياء ، لأن الانشاء على غير الله أصعب من الاعادة ، ولا صعوبة على الله تعالى ، فى انشاء ، ولا اعادة.

ومن تعريف بعض المحرمات يستبين تحريمها ، والأمر القاطع بالتحريم ، ومن ذلك قوله تعالى فى تحريم الخمر : « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ، وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، واحذروا فان توليتم ، فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » (٢) .

ونرى من هذا أن التحريم الثابت بالنص ذكر أوصاف الخمر وبيان ذاتها وما يترتب عليها ، لمعرفة حكمة تحريمها ، فذكر تعريفها بالحد والرسم أما التعريف بالحد فبيان ذاتها بأنها مع أخوانها من الميسر والذبح على النصب ، هو التعريف بالحد ، وهو ذكر الذات ، بذكر جنسها وفصلها ، وأما فذكر هذا التعريف بالرسم ،

---

(١) المؤمنون : ١٢ — ١٧ (٢) المائدة : ٩٠ — ٩٢

فهو ذكر مايترتب على الشرب من وقوع العداوة والبغضاء والصد عن الصلاة وعن ذكر الله تعالى ، فهى لهو لتزجية الفراغ بما فيه الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، والانغمار فى اللهو الفاسد .

٢ ـ الاستدلال بالتجزئة :

١٣٧ ـ أن تذكر أجزاء الموضوع ، وبتتبعها يكون اثبات الدعوى ، ومن ذلك أن المقرر الثابت بالبديهة الذى لا مجال للريب فيه الحكم بأن الأثر يدل على المؤثر، وأن الكون يدل على خالقه ، وأن القوى البشرية والعقول المستقيمة تقر بأن الخالق لهذا الكون صغيره وكبيره قوة واحدة ؟، وهى قوة الله سبحانه وتعالى .

وقد كان القرآن يذكر ذلك فى آياته الحكيمة أحياناً مجزءاً وأحيانا غير مجزأ ، ومن الاستدلال بالتجربة قوله تعالى : « قل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، الله خير أما يشركون.أمن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ اله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى، وجعل بين البحرين حاجزاً أاله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء أ اله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أاله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أاله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (١) .

ونرى من هذا كيف كانت التجزئة فى مادة الاستدلال ، وان لم تكن الأجزاء كلها مستوفاة مستقراه ، وانه من منهاج الاستدلال يتبين أن كل جزء يصلح وحده دليلا على أن الله وحده هو المنشىء للكون ، والمدير له ، والقائم على كل شىء ، ولذلك قرن السياق فى كل جزء نفى أن يكون اله غير الله معه ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

ومن التجزئة أيضاً فى الاستدلال قوله تعالى : « ومن يقل منهم انى اله من

---

(١) النحل : ٥٩ ـ ٦٤

دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ، وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفان مت فهم الخالدون ، كل نفس ذائقة الموت، ونبوكم بالشر والخير فتنة ، والينا ترجعون » (١) .

ونجد هنا فى هذه الآية الكريمة تجزئة فى الاستدلال بحيث يعتبر كل جزء دليلا قائما بذاته ، ومن مجموعه دليل كلى على أن كل صغير أو كبير من خلق الله تعالى ، وأنها دليل على وجوده سبحانه وتعالى .

٣ ــ التعميم ثم التخصيص :

١٣٨ ــ التعميم أن تذكر قضية عامة ، وتؤدى الى اثبات الدعوى باجمالها ، ثم يتعرض المستدل الى جزئيات القضية ، فيبرهن على أن كل جزئى منها يؤدى الى اثبات الدعوى المطلوب اثباتها ، أو أنها فى مجموعها تؤدى الى اثبات الدعوى .

ومما سبق ذكره يتبين صدق الدعاوى العامة التى هى صـلب الدين ، وهى التوحيد ، وأنه تجب اطاعة الرسول ، وأنه لا خضوع الا لله سبحانه ، ومن ذلك قوله تعالى فى المجاوبة بين موسى وفرعون : « قال فمن ربكما ياموسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » (٢) .

ونرى من هذه القضية العامة الكاملة التى تذكر بجوار الله سبحانه وتعالى وهى التى بها يعرف الله سبحانه وتعالى الذى خلق كل شيء فأحسن خلقه وهو الهادى ،

---

(١) الأنبيـــاء : ٢٩ ــ ٣٥

(٢) طه : ٤٩ ــ ٥٥

فقال سبحانه كلمة جامعة كاشفة لمعنى الربوبية ، ومع الربوبية العبادة ، وكمال الألوهية ، فقال الله تعالى على لسان موسى «ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» فهو سبحانه وتعالى مانح كل شىء فى هذا الكون الوجود ، وهو مانح الهداية لمن اهتـــدى •

ثم أخذ القرآن الكريم بعد هذا التعميم الجامع يبين جزئيات داخلة فى هـــ وذكر من هذه الجزئيات ما ينبه فرعون وأهل مصر وهم أهل زرع وضرع وختم النص الكريم بما يناسبهم ، وهو نعمة للجميع : « كلوا وارعوا أنعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » •

٤ ـ العلة والمعلول :

١٤٩ ـ أساس الاستدلال الربط بين القضايا التى تصور أجزاء الحقائق فى هذا الوجود ، بأن يكون وجود بعض الأشياء علة لوجود شىء آخر ، وبمقدار قوة الارتباط تكون قوة الاستدلال ، وذلك بأن يكون أحدهما علة للآخر ، واذا وجدت العلة كان المعلول ثمرة لوجودها ، وهما متلازمان من الناحية العقلية ، أو على حسب مجرى الأمور ،واذا ذكر المعلول، كان كاشفاً لعلته لأن ذكر النتائج مع احدى المقدمتين الدليل يدل على المقدمة الثانية ، ولأن المقدمات تطوى فيها ، فاذا ذكر تحريم الخمر ، وحاول العقل أن يتعرف سبب التحريم يستطيع تكشفه من أوصاف الخمر ، فاذا عرف الوصف المناسب للتحريم استيقن أنه السبب ، وهو يكون وصفاً لا يشاركها فيه غيره من المباحث وفى القرآن كثير ، يكون فيه التعليل جزءاً من الدليل الذى يســوقه القرآن الكريم بتنزيل من العزيز الحــكيم ، ولننتل آية اباحة القتال ، فان فيها السبب الذى يبرره ، والدليل الذى يوجبه ، اتل قوله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشـــد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون

فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (١) .

واننا نجد فى سياق هذا النص القرآنى الكريم أن السبب الذى برر أمر الله تعالى بالقتال أمران أحدهما الاعتداء ، وثانيهما فتنة المؤمنين فى دينهم فاذا زال الأمران لا يكون ثمة مبرر للقتال ، ثم هذا الاعتداء ، وتلك الفتنة دليل الوجوب وكذلك نجد الأمر فى الاذن بالقتال اذ كان دليله والمبرر له هو الاعتداء ، ولذلك قال تعالى :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » (٢) .

ونرى فى هذه الآيات الكريمة أن العلة الموجبة هى الاعتداء واخراج المؤمنين مفتونين فى أنفسهم وأموالهم ، ثم قامت المعلولات الغائية المترتبة على السكوت ، وعدم دفع المعتدين أن يعم الفساد ويسود الشر فلولا هذا الدفاع لفسدت الأرض ، ولهدمت المعابد ، ولم تقم الشعائر ، فاتخذ من هذه النتائج المترتبة على ترك المشركين يعيثون مبررة لمقاومتهم ، وموجبة لحربهم ، فكان هذا من قبيل الاستدلال بالنتائج وهى الغايات الواقعية دليلا على الوجوب ، وان هذه الآيات الكريمات صور سامية لما سنه الاسلام من سنة تتفق مع الطبيعة الانسانية ، وهو ازالة الشر بالعقاب الشديد ومقاومته ، لأن الفضيلة فى الاسلام ليست سلبية ، ولكنها ايجابية بين سبحانه على السبيل الايجابى لرد الرذيلة ودفع شرها ومقاومتها ، فكان الاعتداء على الفضيلة سبباً موجباً للقتال ، والقتال فى سبيلها جهاد مثوب .

٥ — المقابلة :

١٤٠ — ان المقابلة بين شيئين أو أمرين ، أو شخصين تكون ليعرف أيهما المؤثر فى عمل معين ، واذا ثبت أن التأثير لواحد منهما كان له فضل التقدم على غيره ،

---

(١) البقرة : ١٩٠ — ١٩٣　　(٢) الحج : ٣٩ — ٤١

وقد كان ذلك النوع من ينابيع الاستدلال كثيراً فى القرآن الكريم ، لأن المشركين كانوا يعبدون أحجاراً يصنعونها أو مخلوقات لله تعالى خلقها ، وكانوا يعتقدون أن لها تأثيرا فى الايجاد ، أو فى الشر يمنع ، أو الخير يجلب ، فكانت المقابلة بين الذات العلية وبين ما ابتدعوا من عبادة الأوثان ينبوعاً للاستدلال على بطلان مازعموا ، ومن ذلك قوله تعالى :

«أفمن يخلق كمن لايخلق ، أفلا تذكرون ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الله لغفور رحيم » (١) .

هذا هو النص الكريم ، وفيه مقابلة بين المعبود بحق ، وهو الله سبحانه وتعالى خالق السموات ، وهم يؤمنون بأن الله وحده خالق السموات والأرض «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله»(٢) . وهم يعلمون أن الأحجار التى يعبدونها صنعت بأيديهم ولم تخلق شيئاً ، فالقرآن من هذه المقابلة يأتى بدليل يلزمهم ويفحمهم أويقنعهم ، ان استقامت القلوب ، وان الدليل بالتقابل يصح أن يكون عندما ادعيت الألوهية للخالق جلت قدرته مع المخلوق المصنوع بأيدى العباد، وبالمقابلة بينهما نجد الخالق يحتاج اليه كل مافى الوجود ، والمصنوع بأيدى العباد لا ينفع ولا يضر ، فالله وحده هو الاله الحق الذى لا يعبد سواه ، لأنه لا يحتاج لأحد ويحتاج اليه كل أحد « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد »(٣) .

ومن المقابلة التى كانت ينبوعا للاستدلال قوله تعالى : « قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » (٤) .

وان هذا الاستدلال قائم على المقابلة ، فكانت المقابلة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ومن هو القهار القادر على كل شىء وهو الواحد الأحد الذى لايشبه أحد ،

---

(١) النحل : ١٧ — ١٨
(٢) لقمان : ٢٥
(٣) الاخلاص
(٤) الرعد : ١٦٠

وكانت المقابلة بين الأعمى والبصير ، ويشمل الأعمى من لا يدرك الحقائق ، والبصير من يدركها ، وبين الظلمة التى تعتم النفس ، والنور الذى يشرق به القلب ، ومن يخلق ومن لا يخلق . وهذه المقابلات ينابيع الادراك الموجه المسترشد ، والظلام المعتم المحـــير .

وان هذه المقابلات تصلح دليلا مثبتاً فى عدة دعاوى، ويكون فى المقابلات الحكم الفصل الهادى المرشد .

ففى الدعوى الأولى ادعاء المساواة بين من يملك كل شىء ومن لا يملك لنفسه النفع والضر ، والحكم الذى ينتجه الدليل أنهما ليسا متساويين ، واذا كـــانت دعوى المساواة فى الألوهية باطلة ، فالحكم بالنفى ، والاله هو الله وحده الذى يملك كل شىء وفى الدعوى الثانية نفى التسوية بين من أدرك الحق ، واهتدى ومن ضل وغوى ، والأخير كالأعمى ، والأول كالبصير ، فأيهما يهتدى الى الطريق الســـوى، ولا شك أن الحكم أن الخير فى المبصر المهتدى ، وليس فى الضال المرتدى ، فالفضل لأهل التقوى ولو كانوا ضعفاء يستضعفهم الناس .

وفى الدعوى الثالثة ادعاء الاشتراك فى الخلق والتكوين بالزعم لا بالحقيقـــة وهذه باطلة بل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ، وبذلك يتحقق الحكم فيما هو صادق واقع ، لا فيما هو مزعوم مختلق .

ومن المقابلات القرآنية التى دلت على البعث ، وكـــان فيهـــا رد على أوهام الكافرين قوله تعالى :

« أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ، ولم يعى بخلقهن بقـــادر على أن يحيى الموتى ، بلى انه على كل شىء قدير ، ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أليس هـــذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العـــذاب بمـــا كنتم تكفرون »[1] .

ونرى هنا استدلالا على أن البعث ممكن فى ذاته ، والتصديق به واجب ، لأن

(١) الأحقاف : ٣٣ — ٣٤

الله تعالى أخبر به على لسان نبيه الكريم وفى كتابه المكنون ، اذ جاء به القرآن الكريم ، ودعا اليه محمد الأمين •

وكان الاستدلال بطريق المقابلة ، وكانت المقابلة بين انشاء الاحياء ابتداء والخلق والتكوين من غير سابق ، وان القدرة فيه كانت ، ولم يعى بخلقهن ، وبين الاعادة للأجسام التى خلقت ثم صارت رميما ، وانه اذا كانت قد وجدت ، فالثانية قد تجىء ، وهى تجىء اذ أخبر بها العزيز الحميد القادر على كل شىء •

وانه بهذه المقابلة ، بين الانشاء والاعادة ، وبين الخلق من غير أصل سابق ، والاعادة ينتهى به ذو العقل الرشيد الى الحكم بأن البعث ممكن فى ذاته ، وأنه ولجب الاعتقاد لأن الله تعالى أخبر به ، « وان تعجب فعجب قولهم أئذاكنا ترابا أئنا لفى خلق جديد » (١) •

ومن الآيات الدالة على أن الله تعالى خالق كل شىء ، واعتمدت الدلالة فيها على المقابلة قوله تعالى : « نحن خلقناكم ، فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، انا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم » (٢) •

ونجد من هذه المقابلات بين انشاء الخالق وعجز الانسان ما يدل على أنه هو الذى خلق فهدى ، وأنه العليم بما خلق ، وأنه بهذا المستحق للعبادة وحده ، وأنه ليس كمثله شىء وأنه الواحد الأحد •

٦ — الاستدلال بالتشبيه والأمثال :

١٤١ — من ينابيع الاستدلال فى القرآن التى تثبت قدرة الله تعالى ، وصدق

---

(١) الرعد : ٥

(٢) الواقعة : ٥٧ — ٧٤

مما يطلب الدين الحق ، وما أتى به القرآن التشبيه وضرب الأمثال ، وقد ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم أنه يضرب الأمثال ويبين الحقائق عن طريقه ، وضرب الأمثال باب من أبواب التشبيه ، وهى تضرب كما ذكرنا فى باب التشبيه لتقريب الحقائق العليا ، ولتشبيه الغائب غير المحسوس بما يقربه من القريب المحسوس، ولتوضيح المعانى الكلية بالمشاهد الجزئية ، وللاستدلال بحال الحاضر على الغائب.

ومن ذلك قوله تعالى الذى ذكر فيه أن المثل يكون لبيان الحقائق ، سواء أكان بالصغير أم كان بالكبير ، فقد قال تعالى :

« ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به الا الفاسقين »(١) .

وفى هذا النص يثبت الله تعالى أنه سبحانه يقرب الحقائق الثابتة بالأمثال ، ويأتى بالدليل من بيان الأشياء ، واستخراج خواصها ، والاثبات بالأدلة عن طريقها ، وإن الناس فى تلقى هذه الأدلة فريقان : فريق آتاه الله قلبا نيرا يصغى الى الحق ، ويأخذ به ، ومنهم من أصاب العناد قلبه ، فاذا قوى الدليل فانه يزيد اصراراً ، وامعانا فى الضلال ، فيوغل فيه ، وهذا معنى قوله تعالى « يضل به كثيراً، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به الا الفاسقين » .

فهذا النص يفيد أن الله تعالى فى القرآن الكريم يتخذ من الأمثال تبييناً للحقائق، وتثبيتاً ، واقامة للدليل بها .

واقرأ قوله تعالى مثلا فى بيان عجز الأصنام ومن يعبدونها العجز المطلق ، وقدرته تعالى على كل شىء ، فقد قال تعالى :

« يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، وما قدروا الله حق قدره ، أن الله لقوى عزيز » (٢) .

---

(١) البقرة : ٢٦ (٢) الحج : ٧٣ — ٧٤

انظـــر الى الدليل القـــاطع الذى يثبت بطلان الوثنية ، ويقيم الدليل على الوحدانية ، فان الأوثان ، ومن يتبعونها ، ولو تضافرت كل القوى معها • لا يمكن أن يخلقوا ذباباً ذلك الطير الضعيف أو تلك الحشرة الضئيلة التى يستحقرونها ، ولو أن الذباب سلب منهم شيئا ، ولو اجتمعوا مع أوثانهم على أن يستردوه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وهم والذباب سواء فى الضعف وان بدوا أقوياء ، وهذا أضعف خلق الله تعالى فى زعمهم ، فكيف يكون للذين يدعونهم آلهة أمام قوة الله ، وكيف يعبدونهم معه ، وهم لا وجود لهم ولمن يعبدونهم بجواره سبحانه وتعالى علواً كبيراً ، فهذا المثل سيق مساق الاستدلال وكان دليلا قوياً ، ان كانوا طلاب حق يلتمسون الدليل عليه ، وان كانوا طلاب باطل ضلوا سواء السبيـــل ، لا يزيدهم الدليل الا كفرا •

ومن الأمثلة الموضحة التى تثبت كمال سلطان الله وأنه وحده القادر ، وبطلان غرور الانسان ازاء قدرة الله تعالى قوله سبحانه :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهمـــا بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ، ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه ، وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعــز نفرا ، ودخل جنته ، وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت الى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه وهو يحاوره ، أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا ، ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لاقوة الا بالله ان ترن أنا أقل منك مالا وولداً ، فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ، ويرســـل عليها حسباناً من السماء ، فتصبح صعيداً زلقا ، أو يصبح ماؤها غـــوراً ، فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بثمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً ، هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثواباً ، وخير عقبا»(١) •

---

(١) الكهف : ٣٢ — ٤٤

وهذا المثل الواقعى التصويرى فيــه دليل على اثبات حقيقتين — أولاهما : أن المغتر دائماً يدلى به غروره الى أنه يحكم على المستقبل بما هو عليه فى الحال القائمة ، والقوة الموهومة ، فذو الجنة والنفر ظن أن الحاضر ينبىء عن المستقبل وغره بالله الغرور ، وتعالى من غير علو ، وتسامى من غير سمو ، واستقوى من غير قوة ، فجاء المستقبل ، وخيب الأمل وكشف الحقيقة .

الحقيقة الثانية اثبات أن الولاية والنصرة لله سبحانه وتعالى ، وأنه وحــده المالك للأمور كلها فى ماضيها ومستقبلها وشاهدها ، وغائبها .

فكان المثل دليلا على وباء الغرور ، وأن الأمر لله وحده .

ومن الأمثال الموجهة الى الحقائق الخلقية والدينية قوله تعالى فى ســورة ن « إنا بلوناهم ، كما بلونا أصحاب الجنــة ، اذ أقســموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها من ربك ، وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صـــارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا أنا لضالون ، بــل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا ياويلنا انا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، انا الى ربنا راغبون ، كذلك العذاب، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (١) .

سبقت قصة أصحاب الجنــة الدنيوية ، وهى قصة واقعية تصويرية ، وهى دليل مثبت — أولا — لأن الزكاة تطهر المال وتحميه لقوله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . فهى للمال نظافة ونماء — وهم قد أقسموا ليصرمنها مصبحين ، وأن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وتثبت — ثانياً — أن العاقبــة الحسية تؤثر فى النفس ان كان فيها قابلية للهداية ، وهؤلاء اذا كانت قد ضاعت منهم الثمرات ، فقد عادت اليهم بأعظم العظات ، فما كسبوه من عظة أكثر ممــا فقدوه من ثمرة ، وثمرات القلوب أطيب من ثمرات تشتهى الأبدان طعمها ، وهى

---

(١) القلم : ١٧ — ٣٣

دليل على أن الله تعالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء وأن الأقدار تحت سلطانه ، ويجريها ، كما يحب وكما يشاء •

ومن الأمثلة التى تساق مساق الدليل قوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسنا ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، هل يستوون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم »(١) •

والآيات قبل ضرب هذين المثلين كانت فى الأمر بعبادة الله تعالى وحده والاخبار عن عبادة المشركين من لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، اذ يقول سبحانه ، «ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون(٢)» فجاء سبحانه وتعالى بهذين المثلين ، وهما يبطلان عقيدة الشرك ، وزعم المشركين بأمثلة تقع فى الحياة ، والحكم فيهما من البدهيات التى لا ينكرها عاقل ، ولا يختلف فيها فكر عن فكر ، وكل مثل من المثلين دليل قائم بذاته على بطلان الوثنية ، اذ فيه تسوية بين من لا يقع بينهما التساوى •

أما أولهما فقد ضرب برجلين أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شىء ، لأنه مملوك لغيره ، فهو ليس له مال ، فهل يستوى هذا مع رجل مرزوق من الله تعالى رزقاً حسناً ، ان التسوية غير معقولة بين من له مال يعطى منه غيره ، أو ينفق منه فى الخير سرا وجهرا ، وبين المملوك الذى لا مال له اذ اكانت التسوية غير معقولة ، فتسوية أولئك المشركين بين الأحجار التى لا تضر ولا تنفع فى عبادتها مع الله تعالى الرزاق ذى القوى المتين المالك لكل شىء الذى له ملك السموات والأرض أبعد عن كل معقول ، وذلك برهان قوى على بطلان الشرك كله ، سواء أكان اشراك حيوان أو انسان أم كان اشراك حجر •

وثانى المثلين أن الله يضرب مثلا برجلين أحدهما أبكم لايقدر على شىء ، وهو كل على مالكه أو ذى قرابة له يتولى أمره ولا يتجه الى جهةويأتى فيها بخير ، بل

---

(١) النحل : ٧٥ — ٧٦ (٢) النحل : ٧٣

لأن الطرقات مسدودة أمامه اما من جوارحه المئوفة الناقصة فهل يستوى مع رجل موهوب فى عقله وخلقه ، وكيانه الانسانى والنفسى يسلك الصراط المستقيم يأمر العدل ، ولا يحيد عن سبيله ، فهما اذن بالبداهة لا يستويان .

واذا كان هذان الرجلان لا يستويان بداهة ، فأولى ألا تتساوى فى العباد الأحجار مع خالق الكون ، وهادى الخلق ، ومانح النعم ومجريها رب العالمين .

ومن الأمثلة التى تدل على أن العبادة الخالصة لاتكون الا لله تعالى وحده ، وأنها بغير ذلك لا تكون عبادة — قوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون »(١) ان هذا المثل التصويرى فيه دلالة على صدق التوحيد ، وفساد الشرك ، فانه سبحانه وتعالى جعل الفرق بين التوحيد والشرك كالفرق بين رجل مملوك لعدة أشخاص هم مختلفون فيه كل يريد أن يختص بأكبر حظ منه ، وأن يكلف أقل قدر فيه ، وهو فى ذاته ضائع بينهما نفسياً وماديا لا يدرى أيهما يطالبه بحقه ، فهو ضائع لا محالة ، وهو لايحس بأمن فى هذه الملكية المتنازعة ، وذلك مثل من يعبد آلهة مختلفة تكون نفسه جائرة بائرة غير مستقرة . ولا مطمئنة ، فليست كحالها ، مع رجل سلما خالصا لرجل لا يشاكسه أحد فيه ، وهو مستقر يعرف من يخدمه ومن يعتمد عليه ، ومن فوض أمره اليه ، وذلك مثل من يعبد الله تعالى وحده، فان من يعبد الله وحده تطمئن نفسه ، ويجد المأوى ، ويجد الملجأ والمعاذ ، وذلك مثل ، تهتدى به النفوس الشاردة .

ومن الأمثال التى ساقها القرآن الكريم للاستدلال بها على البعث والنشور ، والإماتة والإحياء قوله تعالى : « أو كالذى مر على قرية ، وهى خاوية على عروشها ، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه قال كم لبثت ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ، ولنجعلك آية للناس ، وانظر الى العظام كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل

---

(١) الزمر : ٢٩

شىء قدير(١) » •

ان هذه قصة واقعية ، وليس فى سياق اقول مما يدل على أنهـا تصويرية ، والأصل أن تكون حقيقية ، فلابد أن أجزاءها قصة واقعة ، وليست مجرد مثـل تصويرى • وهذه القصة معها دليل واقعى على البعث والنشور ، وأنه فى قدرة الله تعالى اعادة الموتى فمن أنشأ الكون يحيى الموتى ، وأننا سنموت كما ننام ، ونبعث كما نستيقظ ، فهو مثل واقعى ، لبيان كيف يحيى الله ، فقد مات الرجل مائة عام ، ثم أحياه الله ، ورأى طعامه لم يتغير ، ورأى حماره حتى حسب أنه نام يوماً أو بعض يوم ، والله على كل شىء قدير •

أسلوب جدل القرآن

١٤٢ — ذكرنا فيما أسلفنا من قول بعض ما سلكه القرآن ، وما يعمد اليه من استدلال وما يتخذه من ينابيع ، وقد كانت لاثبات الحقائق فى العقيدة والأحكام وما يقربها به الى العقول حتى لا يكون موضـع ارتياب لمرتاب ، يزيـل الريبة بالحقائق ، ويبدد الأوهام بالأدلة التى تنبه الى حقائق الوجود •

وما كان ذلك للجدل مع المخالفين من مشركين وأهل كتاب فقط ، بل كان لاثبات الحقائق فى ذاتها ، من غير محاجة مع منكر ، ولا مجادلة مع جاحد ، والآن نتكلم فى جدله مع المجادلين ، وقطعه الطريق على الجاحدين •

وقبل ذلك نتكلم فى مقام الاستدلال القرآنى، سواء أكان فى مقام تثبيت وبيان أم فى مقام جدل مع قوم خصمين •

ولقد لاحظنا فى أدلة القرآن أنها قريبة التناول فى الادراك لكل الناس يفهمها الخاصة ويفهمها العامة ، وان تفاوت الفهم بمقدار الادراك ، وسعة الأفق ، وهى واضحة للجميع ، ولقد قرر ذلك ابن رشد الفيلسوف الفقيه فى كتابه فصل المقال ، فقد قسم الطرق لاثبات صدق القضايا والتصديق بها الى عامة لأكثر الناس بحيث يكون التصديق بها من كل الناس ما داموا قد سلمت عقولهم من الآفات ، ومنها

---

(١) البقرة : ٢٥٩

ماهى خاصة بأقل الناس وهى البرهانية ، وجعل الأدلة التى تعم الناس الأدلة الخطابية وتقوم على اثبات الحق بأدلة قطعية أو أدلة ظنية ، ولكن بكثير منها ومقارنتها ، واثارة الخيال يجعل السامعين يقتنعون ، ويجزمون ، واذا كانت الأدلة فى ذاتها مجردة عما أحيط بها من عرض ، وأسلوب بيانى وابقاء مؤثر ، واثارة للأخيلة الموجهة ، تكون ظنية ، ولكن آثارها قطعية ، كما نرى فى آثار البلغاء من الخطباء ، والخطابية أعم أنواع الاستدلال فى البيان ، وأكثرها انتاجاً ، ودونها فى العموم الجدلية ، وهى ما يكون الاستدلال مأخوذاً مما يسوقه الخصم من الحجج ، وهى تعتمد على قوة الاستدلال على الخصم ، ولأن الفلج على الخصوم لا يكون أمراً مستوراً ، بل يكون أمرا له صفة الشياع بين الناس ، ولأنه مأخوذ بحجج المخالف كان مع عمومه وشيوعه أقل من الاستدلال الخطابى الذى يقوم على اثبات الحقائق من غير تقيد بحجة خصم .

والحجة الخاصة بأقل الناس عند ابن رشد ما يلزم فيه المتكلم بالأقيسة البرهانية ، ذلك لأن هذه الأقيسة مجردة خالية من كل تحسين ، وليست متجهة الى الاقناع وطرائقه من مشاركة وجدانية ، ومن اثارة للمشاعر ، ومن اتجاه الى ما يأمنون من أمور وان التجرد كله لا يكون الا للخاصة الذين يتجهون الى الحقائق من أى تأثير .

ويقول ابن رشد بعد أن أشار الى الأدلة الخطابية والجدلية والبرهان . « ولأن أكثر الشرع مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير اغفال لتنبيه الخاصة كانت أكثر الطرق المصرح بها فى الشريعة الاسلامية على أربعة أصناف : أن تكون مع أنها مشتركة خاصة بالأمرين جميعاً أعنى أن تكون فى التصور والتصديق يقينية مع أنها خطابية أو جدلية ، وهذه المقاييس هى المقاييس التى عرض لمقدماتها مع كونها مشهورة ومظنونة أن تكون يقينية وعرض لنتائجها أن قصدت أنفسها دون مثالاتها ، وهذا الصنف من الأقوال الشرعية ليس له تأويل ، والجاحد لها أو المتأول لها كافر ، والصنف الثانى أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مظنونة يقينية . وتكون النتائج مثالات للأمور التى قصد انتاجها ، وهذا يتطرق اليه التأويل . والثالث عكس هذا وهو أن تكون النتائج هى الأمور التى قصد انتاجها نفسها ،

وتكون المقدمات مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية ، وهذه أيضاً لا يتطرق اليها تأويل أعنى نتائجها وقد يتطرق لمقدماته والرابع أن تكون مقدماته مشهورة أو مظنونة من غير أن تعرض لها أن تكون يقينية حملها وتكون نتائجه مثالات لما قصد انتاجه وهـذه فرض الخواص فيها التـأويل ، وفرض الجمهور على ظاهرها ، وبالجملة فكل ما يتطرق اليه من هذه التآويل لا يدرك الا بالبرهان ففرض فيه ، وهو ذلك التأويل ، وفرض الجمهور هو جماعها على ظاهرها فى الوجهين جميعاً ، أعنى فى التصوير والتصديق ، اذا كان ليس فى طباعهم أكثر من ذلك ، وقد يعرض للنظار فى الشريعة تأويلات من قبل الطرق المشتركة بعضها على بعض فى التصديق •

وان كلام ابن رشد هو فى مقام الأدلة القرآنية من حيث التصـور المنطقى والتصديق وما يترتب على قوة الاستدلال من حيث قبـول الحـكم الشرعى أو الاعتقادى للتأويل ، وعدم التأويل ومن حيث قبول الاعتقاد للنظر أو عدم قبوله •

وخلاصة ما قاله بايضاح أن المقدمات اذا قامت على المشهور أو المظنون ، ولـكن بتضافر أنواع الاستدلال ، وتكاثر الطرق ، صارت يقينية من حيث النتيجة ، والنتيجة تثبت حقيقة ثابتة ليس لها مثيل ، فان النتيجة لا يصح انكارها ، ومنكرها كافر ومحاولة تأويلها كفر ، واذا كانت المقدمات مظنونة أو مشهورة وليس لهـا مرادفات ترفعها الى درجة اليقين ، والنتيجة ليست يقينية ، فالتـأويل يجرى فى النتيجة والمقدمة اذا كان له مسوغ أو تعارضت طرائق الاستدلال •

واذا كانت المقدمات مشهورة أو مظنونة ، ولكنه بتضافر الأدلة تنتج يقينياً ، والنتيجة تحتمل عدة صور متشابهة ، فان التأويل لا يدخل فى المقدمات ، ولـكن يدخل فى النتائج •

وقد تكون المقدمات مظنونة أو مشهورة ولا يقين فيها ، ولكنها تنتج نتيجة واحدة لا مثنوية فيها ، فانها لا تقبـل التأويل فى النتيجة ، وتقبـل التأويل فى المقدمات •

١٤٣ ــ هذه كلمات ابن رشد ، وذلك بيانها ، وان كانت فى ذاتها غير بينـة

واضحة المقصد ، ولكن يثار هنا قول ، وهو أيصح أن نقـول ان أدلة القـرآن خطابية أو جدلية أو برهانية ، اننا لا نستطيع أن نقول انها خطابية ، كما قد يشير الى ذلك ابن رشـد .

وقبل أن نقطع فى ذلك برأى نذكر تعريف الأدلة الخطابية ، كما فى الشفاء لابن سينا ، يقول ابن سينا : ان الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر فى أقسام المنطق ، لأن المقصود من المنطق أن يتوصل الى التصديق ، فان أوقع التصديق يقينا فهو البرهان ، وان أوقع ظنا أو محمولا على الظن فهو الخطابة . أما الشعر فلا يوقع تصديقا ، لـكنه لافادة التخييل الجارى مجرى التصـديق ، ومن حيث أنه يؤثر فى النفس قبضا أو بسطا ، عد فى الموصل الى التصديق .

والتخييل عنده كما عرفه : اذعان للتعجب والالتذاذ تفعله صور الـكلام .

ونراه من هذا يضع المنطق والخطابة والشعر فى ثلاث مراتب ، فالأول يتجـه الى التعيين ، وهو أعلى مراتب التصديق ، والخطابة تصل الى مرتبة الظن الغالب، والاتجاه اليها لا يوصل الا الى ذلك ، والشعر يتجه الى ايثار الخيال ، والاعجاب والالتذاذ بصورة الكلام ، ولا يؤدى فى ذاته الى تصديق الا اذا تضمن ما يشبه المنطق أو يشبه الخطابة ، فانه يؤدى الى يقين أو الى ظن .

ولابد لنا من أن نذكر أمرين ثابتين :

أولهما ـ أن الخطابة فى أقيستها لا تعتمد الا على الظن ، ولا تنتج الا الظن ولكن يجب أن يعلم أن من الحقائق التى تجىء على ألسنة المتكلمين والتى تجرى فى الأسلوب الخطابى ما هو يقين ينتج قطعا ، ولا ينقص القطعية فيها أنها خلت من صور الأقيسة المنطقية والأشكال البرهانية . فليست العبرة فى اليقين بالشكل ، انما العبرة بالحقيقة أهى مقطوع بها أم غير مقطوع ، والشكل البرهانى لا يمنحها يقينا ، كما أن عدم التماسك به لا ينقص يقينها .

وان كثيراً من الأدلة الخطابية تعتمد على أقوى المقدمات الزاما وأشدها افحاما،

وان المنطق مميز لباطل القول وليس موجدا لليقين بذاته ، فان الاشكال المنطقية أخص خواصها أنها تكشف زور الباطل •

وقد يكون الكلام الخطابى مجملا بالأشكال المنطقية فى مقام الرد على حجج الخصوم ، وكشف زيفها ، وبيان وجه البطلان فيها ، وكثيراً ما تستخدم الخطب التى تقوم على المحاجة ، والجدال والبراهين والأقيسة المنطقية لبيان وجه البطلان فى كلام الخصم •

الأمر الثانى : أنه لا ينطبق ما يقال فى الخطابة والجدل من أنهما يقومان على الأدلة الظنية على القرآن •

ونحن نميل الى أن الاستدلال القرآنى له طريق قائم بذاته ، واذا نظرت اليه وجدت فيه ما امتازت به الأدلة البرهانية من يقين لامرية فيه ، وما امتازت به الأدلة الخطابية من اثارة للاقناع ، وما امتازت به كل خواص البيان العالى • مع أنه لا يسامى ، وهو معجز لكل الناس عربهم وعجمهم •

أسلوب القرآن فى الاستدلال والجدل :

١٤٣ — ان القرآن خاطب الناس جميعا فى أجيال مختلفة ، وأقوام تباينت مشاربهم ، ومن أجل أن نعرف بلاغة القرآن فى الاستدلال والجدل يجب أن نشير بكلمات موجزات الى أصناف الناس •

إن طبائع الناس متفاوتة ، ومشاربهم مختلفة ، وأهواءهم متنازعة ، ومسالكهم فى طلب الحق متعددة :

(ا) فمنهم من يصدق بالبرهان ، ولا يرضيه الا قياس تام أو ما يجرى مجراه ، وهؤلاء هم من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية وكان اهم من أوقاتهم ما أزجوه فى دراسات واسعة النطاق ، وعلوم سيطرت عليهم فسادهم التأمل الفلسفى ، والمنزع العلمى • والمستقرى لأحوال الأمم المتتبع لشئون الاجتماع يجد أن هذا الصنف قلة فى الناس ، وعددهم محدود بالنسبة لغيرهم ، اذ أن أكثر من فى الأرض قد انصرف الى المهن من زراعة وصناعة ، فما

كان له وقت يزجيه فى تلك التأملات ، ولهذا أمر الله تعالى نبيه أن يدعو بالحكمة فى قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » (١) .

(ب) من الناس من غلب عليه مذهب دينى ، أو غير ديني ، قد استأثر بلبه ، وسد مسام الادراك ، اذ استولت عليه نحلة مذهبية فتعصب لها . والتعصب يعمى ويصم ويجعل النفس لا تستسيغ الحق الا بمعالجات عسيرة ، وان باقتناع ذلك لا يكون الا بالطب لأدواء النفوس ، وأدواء النفوس أعسر علاجاً ، وأعز دواء من علاج الأجسام .

وهؤلاء لابد لهم من طريق جدلية تزيل ما لبس الحق عليهم ، ويتخذ بها قوة مما يعتقدون ، اذ يلزمهم بما عندهم ، ويفحمهم بما بين أيديهم ، ويتخذ مما يعرفون وسيلة لالزامهم بما يرفضون .

وهذا الصنف من الناس . وان كان أكثر عدداً من الأول ليس هو الجمهور الأعظم ، ولا الكثرة الغالبة بين الناس ولعله الذى أمرنا الله تعالى بألا نجادله الا بالتى هى أحسن فى قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » (٢) .

(حـ) أما الجمهور الأعظم من الناس فليسوا هؤلاء ، ولا أولئك ، بل هو فى تفكيره أقرب الى الفطرة ، فيه سلامتها ، وفيه سذاجتها وفيه اخلاصها وبراءتها ، وهو لا يخاطب بتفكير الفلاسفة ، ولا يخاطب بما يخاطب به المتفكرون تفكراً علمياً ، بل يليق به ما التقى فيه الحق مع مخاطبة الوجدان ، وما اختلطت فيه الحقائق اليقينية بما يجعل الأهواء تابعة لها ، والميول خاضعة لمنهاجها ، وما التقت فيه سياسة البيان وبلاغته بقوة الحق ، وليس بما يختص به أهل المنطق ، ولا ما عليه أهل العلوم الكونية ، انما يخاطب الجمهور الأعظم بالحق ، وبما يغذى الفطرة ، وبما يثيرها ويوجهها الى السبيل الأقوم .

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التى جاءت الكافة ، وبعث بها

(١) النحل : ١٢٥ (٢) العنكبوت : ٤٦

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للناس جميعاً بشيراً ونذيراً ، فلا تقتصر دعوته على قبيل ، ولا على جيل ، بل هى لكل الأجيال والقبائل والأقوام ، والألوان ، الى أن يرث الله تعالى الأرض ، ومن عليها •

١٤٤ — لذلك وجب أن يكون القرآن ، وهو الحجة الكبرى فيه من الأدلة والمناهج ما يقنع الناس جميعا على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم ، وتفاوت مداركهم ، ووجب أن يكون أسلوبه الفكرى والبيانى ، بحيث لا يعلو على مدارك طائفة بعد بيان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه الذين تلقوا من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم القرآن ، وبيانه ، ويجد العلماء فيه غذاء نفسيا واعتقاديا وخلقيا وصلاحاً انسانيا ، بل يصل الجميع اليه ، يجد فيه المثقف بغيته والفيلسوف طلبته ، والعامة من الشعوب دواء نفوسهم ، وشفاء قلوبهم ، والحق المبين الهادى لهم الذى يأخذ بأيديهم الى العزة والرفعة •

وكذلك سلك القرآن الكريم ، فالمتدبر لآياته ، والمفكر فى مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل ، وينبه الغافل ، ويرضى نهمة العالم إقرأ قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون » (١) • إقرأ هذا وارجع البصر فيها كرتين ألا ترى أن فيها توجيه الأذهان الى عظيم قدرة الله تعالى وقوة سلطانه على الوجود كله ، وبين سبحانه كيف اخترع وأبدع على غير مثال سبق ، ويثبت بذلك أنه وحده الأحق بالعبادة ، وان القارىء للقرآن من دهماء الناس يرى فيها علما بما لم يكن يعلم ، قد أدركه بأسهل بيان وأبلغه • ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث فى نشأة الكون ، دقة العلم واحكامه ، وموافقة ما وصل اليه العقل البشرى لما جاء بذلك النص الكريم مع سمو البيان وعلو الدليل فتبارك الذى أنزل القرآن •

واقرأ قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة • فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم

---

(١) الأنبياء : ٣٠

بعد ذلك لميتون ، ثم انكم يوم القيامة تبعثون . الخ الآيات الكريمات (١) .

ثم تدبر هذه الآيات البينات تجد أن الأمى يستفيد منها علما غزيرا فوق أنه يعرف منها أن الله سبحانه وتعالى سيبعث الناس يوم القيامة ، فيزداد ايمانا ، كما علم ما لم يكن يعلم ، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الانسان ، والدارس للحيوان جرثومه فجنينا ، فحيوانا على ظهر الأرض حيا ، فيرى فيها دقة العلم والتكوين ، وصدق الحكاية ، حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء فى أوربا ، فاعتقد أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم طبيب رأته الأجيال السابقة ، فلما علم أنه كان أمياً لا يقرأ ، ولا يكتب آمن بأن هذا من علم الله تعالى بارىء النسم .

وهكذا يرى القارىء لكتاب الله تعالى ، وما فيــه من أدلة أنه قريب من الأمى يفهمه ويعرفه ، ويعلم منــه علم ما لم يكن يعلم ، يدرك منــه ما يناسب معرفته ، ويسمو اليه ادراكه وما يدركه منه صدق يقينى لا شبهة فيه .

ويرى فيه العالم الباحث حقائق صادقة ، ما وصل اليها البحث العلمى الحديث الا بعد تجارب ، ومجهودات عقلية ، وكلما ازداد المتأمل المتبصر فى الآيات التى تتعلق بالكون ازداد استبصاراً ، ورأى علما أسمى مما يدركه الانسان بتجاربه ، وأعلى مما يهتدى اليه الانسان بعقله المجرد .

مسلك القرآن فى سوق الأدلة

١٤٥ — قد شرحنا من قبل الأدلة الخطابية والبرهانية والجدلية ، وقد أشرنا الى أن أسلوب القرآن فوق هذا ، والآن نوضح ما أشرنا اليه من قبل فنذكر بالعبارة الواضحة ، ما ذكرناه بالاشارة اللائحة .

ان أسلوب القرآن أسمى من الخطابة ، وأسمى من منطق أرســطو ، ومن لف لفه ، تراه قد اعتمد فى مسالــكه على الأمر المحسوس أو الأمور البدهية التى لا يمترى فيها عاقل ، وليس فيه قيد من قيود الأشكال المنطقية من غير أن يخــل بدقة التصوير ، وقوة الاستدلال ، وصدق كل ماشتمل عليه من مقدمات ونتائج فى

(١) المؤمنون : ١٢ — ١٦

أحكام العقل •

وانك لترى بعض أوصاف الأسلوب الخطابى ، قد أتى فيها بالمثل الكامل فيه ، وهو أعلى من أن يوصف بأنه جاء على منهاج من مناهج الخطابة ، وفيه تصريف القول الذى يلقى بجدة فى نفس القارىء والسامع ، فتصريف فنون القول من ايجاز غير مخل ، وحذف كلمات أعلن الأسلوب وجودها وغزارة فى المعانى مع قلة فى الألفاظ واطناب مبين ، بحيث لو حذفت كلمة لاختل بنيان القول ، اذ أن الكلام القرآنى بعضها مع بعض كالبنيان النورانى المرصوص ، ولكل كلمة اشعاع مشرق فيه بحيث لو لم تكن ، يكون جزءاً ناقصاً من الأطياف للآيات القرآنية •

ثم من قصص حوى أقوى الأدلة فى ذات القصة وما حوت ، وفى الأدلة التى سيقت فى بيان الأنبياء السابقين لرسالاتهم ، ومجادلة المخالفين والمناوئين •

ومهما يكن من قول فى استدلالات القرآن الكريم ، فان له مناهج فى الاستدلال تعلو على براهين المناطقة ، والأخيلة المثيرة للاقناع ، والأدلة الخطابية •

١٤٦ — ونستطيع أن نذكر بعض مناحى القرآن فى الاستدلال من غير احصاء ، بل نذكر بعضها ، وبعضها ينبىء عن غيره •

ومن ذلك الأقيسة الاضمارية ، وهى الأقيسة التى تحذف فيها احدى المقدمات، مع وجود ما ينبىء عن المحذوف فهو محذوف معلوم مطوى فى الكلام منوى فيه، وهذا الحذف يكثر فى الاستدلال الخطابى ، بل يقول ابن سينا فى الشفاء « الخطابة معولة على الضمير والتمثيل ، والضمير هو المقياس الاضمارى ، والتمثيل هو إلحاق أمر بأمر لجامع بينهما ، ويسمى فى عرف الفقهاء قياسا فقهيا ، بينما هو فى عرف المناطقة تمثيلا ، لأن فيه مشابهة بين أمرين » •

وقد يقول قائل انك قررت أن القرآن أعلى فى اقناعه واستدلاله من الخطابة والمنطق والشعر ، ومع ذلك تقرر أنه ينهج منهاج الخطابة فى الاستدلال !!

ونقول فى الاجابة عن ذلك : اننا نعلو بمنهاج القرآن عن الخطابة ، وان كان يسلك بعض مناهج الخطابة فى الاستدلال ، وعلو القرآن فى هذه الحال بأسلوبه

أولا . فهو كيفما كان من نوع الكلام المعجز ، وثانياً — القرآن يعلو عن الخطابة فى ان كل مقدماته ونتائجه يقينيه لا مجال للظن فيها ، فان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، فكل ما فى القران حقائق يقينيه ، ولا ينبع منهاجه الا من اليقين ، وقد لام على مخالفيه أنهم يتبعون الظن ، وان هم الا يخرصون .

ونعود من بعد ذلك الاعتراض الذى يرد على الخاطر ، وان كان لا يرد على الموضوع فنقول « ان الناظر المستقرى لادلة القران يرى أكثرها قد حذفت فيه احدى المقدمات ، ولقد قال الغزالى بحق :

ان القرآن مبناه الحذف والايجاز (أى فى شكل الأقيسة) . واقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون ان عيسى ابن الله ، لانه خلق من غير أب : « ان مثل عيسى عند الله ، كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين » (١) .

ولا شك أن المثل الذى ساقه الغزالى ، واضح فيه حذف احدى المقدمات ، وواضح المقايسة بين خلق آدم عليه السلام وخلق عيسى عليه السلام ، وانه اذا كان الخلق من غير أب مبررا لاتخاذ عيسى إلها ، فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مبررا لاتخاذ آدم إلهـا ، ولا أحد يقول ذلك .

واننا نجد أنه قد حذفت مقدمة وبقيت واحدة وكأن سياق الدليـل لو فى غير كلام الله تعالى يكون هكذا : ان آدم خلق من غير أب ولا أم ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى إلها بسبب ذلك لـكان آدم أولى ، لـكن آدم ليس ابنا ولا إلها باعترافكم ، فعيسى أيضا ليس ابنا ولا إلها .

وان الحذف قد صير فى الـكلام طلاوة ، وكسبه رونقا ، وجعل الجملة مثـلا مأثورا ، يعطى الـكلام حجة فى الرد على النصـارى ، ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعا ينتهون اليه ، وانما خلق من تراب ، فلا عزة الا لله تعالى .

١٤٧ — وقد يساق الدليل فى قصة ، وقد ذكرنا من قبل مقام القصص القرآنى فى هذا المقام ، ونقول ان القرآن اتخذ القصص سبيلا للإقنـاع والتأثير ، وضمن

(١) آل عمران : ٥٩ — ٦٠

القصة الأدلة على بطلان ما يعتقد المشركون وغيرهم ، وقد يكون موضوع القصة رسولا يعرفونه ويجلونه اذ يدعى المجادلون أنهم يحاكونه ويتبعونه ، فيجيء الدليل على لسانه فيكون ذلك أكثر اجتذابا لأفهامهم وأقوى تأثيرا ، وقد يكون مفحما ملزما ان كانوا يجادلون غير طالبين للحق •

وانظر الى قصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه وقصته مع قومه (وقد ذكرناهما فى موضوع القصص) ، فانك ترى فى القصتين أدلة التوحيد واضحة قوية تثبت بطلان عبادة الأوثان ، ولابراهيم من بين الرسل مكانته عند العرب ، اذ هو شرفهم ، ومحتدهم الذى إليه ينتسبون ، وقد كانوا يزعمون أنهم على ملته ، فاذا جاءهم الخبر بتوحيده ومحاربته للأوثان ، وسيق لهم ما كان يحتج به على قومه ، كان ذلك مؤثرا أى تأثير فى قلوبهم •

ومجيء الدليل على لسان رسول يقر بفضله المخالفون كابراهيم عند العرب ، وموسى عند بنى اسرائيل يعطى الدليل قوة فوق قوته الذاتية ، اذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين : من جهة قوة الدليل الذاتية ، ومن جهة أن الذى قاله رسول أمين يعرفونه ، فيكون هذا قوة اضافية ، وفوق ذلك فيه الزام وافحام ، اذ أنهم يدعون أنهم أتباعه •

وقد يجيء الدليل أحيانا فى قصص القرآن على لسان حيوان فى قصة ، فيكون لذلك غرابة تسترعى الذهن ، وتثير الانتباه ، وتملأ النفس ايمانا بالحقيقة ، كما جاء على لسان الهدهد فى سورة النمل ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى حاكيا عن سيدنا سليمان عليه السلام : « وتفقد الطير ، فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » (١) •

---

(١) النحل : ٢٠ — ٢٦.

وترى من هذا أن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، فى أوجز عبـارة ، وأوضح اشارة ألا تراه ينبه الى بطلان عبادة الشمس من دون الله ، لأنها لا تؤثر فى الابداع ، والانسان بذاتها ، وبين أن ذلك هو الضلال للفطرة ، انما من تزيين الشيطان الفاسد الأفكار ، وجعلهم يبتعدون عن حكم الفطرة الانسانية ، وهو أن يسجدوا لله تعالى الذى يخرج المخبوء من البذور والنوى ، وكل أسباب الوجود ، وهى مختفية عن الشمس وضوئها ، فاذا كان تأثير ظاهرى فى الظاهر الذى خرج من الخبء ، فما يكون تأثيرها فيما هو خبء ، لاتأثير لها فيه لاظاهرا ، ولاحقيقيا .

قياس الخلف :

١٤٨ — قياس الخلف هو اثبات الأمر ببطلان نقيضه ، وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان ، ولا يخلو المحل من أحدهما ، كالمقابلة بين العدم والوجود ، والمقابلة بين نفى أمر معين فى مكان معين وزمان معين ، اثباته فى هذه الحال ، فان انتفى بالدليل كان ذلك حكما بوجود نقيضه .

فدليل الخلف أن يبطل النقيض ، فيثبت الحق ، وأن القرآن الـكريم يتجه فى استدلاله الى ابطال ما عليه المشركون فيبطل عبادة الأوثان ، فيثبت التوحيد .

ومن ذلك الاستدلال على التوحيد بقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة ألا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (١) . وهنا نجد الاستدلال القرآنى اتجه الى اثبات الوجدان بدليل قياس الخلف ، وتقرير الدليل من غير أن تتسامى الى مقام البيان القرآنى كما يسوقه علماء الـكلام : هكذا : لو كان فى السموات والأرض آله غير الله لتنازعت الارادتان بين سلب وايجاب ، وان هذا التنازع يؤدى الى فسادهما ، لتخالف الارادتين ، ولـكنهما صالحان غير فاسدين ، فبطل ما يؤدى الى الفساد ، فكانت الوحدانية . فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، ويسمى علماء الـكلام هذا الدليل دليل التمانع ، أى امتنعت الوثنية لامتناع الفساد ، فكانت الوحدانية .

ومن القياس الذى يعتبر قياس الخلف قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ،

(١) الأنبيـاء : ٢٢

وما كان معه من إله ، اذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » (١) ؛ أى وان ذلك باطل ، فما يؤدى اليه باطل ، وبذلك ثبت التوحيد •

ومن قياس الخلف قوله تعالى : « لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا » (٢) • وهذا أيضا من قبيل فرض التمانع الذى يؤدى الى الفساد ، ولا فساد ، فيبطل ما يؤدى اليه •

ومن قياس الخلف فى اثبات أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى قوله تعالت كلماته : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٣) • واذا ثبت أنه ليس فيه اختلاف ، ولا تضارب فى مقرراته ، ولا عباراته ، فانه يثبت النقيض ، وهو أنه من عند الله تعالى •

ونرى أنه فى كل هذه الآيات البينات كان اثبات المطلوب بابطال نقيضه ، وقد أشرنا الى ذلك فى كل آية مما تلونا •

ثم إنك ترى مع هذا القياس الذى واجه المخاطبين بابطال ما يدعون ليثبت ما يدعوهم اليه الرسول ، معنى ساميا قويا ، وهو مهاجمة المخالفين بابطال ما عندهم ، وأنه ليس من القول الذى يقام له دليل ، وان ذلك يوهنهم ، وينهنه من قوتهم ، ولذلك كانوا يشكون من النبى يسفه أحلامهم ، ويصغر من أصنامهم •

ومع هذا القياس نجد الاضمار للمقدمات ، وابراز أوضحها الذى يومىء الى ما وراءها ، فما يضمره من المقدمات هو المختفى المعلوم ، والظاهر المكتوم •

السبر والتقسيم :

١٤٩ — السبر والتقسيم باب من أبواب الاستدلال الكاشف للحقيقة ، الهادى اليها ، وهو أيضا من أبواب الجدل ، يتخذه المجادل سبيلا لابطال دعوى من يجادله ، بأن يذكر أقسام الموضوع الذى يجادل فيه ، ويبين أنه ليس فى أحد هذه الأقسام خاصة تسوغ قبول الدعوى فيه ، فيبطل دعوى الخصم •

وقد ذكر السيوطى أنه من أمثلته فى القرآن الكريم قوله تعالى : « ثمانية

---

(١) المؤمنون : ٩١ (٢) الاسراء : ٤٢ (٣) النساء : ٨٢

أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » (١) .

وبين السيوطى وجه الإستدلال فقال : ان الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة ، واناثها أخرى ، رد الله تعالى عليهم ذلك بطريق السبر والتقسيم ، فذكر سبحانه أن الله خلق الخلق مما ذكر زوجين ، ذكرا وأنثى ، ثم جاء به تحريم ماذكرتم عندكم . ما علته ، لا يخلو اما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة ، أو اشتمال الرحم الشامل لهما ، أو لا يدرى له علة ، وهو التعبدى بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله تعالى إما بوحى وإرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقى ذلك عنه ، وهو معنى قوله تعالى : « أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا » . فهذه وجوه التحريم ، ثم لا تخرج عن واحد منها ، والاول يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً ، والثانى يلزم عليه أن يكون جميع الاناث حراما ، والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض فى حالة ، وبعض فى حالة . لأن العلة على ما ذكر تقتضى اطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة (وحى) باطل ، ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك ، لأنه لم يأت اليهم رسول قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى ، وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال » (٢) .

وخلاصة الاستدلال على بطلان ما ادعوا من تحريم السائبة والوصيلة ، وبعض الماعز والبقر ، أن الله تعالى العلى الحكيم ينبههم الى أن التحريم يكون لوصف ذاتى فى هذه المحرمات أو لتحريم بوحى أو رسول ، ثم أخذ يبين سبحانه أنه لا يوجد وصف ذاتى فى هذه الأشياء التى يحرمونها فذكر سبحانه أن السبب فى التحريم إما أن يكون فى الذكورة وحدها ، أو الأنوثة وحدها ، أو فيهما معاً ، لا جائز أن تكون

---

(١) الانعام : ١٤٣ — ١٤٤

(٢) الاتقان فى علوم القرآن

فى الأنوثة وحدها ، لأنكم حرمتم ذكوراً ، ولان مقتضى العموم أن تحرم كل أنثى، وكذلك الأمر فى الذكورة ، لأن ذلك يوجب تحريم كل الذكور ، وكذلك اذا كان وصف التحريم ذاتياً فى كل ما تحمــل الأنثى وتلد الأرحام ، فان ذلك كان يوجب تحريم كل الأنعام ، وأنتم اختصصتم بالتحريم بعضها دون كلها •

واذا لم يكن ثمة وصف ذاتى اقتضى التحريم فهل كان نص من رسول ، أو وحى ، أو من أين جاءكم العلم ، لا شىء من هذا ، وهذا الجزء الأخير كقوله تعالى فى آخر سورة الأنعام « سيقول الذين كفروا لوشاء الله ما أشركنــا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون(١) » •

التمثيل :

١٥٠ ــ التمثيل أن يقيس المستدل الأمر الذى يدعيه على أمر معروف عنــد من يخاطبه أو على أمر بدهى لا تنكره العقول ، وتقربه الأفهام ، ويبين الجهــة الجامعة بينهما ، وان القرآن الكريم قد سلك هذا المسلك على أدق وجه وأحكمه مقرباً ما بين الحقائق القرآنية ، والبدائه العقلية وكثير من استدلالات البعث تقوم بتقريب البعث وقدرة الله تعالى عليــه بما يرون من انشاء لذلك الــكون البديع ، وما خلق به الانسان وبيان أطواره من أصلاب الآباء الى أرحام الأمهات •

اقرأ قوله تعالى : « يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث ، فانا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لــكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر ، لــكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة ، فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قــدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور »(٢) •

ونرى من هذا عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته ، التى لخصها الله سبحانه

---

(١) الأنعــام : ١٤٨ (٢) الحج : ٥ ــ ٧

وتعالى فى قوله « كما بدأكم تعودون » وفى هذه الآيات الكريمات بين سبحانه كيف ابتدأ خلق الانسان من طين ، ثم جاءته الأطوار المختلفة حتى آل الى القبر ثم كيف خلق الأحياء فى الأرض من نبات وحيوان ، واهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، وان كل ذلك دليل على قدرة المنشىء علام الغيوب ، بديع السموات والأرض ، وأنه على ما يشاء قدير .

وان هذا النسق البيانى قرب فيه البعيد ، وسهل على الأفهام دخوله ، والله على كل شىء قدير .

واقرأ فى هذا النوع من الاستدلال قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فاذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم » (١) .

وتجد فى هذه الآيات الكريمة عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته فى أبلغ تعبير وأسلم تقرير وان فى هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم قياس ما فى الغيب على المشاهد ، وقياس ما بينه الله تعالى ، وأوجب الايمان به على ما هو واقع مرئى مشاهد ، فيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى ، وأنه المالك لما هو واقع ، والقادر على ما لم يقع الآن ، وسيقع ، كما وعد ، ووعده لايتخلف .

١٥١ — هذا ويلاحظ القارىء للقرآن التالى لآياته ، المتبصر فى عبره وعظاته ، والدارس لأدلته — أن جدل القرآن لا يتجه الى مجرد الافحام والالزام ، بل يتجه فى الكثير الغالب الى ارشاد القارئين والمدركين ، والأخذ بأيديهم الى الحق ، وتوجيه النظر الى الحقائق ، وما فى الكون من دلائل على القدرة ، كما ترى فى قوله تعالى :

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة

---

(١) يس : ٧٨ — ٨١

وذكرى لكل عبد منيب ، وأنزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » (١) .

فترى فى هذه الآيات البيان فيها ليس مجرد افحام الوثنيين ومنكرى التوحيد، بل فيه توجيه الى الكون ، وما فيه من دلائل القدرة ، وعجائب الصنع وما فيه من سماء زينت ببروجها ونجومها ، والأرض وما فيها من رواسى كأنها تمسكها أن تميد ، وما فيها من نبات يحصد فى ابانه ، وجنات تونع وتثمر فى وقعتها .

واقرأ قوله تعالى فى سورة الرحمن : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها، ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة ، والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » . الى آخر السورة الكريمة ، وفى هذا ترى الاستدلال القوى متجها الى الارشاد الى ما فى الكون ، وما أنعم الله به على الانسان من علم بما لم يكن يعلم ، وما علمه من الشمس والقمر ، وما علمه من معاملات كريمة ، وتعاون انسانى مبنى على الفضيلة ، وعلمه كيف خلق الانسان، وهكذا من استدلال حكيم ، وارشاد وتوجيه وتعلم .

وانه اذا اتجه القرآن الكريم الى الالزام والافحام ، لا يلبث أن يأخذ بيد المعاند الى الحقيقة يبينها واضحة جلية لاريب فيها ، كما ترى فى قوله تعالى رادا على المشركين طلبهم أن يكون الرسول ملكا :

« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وألبسنا عليهم مايلبسون » (٢) . فانك ترى أن فى ذلك افحاماً لهم من ناحيتين : الناحية الأولى أنهم لو أجيبوا الى ما يطلبون لقضى عليهم

---

(١) ق : ٦ — ١١ (٢) الانعام : ٨ — ٩

ما هددهم الله تعالى به ، ولا ينظرون • والثانية أنه لايزول اللبس الذى يلبسون به الحق بالباطل ، لأنه لو جعله الله تعالى ملـكا لجعله فى صورة رجل ، وبذلك يجىء الالتباس الذى لبس به عليهم •

ومن الاستدلال المفحم الهادى قوله تعالى فى الرد على اليهـود ووصفهم : « الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول ، حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسـل من قبلى بالبينـات ، وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » (١) •

وكما ترى فى قوله تعالى ردا على الذين ينكرون الرسالات الالهية ، فقد قال تعالت كلماته : « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الـكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس » (٢) • ويظهر أن الذين قالوا هذا القول من اليهود ، قالوا لينكروا رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

وفى هذه الآيات التى تلوناها ترى الالزام المفحم ، والحجة البالغة ، والفيصل الفارق بين الحق والباطل ، قد أدحضت به حجة الخصوم وأرشدوا الى المحجـة ، ووضعت الصوا والأعلام ، ليسيروا على الجادة بعد أن بددت الظلمات ، وأذهب ضوء الحق ظلام ما موه به الخصوم ، فمن أبى واستكبر بعد ذلك فهو من الأخسرين ، بعد أن أزيلت من أمامه غياهب الباطل •

١٥٢ — وعند توجيه الله تعالى نظر المجادل الى الحقائق من غير اتجـاه الى الزام من أول الأمر ، أو بعد الزامه وافهامه يكون تصريف البيان ، ومناحى التأثير ، وتكون العبارات التى تخاطب العقـل والوجـدان ، وتمس مواطن الاحساس ، وتتنوع المناهج وتتضافر المعانى ، وللألفاظ جدتها وطلاوتها ، ومع التكرار أحياناً تزداد الفائدة ، وتكثر الثمرات ، وتتنوع الأساليب من استفهـام الى تعجب الى تهديد الى اخبار ، ويختلف الاتجاه الى مواضع الاستدلال وينابيعه •

(١) فمرة يكون الاستدلال برد المسائل الى أمور بدهية معروفة ، كما أشرنا ،

---

(١) آل عمران : ١٨٣ (٢) الانعام : ٩١

، وحقائق مشهورة مألوفة يخر المجادل أمامها صاغراً كما ترى من ابطال قول من زعم أن لله تعالى ولداً ، اذ يقول سبحانه : « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » (١) .

ألا ترى أن الاستدلال القرآنى اتجه الى بطلان مدعاهم الى أمـر معروف مشهور مألوف لا يمارى فيه أحد وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة ، ولـم يدع أحد أن لله تعالى صاحبة ، فبطل أن يكون له ولد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا .

(ب) وأحياناً يضرب الله تعالى الأمثال ليقرب الحقائق ، ويدنيها وقد بينا ذلك وأمثلته عند كلامنا فى ينابيع الاستدلال القرآنى .

(حـ) وأحياناً يوجه نظر الناس الى المخلوقات ، والى ما فى الكون مما يدل على قدرة الصانع ، وعلم المبدع ، انظر الى قوله تعالى : « والهكم اله واحد، لا اله الا هو الرحمن الرحيم ، ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليـل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السـماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (٢) .

وهكذا ، وارجع الى ما قدمنا من مصادر الاستدلال فى القرآن الكريم .

ويلاحظ أن القرآن الـكريم فى الجدل الذى يلزم الخصوم ، ويفحمهم ، يجىء الى الافحام من أقرب الطرق ، وأقواها الزاما ، ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن خليله ابراهيم عليه السلام فى مجادلة مدعى الألوهية ، فقد قال تعالى :

« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت . قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم ، فان الله يأتى بالشمس

---

(١) الانعام : ١٠١ — ١٠٣ (٢) البقرة : ١٦٣ — ١٦٤

من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر . والله لايهدى القوم الظالمين » (١) .

وان وسائل أخذ الخصم بأقرب طريق للافحام والزام كثيرة :

(ا) منها التحدى كما تحدى الله تعالى كفار قريش بأن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، وكما تحدى ابراهيم الملك الوثنى .

(ب) ومنها أخذ الخصم بموجب كلامه ، واثبات أنه عليه وليس له ، ومن ذلك قوله تعالى فى شأن المنافقين ، اذ يقول سبحانه وتعالى عنهم : « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » (٢) ، فسلم لهم أن الأعز يخرج الأذل ، ولكن من هو الأعز ، فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

(ج) ومنها مجاراة الخصم فيما يقول ، ثم التعقيب عليه بما يقلب عليه نتائج قوله ، ومن ذلك قوله تعالى حاكياً عن الرسل مع أقوامهم : « قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٣) .

فترى من هذا النص السامى أن الرسل سلموا بالمقدمة التى بنى عليها الأقوام رفضهم ، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم « ولكن الله يمن على من يشاء » ، فكأنهم قالوا لهم ما قلتموه من أننا بشر حق ، ولكن ما تريدون أن تبنوا عليه من اثبات أننا لسنا أنبياء باطل ، لأن الله يمن على من يشاء من عباده ، وهو قد من علينا ، وقدمنا لكم السلطان أى الدليل ، ولا سلطان لنا الا ما يأذن به الله تعالى .

١٥٣ ــ هذه قبسة من نور الذكر الحكيم الذى أضاء الله تعالى به الخليقة لتهتدى الأجيال بهديه ، وتسير على ضوئه ، وتعشو اليه اذا أظلمت ، وعمتها

---

(١) البقرة : ٢٥٨ (٢) المنافقون : ٨ (٣) ابراهيم : ١٠ ــ ١١

الجهالات ، وتاه الناس فى مثارات الشيطان .

وما أردنا بذلك البيان احصاء لطرق الاستدلال فى القرآن ، ولا استقصاء لمسالكه فى جدله ، فدون ذلك تنفق القوى ، وينبت الطهر ، ويقصر الشأو ، ولكن أردنا أن يرى الدارس للقرآن الكريم أمثالا عن طرق جدل القرآن واستدلالاته وكيف كانت أعلى من المنطق فى دقته ، وان لم تتقيد باساليب المناطقة، ولا باشكال أدلتهم ، ففى أدلة القرآن التقديم والتأخير ، والايجاز والاطناب تبعا لروعة البيان ونسقه وجماله ، وليس تبعاً لأشكال البرهان ، وكانت مع ذلك أعلى من الخطابة ، وان كان بيانه المثل الأعلى الذى لا يستطيع أن يجاريه الخطباء .

ولو أن المتكلمين الذين عنوا باثبات العقائد ، والجدل فيها ، سلكوا مسلك القرآن ، وساروا فى سمته لكان علمهم أكثر فائدة ، وأدنى جنى ، وأينع ثماراً ، ولكنهم سلكوا مسلك المنطق وقيوده ، والبرهان وأشكاله ، فكان علمهم للخاصة من غير أن يفيد العامة ، فان العامة يدركون دقائق القرآن على قدر عقولهم ، ولا يدركون شيئاً من أشكال الأقيسة .

وقد وازن الغزالى فى كتابه الجام العوام عن علم الكلام بين أدلة القرآن وطريقة المتكلمين ، فقال رضى الله عنه : أدلة القرآن مثل الغذاء ، ينتفع به كل انسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون ، بل ان أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا .

وفى الحق ان الناس لو شغلوا بدراسة القرآن ، وما فيه من استدلال لينهجوا على نهجه ، ويسيروا فى طريقه ، لكان لهم من ذلك علم كثير ، فان القرآن قد اشتمل على مناهج فى الاستدلال والجدل والتأثير تتكشف عن أدق نواميس النفس الانسانية ، وتبين شيئاً كثيراً من أحوال الجماعات النفسية والفكرية وفيها الطب لأدوائها ، والعلاج الناجع لأمراضها ، والدواء الشافى لعللها وأسقامها .

وفى مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام النافذ الى القلوب والاحجج الدامغة

واعتبر ذلك بأثره فى المشتركين وأثره فى المسلمين الأولين .

وقد ذكرنا فيما مضى من قولنا أن كل من كان يسمعه من المشركين ينـــاله منه قبس يهتدى به ان آمن ، وان استمر على حجوده أطفأ الله النور فى قلبه ، وطمس الله على بصـــيرته وكان على ريب فى الأمر ، وتردد ، فكان كل من داناه منهم مس نوره قلبه ، ونال أثره وجدانه ، حتى لقد تناهى زعماؤهم عن سماعه ، لمـــا رأوه من أثره فى قلب كل من سمعه .

وقد كان من أثر القرآن فى المؤمنين الأولين أن عكفوا عليه يرتلونه ، ويتفهمونه ، ويتعرفوا معانيه ومراميه وجعلوه معلمهم الأول ، ومرجعهم اذا اختلفوا ، ومنهل عقائدهم ، يأخذون منه ما يقوى ايمانهم ويدفع الشبهات عنهم ويثبت يقينهم ، ولم يعرفوا حجة مع ألسنة سواء ، ولا محجة غير طريقه وهديه . به يجادلون وعن هديه يصدرون ، فاستقام أمرهم ، وحكموا بعدله العالمين .

علم الكتاب

١٥٤ — قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ، « ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » (١) ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى من عنده علم الكتاب وهو القرآن الكريم الذى نزل على رسوله الأمين شهادته بجوار شهادة الله سبحانه وتعالى ، وأى شرف أعظم من شرف علم الكتاب بعد هذا ، وأى مقام أعلى من مقام علم الكتاب الكريم ، انه اذاً مقام عظيم ، وهو مشتق من ذات العليم ، ولابد أن يكون لهذا علم الكتاب علما عظيما ، وأن يكون كبيرا عزيزا ، وأن يكون واسعا بمقدار ما تتسع له طاقة البشر من علوم ، وان العلماء الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله تعالى والملائكة هم العلماء بالكتاب المذكورون ، الفاهمون لمراميه ومغازيه العاملون به ، فقد قال الله تعالى : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة ، وأولوا العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » (٢) ، فأولو العلم الذين تقترن شهادتهم بشهادة الله ، والملائكة هم أولو العلم بالكتاب .

وأولو العلم بالكتاب هم العلماء الذين ذكر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخشى الله غيرهم ، اذ قال سبحانه « انما يخشى الله من عباده العلماء » (٣) .

هذه مكانة العلم القرآنى ، كما صرحت العبارات السامية عن الله سبحانه وتعالى ، فما هذا العلم الذى يعلو بصاحبه الى هذا المقام الأسمى ، والمنزلة العليا ؟

نجيب عنه بجوابين أحدهما فيه اجمال ، والثانى فيه بعض التفصيل .

أما أولهما — فنقول انه علم النبوة ، أى علم الرسائل الالهية ، فان القرآن الكريم اشتمل فيما اشتمل عليه على لب الرسالة الالهية وهو التوحيد ، وقد قال تعالى فى ذلك « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب » (٤) . وان القرآن ذكر كل الرسالات التى سبقته ، وما لم يذكره بالبيان ذكره بالاشارة

---

(١) الرعد : ٤٣ (٢) آل عمران : ١٨ (٣) فاطر : ٢٨ (٤) الشورى : ١٣

الواضحة ، فقال تعالى : « منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك » (١) وما لم يذكر قصصه مطوى فى ذكر من قصص ، فالرسالة الإلهية واحدة ، والحق واحد ، والدعوة اليه واحدة .

ولقد صرح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن من يحفظ القرآن يحفظ النبوة بين جنبيه ، فقال عليه السلام فيما يروى عنه الحسن البصرى : « من أخذ ثلث القرآن ، وعمل به ، فقد أخذ ثلث النبوة ، ومن أخذ نصف القرآن ، وعمل به ، فقد أخذ نصف النبوة ، ومن أخذ القرآن كله فقد أخذ النبوة كلها » . ويروى عن عبد الله بن عمر أنه قال : « من حفظ القرآن فقد حفظ النبوة بين جنبيه » ، فالقرآن فيه قبسة علم من الله تعالى .

ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن هو حبل الله ، والنور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن رد فاتلوه ، فان الله يأجركم على تلاوته ، بكل حرف عشر حسنات » .

وان هذه الآثار الواردة تدل دلالة قاطعة على أن القرآن حوى علم النبوة كله ، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من علم النبوة الا أحصاها ، وان الله سبحانه وتعالى ما فرط فى الكتاب من شىء من علم النبوة ، كما قال تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (٢) مما يتعلق بالشرائع والأحكام ، وبيان ما يطلب من المكلف ، وما به صلاحه فى الدنيا ، وثوابه فى الآخرة ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

١٥٥ — هذا الجواب مبنى على ما قرره الذين قرءوا القرآن من السلف الصالح ، وما نقلوه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بيان اجمالى لعلم القرآن الكريم مبنى على أنه تبليغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه ، وأنه التبليغ الخالد الى يوم القيامة الذى تخاطب به الأجيال بالرسالة العامة التى تعم الانسانية كلها ولا تخص عصرا من عصورها .

(١) غافر : ٨٨ (٢) الأنعام : ٣٨

ولكن لابد من أن نعرض بالذكر ببعض التفصيل لما اشتمل عليه علم القرآن ، وهذا هو الجواب الثانى الذى لا يغنى فيه الاجمالى الكلى عن بعض التفصيل الجزئى •

وان الذى قرره السلف ، وأجمعوا عليه أن القرآن الكريم فيه علم النبوة كله ، وأن من علمه فقد حوى علم النبوة بين جنبيه •

وأول علوم النبوة علم الغيب ، ففى القرآن علم الغيب ، وبيان الغيب والغيب هو لب الايمان ، وفيه علم الحاضر الذى يدل على الغيب المستكن •

فيه بيان الوحدانية ، وبراهينها المستمدة من الكون واستقامة حاله ، والتى يستدل عليها بالآثار القائمة وبما خلق الله سبحانه وتعالى •

وان العلم بمنشىء الكون هو الفطرة الانسانية التى لا تضل الا بما يسيطر على العقل من أهواء وبما يقف دون الادراك السليم من أوهام ، وبما يحيط بالعقل من غيم يمنعه من الفهم السليم ، فالقرآن يزيل غيهب الضلال ، ويأخذ بالشارد الى حيث الأمن العقلى •

وان الفلاسفة يحاولون أن يدركوا المغيب عنهم من حقيقة المنشىء ، ومنهم من ضل فى سبيل ذلك ضلالا بعيدا ، ومنهم من قارب ، ومنهم من باعد ، ولا تجد فى كلام أولئك الفلاسفة ما يهدى للتى هى أقوم ، وما كان عجز الفلاسفة عن أن يدركوا الشىء الأول الا من سيطرة أوهام سبقت ، عكرت على الفطرة وضللت العقل ، ولنظريات ضالات قد سيطرت عليهم ، وهى نظرية الأسباب والمسببات ، وتوهموا أنها تنطبق على منشىء الوجود ، كما هى ثابتة فى العلة بين الموجودات ، يتوالد بعضها من بعض ، ويكون لكل شىء سبب ، وهو سبب لغيره ، وهكذا تتتابع الأسباب والمسببات ، كل سبب يتبع سببا ، وهو نتيجة سبب ، وتوهموا لهذا أن الأشياء نشأت عن منشىء الوجود نشوء المعلول عن علته ، والمسبب عن سببه ، وتسلسلوا فى الأسباب والمسببات حتى ضلوا ضلالا بعيدا ، وجاءت الأديان السماوية موجهة الأنظار الى أن الله تعالى خالق السموات والأرض على غير مثال سبق ، وهو المبدع وهو الفاعل المختار ، وهو القادر على كل شىء ، لا يخرج عن واسع علمه شىء ، ولا عن محيط قدرته خارج يفعل ما يشاء ويختار •

وقرر القرآن تلك الحقيقة التى هى هدف العقول ، وأخرجها من تيه الضلال الى الحق القويم .

وسيقت الأدلة الدالة على ذلك من الـكون وتنوعه ، وان المقرر عقـلا أن السبب يكون من جنس المسبب ، ويكون كهيئته لا يختلف عنها ، وان الاختلاف انما يكون لأمر آخر لا بمجـرد السببية ، فبين القرآن الـكريم تنوع الأشياء وتنوع الأحوال .. اقرأ قوله تعالى :

« ألم تر الى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه الينا قبضا يسـيرا ، وهو الذى جعل لـكم الليل لباسا ، والنوم سباتا ، وجعل النهار نشورا ، وهو الذى أرسـل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيى به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنـا أنعاما وأناسى كثيرا ، ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ، فأبى أكثر الناس الا كفورا » (١) وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا ، وحجراً محجوراً ، وهو الذى خلق من المـاء بشراً فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا » (٢) .

وإنك ترى من هذه الآيات الـكريمة ، بيان تنوع المخلوقات ، ولا شك أن هذا التنوع يتنافى مع كون الأشياء نشأت من المنشىء كما ينشأ المعلول من العلة ، لأن المعلوم يجب أن يكون مماثلا للعلة ، غير مختلف عنها ، وهنا نجد اختلاف الموجودات من انسان يتفكر ويتدبر ، وحيوان ينعق ، وطائر يطير ، ومن شمس وقمر يسيران بحسبان .

فكان التنوع الذى ذكره القرآن أبطالا لمـا يقرره الفلاسفة من نظرية العلة والمعلوم ، والسبب والمسبب .

ضاق بهم مسلكهم ، فلم يتصوروا غير ذاك ، ولو نظروا الى الكون ، ومايجرى فيه من أحوال ، لأدركوا بفطرتهم المستقيمة أن المنشىء واحد أحد ، ليس بوالد ولا

---

(١) الفرقان : ٤٥ — ٥٠ (٢) الفرقان : ٥٣ — ٥٤

ولد ، ولآمنوا بقوله تعالى : « بديع السموات والارض أنى يكون له ود ، ولم تكن له صاحبة » (١) واقرأ قوله تعالى فى التعريف بالذات الإلهية :

« ان الله فالق الحب والنوى يخـرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ذاكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب، والزيتون ، والرمان مشتبها وغير متشابه ، أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ » (٢) .

انظر الى تعريف الذات العلية بخلقها ، وما تنشئه فى هذا الوجود ، وان هذا يدل على الفاعل المختار دلالة قاطعة بتنوعه ، واختلاف مظاهره وتنوع حياته ، ألا نراه يسقى بماء واحد ، وغذاؤه واحد ومع ذلك تتنوع أنواعه ، وتختلف أجزاؤه مما يدل على أنه نشأ بغير العلية ، بل بارادة مختارة حكيمة تفعل ما تريد ، والله يخلق ما يشاء ويختار .

وان القارىء الحكيم يرى فيه قدرة الذات العلية ، وارادتها الخلق ، والعقل لا يقبل غير ما جاء فيه ، وما يسلكه الفلاسفة من أوهام بالنسبة للسببية يؤدى الى التسلسل الى مالا نهاية ، فاذا كان الموجود نشأ من موجود ، فمم نشأ الموجود

---

(١) الانعام : ١٠١ (٢) الانعام : ٩٥ — ١٠٤

السابق ، والسابق على السابق ، ويتأدى الى ما يستحيل العقل تصوره ، واذا كان هناك موجود تنتهى عنده السلسلة فلماذا يفرض أنه الاله ، ويفرض أنه وجدما بعده من ارادته ، لا بالعلية • واقرأ الآيات القرآنية فى اثبات الوحدانية فى الذات والصفات ، وفى الخلق والايجاد ، وما ينجم عنهما من وحدة المعبود بحق ، فانك واجد علما كثيرا يساير العقل ، ولا يعانده ، لأنه الفطرة المستقيمة التى لم تفسدها نظرية السببية فى المنشىء التى أخذوها من السببية فى الأمور العادية ، وفرق بين واجب الوجود الذى أنشأ الكون ودبره ، وهو القيوم القائم عليه الذى قدر كل شىء تقديرا ، وبين توالد الأحداث ، والموجودات ، وهى لا تكون بغير تقديره وتدبيره سبحانه وتعالى انه فعال لما يريد •

١٥٦ — وفى القرآن علم الرسالة الالهية ، والمعجزات التى اقترنت بها ، فهو يبين أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ، وخص العالم الانسانى بالرسل يرسلهم اليه ، ليسير الناس فى الصلاح بدل أن يسيروا فى الفساد ، وليكونوا فى مودة وسلام بدل أن يكونوا فى حرب وخصام ، وليصلوا ما أمر الله به أن يوصل ، لأن الله تعالى الذى خلق الانسان جعله إما شاكرا وإما كفورا ، فهيأ للشاكر أسباب شكره وجعل الكفور مسئولا عن فعله بعد انذار المنذر وتبشير المبشر ، كما قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١) • وكما قال تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » (٢) • فما كانت هذه الرسالات الإلهية الا لتهدى الناس الى خير الطرق ، ومن يكفر فانما يكون عن بينة لئلا يكون للناس على الله حجة •

والقرآن الكريم يبين أن الرسل يكونون من البشر ، ومن أقوامهم ليكونوا أكثر الفا ، وعندهم علم بهم ، كما قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » (٣) ، وقومه هم دعامته الأولى ، فهم الذين يكونون القوة الأولى لدعوته ويكون منهم الحواريون الذين يناصرونه ، ويرعونه حق رعايته •

وعندما طلب المشركون أن يكون الرسول ملكا ، رد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ،

---

(١) الاسراء : ١٥ (٢) فاطر : ٢٤ (٣) ابراهيم : ٤

ولو جلعناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » (١) •

وان الله تعالى صرح بأن ارساله للرسل لكى يقوم الناس بالحق ، والميزان فقد قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز » (٢) •

وفى هذا النص الكريم ، بين الله سبحانه وتعالى أن الرسل جاءوا بالكتاب من عنده سبحانه ليقوم الناس بالقسط ، ومن لم يقنعه الدليل، ولم يهتد بهداية الرحمن، وبمقتضى الفطرة المستقيمة ، والادراك السليم ، فان الحديد فيه بأس شديد يقمعه من الشر ، ويبعد عن الناس فساده ، وافساده .

والآيات تفيد أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يبعث الرسل ، ومعهم المعجزات الباهرات الخارقات للعادات التى تثبت أنهم جاءوا من عند الله تعالى ، وأنهم لم يفتروا على الله الكذب ، بل هم جاءوا برسالة ربهم ، ويتحدون الناس أن يأتوا بمثلها ، وهى خارقة لقانون الأسباب والمسببات ، وهى فوق اثباتها لقدرة الله تعالى الفعال لما يريد تثبت رسالة الرسول التى جرت على يديه •

١٥٧ — والقرآن الكريم فيه علم المعجزات بجوار العلم برسالة الله تعالى لخلقه، ففيه معجزة نوح عليه السلام ، وهى السفينة التى نجا فيها المؤمنون ، وأغرق الله تعالى بعدها الكافرين ، واقرأ قوله تعالى :

« وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا ، فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل ، وقال

---

(٢) الانعام : ٨ — ٩ (٢) الحديد : ٢٥

اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ، ان ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين • وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر • واستوت على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » (١) •

هذه بينة من بينات الله تعالى تدل على اصطفائه لنوح أبى الانسانية الثانى وتدل أيضا على أن الله تعالى فاعل مختار ، لا يتقيد بالأسباب والمسببات التى نعرفها ، بل هو القادر المريد المختار « ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون » •

وجاء هود عليه السلام الى عاد ، فقاوموا دعوته ، وناوءوا رسالته ، وقالوا مفترين عليه كما حكى القرآن الكريم عنهم : « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين • ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برى مما تشركون » (٢) •

وقد كانت الآية عقابا دمر الله عليهم بريح صرصر عاتية ، وقال الله تعالى فى هذه « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم ، قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم • تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين » (٣) •

وقال الله تعالى فى سورة الحاقة « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » (٤) •

وقد أرسل الله تعالى صالحاً الى ثمود ، وقال الله تعالى فيهم : « والى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب • قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه

---

(١) هود : ٣٦ — ٤٤
(٢) هود : ٥٣ — ٥٤
(٣) الأحقاف : ٢٤ — ٢٥
(٤) الحاقة : ٦

رحمة ، فمن ينصرني من الله ان عصيته ، فما تزيدونني غير تخسير • ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها ، فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب • فلما جاء أمرنا نجينا صالحا ، والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزي يومئذ ، ان ربك هو القوي العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود » (١) •

ونجد من هذه النصوص الكريمة أن معجزة صالح التي تحدى بها ، وكانت بها البينة على رسالته هي ناقة كان لها شرب ، ولكم منهم شرب معلوم ، وكان التحدي ليس بأن يأتوا بمثلها ، ولكن كان التحوى بالهلاك ان مسوها ، فعقروها ، فأنذرهم الرسول المتكلم عن ربه بأن العذاب نازل بهم بعد ثلاثة أيام ، وقد صدق الوعيد عليهـــا •

١٥٨ — ولننتقل الى المعجزة التي أجراها الله تعالى على يدى سيدنا لوط عليه السلام ، لقد بعثه الله تعالى الى قوم هبطوا في مفاسدهم الى ما لم يهبط اليـه الحيوان ، فأفسدوا الفطرة ، وجاءهم لوط بالطهر ، ليحملهم على العودة الى الفطرة المستقيمة التي فطر الله الناس عليها ، ولما لم تجـد معهم دعوة الاصلاح ، بـل استمروا في غيهم يعمهون ، أمر الله تعالى نبيه أن يسرى بأهله بقطع من الليل ، واستثنى امرأته من أهله فقد كانت على شركهم وان موعد العذاب النـازل بهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ، فلما جاء أمر الله تعالى جعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود •

وكان يعاصر لوط ابراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام ، ولذلك جاءت المـلائكة التي ذهبت الى قوم لوط ، وجعلت أرضهم عاليها سافلها ، جاءوا لابراهيم عليه السلام ، وظهر معهم أمر خارق للعادة ، وهو أن تحمل امرأته وهي عجوز ، ولنتل الآيات الكريمات التي أثبتت هذه الحقائق :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام فما لبث أن

---

(١) هود : ٦١ — ٦٨

جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط ، وامرأته قائمـة ، فضحكت ، فبشرناها باسحق ، ومن وراء اسحق يعقوب ، قالت ياويلتى أألد وأنا عجـوز وهذا بعلى شيخاً ، ان هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ، فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى ، يجادلنا فى قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب يا ابراهيم أعرض عن هذا ، انه قد جاء أمر ربك ، وانهم آتيهم عذاب غير مردود » (١) .

وترى أن خارقا للعادة كان فى أول لقاء بين ابراهيم خليل الله ، وبين ملائكته ، وهو أن تحمل امرأة عجوز قد انقطع حيضها من زوج عجوز .

وان الله أجري على يد خليله ابراهيم معجزات كثيرة ، منها مسألة الطـير اذ يقول الله تعالى فى ذلك :

« واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم (٢) » .

ومن أبرز ما أجرى الله على يديه من خوارق للعادات أنه ألقى فى النار ليحرق، فاطفأها واقرأ قوله تعالى « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ، اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لهـا عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وانا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم ، لعلهم اليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا ، انه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ، ان كانوا ينطقون ، فرجعوا الى أنفسهم ، فقالوا انكم أنتم الظالمون ، ثم نكسـوا على

---

(١) هود : ٦٩ — ٧٦ (٢) البقرة : ٢٦٠

رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه ، وانصروا آلهتكم ، ان كنتم فاعلين • قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ، وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الأخسرين » (١) •

وانك لترى أن خوارق العادات التى تنقض التزام الأسباب والسببات والمسببات التى تلزم البشر ، ولكن قدرة الله وارادته ، فوق ما عليه • وما يجرى من أسباب ومسببات بينهم •

وكذلك الأمر بالنسبة لشعيب الذى دعا الى مكارم الأخلاق ، وحسن المعاملات الانسانية ، اذ يقول كما حكى القرآن الكريم عنه : « قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير ، وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم ، ان كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، انك لأنت الحليم الرشيد ، قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً ، وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت ، واليه أنيب ، وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ، ثم توبوا اليه ، ان ربى رحيم ودود ، قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز • قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، ان ربى بما تعملون محيط ، ويا قوم اعملوا على مكانتكم ، انى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب ، وارتقبوا انى معكم رقيب ، ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم

---

(١) الانبياء : ٥١ — ٧٠

يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود » (١) .

ونرى من هذا أن الأمر الخارق للعادة كان صيحة عليهم .

وان الملاحظ أن الخوارق للعادة التى جاءت على يد الأنبياء الذين عاشوا فى البلاد العربية كانت حسية مناسبة للعرب ، وكانت من الناحية التى تناسب الصحراء والبادية ، فمعجزة هود كانت أحجاراً من سجيل منضود، وقد ظنوه عارضاً ممطرا ، ومعجزة صالح كانت ناقة غريبة بين أهل النوق فى البادية ، ومعجزة لوط كانت جعل الأرض عاليها سافلها ، ومعجزة شعيب كانت صيحة جعلتهم فى ديارهم جاثمين .

معجزات سيدنا موسى :

١٥٩ — قصصنا بعض القصص عن سيدنا موسى عليه السلام ، وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وكنا نذكر ذلك بصدد بيان أنه لا تكرار فى قصة موسى لمن تدبر ، وتفكر فى المغازى والمقاصد ، لافى ظواهر الألفاظ ، والآن نذكر فقط الخوارق للعادات التى جرت على يد موسى عليه السلام ، وهى تسع آيات كما جاء فى القرآن الكريم ، فقد قال تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى اسرائيل ، اذ جاءكم فقال له فرعون انى لأظنك ياموسى مسحورا » (٢) .

ولنذكر ان شاء الله تعالى تلك الآيات التى لم تجد مع فرعون وقومه الضالين.

أولها : العصا التى قال الله تعالى فيها « فألقى موسى عصاه ، فاذا هى تلقف ما يأفكون » (٣) . وقد نزل موسى ، يباهى بها السحرة من قوم فرعون « قالوا ياموسى اما أن تلقى ، واما أن نكون نحن الملقين ، قال ألقوا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ، وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين » (٤) .

الثانية : أنه يخرج يده من جيبه ، فاذا هى بيضاء من غير سوء ، كما قال تعالى: « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » (٥) . وكما قال تعالى : « ونزع

---

(١) هود : ٨٤ — ٩٥
(٢) الاسراء : ١٠١
(٣) الشعراء : ٤٥
(٤) الأعراف : ١١٥ — ١٢٠
(٥) النمل ٧ : ١٢

يده فاذا هي بيضاء للناظرين » (١) .

الثالثة : أن الله تعالى أخذ آل فرعون بالجدب ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، كما قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » (٢) .

الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة : ما ذكره الله تعالى بقوله : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » (٣) .

الآية التاسعة أنهم عندما نزل بهم الرجز الشديد طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم الرجز ، كما قال تعالى : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون » (٤) .

واذ لم تجد هذه المعجزات ، مع أنها قارنت حياتهم ، ومست معيشتهم حتى لم يكن لطالب حق أن يرتاب ، ولا لطالب الهداية أن يمترى . عندئذ كانت الضربة القاصمة لفرعون وملئه ، ولذلك قال تعالى : « فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين ، وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ، التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون » (٥) .

هذه اشارات الى معجزات سيدنا موسى ، وكل خارق للأسباب والمسببات مما يدل بذاته أولا — على أن الله تعالى فعال لما يريد ، خالق الأشياء بارادته وقدرته ، ولم تنشأ عنه كما ينشأ المعاول عن علته ، وتدل ثانيا على رسالة موسى عليه السلام وبعثه الى بنى اسرائيل ، وفرعون وقومه .

الخوارق التى جاءت على يد سليمان :

١٦٠ — كان سليمان حاكما ، ونبياً ، ولم يكن حاكماً طاغوتياً ، بل كان حاكما

(١) الاعراف : ١٠٨ (٢) الاعراف : ١٣٠ (٣) الاعراف : ١٣٣
(٤) الاعراف : ١٣٤ — ١٣٥ (٥) الاعراف : ١٣٦ — ١٣٧

ربانياً • أعطاه الله تعالى علم الحاكم العادل ذى السلطان غير المسيطر ، وأعطاه علما آخر ، أعطاه العلم بلغة الحيوان ، وسخر له الطير ، وسخر له الجن ، وأوتى علم لغة النمل والطير ، ولنتل ما جاء فى سورة النمل من خوارق كانت مع سليمان ، قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين « وورث سليمان داوود ، وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء ، ان هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير ، فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادى النمل ، قالت نملة ، يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ، وتفقد الطير ، فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون ، وما تعلنون ، الله لا اله الا هو رب العرش العظيم ، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابى هذا ، فألقه اليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت يأيها الملأ ، انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وائتونى مسلمين ، قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين • قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وانى مرسلة اليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ، فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا

آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وانى عليه لقوى أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر ، فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم ، قال نكروا لها عرشها ، ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين • وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، قال انه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب انى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (١) •

تلونا هذا الجزء من هذه السورة الكريمة ، وكلها أمور ليست مما يجرى فى عادات الناس ، ولنشر اليها اشارات نوجه فيها الأنظار الى ما اشتملت الآيات الكريمات فى بيان فوق طاقة البشر •

أولها — الأمر الذى لا يعرف ولم يعرف لغير سليمان ، وهو أنه علم منطق الطير والحيوان ، وهذا يدل على أن غير الانسان ، أمم أمثال الانسان لها منطق ولغة ، وان كنا لانعرفها ، وعرف نبى الله سليمان بعضها ، كما قال تعالى فى كتابه الكريم : « وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شىء » (٢) • فاذا كان سليمان قد علم منطق بعض الحيوان ، فهو مصداق لقول الله تعالى الخالق الفعال لما يريد •

وثانيها — تسخير الطير له ، فهذا الهدهد كان له من الادراك الربانى ، ماجعله يعرف الهدى من الضلال •

وثالثها — الاتيان بعرشها بين غمضة عين وانتباهتها ، أو كما عبر القرآن الكريم « آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » • وهذا من تسخير الله تعالى لسليمان ، ومن العلم الذى أعطاه الله بعض عباده المخلصين ، ونقول ان الآية صريحة فى أن الذى أتى هو عرشها حقيقة ، لا صورته ، كما يقول بعض المتشددين فى المادية ، ومع ذلك اذا

---

(١) النحل : ١٦ — ٤٤ (٢) الأنعام : ٣٨

كانت هى الصورة ، فان الخارق ثابت ، وهو أنه أتى به قبل أن يرتد اليه طرفه .

وفى قصة نبى الله سليمان عليه السلام خوارق أخرى غير ما جاء فى سورة النمل ، فقد جاء فى سورة سبأ ما نصه : « ولسليمان الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادى الشكور ، فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون مالبثوا فى العذاب المهين (١) » .

العبرة فى خوارق العادات لسليمان :

١٦١ — أطنبنا بعض الاطناب فى النقل من القرآن الكريم عن خوارق العادات فى عهد نبى الله سليمان عليه السلام ، وذلك لأن هذا العصر كانت فيه الفلسفة الأيونية مسيطرة فى آسيا الصغرى وتولدت عنها فلسفة اليونان . وكانت الفلسفة الأيونية قائمة على الأخذ بالأسباب والمسببات ، وتولد المعلول من العلة فى انتظام قائم لا تخلف ، فجاء سليمان عليه السلام ، وقام سلطانه كله على خرق للأسباب والمسببات والقيام على اثبات أن الكون كله بارادة مريد مختار ، لايفعل الا مايريد، ولا يصدر عنه شىء بغير ارادته الخالدة الثابتة — فقام سليمان بذلك ، وأجرى الله تعالى تلك الخوارق على يديه ، فأجرى الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر على يديه ، وعلم منطق الطير ، وسمع حديث النمل ، وجاءه عرش بلقيس بين يديه قبل أن يرتد اليه طرفه ، وسخر الله تعالى له الجن ، وكان كل شىء فى حكمه بخوارق العادات ، أو بخرق نظام الأسباب والمسببات العادية التى بنيت عليها نظرية أن المخلوقات نشأت عن الموجد الأول نشوء العلة عن معلولها ، فكانت حياة نبى الله تعالى سليمان فى ملكه تجرى على هدم هذا النظر ، وسخر الله له الريح تجرى بأمره حيث أصاب وكذلك كانت الخوارق للأسباب هى المسيطرة فى معجزات من جاء بعده من الرسل .

---

(١) سبأ : ١٢ — ١٤

معجزات عيسى عليه السلام :

١٦٢ — فى هذا العصر الأيونى كان مبعث عيسى عليه السلام ، ووجوده ، ولم يكن علم الطب رائجا عند بنى اسرائيل كما توهم عبارات بعض الكتاب فى العقائد من المسلمين ، بل كان بنو اسرائيل أجهل الناس بالطب كما يقـرر علمـاء تاريخ الفلسفة ، ومنهم رينان الفيلسوف المسيحى •

انما كانت معجزات عيسى لإبطال النظرية الأيونية التى تعتقد أن المخلوقات نشأت عن الموجد نشوء العلة عن معلوله •

وكانت ولادة عيسى ابطالا صارخا لهـذه النظرية ، فان المعتاد فى الحيـاة الحيوانية ومنها الحياة الانسانية أن الولد يولد من أبوين ، أب ملقح ببذرة الوجود ، وأم تتلقى فى رحمها تلك البذرة ، أو الجرثومة كما يعبر العلماء ، أو المنى الذى يمنى كما عبر القرآن •

فجاء عيسى من غير أب ، وكان ذلك خرقا للأسباب الطبيعية الجارية ، وكـان غريبا على مريم البتول •

واقرأ قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب مريم ، اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا ، قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا • وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحداً فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا ، فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال انى عبد الله

آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ، ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون • ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (١) •

هذه كلها خوارق تنبىء عن أن الله خلق الكون بارادة سرمدية ، وولادة عيسى نفسها أول خارق للعادة ، ولذا قال الشهرستانى ان وجود عيسى ذاته معجزة • وأكدت معجزة الايجاد من غير أب بمعجزات أخرى ، أو بخوارق عادات أخرى ، أولها الرطب الجنى من النخل بهزه ، ومناداته لها وهو فى المهد ، وحديثه فى المهد حديث الحكماء ، فكل هذه خوارق ، للأسباب والمسببات تدل على أن الايجاد والتصوير والتربية كلها بارادة الله العليم الحكيم خالق كل شىء ، ومنها الأسباب والمسببات ، تعالى الله علوا كبيرا •

ومعجزاته عليه السلام من هذا القبيل الذى هو تحد حسى للأسباب والمسببات، فقد قال تعالى بعد أن بعثه رسولا لله رحمة للعالمين : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص ، وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون ، وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم »(١) •

هذه دعوة عيسى عليه السلام ، وفيها البينات الدالة على رسالته ، بما هو خرق حسى واضح يرى بالعين ، وليس خفيا يدرك بالمعنى ، هو يبرىء الأكمه الذى ولد أعمى ، والأبرص الذى عجز الطب الى الآن عن إبرائه ، وهو فوق ذلك يحيى الموتى باذن الله بالفعل لا بمجرد الامكان كما ادعى بعض المفسرين ، وهو روحانى ينبئهم

---

(١) آل عمران : ٤٨ ــ ٥١

بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم •

وهل يسير كل هذا على قانون الأسباب والمسببات ، لكى نقول ما يقوله الفلاسفة يجب أن نلغى حكم العقول ، وبدهيات المدارك •

وقد ذكر سبحانه وتعالى معجزات أخرى فى آخر سورة المائدة، فقد قال تعالى:

« يوم يجمع الله الرسل ، فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا ، انك أنت علام الغيوب • اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك ، وعلى والدتك ، اذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل • واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً باذنى وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيل عنك ، اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم : ان هذا الا سحر مبين ، واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، اذ قال الحواريون : ياعيسى ابن مريم : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين • قال عيسى ابن مريم ، اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك ، وأرزقنا وأنت خير الرازقين • قال الله انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين » (١) •

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمات ذكرت بعض المعجزات السابقة ، وأضافت اليها معجزتين أخريين :

احداهما : أنه ينادى الموتى من القبور فتخرج • وذلك فى قوله تعالى « واذ تخرج الموتى » •

والثانية : أن الله تعالى أنزل عليهم مائدة من السماء •

١٦٣ ــ ونرى من هذا أن الخوارق للعادات كثرت على يد عيسى عليه السلام ،

---

(١) المائدة : ١٠٩ ــ ١١٥

وكان وجوده ذاته خارقا للعادة ، اذ ولد من غير أب كما بينا ، وكلها تدل على أن كل شىء فى الوجود هو بارادة مختار ، فعال لما يريد .

وما كان ذلك الا ابطالا لنظرية وجود الأشياء بالفلسفة التى سادت فى العصر الايونى ، ثم انتقلت الى اليونان . وأخذت تتسع حتى كانت الأفلاطونية الحديثة التى التقت مع النصرانية المحرفة غير المسيحية الاولى فى نظرية العلية فجعلت العقل الاول هو الاب ، والعقل الثانى هو الابن ، ثم كانت بعد ذلك الروح القدس المنبثقة من الاثنين أو أحدهما .

ووجود المسيح ، وحياته ، وما أجراه الله تعالى من خوارق للعادات ، كانت تحيط بكل تصرفاته ، وأعماله ، وكل ذلك كان حججا قاطعة مثبتة أن العالم كله مخلوق بارادة حكيم قادر قهار سميع بصير مريد مختار .

١٦٤ — وان قصة أهل الكهف التى أشرنا اليها فى بعض ما قلنا . وقد حدثت بعد المسيحية على ما يبدو من وقائعها كانت فيها ارادة الله ظاهرة فى بيان سر هذا الوجود ، وأن الفاعل له مريد مختار لا يتقيد فى ايجاده لخلقه بأن يكون وجود الأشياء مربوطا بالعلة والمعلول ، بل هو مربوط بارادة حكيم يفعل ما يشاء ويختار ولنتلها عليكم ، ولا مانع من تكرار تلاوتها ، ان كنا قد تلوناها هى من قبل .

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ، اذ آوى الفتية الى الكهف ، فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ، نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم ، اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذاً شططاً ، هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، واذ اعتزلتموهم ، وما يعبدون الا الله ، فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهىء لكم من أمركم مرفقا ، وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن

يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، وتحسبهم أيقاظاً ، وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعباً ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما ، فليأتكم برزق منه ، وليتلطف، ولا يشعرن بكم أحدا ، انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا اذا أبداً ، وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، اذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ، سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم الا قليل ، فلا تمار فيهم الا مــراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا ، ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا ، ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه أحدا (١) » .

وان المفسرين والمؤرخين للديانات يقررون أنهم مسيحيون مؤمنون بالمسيحية الحق التى جاء بها عيسى عليه السـلام . وأنهم فروا بدينهم من الرومان الذين أرهقوا المسيحيين الصادقين من أمرهم عسراً ، حتى كـان نيرون اللعين ، كـان يطليهم بالقار ، ويشعل فيهم النيران ، ويسيرهم فى موكبه ، وهو فخور مختـال بتلك المشاعل البشرية .

واذا كان القرآن الكريم ذكر أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين ، وازدادوا تسعاً ، فانه يكون ظهورهم ، فى وقت ظهور الأفلاطونية ، التى نسخت النصرانية ، والتى دخل فيها قسطنطين بعد أن ابتدأ بالسير بهـا فى طريق التثليث الأفلاطونى الذى بنى على أساس أن الـكون ظهر من الأول ظهور المعلول عن علته .

---

(١) الكهف : ٩ — ٢٦

فكانت واقعة أهل الكهف ، وظهورهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، وهى وقت الانحراف المسيحى فى الاعتقاد دليلا قوياً على بطلانه ، وعلى بطلان الأساس الذى قام عليه ، وهو مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى يقوم على أن الموجودات علة لمعلول ، وليست من خالق مريد قادر •

١٦٥ — أطنبنا بعض الاطناب فى ذكر الخوارق التى هى بعض ما جاء فى القرآن الكريم ، وذلك لأمرين : أولهما أن التوحيد الذى هو لب العقيدة الاسلامية ، بل هو اللب فى كل الأديان السماوية يقوم على أوصاف ثلاثة • وحدة الخالق فى انشائه الكون ، ووحدانيته فى ذاته ، فهو منزه عن المماثلة للحوادث ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، ووحدة المعبود ، وهو الله سبحانه وتعالى •

الثانى أن الله تعالى مريد مختار فعال لما يريد ، وأنه أنشأ كل ما فى الوجود بارادته وقدرته ولم ينشأ عنه نشوء المعلول عن علته •

الثالث ثبوت الرسالة الإلهية للمصطفين من خلقه ولا تثبت الرسالة إلا بأمره •

الأمر الثانى الذى من أجله أفضنا فى ذكر بعض الخوارق ، ولم نضن على القرطاس فيه أن بعض الذين يجعلون أمور الدين خاضعة للتجارب ويحسبون أنهم يخدمون القرآن ، يدعون أن رسالة محمد قامت على العقل ، ولم تقم على الخوارق ، وأن القرآن الذى هو حجة محمد الكبرى خاطب العقول ، ولم يخاطب بالخوارق ، وجرت عباراتهم بما يفيد أن الاسلام لا يعرف الخوارق ، الى درجة أن بعض علماء اللاهوت المسيحى سألنا هل القرآن يعارض الخوارق والمعجزات ، فأجبنا سؤلهم لابأن القرآن سجل معجزات الأنبياء ، وها نحن أولاء نبين بعض ما فى هذا السجل الاخالد •

البعث واليوم الآخر

١٦٦ — ان العالم يتنازع فيه الخير والشر ، والشر ربما يتغلب على الخير ، وفى الناس الأخيار والأشرار ، وقد يغلب أهل الشر على أهل الخير ، وعدل الله يوجب أن تكون العاقبة للأخيار ، وأن تكون للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، والله سبحانه جعل الخير والشر لحكمة أرادها ليبتلي الانسان اما شاكراً واما كفوراً ،

ولم يخلق الانسان عبثا ، ولم يجعله سدى بل انه مسئول عن فعله ان خيراً فخير، وان شراً فشر •

وان ذلك يقتضى ألا تكون هذه الحياة هى الحياة الدنيا وحدها ، بل لابد من حياة أخرى تكون للأخيار الذين لم ينتصر خيرهم فى هـذه الحيـاة ، ولا تكون للأشرار الذين غلبوا الأخيار ظلما واعتدوا وفتنوا الناس فى أمورهم •

ولذلك كانت الحياة الآخرة وبيانها من مقاصد الأديان السماوية ، فلا يوجد دين سماوى الا كان الايمان بالبعث والحساب ، والثواب والعقاب من أركان الايمان•

ولذلك جعل القرآن الكريم الايمان بالغيب أول أجزاء الايمان فقـد قال الله تعالى فى أوصاف المؤمنين : « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وممـا رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (١) •

وترى أن أول وصف للمؤمنين هو الايمان بالغيب فـلا تستولى عليهم مادة الحياة ، ولا يسيطر عليهم سلطانها ، فان غرق ما بين الايمان والزندقة الايمـان بالغيب ، فمن حسب أنه لا وجود الا للمادة المشاهدة المحسة ، فهو ليس بمؤمن وليس عنده استعداد للايمان الا من رحم ربك •

وقد ختم الله سبحانه وتعالى أوصاف المؤمنين بقوله تعالى « وبالآخـرة هم يوقنون » فأوجب الايمان بالآخرة وأكده بتقديم الجار والمجرور ، أى أن الآخرة وحدها هى الجديرة بالايمان ، وأنه لا ايمان الا باليقين الذى لا مجال للريب فيه، وان رقى الانسان فى أن تكون حياته غير مقصورة على الدنيا ، لأن التكليف شرف ، وهو يقتضى تحمل التبعات ولا سبيل لتحمل التبعات الا أن يكون ثمة يوم يجرى فيه الحساب والثواب والعقاب •

ولذلك وصف الله سبحانه وتعـالى الذين لا يؤمنون بلقاء الله تعـالى بأنهم الخاسرون « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة ، قالوا

---

(١) البقرة : ٣ — ٥ •

ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ، وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١) .

نعم خسر الذين لا يؤمنون بالآخرة ، خسروا انسانيتهم ، فقد حسبوها عبثا ليس لها غاية ، وخسروا العزاء اذ شقوا فيها ، فان الايمان بالآخرة عزاء روحى لمن يؤمن بها فيتحمل شقاء الدنيا لينال نعيم الآخرة ، وأنهم لم يترقبوا اللقاء ، فلم يستعدوا بالعمل الصالح .

وقد قرر الله سبحانه وتعالى أن الانسان يكون مخلوقا سدى كالهمل ان لم يكن هناك يوم آخر ، حيث قال « أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » (٢) .

١٦٧ — ولذلك عنى القرآن الكريم باثبات حقيقة البعث ، وبيان الحال فى الحياة الآخرة وكان خطاب القرآن لقوم لا يؤمنون بالبعث ، ولا يدركون الا الحياة الدنيا ، ويقولون ان هى الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين .

وان عقيدة البعث لب الايمان ، وغاية من غايات الرسائل الالهية ، ولذلك تجد القرآن يحتفى ببيان حقيقة البعث ، وتنبيه العقول اليه ، وما من موضع فى القرآن الكريم ، الا ذكر فيه البعث وقيام الدليل عليه ، بقياس قدرة الله تعالى على الاعادة على قدرته على الابتداء ، وأن البعث تكون الحياة الدنيا من غيره عبثاً لا جدوى فيها كما قال تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم الينا لا ترجعون » (٣) .

واننقبس قبسة من الآيات الكريمة التى تدعو الى الايمان بالبعث ، وتبين أن المشركين فى ضلال اقرأ قوله تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٤) .

---

(١) الأنعام : ٣١ — ٣٢ (٢) القيامة : ٣٦ — ٤٠ (٣) المؤمنون : ١١٥ (٤) الرعد : ٥

انهم يعجبون من أنهم بعد أن يصيروا تراباً يخلقون خلقاً جديداً ، بل انهم يعجبون من أن تدخل أجسامهم بعد البلى فى أجسام أخرى ثم تبعث ، فيبين سبحانه وتعالى قدرته على ذلك ، فيقول تبارك وتعالى :

« قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون اليك رءوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا » (١) .

ولقد يقولون مستغربين « من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ، انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون » (٢) .

وترى من هذا أن الذين ينكرون البعث ينكرون مع ذلك قدرة الله تعالى ، بل ينكرون أصل الرسالة الالهية الى خلقه ، اقرأ قوله تعالى فى سورة ق « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج » (٣) . ويقول سبحانه : « أفعيينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من خلق جديد » (٤) .

وهكذا نرى المتتبع لآيات القرآن يجد مجادلة فى أمر البعث ، فانكار البعث مقترن بالكفر ، ومقترن بانكار الرسل ، والقرآن يرد على المنكرين انكارهم بمنطق العقل والحق ، فان الله خالق السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى يملك الرزق فى السماء والأرض ، وهو الذى أنشأ الحياة والأحياء ، وبقياس الغائب على الشاهد يثبت بلا ريب أن القادر على الانشاء قادر على الاعادة ، وأن من أفن الادراك ،

---

(١) الاسراء : ٥٠ — ٥٢
(٢) يس : ٧٨ — ٨٣
(٣) ق : ١ — ٥
(٤) ق : ١٥

وفساد التفكير أن يحسبوا أن ثمة عائقاً يعوق المنشىء الأول عن الاعادة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً •

يوم القيامة

١٦٨ — هو اليوم الذى يضطرب فيه الكون ، والشمس تكور ، والنجوم تنكدر، والجبال تسير والعشار تتعطل ، ولقد وصفه الله سبحانه وتعالى : « اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت واذا الجبال سيرت ، واذا العشار عطلت ، واذا الوحوش حشرت ، واذا البحار سجرت ، واذا النفوس زوجت ، واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ، واذا الصحف نشرت ، واذا السماء كشطت ، واذا الجحيم سعرت ، واذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت » (١) •

وان يوم القيامة يقترن بخروج من فى القبور والبعث ، كما قال تعالى : « اذا السماء انفطرت ، واذا الكواكب انتثرت ، واذا البحار فجرت ، واذ االقبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك ، فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ، كلا بل تكذبون بالدين ، وان عليكم لحافظين كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » (٢) •

وان الله سبحانه وتعالى يسمى يوم القيامة الساعة ، لأنه ساعة الهول الأكبر، وقد قال تعالى فى وصفه :

« يأيها الناس اتقوا ربكم ، ان زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد » (٣) •

وكما سماها الله تعالى الساعة سماها أيضا الحاقة ، والقارعة ، فقال تعالى : « الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة » (٤) • ويقول سبحانه فى وصف الكون ، وقت هذه القارعة : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ،

(١) التكوير : ١ — ١٤
(٢) الانفطار : ١ — ١٢
(٢) الحج : ١ — ٣
(٤) الحاقة : ١ — ٤

وحملت الأرض والجبال ، فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء ، فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانيـــة » (١) .

وقال تعالى فى وصفها بالقارعة : « القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكن الجبال كالعهن المنفوش » (٢) .

وعلم الساعة خفى عن الناس ، وعن الأنبياء والمرسلين ، فهى من علم الغيب الذى استأثر به علم الله تعـــالى ، حتى يســير الناس فى أعمالهم ، وبارادتهم ، ويتحملون تبعة الأعمال ، وقد قال تعالى « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها الا هـــو ، ثقلت فى السموات والأرض لاتأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل انما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ، الا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخــير ، وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشــير لقوم يؤمنون » (٣) .

ولقد قال الله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، ان وعد الله حق ، فلا تغركم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تـــدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » (٤) .

الميزان والحساب

١٦ ـــ اذا كان يوم القيامة هو اليوم الذى يبعثر فيه ما فى القبور ، وقد حدثنا القرآن الكريم فى علمه عن ذلك بتفصيل واضح تطمئن اليه العقول والقلوب ، فانه بعد قيام القيامة يكون الحساب على ما قدم المرء من أعمال الخـــير ، ويحاسب الأشرار على ماقدموا من شر ، ولذلك نجد النصوص القرآنية تقـــرر الحســـاب

(١) الحاقة : ١٣ — ١٧ (٢) القارعة : ١ — ١٥ (٣) الأعراف : ١٨٧ — ١٨٨

(٤) لقمان : ٣٣ — ٣٤

والميزان ، وان الناس منتهون من بعد الحساب اما الى الجنة واما الى السعير ، اقرأ من سورة الواقعة قوله تعالى :

« اذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، اذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ، وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين، على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين .. الخ » (١) .

وانه يجىء كل انسان ومعه كتابه فيه حسناته وفيه سيئاته قال تعالى :

« وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٢) ويقول سبحانه وتعالى :

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ، يوم ندعو كل اناس بامامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه ، فأولئك يقرءون كتابهم ، ولا يظلمون فتيلا ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » (٣) .

ويقول سبحانه بعد وصف يوم القيامة فى سورة الحاقة « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ، انى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » (٤) .

---

(١) الواقعة : ١ — ١٦
(٢) الاسراء : ١٣ — ١٥
(٣) الاسراء : ٧٠ — ٧٢
(٤) الحاقة : ١٨ — ٢٩

ويقول سبحانه فى سورة القارعة بعد ذكر يوم القيامة وهوله « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ماهيه نار حاميــــة » (١) .

الجنة والنـار

١٧٠ ــ فصل القرآن الكريم أحوال أهل الجنة ، وما فيهـــا من نعيم مقيم ، وأحوال النار ، وما فيها من عذاب أليم ، وبين ما يجزى الله تعالى به عبادة المتقين، وما يعاقب به الذين استحوذ عليهم الشيطان .

ولنضرب لذلك أمثلة مما ذكره من أحوال الجنة ونعيمها ، فقد قال تعالى :

« مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم » (٢) .

ويقول سبحانه فى وصف أهل الجنة . وهم فيها « والسابقون السابقون أولئك المقربون ، فى جنـــات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخــرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق، وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ، الا قيلا سلاما سلاما ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، انا أنشأناهن انشاء ، فجعلناهن أبكاراً، عربا أتراباً ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين » (٣) .

وقال تعالى فى وصف الجنة ووصف النار : « هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنيـــة ، ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسعيها

---

(١) الاسراء : ٧٠ — ٧٢

(٢) محمد : ١٥

(٣) الواقعة : ١٠ — ٤٠

راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت ، فذكر انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، الا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الاكبر ، ان الينا ايابهم ، ثم ان علينا حسابهم (١) » .

ويقول سبحانه فى وصف الجنة : « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين فيها على فرش بطائنها من استبرق، وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاى ربكما تكذبان، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكمـا تكذبان ، هل جـزاء الاحسان الا الاحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان، مدهامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذى الجـلال والاكرام » (٢) .

١٧١ ــ وقد ذكر القرآن أوصاف النـار التى هى جـزاء الكافرين ، الذين استكبروا عن أن يؤمنوا بربهم ، واتبعوا اغواء ابليس الرجيم ، ولنذكر بعض أمثلة من أوصاف الجحيم ، يقول الله تعالى :

« ان جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآبا ، لا بثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا ، الا حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، انهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شىء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا » (٣)

(١) الغاشية : ١ ــ ٢٦
(٢) الرحمن : ٤٦ ــ ٧٨
(٣) النبـأ : ٢١ ــ ٣٠

ويقول سبحانه فى جهنم أيضاً : « ويل للمطففين ، الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون • ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا ان كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به الا كل معتد أثيم ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين، كلا بل ران عى قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون · ثم انهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون » (١) •

ويقول سبحانه فى بعض ما يذوقه الكفار الضالون«وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، انهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الالون ، قل ان الأولين والآخرين ، لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ، ثم انكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، نشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، نحن خلقناكم فلولا تصدقون » (٢) •

ويقول سبحانه وتعالى فى جزاء اتباع ابليس وذكر ذلك فى أصل عصيان ابليس عندما طاب سبحانه وتعالى منه السجود ، فلم يسجد ، يقول سبحانه : « واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك اللعنة الى يوم الدين ، قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، الى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ، ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، الا من اتبعك من الغاوين ، وان جهنم لموعدهم

---

(١) المطففين : ١ ـ ١٧ (٢) الواقعة : ٤١ ـ ٥٧

أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » (١) •

وهكذا نرى وصف الجحيم مبثوثا فى القرآن ، لأنه جزاء وفاق على الشر ، ولأن جزاء الاحسان على الاحسان ، كما قال تعالى:«للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»(٢)

١٧٢ — وان القرآن الكريم قد جمع بين ضفتيه بيان العقيدة الاسلاميـة التى لا يسع مسلما أن ينكرها ، ومن أنكرها يقال له : « تب » • كما قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنـه •

وان العقيدة كلها قائمة على الايمان بوحدانية الله تعالى ، وعدله سبحانه وأنه الفاعل المختار ، وأنه المجازى بالاحسان احساناً ، ويعاقب من يخرج عن الجادة ، ويكون من المفسدين •

وبالبناء على عقيدة الوحدانية ، وأن الله تعالى فاعل مختار ، وأنه العادل كان بعث الرسل ، وكانت المعجزات الخارقات لما يعرفه الناس من الأسباب والمسببات، وكان العدل الالهى موجباً أن يكون ثمة بعث ، وحساب ، وعقاب ، وثواب ، وكل امرىء بما كسب رهين •

البعث والجنة والنار أمور حسية

١٧٣ — يحلو لبعض المتفلسفين من الكتـاب فى الماضى أو يقولوا ان البعث والجنة والنار ، والحساب والعقاب والثواب أمور روحية معنوية ، وليست أموراً حسية ، وذلك قد جاء من نقص ايمانهم بالغيب ، وباطل ما يقولون وما يعتقدون فاذا كان البعث معنوياً للأرواح ، فلماذا يعجب المشركون من أنهم بعد أن يكونوا تراباً يعودون ، فان عودة الأرواح لا يقتضى أن يكون ذلك الاستنكار ، اذ أن الأجساد التى صارت لاتعود • ولكان الرد عليهم سهلا ، بأن يقال لهم ان أجسامكم لاتعود ، بل أرواحكم هى التى تعود •

---

(١) الحجر : ٢٨ — ٤٤ (٢) يونس : ٢٦

واذا كان البعث ماديا بصريح القرآن الكريم ، فان الجـزاء يكون لأحيـاء بأرواحهم وأجسادهم ، والنتيجة المنطقية لهذا أن يكون نعيم أولئك الذين بعثوا من قبورهم ، نعيما لأجسادهم وأرواحهم ، ونعيم الأجساد مادى لا محالة ، ولذلك يجب الايمان بأن نعيم الجنـة وعذاب النار ماديان ، وليسا معنويان فقط ، لأن البعث حق ، ويجب التنبه الى أن حقائق اليوم الآخر سواء أكانت معنوية أم كانت مادية لا تتسع لها لغتنا ، وأى لغة من اللغات، لأنها أعلى من مستوى حياتنا ، ونحن نعبر على ما هو من معايشنا ، وفيما هو فى طاقتنا .

ولكن تعبير القرآن عن الآخرة وما فيها هو باللغة العربية ، وان كانت أعلى مما يستطيعه البشر .

ولذلك كانت تعابير العربية لتقريبها من مألوفنا ، ولكى نتسامى الى معـرفة ما ينتظر المتقين من نعيم مقيم ، وما ينتظر العصاة من عذاب مهين .

ولقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت » . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عبارات القرآن ، فيما يتعلق بالجنة والنار ، مجازية فى ألفاظها .

ولكن مع ايماننا بهذه الحقائق ، يجب أن نقرر أن ما ذكر من رمان ، وعسـل مصفى وخمر لذة للشاربين ، هى مما يجوز اطلاق هذه الأسماء عليه ، ولكنه نوع آخر . ليس من جنس الأنواع فى حياتنا هذه ، وان كان لها اسمها ، ولذا وصفت خمر الآخرة بأنهم لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، ولكن فيها لذة للشاربين .

هذه كلمات نقولها فى ختام بحثنا عن يوم القيامة ، وما يجرى من بعده من حساب وعقاب وثواب .

والقرآن الكريم روضة يانعة مستمرة فيها الحقـائق عن الغيب كله بمقـدار ماتدركه عقولنا ويقرب الى أفهامنا ، والحقائق كاملة فى غيب الله ، اللهم اكتبنا من الشاهدين .

علم الحلال والحرام

١٧٤ — علم الحلال والحرام فى الاسلام مصدره القرآن، وهو الشريعة العملية، والأحكام التكليفية وما من أمر شرع بالسنة الا كان مرجعه الى القرآن ، فهو كلى هذه الشريعة ، حتى لقد قال العلماء انه لا يوجد حكم شرعى الا كان له أصل فى القرآن ، والسنة النبوية الكريمة بينته ، أو شرحته ، ولقد طار بعض الملحدين بهذه الحقيقة • وزعموا أنه يمكن الاستغناء بالقرآن عن السنة وذلك هو الافتيات على الحقائق ، لأن السنة مبينة القرآن ، كما قال تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (١) • وكما قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » (٢) •

فاهمال السنة والاقتصار على الكتاب ضلال مبين ، أو تضليل أثيم ، انما هما يتعاونان فى بيان أحكام الشريعة ، والسنة تفصيل لما أجمل الكتاب ، وتوضيح لما عساه لا تدركه الأفهام •

أمر الله تعالى بالصلاة ، ولم يذكر أركانها ، ولا شكلها ، وترك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بيانها ، فبينها بالعمل ، وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وتضافرت بذلك الأخبار عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصار العلم بالأركان والكيف من أصول الدين ، والعلم بها ضرورى ، من أنكره فقد أنكر شيئاً علم من الدين بالضرورة ، فهو كافر ، وكذلك الأمر فى الزكاة ، ذكرت مجملة وبينها النبى صلى الله عليه وسلم ، وطبقها وجمعها ، حتى أن من ينكرها يخرج عن الاسلام •

١٧٥ — وقد ذكر القرطبى أن من أوجه أعجاز القرآن علم الحلال والحرام فيه ، وقد وافقناه على ذلك تمام الموافقة ، وذلك لأن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع واقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة ، لم يسبق به فى شريعة من الشرائع الارضية ، واذا وزنا ما جاء

---

(١) النحل : ٤٤ (٢) النساء : ٦٥

فى القرآن بما جاءت به قوانين اليونان والرومان وما قام به الاصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء فى القرآن ، وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقى للأمور ، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية فى تجارب ثلاثمائة سنة وألف من وقت انشاء مدينة روما الى مابعد خمسمائة من الميلاد ، ومع أنه قانون تعهده علماء قيل انهم ممتازون منهم « سولون » الذى وضع قانون أثينا ، ومنهم ليكور غ » الذى وضع نظام اسبرطة .

فجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه القرآن الذى ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى ، من غير درس درسه ، وكان فى بلد أمى ليس فيه معهد ، ولا جامعة ، ولا مكان للتدارس وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الانسانى ، لم يسبقه سابق ، ولم يلحق به لاحق .

وقد كتبنا فى هذا بما فيه بيان للناس (١) . والآن نكتفى بالاشارة الى موضوعات الأحكام من غير إطناب تتميما لأجزاء الموضوع ، والتفصيل فى موضعه مما كتبنا .

العدالة

١٧٦ — كل النظم الاسلامية قامت على العدالة ، اذا كانت الشعارات تدعو الى التسامح ولو مع الظالم ، ويقول قائلها : استغفروا لأعدائكم ، فالاسلام يقول اعدلوا مع كل انسان ولو كان عدوا مبينا . ومكان التسامح فى الأمور الشخصية ، لا فى الأمور التى تتعلق بتنظيم العلاقات الانسانية . ولذا يقول الله سبحانه وتعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (٢) .

ولقد قال العلماء ان هذه الآية أجمع آية لمعانى الاسلام ، ويروى فى ذلك أنه عندما شاعت دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الارض العربية ، وتناقلتها الركبان ، أرسل حكيم العرب أكثم بن صيفى ولده ليسألوا محمدا صلى

---

(١) كتبنا فى ذلك رسالتين احداهما بعنوان شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله ، ورسالة الملكية بالخلافة فى الشريعة والقانون الرومانى ، وقد طبعهما مجلس الشئون الاسلامية وترجمهما

(٢) النحل : ٩٠

الله تعالى عليه وسلم عما يدعو فتلا عليهم هذه الآية : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » الآية . فرجعوا الى أبيهم وذكروا له ما سمعوا ، فقال الحكيم العربى : ان هذا ان لم يكن دينا فهو فى أخلاق الناس أمر حسن ، كونوا يا بنى فى هذا الأمر أولا ، ولا تكونوا آخرا .

والعدل ليس موالاة الاولياء ، وظلم الاعداء انما العدالة للجميع على سواء، والله تعالى يقول مخاطبا أهل الايمان « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (١) فالعدالة مع الاعداء المبغوضين كحاله مع الاولياء المحبوبين أقرب للتقوى .

ويقول سبحانه وتعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً ، فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » (٢) .

وان هذه الآية تدل على أمور ثلاثة : أولها أن العدالة فى ذاتها مطلوبة لأنها أقرب القربات الى الله تعالى، والعدالة فى كل شىء وفى كل عمل ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : « كونوا قوامين بالقسط » فى كل أعمالكم سواء أكنتم حكاما أم كنتم محكومين ، وأن تكونوا شهداء لله لا لأنفسكم ، ولا لأوليائكم والاقربين منكم .

الأمر الثانى الذى تدل عليه الآية ، أن الاعراض عن الحكم ظلم ، أو تمكين للظالمين ، فالسكوت عن رد الباطل ظلم ، والمؤمن يجب عليه أن يقوم بالحق ، وأن ينصر الحق ، وأن يؤيد الحق حيثما كان .

الأمر الثالث الذى تدل عليه دلالة صريحة أنه لا طبقية فى الاسلام بالغنى والفقر ، فلا يكرم الغنى لغناه ، ولا يذل الفقير لفقره ، بل الجميع أمام العدالة على سواء ، « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء » (٣) .

---

(١) المائدة : ٨ (٢) النساء : ١٣٥ (٣) النحل : ٧١

١٧٧ — ولا تفرقة بين العناصر فى تحقيق العدالة ، فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق على ألوان مختلفة ، ولكنهم جميعاً خلق الله تعالى ، وان اختلاف الألوان والألسنة من آيات الله تعالى الكبرى ، فهو يقول سبحانه فى كتابه العزيز الخالد بلفظه ، وحقائقه ، ومعانيه : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين » • والجميع عباد الله تعالى ، فلا يصح أن يظلم زنجى للونه ، ولا يحابى أبيض لشقرته ، ولقد صرح بذلك القرآن ، فقال تعالى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) •

وان هذا النص الكريم ينبىء عن ثلاثة معان سامية توجب المساواة بين الأجناس ، لأن الأصل واحد ، وهو الام ، والاب ، كما قال النبى عليه السلام « كلكم لآدم ، وآدم من تراب لافضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى » •

المعنى الثانى الذى دلت عليه الآية الكريمة أن الاختلاف فى الشعوب والقبائل والأجناس يوجب التعارف ، ولا يسوغ التخالف ، والتعارف يقتضى تعاون أبناء الأرض على استغلال كل ينابيع الثروة فى الأرض ، بحيث يفيض أهل كل اقليم على الآخر بفاضل ما عنده ، من غير بخس ولا شطط ، ومن غير من ولا أذى ، ويقتضى المساواة فى أصل الحقوق الانسانية الثابتة من اتحاد الأصل ، ويقتضى العدالة ، ولا يرهق جنس آخر بظلم ، أو أذى ، أو مضايقة ، أو استعباد •

والمعنى الثالث الذى يدل عليه النص الكريم ، أن الفضل لايكون بالجنس والعشيرة بل يكون التفاضل بالعمل الصالح الذى يتقى به صاحبه وجه الله تعالى ، والذى لا يريد به الا النفع العام ، ودفع الفساد فى الأرض ، فالاكرام ليس باللون ، ولا بالسامية أو الآرية ، انما الاكرام بالعمل لخدمة الانسانية ، وان النصوص القرآنية كلها تدعو الى التراحم بين الناس ، فالله تعالى يقول : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ،

---

(١) الحجرات : ١٣

واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » (١) •

ونص القرآن على الوحدة الانسانية ، فقال تعالى : « كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » (٢) •

العدالة الدولية

١٧٨ — والعدالة كما تكون بين الآحاد تكون بين الجماعات والدول فقد قامت العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس العدالة • فلا يظلمون شيئاً ، ولا يمنعون من خير ، والناس جميعاً نسبتهم الى الله واحدة لقد كانت الدول حتى التى بلغت شوطاً من الحضارة فى عهد نزول القرآن كالفرس والرومان واليونان لا تعترف بأى حق لغير المستوطنين معهم ، فغيرهم يعدون برابرة ، وليسوا منهم فى شيء حتى ان الاسرائيليين الذين يعيشون فى حكم الرومان لا يعتبرون رومانيين ، ولا يمنحون هذه الرعوية ، وتلك الجنسية ، باعتبار أن الجنسية الرومانية شرف لايحوزه الا الرومان ، وكذلك كان الفرس •

وان من يعيش فى بلد آخر يسرقونه ، حتى أن أفلاطون جرى عليه الرق ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل الاسلام قد ذهب الى أرض الروم فاسترقه قسيس رومانى ، وأظهر عمر الاستسلام ، حتى اطمأن اليه القسيس وخرج معه الى الصحراء فى أرض الشام ، فلوى عمر رقبته — وكان قوياً فى بدنه ، كما صار من بعد قوياً فى دينه — وقتله ، وهرب بحريته •

جاء القرآن الكريم فحارب التعصب القبلى ، والتعصب الجنسى ، والتعصب الاقليمى ، وجعل الناس كما رأيت أمة واحدة ، لا فرق بين عربى وغير عربى ، كما أشرنا •

وقامت بذلك العلاقة الدولية على أسس العدل ، قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » (٣) • وقال جل وعلا

(١) النساء : ١ (٢) البقرة : ٢١٣

(٣) البقرة : ٩٠

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (١) •

وقال تعالى : « وأن عاقبتم ، فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (٢) •

وقد نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن العصبية الجاهلية ، وبالأول كان النهى عن العصبية الاقليمية ، ولقد سئل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ، قال : لا ، وان من العصبية أن يعين قومه على الظلم •

وسيكون لذلك شىء من البيان عندما نتكلم عن العلاقات الدولية التى نظمها القرآن •

ومهما يكن من ايجاز فى هذا المقام ، فانه يجب أن نشير الى أن شرائع القرآن قسمان عبادات ومعاملات مالية واجتماعية ، وأساس العلاقات المالية والاجتماعية العدالة •

---

(١) البقرة : ١٩٣ (٢) النحل : ١٢٦

الأحكام الفقهية فى القرآن

١ — العبادات :

١٧ — قد ذكر القرآن الأوامر التكليفية فى العبادات بالاجمال ولم يتعرض لها بالتفصيل كما أشرنا من قبل ، فالصلاة ، تعرض النص القرآنى لها بالأوامر بالتكليف بها ، والغاية منها ، وهو اصلاح النفوس ، وتزكية القلوب ، وتربية الوجدان . كما قال تعالى : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر » (١) . وكما قال تعالى فى وجوبها ووجوب الوضوء والاغتسال : « اذا قمتم الى الصلاة ، فاغسلوا وجوهكم ، وأيديكم الى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين . وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا » (٢) .

وجاء الأمر المؤكد بالصلاة فى قوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » (٣) .

وكذلك كان الأمر بالزكاة مجملا ، ولم يبين القرآن شيئاً من أحكامها ، ونصابها ومقاديرها ، ولم تذكر الا مصارفها فى قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (٤) .

والحج من العبادات التى لم تبين أحكامها كلها تفصيلا ، بل ذكر القرآن بعضها ، وان لم يكن قليلا ، وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سائرها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم « خذوا عنى مناسككم » لقد بين القرآن أركان الحج وأشهره وموقفه ، وهديه ، والنبى عليه الصلاة والسلام فصل واجباته ، وكان بيانه أكثره عملى .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) المائدة : ٦
(٣) البقرة : ٢٣٨ (٤) التوبة : ٦٠

ومن العبادات الصوم ، وقد طالب القرآن به اجمالا ، وذكر وقته ، والأعذار التى تبيح الفطر فى الجملة ، وأشار سبحانه الى حكمة اختيار شهر رمضان لفرضية الصوم ، كما قال تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر ، فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » (١) .

وهنا يرد على الخاطر سؤال لماذا بينت العبادات بالقرآن اجمالا مع تأكيد طلبها ، والتفصيل فيها ان استثنيت الحج ، كان قليلا ، ولا يمكن أن تقام العبادة على وجهها مع ذلك الاجمال .

والجواب عن ذلك أن العبادات هى لب الدين ، وهى قوام اليقين ، وهى ذكر الله الذى به تطمئن القلوب ، وهى التى تربى الضمير وتنيره ، وتقيمه ، وهى التى تربى الضمير الجماعى ، والوجدان الانسانى ، وروح التعاون بين الناس بعضهم مع بعض .

والعبادات هى قوام الجماعات ، لأن تكوين الجماعات لا يكون الا بأمر معنوى يؤلف بينهم ويزيل النفرة ، وذلك بأن يكون المؤمن ربانيا يتجه الى رب الخلق ، ويسير على ميزان الحق .

ولهذه المعانى فى العبادات ، وعموم تطبيقها على كل المؤمنين ، كان لابد من تربية عملية عليها ، وقدوة حسنة فى تنفيذها ، وأسوة من الرسول فى القيام بها ، وأن تتوارث تلك الأسوة الأجيال ، وتكون مع القرآن اتصال الرسالة المحمدية ، ولذلك تثبت أحكام العبادات التفصيلية بسنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المتواترة التى عرفها المسلمون جمعاً عن جمع باقية الى يوم القيامة .

ولا شىء من العبادات يثبت بالقياس ، بل يثبت بايجاب القرآن ، وعمل الرسول عليه السلام .

---

(١) البقرة : ١٨٥

٢ — الكفارات :

١٨٠ — الكفارات ، وهى تأخذ جانبين: جانب العقوبة المادية على ذنب ارتكب، أو خطأ ترتب عليه أذى غيره ، وكان يجب الاحتراس من ذلك ، والجانب الثانى فيها معنى التقرب الى الله تعالى بالتوبة مقرونة بذلك الجـزاء ، ولقربهـا من العبادات ذكرناها بجوارها ، وفوق ذلك هى درءا لتقصيرات فى العبادات نفسها ، فهى فى هذه جزء منها .

وعلى ذلك نقسمها من هذه الجهة الى قسمين أحدهما تعويض عن التقصير فى بعض العبادات ، أو استعمال الرخص ، أو العجز الكامل عن أداء الفرض ، ومن هذا القبيل رخصة الافطار للمريض بمرض مزمن ، والشيخ الفانى والشيخة اذا عجزا عن الصيام أو كانا لا يصومان الا بمشقة فوق الطاقة ، وقد ثبتت هذه الفدية بالقرآن الـكريم ، قال تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » (١) أى الذين يبلغون فى صومهم أقصى الطاقة التى لا يمكن المداومة على تحملهـا ، ولذا قال ابن عباس انها نزلت فى الشيخ والشيخة اذا شق عليهما الصوم ، ومن الفدية التى تعد كفارة لبعض التقصيرات فى العبادات الهدى فى حال عدم القيـام ببعض الواجبات التى لا تعد ركنا من أركان الحج ، وقد ثبت ذلك بالقرآن الـكريم ، وعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن ذلك كفارة الصيد فى الحرم ، وقد ثبتت بالقرآن أيضاً ، اذ قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك ، فله عذاب أليم ، يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الـكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ، أحل لـكم صيد البحر ، وطعامه متاعا لـكم وللسارة ، وحرم عليكم صيد البر ، ما دمتم حرما ، واتقوا الله الذى اليه تحشرون » (٢) .

وهكذا ترى أن الكفارات هنا ثابتة بالقرآن الكريم ، وهى فى موضوع وهى سد لنقص ، أو لاعتداء فى عمل ما نهى الله تبارك وتعالى عنه .

---

(١) البقرة : ١٨٤ (٢) المائدة : ٩٤ — ٩٦

وبجوار هذا النوع من الكفارات التى كانت درءا لنقص أو لرخصة أو لعدم الاستجابة لأمر ، وموضوعها العبادة ، هناك كفارات أخرى هى فى معنى العبادات فى ذاتها ، ولكنها شرعت لمعنى خلقى أو اجتماعى أو لحقوق العبادات ، وهذا هو القسم الثانى •

ومن ذلك كفارة اليمين ، وهى عتق رقبة ، أو اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم وقد ثبت ذلك بقوله تعالى « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم » (١) •

وترى أن هذه الكفارة شرعت لمعنى خلقى ، وهو صيانة الألسنة عن كثرة الأيمان واخلافها ، والتعرض للمهانة ، كما قال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين » (٢) • وأيضا ، لكيلا يتخذ المؤمنون يمين الله حاجزا بينهم وبين فعل الخير ، ان حلفوا ، وبدا الخير فى غير ما حلفوا عليه ، فشرع لهم تلك الكفارة تحلة لأيمانهم ، كما قال عليه السلام : « من حلف على شىء فرأى خيراً منه ، فليحنث وليكفر » •

وان الكفارة ذاتها عبادة بدليل أنها كانت صوما فى بعض أحوالها •

ومن الكفارات التى ذكرت فى القرآن علاجا احياء الأسرة ، ولمنع الظلم عن المرأة كفارة الظهار ، وهى كفارة من يحرم امرأته على نفسه ، ويجعلها كأحد محارمه من غير ارادة طلاق ، وما كان لشريعة القرآن أن تترك المرأة المظلومة فريسة لكلمات ينطق بها اللسان ايذاء ، وظلما • ولا يترك المكلم بها من غير عقاب لغوا عابثاً ، بل لابد من رد الحق ، وعقاب العابث ، فكانت الكفارة ، وتثبت بقوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ،

---

(١) المائدة : ٨٩

ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » (١) .

ونرى أن هذه الكفارة فيها اقامة للحياة الزوجية على دعائم من المودة والأنس النفسى من غير ايحاش ولا اعنات ، لأن النطق بهذه الكلمات وأشباهها ، يلقى بالجفوة فى قلب الزوجة فلا تطمئن الى زوجها ، ولا الى الحياة الزوجية الكريمة المتوادة ، ولهذا كانت تلك الكفارة محافظة على هذه المعانى .

ومن الكفارات التى نص عليها القرآن الكريم كفارة القتل الخطأ ، فان الله أوجب الدية تعويضاً لأسرة المقتول وأوجب الكفارة اذا كان القاتل المخطىء من أهل التكليف ، وذلك لتعويض جماعة المؤمنين ، ولتربية النفس على الاحتراز من الخطأ ، والاحتياط له ، ولقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك :

« ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيماً » (٢) .

وواضح أن الدية لتعويض الأسرة ، وهى تجب على أسرة الجانى لأسرة المجنى عليه ، وفى وجوبها على أسرة الجانى معنى التعاون الاجتماعى بين الأسرة فى دفع الأذى ، والحمل على المعاونة فى التأديب النفسى .

والكفارة فيها تعويض لجماعة المؤمنين ، لأنه بقتله لمؤمن قد نقص عدد المؤمنين ، فكان الواجب أن يعوض ما نقص بعتق رقبة مؤمنة ، لأن العتق ، اعطاء الحرية ، والحرية كالحياة .

وفى الجملة ان الكفارات كلها التى جاء بها القرآن ، وبينتها السنة النبوية فيها معنى العبادة ، وفيها صلاح ، وفيها تعاون اجتماعى انسانى .

٣ — فى الأسرة :

١٨١ — قبل أن نتلو الآيات الكريمة التى تصدت لأحكام الأسرة وتنظيم

---

(١) القلم : ١٠ (٢) النساء : ٩٢

العلاقات بين آحادها ، أو نشير الى بعض تلك الآية الكريمة لابــد أن ننبه الى أمرين :

أولهما — ما ذكرناه آنفاً من أن العبادات قد ذكرت فى القرآن اجمالا وترك أمر بيانها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأشرنا الى ما أدركنا حكمته لعمل الله تعالى فى شرعه وبيان أحكامه •

الأمر الثانى — أن الأسرة ذكرت أحكامها تفصيلا من وقت تكوينها بعقــد الزواج الى أن يقرر الله تعالى التفريق بالموت ، أو الطلاق ، وذكر أحكام الأسرة الممتدة غير المقصورة على الزوجين . وما بينته السنة لا يعد كثيراً بالنسبة لما بينه القرآن الكريم •

ثم ذكر القرآن الكريم توزيع المال فى آحاد الأسرة ، وفى الميراث ، ويكــاد القرآن الكريم يستغرق كل أحكامه فى تفصيل لا اجمال فيه •

وهنا يسأل سائل ، لماذا كان التفصيل فى أحكام الأسرة ، ولم يترك أمرها لبيان النبى عليه السلام فقط ، ونقول فى الجــواب عن ذلك أن هذه حكمة علام الغيوب ، واننا نتلمس معرفة بعض هذه الحــكمة ، راجين ألا نكون داخلين فى النهى فى قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (١) •

وان هذا بلا ريب من عنــاية القرآن الكريم بالأسرة ، اذ جاء النــص على أحكامها بآيات محكمة ، واذا كانت عناية الاسلام بالعبادات ، جعلت أحكامهــا عملية يتولى النبى صلى الله تعالى عليــه وسلم ، لتربى النفوس عليهــا بالدربة والتهذيب ، لا بمجرد التلقين ، فعناية الاسلام بالأسرة كانت بالنص الكامل على نظامها ، لكيلا ينحرف الناس بأهوائهم عنها ، ولكيلا ينكروا تطبيقها ويجعــلوا لعقولهم سبيلا للتحكم فى أموالها ، ونظامها ، ولأنها متصلة بالرضا والغضب بين الزوجين والأقارب ، فكان لابد من ميزان مقرر ثابت يحــكم الأهواء ، ويضــع الأمور فى مواضعها •

---

(١) الاسراء : ٣٦ (١) النساء : ١٣

وان أحكام الأسرة مؤثرة فى المجتمع وموجهة له لأن الأسرة هى دعامة البناء الاجتماعى يضطرب باضطرابها ، ويقوى بقوتها ، ولأن الاسلام جاء لاقامة مجتمع فاضل تربطه المحبة ، وتوثق روابطه المودة ، كانت عنايته بأحكام الأسرة ، وأن تكون مستقرة يتصل فيها ماضى الأمة بحاضرها .

ومن الناس من ظنوا أنهم يستطيعون اقامة بناء صالح للأسرة من غير أن يتقيدوا بأحكام القرآن الكريم باسم ما يسمونه « تطور الزمان » يقلبون فيه الأوضاع ، فتضطرب الموازين ، ومن الناس من يبالغون فى اعطاء المرأة حقوقاً لاتقتضيها فطرتها ، ولا النظام الاجتماعى ، ويحسبون أنهم يسيرون بالجماعة الى الأمام ، وهم يرجعون بها الى الوراء ، حيث تفسد الطبائع وتخالف الفطرة .

ولقد يقول بعض علماء الاجتماع ان النشأة الأولى فى جاهلية الانسان كان فيها السلطان على الأولاد للمرأة كأنثى الحيوان ، أو أكثره ، حتى اذا عرف البيت، وانتظمت العلاقة بين الرجل والمرأة ، وكان لكل واحد منهما ، ماهيأته الفطرة له ، فالمرأة ترأم الأولاد ، وتقوم على رعايتهم ، والأب يكدح ويعمل ليوفر لهم الرزق .

والآن يحاولون أن يقلبوا الأمور ، ويضعوها فى غير مواضعها حتى لقد قال بعض المفكرين اننا لو سرنا خطوات بعد ما ابتدأنا السير فيه ، وأوغلنا ، فستعود الأمور الى سيطرة المرأة على البيت ، ويكون الرجل غير مستقر فى بيت ، ويكون نظام المسافدة .

من أجل هذا فيما ندرك وعلى قدر ادراكنا نص القرآن الكريم على أحكام الأسرة بالتفصيل ، حتى لا يتهجم المنحرفون ليشرعوا لأنفسهم مالم يشرع الله ، ويفسدوا الفطرة .

ولقد كان سبحانه وتعالى بعد ذكر بعض أحكامها يقول جل شأنه : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار » (١) . ومن

---

(١) النساء : ١٣

ذلك قوله تعالى بعد بيان المواريث : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم » (١) .

١٨٢ — وأحكام الأسرة التى تعرض لها القرآن الكريم تبتدىء من وقت انشاء الزواج أو التفكير فيه ، فأوجب الاعلان فى الزواج ، فقال تعالى « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ، ولكن لاتواعدوهن سراً الا أن تقولوا قولا معروفاً ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ، واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم » (٢) .

وبين سبحانه وتعالى فى كتابه أن المهر واجب على الرجل ، لأن كل الواجبات المالية على الرجل ، حتى لا تبتذل المرأة فى كسب المال فتتدلى الى الهاوية ، وقد قال تعالى فى ذلك : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شيء منه نفسا ، فكلوه هنيئاً مريئا »(٣) وقرر أن المرأة مستحقة للمهر كاملا بالدخول بها .وقد قال تعالى فى ذلك :

« وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض ، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » (٤) .

واذا لم يتم بينهما عشرة زوجية ، وكان تفرق قبل الدخول ، فان المرأة لاتحرم من المهر حرماناً كاملا ، بل يبقى لها نصفه ، ولأن الرجل لم تتم بينهما حياة زوجية يشتاران عسلها ، فانه يسقط عنه النصف وذلك ما قاله سبحانه فى القرآن الكريم ، اذ يقول : « لاجناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن ، أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح

---

(١) النساء : ١٧٦ (٢) البقرة : ٢٣٥
(٣) النساء : ٤٠ (٤) النساء : ٢٠ — ٢١

وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم ، ان الله بما تعملون بصير » (١) .

والقرآن الكريم بين من يحل الزواج منهن ، ومن لا يحل بالنص وبعض البيان كان مستغلقا على بعض الأفهام ، فبينه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اقرأ قوله تعالى :

« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ، انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فان لم تكونوا دخلتم بهن ، فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم، وأن تجمعوا بين الأختين الا ماقد سلف ، ان الله كان غفوراً رحيما ، والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم ، وأحل لكل ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، ان الله كان عليما حكيما ، ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ، فاذا أحصن ، فان أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وان تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم ، يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم » (٢) .

ولأن الإسلام يريد مجتمعا فاضلا طاهرا ، لا تشيع فيه الفاحشة ، أباح تعدد الزوجات الى أربع فقط ، وقد كان من قبله الى غير عدد محدود ، كما ذكرت التوراة .. فقال تعالى :

---

(١) البقرة : ٢٣٦ — ٢٣٧ (٢) النساء : ٢٢ — ٢٦

« وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » (١) .. أى لا تظلموا .

وشرط اباحة الزواج فى الأحوال كلها العدالة ، سواء أكان الزواج الأول أم الزواج الثانى ، ولقد أجمع الفقهاء عى أن من تأكد أنه سيظلم امرأته ان تزوج يكون آثما ، لأن الزواج حينئذ يكون موصلا للظلم فيأخذ حكمه ، ولكن الزواج لا يبطل ، وليس للحاكم أن يقرر بطلانه أو يمنعه ، لكن اذا وقع الظلم بالفعل كان للقاضى أن يفرق بينهما ان طلبت الزوجة ذلك . وذلك لمقام النهى فى قوله تعالى : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا » (٢) .

١٨٣ — والإسلام اذ جعل دعامة العلاقات الاجتماعية الأسرة ، فقد دعمها القرآن بوصاياه الحكيمة التى يأثم كل الإثم من خالفها ، وتجانف لإثم فى العلاقة الزوجية .

أولا : أمر الأزواج بالعدل وحسن المودة ، والعشرة الطيبة التى تقرب القلوب وتدنيها ، ولا تنفرها وتجنبها ، فقال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا (٣) » . وقال تعالى : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » (٤) . وقد تلونا ذلك آنفا .

وأمر سبحانه وتعالى ثانيا : كلا الزوجين أن يعمل على اصلاح الآخر ، ان بدا منه اعوجاج ، فيقول سبحانه فى القرآن العظيم : « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن ، وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء التى لا تؤتوهن ما كتب لهن ، وترغبون أن تنكحوهن ، والمستضعفين من الولدان ، وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما ، وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا ، فلا جناح عليها أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ،

---

(١) النساء : ٣
(٢) البقرة : ٢٣١
(٣) النساء : ١٩
(٤) البقرة : ٢٣١

وأحضرت الأنفس الشح ، وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين الناس ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما ، وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعا حكيما » •

وأمر ثالثا : بعلاج نشوز الزوجة ، وعلاج نشوزها ان لم يتمكنا من الاصلاح بينهما من غير اطلاع غيرهما عليهما الا ان يكون من اهل الخير أو الجيران الصالحين ، فقال تعالى :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان علياً كبيرا (١) •

وأمر سبحانه فى القرآن رابعاً : اخراج حكمين ان كان الشقاق متوقعا، ويخشى استمراره ، فقال تعالى :

« وان خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا (٢) •

والاسلام وزع واجبات الحياة الزوجية بين الزوج والزوجة توزيعا عادلا يتفق مع الفطرة من غير ظلم للمرأة ، ولا ارهاق ولا اذلال لها ، فجعلها قوامة على البيت تديره ، وتدبره ، وتربى ثمرة الزواج ، وعلى الرجل الانفاق ، ولقد قال تعالى فى ذلك « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وان كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن ، حتى يضعن حملهن ، فان أرضعن لكم ، فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وان تعاسرتم ، فترضع له أخرى، لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا » (٣) •

---

(١) النساء : ٣٤ (٢) النساء : ٣٥ (٣) الطلاق : ٦ — ٧

١٨٤ — ولقد تعرض القرآن لثمرات الزوجية ، وهى الأولاد ، وقد تعرض لبيان حالها ومدة الحمل ، والرضاع ، وحال الأم فى حال الحمل ، فقال تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملتـه أمه كرها ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى اذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك ، وانى من المسلمين » (١) . وان القرآن الكريم بين وقت ارضاعه وعلى من تجب ، وعلى نفقة الولد ، وعلى من تجب ، فيقول سبحانه .

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس الا وسعها ، لاتضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فان أراد فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما . وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير » (٢) .

ولقد عنى الاسلام بالمحافظة على الأولاد ، اذا فقدوا آباءهم ، وهم اليتامى ، وعنى منهما بأمرين .

أولهما : المحافظة على أموالهم ، فيقول تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن » (٣) ويقول سبحانه « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ، انه كان حوبا كبيرا (٤) ولحرص الاسلام على أموال اليتامى من أن تتبعثر أو أن تذهب ، نهى الأوصياء عن أن يعطوهم أموالهم قبل أن يدربوهم على ادارة أموالهم ، فقال تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها ، واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ، وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافا وبداراً أن يكبروا ومن كان غنيـا فليستعفف ، ومن كـان فقيراً فليأكل بالمعـروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم ،

---

(١) الاحقاف : ١٥ (٢) البقرة : ٢٣٣ (٣) الانعام : ١٥٢ (٤) النساء : ٢

فاشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا ، للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، مما قل منه ، أو كثر نصيبا مفروضا ، واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ، فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ، وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً ، ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (١) .

وهكذا نجد القرآن حث على المحافظة على أموال اليتامى ، ونظم طريق المحافظة عليها ، بعد أن تسلم اليهم .

الأمر الثانى الذى حث عليه القرآن الكريم بالنسبة لليتامى أنه منع قهرهم ، واذلال نفوسهم ، لكيلا تكون لهم عقد نفسية تحول بينهم وبين الاندماج فى الامة، ولذلك أمر الله نبيه بألا يقهر يتيما ، فقال تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر » (٢) .

وقد أمر المؤمنين الصادقين أن يضموا اليتامى الى أسرهم ، ويكونوا كأولادهم حتى لا يشعروا بذل اليتم ، فقد قال تعالى « ويسألونك عن اليتامى ، قل اصلاح لهم خير ، وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم » (٣) .

وعنى الاسلامى باليتامى لكيلا ينشئوا نافرين من الجماعة فيكون منهم المشردون ، وقطاع الطرق ، ويكونون حرباً على أمنها ، فيكونون ذئاب الجماعة ، وهم ان أحسنت تنشئهم يكونون قوة عاملة ، نافعة .

وكذلك الأمر فى كل مسكين أذلته الحاجة وقهره الفقر ، فانه يكون قوة ان أكرم وعاملا هداما ان قهر ومنع ، وهؤلاء هم العقبة ان لم يكرموا ولذلك قال تعالى : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » (١) .

---

(١) النساء : ٥ — ١٠ (٢) الضحى : ٩ (٣) البقرة : ٢٢٠ (١) البلد : ١١ — ١٧

وكما أوجب الاسلام رعاية اليتامى ، والقيام على شئون الأولاد ، وتربيتهم على المودة والرحمة والنزوع الاجتماعى أمر الاولاد باكرام الوالدين ، والاحسان اليهما ، ولو كانا كافرين ، ولذلك ترى ، أن الأمر بالاحسان الى الوالدين يقترن بالأمر بعبادة الله وحده ، ومن ذلك قوله تعالى : « واعبـدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا » •

ويذكر الله تعالى من وصايا لقمان لابنه : « واذ قال لقمان لابنـه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير ، وان جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ، ثم الى مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون » (٢)•

ولقد حرص القرآن على الوصية بالوالدين عندما يصيبهما الضعف ، ويكونان فى حاجة الى النظرة الرفيقة الطيبة ، فيقول سبحانه فى كتابه الكريم : وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ، وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما » (٣) •

وهكذا يربى القرآن الكريم الأسرة ، ويقيمها على دعائم من المودة ، والرحمة، ورعاية القوى للضعيف ورحمة الكبير بالصغير ، واكرام الصغير للكبير •

انهاء الحياة الزوجية غير الصالحة :

١٨٥ — تقوم الحياة الزوجية فى الاسلام على أساس المودة الواصلة والرحمة بين الزوجين ، وتنشئة الأولاد على نزوع الرحمة والتآلف ، والائتلاف بالمجتمع ، وقد أشار الله تعالى الى ذلك فى قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » (١) •

ووصف سبحانه وتعالى العلاقة بين الزوجين بقوله تعالى : « هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن » ، وأثبت أن التزاوج للانسال والرحمة بين الناس ، فقال تعالى

---

(٢) لقمان : ١٣ — ١٥ (٣) الاسراء : ٢٣ (١) الروم : ٢١

فيما تلونا من قبل : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » (٢) •

واذا كانت العلاقة الزوجية تقوم على المودة والتفاهم ، لا على المباغضة والتنافر ، فانه اذا تنافرت القلوب ، وأصبحت غير قابلة للالتئام ، فان بقاء هذه الحياة ليست فى صالح الأسرة ، ولا فى مصلحة المجتمع المتواد المتراحم ، ولقد عالج القرآن كما رأينا هذه الحال عندما تنشعب القلوب ، فاذا لم يجد علاج بينهما ولا علاج من ذويهما ، فان الانهاء أولى من الابقاء ، ولذلك قال تعالى فيما تلونا ، « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته » (٣) فعندئذ يكون الطلاق أمراً غير محظور •

ويلاحظ أنه عند الطلاق الذى يكون بيد الرجل عندما تحل البغضاء محل المودة أنه لابد من تحقيق أمور ثلاثة :

أولها — التسريح يكون باحسان من غير مشاحة ، ولا معاندة ، فقد تلونا قوله تعالى : « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا » (١) •

والاحسان يوجب أن يعمل على أن تكون نفسها طيبة بانفاق مال عليها ويكون متعة طلاق لها ، وقد أوجبها القرآن فى قوله تعالى : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (٢) •

ولقد أوجب الشافعى وأحمد بمقتضى هذه الآية المتعة لكل مطلقة مدخول بها • وذلك نص كتاب الله تعالى •

الأمر الثانى الذى أوجبه القرآن الكريم أن يكون الطلاق رجعياً ، بحيث يكون للمطلق الحق فى أن يرجع زوجه اليه قبل انتهاء عدتها ، وهى فى الغالب تقدر بنحو ثلاثة أشهر تقريبا ، وهى مقدار ثلاث حيضات ، وقد ثبتت الرجعة بقوله تعالى :

---

(٢) النساء : ١ (٣) النساء : ١٣٠ (١) البقرة : ٢٣١ (٢) البقرة : ٢٤١ — ٢٤٢

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ، ان أرادوا اصلاحا ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم ، الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » (١) .

وان هذه الآيات الكريمة صريحة فى أن الطلاق يكون رجعياً ، وأن الأجل للرجعة هو ثلاثة قروء أى ثلاث حيضات ولكن تحتسب الطلقة من ضمن ثلاث الطلقات التى يملكها ، وان الرجعة تثبت فى الطلاق الأول والثانى ، أما الثالث فلا رجعة فيه .

ولقد قال تعالى فى ثبوت الرجعة أيضاً : « يأيهـا النبى اذا طلقتم النسـاء ، فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعـل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، فـاذا بلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عـدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهـو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا » (١) .

وهذه الآيات تدل على ثلاثة أمور : أولها — أن الطلاق لا يكون الا رجعياً ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله تعالت كلماته : « لاتدرى لعـل الله يحدث بعد ذلك أمراً » وأن الطلاق حيث يمكن الرجوع من حدود الله التى لايجوز أن يتعداها المكلف .

وثانيها — أن الاشهاد على الرجعة واجب حتى تكون المرأة على علم بالرجعة ، وحتى تشتهر بين الناس اعادته الحياة الزوجية ، ولأن شرط صحة الزواج الشهادة، فيكون شرط اعادته الشهادة أيضاً .

وثالثها — أنها لا تخرج من بيت الزوجية ، ولا يخرجها منه .
وذلك هو الأمر الثالث الذى قررنا أن القرآن أوجبه .

---

(٣) البقرة : ٢٢٨ — ٢٢٩ (١) الطلاق : ١ — ٣.

الخلع :

١٨٦ — واضح من هذا أن الرجل اذا نفر من زوجته ولم يكن سبيل لازالة نفرته كان له أن يطلق فى الحدود التى بيناها . ومع الواجبات التى أوجبها القرآن، فاذا نفرت المرأة من عشرة الزوج ، فهل تبقى مع هـذه النفرة ، التى حـاول الزوجان ، وذووهما ازالتها ، فلم يستطيعوا ، هنا تجلت العـدالة التى قررها الله تعالى فى قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » (١) فكما أن الرجل له أن يوقع الطلاق اذا نفر من زوجته وتأكدت النفرة ، وشدد فى أن يكون الطـلاق رجعياً . لأنه عسى أن تكون النفرة لأمر عارض وقد زال ، فهو أحق بامرأته .

اذا كان الأمر كذلك فى الطلاق عند نفرة الرجل ، فانه يفرض أن هذه النفرة قد تكون منها وتكون العشرة مباغضة ، ومع المباغضة العنت ، لذلك شرع الخلع ، وكان الخلع بالاتفاق بينهما ، وقد يكون بحكم القاضى ان ترافعا اليه .

ولماذا كان الخلع فى حال نفرة المرأة ؟ الجواب عن ذلك أن الرجل ينفـق فى سبيل الزواج مالا ، وقد يكون كثيراً ، وذلك بحكم القرآن ، وقد يكون كل ما يملك ويستقبله زواج آخر يقيم به حياة زوجية ، بدل هذه الزوجية التى أبغضت فيها المرأة ، ولا يمكن العشرة مع بغضها ، فكان لابد من أن يأخذ ما أنفق أو بعضه .

وهذا هو الخلع ، وقد شرعه الله سبحانه وتعالى بقوله : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فان خفتم ألا يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله ، فأولئك هم الظالمون » (٢) .

الطلاق ثلاث مرات :

١٨٧ — شرع الله الطلاق ثلاث مرات سواء أكان بايقاع الزوج منفرداً ، أم كان باتفاقهما فى الخلع ، أو بحكم القاضى فاذا وقعت الطلقات الثلاث بثلاث مرات، فانها لا تحل له الا بعد أن تتزوج زوجاً غيره بزواج شرعى صحيح على نية البقاء،

---

(١) البقرة : ٢٢٨ (٢) البقرة : ٢٢٩

لا على نية التوقيت ، ثم طلقت من بعد لأمر عارض أو توفى عنها زوجها ، فان لهما أن يتزوجا من بعد ، ذلك ما بينه سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته ، وتسامت أحكامه « فان طلقها ، فلا تحل له من بعد ، حتى تنكح زوجاً غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (١) .

وكان تحريمها بعد الطلقة فى المرة الثالثة ، لأنها تدل بعد التجربة على أن الحياة لاتستقيم بينهما على ما هما عليه ، من أخلاق ، أو تنافر ، فكان لابـد من تجربة تكون شديدة عليهما ان كان ثمة محل للصـلاح ، أو احتمـال له . وكانت تلك التجربة أن تتزوج آخر . فان كانت الاساءة من جانبها كانت عشرة الآخر مهذبة لها أو مقررة لما كان منها ، وان كانت الاساءة من جانبه ، فانه يراها فى أحضان رجل آخر ، فيثير ذلك أسفه على ما كان منه .

فان انتهت التجربة ، وتلاقيا من بعد ، كان ذلك بعد تهذيب فى تجربة شديدة.

العدة :

١٨٨ — اذا تم الافتراق بين الزوجين سواء أكان المفرق هو الموت أم كـان المفرق هو الطلاق ، فانه لابد من عدة تنتظر المرأة فيها ، فلا تتزوج زوجاً آخر ، استبراء لرحمها من مظنة الحمل ، واحدادا على الزواج السابق وليتمكن الرجـل فيها من مراجعة نفسه اذا كان الطلاق رجعياً .

واذا كانت المرأة حاملا ، فالعدة تكون بوضع الحمل ، لقوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » (٢) سواء أكان الفراق بالطلاق أو الخلع ، أم كان بالموت ، ورأى ابن عباس وعلى رضى الله عنهما أن تكون العدة بوضع الحمل بشرط مرور أربعة أشهر وعشرة أيام ، اعمالا لآية العدة « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرة ، والآية السابقة .

---

(١) البقرة : ٢٣٠ (٢) الطلاق : ٤

وعدة المطلقات ثلاث حيضات، لما تلونا من قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » (١) والقروء هى الحيضات .

واذا كانت المطلقة قد بلغت سن اليأس ، وقد يئست من الحيض ، أو لم تر الحيض أصلا فعدتها تكون بثلاثة أشهر ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن » (٢) .

ولا بد قبل ترك الكلام فى العدة كما ورد منها فى نصوص القرآن الكريم لابد من التنبيه الى ثلاثة أمور : أولها : أن العدة بالنسبة للمطلقات انما تكون لمن دخل بها ، وذلك لقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ، ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها » (٣) . أما المتوفى عنها زوجها فانها تعتد عدة الوفاة ، ولو لم يدخل بها ، لأن النص الكريم « والـذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » لم يفرق بين مدخول بها وغير مدخول بها .

الثانى : أن المطلقة تبقى فى بيت الزوجية فى مدة العدة ، ولا تخـرج منـه ولا يجوز اخراجها ، وقد تلونا فى ذلك قوله تعالى : « لاتخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة » (٤) .

والمتوفى عنها زوجها صرح القرآن بأنها تبقى فى بيت الزوجية حولا لايجوز للورثة وأولياء الميت أن يخرجوها منه ، وذلك بصريح القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج ، فان خرجن ، فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم » (١) .

فهذا النص الكريم يدل على أن المتوفى عنها زوجها لها أن تبقى فى بيت الزوجية الذى مات به الزوج حولا على أن يكون ذلك متاعاً وحقاً ، فلا يجوز اخراجها ،

---

(١) البقرة : ٢٢٨ — (٢) الطلاق : ٤ — (٣) الاحزاب : ٤٩ — (٤) النساء : ١٩

(١) البقرة : ٢٤٠

لأنه يكون انتزاعا لحقها ، ولكن يجوز لها أن تخرج ، وان ذلك بلا ريب حفظ للمرأة من الضياع ، وصيانة لحرمة الزوج المتوفى .

الأمر الثالث : أن نفقة الزوجية تبقى فى العدة ، لقـوله تعالى : « وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن » والحمل لا يعرف الا بعد الولادة ، فيفرض وجوده فى كل معتدة من طلاق ، وخصوصاً أن قوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » (٢) هو علم للحامل والحائل على سواء .

تنبيهان :

١٨٩ — يلاحظ أن المرأة فى الزواج لها حقوق ، وعليها واجبات ، وأن الزواج لايفرض عليها من وليها ، بل لابد من اختيارها ورضاها فى أصل العقد وفى المهـر ، وقد نص على ذلك القرآن الكريم فى المهر ، فقال تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فمـا استمتعتم به منهن فآتـوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » (٣) .

ومنع القرآن الكريم بصريح اللفظ عضل المرأة بمنعها من الزواج ، أو تزويجها بمن لا تريد ، وقال تعالى : « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كـان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١) .

والتنبيه الثانى : أن المرأة تأخذ نصيبها كما يأخذ الرجل نصيبه من المال مـع التفاوت : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » (٢) .

وان هذا النص فوق دلالته على وجوب توفير ميراث النساء يدل على أن ذمة المرأة منفصلة عن ذمة الرجل ، سواء أكان زوجاً أم كان أباً أو أخاً أو قريباً بأى درجة من درجة القرابة .

الأسرة فى الاسلام ممتدة :

١٩٠ — هذا لفظ استعرناه ممن يكتبون فى علم الاجتماع فى هذه الأيام ، فهم

---

(٢) الطلاق : ٧ (٣) النساء : ٢٤ (١) البقرة : ٢٣٢ (٢) النساء : ٧

يقسمون الأسرة الى قسمين ، قاصرة وممتدة ، ويقصدون بالقاصرة الزوجين ، وأولادهما ، ويقصدون بالممتدة ما يشمل ذوى القربى جميعاً من أصول وفروع ، وحواش قريبة وبعيدة بحيث يشمل الأقربين وغيرهم .

وقد جاء الاسلام منظما العلاقة بين النوعين ، والقرآن فى محكم آياته تعرض لأحكام الزوجين والأولاد ولم يترك أحكام بقية ذوى القربى ، وقد حث بالنسبة لذوى القربى الذين يشملون الأسرة القاصرة أو الممتدة على مراعاة الرحم ، وذكر الواجبات اجمالا بالنسبة لصلة الارحام ، فأوجب مراعاة هذه الصلة التى أوجدتها الفطرة ، مهما تشعبت الفروع ، وتكاثرت ، فقال تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (١) وجعل سبحانه من أقرب القربات الى الله تعالى اعطاء ذوى القرابة بسبب القرابة فقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (٢) .

ونرى أنه سبحانه جعل من أول أبواب البر اعطاء ذوى القربى بسبب القرابة، لا لفقرهم ، ولا احاجتهم ولكن صلة لهم ، وابقاء لحبل المودة فى القربى أن يبقى.

والوصية بأولى القربى كثيرة فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : « وبالوالدين احساناً وذى القربى » (٣) ، وقوله تعالى فى قسمة الميراث : « واذا حضر القسمة أولو القربى ، واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولا معروفاً » (٤) ، وقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة فى القربى » (٥) فالمودة فى القربى أجر يعطيه العبد لربه . وهكذا نجد نصوص القرآن .

---

(١) الانفال : ٧٥ (٢) البقرة : ١٧٧ (٣) البقرة : ٨٣
(٤) النساء : ٨ (٥) الشورى : ٢٣

١٩١ — وقد ذكر القرآن الكريم حقوقاً وواجبات متبادلة فى القرابة ، نذكر منها ثلاثة :

أولها — أن الدية فى القتل الخطأ تجب على الأسرة ، وتعطى الأسرة ، فهى تجب على الأسرة بمعناها الممتد ، وقد قال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله ، الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » (١) .

وبهذا نجد وجوب التعاون بين الأسرة بمعناها الممتد ، فهى تتعاون فى غرم الجرائم تدفعه ، وفى تعويضها تأخذه ، ولذلك لا يجب الا اذا كانت الأسرة مؤمنة ، أو كان بينها وبين المسلمين ميثاق تجب بمقتضاه الديات ، ولا تسقط الا اذا كان من قوم عدو للمؤمنين ، فان الدية تكون اعانة لهم على الاعتداء .

ثانيها — أن الله أوجب للفقير العاجز عن الكسب نفقة على قريبه الغنى وقد ذكر القرآن ذلك فى قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوت بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت اخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ، ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ، فاذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » (٢) .

ونجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر فى القرآن الحكيم أنه لا اثم على من يأكل فى بيوت هؤلاء عند الاحتياج ونفى الاثم يشير الى أنه حق ، اذ أن تناول الحقوق لا اثم فيها .

---

(١) النساء : ٩٣ . (٢) النور : ٦١ .

وقد يقال إن ذلك لم يكن مقتصرا على القرابة ، بل ذكر الصديق ، فدل على أن الحق ليس سببه القرابة • ونقول ان ذلك الحق سببه العجــز ابتداء ، ولذلك ذكر فى أول الآية ذوى العجز عن الــكسب ، فكان الــكلام كله فى أهل العجز ، ولــكن الأخذ كان للقرابة ابتداء ، فان لم تكن له قرابة يلزمهـا الشرع ، كانت المودة التى توجبها الصداقة مبرراً للأكل ، وان كان لا يلزم الصديق بذلك قضــاء ، فانه يجب عليه دينا ، ويأثم فيما بينه وبين الله ، ان كان قادرا ، ومع ذلك يترك صــديقه يتضور جوعا •• ولذلك كانت المؤاخاة •

وفى ذلك إرشاد خلقى اجتماعى حكيم لواجبات الأصدقاء نحو أصدقائهم •

الحق الثالث حق الميراث :

ولذلك بعض التفصيل ، فقد ذكره القرآن مفصلا ••

الميراث :

١٩٢ — تولى القرآن الـكريم بيان الميراث بالتفصيل ، ولم يكن فى السنة النبوية تفصيل لمجمل فى القرآن ، ولـكن فيها تطبيق لأحكامه ، وتوضيح لمـا عساه يستغلق على بعض الأفهام ، أو لمـا يحاول به بعض الناس من انحراف عن أحكام القرآن ، وتأثر ببعض أحكام الجاهلية كحرمان النساء من الميراث •

والآن نتلو أكبر آية فى بيان المواريث ، وهى قوله تعالى :

« يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثــا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لــكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد ، وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أودين ، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لــكم نفعا ، فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما ، ولــكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد ، فان كان لهن ولد فلــكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أودين ، ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لــكم ولد ،

فاذا كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أودين ، غير مضار ، وصية من الله والله عليم حليم ، تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين » (١) •

فى هذه الآيات الكريمات بين الله تعالى ميراث الأولاد والأبوين والزوجين ، وميراث أولاد الأم ، فالكلالة هنا أولاد الأم ، كما ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وصلى تطبيقا لأحكام القرآن فى الميراث •

وهناك كلالة أخرى ، وهى كلالة الإخوة والأخوات الشقيقات أو لأب ، وقد بينها الله سبحانه وتعالى بقوله : «يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى الكلالة ، ان امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » (٢) •

ولا ننسى قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (٣) ، فانها كما تدل على المودة بين أولى القربى تدل على أولوية الميراث أيضا • ولذا اقترن بها قوله تعالى « كتاب الله » •

وبهذا نرى أن القرآن الكريم تولى الأحكام فى الملكية بالخلافة الإجبارية بعضه بالتفصيل وبعضه بالإجمال الذى يغنى عن التفصيل •

وقد كان عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تطبيق أحكام الكتاب •• ولنضرب لذلك مثلا ، أن عبد الله بن مسعود سئل عن بنت وأم وأخت شقيقة ، فجعل

---

(١) النساء : ١١ — ١٤ (٢) النساء ١٧٦ (٣) الانفال : ٧٥

الأخت الشقيقة قائمة مقام الأخ الشقيق تأخذ الباقى ، وقال ذلك قضاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وطبق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (١) ، فقرر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه بعد أن يستوفى أصحاب الفروض فروضهم ، ولم يكن أب أو ابن ، أن الميراث يكون لأقرب رجل ذكر ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « فان بقى بعض أصحاب الفروض فلأقرب رجل ذكر » . ولا شك أن ذلك الحديث النبوى تطبيق دقيق لقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » ، فالأولوية تقتضى أن يكون الأقرب أحق بالميراث ، أو بما يبقى منه .

وقد ثبت بالسنة أن المتوفى اذا ترك بنتا وبنت ابن مات أبوها ، فان البنت يكون لها النصف ، ولبنت الإبن السدس تكملة للثلثين اللذين يكونان للبنات ، فاذا أخذت البنت الواحدة النصف ، فانه لا يذهب باقى الثلثين ، بل يكون لبنت الإبن لأنها بنت للمتوفى مجازا ، وذلك تطبيق للنص القرآنى .

وقد ثبت أيضا أنه اذا كان المتوفى أم ، وأخت شقيقة ، استحقت النصف فقط ، وهناك أخت لأب فانها تأخذ السدس تكملة للثلثين ، حتى لا يذهب ما فوق النصف ، وذلك بتطبيق رسول الله لقول الله تعالى ، « فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك » .

وبهذا يتبين أن القرآن تولى أحكام الميراث بالتفصيل فى أصحاب الفروض ، والعصبة فى الأولاد والآباء ، وبالإجمال فى باقى الأحكام ، والسنة النبوية طبقت القرآن ، وكانت بيانا للناس .

ما يلاحظ على توزيع القرآن العادل :

١٩٣ — يلاحظ على ذلك التوزيع العادل الذى تولاه القرآن ما يأتى :

أولا : أنه جعل للنساء ميراثا . ولم يكن العرب فى الجاهلية يعطون للنساء ميراثا ، وانه فى سبيل تكريم الأمومة وقرابتها ، جعل لأولاد الأم ميراثا لايقل عن

(١) الانفال : ٧٥

السدس ، ولا يزيد على الثلث ، وجعلهم يستحقونه بوصف أنهم كلالة ، أى لا يوجد ميراث بأصول وفروع ، ومع ذلك جعلهم يرثون مع وجود الأم •

ثانيا : أن يكون الميراث للأقرب فالأقرب ، لان العبرة فى استحقاق الميراث أن يكون لمن بعد وجودهم امتدادا لحياة المتوفى فى الوجود ، ولذلك كان أكبر الأسرة حظا فى الميراث الأولاد ، وأولادهم الذين ينتسبون اليه •

ومع أنهم أكثر الأسرة حظا فى الميراث لا ينفردون به ، بل يشاركهم فيه الأبوان والزوجان ، وانهم ليشاركونهم بمقدار قد يصل الى النصف أو الى قريب منه •

وان مشاركة غيرهم هو لمنع تركيز المال فى ورثة بأعيانهم ، فالأبوان اذ يأخذان مع الأولاد الثلث يكون من بعدهما لأولادهما ، وهم غالبا اخوة المتوفى ، فيكون الاشتراك فى المال بدل الانفراد ، واذا لم يكن أب فقد يأخذ اخوة مع الأولاد ان كانوا اناثا •• وبذلك يتبين أن كون الميراث للأقرب لا يمكنه من الاستئثار بالتركة وحده •

والثالث : مما يلاحظ فى الميراث مقدار الحاجة ، فكلما كانت الحاجة أشد كان قدر الميراث أكبر • ولعل ذلك هو السر فى أن نصيب الأولاد كان أكبر من نصيب الأبوين ، مع أنه من المقرر شرعا أن للأبوين فى مال أولادهما نوع ملك ، كما ورد فى الحديث « أنت ومالك لأبيك » • ولكن حاجة الأولاد الى المال أشد لأنهم فى غالب الأحوال ذرية ضعاف يستقبلون الحياة ، ولها تكليفاتها المالية ، والأبوان يستدبران الحياة ولهم فضل من المال ، فحاجتهما الى المال ليست كحاجة الذرية الضعاف ، وفوق ذلك ما يرثانه يكون لأولادهما ، ولا يكون منه لهذه الذرية الضعاف •

وان ملاحظة الأكثر احتياجا هى التى جعلت نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى ، وذلك لأن التكليفات المالية على الذكور ، وتكليفات الرجل المالية أكثر من تكليفات المرأة ، فهو المطالب بنفقة المرأة نفسها ، وهو المطالب بنفقة الأولاد واصلاح حالهم ، وهو الذى يمد الأسرة بكل حاجاتها •• وان الفطرة الإنسانية

هى التى جعلت المرأة قوامة على البيت ، والرجل كادحا عاملا لتوفير القوت ، فكانت قاعدة أن العطاء فى الميراث على قدر الحاجة موجبة لجعل حق الرجل أكبر من حظ المرأة ، فالأخ يحتاج الى المـــال أكثر من أخته .. وان ملاحظة الحاجة هى العدل والمساواة عند تفاوت الحاجة هى الظلم ، فأولئـــك الذين يطالبون بمساواة المرأة فى الميراث مع الرجل لا يطلبون المساواة العادلة .

والرابع : أن الشارع الإسلامى ، كما لاحظنا فى ميراث الأولاد ، اتجه الى التوزيع بين الأقارب بدل التجميع ، فهو لم يجعل وارثا يستبد بالتركة كلها ، لم يجعل الميراث للولد البكر ، دون غيره ، ولم يجعل التركة كلها للأولاد دون الآباء ، ولم يجعل يد المورث مطلقة يختص بتركته من يشاء ، ويحرم من يشاء ، بل جعل نظام الميراث اجباريا فى ثلثى التركة ، ووزع الثلثين من التركة بين عدد من الورثة ، والصورة التى يختص بالتركة فيهـــا واحد فقط نادرة ، وهى تكون حيث يقـــل الأقارب ، وفى هذه الحال تكون ثمة وصية للأقارب غير الوارثين ، على ما سنبين فى الوصية ان شاء الله تعالى .

واذا انتقل الميراث الى الحواشى كالإخوة والأخوات ، والأعمام ، يوزع بينهم من غير أن يستبد بعضهم بالميراث كله ، بل من غير أن تستبد قرابة دون قرابة ، فاذا كان هناك أشقاء وإخوة لأم كان الميراث للجميع ، ويكون للإخوة الثلث .

وهكذا نجد الميراث فى القرآن ، وفى بيان السنة للقرآن وتطبيقه ، نجد الميراث يتوزع ولا يتجمع ، وان التجمع فى وارث واحد يكون فيه بلا ريب ظلم للباقين ، ولا يكون المـــال دولة بين ناس من الأسرة ، والآخرون محرومون محدودون ، بل لا يكون المـــال فى الأمة كلها دولة بين الأغنياء ، والحرمان للباقين .

١٩٤ — أن من المقررت الشرعية أن الميراث يدخل ملـــكية الوارث فى الثلثين جبرا عنه ، وبغير ارادة المورث ، بل بارادة الله سبحانه وتعالى ، ويسمى التوريث الخلافة الإجبارية ، وهى تكون فى ثلثى التركة ، ويقولون أيضـــا ان الثلث يكون للوصية ، وقد فرض القرآن الوصية ، بل ان صيغته فى التحـــريض كانت صيغة ايجاب ، فقد قال تعالى : « كتب عليـــكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا

الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المقتين ، فمن بدله من بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ، ان الله سميع عليم ، فمن خاف من موص جنفـا أو اثما فأصلح بينهم فلا اثم عليه ، ان الله غفور رحيم » (١) •

وان هذا النص يستفاد منه جواز الوصية ، بل وجوبها عندما تكون فى موضع بر بأن تكون فى الأقربين ، فهى سد لما عساه يكون فى توزيع المـيراث من حرمان بعض ضعفاء الأقارب من الميراث ، اذا لم يكونوا فى نظام التوزيع ، فهى فى وضعها بجواز الميراث تكميل لأحكامه • فقد تكون الأخت الفقيرة لا يصل اليها المـيراث لوجود الأبناء ، فكانت الوصية التى كتبها الله تعالى فى الثلث سداً لخليتها •

وانه بمقتضى هذا النص تكون الوصية واجبة لفقراء الأقارب غير الوارثين ، وذكر الوالدين لأنهما قد يكونان غير وارثين ، لاختلاف الدين ، كما كان الأمر فى صدر الاسلام ، اذ كان الرجل يكون مشركا والمرأة كذلك ، وولدهما قد هداه الله تعالى الى الاسلام ، فيكون عليه أن يوصى لهما ، لأن ذلك من الاحسان ، والمصاحبة لهما بمعروف ، كما قال تعالى : « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » (١) •

ومن العلماء من قال : ان نصيب الأبوين من الميراث ان كان قليلا تصح الزيادة عليه بالوصية ، وكذلك الأقربون من الورثة ان كان نصيب أحـدهم ضئيـلا ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، جاز زيادته بالوصية من الثلث • وذلك ما تفيـده الآية ، وقوله تعالى بالمعروف معناه بالأمر المعقول ، فلا يزيد القادر ذا المـال على ماله ، ولكن يعطى الضعيف ذا الحاجة الذى لم يأخذ شيئاً من الميراث •

ودلت الآية الكريمة على جواز التدخل فى الوصية اذا كان فيها ظلم للورثة بالميل الظالم أو كان فيها اثم كالوصية لخليله ، أو الوصية لحانة ، فانه يجـوز فى هذا الحال الدخول للاصلاح وتحويل الوصية الى خير ، ولذلك قرر بعض الفقهاء أخذاً من هذه أن ابطال الوصية الظالمة ، أو اصلاحها بحكم القضاء جائز •

---

(١) سورة البقرة : ١٨٠ — ١٨٢ •

(١) لقمان : ١٥

ومن التابعين من قرر أن الميت اذا ترك الوصية لأقاربه الضعفاء غير الوارثين، كانت لهم وصية ، وأوجبها ابن حزم ، والله سبحانه وتعالى يعلم المفسد من المصلح .

١٩٥ — هذا هو نظام الملكية بالخلافة جعله القرآن اجبارياً فى الثلثين كما بينت السنة ، وجعله اختيارياً للوارث فى الثلث ، وأوجب أن يكون فى غير اثم ، وأنه يجب ابطاله ان كان اثماً .

واختص القرآن الكريم الأقارب الضعفاء الفقراء بايجاب الوصية لهم بالمعروف، وقد وضحنا ذلك آنفاً .

واذا وازنا نظام الملكية بالخلافة بأى قانون من قوانين العالم فى الماضى والحاضر ، ما وصل الى العدالة فيه نظام مهما يكن إحكامه .

ولقد تضافرت كلمة القانونيين من علماء الغرب الذين اطلعوا على الشريعة ان أعدل نظام للملكية بالخلافة هو نظام الاسلام ، فكل نظام للتوريث غير نظام الاسلام ظالم أو ناقص ، وبذلك يعترف كل دارس منصف .

وان هذا النظام جاء به القرآن الكريم ، ونادى به النبى صلى الله تعالي عليه وسلم الذى لم يدرس على معلم . ولم يكن الا فى بلد أمى ، ليس فيه معهد ولا جامعة ، أفليس هذا دليلا قاطعاً على أنه من عند الله تعالى .

١٩٦ — وقد يقول قائل أطلت فى ذكر نظام الأسرة فى القرآن ، وربما يكون ذلك خروجاً عن الكلام فى القرآن الى الكلام فى الأسرة .

ونقول فى الجواب عن ذلك ، اننا نتكلم فى علم الكتاب ، فمهما نتكلم فى الأسرة، فاننا نتكلم فى موضوع علم القرآن الذى علمنا الله تعالى اياه ، واننا لم نأت بكل ما جاء فى القرآن عن الأسرة ، ولكن اكتفينا ببعض ما جاء ليكون دليلا على ما وراءه واشارة لما بعده .

وقد ذكرنا الأسرة فى القرآن ، وتكاد كل أحكامها تكون ثابتة بالقرآن الكريم ، والسنة مبينة لبعض ما يحتاج الى بيان كلفظ القروء فى قوله تعالى : « والمطلقات

يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » (١) . فالسنة هى التى بينت أن القروء هى الحيضات على أصح الروايات فى السنة .

ولقد قررنا من قبل ما نتلمسه حكمة لتصدى القرآن لكل أحكام الأسرة .

ونقول الآن ان أحكام الأسرة فى الاسلام كانت موضع تهجم من بعض الذين ليس للدين حريجة فى صدورهم من الرجال والنساء ، فأرادوا أن يجعلوا الأسرة الاسلامية خاضعة لما سموه تطوراً ، وما تطورهم الا تجانف لناحية المسيحية ، فالمسيحية فى زعمهم تحرم تعدد الزوجات ، والمسيحية فى زعمهم تمنع الطلاق ، فيجب أن تكون الأسرة فى الاسلام تمنع التعدد ، وتمنع الطلاق (٢) وهكذا دفعهم التقليد ، والاسلام يجعل للرجل قوامة على المرأة ، وهم لا يريدون ذلك ، ويريدون أن يكون البيت فوضى ، وهكذا .

ولقد وصل بهم الانكار لحقائق الاسلام أن تهجموا على نظام الميراث ومنهم من يتمرد عليه ، اتباعاً لأهوائهم ، ونحن نقول لهم : دعوا التقليد الأعمى ، ودعوا التفكير الأعوج واعلموا أن الأمر فى ذلك أمر القرآن ، ومن علم غير القرآن فقد كفر ، فان تمردتم باسم التطوير ، وهو عمى التقليد ، فاعلموا أنكم على شفا جرف من الكفر ، لأن من أنكر أحكام القرآن أو من خالفها جاحداً ، فهو كافر ، فكونوا كما تشاءون ، فان كنتم مؤمنين فخذوا بالقرآن ، وان كنتم غير ذلك « فلكم دينكم ولى دين » .

٤ ــ الزواجر الاجتماعية :

١٩٧ ــ هذا هو القسم الرابع من الأحكام التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، وقد شرع القرآن من العقوبات الرادعة ما تتطهر به المجتمعات من الرذيلة ، وتتجه ناحية الفضيلة ، ويتحقق الخير فى كل مظاهر الحياة خالياً من أدران الشر .

---

(١) البقرة : ٢٢٨

(٢) وقد كتبنا بحثا فى بيان أن التعدد كما جاء فى القرآن ، والطلاق أمثل نظام لتكوين أسرة فاضلة نشر السنة الخامسة عشرة من مجلة القانون والاقتصاد .

والعقوبات فى الاسلام قسمان عقوبات مقدرة ، وعقوبات غير مقدرة والعقوبات المقدرة تعد أعلى العقوبات فى نوعها ، وغير المقدرة تعد دون الأعلى ، وقد تولى القرآن الكريم بيان أكثر العقوبات المقدرة ، والعقوبات غير المقدرة ترك تقديرها للقاضى أو ولى الأمر ان رأى أن تقيد القضاة ، فالاسلام يذكر الحد الأعلى للعقوبة وترك القاضى بتقدير مادونها على ماقررنا .

والعقوبات المقدرة قسمان : قسم فيه حقوق العباد واضحة ، كالقصاص وقسم كان لحماية المجتمع من شروره ، وحق العباد فيه ليس فى وضوح الأول .

وفى الأول كان للمجنى عليه أوليائه حق العفو ، كما سنبين . أما الثانى فلا عفو فيه ، لأنه حق الله .

وأول نص فى العقوبات التى كانت لحق العبد أو حق العبد فيها أوضح من غيره من عقوبة القصاص وهى عقوبة تومىء اليها الفطرة ، لأن العقوبة مساوية للجريمة ومن جنسها ، وقد نص عليها فى القرآن فى عدة آيات ، منها قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » (١) .

وفى هذه الآية نجد القصاص فى الأنفس ، وآية أخرى تعمم القصاص فى الأنفس والأطراف ، بل الجروح ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك مبيناً ما كان فى التوراة ، وهو فى الشرائع السماوية كلها : « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فاولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن

---

(١) البقرة : ١٧٨ — ١٧٩

والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون » (١) .

وهذه الآيات الكريمات تدل — أولا — على أن القصاص شريعة النبيين أجمعين طبقه النبيون على الذين هادوا ، وطبقه من بعدهم الربانيون والأحبار ، ويطبقه أهل الايمان من أمة محمد كما قال سبحانه وتعالى : « وأنزلنا الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فأحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٢) .

وان هذا النص الكريم يدل — أولا — على وحدة الشرائع السماوية فيما يتعلق بالقصاص ، فهو شريعة عامة ، مشتقة من الفطرة الانسانية ، فهى عقوبة طبيعية لامراء فيها .

وتدل ثانياً على أن القصاص كما يقع فى الأنفس ، لأن فيه حياة الجماعة حياة آمنة مطمئنة ، يقع أيضاً على الأطراف ، لأن فيه حفظ سلامة الانسان ومنع التشويه ، اذ أن التشويه الانسانى يكثر اذا لم يكن عقاب رادع يجعل الجانى عندما يقدم على جريمته يتوقع أن يقع عليه مثلها ، وذلك أمنع للجريمة ، كما قرر بعض علماء القانون الذين درسوا النفس الانسانية فى الآحاد والجماعات .

وتدل ثالثاً — على أن الجروح يجرى فيها القصاص ما أمكن ، وقد استنبط من هذا بعض الفقهاء أن القصاص يجرى فى اللطم والضرب بالسوط وغيره .

وتدل رابعاً — على أن الترغيب فى العفو ابعاداً لإحن القلوب ، وتقريباً للنفوس ، ولذلك اعتبر العفو فى موضعه من غير تشجيع للجريمة صدقة ، وقال سبحانه ، « فمن تصدق به فهو كفارة له » .

---

(٢) المائدة : ٤٤ — ٤٥ (٣) المائدة : ٤٨

وان القصاص فى موضعه احياء للنفس المجنى عليها ، واحياء للجماعة ، وهو القضاء على الأحقاد والضغائن المستكنة فى القلوب ، ان لم يكن سبيل لردعها ، فقد قال تعالى بعد أن اعتدى قابيل على أخيه هابيل شفاء لغيظه وحسدا وحقدا : « من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها ، فكأنما أحيا الناس جميعاً ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » (١) .

وان هذا يدل على أن القصاص احياء للنفوس ، وتهذيب للجماعة .

١٩٨ — وان القصاص فيه حفظ للنفس ، فان حفظ النفس يقتضى حفظ الأطراف وحفظ كل الأجزاء ، وهو حق للعباد لأنه عقوبة اعتداء مباشر عليهم ، ولذلك كان قابلا للعفو ، كما ذكرنا وكما تلونا .

وأما حقوق الله أو حقوق المجتمع ، كما يجرى التعبير فى هذا الزمان ، فان العقوبة المقررة فيها تختص بخاصيتين احداهما : أنها حماية للفضيلة ، وحماية للمجتمع من أن تتغشاه الرذائل ، والخاصية الثانية أنها غير قابلة للعفو ، لأنها اصلاح ليس فيه أى معنى من معانى الانتقام أو شفاء الغيظ ، كما هو الحال فى الدماء ، ولأن اقامة الحدود عبادة ، وهى العقوبات المقررة حقا للمجتمع فيعد عبادة ، فاذا كان العفو فى القصاص يعد أحيانا صدقة كما عبر القرآن الكريم ، فاقامة الحدود من ولى الأمر القائم على رعاية مصالح المجتمع ، واقامة الفضائل ومحاربة الرذائل تعد عبادة ، بل هى أعلى العبادات بالنسبة له ، وأى عبادة أعلى من تطهير المجتمع من الشر .

وان الحدود شرعت محافظة على المصالح المقررة الثابتة ، وهى المحافظة على النفس وأمنها ، والمحافظة على النسل والمحافظة على العقل والمحافظة على المال .

وأشد الحدود تكون لأقصى أنواع الاعتداء ، وهو الاتفاق على الجرائم التى

---

(١) المائدة : ٣٢

يكون فيها اعتداء على النفس وعلى المال ، بل وعلى الأعراض والعقول ، وهو ما يسمى حد الحرابة .

والحرابة اتفاق طائفة من المجرمين على الخروج على الجماعة بارتكاب مفاسد من أنواع الاعتداء المختلفة من قتل أو اغتصاب أموال ، وارتكاب جرائم أخرى كما قرر الإمام مالك فى تفسير معنى الحرابة ، وقد سماهم القرآن الكريم محاربين ، لأنهم يحاربون الأمن والنظام بقوة يدرعون بها ، وقال الله تعالى فيهم : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » (١) .

ونلاحظ فى النص الكريم أمورا ثلاثة :

أولها — أن الآية الكريمة سمتهم محاربين لله ورسوله وذلك لأنهم يحاربون أحكام الشرع ، وينتقضون على الحكم المنفذ لأحكام الله تعالى ورسوله الحكيم صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسماهم ساعين فى الأرض بالفساد ، لأن معاندة الشرع ، والاخلال بأحكامه ومحاربة الفضائل ، وازعاج الناس ، وقطع الطريق عليهم هو عين الفساد .

وثانيها — أن العقوبة هى التقتيل أو القتل والصلب ليكونوا عبرة لغيرهم ، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو تفريق جمعهم ، ونفيهم من الأرض بابعادهم حيث لا يستطيعون أن يجتمعوا .

وقد قرر مالك من بين الفقهاء أن ولى الأمر مخير فى هذه العقوبات يختار منها ما يناسب حالهم .

ثالثها — أن الجريمة الأساسية فى اجتماعهم واتفاقهم مع قوة تمكنهم من

---

(١) المائدة : ٣٣ — ٣٤ .

جرائمهم ، فان تابوا من تلقاء أنفسهم ، فقد ذهب أصل الجريمة وهو الاتفاق الجنائى ، والخروج بقوة لتنفيذه ، وما داموا قد تابوا فقد عدلوا عن الارتكاب ، وهو جريمة مستمرة ، فاذا أنهوها ، لا تستمر عقوبة الحد .

ولكن يحاسبون على ما ارتكبوا قبل التوبة ، وللفقهاء كلام طويل فى هذا وفى توزيع العقوبات على الجرائم ، فليرجع اليه فى كتب الفقه ، ففيها ما يشفى غلة الصادى المتطلع .

ومن الناس من يلهجون باستغلاظ هذه العقوبة ، ويحسبون آثمين أنها ليست انسانية . وأولئك ينظرون الى العقوبة ولا ينظرون الى الجناية ، ويرحمون الجانى ولا يرحمون المجنى عليه ، والمجنى عليه هنا الجماعة . أولئك يخرجون بقوة واتفاق ، لا ليقيموا حقاً أو يخفضوا باطلا بل لمجرد أذى الجماعة وينتهكون كل حرمة ، ويقطعون الطريق على السابلة ، ويزعجون الجماعة ، فلابد أن تكون العقوبة كفاء لما يرتكبون ورادعة ، والعدالة الانسانية توجب المساواة بين مقدار الجريمة ومقدار العقاب ، وكلما عظمت الجريمة كان لابد من عقوبة تناسبها ، وكما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « من لا يرحم لايرحم » وذلك هو منطق العدل، ومنطق العقل .

ولو أن تلك العقوبة عوقبت بها العصابات الأمريكية التى لا تبقى على شىء الا انتهكت حرماتها ، ولها ميزانية من السرقات تبلغ أحياناً ميزانية الولاية التى تكون فيها « فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

١٩٩ — وان الجريمة التى تقترب من جريمة الحرابة — جريمة السرقة بيد — أنهما يفترقان ، فالسرقة أخذ المال فى خفية من حرز مثله ، بينما الحرابة أخذ المال بقوة لا يلاحظ فيها الاختفاء ، ولكن يلاحظ الأمن من الاستغاثة واجابة المستغيث، فهى فى خفاء عن المجتمع ، لافى خفاء عن صاحب المال ، ويفترقان فى أن هذه جماعية تخرج بقوة تقاوم قوة الدولة ويفترقان فى أن الحرابة تتعدد فيها أنواع الجرائم ، والسرقة لا تتعدد فيها أنواع الجرائم ، ولذلك تتعدد فيها العقوبة .

ويتفقان في أمرين أحدهما أن في الجريمتين افزاع الناس وازعاج الآمنين ، فلا يأمن أحد على نفسه أو ماله ، ويتفقان أيضا في أن التوبة تقبل من قطاع الطريق قبل القدرة عليهم ، وتقبل في السرقة على قول كثيرين من الفقهاء وهذا يتفق مع نص القرآن .

وعقوبة السرقة نص عليها في قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه ، وأصلح ، فان الله يتوب عليه ، ان الله غفور رحيم » (١) .

وقد اشترط في التوبة في هذه الحال أن يصلح ، لا أن يتوب بلسانه ، ولا شك أنه اذا سرق من بعد التوبة فانه تقطع يده .

ولهذا التشابه بين السرقة والحرابة قالوا ان الحرابة هي السرقة الكبرى وتلك التسمية صحيحة ، وان كان معها جرائم القتل .

وقد يقول الذين يرحمون المجرم ، ولا يرحمون الآمن معترضين على ذلك متعللين بأمرين :

— أحدهما — أن العقوبة ليست متكافئة مع الجريمة مهما يكن نصاب السرقة، فهل تقطع يد في سرقة عشرة دراهم أو ربع دينار كما قال الامام مالك ، ويرددون قول أبي العلاء .

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

والثاني أن العقوبة في ذاتها غليظة تكثر من المشوهين الذى تتقذى الأعين برؤيتهم .

ونجيب عن الأمرين ، فنقول في الاجابة عن الأمر الأول ، انه ليس التساوى بين العقوبة في الحدود بين الفعل والعقاب ، انما التساوى بين العقاب ، وآثار

---

(١) المائدة : ٣٨ — ٣٩

الجريمة ، فبالنسبة للسرقة لا يكون التساوى بين المال الذى سرق ، وبين قطع اليد ، انما ينظر الى الإفزاع وازعاج الآمنين فى سرقة تقع فى حى أو قرية ، فكم من حراس يقومون ، وكم من مغالق يحترس بها من السارقين ، فجريمة السرقة ليست آثارها واقعة فقط على المسروق منه ، بل تتعداه الى كل من يكونون معه فى الحياة .

والجواب عن الأمر الثانى أن هذه العقوبة لا تقع الا اذا كان التكرار اذ أنه اذا سرق ابتداء وتاب وأصلح ، فانه لا يسرق ، فلا تقطع يده .

وان قطع يد واحدة تمنع السرقة ، فلا يكون ثمة من بعد ما يوجب القطع وهنا دولة عربية تقيم حد السرقة ، لا تقطع فى العام يداً أو اثنتين ، فالقطع يمنع سبب القطع .

وفوق ذلك ، فان القطع لا يكون الا حيث تنتفى الشبهات ، فالشبهات تسقط الحدود وان عدد السرقات التى تنتفى فيها الشبهات ، ويجب فيها الحد يقدر بنحو خمسة فى الألف من السرقات التى تقع ، ومن الشبهات التى اعتبرها السلف أن يكون السارق فى حال جوع أو مظنة جوع ، كأن يكون ثمة مجاعة فانه لايقام الحد للشبهة ، كما فعل الامام عمر عام المجاعة .

وعلى ذلك يستغلظون عقوبة السرقة فى الحدود التى بينا أن يبينوا لنا كم من السرقات قطعت فيها أيدى نساء ورجال لأجل الوصول الى غاية السارق ، وكم من النفوس أزهقت فى السرقات بالاكراه أو فى اخفاء الجريمة وعدم معرفتها .

انكم ان وازنتم بين هذه الجرائم التى ترتكب فى سبيل السرقة وجدتم أن قطع اليد لا يساوى فى عدده عشر معشار هذه الجريمة ، واعتبر ذلك بالبلاد التى طبقت حد السرقة ، فان الأيدى التى تقطع فى البلاد كلها لا يتجاوز ان تواضعنا عدد أصابع اليد .

لقد عجزت القوانين عن علاج جريمة السرقة ، فهلا نستعين بحكم الله تعالى ، ولكن آفة الجماعات فى هذه الأيام أولئك الذين تذهب أنفسهم حسرات على المجرمين

ولا ننظر نظرة عطف على الذين كانوا فريسة للعابثين والمجرمين ، وذلك فساد منطقى غريب ، ومع ذلك يعدون أنفسهم اجتماعيين •

الاعتداء على النسل :

٢٠٠ — أوضح جريمة فى الاعتداء على النسل جريمة الزنى ، فانها اذا شاعت فى قوم ضعف نسلهم ، وانحدروا الى الفناء كما رأينا فى أمم حاضرة ، وجماعات ماضيــة •

وقد تعرض القرآن الكريم لبيان هذه الجريمة وعقوبتها ، أو بالأحرى لبيان هذه العقوبة مع التعرض الاجمالى للجريمة ، مفصلا العقوبة ، فقد قال تعالى :«واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ، فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ، فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، ان الله كان توابا رحيما » (١) •

وان هذا النص الكريم دل على أمور ثلاثة :

أولها — أن الشهادة على الزنى لا تكون الا بأربعة ، فلا تصح الشهادة بما دون ذلك ، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى فى حد القذف « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » (٢) •

ثانيها — أن الرجل والمرأة اذا ارتكبا الفاحشة ، وهى الزنى فى الآية الأولى والثانية ،كان لابد من عقوبة مناسبة ، اذا لم تكن توبة يكون معها اصلاح أمورهم، وأنهم ان كرروا لا تقبل التوبة ، وكذلك قرر كثيرون من الفقهاء كما قيل فى السرقة•

الثالث : أن النســاء يختصصن بعقوبة لا تمنعها التوبة ، وهى أن يمسكن فى البيوت حتى الوفاة أو يجعل الله لهن سبيلا بالزواج ، وهذه فى الحقيقة ليست عقوبة ، ولكنها صيانة وحمل على التوبة ، فان كان منهن من بعد فاحشة كان الايذاء •

---

(١) النساء :

وقد ذكر هنا الأمر بالايذاء مجملا ، وفصل فى سورة النور ، فقال تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بها رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » (١) •

وان هذا النص يدل على ثلاثة أمور : أولها — أن عقاب الزانى والزانية مائة جلدة قوية شديدة رادعة لا رأفة فيها • وثانيها — أن هذا العقاب الشديد الرادع يكون علنا يشهده طائفة من المؤمنين • ثالثها — أن الزانى الذى يعلن زناه لا يرضى به الا زانية أو مشركة ، وأن الزانية لايرضى بالزواج منها الا زان أو مشرك ، وأنه من المحرم على المؤمنين أن يتزوجوا من الزناة ، ومفهوم النص أن ذلك التحريم ان لم تكن توبة •

عقوبة العبد على النصف من الحر :

٢٠١ — هذا التقدير للعقوبة فى الزنى انما هو على الأحرار من الرجال والنساء ؛ أما العبيد والاماء فعقوبتهم نصف هذه العقوبة ، فلا يجلدان الا خمسين جلدة ، وقد ثبت ذلك بنص القرآن الكريم بالنسة للإماء ، وثبت بقانون المساواة بين الرجل والمرأة أن العبد تنصف عنه العقوبة ، وهذا نص القرآن الكريم الحكيم ، اذ يقول سبحانه وتعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض ، فانكحوهن باذن أهلهن ، وآتوهن أجورن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولامتخذات أخدان ، فاذا أحصن ، فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وأن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم ، يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم » (١)•

وان هذا النص يدل على أن الأولى بالمؤمن ألا يتزوج الا حرة ، ولا يتزوج أمة الا اذا عجز عن الزواج بالحرة ، حتى لا يعرض أولاده للرق ، وان الإماء أولي بهن مالكهن يدخل بهن ، فيكون أولاده منها أحرارا ، وتعتق هى بولدها من مالكهـا ، فيكثر الأحرار •

وتدل الآية ثالثا على أن الأمة المتزوجة عقوبتها خمسون جلدة •

وبمقتضى المساواة فى الأحكام كما أشرنا تكون عقوبة العبد أيضا منصفـة كعقوبتهـا •

ونظرة صغيرة فى الموازنة بين شريعة القرآن ، وشريعة الرومان ، لقـد كان الرومان يضاعفون عقوبة العبد ان ارتكب جريمة ويخففون العقوبة على الحرة، فهم يقولون ان العبد اذا زنى بحرة يقتل ، وأما الشريف الرومانى فانه اذا زنى يغرم غرامة بسيطة ، فمنطقهم الظالم يسير سيرا عكسيا تصغر العقوبة عندهم بكبر المجرم وتكبر بصغره . أما الاسلام فانه ينظر فى الأمر بمنطق مستقيم ، فالجريمة تكبر بكبر المجرم ويكون العقاب على قدرها وتصغر بصغر المجرم ، ويكون العقاب على قدرها ، وذلك لأن الجريمة هوان وان الهوان يسهل على الضعيف ، اذ لا قوة نفس تعصمه وتنهاه ، وان العبد والأمة فى ذل وهوان ، فالجريمة منهما قريبة ، فيعذران ، ويخفف عليهما العقاب ، وذلك هو منطق العدل المستقيم ، وهو شرع الله العظيم •

حد القذف :

٢٠٢ — القذف هو رمى المحصنات والمحصنين بالزنى ، من غير دليل مثبت . بل بمجرد الظن الواهم ، أو الإيذاء الآثم ، وفى ذلك تهوين للجريمة وأشـاعة للفاحشة فى الذين آمنوا ، ولذلك كان العقاب الصارم على من يقـذف ، ويرمى المحصنين والمحصنات من غير تثبت ولا تحرج ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك مبينا له بعد حد الزنى : « والذين يرمون المحصـنات ثم لم يأتوا بأربعة شـهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون الا

الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم »(١) .

وهذا النص السامى دل على أمور ثلاثة : أولها — أن الرمى بالزنى لابد أن يكون ثابتا بشهادة أربعة من الشهداء ، والا عد قذفا باطلا ، وكان له عقوبة قاسية وهو الجلد ثمانين جلدة ، وهى عقوبة مادية لا هوادة فيها .

ويدل ثانيا على أن هناك عقوبة أدبية أو تبعية كما يقول علماء القانون ، وهو ألا تقبل لهم شهادة أبدا ، لأنهم دنسوا ألسنتهم بقول أفحش الباطل ، فيعاقبون على ذلك بألا يقبل منهم قول فى قضاء ، والتأبيد يقتضى أن التوبة لا تسوغ سماع شهادتهم .

ويدل ثالثا على أن التوبة تقبل عند الله اذا تابوا وأصلحوا ، وذلك لا يمنع نزول العقاب الاصلى والتبعى ، لأن التبعى ابدى .

وان هذه العقوبة لمنع اشاعة الفاحشة ، لأن الاتهام بالزنى وخصوصا للأبرياء يسهل ارتكابه ، ولقد قال تعالى فى ذلك : « الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة (٢) .

ولقد ضرب الله مثلا للذين آمنوا بحال أم المؤمنين عائشة ، وهى الطاهرة بنت الطاهر ، وزوج أطهر من فى هذا الوجود ، تطاول المفترون عليها بالافك ، وقال الله تعالى فيهم « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم

---

(١) النور : ٤ — ٥

(٢) النور : ١٩

بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ، ويبين لكم الآيات ، والله عليم حكيم » (١) .

هذا توجيه عظيم لمن يسمع افكا على طاهر من الطاهرين ، أو طاهرة بينة الطهارة ، فأول واجب على المؤمن اذا سمع إفكا أن يظن خيرا بالمؤمن ويجعل حال الصلاح هى الظاهرة ، وهى الحاكمة ، فان كان ممن يظن الظنون فعليه أن يثبت حتى يجىء الدليل ، وهو أربعة شهداء ، ليكون الدليل مقابلا لظن الخير بأهل الايمان ، فان لم يكن الدليل كان على المؤمن أن يقول هذا بهتان عظيم ، وانه لايسوغ لمؤمن أن يتلقى قولا يرمى من غير دليل ، ولا تثبت ، ثم يزيد الظن به ، فيقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويحسبونه تسلية ، وأمرا هينا وهو عند الله عظيم .

وفى هذا النص السامى بيان للمستهينين الذين يشيعون القول الفاسد ، وما ينبغى أن يكون عليه المؤمن ، وان الاسلام يريد جماعة طاهرة عفيفة لايسودها الا الكلام الطيب النزيه العف .

اللعان :

٢٠٣ — جاء رجل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يبثه شكواه ، ويقول : « ان الرجل يجد الرجل مع أهله ، فان قتله قتلتموه ، وان تكلم ضربتموه ، وان سكت سكت على غيظ اللهم بين ، فكان اللعان .

وهو يكون فى حال رمى الرجل زوجته بالزنى ، فقد جعل الله تعالى حكما خاصاً ، مخصصاً لمن يرمى أى محصنة غير زوجته ، لأنه لا يمكن أن يرمى زوجته الا وهو فى عذر غالباً ، فكان اللعان للتثبت من الواقعة التى تتضمن الوقوع فى الفاحشة من الزوجة ، وقد بين الله تعالى اللعان بقوله تعالت كلماته :

« والذين يرمون أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم ، فشهادة أحدهم

---

(١) النور : ١١ — ١٨ .

أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها ، ان كان من الصادقين • ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله تواب حكيم » (١) •

والشهادة هنا هى الحلف بالله تعالى ، لأن الحلف فيه اشهاد لله سبحانه وتعالى، فالرجل يحلف أربع مرات أنه صادق فيما رماها به من الزنى ، أو نفى الولد ، ان كان الرمى بعدم نسبة الولد اليه ، ويتضمن ذلك الرمى بأنها حملت به من زنى ، فاذا حلف هذه المرات الأربع ، حلف الخامسة بأن يحلف بالله أن لعنة الله تعالى تنزل به ان كان من الكاذبين •

والمرأة ينزل عليها العقاب ، وما حده القرآن الكريم ، فتحلف أربع مرات انه لمن الكاذبين ، وتحلف الخامسة بأن عليها غضب الله ان كان من الصادقين •

وان التحالف ان تم على هذا الوجه رفع عن الرجل عقوبة القذف ، وهو ثمانون جلدة ، وعن المرأة عقوبة الزنى ، ولقد حكم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك •

ولكنه صلى الله تعالى عليه وسلم فرق بينهما فرقة أبدية ما داما على هذه الحال ، لأن الحياة الزوجية تقوم على المودة ، والمودة تقتضى الثقة بين الزوجين ، وبعد هذا الترامى ، وتكذيب كل واحد لصاحبه ، ذهبت الثقة ولا مودة مع فقد الثقة ، فلا يتحقق معنى الزوجية الذى نص عليه فى كتابه الكريم : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢) ، بين زوجين يشك أحدهما فى صاحبه ، ولا يطمئن اليه •

٢٠٤ — وان ما ذكرناه من نصوص القرآن فى الزنى والقذف واللعان ، يتجه بالمؤمن الى أن يكون طاهرا نزها عفيفا ، ويتجه بالجماعة الاسلامية الى أن تسودها الفضيلة ، فلا تترامى برفث القول وفسوقه لأن فسوق القول يؤدى الى

---

(١) النور : ٦ — ١٠
(١) الروم : ٢١

فعله ، والترامى بالفاحشة يؤدى الى ارتكابها •

وان الرذائل لا تنمو الا فى أجواء فاسدة ، والفضائل لا تخبو الا فى أوباء الرذائل •

ولعل فساد مجتمعاتنا الحاضرة سببه الترامى بالفحشاء صراحة ، أو بلحن القول اذ يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله •

الخمر :

٢٠٥ — ذكرنا حدودا أقيمت لحفظ النفس والمال ، وحدودا أقيمت لحفظ النسل وحفظ البيئة الاجتماعية ، والآن نذكر مايفسد العقل وقد ترك الله لنبيه تقدير العقوبة لها • وان كانت الجريمة قريبة من جريمة القذف ، ومن جنسها ، ولذلك فهم فقيه الصحابة على كرم الله وجهه عقوبتها من عقوبة القذف وقد جاءت النصوص القرآنية مشيرة الى مضار الخمر ، وأنها شراب مذموم ، وجاءت بالنهى عنها ، وأول آية نزلت مشيرة الى أنها أمر غير حسن قوله تعالى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسنا ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (١) •

وقد كان ذلك النص متضمناً استهجاناً لها • وهو استهجان ببيان أنها شىء غير مستحسن فى ذاته ، فهو مقابل للأمر المستحسن ، والمقابل للمستحسن لايكون الا مستهجناً •

وكان ذلك أول تنبيه للعرب باستهجانها ، لأنهم كانوا يألفونها فى جاهليتهم ، ويتفاخرون بشربها كما يفعل أهل الجاهلية فى هذا الزمان الذى نعيش فيه •

وهذه الآية نزلت فى مكة ، فلما كانت الهجرة ، وأشرب المسلمون حب الاسلام أشار القرآن الى ما يوجب تحريمها ، فقال تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » (٢) •

---

(١) النحل : ٦٧ •   (٢) البقرة : ٢١٩ •

وقلنا ان هذا النص السامى يوجب تحريمها ، لأن كل أمر غلبت مضاره على منافعه يوجب العقل أن يحرمه الانسان على نفسه ، لأن ما من شىء الا فيه نفع نسبى ، وضرر نسبى ، والعبرة بما يغلب ، ولكنه ليس تحريماً صريحاً ، ولذلك بعد هذا النص كان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً .

وأن النفس العربية كانت قد ألفت شربها ، وتعودته ، فلا بد من تربية تخلع هذه العادة غير الحسنة ، فجاء النص الآخر الكريم ليربى النفس على البعد عنها ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (١).

وانه لا يتصور ايمان من غير صلاة ، فالصلاة أمر محتوم ، وقد نهى عن أن قوله وما لا ينبغى ، ونتائج القول ، وتحرى الصدق ، وكل هذا لا يكون الا من يقربها ، وهو سكران ، حتى يعلم ما يقول ، والعلم بما يقول هو العلم بما ينبغى ذوى وعى كامل مدرك لحقائق الأمور ، وغاياتها ، ولا يكون ذلك الا اذا كان على بعد من الشرب بوقت طويل . وقال سبحانه « لا تقربوا الصلاة » ، ولم يقل فى الصلاة ، لأن النهى عن المقاربة أبلغ من النهى عن الدخول .

واذا كانت الصلوات خمساً موزعة فى النهار وزلفاً من الليل ، فانه لابد أن يكون على صحو كامل من قبل الفجر حتى لا يقرب صلاة الفجر ، وهو لايعلم مايقول ، ولا بد أن يكون فى صحو قبل الظهر ، ولا بد أن يكون الصحو مستمراً الى العصر ، لقرب ما بينهما ، ومثل ذلك المغرب والعشاء ، وبذلك يذوق المسلم حلاوة البعد عنها ، كما تعودها من قبل ، وهى شراب غير مرىء .

فكان ذلك النص الكريم تربية للنفس المؤمنة ، وعلاجا لترك أمر مذموم ألفوه بأمر حسن عرفوه وذاقوا حلاوته .

ولم يجد عمر المدرك بنور الله فى ذلك بياناً شافياً ، لأنه يرغب فى نهى قاطع لا تردد فيه .

---

(١) النســاء : ٤٣ .

ولقد نزل بعد ذلك الأمر الحاسم القاطع نهياً لازماً فقال تعالى :

« يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر ، والأنصاب والأزلام ، رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (١) .

وقد قال علماء البلاغة ان قوله تعالى « فهل أنتم منتهون » هى أبلغ صيغ النهى ، ويجدر بنا هنا أن ننبه الى أمرين .

أولهما — أن أهل الجاهلية فى هذا العصر يقولون انه لم يكن ثمة نص على النهى مثل قوله : « لاتشربوا » وان ذلك القول التافه كان غير جدير بالالتفات اليه، ولكن كثر ترداده ، فحق علينا البيان فنقول :

ان النص الكريم شدد فى النهى من وجوه كثيرة — أولها — أنه قرن الخمر والميسر بالعبادة بالذبح على النصب ، وتلك قرينة التحريم فى ذاتها .

— وثانيها — أنه وصفها بأنها من عمل الشيطان ، وأنها رجس ، أى أمر قذر فى ذاته ، فهى ضارة ، ولا تتقبلها النفس الفطرية ، ومضارها الجسمية معلومة لكل مدرك أريب .

— وثالثها — أنه طالب باجتنابها ، والاجتناب يقتضى البعد عنها ، وعن مجالسها ، وعن شاربيها ، وذلك أبلغ من قولك : لا تشربها .

ورابعها — أنها تدفع الى العداوة والبغضاء ، وهما أمران مفسدان ، مقوضان لبناء المجتمع .

وخامسها — أنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، والصلاة فرض لازم هو شعار الاسلام ، والصد عنه أشد الأمور فى الاسلام فهو حرام ، فكل ما يؤدى اليه حراماً مثله ، لأن ما يفضى الى الحرام يكون حراماً .

---

(١) المائدة : ٩٠ — ٩١

وسادسها — قوله تعالى ، « فهل أنتم منتهون » ، وقد قلنا انها أبلغ صيغة فى النهى عن الفعل .

— الأمر الثانى — الذى يجب التنبيه اليه هو أن الخمر كل ما يخامر العقل، ويستره ، ويمنعه من الادارك المستقيم ، سواء أكان النيء من ماء العنب أم كان المطبوخ منه ، وسواء أكان من العنب أو البلح ، أو غيرهما . —

وعندما نزل ذلك النص القاطع فى التحريم أراق الصحابة كل ما عندهم من أدنان الخمر ، ولم يكن فيها النيء من ماء العنب ، بل كانت كلها أنبذة .

فكل شراب من شأنه أن يسكر أو يؤدى الى السكر يكون حراما سواء أكان نبيذ العنب أو التفاح أو البلح أو البصل أو نيء القصب ، وسائر ما يخترعه ابن الانسان ليفسد عقله ، وسواء أكان سائلا أم كان جامداً .

ولقد عرضنا لهذا الأمر لأن بعض الفقهاء الكبار ظن أن الخمر هى التى من ماء العنب اذا غلا واشتد وقذف بالزبد ، فتعلق به الجاهلون ، وحسبوا أنه يبيح الأنبذة ، وهو يعلم أنها مسكرة ، وطاروا بذلك القول ليستبيحوا الخمر ويبيحوها ، ونقول ان ذلك الامام الجليل قد أخطأ ، وما كان عليهم أن يقلدوه فى الرأى ليتمكنوا من شربها ، بل كان عليهم أن يقلدوه فى فعله ، فقد قال رضى الله عنه وعفا عنه : « لو غرقت فى الفرات على أن أتناول قطرة من هذه الأنبذة ما تناولتها » .

٢٠٦ — وان القرآن اذ شدد فى تحريم الخمر ، فانه يعتبر ارتكابها جريمة تستحق العقاب ، ولكن ليس فى القرآن نص على عقوبة لها ، وفيه نص على جريمة هى فى كثير من الأحيان نتيجة لها ، فان السكران لا يدرى ما يقول فينطق برفث القول وبالنسوق ، وهى جريمة القذف . ولقد قال على بن أبى طالب فى الارتباط بين الجريمتين ، قال فى عقوبة الشرب : اذا شرب افترى ، فيحد حد الافتراء ، وهو حد القذف .

وقد ترك تقدير العقاب بالنص الصريح ، أو بالعمل المبين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال فى

الشارب « اذا شرب فاضربوه ، فاذا عاد فاجلدوه ، فان عاد فاقتلوه » .

وقد قيل له عليه السلام اننا بأرض برد نستدفىء بالخمر ، فقال عليه السلام لاتشربوها ، فقال القائلون انهم لا يستطيعون ، فقال عليه السلام . فقاتلوهم .

البغى :

٢٠٧ — جريمة البغى تعرض القرآن الكريم لبيانها ، والبغى معناه الخروج عن طاعة الامام العادل بقوة لتأويل تأولوه ، فيشترط لتحقق جريمة البغى ثلاثة شروط :

أولا — أن يكون الامام عادلا .

وثانيها — أن يكون البغاة لهم قوة تعسكر مناوئة لحكومة الامام .

وثالثها — أن يكون خروجهم لاقامة العدل لا لمجرد الخروج، والمحاربة والسعى فى الأرض بالفساد ، وبذلك يفترقون عن قطاع الطريق ، لأن قطاع الطريق يخرجون على الحاكم من غير تأويل للافساد ، وانتهاك حرمات العباد وقد كانت عقوبة أهل البغى قتالهم من غير أن يكفروا ومن غير أن يعتبروا محاربين ، بل يقاتلون حتى تفل شوكتهم ، وأن على المؤمنين أن ينصروا الامام العادل .

وهذا نص ماجاء فى كتاب الله تعالى خاصاً بذلك : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت ، فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون (١) .

ويستفاد من هذا النص الكريم أنه قبل القتال يجب العمل على رأب الصدع بجمع القلوب المتفرقة ، وتحرى أسباب التقاتل بين الطائفتين ، فان أمكن ازالة أسباب الخصام ، فانه بهذا يستقر السلام ، وان تبين الظلم من احدى الطائفتين كانت الباغية ، وحل قتالها ، وكان القتال فرضاً كفائياً على المؤمنين ، يعاونون

---

(١) الحجرات ٩ — ١٠

العادل ، ويدفعون الآثم •

وتدل ثانيا على أن القتال له غاية ، وهو أن تعود الى أمر الله تعالى ، ويستقيم أمرها على جادة العدل • فلا يؤسر منهم أسير ، وبالتالى لايسترق منهم ، ولاتنهب أموالهم ، ولا يجهز على جريحهم •

وتدل ثالثاً على أنها ان عادت الى صفوف المؤمنين تعامل بالعدل ، ولا تعامل بالانتقام ، فليست بينها وبين الحاكم خصومة ، انما بينهما الأخوة الجامعة ، ولذلك عقب ذكر العقوبة بقوله تعالى : « انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » (١) •

وقد ذكر حكم البغاة مجملا ، ولم يكن بغى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم، لأن الخروج على حكمه كفر ، وليس ببغى يكون أساسه التأويل ، فلا تأويل ، وعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صريح •

وكذلك لم يحدث بغى فى عهد أبى بكر ، بل حصلت ردة ، وكفر ، وكذلك لم يحصل بغى فى عهد الفاروق ، وفى عهد عثمان كان بغى ، ولم تكن مقاومة للبغاة ، حتى قتل الشهيد ذو النورين رضى الله عنه قتلة فاجرة وفى عهد على فارس الاسلام والمجاهد الأول بعد النبى صلى الله عليه وسلم كان البغى ، بشروطه •

فقد خرج الخارجون على الامام العادل على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وزعموا أن لهم تأويلا ، بدعواهم أن الذين أيدوه هم قتلة عثمان •

وتصدى على رضى الله عنه لمقاومتهم ، بعد أن حاول رتق الفتق ، واصلاحه بالموعظة ، حتى أرادوه على القتال ، وخرجوا اليه فى صفين •

ثم خرج الخوارج من بعد ، وهم أشد البغاة تطرفا فى بغيهم ، وكان القتال بين أهل العدل ، وأهل البغى ، ويلاحظ أن علياً رضى الله عنه لم يجرد سيفه للقتال مهاجماً الا بعد أن قتل معاوية عمار بن ياسر ، عندئذ تجرد على ، وهجم بجنده لأنه علم أنهم بغاة حقاً ، اذ قال عليه السلام لعمار تقتلك الفئة الباغية ، ولانريد أن نخوض فيما قاله الفقهاء • فاننا نذكر الحكم من غير تفصيل •

(١) الحجرات : ١٠

د ــ المعاملات المالية

٢٠٨ ــ اشتمل القرآن الكريم على بيان الحلال والحرام فى الأموال وطرق كسبها ، ولكن بيانها كان اجمالياً ولم يكن تفصيلياً كالأسرة لأن المعاملات مختلفة فى تفصيلها وطرقها ويجمع أحكامها قواعد عامة تعرض القرآن لبيانها • وذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بيانه فيها •

وأول ما أمر به القرآن بالنسبة للمعاملات عدم أكل أموال الناس من غير أساس من التعامل المشروع أو الانتاج مما أخرجت الأرض • ومن التحويل فى الصناعات المختلفة • فقد قال تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل • الا أن تكون تجارة عن تراض منكم • ولا تقتلوا أنفسكم • ان الله كان بكم رحيما » (١) •

وان هذا النص يدل على أمور ثلاثة : أولها ــ النهي عن أكل مال الناس بالباطل أى بغير حق موجب • وثانيها ــ أن أساس التعامل بين الناس هو التراضى فيما أباح الله تعالى به • وثالثها ــ أن أكل الناس بالباطل وشيوعه مثل شيوع الرشا والربا ، وغيرهما من المعاملات الفاسدة التي تتضمن فى ذاتها أكل الأموال بالباطل يؤدى الى ضياع قوة الأمة ، وقتل روح التعاون فى الجماعات ، ولذا كان قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » •

ولقد صرح القرآن الكريم بالنهي عن الرشوة ، وخصوصا رشوة الحكام التى تذهب بالثقة ، وتفسد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وتجعل أمور الناس فوضى ، فقد قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (٢) •

وان هذا النص الكريم يدل على حرمة الرشوة ، وقد سماها فى موضع آخر السحت ، ويدل على أن الرشوة أكل لأموال الناس ، وافساد للحكم ، وضياع للعدل وقد أشرنا الى ذلك عند الكلام فى أن الأصل للعلاقة بين الناس ، وهو مراعاة العدالة •

---

(١) النساء ٢٩ (٢) البقرة : ١٨٨

وقد ذكر القرآن أن من أسباب ضياع اليهود • وفساد الحكم فيهم السحت• وقد قال تعالى فيهم : « سماعون للكذب أكالون للسحت • فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، ان الله يحب المقسطين » (١) •

ومن الأكل المال بالباطل تطفيف الكيل أو الميزان أو تقدير الأشياء بأى نوع من التقدير فقد قال تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل ، والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »(٢) •

وقال تعالى : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا ان كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به الا كل معتد أثيم • اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٣) •

وترى من هذا الوعيد الشديد للذين يطففون ، الذين يظلمون الناس فى الكيل •

وقد يقول قائل لماذا اختص القرآن من بين المعاملات المادية ايفاء الكيل والميزان بالذكر •

ونقول ان الوفاء فى الكيل والميزان صورة حسية لعدالة المؤمن فى المعاملات، ويتحقق فيها بالحس معنى قوله عليه السلام « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » •

فالأمر بوفاء الكيل والميزان أمر بالعدالة النفسية والأدبية فى كل العلاقات الانسانية • وقد اهتم القرآن بذلك •

٢٠٩ — وان الإسلام لحرصه على أن يكون التعامل على أساس سليم من

(١) المائدة : ٤٢ (٢) الأنعام : ١٥٢ •

(٣) المطففين : ١ — ١٤ •

العدالة ، والرضا الصحيح . أمر بكتابة الديون والعقود ، والاشهاد عليها لكيلا تكون مشاحة والمشاحة تؤدى الى المنازعة ، بله أكل أموال الناس بالباطل ، ولذا قال سبحانه :

« يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا . فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احداهما ، فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم . وان كنتم على سفر ، ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ، فان أمن بعضكم بعضا ، فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم » (١) .

هذا نص شامل من نصوص القرآن الكريم معجزة هذا الوجود ، وهو يدل على أمور :

أولها : لزوم كتابة الدين ، وأن تكون هذه الكتابة يتولاها كاتب عدل مأمون تحريف القول ، أو تغييره ، وأن على هذا الكاتب أن يجيب اذا دعى الى الكتابة . والكتابة مطلوبة فى الأحوال سواء أكان الدين صغيرا أم كبيرا بشرط أنه مقدار يدخل فى معنى عرفا .

ثانيها : أن الذى يملى الدين هو من عليه الدين . فان كان ضعيفا لا يدرك

---

(١) البقرة ٢٨١ — ٢٨٣

العقود . أو سفيها لا يحكم التصرف . أو كان لا يستطيع أن يملى لضعف فى بيانه . أو فى تعبير : يملى ولى يختاره . أو يكون مختارا له من قبل القضاء المهيمن أو الشرع .

ثالثها : أنه لا يستثنى من الكتابة الا التجارة الحاضرة التى تدار بين التجار كأن تكون سلعة عند تاجر . فيأخذها من جاره . أو متعامل معه على أن يرسل اليه الثمن لهذه التجارة الحاضرة ان باعها فلتسهيل التعامل استثنيت من الكتابة .

رابعها : أنه اذا كان الدائن والمدين على سفر . ولم يجدوا كاتبا . فان الرهان التى تقبض تقوم مقام الكتابة فى الاستيثاق من وفاء الدين .

خامسها : أنه لابد من الشهادة بأن يكون ثمة شاهدان يحضران الاملاء ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان على أن يكونوا جميعا من العدول ، والشهادة لأجل الأداء عند الارتياب أو المشاحنة . ولذلك قال تعالى : « أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى » أى عند الأداء .

هذا تفصيل محكم جاء فى محكم التنزيل ، واذا علمنا أن مشاحات الناس أكثرها فى المداينات والمبايعات ، سواء أكانت فى داخل الاقليم ، أم فى أقاليم علمنا لماذا عنى القرآن الكريم المنزل من عند الحكيم العليم بالمداينات والعقود تلك العناية .

وان تعجب فاعجب من قول كثيرين من الفقهاء أن الأمر هنا للارشاد لا للالزام وعجبنا من أن يتصوروا أن ذلك التفصيل ارشاد ، وليس حكما تكليفياً . والله أعلم بكتابه .

الربا فى القرآن :

٢١٠ — من وقت البعث المحمدى والاسلام لايرى التعامل بالربا علاقة مالية صالحة ، بل انه فى الآية التى نزلت بمكة كان فيها استنكارا ، وعده عملا غير صالح اقرأ قوله تعالى فى سورة الروم المكية :

« وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس ، فلا يربو عند الله . وما آتيتم من

زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المفلحون » (١) •

وهذا النص يفيد أن الربا لا يرضى عنه الله • وان كان فيه زيادة فهى زيادة آثمة • واذا كان المتعاملون يريدون أن يتضاعف مالهم فسبيل ذلك هو اعطاء شطر من المال للسائل والمحروم • فان المال ينمو بذلك وتكون الزيادة خيراً لأن ذلك السبيل هو التعاون وجاءت من بعد ذلك فى المدينة الآيات المحرمة للربا تحريما قاطعا حاسما • منها قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » (٢) •

والربا المذكور هنا ، وفى الآية التى تلوناها من قبل ، وفى الآية التى سنتلوها من بعد هو الزيادة فى الدين نظير الاجل ، فليس هو الدين ذاته ، انما هو الزيادة ، ونذكر هذا تصحيحاً لفهم بعض الذين يبيحون الربا أو بعضه ، فقد قال قائل منهم عفا الله عنه ان المحرم هو مازاد على ضعف الدين • وسارع الى تصديقهم بعض القانونيين الذين يؤمنون بما فى هذا الزمان أكثر من ايمانهم بالقرآن •

والوصف بالمضاعفة للزيادة فى هذا الزمان هو لبيان قبح ما يؤدى اليه الربا • اذ تتضاعف الزيادة مضاعفة كثيرة ، وفى ذلك ما فيه من ارهاق المدين • وقبح حال الدائن • وأكله المال بالباطل من غير عمل ولا كد • ولا تعرض للخسارة •

ولقد نزلت آية فى تحريم الربا تحريماً لا يقبل أى تأويل • ولو كان فاسداً كالذى قيل فى معنى الربا فى الآية السابقة ، فقد قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا • وأحل الله البيع وحرم الربا • فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف • وأمره الى الله • ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم • ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات • وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم • ولا خوف عليهم

---

(١) الروم : ٣٩ •   (٢) آل عمران : ١٣٠ — ١٣٢ •

ولا هم يحزنون • يأيها الذين امنوا اتقوا الله • وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين • فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله • وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون • وان كان ذا عسرة فنظـرة الى ميسرة • وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون • واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله • ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (١) •

هذا نص صريح قاطع فى التحريم •

٢١١ — ولكن قوماً ممن تعلموا علم الاسلام لم يأخذوا بظاهر معناه • بل لأنهم عودوا المناقشة اللفظية فى الألفاظ • والقاء ظلال من الابهام على معانيهـا الواضحة البينـة • وقد لانت نفوسهم • وأخضعوها لحكم الزمـان • لا لحكم القرآن • وكأنهم تعلموا ليخرجوا الكتاب على غير مخارجه ، ويتأولوه بغير متأوله• ومرنوا على ذلك • وأضلوا كثيراً بعد ضلالهم •

أانذا جاءك رجل وقال لك أشك فى أن هذه الشمس التى هى السراج المنير هى الشمس المذكورة فى القرآن أتصدق له قولا • أم تحسب لكلامه وزناً • أم تجعله فى ظل العلماء المشتغلين بالدراسات الاسلامية أياً كان لونهم ، وأياً كان زيهم •

ان رأيت ذلك ففى المتفيهقين من الذين يتكلمون فى القرآن وعلوم الاسلام من قال ان عمر قال : ان للربا تسعة وتسعين وجها ، ثم يردفون ذلك بأن يقولوا ان لفظ الربا فى القرآن كان غير معروف لعمر • فكيف يكون واضحاً لدينـا • كبرت كلمة تنطق بها أفواههم التى أثمت بالقول فى كتاب الله تعالى بغير علم •

من هؤلاء تجدنا مضطرين لأن نشرح معنى كلمة الربا • وان كنا نقـول ان الشمس التى نراها هى التى فى القرآن •

يقول أبو بكر الرازى الشهير بالجصاص فى كتابه أحكام القرآن ان الربا قسمان ربا لغوى يعرف من اللغة • وهو ربا القرآن • وهو ربا الجاهلية وهو أن يزيد فى الدين فى نظير الزيادة فى الأجل • والقسم الثانى هو الربا الاصطلاحي وهو الذى

---

(١) البقرة : ٢٧٥ — ٢٨١ •

جاء فى الحديث « الذهب بالذهب مثلا بمثل يداً بيد والفضة بالفضة مثلا بمثل يداً بيد • والتمر بالتمر مثلا بمثل يداً بيد•والبر بالبر مثلا بمثل يداً بيد • والشعير بالشعير مثلا بمثل يداً بيد • والملح بالملح مثلا بمثل يداً بيد • فمن زاد أو استزاد فقد أربى • فهذا النوع من التعامل سماه النبى ربا فكان ربا بمعنى الاصطلاح • وهو الذى فيه الوجوه الكثيرة •

أما ربا القرآن فهو ربا الجاهلية • وهو الذى قال فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع : « ألا ان ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس بن عبد المطلب • فان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » •

والربا الجاهلى معروف وهو الزيادة فى الدين فى نظير الأجل فان سدد فى عام كانت الزيادة واحدة ، وان لم يسدد ضاعف الزيادة وهكذا مما نراه فى المصارف فى هذه الأيام •

ولكن الذين يثيرون الشك حول الشمس والقمر المذكورين فى القرآن يثيرون الشك فى ربا الجاهلية • فيقول ، ليس ربا الجاهلية هو الربا الذى يكون فى القروض الاستغلالية ، لأن المقترض يستغل الدين فيكتسب فيكون من عدلهم المزعوم أن يجعلوا للدائن سهما محدوداً فى الدين سواء أخسر المقترض أم اكتسب ، ويقصرون ربا الجاهلية على الربا الذى يكون فيه قرض استهلاكى يقترض المدين ليدفع حاجات ضرورية ، ويكون الربا فى هذه الحال منافياً للمروءة والخلق الكريم ، ذلك تأويلهم الذى لاسند له من نص ، أو قياس معقول ، ولكنه تفكيرهم الذى يخرجون به عن حدود النص •

٢١٢ — ان التأويل بتخصيص لفظ عام فى القرآن يكون بتخصيص من القرآن نفسه ، أو بتخصيص من المفسر الأول للقرآن وهو النبى ، فكل تخصيص لعام القرآن الكريم من غير ذلك يكون حكم الهوى فى القرآن ، ويكون رداً على صاحبه ولفظ القرآن عام يعم الربا فى القرض الاستهلاكى والاستغلالى على سواء ، وهذا فوق أن ذلك التأويل الشاذ عند علماء الشريعة فيه مصادمة للنص القرآنى ، من

غير دليل ، فان النص القرآنى فيه مايدل على بطلان ذلك التأويل الذى دفع اليه الهوى ، والحال التى كانت عليه البلاد الحجازية تناقضه . والحوادث التى كانت فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تقاومه لما يأتى :

أولا — أن المشركين قالوا مقالة أولئك الذين يحكمون هواهم فى القرآن ذلك أنهم برروا أكلهم الربا بأن شبهوه بالبيع . وقال الله فيهم « ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا » ومؤدى كلامهم أنهم يعتقدون مشابهة بين مايكسبه المقترض بالبيع والشراء ، والاتجار فى الشام وفارس ، بما يأخذه المرابى من ربا ، أى انهم يقولون انه بعض مما يكسبه المقترض بالبيع والشراء . وهو جزء منه . فرد عليهم بأن البيع حلال ، لأن الكاسب بالبيع يتحمل كسباً وخسارة . وحرم الربا لأنه الكسب من غير تعرض للخسارة . وبذلك يكون الكسب من البيع طبيعياً . بالربا يكون غير طبيعى لأن النقد لا يلد النقد .

وثانياً — قوله تعالى : « فان تبتم فلكم رءوس أموالكم » فان التعبير عن الدين برأس المال انما يكون فى المال المتخذ للاستغلال . ولا يقال رأس المال للمال المتخذ لاستخدامه فى الضرورة . فكان هذا دليلا من النص يفيد أن التحريم وارد فى القرض الاستغلالى ابتداء . والاستهلاكى تبعا . ذلك أن النص بعمومه يحرم كل زيادة . لأن أى زيادة تنقض التوبة وتكون ظلماً .

وثالثاً — ان أحوال أهل مكة والطائف تجعل القرض للاستغلال هو الغالب بينهم . وأن القرض للاستهلاك لم يكن شائعاً بينهم . فقد كان أهل مكة وما حولها تجاراً ينقلون بضائع الروم الى الفرس عن طريق الشام واليمن . وينقلون بضائع الفرس الى الروم عن هذه الطريق أيضاً . . ولذلك كانت لهم رحلتان تجاريتان احداهما رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام . كما قال تعالى : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع . وآمنهم من خوف » (١) .

---

(١) قريش : ١ — ٤

واذا كانت مكة والطائف بلدين تجاريين ، فلابد أن نتصور أن منهم من كان يتجر بنفسه بائعاً مشترياً ، ومنهم من كان يتجر بطريق غيره . فيعطى لمن يتجر بنفسه على أن يكون الربح بينهما بنسبة معلومة ، والخسارة تكون على صاحب رأس المال ، كما كان يفعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مال خديجة بأمانة الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومنهم من كان يدفع المال الى غيره على أن يكون له كسب محدود مما يئول الى التاجر ، كسب التاجر أو خسر ، وقد روى ذلك من معاملات قريش ، فقد كان ذو المال يدفع المال الى التاجر على قدر من المال هو الربا . فان سدد أخذ رأس المال مع الزيادة ، وان لم يأخذه أبقى المال وضاعف الزيادة ولذلك أثر عن الربويين أنهم يقولون للمدين ادفع أو ضاعف والمراد مضاعفة الزيادة .

وقد قال أصحاب السيرة فى مقدمات غزوة بدر أن قريشاً كلها خرجت بكل مالها للتجارة حتى حلى النساء . فأرادها أهل الحق كما صادروا من أمـوال المؤمنين . فاستنفر أبو سفيان قريشاً ، وخرج الجند لحماية العير ، فكانت الغزوة ، ولابد أن يكون فى هذا المال . ما كان من مال المتاجرين ، وماكان من مال غيرهم أخذ للتجارة وما كان ديوناً مأخوذة ليستغلها المدينون .

ورابعا — أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى تحريم ربا الجاهلية وأول ربا أبدأ به ربا ، عمى العباس بن عبد المطلب ، ولا يتصور من العباس رضى الله عنه أن يكون عربى محتاجا لقدر من المال فى أموره الضروبية . فيأبى الا أن يقرضه ربا ، وهو الذى كان يسقى الحجيج فى موسم الحج نقيع الزبيب والتمر .

وخامسا — أنه لوحظ فى بعض أخبار العرب أن الأثرياء كانوا يقترضون . فكان أبو جهل عليه دين لرجل ليس من قريش وماطله . فاستعان بقريش لتحمله على الوفاء . فسخروا منه ، وأشاروا عليه بأن يستعين بمحمد بن عبد الله ورسول الله ، فأعانه . فقد قال الرسول القوى الأمين . بعد أن صك الباب صكة أرعدت مفاصله : أد للرجل دينه فأداه صاغراً غير كابر .

ويروى أن بنى المغيرة قد استدانو من ثقيفة قبل أن يسلم الفريقان ، فلما جاء القرآن بالنهى عن الربا ، وأنه موضوع ، اختلف الدائن الثقفى مع المدين من بنى المغيرة ، أيحتسب من رأس المـال ما أخذ من ربا من قبل التحريم أم لا يحتسب ، أراد المدين أن يحتسب ، وأراد الدائن ألا يحتسب ، فاحتكموا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . فحكم بينهم بمقتضى النص القرآنى .

وان بنى المغيرة لم يكونوا فقراء . بل كانوا قوما من الأثرياء ، وفيهم من قال الله تعالى فيه « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيداً » (١)

ومنهم من يدعى أن النبوة لاتكون الا فى رجل ثرى عظيم فى منظره ، وقال سبحانه عنـه « وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » الآيات (٢) .

واذا كان مابين الأغنياء من تقارض بزيادة . فدعوى اخراج القرض الاستغلالى من نطاق الربا دعوى باطلة ، وهى تدل على أن القائلين أخضعوا حكم القرآن لحكم الزمان . فضلت مداركهم ، وزاغت قلوبهم « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة . انك أنت الوهاب » (٣) .

وسادس الأمور التى تثبت أن ربا القرآن يعم القرض الاستغلالى ، واقرض الاستهلاكى أن العرب فى حياتهم البدائية كانوا يقومون على أدنى معيشـة من المـادة . فما كانت لهم مطالب متعددة . وماكانوا يحتاجون الى جهاز لابنـة يجهزونها ، ولا لأنواع من الأطايب يطلبونها . بل يكتفون بالقليل ، وهـؤلاء لايكون فيهم قرض للاستهلاك أبداً . ان تعـدد ألوان المطالب التى قـد تضطر للاقتراض لقضائها ، وليد حياة متحضرة ، ولم يكن هنا حضارة عند أهل البادية .

ولذا نقول : ان ربا الجاهلية ، وهو الربا المحرم فى القرآن ، يكاد ينصب على قرض الاستغلال ابتداء . والثانى يجىء من عموم النص ، وفى التعـاون بالزكاة غنى عن الاقتراض للاستهلاك .

---

(١) المدثر : ١١ — ١٤ (٢) الزخرف : ٣١ (٣) آل عمران : ٨

شيوع الربا :

٢١٣ — لقد شاع التعامل بالربا ، حتى صار يسيطر على النظام الاقتصادى ، ويقول اقتصاديو هذا الزمان : كيف يسوغ ترك التعامل بالربا وهو قوام الاقتصاد الحاضر ؟

ونقول : ان هذا الزمن هو الذى تحققت فيه نبوءة رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ يقول : « يأتى زمان على الناس يأكلون فيه الربا ، قيل : الناس كلهم يا رسول الله ؟ قال : من لم يأكله ناله غباره » •

وان الذين أدخلوا هذا النظام فى كل قارات العالم هم اليهود ، وأذكر منهم آل روتشيلد ، الذين وزعوه فى القارات ونشروه ، وسيطروا على العالم الاقتصادى ، وكان الربا سبيلا للاستعمار فى البلاد الاسلامية ، وخصوصا العربية •

ومهما يكن مصدر الربا ، ومهما يكن الذين أشاعوه ، فاننا نقرر حقيقتين :

أولاهما — أن تحريم الربا ليس بسبب خلقى ، حتى يقصر التحريم على القروض الاستهلاكية ، كما يتوهم بعض المتفقهة ، انما الأساس فى تحريمه اقتصادى ، فالإسلام يدعو الى نظام اقتصادى يقوم على منع الربا ، لأن الربا من شأنه أن يجعل رأس المال منتجا من غير عمل عامل ، بل من غير تحمل تبعة العمل • واذا ساد وجدت طائفة من الناس يتخذون التعطل سبيلا ويأكلون ثمرات غيرهم من التجار والزراع والصناع • ولقد قرر المحققون من الذين درسوا الاقتصاد الحقيقى أن الكسب بالانتظار لا ينمى الأمة اقتصاديا ويفسدها اجتماعيا ، اذ أن الكسب بالانتظار لا ينتج ، انما الذى ينتج هو الذى يعمل زارعا ، أو تاجرا ، أو صانعا • وانك اذا درست ما أحله الله تعالى وما حرمه من المكاسب ، تجد أن المكاسب التى أحلها الإسلام ، هى التى تزيد ثروة الأمة وتنمى انتاجها ، أو تنفع الناس ، والمحرم من المكاسب ما لا ينمى ثروة الأمة ولا ينفع الناس ، ولا شك أن الكسب بالربا ليس فيه تنمية للثروة • ولا عمل لنفع انما الذى يكون منه هذا هو المقترض ، فبأى حق يأخذ المتعطل منه ثمرة عمله من غير تحمل لخسارة ان كانت •

الحقيقة الثانية — أن التعامل فى الإسلام يقوم على أساس التعاون ، وأن يفيض ذو المــال على من لا مال عنده ، ويتعاونا على الاستغلال بأن يكون ثمة مشاركة فى الـكسب والخسارة . ولذلك كانت المضـــاربة الشرعية ، أو ما يسمى شركة مساهمة ، ومعناها أن يدفع المــال لمن يستغله على قسمة الربح بينهما . وهو المبدأ الذى تقوم عليه الشركات المساهمة . وان هذا النوع هو الذى يتفق مع مبدأ التعاون الذى دعا اليه القرآن الـكريم فى قوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (١) .

وهذا غير الربا لأنه استغلال من جانب المرابى ، والعمل على غيره من غير أن يتعرض للخسارة ، وهو يؤدى الى التنابز .

وقد قرر المجددون من علمـــاء الاقتصاد أن سبب الآفات ، التى تقع هو من نظام الفائدة ، وأن ذلك النظام سبب بقائه مع فساده ، وإدراك الناس لهذا الفساد أنه لا يوجد نظام يحل محله .

٢١٤ — وأخيرا نقرر أن النظام الاقتصادى فى الإسلام لا يقوم على الربا ، بل انه يناقضه ، لأنه يجعل صـــاحب رأس المــال يكسب من غير عمل ، ومن غير تعرض للخسارة .

وان الذى يلاحظ أن العالم الآن يحكمه نظامان :

أحدهما — يجعل رأس المــال كاسبا دائما ، من غير أن يقوم صاحبه بعمل يتحمل تبعاته ، ويؤدى به خدمة عامة تنفع الناس ، وتمد الجماعة بالخير ، فعملهم فى الحياة أن يملـكوا رأس المــال وغيرهم يعمل ويستغله كاسبا وخاسرا ، ثم يجىء اليهم المــال رزقا رخيصا ، ليس مكسوا بجهد عامل .

وثانيهما — نظام يلغى رأس المــال ، ويجعل العمل وحده هو طريق فى مصنع يصنع ، أو فى حقل يزرع ، أو أى عمل ينفع الجماعة .

---

(١) المائدة : ٢

والنظامان يتناحران .. وقد يؤدى التناحر الى أن يأخذ بعضهما من الآخر قليلا أو كثيرا .. أفلا يتسع الوجود الانسانى فى ذلك المضطرب لنظـام يحترم رأس المـال ، على أن يعمل فيه صاحبه يكسب من حلال وينتج ما ينفع الناس . فيكون نعم المـال الصالح فى يد العبد الصالح ، ويمنع أن يكون كسب لأى مال من غير أى عمل وتحمل الخســارة ، أى أنه يمنع الـكسب بالزمن ، انما يكون الـكسب بالعمل ، وبرأس المـال الذى يعمل فيه صاحبه .

ذلك هو نظام الإسلام الذى سينتهى اليه العالم ان عاجلا أو آجلا .

وو أن الذين يعملون فى الاقتصاد من المسلمين يؤمنون بالقـرآن كايمانهم بنظم هذا الزمان ، لـكانوا الدعاة الى اقتصاد القرآن . وعساهم يفعلون .

٦ — العلاقات الدولية فى القرآن

٢١٥ — القرآن يذكر أن الإنسانية كلها أمة واحدة • ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك :

« كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » (١) •

وان النصوص القرآنية تدل على وحدة الإنسانية فى خلقها وأصلها ، فالله تعالى يقول :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » (٢) •

فالرحم بين بنى الإنسان موصولة ، واذا كانت الألوان مختلفة والألسنة مختلفة ، والأجناس متباينة ، فان الأصل واحد ، ويجب أن تكون العلاقات مبنية على الأصل الموحد ، لا على التخالف الظاهر • يجب أن تبنى الأمور على الجذع لا على الغصون المتفرعة •

ولقد حد الله تعالى فى كتابه الكريم حدود العلاقة الانسانية ، فقال تعالى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم • ان الله عليم خبير » (٣) •

فبهذا النص يبين القرآن الكريم أن العلاقة التى يجب أن تكون السائدة التعارف • والتعارف تكون معه المودة ، والتعاون ، واقرار السلام ، واحياء التراحم •

٢١٦ — واذا كان التعارف هو الأصل الجامع للشعوب والقبائل والأجناس ،

---

(١) البقرة : ٢١٣ (٢) النساء : ١ (٣) الحجرات : ١٣

فالسلام لازم من لوازمه وهو الأساس لكل تعارف ، فلا تعارف يوجب المودة مع الخصام والتناحر والتحارب •

ولذلك كان الأصل فى علاقات الدول بعضها مع بعض ، أو بعبارة أدق العلاقة بين المسلمين وغيرهم فى السلم لا الحرب ؛ فالمسلم ينظر الى من يخالفه نظرة الود الراحم ، لا العداوة القاطعة • ولذلك يقول سبحانه وتعالى : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم » (١) •

واذا قامت الحرب بين المسلمين المؤمنين بالقرآن ، فان الإسلام يتشوف للسلم يبتغيه ، ولا يريد الاستمرار فى مذبحة بشرية ، فان مالوا للسلم أجابهم المسلمون ، ولو كانوا يتوقعون الخديعة ، ما دامت لم تظهر آماراتها • ولذلك يقول سبحانه : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم ، وان يريدوا يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره ، وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم » (٢) •

وقد تربت النفس المؤمنة على المحبة ، فكانت تكره القتل والقتال الا أن يكون ذلك جهادا • ولذلك قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٣) • وكان القتال بالجهاد لدفع الشر وتعميم الخير ، لأن الإسلام يدعو الى الخير ، والى الفضيلة ، وفضيلة الإسلام ايجابية وليست سلبية ، فهى تدافع الرذيلة ولا تستسلم •

واذا كان الوجود يتنازع فيه الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، فانه لابد من دفاع الخير • لقد أراد الإسلام المحبة ، ولكن أراد ابليس لهم البغضاء ، فكان لابد من النزاع بين مبدأ المحبة والبغضاء ، والا يدفع الشر ساد الفساد وعمت

---

(١) البقرة : ٢٠٨ — ٢٠٩ (٢) الانفال : ٦١ — ٦٣

(٣) البقرة : ٢١٦

الرذائل • لذلك شرع مبدأ الجهاد لدفع الشر ، ومنع الفساد • ولقد قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » (١) •

لذلك شرع الجهاد فى الاسلام •• وأول الجهاد كان عقب الاعتداء وفتنة المسلمين وايذائهم ليرجعوا عن دينهم • عندئذ أذن الله تعالى بالجهاد وأوجبه ، فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا • ولينصرن الله من ينصره • ان الله لقوى عزيز » (٢) •

ولقد قال تعالى آمرا المؤمنين بالقتال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل • ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم • كذلك جزاء الكافرين • فان انتهوا فان الله غفور رحيم • وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله • فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (٣) •

ويقول سبحانه مبينا أن القتال لأجل الاعتداء ، وأنه ينتهى بنهايته : « قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير ، وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم • نعم المولى ونعم النصير » (٤) •

فما كان السبب ليستبيح دماء المخالفين لأجل المخالفة ، بل يستبيحها ؛ لأنهم استباحوا دم أهله ، ولأنهم أرادوا حمل المؤمنين على تغيير دينهم ، وفتنوهم فى ذلك ، والفتنة كما قال تعالى أشد من القتل •

٢١٧ — ولأن الإسلام فى مشروعية الحرب هو دفع الاعتداء ، والفتنة

---

(١) البقرة : ٢٥١ — (٢) الحج : ٤٠

(٣) البقرة : ١٩٠ — ١٩٣ — (٤) الانفال : ٣٨ — ٤٠

فى الدين ، فان الاسلام أباح الهدنة اذا أرادها المخالفون ، وحسنها ودعا اليها • وقال تعالى فى ذلك وقد أذن بالقتال العام :

« وأذان من الله ورسوله الى النـــاس يوم الحج الأكبر ، ان الله برىء من المشركين ورســـوله ، فان تبتم فهو خير لـــكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، الا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين » (١) •

وفرض الإسلام هدنة اجبارية على المسلمين ان التزم بها المخالفون ، وهى ألا يكون قتال فى الأشهر الحرم ، وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان •

وواجب ألا يبتدىء فيها المسلمون قتالا ، الا أن يكون امتدادا لقتال والسكوت يضر • ولقد قال تعالى فى ذلك : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم • ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفســـــكم • وقاتلوا المشركين كافة كمـــا يقاتلونكم كافة • واعلموا أن الله مع المتقين » (٢) •

ولا قتال فى الأشهر الحـــرم ، ما دام المخالفون يحترمونها ، فان انتهكوها فلا يصح لأهل الإيمان أن يظلموا فيهن أنفسهم • ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك : « الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص • فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم • واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين » (٣) •

ويقول سبحانه : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام • وإخراج أهله منه أكبر عند الله • والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا • ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيـــا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٤) •

---

(١) التوبة : ٣ — ٤ (٢) التوبة : ٣٦
(٣) البقرة : ١٩٤ (٤) البقرة : ٢١٧

والإسلام اذ يقر الهدنة والعهود والمواثيق ، كما تلونا من كتاب الله ، يحترم هذه المواثيق ما احترمها المخالفون المناوئون واستقاموا عليها .

٢١٨ — ولا يبيح الإسلام القتل والقتال بالنسبة لمن يريد السلام . والله تعالى يقول فى ذلك : « يأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا . فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا » (١) .

ولقد أمر القرآن الكريم أن يحترم الميثاق بالنسبة لأهله ، ولمن لهم به صلة . ولذا قال تعالى : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله . فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم . ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم . فان اعتزلوكم . فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم . فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم . ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها . فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم . وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً »(٢) .

أن هذا النص يدل — أولا — على ضرورة احترام المواثيق . وكف القتال عن أهل الميثاق — والذين له بهم صلة قومية . ويكون سلمهم سلما لهم . وحربهم حربا .

ويدل ثانياً — على أن الذين يكونون ذوى صلة بقوم بينكم وبينهم عداوة ، وحصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، أى أنهم لم يريدوا أن يكونوا مع المؤمنين على قومهم ، ومع قومهم على المؤمنين ، فهؤلاء لا يقاتلون .

ويدل ثالثاً — على أن الذين يترددون فى موقفهم فهم يريدون السلامة لأنفسهم بمداهنة قومهم الذين يقاتلونهم ومداهنة المؤمنين فهؤلاء يحكم عليهم بالواقع ، فان لم يقاتلوا المؤمنين فلا سبيل عليهم ، والا كان قتالهم حقاً بذلك الموقف البادى .

---

(١) النساء : ٩٤ (٢) النساء : ٨٩ — ٩١

وان هذا التقسيم يدل على أن القرآن الكريم يقرر نظرية الحياد • ويحترم المحايدين • فلا يرفع عليهم سيفاً • فالناس على ذلك فى نظر القرآن الكريم ثلاثة أقسام :

محاربون للمسلمين ، وهؤلاء يجب قتالهم لرد اعتدائهم • والأخذ بالنواصى والأقدام من غير هوادة • وهؤلاء هم المعتدون بالقتال أو بفتنة المؤمنين كما قال تعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » (١) •

والقسم الثانى أهل الميثاق الذين بينهم وبين المؤمنين ميثاق عدم الاعتداء • وهؤلاء يحترم ميثاقهم بل يمتد احترام الميثاق الى الذين لهم به صلة • بحيث يكون سلمهم واحدة وحربهم واحدة •

والقسم الثالث المحايدون الذين لايكونون مع المؤمنين • ولا مع أعدائهم واقعاً لأنه ما دام الاصل فى العلاقات هو السلم الا اذا حدث ما يوجب القتال • فمن لم يكن منهم ما يوجبه فانه لاسبيل لأحد عليهم •

وقد فهم بعض الذين لايدرسون المسائل دراسة فاحصة مستقرية أنه لا موضع الحياد فى الفقه الاسلامى ، وذلك كلام من لم يمحص الحقائق • لأن القرآن الكريم كما ترى جعل للحياد موضعاً • وهم الذين يعتزلون الحرب مع المسلمين أو ضدهم• فقال لاسبيل عليهم • فكان الحياد ثابتاً بنص القرآن الكريم •

٢١٩ — واذا تلونا بعض آيات القرآن الكريم التى فتحت باب القتال جهاداً فى سبيل الله نجدها صرحت بأن القتال كان للاعتداء من غيرنا بطريقين : قتل المؤمنين • والاعتداء عليهم ، واخراجهم من ديارهم • والثانى بفتنتهم فى دينهم ، كما قال تعالى « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله »(٢) أى كل انسان يعتنق ما يعتنق لارقيب على قلبه الا الله تعالى ، فلا اكراه فى الدين • ولا فتنة فيه •

وهنا يسأل سائل ألم يبح القرآن القتال الا دفاعاً ، أو رداً للاعتداء ، ولم

---

(١) التوبة : ١٤ (٢) الانفال : ٣٩

يبح الهجوم ، ونقول فى الجواب عن ذلك ان القرآن صريح فى أنه لايباح القتال مع من ألقى السلام ، وبذلك يكون من المؤكد أن الاسلام لايبيح الهجــوم على الآمنين الذين يلقون السلام وان ذلك حق لا ريب فيه . لانه لا يباح الهجــوم على من لايعلن العداوة على المؤمنين ولكن هل يمنع الهجوم مطلقاً ؟ وللجواب عن ذلك نقول :

ان الذى استنبط من صريح الآيات التى تلوناها أننا لانحارب الا من اعتــدى علينا أو فتننا عن ديننا . ومن الفتنة فى الدين أن يمنع المتدين من اقامة شعائر دينه ، وأن يحال بين الحق والدعوة اليه .

انه فى هذه الحال يكون القتال ، ولكن يزاد عليهــا اذا قامت العــداوة التى ابتدأها غير المؤمنين بالاعتداء على المؤمنين ، ومحاولة غزوهم فى ديــارهم ، أو فتنتهم فى دينهم ، فانه عندئذ قتال يتعين العدو المترصــد الذى لا يألو المؤمنين الا خبالا ويودعنتهم ، وارهاقهم ، فلا يكون الاقتصار فى الحرب على الدفاع بأن ينتظر المؤمنون حتى يهاجمهم الاعداء ، وقد بدت عداوتهم وأعلنوها صريحــة لا ابهام فيها ، انه كما قال بطل الجهاد على بن أبى طالب : ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا .

وبذلك نفسر قولنا ان المؤمنين ما قاتلوا الا ردا للاعتداء بمثله أو توقفه ، ولقد تلونا الآيات التى تنهى عن قتل من لايعتدى علينا . ومن يعتزل قتالنا ، ومن يلقى علينا السلام .

واذا ظهر الاعتداء ، وما يسكت عنه الا للاستعداد لمثله . كان القتال مشروعاً بكل ضروبه لهؤلاء الأعداء بالهجوم على مآمنهم . وبالقصد الى مكامنهم . ولذلك يقول الله تعالى : « فاذا انسلخ الاشهر الحرم . فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم . واحصروهم . واقعدوا لهم كل مرصد . فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » (١) ، « وان أحد من المشركين

---

(١) التوبة : ٥

استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتهم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المقسطين • كيف وان يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون • اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا • فصدوا عن سبيله • انهم ساء ما كانوا يعملون.لايرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة . وأولئك هم المعتدون » (١).ويقول تبارك وتعالى : « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم • وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة • أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين • فاقتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم » (٢) •

ونرى من هذا النص أن الاساس هو الابتداء بالاعتداء • فاذا ابتدأ الاعتداء وجب القتال بكل ضروبه دفاعا وهجوما ، بل ان خير الدفاع ماكان هجوما ، ولاسبيل لانهاء القتال مع المعتدين الا باحدى خصال ثلاث : اما الاسلام ، وان يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويكونوا اخوانا ، واما بالعهد يعاهدونه ، ويوفون به فما استقاموا فالعهد قائم ، والا فانه ينطبق عليهم قوله تعالى « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء »(٣) •واما الاستسلام• وان يخضعوا لأهل الايمان وقد قال تعالى فى ذلك : « يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم • والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم » (٤) •

ويقول سبحانه : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب • حتى اذا أثخنتموهم ، فشدوا الوثاق فامامنا بعد • واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم » (٥) •

٢٢٠ — وننتهى من هذا التتبع الى حقيقتين ثابتتين : — احداهما : أن محاربة

---

(١) التوبة : ٦ — ١٠
(٢) التوبة : ١٣ — ١٥
(٣) الانفال : ٥٨
(٤) محمد : ٧
(٥) محمد : ٤

المؤمنين لأى قوم لا يكون الا عند اعتدائهم باخراج المسلمين من ديارهم ، أو ايذائهم فى دينهم • ومن الإيذاء أن يمنع الدعاة الى الإيمان من أن يلاقوا الشعوب ويعرفوهم بالحق ، من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، لأنه لا اكراه فى الدين ولكن بعد أن يتبين الحق من الباطل ، والغى من الرشد ، وذلك لقوله تعالى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (١) •

الحقيقة الثانية : أنه اذا كان الاعتداء بأى ضرب من ضروبه ، فان باب الجهاد يفتح دفاعا وهجوما وغزوا والتقاء ، لا يمنع مانع الا ما توجبه الفضيلة •

وقد فهم بعض الناس أن القتال فى الاسلام لا يكون الا دفاعا ، ولا يكون هجوما ، وذلك خطأ • والحق أن القتال لا يكون لقوم اذا اعتدوا ، فان كان الاعتداء حل قتالهم دفاعا وهجوما ، وهم فى الحالين المعتدون الا أن يتوبوا أو يعاهدوا ويستقيموا •

وليس قتال المؤمنين ليكون باب الدعوة الى الإسلام مفتوحا يعد اعتداء من المؤمنين ، بل هو رد للاعتداء ، لأن القتال لأجل الدعوة لا يكون الا بعد أن يرسل المؤمنين دعاة للإيمان ، فان أجاب بعضهم ، ولم يضطهد فى اعتقاده فانه لا قتال ، ومن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وان اضطهد كان الاعتداء بالفتنة ، فوجب القتال ردا للاعتداء بمثله •

وقد جاء الإسلام فى عصر الملوك المتجبرين الذين كانوا يؤذون رعاياهم ، فكان منهم الاضطهاد لكل من تبلغه الدعوة ويؤمن ، وما أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الجيوش الى الشام الا بعد أن اضطهد الروم المسيطرون المسلمين الذين أسلموا فى الشام وقتلوهم ، وما حارب الذين جاءوا من بعده الفرس الا لأن كسرى حاول أن يرسل من يقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

ويلاحظ من يتلو آيات الأمر بالقتال أن فيها النهى عن الاعتداء • فالله تعالى يقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٢) •

---

(١) البقرة : ٢٥٦ (٢) البقرة : ١٩٠

والاعتداء المنهى عنه قسمان : أحدهما — الاعتداء بالقتال على قوم لم يعتدوا على المؤمنين ، وهم الذين ما جعل الله عليهم سبيلا .

ثانيهما — الاعتداء فى القتال فيقتل من لا يقاتل ، فيقتل مثلا الشيوخ ، والنساء والذرية ، فان هذا الاعتداء فى القتال منهى عنه . ولذلك يقول تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (١) .

وان من مقتضى هذه التقوى ألا يقاتلوا من لا يقاتل ، وألا يقطعوا الأشجار ، وألا ينتهكوا الأعراض ، وألا يستبيحوا الأموال بغير حقها .

ويلاحظ أن القتال فى الماضى كان لا يتجاوز معسكر الحكام والجيوش ، والعلاقة بين المسلمين وشعوب الملك أو الرئيس القاتل قائمة ، كأنه لا حرب ، والسلام قائم .

انما الحرب لمن يحادون الله ورسوله ، اذ يقول الله تعالى : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (٢) .

وأولئك الذين يحادون الله ورسوله هم الذين حاربوا المسلمين ، وأعلنوا العداوة ، وأخذوا يتربصون بهم الدوائر لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة .

وما عدا هولاء فان السلم هى العلاقة الدائمة والمودة ان وجدت مقتضياتها ، وقد نص القرآن الكريم على ذلك ، فقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (٣) .

فالمودة موصولة ما لم يكن الاعتداء ، اذ عسى الصلة أن تعود حتى بين الأعداء ، كما يقول تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم » (٤) .

---

(١) البقرة : ١٩٤
(٢) المجادلة : ٢٢
(٣) الممتحنة : ٨ — ٩
(٤) الممتحنة : ٧

العلاقة فى السلم والحرب

٢٢١ — الإسلام هو دين الوحدانية ، ودين الوحدة الإنسانية . وقد تلونا من قبل الآيات القرآنية التى تقرر الوحدة الإنسانية بين الناس أجمعين ، ورأينا أنه بمقتضى هذه العلاقة يكون الأصل هو السلم ، ولكن الناس مختلفون أجناسا وقبائل وألسنة وأقاليم ، وتلك آيات الله تعالى فى الأرض . فقد قال تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . ان فى ذلك لآيات للعالمين » (١) .

وقد نظم الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم هذه العلاقة على أساس المساواة ، كما صرحت الآية الكريمة : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (٢) . والمساواة أساس التعارف ، كما أن التعارف يقتضى المودة والتعاون فى كل أمور الحياة . وقد أشرنا الى ذلك من قبل .

والعدالة أساس العلاقات الإنسانية ، كما قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » (٣) .

ويقول سبحانه فى العلاقة الإنسانية العامة : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » (٤) . والأمر بالعدالة عام فى قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والإحسان » (٥) .

وان العدالة توجب المعاملة بالمثل ، فان اعتدوا قاومنا الاعتداء . وقد قال تعالى فى ذلك : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (٦) .

---

(١) الروم : ٢٢ — (٢) الحجرات : ١٣
(٣) النساء : ١٣٥ — (٤) المائدة : ٨
(٥) النحل : ٩٠ — (٦) النحل : ١٢٦

ومع أن الله تعالى أمرنا برد الاعتداء بمثله فى قوله تعـــالى : « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، أمرنا بالتقوى فقال : « واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (١) • ولذلك يجب علينا عند المعاملة بالمثل أن نستمسك بالفضيلة ، فان الفضيلة هى القانون العام فى كل معاملة انسانية • فاذا كان العدو يقتل الذرية لا نقتلها ، وان كان ينتهك الأعراض لا ننتهكها ، وان كان يخرب ديار الآمنين لا نخربها ما وسعنا ذلك ••• وهكذا •

وان الإسلام قرر مبدأ الوفاء بالعهد ، وشدد فيـــه القرآن ، فقال تعالى : « وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا » (٢) •

ولقد قرر القرآن الـــكريم أن الوفاء بالعهـــد فى ذاته قوة ، فقال تعـــالى : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمـــة هى أربى من أمـــة ، انما يبلوكم الله به ، وليبينن لـــكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون • ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولـــكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون • ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولـــكم عذاب عظيم » (٣) •

وان هذا النص الـــكريم يدل على أربعة أمور :

أولها — أن نقض العهد يؤدى الى الزلل ، ومع الزلل الضياع •• فهو ليس حكمة ، ولا تدبيرا ، ولـــكنه خطل •

وثانيها — أن العهد الذى يوثق بيمين الله ، أو باشهاد الله تعالى عليه ، هو عهد الله اذ اتخذ الله كفيلا •• فمن ينقضه فانما ينقض عهد الله تعالى الذى وثقـــه بكفالته •

وثالثها — أن العهد فى ذاته قوة ، والتزامه قوة •• ولذا شبه من ينقضـــه بحال الحمقاء التى تغزل غزلا وتفتله ، ثم تنقضه (أنكاثا) أى أجزاء صغيرة ••

---

(١) البقرة : ١٩٤ — (٢) الاسراء : ٣٤

(٣) النحل : ٩١ — ٩٤

فالعهد يثبت السلم ، وفي السلم قوة وقرار ، والنقض ازالة له .

ورابعها — أنه لا يصح ان تكون سعة الارض ، وزيادة السلطان ، سببا في الغدر .. ولذلك قال سبحانه في بواعث الغدر : أن تكون أمة هي أربى من أمه ، أي أوسع أرضا ، وأكثر عددا ، وأقوى سلاحا .. فلا يصح أن يكون التوسع باعثا للغدر ، لأنه يؤدي لا محالة الى الضعف .

وهذا التشدد في الوفاء بالعهد ، لأنه في ذاته عدالة ، ولأن العهد فيه حد للحقوق ، وخصوصا اذا كان بين متكافئين .. ولا يصح أن يكون الاستعداد وأخذ الأهبة سببا في ذاته للنقض ، ولكن اذا قامت أمارات تدل على أن استعداد المعاهد وأهبته نذير خيانة .. وعلى المؤمنين أن يأخذوا حذرهم كما قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم » (١) .. وفي هذه الحال يطبق قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لايحب الخائنين » (٢) .

واذا كان هناك ما يجب الاحتياط له ، فانه يكون عند عقد العهد .. فلا يصح الاطمئنان الى عهد من عرفوا بالخيانة ، فان العهد معهم نوع من الاغترار .. ولذلك كان يجب تعرف حال الطرف الذي يعاهده قبل العهد ، ولذلك حذر الله تعالى من العهد مع بعض المشركين الذين يقول سبحانه فيهم : « كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون »(٣) .

٢٢٢ — هذا ما أردنا أن نقتبسه من آي الذكر الحكيم في أحكام الحلال والحرام ، وما نقلنا كل ما اشتمل عليه القرآن العظيم .. ولكن نقلنا ما يرى التالي للقرآن المقتبس من نور ، وما فصلنا الأحكام التي تعرضنا لنقلها من كتاب الله ، فان تفصيلها يحتاج الى نقل ما جاء في السنة ، وما اختلف الفقهاء في ظل النور القرآني في دلالة بعض الألفاظ ، فان الكلام في ذلك يخرجنا عن مقصدنا .. وهو الاشارة الى علم الكتاب الكريم الذي يدل على اعجازه .. والله سبحانه الهادي الى سواء السبيل .

---

(١) النساء : ٧١ (٢) الانفال : ٥٨ (٣) التوبة

٧ - علم الكون والإنسان فى الأرض

٢٢٣ — القرآن الكريم الكون قد فيه تكرر ذكره ، لأنه كما بينا اتخذ من خلق كل من فى الوجود دليلا على من انشاه ، فكان بمقتضى النهج النورانى لابد أن الكون وما فيه من خلق عظيم يدل على منشئه وحده سبحانه وتعالى ، ولا تكاد نجد سورة من القرآن مكية كانت أو مدنية خلت من ذكر الكون ، وما يتصل به .

وان ذلك فيما نحسب يوجه نظر الانسان الى انه جزء صغير من هذا الكون ، ليربطه به ، وليتعرف أسراره ، وأحواله ، وليعرف أنه وهو الصغير قد سخر الله تعالى له هذا الكون الكبير ، ولقد قال تعالى « لخلق السموات والارض أكبر من خلق النـــاس » .

وان ثمة حقائق مذكورة فى القرآن يستبصر بها كل متعرف لهذا الكون دارس له فالله تعالى يقول : « ومن آياته خلق السموات والارض ، وما بث فيهمـــا من دابة ، وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » (١) .

وفى القرآن الكريم ما يومىء الى محاولة الانسان الارتفاع فى الفضـــاء ، فالله تعالى يقول : « يامعشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون الا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ، ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان (٢) .

واقرأ آيات القرآن فى السحاب ، وارساله ، وأحواله ، فانك تجد توجيها الى ما لم يكن الناس من قبل يتجهون اليه ، ودلت المشاهدات على أنه واقع ، اقرأ قوله تعالى فى وصف السحاب « ألم تر أن الله يزجى سحابا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من بــرد فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » (٣) .

وترى من هذا تشبيه السحاب الذى أزجاه الله تعالى بالجبال ، وهذا لا يبــدو

---

(١) الشورى : ٢٩ (٢) الرحمن : ٣٤ — ٣٦ (٣) النور : ٣٤

السائر على سطح الارض ، ولا للواقف على آكامها ومرتفعاتها وما كان ذلك معلوما عند العرب ، ولكن الذي يرتفع فوق السحاب في الطائرات التي تقطع أجواز الفضاء يرى السحاب جبالا •

وان هذا بلا شك نوع من العلم بالكون فوق مافيه من دلالة على اعجاز القرآن، اذ أن ذلك الوصف لا يمكن أن يكون من محمد ، لانه لم يرتفع حتى يكون فوق السحاب ، فلا بد أن يكون الوصف بعلم الله تعالى ، والكلام كله من عنده سبحانه ، لا من عند محمد •

وأنت ترى أوصافا كثيرة للارض والسماء لاتكون الا من الأمي الذي لايقرأ ولا يكتب ، أو لايعلم علوم الكون وما يجرى فيه ، وما كانت معروفة عند العلماء في عصر نزول القرآن ، كالعلم بطبقات الارض والسماء ، ذكرها القرآن والباحثون لايزالون دائبين في البحث عنها ، وعلمهم يصدق بالقرآن ، اقرأ قوله تعالى : « الله الذي خلق سبع سموات ، ومن الارض مثلهن ، يتنزل الامر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » (١) •

وأقرأ قوله تعالى : « هو الذي خلق لكل مافي الارض جميعا ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شيء عليم (٢) • وقوله تعالى « تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور ، الذي خلق سبع سموات طباقا ، ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر ، هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » (٣) •

واقرأ قوله تعالى « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا » (٤) •

وترى النص الكريم يفرق بين الشمس والقمر ، فيجعل الشمس هي السراج الذي يضيء ، والقمر نورا مقتبسا من غيره ، وهو الشمس •

---

(١) الطلاق : ١٢   (٢) البقرة : ٢٩
(٣) الملك : ١ ــ ٤   (٤) نوح : ١٥ ــ ١٦

واقرأ قوله تعالى : « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا ، وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر او اراد شكورا » (١) .

ويقول سبحانه فى خلق السموات والارض ، وأدوار خلقهن « ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بامره ، الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين » (٢) .

ولقد بين القرآن أن السموات والارض كانتا شيئا واحدا، وأن الارض انفصلت عن السماء وتكونت فيها القشرة الارضيه ، وكان عليه الماء ، ومنه كانت الاحياء التى خلقها الله تعالى ، واقرأ فى ذلك .

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ، ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتنا معرضون » (٣) .

وترى أن النص الكريم صريح فى أن السموات والارض كانتا كونا واحدا ، وفصل الله تعالى جزءا منه وهو الارض ، وكانت فيها هذه الحياة التى يحياها الحيوان والطير فى السماء ، والسمك فى الماء ، والزرع فى الفيحاء .

واذا كان العلماء اليوم يقررون أن الكون ابتداء خلقه بالسديم ، وهو يشبه الدخان ، فقد صرح القرآن الكريم قبل ذلك ، وقبل أن يعلموا ، فقال تعالى فى خلق السموات والارض : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى الى السماء ، وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » (٤) .

---

(١) الفرقان : ٦١ — ٦٢
(٢) الاعراف : ٥٤
(٣) الانبياء : ٣٠ — ٣٢
(٤) فصلت : ٩ — ١٢

ونقف وقفة قصيرة عند هذه الآيات البينات ، فترى الله سبحانه وتعالى بين لنا أن الارض خلقها فى يومين ، واليوم هنا كما أشرنا من قبل ليس هو اليوم الذى نعرفه ، انما هو الدور فى التكوين ، وهو كونها مع السموات رتقاً ، وهذا دور ثم انفصالها وهذا دور ثان ، ودوران آخران للارض جعل فيها رواسى عالية ، وهى الجبال ، وخلق فيها الماء وماتبعه من خلق للاحياء من حيوان ونبات ، فكانا أربعة أدوار .

ويبين سبحانه أن السماء والارض كانتا دخانا ، وهو ما نحسب أنه السديم الذى يقوله العلماء .

٢٢٤ — وان القرآن الكريم فيه اشارات بينات الى علم الكون ، ونعتقد أن الذين درسوا علوم الكون فى السموات والارض وما بينهما لو تتبعوا آيات القرآن الكريم التى تعرضت لذكر الكون لوجدوا حقائق كثيرة مما وصل اليه العلم الحديث قد تعرض لها القرآن بالاشارة الواضحة التى تجمل ولا تفصل ، وهى فى كلتا الحالين صادقة كل الصدق بينة لمن يطلب الحقائق الصادقة ، وان بضاعتنا فى علوم الكون محدوة لاتسمح لنا بالخوض فى كلام تفصيلى فى هذا ، وقد رأينا كثيرين من العلماء المخاصين المحققين قد تعرضوا لهذا ، فمنهم من بين طبقات الارض ، كما أشار القرآن ، ومنهم من بين غير ذلك .

ونحن نرحب ببيانهم ، ولكن لابد من ملاحظتين :

الملاحظة الاولى : أنهم يحاولون أن يحملوا القرآن نظرياتهم ، وعليهم أن يفهموه كما تبين ألفاظه ، وكما تومىء اشاراته ، وذلك لأنهم أحيانا يحملون القرآن مالا يحتمل ، ويرهقون ألفاظه بالتأويل ، وأحيانا يأتون بنظريات لم تكن قد حررت من بعد من الشك ، والنظر ، وقد تتغير ، ولا يصح أو يبقى القرآن تتردد معانيه باختلاف النظريات ، بل ان الواجب أن ندرس ما فى القرآن على أنه حقائق ، فما وافقه من العلوم قبلناه .

الملاحظة الثانية : أن يدرس الكون فى القرآن على أنه حقائق ثابتة هى مواضع

التسليم من المؤمن بالله تعالى وبالقرآن ، فلا تجعل حقائقه موضع نظر ، بل ان الايمان بالقرآن يوجب الايمان بكل ما اشتمل عليه ولا يصح لنا أن نترك ظاهر القرآن ، ونتجه الى تأويله الا أن يكون الظاهر يقبل التأويل ، وتكون حقائق العلم الثابتة تقتضي الاخذ بالتأويل الذى يحتمله القرآن من غير تعسف ، ولا خروج بالالفاظ الى غير معانيها •

وانتا بهذه الدراسات العميقة المسلمة بحقائق القرآن نفتح مغاليق فى العلم ، ونكتشف الحقائق الكونية بهداية من القرآن ، على أنه المرشد لها ، وليس التابع ، ولا الخاضع • وكتاب الله تعالى هو كتاب الحق ، والصدق ، والعلم ، لأنه من عند الله الذى لا يخفى عليه شىء فى السماء ولا فى الأرض ، وهو كتاب الوجود ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها •

الإنسان فى القرآن

٢٢٥ — ذكر الله تعالى أنه خلق الإنسان من طين ، وخلق الجن من نار ، وقد بين ذلك فى أصل الخليقة ، وقد ذكر الله تعالى فى آيات وسور مختلفة ، وكلها سيقت بالبيان المتناسق فى موضعها وموضوعها ، ولنذكر من غير اختيار آيات كريمات فى موضع منها • قال تعالى فى سورة البقرة :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك • قال : انى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ، ان كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم • قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون • واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها

فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » (١) .

وان هذا النص الكريم يبين ثلاث حقائق كانت مع الانسان :

أولاها : أنه أوتى استعدادا لعلم الأشياء ، أى علم الكون وما فيه ، لأن الله تعالى سخرها له ، ولا يتحقق ذلك التسخير الا اذا أودع الله تعالى نفسه القدرة على العلم بها . ولذلك أنبأ الملائكة بأسمائها .

الثانية : أن فى طبيعة الانسان الاستعداد للاغراء ، ومن هذه الناحية جاء ابليس فأغرى أبوى الإنسان بالأكل من الشجرة ، وقد نهاهما الله تعالى ، ولكنهما تحت تأثير ذلك الاغراء نسيا نهى الله ، كما قال تعالى فى وصف آدم أبى الخليقة « فنسى ، ولم نجد له عزما »(٢) .

الحقيقة الثالثة : أن آدم نزل هذه الأرض ، وقد تلقى كلمات الله تعالى ليكون للفضيلة ، ويستمسك بها ، ولكن كان معه فى الأرض ابليس يغرى ذرية آدم ويغويها ، كما قال تعالى عنه « لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين » (٣).

هذا بيان الله تعالى فى ابتداء خلق الإنسان .

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك خلق الإنسان بالتناسل ، فقال تعالى :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (٤) .

ويقول سبحانه وتعالى : « انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً ، أنا هديناه السبيل اما شاكراً ، واما كفورا » (٥) .

ويقول تعالى فى خلق النفس الإنسانية فى الإنسان : « ونفس وما سواها ،

---

(١) البقرة : ٣٠ — ٣٦ (٢) طه : ١١٥ (٣) ص : ٨٢ — ٨٣
(٤) المؤمنون : ١٢ — ١٤ (٥) الانسان : ٢ — ٣

فألهمها فجورها وتقواها » (١) •

ويقول سبحانه فى القوة المدركة فى الإنسان ، التى بها يكون التكليف والحساب والثواب والعقاب : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى • ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » (٢) •

ويذكر سبحانه خلق القوى الإنسانيـة فى القرآن ، فيقول تعالت قدرته : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لـكم السمع والأبصار والأفئدة لعلـكم تشكرون » (٣) •

ويذكر سبحانه فى كتابه الـكريم أدوار الإنسان ، فيقول تبارك وتعالى : « والله خلقكم ، ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لـكى لا يعلم بعد علم شيئاً ، ان الله عليم قدير ، والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملـكت أيمانهم فهم فيـه سواء ، أفبنعمـة الله يجحدون ، والله جعل لـكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لـكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات • أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون»(٤) •

وذكر الله خلق الإنسان ، وما عهد اليه من تكليفات فى ثنايا القرآن الـكريم ، وقد ذكر الـكون على أنه مسخر للإنسان يكشف منه أسرار الوجود التى يكون فى طاقته أن يعلم بهـا ، ويذكر خلق الإنسان ، وما أودعه الله تعـالى من قوى ليعبد الله تعالى وحده •

ويذكر سبحانه أنه بمقتضى ذلك التكوين النفسى والعقلى وكل القوى التى خلقها سبحانه قد أخذ عليه عهداً أن يكون ربانياً لله سبحانه وتعالى : « اذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربـكم ، قالوا : بلى ، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هـذا غافلين ، أو تقولوا

---

(١) الشمس : ٧ — ٨
(٢) القيامة : ٣٦ — ٤٠
(٣) النحل : ٧٨
(٤) النحل : ٧٠ — ٧٢

انما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون » (١) .

وبذلك يبين سبحانه أن المواهب الإنسانية التى خلقها الله فى الإنسان عهد بينه وبين ربه ، فان استجاب لفطرته ، ارتفع ، وان خالف واتبع الشيطان هوى . ويبين سبحانه كيف يهوى فيقول سبحانه بعد الآية السابقة :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون . من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (٢) .

النفس الانسانية فى القرآن :

٢٢٦ — اذا اتجه التالى للقرآن الى دراسة النفس الإنسانية من خلال آياته ، فانه بلا ريب فى مكان فسيح للدراسة ، يعطى مجموعة من المعلومات الحقيقية المصورة للنفس فى ايمانها ، وفى فجورها . ويمكن أن يجد الإنسان فيها قواعد علمية تكشف عن نواميس النفوس ، وما تتأثر به ، وما تتجه اليه فى ايمانها وفى انحرافها . ولنتجه الى بعض هذه المعانى فى كتاب الله تعالى ، ولا ندعى أننا نستطيع الاحاطة بها علما ، ولا احصاءها ، ولو بالتقريب،فان ذلك يحتاج الى تفرغ لا قبل للأخذ به الا أن يكون ممن يعنون بدراسته ، أو من المتخصصين فى علم النفس . ولنضرب بعض الأمثال ، وكثير منها فى قصص القرآن ، وبعضها فى شرح أحوال المؤمنين ، وأحوال الكافرين .

---

(١) الاعراف : ١٧٢ — ١٧٤ (٢) الاعرف : ١٧٥ — ١٧٩

(ا) من هذه الأمثلة أن النفس التى تسارع الى الاعتقاد من غير دليل سابق ، ولا فحص لقول لاحق من شأنها أن تقع فى الخطأ • واذا أصرت بعد البيان كانت فى ضلال ، وأصابها الصمم عن الحقائق ، والعماء عنها • اقرأ قوله تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات • فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين : وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وان وجدنا أكثرهم لفاسقين » (١) •

ان الذى وهبه الله الهداية لفهم القرآن الكريم بعباراته واشاراته ، تبدو بين يديه الحقيقتان الآتيتان :

أولاهما — أنه سبحانه يقرر أنه ليس من شأن الذين سارعوا الى التكذيب من غير أن يفحصوا ويدرسوا ، وأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يقتضى قلبا مذعنا لما يأتى به الدليل ، لا أن يكون سابقا بالحكم قبل الدليل • وقد أشار سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله تعالت كلماته : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل » • وواضح أن العلة فى سد باب الإيمان هو مسارعتهم بالتكذيب من غير برهان ، ومن يكذب بالبرهان لا يؤمن بما جاء به البرهان •

الحقيقة الثانية — أن المسارعة بالتكذيب تؤدى الى تغليق القلب عن أن يصل اليه النور • وبتوالى التكذيب من غير دراسة للأدلة يكون منع الهداية • ولذلك يقول الله تعالى : « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » (٢) •• أى بهذه الحال ومثلها يطبع الله تعالى على قلوب الكافرين ، ويتحقق فيهم قول الله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (٣) •

(ب) ولننتقل الى مثل آخر من كتاب الله ، وانه المعين الذى لا ينفد فى دراسة النفس الانسانية ، ذلك المثل هو قوله تعالى : « ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » (٤) •

فهذا النص الكريم يبين لنا قاعدة فى النفس ، يسترشد بها المربى والمهذب ،

---

(١) الاعراف : ١٠١ — ١٠٢
(٢) الاعراف : ١٠١
(٣) البقرة : ١٧١
(٤) آل عمران : ١٥٥

والذى يحاول معالجة النفوس المريضة ، اذ يعرف سبب المرض فيطب له .

اذ يبين الله سبحانه وتعالى ؛ أن الذين أعرضوا عن الوقوف يوم التقى الجمعان ، سبب توليهم أنهم أصابتهم ذنوب ، وأن الذنب يسهل الذنب ، والمخالفة تجر المخالفة ، وأنه لأجل الطب لهم لابد أن يعالج الذنب الأول بالحمل على الإقلاع عنه ، وقد يكون ظهور مغبته السيئة علاجا له . ولذلك قال الله تعالى : « ولقد عفا الله عنهم » ؛ لأنهم أدركوا سوء ما كان لهم .

(جـ) ومن هذه الأمثلة ما قرره الله تعالى من أن النفس غير المؤمنة لا تنضبط ، ولا تستقر على حال ، والنعمة تبطرها وتطغيها ، والنقمة تؤئسها وتشقيها ، ولا ضبط ولا انضباط ، ولا علاج لذلك الا بالصبر . اقرأ قوله تعالى : « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه ، انه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور .. الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » (١) .

وان هذه الآية الكريمة تشير الى أن ذلك الفرح الطاغى فى حاله ، واليأس المميت فى وقته مرض انسانى ، وان علاجه الصبر ، لأن الصبر ضبط النفس ، فلا تنزعج للألم ولا تطغى بالنعم .

(د) وقد بين الله تعالى أن سلوك غير الحق هو اتباع للظن غير الناشىء عن دليل ، بل عن الهوى . وقد قال تعالى فى ذلك : « ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم ، ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً » (٢) .

فهذا النص الكريم يبين مرض النفس التى تضل ، ويذهب بها الضلال الى متاهات من الباطل . وذلك المرض هو الوهم . فهم يتوهمون ، ثم يهوون ، ثم يظنون . وليس عندهم دليل يكون علما ، بل عندهم أوهام وظنون . وان دارس علم النفس التربوى يجد فيه بابا من أبواب التربية العقلية بأن يباعد بين الناشئة والأوهام .

---

(١) هود : ٩ — ١١ (٢) النجم : ٢٧ — ٢٨

(هـ) ومن الأمثلة لبيان أحوال النفوس بيان أحوال النفوس التى لا تفكر الا فى دائرة نفعها أو ضررها . ومن شأن هذه النفوس ان تكون أثرة متقلبة ، لا تذعن للحق ولـكن تذعن لنفعها وضررها .

اقرأ قوله تعالى : « واذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (١) .

وهذا تصوير للنفس التى فقدت الإيمان ، وحرمت الخير ، ولا تفكر الا فى محيطها ، وهى بلا ريب غير الذين قال الله تعالى فيهم : « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » (٢) .

(و) ولنكرر مثلا ذكرناه فيما تلونا من قبل ، ونذكره هنا من ناحية البيان النفسى فيه ، وهو مثل ولدى آدم ، فالله تعالى يقول : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك ، قال انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين . من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . (٣) .

هذه الآيات البينات فيها كشف عن النفس المؤمنة المطمئنة الراضية ، وكشف عن النفس الحاسدة الحاقدة .

(ا) وهى تدل على أمور نفسية تصور مصدر الشر والخير ، فالنفس المؤمنة

---

(١) يونس : ١٢ (٢) الحشر : ٩ (٣) المائدة : ٢٧ — ٣٢

تعرف الأمور على وجهها وتدرك الحق ، وما أوجبه ، فهى ترد سبب قبول القربان الى التقوى والخوف من الله •

(ب) والنفس النقية هى التى تمتلىء بذكر الله وتستشعر خوفه دائماً ، وأن الاعتداء انما يكون حيث يختفى الخوف ، ويظهر الطغيان ، ولذلك علل عدم رد الاعتداء الذى بادره به أخوه بأنه يخاف الله رب العالمين وأن القتل انما هو جريمة فى حق من خلقهم الله تعالى ، وهو ربهم •

(حـ) وتشير الآية الى النفس منطوية على الخير ، وان الشر عارض لها ، ولذا رد المؤمن التقى قول أخيه وتهديده بالقتل بقوله « ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك » وفى هذا أشار الى النفس التى لم تدنس بشر ليس من شأنها أن تبسط يدها بالقتل •

(د) والآيات تدل على أن الحسد هو أساس الاعتداء ، فلو انخلع من القلوب ما كان شر ولا اعتداء فى الأرض •

(هـ) وتدل الآيات أيضاً على أن الاعتداء بالأذى ليس هو الاصل بالنفس الانسانية ، فهو عندما اتجه الى قتل أخيه عالج نفسه ليحملها على مطاردته فى قتله ، ولذا عبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » لأنه خسر أخاه وخسر نفسه ، فأفسدها •

(و) وتدل ثالثاً على أن رؤية المعتدى عليه ، والاعتداء قائم يبعث على الندم ، والآيات من بعد ذلك تبين أن أساس الكثير من الجرائم هو الحسد فلو اجتث من النفوس ما كان اعتداء ، ولكن الله تعالى يبلو به الناس ليعلم الخير والشر •

ولا شك أن الدارس للنفس الانسانية يجد فى القرآن معيناً لا ينضب ، ولو أن الناس عكفوا عليه لوجدوا فيه أعظم مصدر للدراسات النفسية والاجتماعية •

قصة يوسف فى سورته :

٢٢٧ ـــ ان المتتبع لقصص الأنبياء فى القرآن يجد أنه يتجه الى بيان دعوة

النبى الذى خبره بالتوحيد ، ومنع الاشراك بالله ، والاصلاح ودفع الفساد ، وكيف لاقى قومه دعوته ، وما احتج به من ادلته ، وما ساق لهم من براهين ، وانواع المعجزات المختلفة التى أمد الله تعالى النبى الذى يقص خبره ، وما آل اليه أمر الأقوام الذين دعاهم الى الهدى والى طريق مستقيم فأبوا واستكبروا ، هذا شأن القصص القرانى الذى يسوقه الله تعالى فى كتابه ولكنا نجد ذلك يتخلف فى قصة نبى الله يوسف عليه السلام . حتى يتوهم القارىء لها ان نبى الله يوسف ما كانت له دعوة يدعو اليها ، ولا قوم يخاطبهم حتى تهجم المنحرفون يقولون زوراً من القـــول .

ولكن الدارس للسورة الكريمة يجد انها طراز آخر من القصص ، وفيها كشف عن النفس فى ناحية من نواحيها ، ودراسة لها فى علاقتها بالمجتمع الذى تعيش فيه . اذ هو توجهها ، وان الدارس لها يجد فيها بياناً للأسرة فى علاقاتها بعضها ببعض مع علاقة الآباء بالأبناء ، وعلاقة الأبناء بعضهم مع بعض وعلاقات أبناء العلات ، كيف يختصمون وكيف يجتمعون ، وما يؤدى الحسد بين أبنـــاء العلات بسبب ماتثور به النفوس المثوقة ، وكيف تتصور ما ليس واقعاً على أنه واقع ، ثم ما يؤدى اليه الاندفاع بدائع الحسد المقيت .

ولنبتدىء بايجاز القول فى القصة من أولها . كان يوسف وأخوه الشقيق من أم غير أم سائر الأخوة ، والأب الحانى نبى الله يعقوب . يـــرى كل أولاده فى منزلة واحدة ، ولكنه بنظره العميق الشفيق يرى فى الأخـــوة الكبار نظرات الى الصغيرين مالا يطمئن به فيعمل على ألا يكون منهما مايثير ، ويؤجج النظرات الماقتة ، يرى يوسف رؤيا صادقة « انى رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين» ، فيخشى الأب الحانى أن يؤرث ذلك عداوة أخوته ، فينهاه : « لاتقصص رؤياك على اخوتك ، فيكيدوا لك كيداً » .

ولكن الحسد يوهم الكبار أن أباهم يؤثر يوسف وأخاه بمحبته لما يكون من فضل عطف على الصغير من الايثار . قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منـــا ونحن عصبة » . وهنا يصل الحســـد الشيطانى الى غايته : « اقتـــلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » . ولكن

الشر لايكون موضع اجمـاع ، فلم يكن اجمـاع على قتله . بل قال قائل منهم لاتقتلوه ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين » ارتضى الاخوة ذلك الحل الذى ينزل من القتل الى ابقائه فى الجب وهو صغـير لا يعلم مآله ، ولكنهم يحتالون ليأخذوه من أبيه برضاه ، « قالوا يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف ، وانا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وانا له لحافظون » ، ولكن الأب الكريم بالهام الأبوة يتوجس خيفة على ولده ، ويخشى عليه السوء ، ولكنه يخفى فى نفسه سوء الظن بهم . أو لا يكون سوء ظن ، ويذكر أنه يحـزن اذا غاب عنه مستوحشاً بغيبته ، فيقول : « انى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون » . أخذوه ونفذوا مادبروا وألقوه فى غيابة الجب، ولكن نفس يوسف، ألهمها الله بأنه سيكون الأعلى ، وسينبئهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون . عادوا الى أبيهم يبكون . قالوا « انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » وأحسوا فى أنفسهم بالظنة تعـرو أباهم ، فقالوا ، « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب » ، ولكن الأب بفراسته وبالهام الأبوة ماصدقهم . بل قال لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون » .

٢٢٨ — هذه قصة ساقها القرآن الكريم لا لمجرد الاتعاظ والعبرة فقط ، بل فيها كشف عن النفوس يجد فيها الدارس النفسى مكاناً للفحص يهديه اليه كتاب الله تعالى .

(ا) فهى أولا : تبين أن علاقة أبناء الاعيان ، وهم الاشقاء لا تماثلها علاقة أبناء العلات وهم الاخوة والأخوات من الأب من غـير الأم ، وتصور الغـيرة الشديدة التى تكون بين الأبناء ولو كانوا كباراً ماداموا فى ميعة الصبا ، وأن هذه الغيرة تدفع الى الحسد ، والحسد يدفع الى البغضاء ووراء البغضاء .. الجريمة.

(ب) وهى أيضاً تصور لنا أن الأبوة الشفيقة توحى بالتظنن ، وبالاحتراس، فقد تظنن نبى الله تعالى يعقوب عليه السلام فى أن قصص يوسف على اخوته خبر الرؤيا قد يدفع الى أن يكيدوا له كيدا ، ولذا أوصاه بألا يخبرهم بهـا وتظنن

عندما أرادوا أن يخرجوا به ، ولكنه لم يتمكن من منعه عنهم .

وأنه اذ لم يتمكن من منعه عنهم أبدى مخافته من أن يأكله الذئب ، وقد كانت منه هذه الكلمة ، وكأنها كانت توجيهاً لهم ليبدو العذر الذى يعتذرون به ، فجاءوا واعتذروا بأن الذئب أكله ، فمن كلامه ابتدعوا قولهم ابتداعا .

(جـ) ولكنهم جاءوا أباهم عشاء يبكون ، فما سر هذا البكـــاء ؟ ذلك أنهم اذ فعلوا فعلتهم كان فيهم بقية من شفقة فكان هذا البكاء ، كما ندم أحد ابنى آدم عندما قتل أخاه .

(د) وان يعقوب عليه السلام لم يصدق كل التصديق قولهم ، بل لم يصدق مطلقاً ، واستعان بالصبر الجميل ، وهو الصبر من غير أنين ، وجدير أن يكون من النبيين .

ولا شك أن فى هذا كله توجيهات نفسية لمن يتدبر ويعتبر ، ويستبصر ، وكان حقاً على الذين يدرسون مجتمع الاسرة أن يجعلوا من هذا مثابة للدرس يدرسونه ويبنون عليه ، ويسترشدون به .

وان قصة أسرة يوسف لم تنته عند هذه النهاية ، بل ان الاخوة من بعـــد سيلتقون ، وسيتعاتبون أو يتلاومون ، لقد وصل يوسف فى علوه عليه السلام الى أن مكن من عرش مصر ، فقد مكن الله تعالى له فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء .

جاء اليه اخوته فعرفهم ، ونسى بما أنعم الله به عليه مساءتهم ، ولعله استأنس بلقائهم ولم يستوحش ، ولكنه طلب أخاه شقيقه ، وقال لهم ، « ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه أباه ، وانا لفاعلون » ولكن شفقة الاخوة . وشفقته بأبيه وقومه تغلب طلبه ، فيجعل بضاعتهم فى رحالهم وهم لا يعلمون ، فكانت ثمة محبة الاخوة ، ومحبة الشقيق .

رجعوا الى أبيهم ، وفى هذه الحال كانوا صادقين « قالوا يا أبانا منع منـــا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون » ولكن ذكراه الأليمة تتحرك ،

فيقول : « هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

ثم اكتشفوا من بعد ما جهله عليهم يوسف الصديق « فتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا . ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير » وفى هذه المرة كان يعقوب عليه السلام أحرص من المرة الأولى ، فأخذ موثقاً ليأتنه به الا أن يحاط بهم ، فآتوه موثقهم .

وتحركت الشفقة الأبوية عليهم جميعاً ، وخشى عليهم العين ، فقال عليه السلام لهم : يابنى لاتدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، ان الحكم الا لله عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » .

دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوهم ، وألتقوا بأخيهم . وآوى يوسف اليه أخاه ، وفاضت نفسه اليه قائلا له « انى أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون » .

وأراد أن يبقى أخاه معه ، فلما هموا بالرحيل ، وضع المكيال المصرى فى رحل أخيه «ثم أذن مؤذن أيتها العير أنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الارض ، وما كنا سارقين ، قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين فبدأوا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه » ثم وجده فى وعاء أخيه ، وبحكمهم أخذ أخاه وأبقاه عنده وتحركت فيهم الحال التى كانوا فيها عندما رموا بيوسف فى الجب ، وقالوا : « ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل » وبذلك ثارت فى نفوسهم الغيرة القديمة ، واذا كانت فى أول أمرها قد دفعتهم الى القتل ، أو السير فى سبيله ، فقد دفعتهم هذه المرة الى الكذب ورمى البرىء بالسرقة ، فأسرها يوسف فى نفسه ، ولم يبدها لهم ، فقال أنتم شر مكاناً ، والله أعلم بما تصفون ، فأحسوا بالتبعة عند لقاء أبيهم، وأرادوا أن يتشفعوا بحال أبيهم الشيخ . فقالوا : « ان له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ

أحدنا مكانه ، انا نراك من المحسنين • قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده ، انا اذاً لظالمون » • يئسوا من أن يعودوا بأخيهم لأبيهم الشيخ ، وتعرضوا للظنون التى لها فى ماضيهم ما يؤيدها ، وهموا بالعودة ، ولكن كبيرهم كان احساسه بالتبعة أشد من سائرهم فقال لهم « ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ، ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق ، وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسئل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها ، وانا لصادقون » • عادوا الى أبيهم ، وقالوا ما لقنهم اياه أخوهم الكبير الذى تخلف عنهم استحياء من لقاء أبيه ، ولكن الأب الشيخ لم يطمئن الى ماقالوا ، وقال لهم بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » •

وان الأمر اذا تأزم كان من لطف الله بعباده أن يفتح نافذة من الأمل فى وسط التأزم فكانت تلك النافذة ، وقال نبى الله الشيخ : « عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً انه هو العليم الحكيم » وفى وسط هذه الحال استيقظ الماضى فتذكر ابنه المفقود يوسف الذى لا يعلم حاله ، أهو حى يرزق أم ميت قبر ، وقد برح به الحزن ، ويقول الله تعالت كلماته فى وصف حاله : « وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن ، فهو كظيم » رأوا أن أباهم لايزال يذكر يوسف ، ولا ينى عن ذلك حتى يتلف جسمه أو يموت ، وصارحوه بذلك ، فقال الشيخ الجريح القلب : « انما أشكو بثى وحزنى الى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون » •

وفى وسط هذه الغمة عادت اليه بارقة الأمل كما عادت أولا ، فقال بحنان الأب الشفيق : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيئسوا من روح الله انه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون » •

استجابوا لطلب أبيهم وذهبوا يبحثون ، وان مكان الأخ معروف عندهم ، وأما الأخ الذى غيبوه ، فهم لا يعلمون حاله ولا مآله •

ذهبوا الى المكان الذى تركوا فيه الأخ الأخير ، فدخلوا على عزيز مصر

« يوسف » وقالوا « يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، ان الله يجزى المتصدقين » •

هم جاءوا للبحث عن أخيهم ، ولكنهم جعلوا المدخل اليـه أن يقولوا انهم جاءوا ببضاعة مزجاة ، وهنا نجد يوسف الصديق يحن الى جمع الشمل بعد اذ تفرق ، فيقول لهم عاتباً ، معتذراً عنهم اذ فعلوا ما فعلوا جاهلين • يقول الأخ المحب لاخوته : « هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون » وهنـا تلهمهم عاطفة الأخوة الحبيبة الى أنه يوسف ، وان تغيرت الاحوال ، واختفت سيمى الطفولة وبدت سمة الرجولة : « قالوا أئنك لأنت يوسف • قال أنا يوسف، وهذا أخى قـد من الله علينا • انه من يتق الله ويصبر • فان الله لا يضيع أجـر المحسنين • قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين » •

وهنا تظهر الأخوة المحبة المتغاضية عن الاثم من الجاهلين ، فيقول الكريم ابن الكريم ، « قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » •

وقد علم حال أبيه وطب لعلاجه ، قال : « اذهبوا بقميصى هذا ، فألقوه على وجه أبى يرتد بصيراً وأتونى بأهليكم أجمعين •

كان الأب العطوف يحس ، وهم فى الطريق اليه بأن ريح يوسف تهب نحـوه « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله مالا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفـر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سـوف أستغفر لكم ربى ، انه هو الغفور الرحيم » •

ولا نقف طويلا عند ارتداد البصر الى نبى الله يعقوب عليه السلام بعـد أن ابيضت عيناه من الحزن أهو بسبب الفرحة الشديدة ، أم هو أمر خارق للعادة ، وما ذلك بغريب على الأنبياء ، ونحن نميل الى الثانى ، فان يوسف عليه السلام كان متأكداً ، ولم يكن متظنناً له •

جاءت الأسرة الى مصر حيث سلطان يوسف عليه السـلام ، والتقت على المحبة ، بعد أن فرقتها غيره الجهل ، فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبوه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجداً ، وقال

يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقاً ، وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخواتى ، ان ربى لطيف لما يشاء ، انه هو العليم الحكيم » •

٢٢٩ — لم نتتبع قصة الصديق نبى الله يوسف من وقت أن رموه فى الجب ، وأردنا أن نربط بين أجزاء الأسرة لنعرف مقدار ما يتبين من القــرآن من حال النفوس فى ميعة الشباب وجهلته ، وما يكون منها بعد أن تسكن عواصف الغيرة، وتتوافر بواعث الرحم •

ذهب اخوة يوسف الى أبيهم عشاء يبكون ، ورجحنا أن يكون بكاء حقيقياً ، وليس كدموع التماسيح ، كما يقولون وقلنا انها انفعالة الرحم ، وان لم يكن لها أثر عملى ، اذ كانوا يستطيعون أن يعودوا ، ويستنقذوه من الجب الذى ألقوه فيه • ويظهر أنهم كانوا بين عاطفتين متضاربتين : عاطفة الرحم الجامعة ، والغيرة الملحة ، الباعثة على البغضاء ، فذرفت عيونهم بالعاطفة الأولى ، وأقعدتهم الثانية عن أن يزيلوا مافعلوا ، وما ارتكبوا فى حق أخيهم •

ونترك أولئك الاخوة فى حيرتهم ، واضطراب عواطفهم ، ولنتجه الى الأب المكلوم الذى فقد ولده فانا نلاحظ فيه ثلاث عواطف ، كل واحــدة تجرى على لســانه •

أولاها — ألم الفراق الذى أصاب نفسه ، لقد كان ولده الحبيب المقرب الصغير، والصغر ذاته يجلب المحبة ويجعله أكثر قرباً ، وآثر بالمحبة دن غير أن يفقد أحد من أولاده محبتــه ، فالحب الأبوى يقبل الاشتراك ، ولكن فى تفــاوت بالسن ، وبالقرب ، وبالخلق ، وبالمخايل التى تدل على الانفراد بمزايا دون غيره •

والثانية — أن الذين كرثوه بهذه الكارثة التى هدت كيانه ، وجعلت عينيــه تبيضان من الحزن ، هم أولاده ، وأفلاذ كبده ، فلا يمكن أن يكونوا أعداءه ، ولا يمكن أن يبغضهم ، لأن بغضهم يكون ضد الفطرة وتلك حال لايصبر عليهــا الا أولو النفس القوية التى هى نفوس الأنبياء والصديقين وفى الموقف الذى

وقفه الشيخ من احساسه بالألم من أولاده ، مع احساسه بعاطفته مجال للدرس والتحليل ، وجه القرآن الكريم اليه أنظار الدارسين والفاحصين .

والثالثة — أن يعقوب عليه السلام كان فى قلبه احساس عميق بأنه سيلقى ابنه فى المستقبل ان لم يكن فى القريب العاجل ، ففى البعيد الآجل ، فهو اذ يتهم أبناءه ، ويقول لهم : « بل سولت لكم أنفسكم أمرا » — يقول أيضاً صابرا «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ويقول وقد غاب عنه ابنه الثانى بعد أن تباعد الزمان ، وأن يكون قد غمى على الموضوع النسيان : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً ، انه هو العليم الحكيم» .

وان ذلك الاحساس الكريم الذى يتغلغل فى النفس المؤمنة موضع تحسن دراسته ، وتعرفه ، ولا شك أن هذا ليس من خواص الأنبياء ، بل طبيعة فى النفوس المؤمنة الطاهرة الملهمة من غير وحى ، انما هو الصفاء النفسى .

وان قصة اخوة يوسف مع أخيهم وأبيهم وموقف أبيهم ، وهو الحامل للأسى من غير أن يقف من أبنائه موقف تنبيه للواجب الذى يتخذ عند ما تصاب الأسرة فيكون على كبيرها أن يجمعها ولا يفرقها ولا يذهب به فرط محبته وأساه ، الى تبديل المحبة بالعداوة .

٢٣٠ — نعود الى الأولاد الذين آذوا أخاهم ، ولجت بهم الغيرة ، لقد اعتراهم الندم ابتداء وان لم يظهر له أثر عملى .

ولكنهم علموا مقدار خطئهم عندما بلغوا أشدهم ، أدركوا مقدار مافقدوا من أخ ، وان لم يكن كاحساس أبيهم بل احساسهم تشوبه بقايا الغيرة وقد تبينت عندما أحسوا بأن أخاهم الثانى تسبب فى تأخير بضاعتهم .

وان الغيرة كما نرى فى كلامهم تثير النفس ، فلا تندفع الى البغضاء فقط بل الى الكذب ، ولكنهم على كل حال كانوا فى كبرهم يغلب عليهم حنان الأخوة ، ولشد ماكانت فرحتهم عندما علموا أن عزيز مصر هو أخوهم ، وقد قالوا وهم فى طريقهم نمير أهلنا ونحفظ أخانا .

ان قصة يوسف فى أسرته هى قصة أسرة ، فرقت الغيرة بعض عناصرها ، فكانت حكمة الأب الحانى هى التى منعت المأساة من أن تسير الى غاية من الضلال . بل وقف بها فى أقصر حدودها ، وهى تبين كيف تعود المحبة بسيادة العقل ، وفعل السن ، واثارة المودة .

وفى ذلك درس حكيم للأسر التى تصاب بمثل هذه ، وفيه أيضاً دروس نفسية عميقة لمن يطلبها .

المجتمع المصرى فى عصر يوسف :

٢٣١ — ألقى يوسف فى الجب ، وصارت حياته عرضة لكل مفترس . وقد ذكرنا آخذين مما تلونا أنه لم تصبه رعدة الخوف ، وألقى فى قلبه الاطمئنان . وألهمه الله تعالى أنه ناج ، وأنه سينبىء اخوته بأمرهم ، فى وقت يكونون فيه فى البأساء ، وهو فى السراء ، ويكون هو العزيز بعناية الله تعالى ، وهم الأذلاء .

ولم يمكث فى الجب طويلا ، بل جاء جماعة ممن يسيرون فى الصحراء ، وألقوا فى الجب دلوهم ليستنبطوا ماء ، فرأوا غلاماً استبشروا به ، وكان فى ذلك الزمن وما قبله وما بعده يفرض الرق على كل غريب ، حتى جاء الاسلام فألغى هذا وغيره ، وقد أخذوه بضاعة ، وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة ، ولم يكونوا راغبين فى بقائه .

وقد توسم الذى اشتراه من مصر فيه الخير ، وقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وبذلك ربى فى كلاءة ربه كما صنع من قبله موسى، اذ ألقاه اخوته فى الجب حسدا وايذاء ، كما ألقت أم موسى ولدها وقد وضعته فى التابوت حرصاً أو فراراً به من الموت .

وبهذه المحبة التى أضفاها الله على من اشتراه مكن الله ليوسف فى الارض ، وألهمه الحكمة . وعلمه تأويل الاحاديث والرؤى . ولما بلغ أشده آتاه الله تعالى حكمة وقدرة على الحكم على الاشياء والاشخاص ، وصبراً وادراكا .

آل أمره الي أن يكون فى بيت حاكم مصر . وأن يكون خازن أسراره ،

ومتصلا بامرأته ، على أن يكون خادماً خاصاً .

وهنا نجد القرآن فى تلك القصة الواقعة يصور لنا نفس المرأة المترفة الفاكهة فى العيش والنعيم .

رأت على القرب منها فتى جميلا ذا فتوة وقوة ، فراودته عن نفسه ، وغلقت الباب ونادت طبيعته البشرية ، قالت له أقبل ، ولكنه فى خلق النبوة يقول لهـا معاذ الله ، انه ربى أحسن مثواى ، فالخلق يمنعه والوفاء يصده .

ولكنها أخذت فى الاغراء ، وأرادت أن توقظ فيه الغريزة ، ولعلها أيقظتهـا ولكن غلبه نور الهداية على الغريزة الدافعة ، اذ رأى نور الحق ، وهو نور ربه .

وفى هذه الصورة الواقعة صورة الحياة المترفة كيف تفسد النفوس ، وكيف يغرى بالرذيلة وجود الخدم الأقوياء فى خدمة ذوات الخدر ، وكيف تكون الارادة الصابرة كابحة للغريزة الجامحة وحائلة بينها وبين الشر .

تلك حال جديرة بالدرس على ضوء القرآن .

وتجىء من بعد تلك المعركة بين الهوى الجامح ، والحكمة والارادة القـوية هو يذهب الى الباب فاراً من الرذيلة ، وهى تذهب وراءه تجره اليها ، وتـكون المفاجأة لها ، وسرعان ماتكشف عن خلق المرأة وهو مسارعتها الى اتهام البرىء اذا لم يحقق رغبتها ، بل شهوتها ، فتستعدى عليه زوجها وتثير فيه الحمية ، لقد وجد سيدها لدى الباب الذى يتسابقان اليه ، هو ليفر ، وهى لتشده اليها .

« قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم » شكت ظلماً ، وحكمت ظلما ، ولكنه حكم ليس فيه الموت ، لأنها ترجوه لها بعد ذلك .

ولكن يوسف يدفع التهمة الكاذبة بالقول الصادق « قـال هى راودتنى عن نفسى » .

صارت القضية موضع نظر ، وقد وجد الشاهد الحسى الذى يشهد له ، فقد قد قميصه ، وقت الاستباق الى الباب .

فاستشهدا ذلك الشاهد ، فقال الحكم الذى حكم « ان كان قميصه قد من قبل

فصدقت وهو من الكاذبين » لأنه يقد وهو مقبل عليها ، وهى تدفع عن نفسها « وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » ، فرأوا القميص قد من دبر ، فهو كان يفر وهى تجذبه بشد قميصه ، فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم .

عرفت البراءة . وأن يوسف كان فريسة كيد النساء وتلك حال يوجه القرآن الكريم اليها لدراستها .

وهنا نجد السيد يبدو متسامحا . ولعله وجد معذرة لها فى جمال يوسف وكماله فاكتفى بأن قال « يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين » .

ونجد فى هذا الموقف توجيها للدراسات النفسية فى المرأة وفى الرجل العفيف، وفيما ينبغى ملاحظته فى داخل البيوت وأكنانها .

اذا خرج الخبر عن اثنين شاع ، ولو تواصوا بالاسرار فان الخبر قد شاع فى المدينة . وتناولته جماعات النساء . وانهن ليهمهن أمر الحب والمحبين « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً انا لنراها فى ضلال مبين » .

شاعت الاقوال فى المدينة ، وتناولته الجماعات . وعلمت امرأة العزيز بما يقلن . وما يدبرن وينشرن من أقوال ، وهى تعلم قلوبهن . وما يستويهن .

أعدت لهن متكئاً ولعله كانت وليمة اذ أعطت كل واحدة منهن سكيناً . وقالت اخرج عليهن « فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن حاشا لله : ماهذا بشراً ان هذا الا ملك كريم قالت فذلكن الذى لمتننى فيه » وأعلنت هواها ، ورغبتها الشديدة ، واصرارها ، وقد رأتهن يعذرنها : « وقالت لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وهنا نجد النفس المؤمنة تقاوم طغيان المرأة وتحكمها فيقول «رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ، والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين » .

تشايع القول وكثر ، وصارت امرأة العزيز قالة الجماعات ، فكان لابد أن يستر الموقف ، وستره فى الجماعات الظالمة ، أو الجماعات المنسترة تكون على المظلوم دائماً ، ولا تكون على الظالم أبداً • وذلك أن يسجنوه تخفيفاً للشائعة ، أو توجيهاً لها لغير أهلها وبدالهم من بعد مارأوا من الآيات ليسجننه حتى حين» •

٢٣٢ ــ هذه قصة فيها تكشف النفوس عن خبيئاتها ، وهى توجيهات لتالى القرآن الى حقائق النفوس ، رجالا ونساء أتقياء وفجارا •

دخل يوسف ، فى حياة جديدة ، بعيدة عن كل مظاهر الزينة وبهجتها ، واذا كان الشباب الغلام ردف النعمة بعد أن ذاق البلاء ، ابتداء ، فقد جاءه البلاء مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرة ينزل الى الضعفاء ويعاشرهم ، ويتصل بنفوسهم ، وعلمه الله تعالى تأويل الرؤيا •

يدخل معه السجن فتيان«وقال أحدهما انى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه ، نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين»

وهنا تبدو خوارق العادات والدعوة الى الله على يد نبى الله يوسف عليه السلام يقول : « لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ، ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر ، فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ، وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين » •

لاشك أن علم يوسف من غير معلم ، وتأويله للأحلام من غير ملقن بل بالالهام المجرد من خوارق العادات التي تجرى علي أيدى الأنبياء •

خرج السجين الناجي من السجن ، وصار ملازماً للملك ، ولكن فرحة الخروج والاتصال أنسته زميله في السجن فزادت المدة ليزداد تعلماً من أحوال الناس ، حتى وجد حاجة الملك الى من يؤول رؤياه ، فتذكر صاحبه عند الحاجة اليه ، وهذه كلها أحوال نفسية ينبه القرآن اليها وكان تأويل الرؤيا ، والتنظيم الاقتصادى الذى استلهمه يوسف الصديق من الرؤية ، ولنذكر الامر كما جاء في القرآن ، « وقال الذى نجا منهما واذكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسلون ، يوسف أيها الصديق ، أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » .

كان ذلك التأويل الصادق مصحوباً ببيان الترتيب الاقتصادى سبباً فى أن الملك رغب فى الاستغانة به ، قال ائتونى به ، فامتنع السجن الأبى عن الذهاب حتى تثبت براءته ، « فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله : مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، ان ربى بكيدهن عليم » فعرف الملك حالهن ، فسألهن « ماخطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن حاش لله ، ماعلمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدى كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسى، ان النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى ، ان ربى غفور رحيم ، وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » .

٢٣٣ — هذه وقائع وقعت من وقت أن دخل يوسف السجن الى أن خرج منه مستولياً على خزائن يديرها بحكمته ، ويسير نظامه بارادته ، وتعلمه من ربه ، وهو نبى يوحى اليه . وكل واقعة من هذه فيها تنبيه الى ناحية من نفس الانسان وارتباطه بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فدخوله السجن لكمال خلقه ، وكمال جسمه،

وما كان حوله ، وما يفعله الحكام ليدرءوا عن سمعتهم ، ما ينالها من سوء أساسه صادق ، ويكشف فيه عن نفس المرأة وسيطرة العاطفة عليها ، وكيف دفعتهـا عاطفتها فى موقفها الأول من مراودته ، ثم موقفها من اصرارها بعد أن أخـذت المعذرة المسوغة من النسوة ، ثم ما كان من عاطفة المحبة التى انتقلت من مراودة الى اعتراف ، والى استغفار .

وفى الحقيقة ان الدارس الذى يريد معرفة أطوار النفوس ، وما يعروها ، سواء أكانت نفوس رجال أم نفوس نساء يجد فى القرآن معيناً لا ينضب من الحقائق النفسية التى تكون محور دراسته .

ولكنا لا نريد أن يطبقوا ما يعلمون من علم النفس على القـرآن ويحملوا ألفاظه مالا يحتمل ، ولكن أن يجعلوه مرشداً يحكم على عملهم ، لا أن يـكون عملهم الحكم عليه ، والله سبحانه هو الموفق والهادى الى سواء السبيل .

تفسير الكتاب

٢٣٤ — كان بعض أساتذتنا رحمه الله يرى أن القرآن الكريم لايحتاج الى تفسير الا فى بعض الالفاظ الغريبة على القارىء ، فانه يستعين عليها بالمعاجم تبينها ، أو بالأحرى تقربها للقارىء ، والا بعض آيات الاحكام والمجملات المبينة بالسنة ، فانها تفصلها وتوضح بالعمل والقول مراميها وغايتها ، وما عدا ذلك ، فانه بين لايحتاج الى بيان . الا أن يكون متشابها لم يعرف بيانه بسنة ثابتة السند فان هذا لاتفسير له ، ومن الحق أن يقول فيه التالى لكتاب الله سبحانه وتعالى : « آمنا به كل من عند ربنا » كما قال تعالى فى الراسخين فى العلم «يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الالباب ، ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب »(١) . هـذا نظر أستاذنا الكبير بلل الله تعالى ثراه .

ولا شك أن قول هذا له سند من القرآن الكريم ، فقد وصف بأنه مبين أى بين، والبين لايحتاج الى تبيين ، ووصفت آياته بأنها بينات ، فقد قال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (٢) .

وقال تعالى : « الر تلك آيات الكتاب المبين »(٣) .

وقال تعالى : « الر تلك آيات الكتاب ، وقرآن مبين » (٤) .

وقال تعالى : « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » (٥) .

وقال تعالى : « طس تلك آيات القرآن ، وكتاب مبين » (٦) .

---

(١) آل عمران : ٧ — ٨ (٢) يوسف : ١ (٣) المائدة : ١٥ — ١٦
(٤) الشعراء : ١٩٢ — ١٩٥ (٥) الحجر : ١ (٦) النمل : ١

ويقول تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا » (١) .

وقال تعالى : « ولقد أنزلنا اليكم آيات بينات » (٢) .

وان هذا كله يدل على أن القرآن بين ، وكيف يحتاج الكلام البين الى من يبينه انه يبين نفسه ، وهذا بخلاف المجمل من آيات الاحكام ، فانه قد جاء النص ببيان أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . فقد قال تعالى : « وأنزلنا اليك للذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (٣) .

٢٣٤ — هذه نظرة خاطرة لأحد شيوخنا ، ولعل الذى دفعه الى ذلك القول ماتورط فيه بعض المفسرين من نقل اسرائيليات قد تفسد المعنى الذى يبدو بادى الرأى من الآيات الكريمات ، وان بعض كتب التفسير التى تأخذ ذلك المأخذ ، وتتجه الى الاكثار من القصص ، والاساطير الاسرائيلية تضع ستاراً كثيفاً بين الآية الكريمة ونورانيتها المشرقة ، فهو رحمه الله تعالى وجزاه عن العلم خيراً يريد أن يجد التالى للقرآن الاشراق والنور من غير حجب يحجبها من روايات ما أنزل الله بها من سلطان .

وان لذلك القول وجاهته ، وانك بلاشك لو تتبعت أكثر آيات القرآن الكريم التى لم تتعرض للأحكام العملية ، تجدها واضحة بينة ، وان استبهمت علينا بعض الكلمات لبقايا العجمة فينا ، فان المعاجم تحل لنا اشكالنا ، وهو لعيب فينا وليس لابهام فى القرآن ينافى وصفه بأنه مبين ، وآياته بينات .

واذا كان ثمة موضع للتفسير ، فانه يكون بتوجيه الانظار لأسرار القرآن البيانية ، والمرتبة العليا البلاغية التى لاتتناهد ، ولا تسامى . وليس فى قوة أحد من البشر أن يأتوا بمثلها .

وان الزمخشرى حاول ذلك فى تفسيره ، ووصل فى كثير من الآيات الى توجيه

---

(١) الجاثية : ٢٥ (٢) النور : ٣٤ (٣) النحل : ٤٤

القارىء الى الإسرار البلاغية ونهج من بعــده من سلك ذلك المسلك ، وحــاول محاولته •

ونحن نرى أن هذه محاولات ناجحة فى جملتها • وفى كثير من آيات الكتاب، ولكنا لانحسب أنها وصلت الى الغاية أو أدركوا نهايته ، فانه كتاب الله العزيز الحكيم ، ولا تتناهى معانيه ، ولا يحاط بكل مغازيه ، وان تلك المحاولات مفاتيح للنور ، ولكنها ليست النور •

٢٣٥ ــ بعد هذه المقدمة التى لابد أن نذكرها لنعرف مدى الجهود التى تبذل والغاية التى تغيا عند محاولة التفسير ، وان كنا نؤمن بأن القرآن كتاب مبين ، لايحتاج الى بيان ، ولكنا نحتاج ان كان فى قدرتنا الى أن نتعرف أسرار بلاغته • وموضع فصاحته ، ونقارب ، ولا نحد ، ونسدد وان كنا لا ندرك ، ولانصيب سهامنا ، ولا نصل الى حال يكون معها يقين بأن ماوصلنا اليه هو سر الاعجاز ، وغاية البيان •

وبجوار الذين قالوا ان القرآن مبين بذاته لايحتاج الى من يبينه ، ويفسره كان من يرى أن القرآن يتعبد به ، ويتلى تلاوة ، ولا نتعرف معانيه الا بتعريف من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

ولا شك أن ذلك القول غريب ولكن وجدناه فى كتب المعتزلة ، وجدنا القاضى عبد الجبار يذكره فى كتابه المغنى ، ويستدل على بطلانه فيقول : « الذى قدمناه الآن يدل على فساد قولهم » أى أننا لانطلب دلالة القرآن ، لأنا قد بينا أنه يقــع منه تعالى على وجه يدل على المراد كوقوعه من أحدنا اذا تكامل على شرط دلالته ألا يصح منه تعالى أن يخاطب به وهو موضوع لفائدة الا وهو يريدها، والا كان فى حكم العابث ، وقد ذكر شيخنا أبو هاشم رحمه الله أنه لو كان كذلك لوجب ألا تنفصل حاله ، وهم عرب بين أن يكون عربيا أو أعجمياً ، لأنه اذا لم يكن معنى يستدل به عليه ، أو به وبغيره ، فلا فرق بين كونه على هاتين الصفتين ، وبين أن يكون الكلام من المخاطب بهذه الصفة ، أى أنه اذا لم يكن له دلالة ، فلا فرق بين أن يكون عربياً أو عجمياً من يقرؤه •

ثم يقول : « ولا خلاف بين المسلمين أن القرآن يدل على الحلال والحرام ، والكتاب قد نطق بذلك ، لأنه تعالى قال : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » وقال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » (١) وقال تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (٢) وقال تعالى : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » (٣) وقال تعالى : « هدى للناس » الى غير ذلك مما بين به أنه يفيد ، فكيف يصح مع ذلك ماقالوه (٤) •

ويفهم من هذا الكلام أن ثمة من الناس من يرى أن القرآن للتلاوة والتعبد بتلاوته ، وقراءته فى الصلاة ، كما يفعل الاعاجم الذين لايعرفون العربية ، وانه يسوق الأدلة لبطلان هذا القول فيقول : « وبين شيوخنا أنه لو لم يكن له معنى لا يكون معجزا ، لأن اعجازه هو بما يحصل من المزية والرتبة فى قدر الفصاحة ، ولا يكون الكلام فصيحا الا بحسن معناه وموقعه واستقاضه كما لا يكون فصيحا الا بجزالة لفظه ، ولو أن واحداً من المتكلمين ألف الكلام المهمل جملة ، وتكلم بها من غير مواصفة لم يعد من الكلام الفصيح ، كما لو كان فى معناه ركاكة لم يكن منه ، وكمالورك لفظه لم يعد فى ذلك ، فكيف لمن أقر أنه معجز أن يزعم أنه لا معنى له ، وأنه لا فائدة منه » (٥) •

هذا كلام القاضى عبد الجبار ، ولولا نقله لهذا الكلام ما تصورنا أن يوجد من يقول ان القرآن لا يطلب معناه ، وأن القصد منه التعبد بالتلاوة فى الصلاة وخارج الصلاة •

ولعل الذى دفع هؤلاء الى ذلك القول ان صح نقله أنهم يتوقفون خشية أن ينحرف بهم الفكر ، فيصرفوا معانى القرآن الى غيره لانحراف فى التفكير ، أو تزيد عليه ، فرأوا أن يكتفوا بالتلاوة والتعبد بها واقفين عند ذلك ، حتى لا يقولوا على الله بغير علم •

---

(١) النساء : ٨٢ (٢) الانعام : ٣٨
(٣) النحل : ٨٩ (٤) الجزء السادس عشر من كتاب المغنى ص ٣٥٦
(٥) الكتاب المذكور ص ٣٥٧

ومهما يكن مقصدهم فان ذلك الرأى اذا قاله قائل لا يؤخذ به ، ولا نعلم أحداً قاله الا ما تعلمنا من المغنى .

٢٣٦ — ان القرآن مقصود بمعانيه ، وبتلاوته ، وترطيب الاسماع به ، وبالتعبد به وبألفاظه ، فكل ما اشتمل عليه مقصود لذاته ، لا بالتبعية لغيره ، فهو مأدبة الله تعالى .

وقد يقول قائل اذا كان القرآن بينا ، وانه لكذلك فما مكان التفسير فى ذلك ، لأن التفسير لا يكون الا عند حاجة للتبيين ، والقرآن الكريم ، كما تلونا من قبل كتاب مبين ، وقرآن مبين ، وبلسان عربى مبين ، وهل يستغنى عنه .

ويبدو لى أن العربى الذى لم تلو لغته برطانة غير عربية ، ويفهم العربية لايحتاج الى تفسير الا فيما يتعلق بآيات التكليف العملى والاحكام العملية وما يستنبط من القرآن ، وأنها لتتفاوت فى ذلك تفاوتاً كبيراً .

ومهما يكن فان التفسير علم يدرس ، وهو مفيد ، وهو قائم منذ عهد التابعين الى اليوم .

وله بلا ريب فوائده ، وله غاية ان سلك المفسر الطريقة المثلى ، وأن جعل المفسر مرامى القرآن هى المقصودة ، ولا يتجه بكتاب الله الى تحريف المعانى ، والانحراف عن المقاصد ، وانه لابد من التفسير لأمور كثيرة .

(ا) العمل على ربط معانى القرآن بما ورد فى السنة الصحيحة من بيانه ، وفى ذلك استعانة بالمبين للقرآن وهو الحديث ، ووضعه فى مواضعه ، حتى لاتضل الأفهام فى فهم معانى الاحكام ، ولأن بعض ألفاظ يشترك بين عدة مدلولات والسنة النبوية هى التى تجد المدلول المراد .

(ب) وان الذين يقرءون القرآن ليسوا جميعاً فى مستوى العربى الذى يدرك معانى الألفاظ بمجرد استماعها ، ومن الألفاظ مافيه بعض الغرابة حتى على بعض العرب ، بل بعض كبارهم ، ولقد روى أن عمر بن الخطاب ، وهو أمير المؤمنين

لم يتعين عنده معنى لفظ « أبا » فى قوله تعالى : « وفاكهة وأباً » (١) فقد سأل عن معنى الأب ، واستكثر رضى الله تعالى عنه على نفسه ألا يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ القرآن .

هذا عمر رضى الله عنه يغيب عنه معنى لفظ من ألفاظ كتاب الله تعالى ، فكيف تكون حال من دونه من الصحابة علماً ، وكيف تكون حالنا نحن الذين دخلنا العربية وفينا العجمة التى غلبت الفصحى فى كل مكان .

(جـ) ولابد من ذلك من تفسير يترجم الى اللغات غير العربية ، أو يفسر القرآن ابتداء بغير العربية على أنه تفسير فسره واحد ، أو اشترك فيه جماعة ، ويكون المترجم هو التفسير الذى يذكر معنى القرآن على وجهة نظر المفسر ، لأن القرآن أعلى كلام بليغ فى الوجود ، والكلام البليغ لا يمكن ترجمته من لغة الى لغة محتفظاً ببلاغته ، لأن البلاغة تتضمن اشارات بيانية ، ونغمات فيها موسيقى ، وحلاوة ألفاظ ، وتآخيها ، وجمال أسلوبه ، وتساوق معانيه ، ولا يتوافر لأحد من الناس أن ينقل كل الصفات البيانية والبلاغية للالفاظ القرآنية وقد حاول فى اللغة الفرنسية بعض العلماء الاوربيين المتخصصين فى العربية ترجمة القرآن برتبته البلاغية فقضى فى محاولة ترجمة آية مدة طويلة وانبت دون ذلك.

(د) وان القرآن الكريم له عدة قراءات متواترة ، وكل قراءة قرآن ، وهى متلاقية فى معانيها ، وليست يقيناً متضاربة ، بل ان بعض القراءات تزيد معانى القراءة الأخرى ، أو توجه معناها فى اتساق محكم دقيق لا خلل فيه ، بل لا يتصور قط أن يكون فيه خلل ، وان التفسير المحكم هو الذى يذكر ذلك التلاقى . فمثلا قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » (٢) فقد قرئت بضم الفاء ، وهى تدل على أن الرسول عليه السلام من العرب أنفسهم ، وليس غريباً عنهم ، وقرئت بفتح الفاء ، وهى تدل على أنه من أعلاهم نسباً وخلقاً ومكانة وشرفا ، وبضم القراءتين يكون المعنى أن الرسول عليه السلام من أعلى العرب .

---

(١) عبس : ٣١

(٢) التوبة : ١٢٨

هـذه بعض الأسباب التى توجب أن يكون للقرآن تفسير ، وان كان بينـاً مفهوما ، وهناك وجه للتفسير لابد من الاشارة اليه ، وهو بيـان الاسرار التى تضمنتها ألفاظ القرآن ، وتضمنها علم الكتاب من خير ارهاق للألفاظ ، ولا اعنات لمعـانيه •

وان من كتب التفسير ما حاول الكاتبون لها بيان الأسرار البلاغية فى بعض ألفاظ القرآن كالزمخشرى كما أشرنا ، ومن جاء بعده من المفسرين الذين نهجوا منهاجه وزادوا عليه ، وقالوا فى آيات مثل قوله ، وثمة آيات لم يتعرض لبيـان أوجه البلاغة فيها •

مناهج التفسير :

٢٣٧ — ان المناهج فى التفسير تختلف باختـلاف ما يستعين به المفسر من مصادر التفسير ، وان الذى يمكننا أن نحصيه من مصادر التفسير للقرآن أربعة : (أولها) المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، (ثانيها) المأثور من أقوال الصحابة الكرام ، وتلاميذهم الذين اتبعوهم باحسان ، ونقلوا تفسيرهم كمجاهد الذى نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ، (ثالثها) اللغة ، اذ هى فى ذاتها أداة التعبير ، ولا يمكن الاستغناء عنها فى أى منهاج من مناهجه ، فهى لا تعد مصدرا مستقلا ، اذ هى تدخل فى كل المصادر •

(رابعها) الرأى وهو يعتمد ابتداء على اللغة ، وعلى مصادر الشريعة ومواردها ومراميها ، وغاياتها وأسرار القرآن ، وتعرف وجوهه •

ولا شك أن اللغة هى الأساس الأول لكل هذه المصادر ، ولا نقصد باللغـة ما تومىء اليه المعاجم فقط ، فان تفسير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لايمكن أن يكون مخالفاً للعربية ومعانيها ، لأنه العربى الذى ينطق بجوامع الكلم ، وليس فى الكلام العربى ما يكون أصدق مصدر للاستعمال العربى الصحيح من أقوال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

٢٣٨ — ولننتقل من بعد الى الكلام فى المصادر الثلاثة الأخرى •

فأولها — وهو أعظمها السنة لأنها الشارح الاول للكتاب الكريم ، وان أحكام الحلال والحرام لا تفصيل لها الا فى السنة ، وهى المصدر الوحيد لهـا ، ومن خالف تفسير السنة للحـلال والحرام فى القرآن ، فهو من المفترين على القرآن الكريم ، ويكون داخلا فى نهى قوله تعالى « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » (١) • وذلك لأن هذا القسم من القرآن الكريم تكفلت به السنة النبوية ، لأن هذا من تبليغ الرسالة المحمدية وهـو معناها ، ومن يعارضها انما يعارض تبليـغ الرسالة النبوية ، ويفترى على الله الكذب فكل مافى القرآن من أحكام فقهية سواء أكانت تتعلق بالعبادات أم كانت تتعلق بتنظيم المجتمع الانسانى الذى يبتدىء بالأسرة ، ويتدرج الى الجماعات ثم الأمة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المسلمين بغيرهم من الأمم فى السلم والحرب — كل هذا بيان النبى صلى الله عليه وسلم وهو حجة علينا يجب اتباعه •

والصحاح التى بين أيدينا فيها بيان الأحكام الشرعية بياناً كاملا كما وردت فى السنـــة •

هذا ويجب التنبيه الى أن الاتجاه الى تفسير القرآن من غير اعتماد على السنة والاستعانة بها فى هذا الباب خروج على الشريعة ، فقد قال الله تعالى : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » (٢) • والذين يتركون السنة زاعمين أنهم يأخذون بالقرآن يهجرون القرآن والسنة معاً ، ويحاربون تبليغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لرسالة ربه •

ويلاحظ أن السنة قسمان سنة متواترة رواها جمع عن جمــع حتى تصــل الرواية الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا النوع من السنة يجب الاخذ به فى بيان الأحكام ، وبيان معانى العقائد التى اشتمل عليها القرآن الكريم لأنه ثابتة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسند قطعى لا شبهة فيه ، والعقائد لا تثبت الا بدليل قطعى الدلالة وقطعى السنة • ولذلك يقول الشافعى لمن يخالفه الأحاديث المتواترة ، ويسميها أحاديث العامة يقال له « تب » •

---

(١) النحـل : ١١٦ (٢) الاحزاب : ٣٦

والقسم الثانى أحاديث الخاصة كما يسميها الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وهى التى لم يبلغ سندها حد التواتر ، ويسميها علماء السنة أحاديث الآحاد ، ولو رواها اثنان أو ثلاثة ما دام رواتها لم يبلغوا حد التواتر التى يؤمن تواطؤهم على الكذب •

وهذا النوع من الأحاديث يعمل به فى تفسير الآيات التى تتعلق بالأحكام ، لأنها تفيد غلبة الظن بالنسبة للصدق ، وقد ثبت ذلك عن الصحابة رضى الله عنهم ، ولأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرسل رسله الى الأقاليم آحادا ، ولا يرسلهم جماعات •

ولا يلزم الأخذ بأحاديث الآحاد فى تفسير الآيات التى تتعلق بالعقائد من ضرب الأمثال ، وذكر أسرار الكون من خلق السموات والأرض ، ومن سير الشمس والقمر ، وخلق السموات والأرض ، وتسخير الرياح والأنهار والبحار وغير ذلك ، فان ما يتعلق بذلك وكل ما ورد فيه من السنة أخبار آحاد أو رواتها غير ثقات لا يعتبر حجة فى تفسير القرآن وفهمه ، بحيث يجب الأخذ به ، ومخالفته تكون مخالفة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه من الثابت أن ما يجىء فى السنة مخالفا للمقررات العلمية القاطعة ، ويكون من أحاديث الآحاد ، يرد وتبطل نسبته الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس معنى رده تكذيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •• انما معنى رده أنه لم تصح نسبته الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الصادق ، ونقول مقالة الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم التى رددها الشافعى ، وهى قوله : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، اذا قلت فى القرآن ما لم أعلم •

وان دراسة الآيات الكونية للعقل والاستقراء والتتبع ، مقامه فى ادراكها ، ما لم تخالف نصا قرآنيا أو حديثا نبوياً متواتراً ، وليس فى الأحاديث المتواترة ما يعارض هذه الدراسة قط ، والله أعلم •

وهنا أمر آخر يتعلق بالقصص القرآنى ، ونقول فيه ان القرآن يفسر بعضه بعضاً فى هذا القصص ، وما يجىء من السنة من زيادة على القرآن فى هذا يقبل منه

مما لا يناهض القرآن ، وما يزيد يقبل ما دام السند صحيحا وليس ثمة ما يرده سنداً أو متناً ، ولا يجب الإيمان بالزيادة بحيث يكفر من ينكرها ، ما دامت أحاديثها لم تصل الى مرتبة التواتر •• ولكن ما لم يكن مطعن فيها يؤخذ بها عى أساس الاطمئنان اليها •

هذه هى السنة ، وهى تعد المرتبة الأولى فى تفسير القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •

٣٣٩ — أما المرتبة التى تلى مرتبة السنة فهى أقوال الصحابة فى فهم معانى القرآن الكريم ، فكلامهم فى هذا له اعتبار فى فهم الكتاب العزيز لما يأتى :

(ا) أن الصحابة هم الذين سمعوا القرآن الكريم ابتداء ، وهم الذين شاهدوا وعاينوا ، وتلقوا التفسير عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان ما يبهم عليهم يسألون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عنه • ويروى عن ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه ، أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان كلما تلا عليهم طائفة من الآيات تولى تفسيرها لهم ، فكان تفسيرهم أقرب الى السنة ، بل يعده الكثيرون من السنة ، ما دام لا يمكن أن يكون للرأى فيه مجال •

(ب) أنهم الذين شاهدوا أسباب النزول ، وعلموا فى أى موضع نزلت آى الكتاب الكريم ، وأسباب نزولها • ولا شك أن أسباب النزول طريق معبد لفهم الكثير من الآيات الكريمات ، لأن أول ما ينطبق عليه المعنى للآية القرآنية هو ما كان سبباً لنزولها ، ثم يعمم الحكم بعموم اللفظ ، جرياً على قول الفقهاء فى محكم قواعدهم (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) •

(جـ) وان الصحابة أعلم الناس بمعانى الألفاظ القرآنية ، لأنهم من العرب ، ومن أعلم الناس بلغة العرب ، وما يكون غريباً بالنسبة لنا ، لا يكون غريباً بالنسبة لهم ، والألفاظ معروفة معانيها لهم •

وان المتتبع للمأثور عن الصحابة فى تفسير القرآن الكريم ، يرى الرائى بادى النظر أنه قسمان :

أحدهما — ما اعتمد فيه عى المـأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا يكون سنة نبوية وتفسيرا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا مجـال للريب فى نسبته اذا كان السند الى الصحابى صحيحاً ، وذلك فى تفسـير الآيات التى ليس للرأى فيه مجال ، فتفسيرهم يكون حديثـا اذا نسبوه مرفوعاً للنبى عليه الصلاة والسلام ، ويكون موقوفاً اذا لم يسندوه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن لا يمكن أن يكون للعقل فيه مجال ، ولا يمكن أن يقولوا فى موضع لا مجال فيه للعقل فيه الا بقول المبلغ صلى الله تعالى عليـه وسلم ، آخذين بقوله تعـالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفـؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (١) •

والقسم الثـانى ما يكون للرأى فيـه مجال ولا يسندونه للنبى صلى الله عليه وسلم ، بل هو مجرد الرأى منهم • وانهم فى هذا قد يختلفون ، وذلك فى بعض الأحكام الفقهية التى لم يرد فيه نص من الـكتاب ببيان الحكم • ومن ذلك قولهم فى عدة المتوفى عنها زوجها اذا كانت حاملا ، فقد اختلف فى تفسير آيات العـدة الصحابة ، ففريق منهم — وعلى رأسهم على بن أبى طالب — أعمـل الآيتين الواردتين ، وهما قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ، ويذرون أزواجا ، يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » (٢) ، والآية الثانية هى قوله تعـالى فى سورة الطلاق : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » (٣) • فقـال هذا الفريق من فقهاء الصحابة : انها تعتد بأبعد الأجلين ، أى تعتد بوضع الحمل اذا كان بعد مضى أربعة أشهر وعشر ، وتعتد بالأشهر اذا كان وضع الحمل قبل انتهاء المدة •

وقات طائفة أخرى — وعلى رأسهم عبد الله بن مسعود — انها تعتد بوضع الحمل ، أخذاً بعموم اللفظ « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » ، لأنه يشمل المتوفى عنها زوجها الحامل ، كما يشمل المطلقة •

واجتماع فقهاء الصحابة على رأى فقهى يكون حجة ، وكذلك اذا لم يرد عنهم

---

(١) الاسراء : ٣٦ (٢) البقرة : ٢٣٤ (٣) الطلاق : ٤

فى تفسير الآية التى تتعلق بالحلال والحرام الا رأى واحد ، واذا اختلفوا جاز للفقهاء المجتهدين أن يختاروا من آرائهم ، ولا يخرجون عنها •

٢٤٠ — وان الموضوعات التى أثرت عن الصحابة آراء فيها مختلفة من حيث قوة الأخذ برأى الصحابى فيها •

وأولها ما يتعلق بالحلال والحرام ، وقد علمت القول فيه اذا كان مبناه الرأى ، والقبول المطلق اذا لم يكن للرأى فيه مجال •

ومهما يكن الأمر بالنسبة لآيات الأحكام ، فان أقوال الصحابة وأعمالهم تتبع فى فهم الآيات الخاصة بالحروب والصلح ، والمعاهدات والأمان ، وأحكام الذميين والمستأمنين ، وجمع الغنائم وتوزيعها ، وفرض الخراج والجزية •

وكان عهد الفاروق عمر رضى الله عنه عهداً خصباً لبيان الأحكام الشرعية ، فقررت فيه المبادىء الإسلامية المستفادة من القرآن ، وتعد معيناً للفقهاء استقوا منه آراءهم فى نظم العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم فى السلم والحرب ، وقد استقاها هو من فهمه لكتاب الله تعالى ، وادراكه لمراميه •

ولذلك نجد كتب السير أخذت من ذلك المعين ، فكتاب الخراج للامام أبى يوسف •• الأصل الأول الذى اعتمد عليه هو عمل عمر رضى الله عنه الذى نفذ ويفهمه من القرآن الكريم •

وكذلك الإمام محمد بن الحسن الشيبانى فى كتابه « السير الكبير » قد أخذ أكثره من عمل الصحابة ، وخصوصاً عمل عمر الذى استنبطه من القرآن الكريم • ويعد كتاب السير الكبير أول كتاب ألف فى القانون الدولى الذى يقوم على قواعد العدل والرحمة • والكرامة الانسانية • وكذلك كتاب السير للأوزاعى ، وغيره من الكتب كان اعتمادها على ما عمل به الصحابة ، آخذين ذلك من فهمهم لمرامى القرآن الكريم •

ومن الموضوعات التى أثر عن الصحابة أقوال فيها فى تفسير القرآن وفهم معانيه ، آيات القصص فى القرآن الكريم ، وليس المروى عنهم فى ذلك كثيراً والصحيح النسبة اليهم رضى الله عنهم قدر ضئيل •

وذلك لأنهم ما كانوا يعنون الا بما له أثر عملى يتعلق بالحلال والحرام ، وما له أثر فى أعمالهم ، وتنظيم جماعتهم ، واقامة الحق والعدل فى الأرض .

وكانوا يعتمـدون فى فهم القصص القرآنى على السنة الصحيحة ، وعلى تفسير القـرآن نفسه لبعضـه ، وكانوا يكتفون بما جاء فى القرآن والسنـة ، ولا يزيدون عليه — لأنه هو الصحيح — ولا يحاولو أن يعرفوا ما عداه .

ولـكن لمـا دخل فى الإسلام اليهود والنصارى ، وبثوا فى المسلمين ما عندهم من قصص وأسـاطير ، وجد بين المسلمين من يعنى بالقصص غير مقتصر على القرآن الـكريم ، والسنة النبوية . وظهر ذلك فى آخر عصر الخلفاء الراشدين . ولم ينظر الصحابة الى ذلك نظرة راضية أو متغاضية ، بل نظروا اليه نظرة غير متساهلة ، لمـا قد يجر اليه من نشر أساطير ما أنزلها الله ، وربما أوجدت غياماً على معانيـه .

لقد ظهرت فى آخر عصر الصحابة طائفة من التابعين سموا القصاص ، وقد جاء على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وأخرج أولئك القصاص من مسجد الـكوفة وكانوا قد انتشروا فى العـراق ، فكان رضى الله عنـه يمنعهم الا اذا التزموا فى قصصهم ما اشتمل عليه القرآن ، وما صح فى السـنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ويروى أنه دخل المسجد ، فأخرج كل من فيه من القصاص ، ووقف عنـد الحسن البصرى ، فرآه لم يخرج فى قصصه عن القرآن والدعوة الى هدايته .

ومن الموضوعات التى أثر عن الصحابة رضوان الله تبـارك وتعـالى عليهم كلام فى الـكونيات التى اشتمل عليها القرآن الـكريم ، وعده الرواة التى نسبوه اليهم تفسيراً للآيات الـكونية ، ونقول فيه أنه لا يؤخذ به على أنه حجة الا اذا كان صريح كلام الله تعالى ، أو قد ثبت عن النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم بسند قطعى . أما ما يقال فيما عدا ذلك مما يتصل بالـكون ، وخلق الله تعالى ، فان خالف علمـاً قطعياً لا اختلاف فيـه بين أهل العلم بالـكون ، فانه يرد الى صاحبه .

التابعون والاسرائيليات :

٢٤١ — التابعون هم تلاميذ الصحابة الذين نقلوا الى الأخلاف أقوالهم فى التفسير ، وان ما ذكر على أنه قول للتابعين عن الصحابة فيما يتعلق بالأحكام الفقهية مقبول النقل، ويعتبر نقلهم عن الصحابة حجة عند أكثر الفقهاء على ماقررنا فى اعتبار أقوال الصحابة حجة .

ولكن التابعين اذا قالوا فى الحلال والحرام مفسرين للقرآن برأيهم ، فانا اذا استثنينا أحمد بن حنبل وبعض المالكية ، فان باقى الأئمة لا يعتبرون قولهم حجة فى ذاته ، انما يكون ما أيده من دليل هو الحجة . ويقول فيهم أبو حنيفة : اذا آل الأمر الى الحسن وابراهيم ، فهم رجال ونحن رجال .

ولكن الكلام فى القصص والكونيات ، وبعض ما يتعلق بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم دخله الاسرائيليات ، وكثرت فى كتب التفسير وتجاوزت الحد ، وردد بعض التابعين كثيراً من الاسرائيليين .

بل أن بعض الصحابة نقل عن الاسرائيليين ، فانه يروى أن عبد الله بن عمرو ابن العاص أصاب فى واقعة اليرموك حمل زاملتين من كتب أهل الكتاب (١) .

ولا يمكن أن يكون كل ما فى هذه الحمولة صحيحاً عن أهل الكتاب الذين تمسكوا بالتوراة أو الإنجيل من بعدها ، ولا نعلم على وجه اليقين أكان بن عمرو ابن العاص لا يختار منهـا الا ما يوافق الكتاب والسنة الصحيحة ، أم كان يتجاوزها الى ما لا يناقضهما ، أم يسير وراء ذلك .

ولكن من المؤكد أن ما فى الزاملتين لابد أن تناقله التابعون ، وليسوا جميعا ممن يلتزمون ، ولا يسرفون ، فلا يمكن أن نقرر سلامة ما يأخذون .

ولقد توقف العلماء فى قبول الإسرائيليات التى راجت حول التفسير فى قبولها ، وقد قسموها الى ثلاثة أقسام : القسم الأول ما علم صدقه ، لأن القرآن يوافقه ولا تجافيه ألفاظه المحكمة ، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم نقل عنـه بسند

---

(١) مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٢٦ طبعة دمشق سنة ١٩٢٦

صحيح ما يوافقه • وهذا بلا شك لا يكذب ، ولكن لا نجد فيه غناء عن السنة ، ولا نجده يسد حاجة وخللا لو لم يوجد لا تسد • ولذلك نرى الأولى ألا يلتفت اليه ، لأن السنة للقرآن يغنيان ، وسداً للذريعة لا يعتمد عليه ، لأن قبول بعض المروى عن اليهود الذى لا زيف فيه يسهل قبول الزيف ، وهو الأكثر ، وهو الذى تعمدوا به أن يفسدوا علينا أمر ديننا • واذا كانوا لا يستطيعون تحريف القول فيه عن مواضعه ، فانهم يجدون فى التفسير طريقاً لإفساد العقول حول معانى القرآن الكريم •

القسم الثانى ما ثبت كذبه بيقين ، وهو يناقض معانى القرآن الكريم ، ويخالف الصحيح المتواتر من السنة ، أو يخالف منطق الإسلام ، وان هذا يرد بالاتفاق •

وان المستقرىء لكتب التفسير المشتملة على الإسرائيليات ، يرى أن أكثر ما دس فيها من هذا القبيل •

القسم الثالث الذى لا يأتى بما يخالف النصوص القرآنية ، ولا الأحاديث النبوية ، ولكنه فى جملته أخبار تحتمل الصدق والكذب ؛ ويقول ابن تيمية فى هذا القسم لا نؤمن به ، ولا يمكن أن يكون فيه فائدة اسلامية • ومن ذلك ما يذكرون حول أسماء أهل الكهف ، ولون كلبهم ، ومن ذلك أيضاً وصفه عصا موسى (١) •

تفسير القرآن بالرأى

٢٤٢ — ذكرنا من مصادر التفسير : اللغة ، والسنة ، والصحابة مع تلاميذهم التابعين ، وما دخل عصر التابعين من اسرائيليات دخلت التفسير وتناقلتها كتبه ، مع تمحيص أحياناً وسكوت فى كثير من الأحيان •

والمرتبة الرابعة فى التفسير : تفسير القرآن الكريم بالرأى ، أى بالنظر

---

(١) رسالة مقدمة التفسير المذكورة

المجرد الذى لا يخالف اللغة ، بل يستعين بمناهجها ، ولا يخالف السنة بل يعتمد على الصحيح من أسانيدها ان صحت عنده ، ولا يناقض تفسير الصحابة المأثور ولا أسباب النزول التى صحت بسند صحيح •

والتفسير بالرأى على هذا النحو تضاربت فيه أقوال العلماء ، فبعضهم توقف ومنع أن يفسر القرآن بالرأى ، بل لابد لبيانه من علم السنة ، ومنه علم الصحابة ، وما يجتمع عليه التابعون •

وقد ناصر ذلك الرأى وشدد فى التمسك به شيخ الإسلام ابن تيمية ، فهو يقول : « تفسير القرآن بالرأى فحرام » •

ويستدل على ذلك بأخبار منسوبة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبأخبار عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم •

(ا) ومن ذلك ما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من قال فى القرآن بغير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » •

ويعد ابن تيمية أن من يفسر القرآن برأيه يقول بغير علم ، ونحن نقول ان الحديث خاص بمن لم يؤت أدوات التفسير من علم باللغة ، ومصادر الشريعة ومواردها ، ومرامى الإسلام وغاياته ، والعلم بأساليب البيان • والعلم بجملة المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الذى يقول بغير علم • أما من أوتى علم اللغة والبيان ، وعلم الآثار ، وعلم الاسلام ، فانه اذا قال فى التفسير معتمداً على رأيه ان لم يكن نص يعارضه ، فان الخبر لا ينطبق عليه •

(ب) ومن ذلك أيضاً ما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من أخذ فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » •

ولقد قال الترمذى فيه انه غريب ، وقد تكلموا فى بعض رواته ، فليس سنده سليماً ، ومتنه غريب •

(جـ) ومن ذلك ما يروى عن كبار الصحابة من نهيهم عن القول فى القرآن الا اذا كانت سنة صحيحة يستأنسون بها ، ورميهم بالتكلف من يحاول علم كل

مما فى القرآن • ومن ذلك ما روينا عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال : (أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، اذا قلت فى القرآن ما لم أعلم) •

وقد روى عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (كنا عند عمر بن الخطاب وفى ظهر قميصه أربع رقاع ، فقرأ « وفاكهة وأبا » فسأل بعض الحاضرين « ما الأب » ثم عدل عن السؤال وقال ان هذا هو التكلف ، فما عليك ألا تدريه) •

وان الناظر الى ما روى مسنداً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعضه ضعيف لا يصلح أن يكون حجة ، وبعضه لا يدل على منع الاجتهاد بالرأى فى فهم القرآن ان لم تكن سنة مسعفة • وما روى عن أبى بكر انما يدل عى أن الممنوع أن يقول فى القرآن بغير علم ، وعمر رضى الله تبارك وتعالى عنه أراد أن يضرب الأمثال للناس بأن يبين لهم أن القرآن بحر عظيم عميق مملوء بالمعنى ، فلا يصح لأحد أن يدعى أنه تقصاه وعرف أطرافه ، وخشى أن يظن أحد أنه يحاول ذلك عندما سأل عن معنى كلمة (الأب) فعدل عن السؤال •

ونحن لا نرى فيما ساقه ابن تيمية جزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً ما يدل على المنع ، ولكن يدل على وجوب الاحتياط فى فهم القرآن ، وأن يكون بين يديه من دلائل العلم وبيناته ما يجعله يقول عن بينة • ولا ينطبق عليه النهى فى قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » (١) •

واذا كان ابن تيمية قد عد التفسير بالرأى منهجاً مهجوراً ، أو يجب أن يهجر ، فعلى أى شىء اعتمد ؟ انه اعتمد على أربعة مصادر :

أولها — القرآن ، اذ أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فهو يبين أحياناً فى موضع ما أجمله فى موضع آخر ، ويوضح أحياناً ما يبدو بادى الرأى أنه مبهم فى وضع آخر • وبجمع آيات القرآن بعضها على بعض اذا تصدت لموضوع واحد ، يستطيع القارىء المتفهم أن يفهم بعض القرآن ببعضه •

---

(١) الاسراء : ٣٦

وان ذلك بلا شك نوع من الرأى والاجتهاد ، ولكن ابن تيمية لا يمنعه بل يوجبه كخطوة أولى .

وثانيها — السنة ، اذا لم يستطع القارىء أن يفهم القرآن من القرآن ، فانه يتجه الى السنة — كما أسلفنا — تحقيقا لقوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين الناس ما نزل اليهم » (١) . وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ألا انى أوتيت علم الكتاب ، وأوتيت مثله معه » .

وثالثها — ما قاله الصحابة فى تفسير القرآن ، كما ذكرنا من الأسباب فى موضعه . وقد روى أن عبد الله بن مسعود قال : « والله الذى لا اله غيره ما نزلت آية من كتاب الله الا أنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت » .

ورابعها — أقوال التابعين فى التفسير ، بتعرف ما قالوه نقلا عن الصحابة .

وتتعرف فى هذا : السنة بكل طرائقها ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو المبلغ للرسالة والمفسر للقرآن ، لا يمكن أن يترك شيئاً من القرآن قابلا للبيان ولم يبينه .

٢٤٢ — هذا منهاج المتوقفين الذين يرون أن تفسير القرآن بالرأى غير جائز ، وانما يعتمد فى بيان القرآن على السمع وحده .. اما عن الرسول أو عن صحابته أو عن تلاميذهم ، وان الخروج عن هذه الدائرة خلع للربقة ، وتهجم على القرآن الكريم بغير علم ، وان النبى عليه الصلاة والسلام لم يترك القرآن من غير بيان .

وان هذا الكلام ينطبق كل الانطباق على الذين لا يعرفون السنة بياناً للقرآن ولا يأخذون به ، بل يتركونه . وان مثلهم فى هذا كمثل الذين يعرفون الحكم الشرعى الثابت بالنسبة ، ويتركونه نسياً منسياً .

وانه فى آيات الأحكام يجب الاتجاه الى السنة ابتداء ، ولا يتجه الى غيرها الا على ضوء منها وتعرف لأمراء الأحكام ، وغاياتها منها ، واذا كان ثمة رأى فعلى ضوئها وبقبس من نورها .

---

(١) النحل : ٤٤

وان الذين أخذوا فى تفسير القرآن بالرأى فى مقابل الذين توقفوا سلكوا مسلك الفقهاء الذين أخذوا بالقياس ان لم يجددوا فى الموضوع نصا،فهم لايتركون السنة ولكن يأخذون بالرأى اذا لم يجدوا سنة مفسرة ، وهم لا يقتصرون على الأخذ فى غير موضع السنة ، بل انهم عند وجود السنة لا يناقضونها ولا يغايرونها ، بل يأخذون بها ويسيرون فيما وراء ما ثبت بالسنة الى ما تدل عليه الألفاظ من اشارات بيانية ، ويحاولون أن يتعرفوا من وراء ذلك الأسرار البلاغية فى القرآن الكريم .

ولذلك كان هذا المسلك مسلك الذين حاولوا تعرف اعجاز القرآن ، وعلى رأسهم الامام جار الله الزمخشرى ، ومن قبله كان الامام الطبرى عندما كان يبدى رأيه بعد أن يسرد من الروايات الصحيح والسقيم .

والامام حجة الاسلام الغزالى كان ممن سلكوا ذلك المنهاج ، وأثبت بالأدلة العلمية أن التفسير بالرأى من غير مناقضة للسنة ، جائز ، ويستدل على ذلك

أولا — بأن القرآن فيه كل علوم الدين ، بعضها بطريق الاشارة ، وبعضها بالاجمال ، وبعضها بالتفصيل الذى يفتح الباب للفكر المستقيم ، والاستبصار فى حقائقه ، وذلك لايكفى فيه الوقوف عند ظواهر الآيات ، ولا ظواهر أقوال السلف بل لابد من التعمق من غير تكلف ، واستخراج المعانى ما دامت لا تخالف المأثور ، وهناك أمور وراء المأثور ، يسير المفسر على ضوء المأثور ، ولقد قال عبد الله بن مسعود : « من أراد علم الأولين والآخرين ، فليتدبر القرآن » وان ذلك لايكون بغير التعمق فى الفهم ، من غير تكلف ، وتعرف الغايات بالاشارة والمرامى .

وثانياً — أن القرآن الكريم فيه بيان صفاته تعالى وأفعاله ، وذكر ذاته القدسية ، وأسمائه الحسنى ، وان فهم ذلك مع التنزيه عن المشابهة للحوادث يحتاج الى تدبر وفهم من غير الوقوف عند الظواهر ، وجمع بين المؤتلف ونفى القول المختلف .

ثالثا — أنه قد وردت الآثار تدعو الى الفهم والتدبر فى معانى القرآن ، فقد

قال على كرم الله وجهه « من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، وذلك لايكون الا بالتعمق فى الفهم » •

رابعاً — ان عبارات القرآن الكريم تدعو الى التعمق فى الفهم ، فقد قال تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً »(١) ويقول مفسرو السلف ان الحكمة هى فهم القرآن ، واذا كان الله تعالى قد وصف فهم القرآن بأنه خير كثير، فانه سبحانه وتعالى يدعو القادر على ادراك هذه الحكمة لينال من علمها خيراً كثيراً •

وخامساً — أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعا لابن عباس رضى الله عنهما بالفقه فى القرآن ، فقال عليه السلام « اللهم فقه فى الدين ، وعلمه التأويل وليس التأويل الا التفسير العميق الذى يتعرف به القارىء ما وراء العبادات من معان دقيقة عميقة ، ولو كان كل علم التفسير مأثوراً عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقال عليه السلام « اللهم علمه التأويل » •

وان الغزالى لا يكتفى بسوق ما تؤدى اليه الأدلة من جواز التفسير بالرأى ، بل يتجاوز فيقول ان المأثور من التفسير بالسنة قليل لايشمل القرآن كله ، ويذكر أن : ما يؤثر عن الصحابة فى التفسير ، انما هو رأيهم ، وعلينا أن نتبعهم باحسان فنجتهد فى تفسير القرآن مثل اجتهادهم من غير معارضة ، ولا مناقضة •

ثم ان الصحابة فيما بينهم قد اختلفوا ، وكذلك التابعون من بعدهم ، واختلافهم دليل على أن بعض هذه الاقوال بالرأى لامحالة ، ويجوز أن يكون بعضها بالسمع ، ولكنه غير معروف ، ولو كان واجبنا أن نختار من أقوالهم عند اختلافهم ، فالاختيار أساسه الترجيح بالرأى بقبول بعضها ورد بعضها وذلك فى ذاته أشد من الأخذ بالرأى ابتداء ما دام غير معارض للمأثور •

٢٤٣ — هذا ما ساقه الغزالى من أدلة فى جواز الفهم بالرأى الذى لا يعارض السنة ، ولا يتزيد عليها بما يخالفها • وان أدلته مستقيمة منتجة لما يقول ، بيد أن

---

(١) البقرة : ٢٦٩

قوله ان المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى التفسير محدود وقليل • انما هو فى غير الحلال والحرام ، أما ما يتعلق بتفسير القرآن فى الحلال والحرام، فان ما ورد عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك كثير وليس قليلا ، لأنه بيان الشريعة ، وتبليغ رسالة الله ، اذ أن التكليفات لابد أن يبينها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يتركنا الا وقد بين ما يجب على المكلفين فعله ، وما يجب عليهم تركه ، اما بالنص عليه ، واما بذكر ما يدل على أصل الشرع الذى يقاس عليه ، وتناط به الأحكام ، وتقام عليه مصالح الأنام ، وأحاديث الأحكام أكثرها فى تفسير الآيات المتعلقة بالأحكام ، وأكثر الأحاديث المروية فى هذا المقام ثابتة بسند صحيح تبنى عليه الأحكام بالتحليل والتحريم •

٢٤٤ — والغزالى وغيره من العلماء الذين سوغوا تفسير القرآن بالرأى ، بل ان عبارتهم تومىء بوجوبه فى غير موضع الأثر المروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسند صحيح ، هؤلاء قد منعوا التفسير بالرأى فى موضعين يكون الرأى فيهما مذموماً :

أول هذين الموضعين أن يفسر القرآن بهواه ، أو أن يحاول حمل الآيات على مذهبه أو رأيه بأن يكون له فى موضوع الآية رأى معين ، وله ميل له بطبعه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه ليحتج به ، ولو لم يكن له ذلك المذهب ما كان يظهر له ذلك التفسير ، وانه ليتجه ذلك الاتجاه ، ويؤول ظاهر الآية لتساير مذهبه ، وينزلها من علياء بيانها الى حيث رأيه •

وأحياناً يفعل ذلك غير قاصد حمل الآية على مقتضى رأيه ، ولكن امتلاء عقله وقلبه بهذا الرأى يجعله يتجه اليه غير قاصد مجرد ترجيح مخيلته ، ويلبس عليه الأمر فيظن ما قاله ظاهراً ، وما هو بظاهر •

فهذا بلا ريب تفسير بالرأى مذموم، ويكون من المنهى عنه ، لأن القرآن الكريم، فوق الآراء والمذاهب وليس خاضعاً لها •

وانه من نوع تفسير القرآن بالهوى لا بالرأى المبنى على النظر الخالص لوجه الحقيقة •

الموضع الثانى — الذى يكون فيه التفسير بالرأى مذموماً — يكون فى المسارعة الى تفسير القرآن بظواهر الآيات ، والاقتصار على هذه الظواهر من غير تعرف للمنقول فى موضوعها ، ومن غير مقابلة الآيات بعضها ببعض ومن غـير تعرف للعرف الاسلامى الذى خصص بعض الالفاظ العربية ، ومن غير علم دقيق بأساليب الاستنباط من القرآن من حمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، ومن غير ادراك مواضع الاضمار والحذف والتقديم والتأخير ، وغـير ذلك من الاساليب البيانية القرآنية المعجزة . فان ذلك يكون مذموما ، لأنه تفسير بالرأى من غـير ادراك لمعانى الألفاظ فى عرف الاسلام ، وبغير مؤهلات ، واجتهاد فى الفهم من غير التسلح بأدواته ، وحينئذ يكون الخطأ . ويكون السقط .

فهذان هما الموضعان اللذان يذم الرأى فيهما .

وفى الحق ان هذا ليس تفسيراً بالرأى المجرد ، انما هو من الهوى أو التهجم والتهجم على مالا يحسن ، والعمل فيما لا يتقن ، وذلك قبيح فى كل شىء .

الظاهر والباطن

٢٤٥ — يدعى بعض فرق الشيعة أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وأن الباطن له باطن حتى يصل العدد الى سبعة بواطن وأن معرفة القرآن معرفة صحيحة كاملة لاتكون الا بمعرفة هذه البواطن ، وليس علمها عند كل انسان ، بل أوتى العلم بالبواطن كلها الامام المعصوم ، والاصل أن علم هذه البواطن كلها كان عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أودعها من بعده على بن أبى طالب ، وعلى أودعها عند موته الامام من بعده ، وهكذا توالت النفوس فى أخذ هذه الوديعة اماما عن امام حتى وصلت الى الامام المستور المغيب .

وقد تولى القاضى عبد الجبار ادحاض ذلك الرأى ، وبين أنه لا أساس له من العقل ولا النقل ، فقال عن هذا الرأى ، حكى ذلك عن قوم من الأوائل ، لأنهم زعموا أنه ينطبع فى النفس مثل المدركات ، فيعرفه المدرك على أن هذه الطبقـة

خارجة عن حد من يناظر ويتكلم ، لأنها تبنى أمرها على الحيل ، وانما تقع المناظرة من أهل الديانات ، دون من يجعل من يبتدئه ويعيده مبنياً على الخديعة والاستشكال ، والتوصل الى استباحة المحذور ، ويرى أن المذاهب كلها واحدة وان الواجب أن يظهر لكل فرقة ما يقرب به اليها ، ولا ينفر بالخالفة الى سائر مايحكى عنهم ولو بنوا الأمر على طريقة النظر ما أقدموا على هذا القول مع وضوح فساده ، ولكنهم توصلوا بذلك الى الاحتيال على الناس ، فقالوا ان القرآن له ظاهر وباطن ، وتنزيل وتأويل ، وان الاثر قد ورد بأن تنزيله مفوض الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتأويله الى على رضى الله عنه ثم الى سائر الحجج (أى الأئمة) وأنه لابد من معرفتهم ليصح أن يعرف مراد الله تعالى ، فجعلوا ذلك طريقا الى القدح فى الاسلام والدين ، لأنه مبنى على القرآن والسنة ، فاذا أخرجوا من القرآن يعرف به شيء وكذلك السنة وجعلوهما ظاهرين ، وجعلوا المرجع الى الباطن الذى لايعلم الا من جهة الحجة (الامام) ولا حجة فى هذا الزمان فقد سدوا باب معرفة الاسلام ، وطعنوا فيه ، فعظمت مضرتهم (١) .

ويسوق بعد ذلك عبد الجبار الادلة على بطلان ذلك المذهب ، وان كان لايحتاج بطلانه الى دليل ، ويناقش القول الذى قالوا ، لأنه يلغى اعتبار الالفاظ ، وعلى غرض بقائها يجب أن يكون علم الامام مبينا لها وان قولهم هذا يؤدى الى أن يلتبس أمر القرآن على الامة ، لأن الامام مستور ، وأن القول بأن له باطنا ، لا يعرف للناس مناف لقول الله تعالى فى وصفه الله تعالى للقرآن بأنه هدى للناس وبأن فيه تبيان كل شيء ، وأن الناس مأمورون بالفكر فى آياته ، وتدبره وهكذا .

وفى الحق ان ذلك الكلام لاموضع له من النظر ، وقد حكيناه ليتبين أوهام أولئك الناس التى لا سلطان لها من حجة أو برهان ، ولكنها مخاوف الشيطان .

٢٤٦ — ويجب هنا أن ننبه بأن بعض العلماء يقولون ان للقرآن ظاهراً وباطناً ، لا بهذا المعنى ، بل بمعنى أن القرآن يحوى من العلم ما يخفى على بعض الناس ، فأولئك لهم ظواهر الالفاظ ، أماما عدا هذه الظواهر مما تشير اليه من

---

(١) المغنى جـ ١٦ ص ٣٦٤ والذين يقولون لا فرق بين المذهب والديانات بعض الصهيونية الذين يدعون الوصول الى الحقيقة ولعلهم من أصل باطنى

علم ، فانه لا يعرفه الا خواص العلماء ، والراسخون فى العلم ، ولا تناقض بين الظاهر والباطن .

فالغزالى يسلم بأن للقرآن ظاهراً يفهمه كل قارىء للقــرآن يعلم بأساليب البيان العربى ، مطلع على المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وله باطن عميق يفهم من الاشارات البيانية ، وما وراء الالفاظ من معان علمية لا يدركها الا الراسخون فى العلوم المختلفة .

والغزالى على هذا ينتهى الى أنه لا يصح الاعتماد على العقل وحده فى فهم القرآن بل لابد من الاستفادة بالنقل ، ويصح الاخذ بالنقل فى الاحكام الشرعية ، بل يجب الاخذ به ، وفى غيرها من النصوص تكون الطريقة المثلى أن يعتمد على النقل والعقل معاً فان ظاهر القرآن لابد فى معرفته من نقل اللغة والسنة ان كانت سنة صحيحة .

وفى ظل النقل الصحيح ان كان ، وفى كل الدلالات اللغوية للألفاظ والأساليب البيانية ، والعرف الاسلامى لألفاظ القرآن يعمل العقل فى استخراج معانى القرآن الكريم ، المتسعة الأفق البعيدة المدى ، وفى القرآن آيات كثيرة توجه العقل الى عمق فى الحقائق الكونية والنفسية ، وكلما تفتح العقل ، وأدرك ظواهر كونية ادراكا صحيحاً وجد فى القرآن ما يشير اليها وانه كلما اتسع أفق العقل البشرى فى فهم الكون والحقائق والشرائع اتسع فهمه للقرآن الكريم .

ولعل ذلك هو الذى أشار اليه بعض الصحابة فى أقوالهم مثل قول أبى الدرداء فيما نسب اليه « لا يفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً » ، ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً » وليس الباطن المذكور فى ذلك النص الباطن الذى لا يعلمه الا الأئمة كما يدعى الشيعة ، انما الباطن هو الاشارات البيانيــة الى الحقائق الكونية والنفسية ، وغير ذلك من المعانى التى تدركها العقول ، ويصل اليها العالم ذو البصيرة المنيرة الذى آتاه الله تعالى نفاذ عقل واستقامة فكر .

٢٤٧ — والغزالى يقول المعنى الذى يؤخذ من ظواهر الألفاظ العربية ، ويثبت بعضه من السماع عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصحابة هو الطريق للمعنى العميق الذى يدركه الناس كلما تقدم العلم ، واطلعوا على ظواهر الكون وكشفوا من خواصه ما كان مجهولا ، ولا سبيل لمعرفة تلك المعانى العميقة الا بالمعانى الظاهرة المكشوفة .

ويقول الغزالى فى ذلك ما نصه : « النقل والسماع لابد منه فى ظاهر التفسير أولا ، ليتقى موضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتتبع للتفهم والاستنباط ، واستخراج الغرائب التى لا تفهم الا بالسماع ، ولا مطمع فى الوصول الى الباطن قبل امكان الظاهر ، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر ، فهو كمن يدعى البلوغ الى صدر البيت قبل مجاوزة الباب ، أو يدعى فهم مقاصد الاتراك من كلامهم ، وهو لا يفهم لغة التراك ، فان ظاهر التفسير يجرى تعلم اللغة التى لابد منها للفهم » .

والمعنى الباطن الذى يقصده الغزالى هو تحرى الدقائق التى تكون فى مطوى الألفاظ القرآنية ، والأسرار التى لايدركها الا العلماء الراسخون فى الاسلام ، والعلوم المختلفة ، كل بمقدار طاقته العلمية ، بعد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحذف واخبار ، وعموم ، وخصوص ، واطلاق وتقييد ، وان ذلك واضح من كلامه وضوحاً بيناً ، فهو يقول فى معانى القرآن :

« انما ينكشف للراسخين فى العلم من أسراره بقدر غزارة علمهم ، وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد فى الترقى من درجة الى درجة أعلى منها ، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ، ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً ، فأسرار كلمة الله عز وجل لانهاية لها ، فمن هذا الوجه يتقارب الخلق فى الفهم ، بعد الاشتراك فى معرفة ظاهر التفسير ، وظاهر التفسير لا يغنى » (١) .

---

(١) احياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٦٣ — ٢٦٤

٢٤٨ — هذه اشارات الى مناهج التفسير تكلم فيها العلماء ، وعندى أنه لايمكن الاستغناء عن الآثار فى فهم آيات الأحكام ، أما ما عداها فان العقل له فيه مجال كبير بشرط ألا يهيم على غير نور من الشرع • ولابد لكى يكون التفسير بالعقل مقبولا من ثلاثة شروط :

أولها — العلم باللغة علماً سليما لكى يدرك معانى التصريف البيانى فى القرآن•

وثانيها — ألا يخالف المأثور عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ يكون مخالفاً للمبين الأول للقرآن وهو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •

والشرط الثالث — ألا يتعصب لفكرة أو مذهب ، ويخضع القرآن لما يتعصب له ، فيكون تفسيره خالياً من تأثير الهوى ، والله أعلم •

ترجمة القرآن

٢٤٩ — أجمع العلماء على أن القرآن هو اللفظ ، والمعنى ، وان من خالف ذلك يعد قد خالف فى أمر عرف من الدين بالضرورة ، وليس المعنى وحده يعد قرآناً ، لأن التحدى كان باللفظ والمعنى ، ولما تحداهم الله تعالى طالبهم أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات ، وواضح أن التحدى هنا باللفظ .

وان جبريل عليه السلام نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلسان عربى مبين ، ولقد وصف القرآن الكريم بأنه عربى ، فقال تعالى « انا أنزلناه قرآناً عربياً » وقال تعالى : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » فالقرآن بلفظه ومعناه عربى ، ولا يصح أن يقال عن كتابه بعض معانيه بغير العربية انها قرآن .

ومع وضوح هذه الحقيقة البدهية التى لاتختلف فيها العقول عند أهل الايمان ولا تتباين فيها الانظار ، وجد من الناس من ادعى أن معانى القرآن قرآن ، وأنه على هذا الاعتبار تجوز ترجمة القرآن الكريم على أن يكون المترجم قرآناً له كل خواص القرآن ، ويتعبد به كما يتعبد بالقرآن الذى نزل به جبريل بلسان عربى .

بل وصل التهافت فى القول الى أن يدعى بعض الذين لا حرج على ألسنتهم ولا على قلوبهم أن يقول ان الذى نزل به جبريل على النبى عليه الصلاة والسلام هو المعنى فقط .

وذلك كله هراء من القول ، وانحراف عن الدين ، أو خروج عنه .

وفى وسط ذلك المضطرب كان من بين الذين يتجنون على القرآن من ادعى أن الامام الاعظم أبا حنيفة النعمان يرى أن القرآن هو المعنى فقط، وبنوا على هذا جواز ترجمة القرآن عند أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه ، وأكرم مثواه ، والاصل الذى بنوا عليه دعواهم أنه رأى فى صدر حياته طوائف من الفرس قد دخلوا

فى الاسلام ، وقد علموا العربية ، ولكن ألسنتهم لم تطوع للنطق بها من غير رطانة أعجمية ، بل كانت تتلوى فى مخارج الحروف العربية ، كما نجد اليوم الاعاجم الذين يعلمون اللغة العربية ، ولا تطاوعهم ألسنتهم فى النطق السليم بها ، فسوغ أبو حنيفة لهؤلاء أن يقرءوا معانى الفاتحة بلغتهم الفارسية ، وقد روى فى هذا أن أهل فارس فى عهد الصحابة قد صعب عليهم مخارج الحروف العربية ، فطلبوا الى سلمان الفارسى أن يعبر لهم بالفارسية عن معانى الفاتحة ففعل ، حتى لانت ألسنتهم وقرءوا القرآن باللغة العربية، وقد اشترط أبو حنيفة لجواز ذلك ألا يكون الشخص مبتدعا بهذا العمل ، أى أنه يترك القراءة بالعربية مع القدرة على النطق الصحيح بها ، واخراج الحروف من مخارجها ، ليقرأ معانيه بلغة أخرى فارسية أو أوربية •

وقد روى عن أبى حنيفة أنه رجع عن هذا الرأى ، روى هذا نوح بن أبى مريم الجامع ، وهو الذى رجحه الاكثرون ، وان النظرة التاريخية الفاحصة تجد ترجيح هذه الرواية له سبب واضح ، وهى تساير الحقيقة التاريخية ، وهو أن أبا حنيفة الفقيه المدرك ، قرر جواز قراءة المعانى بالفارسية على أنها دعاء مقارب للفاتحة فى معانيه ، فلما لانت الالسنة، ودخل الناس من أهل فارس وغـيرها فى دين الله أفواجا أفواجا ، ورأى أن المبتدعين هم الذين يتخذون القرآن مهجوراً وهم الذين يستبيحون تلك الرخصة التى رخصها ، حرم ما كان قد استحسن •

٢٥٠ ــ ومهما تكن الفتوى من الناحية التاريخية فان الفقهاء اختلفوا فى أصل هذه الفتوى مؤداها أن أبا حنيفة اعتبر الترجمة دعاء ، وليست قرآناً ، أم أنه اعتبرها قرآناً ، وهل مؤدى ذلك أن يكون أبو حنيفة قد اعتبر القرآن هو المعنى دون اللفظ •

ونقول فى الاجابة عن هذا السؤال ان من المقطوع به أن أبا حنيفة لم يعتبر القرآن الذى نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو المعنى فقط ، فذلك ما لم يقله أحد من أهل الايمان ، لأن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أقرأه جبريل اللفظ ، ولم يوح اليه بالمعانى وحـدها ، اقرأ قوله تعالى مع ما تقـدم

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » (١) •

فهل بعد هذا النص القاطع يستطيع أحد أن يدعى على أبى حنيفة الورع التقى أنه يقول ان الذى نزل على محمد ، وتلقاه عن جبريل الامين ، وهو روح القدس هو المعنى فقط ، ان ذلك غير معقول •

وبقى السؤال الأول هل يمكننا أن نفهم من هذا أن أبا حنيفة أقر قراءة القرآن بغير العربية ممن يعرف العربية ، ولا يجيد اخراج الحروف من مخارجها ، أنه يعتبر المعنى ذاته قرآناً مع اقراره بأن الذى نزل على محمد اللفظ والمعنى •

نقول ان الاكثرين من الفقهاء المتقدمين والمتأخرين يقولون ان أبا حنيفة اعتبر المترجم مجزئاً للصلاة فى الحدود التى رسمناها فى دور من أدوار اجتهاده الفقهى ، ولكنه لا يعده قرآناً قط ، ولذا لم يقل أنه تجب سجدة التلاوة بالجزء المترجم اذا كان فى معنى آية لها سجدة تلاوة ، وأجاز أن يمس غير المتوضىء الجزء المترجم ، ولا حرج عليه ، وتقرأ الحائض النفساء المعنى المترجم ، ولا اثم فى ذلك ، لأنه ليس قرآناً •

ولذلك يقول الاكثرون من فقهاء المذهب الحنفى ان ماقرره أبو حنيفة ان هو الا ترخص للذين لم تقوم ألسنتهم تقويماً عربياً سليما ، فسوغ لهم أن يقرءوا المعانى حتى تتقوم ألسنتهم ، وعلى أنها دعاء ، لا على أنها قرآن ولم يعرف عنه قط أنه سوغ ذلك فى غير الفاتحة •

وعلى هذا لايجوز لأحد أن يبنى على ما روى عن أبى حنيفة جواز ترجمة القرآن الى لغة من اللغات على أن يكون المترجم قرآناً ، ومهما يكن ، فان الرأى الذى ينسب الى أبى حنيفة قد رجع عنه ، وهو خارج عن رأى الفقهاء أجمعين ، فلم يسوغ أحد قراءة معانى الفاتحة بالفارسية أو غيرها ، بل أجازوا الدعاء لمن لا يعرف العربية ، ولم يجد من يأتم به ليغنيه عن القراءة •

---

(١) القيامة : ١٦ — ١٩

وتكرر القول بأنه رجع عنه ، وقلنا انه الذى يتفق مع السياق التاريخى ، اذ أن أبا حنيفة عاش سبعين سنة ابتدأت سنة ٨٠ وانتهت سنة ١٥٠ والمعقول أنه رأى الألسنة الفارسية لم تقوم ، فسوغ لهم من قبيل الرخصة الدينية فقط أن يقرءوا المعانى لسورة الفاتحة على أنها دعاء حتى تقوم ألسنتهم ، فلما رأى الألسنة قومت ولانت واستقامت ، وخشى البدعة ، اذ يجد المبتدعة السبيل لبدعتهم ، فرجع عن رأيه ، ولا يصح الاعتماد على رأى رجع عنه صاحبه .

٢٥١ — ولو تركنا فتوى أبى حنيفه ، وقد علمنا من الفتوى أنه لم يعتبر ترجمة القرآن قراناً لها قدسية القرآن يجب أن نتجه الى موضوع الترجمة فى ذاته ، ولكى نقرر الحق فيه يجب أن نجيب عن هذه الاسئلة الثلاثة .

السؤال الأول : أيمكن ترجمة القرآن .

السؤال الثانى : أتسوغ الترجمة على أن الترجمة قرآن أو ليست بقرآن .

السؤال الثالث : ما السبيل لتعريف غير المسلمين بالقرآن ، واطلاعهم على معانيه .

وانا نجيب عن هذه الأسئلة جملة : ان ترجمة القرآن غير ممكنة ، وقد تصدى لذلك العلماء الأقدمون ، فقرر ابن قتيبة وغيره من العلماء أن كل كلام بليغ لايمكن ترجمته ببلاغته من لغة الى أخرى ، ذلك أن الكلام البليغ له معنيان مجتمعان أحدهما أصلى ، وهو المقصد الذى انبنى عليه الكلام وما سبق له من قصة أو حكم أو عظة .

والثانى بلاغى ، وهو اشارات الكلام ومجازاته ، وما يثيره من صور بيانية ، وما يحيط به من أطياف ، كالتى تحيط بالصور الحسية ، وبهذا كله تعلو الرتب البلاغية ، ويسمو البيان .

وبتطبيق هذه القاعدة على القرآن الكريم . وهو فى درجة من البلاغة لا ينهد اليها أى كلام انسانى قط ، فان ترجمته مستحيلة على أن يكون قرآناً فيه كل خواصه البلاغية .

ولذلك قال العلماء الأقدمون بالاجماع ، انه لا يمكن ترجمة القرآن بمعانيه الأصلية ، والمعانى البيانية اللاصقة لها ، فما فيه من أوامر ونواه وأخبار وقصص يمكن ترجمته ، فيترجم أصل النهى والامر ، ووقائع القصة ، ولكن العبارات التى سبق بها القول وما فيه من صور بيانية ، واشارات تعلو بالكلام الى أسمى المنازل حيث لايكون له شبه ولا مثيل ، فان ذلك لايمكن ترجمته .

ولقد قال الشاطبى فى هذا المعنى بعد أن قسم معانى الكلام البليغ الى معان أصلية ومعان خادمة هى ما تشير اليه المجازات والتشبيهات والاشارات البيانية، ومطويات الكلام ومراميه البعيدة . قال بعد هذا التقسيم : « اذا ثبت هذا لايمكن من اعتبر هذا الوجه أن يترجم كلاماً من الكلام العديد بكلام الاعاجم فضلا عن أن يترجم القرآن ، وينقله الى لسان غير عربى الا مع فرض استواء اللسانين فى اعتباره عيناً ، فاذا ثبت ذلك فى اللسان المنقول اليه مع لسان العرب أمكن أن يترجم أحدهما الى الآخر ، واثبات مثل ذلك بوجه بين عسير جداً » .

ونزيد على الشاطبى أنه اذا توافق اللسانان فانه مع بعد ذلك لا يوجد فى اللسان الآخر من تكون عبارته كعبارة القرآن المعجز للبشر أجمعين الذى ان اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وقد نفى ابن قتيبة امكان ترجمة القرآن على الوجه الثانى ، أما الوجه الاول فقد قال فيه : « فأما عن الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهة صح تفسير القرآن ، وبيان معناه للعامة ، ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزاً باتفاق أهل الاسلام ، فصار هذا الاتفاق حجة على صحة الترجمة بالمعنى الأصلى » (١) .

وبهذا يتبين أن ترجمة القرآن غير ممكنة .

ولا تسوغ ترجمة القرآن ، واعتبار هذه الترجمة قرآناً ، فان ذلك يؤدى الى

---

(١) المعارف لابن قتيبة

ألا يحفظ القرآن من التحريف والتبديل بل يعتريه ما اعترى التوراة والانجيل من تحريف وتبديل ، فالاناجيل ضاع أصلها العبرى ، ولم يبقى الا ترجمتها اليونانية ، أو بالاخرى ترجمة بعضها ، والسبب فى ذلك هو ترجمتها من العبرية ، وهكذا يكون القرآن الكريم لو سوغنا ترجمته ، ولكن الطريق مسدود ابتداء لأن الترجمة غير ممكنة ، فكان القرآن محفوظاً « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » (١) •

٢٥٢ — وهنا يرد أمران منبعثان من السؤال الثالث الذى ذكرناه ، وهو كيف نوصل علم القرآن الى أهل الألسنة الأخرى ، ذلكم الأمران أولهما أن كثيرين من الاوربيين والامريكان وغيرهم ، والمغرضون فيهم أكثر من طالبى الحقائق — كتبوا معانى القرآن بغير العربية وسموها قرآناً وحرفوا فيها الكلم عن مواضعه ، والاجانب يعتبرونها قرآناً ، ومن الواجب أن تصحح هذه التراجم بترجمة صحيحة سليمة للقرآن ترد الحق الى نصابه •

والامر الثانى : أن عند بعض الاوروبيين والامريكان نزعات تتجه بهم الى تعرف القرآن وما يشتمل عليه ، وان كثيرين من الشرقيين المسلمين لا يعرفون معانى القرآن وان كانوا غير فاهمين لما يتلون •

ومن الواجب أن نعرف المسلمين بمعانى القرآن معجزة الاسلام ، ومنهم من يحفظه كله ، وكلهم يحفظون بعضه ليصححوا صلاتهم ، وان هؤلاء من حقهم على المسلمين الذين يجيدون العربية ، ويفهمون لغتهم أن ينقلوا اليهم معانى القرآن ليفهموا معنى ما يتلون من كتاب الله تعالى •

ونقول بالنسبة لهؤلاء الأعاجم من المسلمين انهم يتلون القرآن الكريم ، ومن السهل أن يكتب لهم فى هامش المصاحف التى بأيديهم معانى الألفاظ القرآنية ، فيقرءون القرآن، ويستطيعون أن يفهموه ، وقد فعل كثيرون منهم ذلك، ومايكون بالهامش لايعد ترجمة ، بل يكون تفسيراً للمفسر •

---

(١) الحجر : ٩

وأما بالنسبة لغير المسلمين الذين يريدون أن يعرفوا مافى القرآن ، ونحن نقرر أن من الصد عن سبيل الله تعالى ألا تطلعهم على مافى القرآن من تكليف وعظات وارشاد ، ولكن السبيل الى ذلك ليس ترجمة القرآن ذاته ، فان ذلك متعذر ، لأن القرآن له معان رائعة تختلف فى ادراكها على الوجه الأكمل للعقول ، وكل عقل يدرك منها بمقدار ثقافته ، وما يدلى به من حبال المعرفة وطاقة الفهم •

وانما السبيل هو الاتجاه الى أحد أمرين ، اما بيان المعانى الأصلية التى اشتمل عليها القرآن مبينة بأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يعرفون حقائق الاسلام ، ويستضيئون بنور القرآن •

والاتجاه الثانى : أن يفسر القرآن تفسيراً موجزاً مختصراً موضحاً لمعانى الآيات ، وأن يتولى كتابة هذا التفسير جماعة علمية معروفة بأنها من أهل الذكر ، ويذكر التفسير منسوباً اليهم ، ومسمى بأسمائهم مضافاً اليها ، ويترجم ذلك التفسير على أنه ترجمة تفسير فلان ، وفلان ، وأن نحتاط عند النشر ذلك الاحتياط لكيلا يفهم أحد أن هذه الترجمة هى القرآن ، أو هى معانى القرآن ، بل يشار الى أنها ترجمة لمعانى القرآن على ما ذكره وفهمه أولئك المفسرون ، فان معانى القرآن على الحقيقة لا يعلمها كاملة الا منزل القرآن ، ومن نزل عليه الفرقان ، ومن بعد يدرك كل عالم بمقدار طاقته ، وان القارىء المتفهم للقرآن الطالب لمعانيه يجد أمامه نوراً ، كلما قوى بصره واستفادت بصيرته ، وكلما علا ادراكه علا فهمه للقرآن ، وعلم منه مالم يكن يعلم ، وفهم من بعض أسرار اعجازه ما لم يكن يفهم من قبل •

وأنه لكمال الاحتياط يجب أن يكون النشر بحيث لا يفهم أنه ترجمة لآى القرآن مباشرة ، بل يكون الطبع على الوجه الآتى :

(ا) يطبع المصحف فى وسط الصفحة ، وترقم آياته بأرقام أفرنجية ، ويكتب حوله تفسير كل آية مرقما برقمها الذى رقمت به الآية ، بحيث يكون القرآن مكتوباً بلغة القرآن ، والتفسير مكتوباً باللغة العربية •

(ب) يكتب تفسير باللغة التى ترجم اليها التفسير مرقما بالأرقام التى

رقمت بها آيات المصحف ، بحيث يفهم القارىء غير العربى أن ما يقرؤه هو ترجمة تفسير للقرآن ، وبحيث يفهم تفسير كل آية من رقمها الذى رقمت به فى المصحف ، وفى التفسير •• وان هذا النظام الفكرى ، والطابعى ، يحقق مقاصد ثلاثة :

أولها — وضع تفسير موجز باللغة العربية يمكن طبعه مع المصحف من غير ترجمته ، وذلك مقصد سليم مطلوب فى ذاته ، يسـهل على القارىء العربى فهم القرآن ، وهو يتلوه أو يستمع الى من يتلوه •• وبذلك تتحقق العظة ، ويتحقق الاعتبار ، ويكون الانتفاع كاملا لمن يعرف العربية •

ثانيها — أن يقرأ القارىء الأعجمى القرآن الذى يحفظه من غير أن يفهم ، وبايجاد التفسير بلغته يتمكن من فهم القرآن ، ويسهل عليه ذلك أن يعرف العربية ان اتجه الى معرفتها ، لأنه حفظ كثيراً من عباراتها القرآنية وفهم معناها •• وقد نفذت ذلك فعلا بعض البـلاد الإسلامية ، فالإيرانيون قد كتبوا تفسيراً للقرآن باللغـة الفارسية طبع فى هامش المصحف الشريف ، وكذلك فعـل الأفغانيون ، والباكستانيون •

ولو كان التفسير العربى الذى تكتبه طائفة من أهل الذكر ، ترجم الى لغات أولئك لـكان العمل أسلم وأتقن وأجدى •

المقصد الثالث — الذى يحققه ذلك العمل الجليل — هو تصحيح ما سمـوه تراجم للقرآن فى اللغات الأوروبية ، وبيان وجه الخطل فيها ، وابطال التحريفات لمعانيه الجليلة ، فان بعض الذين تولوا الترجمة لم يكن مقصدهم العلم لذات العلم، بل كان مقصد الكثيرين منهم تشويه معانى القرآن الكريم ، وفـوق ذلك فـان الأوروبيين يجدون السبيل لرؤية القرآن ، فان أرادوا أن يمشوا فيـه مخلصين أدركوه ، وآمنوا به واهتدوا •

وان قصدوا الى النور بعيون ضـالة ، وقلوب مريضـة ، ونفوس أركست فى الهوى ، فلن يزدادوا الا عمى ، قال تعالى « فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » •

هذا هو العمل الذى نعتقد أنه العمل السليم الذى يحقق كل المقاصد من غير أن يتعرض القرآن لعبث العابثين ولهو الضالين •

وانا نعتقد أن الله حافظ كتابه فى الانتهاء ، كما حفظه فى الابتداء ، انه عليم قدير •

الغناء بالقرآن

٣٥٣ — تلونا من قبل قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » (١) •

هذا النص الكريم يدل على أن تلاوة القرآن بتوجيه من الله ، لأنه سبحانه وتعالى يقول : « فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه » أى اذا تلونا عليك القرآن ، واستحفظته فاتبع القراءة التى علمك الله تعالى ، وهو مايدل عليه قوله تعالى : « فاتبع قرآنه » أى اتبع طريقة القرآن التى قرأناه ، ولا تبتعد عنها ، فان القرآن يراد به القراءة أحيانا كما قال تعالى : « وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً » •

والقرآن فى أصله كتاب كريم مبين ، وعبر عنه سبحانه وتعالى بقرآن ايماء الى أنه كتاب نزل بنصه وبطريقة قراءته ، وبذلك لا يستحفظ باقياً فى الأجيال بمجرد الكتابة ، بل بالقراءة وحفظه فى الصدور متلواً بما علم الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالنبى عليه الصلاة والسلام فى تلاوته انما يتلو بتعليم من الله تعالى فى مده وغنه ، وتشديده وتسهيله ، فانه اذ نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نزل متلواً •

وعلى ذلك تكون القراءة الكاملة للقرآن الكريم هى القراءة التى التزمها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر من ربه وتعليمه •• ولذلك يقول العلماء أن القراءة سنة متبعة ، لا يصح لمؤمن أن يحيد عن طريقة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم •• وقد علم النبى أصحابه هذه القراءة كما علمه ربه ، وعلم الصحابة

(١) القيامة : ١٦ — ١٩

تلاميذهم من التابعين تلاوة النبى عليه الصلاة والسلام ، وتواترت قراءة النبى الكريم ، كما تواتر القرآن الكريم • فكان محفوظاً بطريق تلاوته ، كما كان محفوظا بذاته ، بل ان الفصل بين طريقة التلاوة ، وذات القرآن الكريم فصل بين متلازمين •• وان السلف الصالح ، والخلف من بعدهم ما كانوا يعتمدون على المكتوب فى استحفاظ القرآن الكريم ، انما يقرأ طالب القرآن على مقرىء يقرئه ، ولا يعتمد على مكتوب كتب ، لأن المكتوب قد يجرى فيه التصحيف والتبديل • أما ما حفظ فى الصدور فانه لا يعروه تغيير ولا تبديل ، ولا تحريف •

ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يرتل القرآن ترتيلا ، فقال تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » (١) • ولقد نسب سبحانه وتعالى الترتيل الى ذاته المقدسة ، فقال تعالى : « ورتلناه ترتيلا » •

ولقد وضع العلماء المقاييس والضوابط التى تميز الترتيل المطلوب فى تلاوة القرآن الكريم ، ولم يتركوا الأمر فرطاً بل وضعوا ميزاناً يميز الترتيل المطلوب عن القراءات البعيدة عن الترتيل ، وهو علم التجويد ، وعلم القراءات ، ففى هذين العلمين يتميز المنهاج المطلوب فى الترتيل عن غيره مما يبتدعه الناس •

٢٥٤ — ولقد كان التابعون تلاميذ الصحابة يتبعون فى قراءة القرآن الترتيل الذى تعلموه من الصحابة كما أشرنا ، وهو الترتيل الذى قرأ به الصحابة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الترتيل الذى علمه الله تعالى لنبيه ، فكان السند متصلا اتصالا وثيقا ، وتواترت القراءة تواتر القرآن ، كما نوهنا •

ولكن حدث فى العصر الأموى ، وهو عصر التابعين ، ومن امتد به الأجل من الصحابة رضى الله تعالى عنهم أن دخل الغناء الفارسى ، وتشايع ذلك الغناء بألحانه •

ويظهر أن هذا الغناء تسامى بألحانه الى القرآن الكريم ، فالتوت بعض الألسنة عن الترتيل المتبع فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن كان حيا

---

(١) المزمل : ١٤

من المعمرين من الصحابة استنكر ذلك • يروى فى هذا عن زياد النميرى أنه جاء مع بعض القراء الى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقيل له اقرأ ، فرفع صوته وطرب ، وكان رفيع الصوت ، فكشف أنس عن وجهه ، وكان على وجهه خرقة سوداء ، فقال : يا هذا ما هكذا كانوا يقرءون ، وكان اذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه •

وان هذا الخبر عن ذلك الصحابى الجليل يدل على أمرين :

أولها — أن التطريب بالقرآن برفع الصوت وخفضه مسايرة لنغم ، أو نحو ذلك ، ما كان فى الترتيل الذى تلقاه الصحابة عن الرسول •

والثانى — أنه يدل على ذلك التطريب بقراءة القرآن قد حدث فى العصر الأموى بعد أن دخل الغناء الفارسى ، فهو بدعة ابتدعت ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار •• وذلك فوق أن القرآن لابد أن يرتل ترتيلا ، وذلك ليس ترتيل القرآن ، والقراءة كما قلنا سنة متبعة •

وان التلاوة الحق كما حد العلماء حدودها ، وقرروا مقياسها فى علم يدرس قد ذكر القرآن خواصــــها ، وهى فى آثارها فى نفس القارىء ، وفى نفس من يسمعها ، وفيما تدل عليه من منزلة القرآن ومكانته فى هذا الوجود •

فالله تعالى يقول فى مكانته : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا » (١) ، أى أن هذا القرآن له قوة فى النفوس وفى الوجود ، بحيث أنه يمكن أن تسير به الجبال ، أو تكلم به الموتى ، أو تقطع به الأرض ، فله فى النفس كمال الرهبة ، وله كمال التأثير ، وله فى الآذان جمال التعبير •• فلو كانت الجبال تسير ، أو الأرض تقطع ، أو الموتى يسمعون القرآن ، فانه يكون لقراءة القرآن •• فهل يتأتى هذا التــأثير مع تلوى الألسنة والأصوات بتنغماته ، يترنح بها القــارىء ذات اليمين وذات الشمال ، والآهات تتعالى ، ويكون المكاء والتصدية •

---

(١) الرعد : ٣١

والقرآن وصفه الله تعالى بأنه ذو الذكر ، وأقسم به تعالى ، فقال سبحانه : « والقرآن ذى الذكر » أى القرآن الذى يصحبه ذكر الله تعالى ، وهو الذى تطمئن به قلوب المؤمنين ، كما قال تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . وسمى القرآن ذكراً فقال جل وعلا : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » . فهل تلوية الأصوات والنبرات بغير الترتيل المنزل من عند الله تعالى يكون الذكر لله تعالى ، والاتعاظ بقرآنه أم هى النغمات بين التطرية والتعلية ، هى التى تهتز لها النفوس طرباً ، وتعلو بها الأصوات اعجاباً بالمغنى ، وعجباً .

والقرآن قد وصف الله تعالى المؤمنين عند تلاوته ، فقال تعالى : « اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا » (١) .. فهل تكون التلاوة للمؤمنين الذين سمعوا القرآن تكون بهذه الأصوات التى تحدث الضجات المتوالية .

ويصف الله تعالى القرآن الكريم فيقول : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين » (٢) .

ويبين سبحانه قوة تأثير القرآن فى قلوب المتعظين ، وفى قلوب من يتفهمونه : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٣) .. فهل يرى أى مدرك للمعانى القرآنية أن ذلك يتفق مع التغنى والتريب الذى يصنعه قراء العصر .. ان القارىء يكون مشغولا بالطرب عن معنى القرآن وهدايته وعظاته فلا يتدبره ، ولا يدرك معناه ، ويكون على القلوب أقفال بما يحدثه التغنى والتطريب ، والاجتهاد فى اثارة النفوس لا لتتعظ ولكن لتضع ستاراً بينها وبين ما فى القرآن . والله تعالى يصف القرآن الكريم بقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » (٤) .

وان هذه الآيات التى تلوناها قبسة من نور القرآن الكريم ، وهى تدل

---

(١) مريم : ٥٨
(٢) الاسراء : ٩
(٣) الحشر : ٢١
(٤) الزمر : ٢٣

على أنه ليس شعراً يتغنى به ، ويتنزل على لحون الأعاجم قديمها وحديثها ، ولكنه كتاب هداية للعظة ، والاعتبار ، وتوجيه النفوس • وكل تطريب بالألحان قديمة وجديدة هو الهاء عن ذكر الله تعالى ، وابعاد عن مراميه ومغازيه ، فتكون النفس مشغولة بالنغم الملهى عن معنى القرآن ومرماه •

٢٥٥ — واننا لا نبعد بهذا الكلام عن حقيقة مقررة ثابتة ، وهى اتباع السلف فى التلاوة ، وهى تنتهى فى أصلها الى منزل القرآن الكريم الذى جعله حجة وبرهاناً ومعجزة ، وقال فيه : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١) كما تلونا من قبل •

فكل مخالفة لمنهاج السلف الصالح فى التلاوة ، مخالفا لما أمر الله تعالى به فى قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » • ولكن وردت آثار عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يوهم ظاهرها جواز التغنى بالقرآن ، والتطريب به والترجيع فيه ، وكان لنا وقد تلونا ما تلونا أن نحكم بعدم صحة نسبتها الى الرسول ، ولكن ذلك يكون اذا كانت تدل قريباً أو بعيداً على جواز الغناء الذى نراه الآن من بعض القراء ، وعلى ما يريده الذين لم يعرفوا بأنهم أرادوا للاسلام وقارا ، بل يريدونه بورا ، أو كما يبدو فى كتاباتهم ، والله عليم بضمائرهم •

ولكنا اذا تفهمنا هذه الآثار عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعن صحابته ، وما ترمى اليه — ان صحت النسبة — وجدنا أننا لسنا فى حاجة الى رد صحيح السند منها ، لأن متنه لايخالف الترتيل الذى جاء به رب القرآن ورب محمد ، ورب العالمين :

١ — لقد روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال فيما رواه عنه البراء بن عازب « زينوا القرآن بأصواتكم » •

٢ — وأخرج مسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » •

---

(١) الاسراء : ٨٨

٣ — ولقد كان عليه السلام يسره أن يسمع القرآن من أبى موسى الأشعرى ، حتى روى أنه قال فى سرور بقراءته : « لقد أعطيت مزماراً من مزامير داوود » ، وأنه سمعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاستطاب ما يسمعه من صوته وأبو موسى لم يشعر ، فلما شعر قال : « لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبرت لك تحبيرا » .

٤ — وروى عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن ، وغنوا به ، واكتبوه ، فوالله انه لأشد تفصياً من المخاض من العقل » .

٥ — قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، فى مسيرته ، سورة الفتح على راحلته فرجع .. والترجيع فى القراءة ترديد الحروف .

هذه الأخبار واردة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى فى ظاهرها تدل على جواز التغنى بالقرآن والترجيع فيه والتطريب به ، وقد طار بهذه الآثار أولئك الذين يروجون قراءة القرآن بألحان الأعاجم ، وكان لنا أن نردها لمخالفتها المتواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فلننظر اليها فهل تؤدى فى مدلولها الى جواز اتخاذ القرآن سبيلا للتطريب فى عصرنا ، لتحدث القراءة طربا ولا تحدث عظة واعتباراً ، وخشية من الله ، واحساساً من المؤمن بأن الله تعالى يخاطبه بهذا القرآن .

ولننظر فيها خبراً خبراً ، نتعرف ما يدل عليه فى ظاهره ، وفى حقيقته :

أما الخبر الأول : وهو ما نسب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أنه قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » فانه لا يفسر بظاهره ، لأن القرآن زين بذاته ، ولكن المتأمل يرى أن القراءة المرتلة التى يلاحظ فيها المأثور من القراءات ، وملاحظة المعانى فيها ، فيرفع الصوت فيها نسبياً فى آيات التبشير ، ويقرأ قراءة المتأمل فى الآيات الكريمة الداعية الى التفكير .. فان هذا بلا شك موافق للترتيل الذى أخذناه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومصور للمعانى القرآنية من

غير أن تكون القراءة صياحا نمطياً ، ومن غير أن تكون تلحينـــاً أعجمياً ، ولينا في الإلقاء لا يسوغ •

وانا نحسب أن تزيين القراءة لا يكون الا بالترتيل ، فالتزيين فى كل شىء بما يناسبه ، وذلك واقع فى المعنويات كما هو واقع فى الحسيات ، والأشــــياء والأشخاص •• ولا شك أن القراءة تكون بما يناسب معانى القرآن ، وموضع العظة والاعتبار والتأمل فيـــه ، ولا يمكن أن يفسر التزيين بالتلوى فى الحروف والـــكلم ، فان ذلك شين ، وليس بزين •

ولنرجع الى تفسير البراء الذى روى هذا اخبر ، فقد قال فى تفسيره له : زينوا القرآن بأصواتكم ، أى الهجوا به ، واشغلوا به أصواتكم ، واتخذوه شعاراً وزينة ، وقيل ان معناه الحض على قراءة القرآن •

وان هذين التفسيرين ، وان كانا غير ما فسرنا به الخبر ، يتلاقيان مع تفسيرنا ولا ينافرانه ، وهما يتفقان مع غيره من الأحاديث فى هذا الباب •

٢٥٦ — ولننظر فيما أخرجه مسلم من قول للنبى عليه السلام ، اذ قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » • فقد فسره بعض العلماء بأن التغنى هنا تحسين الصوت بقراءة القرآن ، بأن يعود لسانه النطق السليم من قراءة القرآن باخراج الحروف من مخارجها ، واتباع الترتيل المحكم على النبى عليـــه الصلاة والسلام فى المد والغن والإدغام ، والفصل والوقف ، والوقوف فى موضع الوقف ، ووصل القراءة فى مواضع الوصل ملاحظاً المعانى ، ومدركاً ما يقرأ •• وهذا يتلاقى مع ما روى عن ابن عمر أنه قال : حسنوا أصواتكم بالقرآن ، وما روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « زينوا أصواتكم بالقرآن » •

ولا شك أن الوهم الذى دخل على الذين يقرءون القرآن بألحان الأعاجم ، والذى استنكره أنس بن مالك رسول الله صلى الله عليه وسلم •• هذا الحديث هو العماد الذى يقوم عليه عمل هؤلاء ، ونحن لا نرى فيه ما يؤيد كلامهم •

ان التغنى مصدر غنى يغنى تغنية ، وهو فيما أعتقد غير الغناء ، لأن الغناء القصد الى اسماع غيره ليطرب ، ويتطرب لا ليتعظ ويعتبر • أما التغنى فهو استمتاع المتكلم مما يتكلم به مترنما بالنطق ، مستحباً له مستملحاً ، مستطيباً الكلمات ذواقاً لها ولمعانيها ، ولننزل من مرتبة القرآن السامية الى منحدر الشعر ، فان انشاد الشعر من الشاعر استمتاع بالألفاظ ، ورنة الموسيقى فى الشعر ، يهتز بها مترنماً ، يفعل ذلك ولو لم يسمعه أحد ، ولو لم يقصد الى سماع أحد • وكذلك المؤمن القارىء للقرآن يتذوق ألفاظه ، ويدرك الصور البيانية التى تصدر عن أساليبه ، ويخشع لما يشتمل عليه من عظات وعبر ، ويحس بأن الله تعالى يخاطبه ، وتعتريه روحانية من الألفاظ ونغمها وجلال معانيها •

هذا هو التغنى الذى نفهم أنه خاصة من خواص المؤمنين ، ويفعله الصديقون ، وليس منه ما نسمعه الآن من القراء الذين يطربون ، ويرجعون الحروف ، ويلوون بها الألسنة ، فان هذا غناء وليس مجرد تغنى ، وان هذا النظر يتلاقى مع بعض الروايات •• فقد روى أبو سعيد الحذرى فى قوله عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال : كانت العرب تولع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها ، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هجيراهم مكان الغناء ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أى يشبع نفسه بحسن ترتيله وتلاوته ليكون هو الذى يستمتع به من كلامهم •

وقد روى سفيان بن عيينه عن سعد بن أبى وقاص ان تغنى هنا بمعنى استغنى ، وان بعض المعاجم يفسر التغنى بمعنى الاستغناء ، فقد جاء فى الصحاح تغنى الرجل بمعنى استغنى ، فمعنى النص الشريف : ليس منا من لم يستغن بالقرآن عن أساطير الأولين ، وأقاصيص القصاصين •

وقد أنكر الشافعى تفسير التغنى فى الحديث بالاستغناء ، وتابعه فى ذلك ابن جرير الطبرى ، وقال الطبرى : ان التغنى هو حسن الصوت بالترجيع ، وهذا التفسير يتلاقى مع قولنا الذى أسلفناه ، وهو التمتع بحلاوة الألفاظ القرآنية ،

ورنين أساليبها بترجيع بعض الجمل والـكلمات من غير قصد الى التطريب ، وايقاظ المشاعر بغير نغم القرآن ، بل بنغم الألحان الذى يمنع ذكر الله تعالى ، والخشوع الذى وصف الله القرآن به ، اذ قال سبحانه : « مثانى تقشعر منـه جلود الذين يخشون ربهم » (١) •

ومهما تكن الأقوال فى معنى التغنى • فمن المتفق عليـه بين الموسعين والمتمسكين ، كابن المسيب ومالك وابن حنبل ، وغيرهم ، أن القراءة بالألحـان والتطريب والغناء لا تجوز ، لأنه يخل بمقام القرآن ويوجه النـاس الى الطرب بالألحان بدل الاستفادة بمواعظ القرآن ، وهدايته ، وتعرف أحكامه ، وما فيه من أدلة التوحيد ، وأحوال الأقوام مع الرسل السابقين •

وانه يجب فهم التغنى على ضوء قوله صلى الله تعالى عليـه وسلم ، وعلى ضوء ما عرفناه من قراءة النبى عليه الصلاة والسلام وترتيله الذى علمه الله تعالى اياه ، وعما أثر عن السلف الصالح •

وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « أحسن الناس صوتاً من اذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى » • فهل هذا يتفق مع التلوى بالألفاظ ، وعدم مراعاة المعانى ، وانما تراعى الألحان ، والناس فى طرب بسماعها ينصتون اليها ويطربون ، ولا تنالهم الخشية من خطـاب الديان لهم بالقرآن الـكريم •• كلام الله تعالى بيـانه •

٢٥٧ — ولننتقل بعد ذلك الى حديث أبى موسى الأشعرى ، وثنـاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد روى بعبارات مختلفة منها هذه العبارة التى قالها بعد أن عبر النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم باستحسانه لقراءته • فقـد قال رضى الله تعالى عنه للنبى عليه الصلاة والسلام : « لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبرته لك تحبيرا » • والتحبير هو التزيين ، وهو كما قلنا فى كل شىء بما يناسبه ، فالذى يناسب القرآن الـكريم الترتيل المصور للمعانى القرآنية المربى للخشوع ، والعظة والاعتبار ، والذى يجعل المعانى القرآنية تنساب فى انفوس •

---

(١) الزمر : ٢٣

وقد رويت عبارة أبى موسى الأشعرى بنص آخر يوضح الرواية الأولى ، ولا يخالفه ، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « انى لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحسنت صوتى بالقرآن ، وزينته ورتلته » .

فهذه الرواية تدل على أن التحبير والتحسين كان فى الصوت ، لا فى القرآن الكريم ، وأن ذلك التحسين كان فى دائرة الترتيل . ولا شك أن حسن الصوت ، اذا اقترن بالترتيل ، ولم يتخالفا ، ولم ينحرف القارىء الى ألحان الأعاجم ، والى الغناء وتطريب السامعين ، ليتمايلوا يمينا وشمالا ، ويقرنون ذلك بآهات مهوشة تشبه البكاء والتصدية ، كما كان أهل الجاهلية .

ولننتقل من بعد ذلك الى ما روى عن عقبة بن عامر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تعلموا القرآن وغنوا به ، واكتبوه » .

وقد قالوا انه صحيح السند ، وان التغنى المذكور فى الحديث السابق ، هو مصدر غنى ، وقد فسرنا التغنية فى الحديث بأنها ليست الغناء الذى يقصد القارىء أن يعتبر القرآن أغنية يطرب بهـا السامعين ، انما التغنى عمـل نفسى للقارىء التالى للقرآن ، بأن يشبع الكلمات ويستمتع بها ، وبنغمها ، ويراجع ويراجع فى كلماته متذوقا لها ، مدركا لكل معانيها ، متفهما ، محبـا للقرآن ، غير متململ ولا متكلف .. وقد شرحنا ذلك من قبل .

وكتابة القرآن الكريم أمر مطلوب ، وقد كان النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم ، يملي على الكتاب ما حفظ من ربه ، وما أن انتقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى الا كان القرآن الكريم كله مكتوبا مسـطورا ، ومحفوظا ومرتلا متلوا تلاوة نبوية .

وان الأمر بالكتابة لا يدل على الاستغناء بهـا ، فانه ان حفظ الحـروف والكلمات لا يروى الترتيل الذى نزل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . ولذلك كان لابد من الإقراء على مقرىء ليحفظ المتواتر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، الذى علمه ربه الترتيل ، كما تواتر القرآن المحفوظ ، وكما قال تعالى :

« انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » (١) •

٢٥٨ — من هذا كله يتبين أن القراءة الصحيحة تكون بترتيل القرآن الكريم ، لما علمه الله تعالى لنبيه فى قوله تعالت كلماته : « فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » (٢) •

وان الإعتبار فى القراءة التى يكون فيها التزيين ، يثبت بأن يمتلىء قلب القارىء بالخشوع ، ويلقى به فى نفوس السامعين ، فهذا هو القياس المستقيم ، ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما روينا من قبل : « أحسن الناس صوتا من اذا قرأ ريته يخشى الله تعالى » •

وان قراءة القرآن لا تجوز الا باخراج الحروف من مخارجها ، والمد فى موضعه ، والغن فى موضعه ، والوصل حيث يقتضيه المعنى ، والوقف حيث توجبه المعنى •• فذلك هو الترتيل •

ولقد روى حذيفة بن اليمان أن النبى صلى الله تعالى عليه سلم قال : « اقرءوا القرآن بلحون العرب ، وأصواتها ، واياكم ولحون أهل الفسق ، ولحون أهل الكتاب ، وسيجىء بعدى قوم يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح ، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم ، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » •• رواه الترمذى فى نوادر الأصول من حديث حذيفة •

ولقد سمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مؤذنا يطرب ، ويردد فى الحروف ، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الأذان سهل سمح ، فاذا كان أذانك سمحا سهلا ، والا فلا تؤذن » •• رواه الدارقطنى فى سننه •

واذا كان انبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد منع الغناء فى الأذان ، فأولى ثم أولى أن يمنعه فى القرآن ، فهو كتاب الله تعالى وخطابه ، وهو الذى رتله ، كما صرح بذلك ، اذ قال فيما تلونا من قبل : « ورتلناه ترتيلا » (٣) •

ويظهر أن مصر من قديم الزمان حملت بدعة القرآن بألحان الأعاجم ، فقد قال القرطبى فى كتابه (أحكام القرآن) : بعد أن بين أن الترديد ، —

---

(١) الحجر : ٩ — (٢) القيامة : ١٨ — ١٩
(٣) الفرقان : ٣٢

على مقتضى المعنى ، وما يومىء اليه النص القرآنى ، قال : « فان زاد على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام ، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين [illegible] أمام الملوك والجنجائز ، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز ، ضل سعيهم ، و[illegible] عملهم ، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله ، ويهونون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا فى التنزيل ما ليس فيه جهلا بدينهم ، ومروقا عن سنة نبيهم ، ور[illegible] لسير الصالحين فيه من سلفهم ، ونزوعا الى ما يزين لهم الشيطان من أعمالهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فهم فى غيهم يترددون ، وبكتاب الله يتلاعبون ، وانا لله وانا اليه راجعون ، لـكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون » .

وان العدوى قد انتقلت من مصر الى البلاد العربية ، ومازالت العدوى تسرى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

اللهم اغفر لنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل ويفعل السفهاء منا ، وألهمنا المحافظة على قرآنك الـكريم من عبث العابثين ، ولهو اللاهين ، وافتراء المفترين .. وانك أنت وحدك الحافظ لـكتابك ، وانه لمحفوظ ان شاء الله تعالى .

« تم بحمد الله وعونه »

بيان ما اشتمل عليه الكتاب

٣ — الافتتاحية

٧ — تمهيد

١١ — معجزة القرآن وعيسى

١٣ — الباب الأول

١٥ — نزول القرآن ١٦ — حكمة نزوله منجما ١٨ — المكى والمدنى

٢٠ — كتابة القرآن وجمعه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

٢٣ — جمع القرآن بعد الرسول ٢٤ — طريقة الاستيثاق من النص

٢٦ — عمل زيد ومن معه لم يكن كتابة مبتدأة ، بل هو المكتوب فى عهد الرسول

٢٨ — جمع القرآن فى عهد عثمان ، وحديث نزول القرآن على سبعة أحرف

٣٦ — تحريف غير المصحف الامام وغير مانسخ منه

٣٧ — ترتيب الآيات والسور .

٣٩ — قراءات القرآن

٣٩ — قراءات القرآن ليست الأحرف السبعة ، بل هى على حرف واحد ووجوه الاختلاف فى القراءات

٤١ — كانت القراءات قد تلقاها الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم

٤٣ — القراء ٤٤ — شروط القراءة المؤاترة ٤٦ — وجوه القراءات

الباب الثانى

٥٠ — اعجاز القرآن

٥٠ — أحوال العرب فى تلقى رسالات النبيين ، البداوة والحضارة عند العرب ، والفصاحة عندهم

٥٢ — مآثر العرب فى البيان — اعجاز القرآن ببيانه

٥٤ — تلقى العرب للقرآن

٥٥ — دهشتهم عند تلقى القرآن ، كلام فصائحهم فى القرآن مع جحودهم

٥٦ — كلام الوليد بن المغيرة ٥٧ — فرارهم من سماعه

٥٨ — لم يحاول أحد من أهل البيان محاكاته ، رجذبه لهم

٥٩ — تفاهة مانقل فى محاكاته

٦٠ — سر الاعجاز

٦٣ — الصرفة وبطلانها ٦٤ — مصدر القول بالصرفة هندى

٦٥ — بعض الكلاميين أثار القول بالصرفة

٦٦ ابراهيم النظام قالها ، رد الجاحظ عليه — خطأ ابن حزم فى ذلك وسببه

٦٨ — موازنة الباقلانى ، وبين القرآن وأبلغ كلام — القول بالصرفة كالقول بأنه سحر يؤثر
٧٠ — الرد على أهل الصرفة هو الباعث على التأليف فى اعجاز القرآن بالبيان بعض من كتبوا وكتبهم ، ومقام كل كتاب .

٧٢ — وجوه الاعجاز

٧٣ — مايعده صاحب الشفاء من وجوه اعجاز القرآن
٧٤ — ماذكره القرطبى من وجوه الاعجاز
٧٦ — ملاحظتنا على ما ذكره القرطبى
٧٨ — الوجوه وجهان : البيان ، وماأشتمل عليه من معلومات
٧٩ — الذوق العربى ونقد البيان ، وذوقه ٨١ — وجوه الاعجاز البلاغى
٨٣ — الفاظ القرآن وحروفه عبد القاهر يقرر البلاغة فى الاسلوب لافى الكلمات والحروف ، بيان رأيه ٨٤ — أدلته
٨٥ — الباقلانى يرى أن للكلمات فصاحة وهو رأى المتأخرين
٨٧ — الجمع بين النظريتين ٨٩ — نظرات فى ألفاظ القرآن
٩٣ — توجيه النظر الى الالفاظ فى فى قوله تعالى . « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ....
٩٧ — توجيه النظر الى فى قوله تعالى . « والصبح اذا تنفس »
٩٩ — التنبيه الى ألفاظ الآية « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا »
١٠٣ — التنبيه الى الالفاظ وصورها فى قوله . « ان شجرة الزقوم طعام الاثيم

١٠٦ — الكلمة مع أخواتها والعبارات مع رفيقاتها

١٠٨ — الأسلوب القرآنى ١١٠ — التآلف فى الالفاظ والمعانى
١١٢ — أمثلة من التآخى فى الالفاظ والمعانى فى آيات القرآن — التنبيه الى تآخى المعانى والعبارات فى قوله تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا والاشارات البيانية فيها
١١٧ — صورة بيانية للطمع والشح ثم الندم فى قوله : انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة »
١٢٥ — النفس الفرعونية فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض »
١٣١ — أسرار المعانى القرآنية فى قصة فرعون ، وعناصرها .
١٣٣ — قوة فى الاسلوب من كلمات متآلفة — كلام الخطابى فى ذلك ، ورأينا فيه
١٣٦ — التلاؤم فى الاسلوب .

١٣٨ — تصريف البيان

١٣٨ — النصوص الدالة على تصريف البيان

١٤٠ — التصرف فى الالفاظ والمعانى ، التصرف فى السور بين القصار والمتوسطة والطوال وحكمة ذلك .

١٤٢ — التكرار فى القرآن

١٤٣ — تكرار القرآن من تصريف البيان — رأى الجاحظ فى ذلك الآيات المثبتة للوحدانية فيها اطناب .

١٤٥ — قصص القرآن من الناحية البيانية

١٤٥ — قصص القرآن حكاية لأمور واقعة ١٤٦ — قصة ابراهيم ، وما فيها من معان ١٤٨ — تدرج النفس الانسانية فى الاتجاه لطلب الحقيقة ١٥٠ — رفق القول مع أبيه ١٥١ — قصة موسى — ميلاده ، وما فيه من خوارق ، ونشأته ١٥٣ — بصيرته ونفوره من حكم فرعون ١٥٤ — لقاؤه بشعيب فى مدين — حياته فى الأسرة ١٥٥ — تأهبه للقاء فرعون ولقاؤه ١٥٧ — دعوته فى أوساط الشعب ١٥٩ — خروج بنى اسرائيل وموسى من مصر ، وغرق فرعون . ١٦٠ — فرعون كان يذكر جنوده ككل الطغاة ١٦٢ — موسى مع بنى اسرائيل ١٦٣ — خص الله بنى اسرائيل بنعم فكروها ١٦٦ — بنو اسرائيل وعجزهم عن دخول الأرض المقدسة ١٦٨ — كيف تتربى الأمم .

١٦٩ — قصص القرآن لون من تصريف بيانه

١٦٩ — العبرة فى قصص القرآن ١٧٠ — التصرف البيانى فى القصص القرآنى ١٧١ — الدعوة الى التوحيد ، والعزاء الروحى ١٧٢ — ابطال الوهية المسيح ١٧٣ — كلام المسيح فى الوحدانية ١٧٤ — الحث على المعاملة الطيبة فى القصص القرآنى — قصة شعيب ١٧٦ — ميزان العدالة فى الحكم فى القصص القرآنى ١٧٧ — بيان بعض الأحكام فى القصص القرآنى — الحسد — أصل الجرائم فى بيان قصة قابيل وهابيل ١٧٩ — شريعة القصاص العادل أزلية ١٨١ — أسلوب القصص فى القرآن — الأسلوب البيانى فى قصة موسى من مولده الى بعثه — الأسلوب البيانى فى قصة نوح ١٨٩ — القصص الحق المصور فى قصة أهل الكهف — المشهد الأول فتية آمنوا .

١٩٢ — التصرف فى صور العبارات البيانية

١٩٢ — الاستفهام والنفى ١٩٤ — الاستفهام الانكارى — أمثلة كثيرة فى الاستفهام ١٩٥ — الاستفهام للتسوية ١٩٧ — الاستفهام للتنبيه كثير فى القرآن ٢٠٠ — صورة استفهام لم يكن معروفا عند العرب ٢٠٤ — نفى النفى اثبات .

٢١٢ — الحقيقة والتشبيه والاستعارة فى القرآن

٢١٢ — معنى الحقيقة فى البيان ٢١٣ — استعمال الحقيقة فى القرآن كثير ٢١٤ — كلام الباقلانى فى ذلك ٢١٥ — آيات الأحكام لا مجاز فيها ، وفيها اعجاز

البيان ٢١٩ — التشبيه فى القرآن ٢٢٠ — تقسيم التشبيه للغرض منه ٢٢١ — تشبيه ما لم يقع بالمحسوس ٢٢٤ — تشبيه ما لم تجربه العادة بما تجرى به العادة ٢٢٦ — تشبيه غير المعلوم بالمعلوم ٢٢٨ — تشبيه ما هو أضعف فى الصفة بما هو أقوى ٢٢٩ — صوير المعانى بمحسوسات ٢٣١ — تشبيهات القرآن من الاعجاز ٢٣٣ — صور من الاستعارات فى القرآن ٢٣٤ — الاستعارة التمثيلية ٢٣٦ — الاستعارة فى قوله تعالى . واشتعل الرأس شيبا ، وغيرها من الآيات الكريمات المشتملة على الاستعارة التمثيلية ٢٣٩ — اللغة العربية لا تتسع للمعانى النفسية التى يشتمل عليها القرآن ، فيستعان بالاستعارة ٢٤٠ — أمثلة كثيرة من آيات القرآن فى ذلك ٢٤٢ — المجاز والكناية — الفرق بين الاستعارة والمجاز المطلق والكناية الأمثال ٢٤٤ — الأمثال القرآنية من قبيل الاستعارة التمثيلية .

٢٤٥ — تعريف الكناية ٢٤٦ — المجازات والاستعارات والكناية ليست وحدها سر الاعجاز ٢٤٨ — الكنايات فى القرآن ٢٤٩ — أمثلة من كنايات القرآن ٢٥١ — تقسيم علماء الأصول دلالات القرآن الى دلالة العبارة ، ودلالة الاشارة ، دلالات الاشارة من قبيل الكنايات ، أمثلة كثيرة من القرآن عليها ٢٥٤ — الاشارات فى قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » .

٢٥٥ — نظم القرآن وفواصله

٢٥٦ — نظم القرآن ليس من أى نوع من النظم الذى يعرف عند أهل البيان ٢٥٧ — ما يشتمل عليه بديع نظمه ٢٥٨ — كلام الباقلانى فى ذلك .

٢٦٠ — أمثلة من كتاب الله لا يشبه فيها السجع ولا القافية ، ولكن له فواصله ليست منها ٢٦٣ — التلاؤم فى نغمات الحروف — صور بيانية فى كتاب الله معا ٢٦٥ — الفواصل ، تعريفها ٢٦٧ — مقاطع تتحد فيها الحروف ، ومقاطع لا تتحد ٢٦٨ — الخلو من المقاطع مع تلاؤم النغم ٢٧٠ — هل فى القرآن سجع ، الخلاف بين العلماء فى وجود سجع فى القرآن رأى الباقلانى وأبى هلال العسكرى أنه لا سجع ، ابن سنان يقرر أن فى القرآن سجعا ٢٧٢ — حجج الذين يثبتون أن فى القرآن سجعا ٢٧٤ — حجج الذين نفوا السجع عن القرآن ٢٧٥ — الفواصل فى رأى المرحوم الكاتب المؤمن مصطفى الرافعى ٢٧٧ — التعليق عليه .

٢٧٩ — الايجاز والاطناب فى القرآن

٢٧٩ — تعريف الايجاز والاطناب ، ومقامهما ٢٨٠ — أمثلة للاطناب من القرآن ٢٨١ — الاطناب بكثرة الألفاظ وكثرة المعانى والايجاز بكثرة المعانى وقلة الألفاظ ٢٨٣ — مواضع الايجاز ومواضع الاطناب وأمثلة على ذلك من الآيات القرآنية ٢٨٤ — الاطناب فى آيات الأحكام ٢٨٧ — التكرار لغير مقصد ليس من الاطناب — ما يظهرانه تكرار وليس تكرارا ٢٨٩ — أقسام الايجاز — ايجاز

القصر — ايجاز الحذف ، أمثلة لايجاز القصر ، وجوامع الكلم ٢٩٤ — الايجاز في قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » ومثلها كثير .

٢٩٩ — طوال السور وقصارها

٢٩٩ — تكوين الآيات والسور ثابت بالوحي ، الحكمة في كون بعض السور قصارا ، وبعضها طوالا ٣٠٠ — أوصاف قصار السور ٣٠١ — قصار السور تشمل جزءا من ثلاثين ٣٠٢ — القصار وتيسير الحفظ ٣٠٤ — آيات تطول ، وآيات تقصر أمثلة من القرآن الكريم ٣٠٥ — ليس المراد من الآيات أن تكون الألفاظ أكثر من المعاني ٣٠٦ — قرب الفواصل في الآيات القصار ٣٠٧ — الصور البيانية في الآيات القصار .

٣٠٩ — الاعجاز بذكر الغيب

٣١٠ — أخبار النبيين السابقين في القرآن ، وما يدل عليه من اعجاز ٣١١ — الأخبار عن أمور وقعت في المستقبل .

٣١٢ — جدل القرآن واستدلاله

٣١٣ — موازنة بين أبلغ خطب العرب والقرآن ٣١٥ — منهاج القرآن في الاستدلال ٣١٦ — الاستدلال بالتعريف ٣١٧ — استدلال بالتقسيم وأمثلته ٣١٩ — التعميم ثم التخصيص ، وأمثلته في القرآن ٣٢٠ — الاستدلال بالعلة والمعلول وأمثلته في القرآن ٣٢٢ — الاستدلال بطريق المقابلة أمثلة من القرآن ٣٢٥ — الاستدلال بالتشبيه والأمثال ٣٢٩ — الاستدلال على البعث بآية صاحب القرية ٣٣٠ — أسلوب جدل القرآن ، قرب جدل القرآن وسهولته ، جدل القرآن الأدلة والمناهج ما يقنع الناس جميعا ٣٣٧ — مسلك القرآن في سوق الأدلة ٣٣٨ — الأقيسة الاضمارية ٣٣٩ — الاستدلال في قصة ٣٤١ — قياس الخلف ، أمثلة في القرآن الكريم ٣٤٢ — الاستدلال بالسبر والتقسيم ٣٤٤ — الاستدلال بالتمثيل ، وأمثلة في القرآن ٣٤٥ — جدل القرآن لا يتجه الى الافحام المجرد بل الى الاقناع والتوجيه ٣٤٧ — توجيه نظر المجادل الى الحقائق ٣٥٠ — موازنة الغزالي بين جدل القرآن وطريقة المتكلمين

٣٥٢ — علم الكتاب

٣٥٣ — القرآن فيه علم النبوة ٣٥٤ — العلم بمنشيء الكون ٣٥٦ — الآيات الكونية اثبات الوحدانية ٣٥٨ — علم الرسالة الالهية والمعجزات ٣٦٠ — معجزات الرسل ، من نوح الى ابراهيم ٣٦٤ — معجزات موسى ٣٦٧ — خوارق العادات على يد سليمان وحكمة ذلك ٣٦٨ معجزات عيسى ، وحكمة وجودها على يد عيسى ٣٧١ — خوارق العادات في قصة أهل الكهف ٣٧٣ — البعث واليوم الآخر ، والرد على منكريه ٣٧٧ — يوم القيامة ٣٧٨ — الميزان والحساب ٣٨٠ — الجنة النار ٣٨١ — أوصاف النار ، أوصافه

الجنة ٣٨٣ — البعث والجنة والنار أمور حسية ٣٨٥ — علم الحلال والحرام ٣٨٦ — العدالة فى القرآن ٣٨٩ — العدالة الدولية ٣٩١ — الأحكام الفقهية فى القرآن — العبادات ٣٩٣ — الكفارات ومرماها ٣٩٥ — الأسرة فى القرآن ٣٩٨ — تعدد الزوجيات فى القرآن وبواعثه ٤٠٠ — أحكام الأولاد واليتامى ٤٠٤ — انهاء الحياة الزوجية غير الصالحة ٤٠٧ — أو الخلع ٤٠٧ — الطلاق ثلاث مرات ٤٠٨ — العدة ٤٠٩ — حقوق المرأة وواجباتها ٤١٠ — الأسرة فى الاسلام ممتدة ٤١٣ — الميراث فى القرآن ٤١٦ — توزيع القرآن فى الميراث ٤٢٠ — الزواجر الاجتماعية فى القرآن ، القصاص ٤٢١ — القصاص شريعة النبيين أجمعين ٤٢٣ — الحدود لبناء مجتمع فاضل لا فساد فيه — الحرابة ٤٢٥ — السرقة ٤٢٦ — التساوى بين العقوبة والجريمة فى الحدود ليست فى الفعل والعقاب ، بل بين اثر الفعل والعقاب — عقوبة الزانى ٤٢٩ — عقوبة العبد على النصف من عقوبة الحر ، لأن العقوبة تسير مطردة من حيث الصغر والكبر ، فعقوبة أصغر من عقوبة ٤٣٠ — حد القذف برمى المحصنين والمحصنات بالزنى ٤٣٢ — اللعان ومغزاه ٤٣٤ — حد الخمر ومرماه ٤٣٦ — حكمة التحريم ٤٣٨ — البغى — البغاة والخوارج ٤٤٠ — المعاملات المالية — أساسها العدالة ٤٤٢ — كتابة الديون ٤٤٣ — الربا فى القرآن ٤٤٤ — ابتداع القول فيه ٤٤٦ — الرد على المبتدعين — ربا القرآن يشمل القروض الاستهلاكية والقروض الاستغلالية ٤٤٩ — تحريم الربا نظام اقتصادى ٤٥٢ — العلاقات الدولية فى الاسلام — الأصل السلم ٤٥٤ — شرعية الجهاد ٤٥٦ — لا يصح حرب من يريد السلام ٤٥٧ — القتال لرد الاعتداء وحماية الدعوة . ٤٦٢ — العلاقات فى السلم والحرب ، العدالة هى الأساس ٤٦٣ — الوفاء بالعهود .

٤٦٦ — علم الكون والانسان

٤٦٦ — توجيه النظر الى الكون فى القرآن ٤٦٩ — علم الكون فى القرآن ٤٧٠ — الانسان فى القرآن ٤٧٢ — الآراء فى التكوين الانسانى فى القرآن ٤٧٣ — النفس — الانسانية فى القرآن ٤٧٥ — الحسد ٤٧٦ — النفس المطمئنة فى القرآن ٤٧٧ — قصة يوسف ، دراسة نفسية فى الأسرة ، الحنان الأبوى ، والحسد بين أبناء العائلات ٤٨٦ — المجتمع المصرى فى عصر يوسف .

٤٩٢ — تفسير الكتاب

٤٩٢ — من العلماء من يرى أن القرآن كتاب مبين لا يحتاج الى تفسير ، بيان وجهة نظرهم ٤٩٣ — لابد من التفسير ٤٩٥ — موضع التفسير ٤٩٦ — لابد من تفسير يترجم الى اللغات ٤٩٨ — مناهج التفسير — مصادر التفسير ٤٩٨ — التفسير بالسنة وأقسامها ٥٠٠ — التفسير بالمأثور عن الصحابة ٥٠٢ — أقسامه ٥٠٤ — ما اثر عن التابعين ، القصاص ٥٠٥ — التابعون

والاسرائيليات فى التفسير ٥٠٦ — تفسير القرآن بالرأى ٥٠٧ — الاختلاف فى ذلك ، حجج الذين منعوا التفسير بالرأى فى القرآن ٥١٠ — حجج الذين اخذوا التفسير بالرأى ٥١٢ — الظاهر والباطن فى القرآن ، والكلام فى ذلك ٥١٤ — باطن القرآن لا يخفى على أحد ٥١٦ — الباطن عند الغزالى .

٥١٨ — ترجمة القرآن

٥١٨ — القرآن هو اللفظ والمعنى ٥١٩ — ما ينسب الى أبى حنيفة من اعتبار الترجمة قرآن ، وبطلان نسبته ٥٢١ — ترجمة القرآن غير ممكنة ٥٢٣ — تفسير يترجم

٥٢٦ — الغناء بالقرآن

٥٢٦ — القرآن نزل مرتلا بترتيل الله تعالى — ابتداع القراءة بألحان الأعاجم فى العصر ، رد الصحابة والتابعين لذلك ٥٣٠ — الأخبار الواردة فى تزيين القرآن بالأصوات ، وتزيين الأصوات ، العبارات النبوية ٥٣١ — معانيها ٥٣٣ — الفرق بين الغناء والتغنى ٥٣٥ — التغنى الجائز ٥٣٦ — مصر وما قال القرطبى فى قرآنها ٥٣٨ — الفهرس .